



من الشرق والغرب

الفتوحات العربية الكبرى

بقتلهم جيون باجهوت جلوب

تعريب وتعليق
حنري عمو



من الشرق والغرب

الفتوحات العربية الكبرى

بمقام
جنون باموت هلوب

تدوين وتحرير
غيتري صمان

« على الزمن ألا يمحو الماضي من تاريخ الإنسانية ، وعلينا
ألا ننكر على الأعمال العظيمة الرائعة حقها في الشهرة »
هيودتس

تقدمة العرب

عندما صدر هذا الكتاب في لندن قبل زهاء شهرين أو ثلاثة تساءلنا - نحن الذين عرفنا مؤلفه جلوب عندما كان في بلدنا الحبيب الاردن ، يعمل رئيسا لأركان جيشنا وينفذ عن طريق مركزه هذا مخطط بلاده الاستعماري في الوطن العربي كله - عما قصده جلوب من كتابه . وقلنا لأنفسنا ترى هل مل جلوب من كثرة ما شوّهه قولا وعملا في تاريخنا الحديث فأراد أن ينتقل الآن الى تاريخنا القديم يعمل فيه معاول الهدم والتشويه ، لينث سُموم حقه الاسود على الشعب الذي مل الاعيى الاستعمارية وحيله الماكرة في تنفيذ مخطط بلاده . فأخرجه من بلادنا شبه مطرود مما حمّله حقدا أسود على كل ما هو عربي ، بالإضافة الى ما كان يحمله في الماضي من عواطف عنادية للعرب بسبب تأثره بسياسة بلاده الاستعمارية .

وصدر الكتاب . وطلعت صحف الغرب تلقاه بالاطراء والتقريظ فجلوب في نظرها خبير كبير في الشؤون العربية بل لعله أعظم هؤلاء الخبراء فلقد صرم زهاء ثلاثين عاما أو يزيد من عمره ، يجوب الصحاري العربية وينتقل بينها مختلطا ببدوها ومتحكما في حضرها وناشرا سلطان بلاده على ربوعها . وقد تعلم اللغة العربية ولاسيما لهجات البدو منها فأجادها وعاش مع العرب في خيامهم يشاركونهم طعامهم . وينام نومهم ملتحفا السماء ومفترشا الغبراء ثم بعد أن عاد الى بلاده متقاعدا مطرودا جعلت منه الدوائر المسئولة خبيرا تشاوره في كل ما يمت الى البلاد العربية بصلة . وصيرت منه الصحافة اخصائيا ترجع اليه في كل مشكلة تتعلق بالعرب ، تسأله الرأي والتعليق . واغتتم هو بدوره هذه الفرصة فأخذ ينشر المقالات تلو المقالات ، ويصدر الكتاب تلو الكتاب وكلها عن تجاربه واختبارات في الوطن العربي . وما مر به من خواطر وذكريات راعى فيها جانب التضليل وتشويه الحقائق ليحجى ما يسرده معبرا عن حقه الاسود ومنسجما مع سياسات بلاده الاستعمارية وغاياتها .

ولكن عندما صدر هذا الكتاب . وقرأنا عنه في صحافة الغرب ما

قرأناه من اطراء وتقريظ وثناء، خيل اليّنا - وان كنا لانعرف عن جلوب أنه مؤرخ أو بحاث أو متعمق في دراسة التاريخ الاسلامي - أنه قد يكون في كتابه هذا قد بحث تاريخ العرب من الزاوية العسكرية • وحلل أحداث هذا التاريخ ووقائعه وفسرها على ضوء معلوماته العسكرية وخبرته بالبلاد التي وقعت فيها هذه الاحداث • وقلنا لعل جلوب قد عثر في بعض الكتب الرومانية أو البيزنطية على أشياء نجهلها أدرجها في كتابه وربط بينها وبين روايات التاريخ العربي ليخرج لنا من كل ذلك بشيء جديد • وتوقعنا بعد ما قرأنا من تقريظ لهذا الكتاب أن نجد فيه منحنى جديدا في قراءة التاريخ العربي مستمدا من الوقائع العسكرية ، وقائما على أساس المفاهيم في فنون الحرب ، من سوقية وتعبوية •

ووصل الكتاب اليّنا فقرأناه • وكلما أوغلنا في قراءته رأينا العجب العجيب فالكتاب مستمد في وقائعه من كتب التاريخ والسير العربية ليس الا ، كسيرة ابن هشام وتواريخ الطبري والبلاذري والحضري • وكل ما فيه من جدة هو الربط بين الاحداث وصوغ قصتها على أساس الاتساق الزمني • مع بعض الاستنتاجات والآراء الخاصة التي لا تتطلب خبرة « جنرال » عسكري ، أو عالم بفنون الحرب وخطتها وانما يمكن أن يصل اليها كل باحث يتوخى فهم الاحداث وتفسيرها •

ولكن أهم ما في الكتاب هي المحاولة البازرة في كل ناحية من نواحيه للتشويه والتضليل ورسم الصور الزائفة التي تشكك القارئ في الشخصيات العربية العظيمة ابتداء من النبي صلى الله عليه وسلم وانتهاء بصغار القادة ، عبورا بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وخالد وأبي عبيدة وعمر بن العاص وسعد بن أبي وقاص وغيرهم • وقد استند في عمليات التشويه هذه على ذكاء نادر في فن التضليل ، وعلي روايات ابتكرها من خياله ، أو وجد أثرا منها في بعض الكتب الصغرى التي وضعها الشعوبيون في مختلف العصور • تنفيذا لغايات لا تقل في مكرها عن الغايات التي ساورت المؤلف وهو يضع كتابه هذا •

ولقد اتضح لنا من قراءة الكتاب ناحية كانت كما أعتقد خافية على الجميع من الذين عرفوا جلوب أثناء عمله في بلادنا • وهي تشييعه لليهود والصهيونية تشييعا كاملا لا شك فيه ولا لبس ولا غموض • واني أقول ان هذه الناحية كانت خفية على الجميع • ذلك لان جلوب كان يتظاهر بحب العرب حبا شخصيا قويا جعل الكثيرين يخدعون به ، فيعتقدون رغم ايمانهم بأن جلوب ينفذ سياسة بلاده الاجتماعية في وطننا وان

اخلاصه لهذه السياسة هو الذى يدفعه أحيانا الى الظهور بمظهر المؤيد لليهود ، يعتقدون انه لو ترك وشأنه لعواطفه الشخصية لكان مع العرب ضد اليهود قلبا وقالبا . ولكن لا حيلة له ، فهو منفذ للسياسة الاستعمارية التى وضعتها فى الاردن حاكما بأمره ، رغم وجود الحكم الوهمى فيه .

لكن كتابه هذا أزال ذلك القناع الزائف الذى وضعه جلوب على وجهه والذى خدع به الكثيرين من سليمى النية من العرب . فهو يظهر فى كتابه مؤيدا لليهود ، كل التأييد وان لم يعلن تأييده هذا صراحة . فهو مثلا يروى قصص اجلاء النبی لليهود من يثرب (المدينة المنورة) ومن خيبر كبنى النضير وبنى قريظة وبنى القينقاع دون أن يذكر الاسباب التى دفعت النبی الى اتخاذ هذه الخطوات ، ومنها ، نقضهم لعهودهم معه وخياناتهم لاتفاقاتهم ومحاولتهم طعن المسلمين فى ظهورهم ابان غزوة الاحزاب وحصار المدينة أو أثناء معركة أحد . على الرغم من وجود اتفاقات معقودة بينهم وبين النبی . أو سعيهم الى اغتيال الرسول ، وما شابه ذلك من الخيانات التى تستحق أكثر من عقوبة الطرد والاجلاء عن الديار لانها تشابه ما قام به رجال « الطابور الخامس » ابان الحرب الكونية الاخيرة . ولا ريب فى أن تجاهل جلوب الحديث عن كل هذه الامور واكتفاءه بالحديث عن اخراج النبی لليهود من ديارهم ، انما هو عمل مقصود لاطهار العرب بمظهر المضطهدين لليهود ، وتصوير النبی صلى الله عليه وسلم على أنه هتلر آخر .

وفكرت طويلا . . هل أنقل هذا الكتاب بما فيه من تضليل وتشويه للتاريخ العربى الى العربية أو لا أنقله . ووصلت الى نتيجة واحدة . وهى أن نقله ضرورة قومية . وضرورة دينية أيضا . فاغفاله وتجاهله أمر لايجوز اطلاقا اذ أنه طبع ووزع فى كل مكان فى العالم الناطق بالانجليزية وقراؤه كثر ، اذ أن جلوب كما قلت يعتبر خبيرا فذا فى الشئون العربية عند الغربيين ، وسيحمل هؤلاء القراء كل ما قاله على محمل التصديق والثقة . ناهيك عن أن أجيالا ستنقضى وسيعتبر هذا الكتاب بعد هامرجا من المراجع لان أحدا لم ينبس فى حينه للرد عليه .

وقلت لنفسى أيضا ان كثيرين من العرب قد يقرءونه فيصدق بعضهم على الاقل ما جاء فيه ، كما قد ينبس عربى فيترجمه ترجمة أمينة دون أن يعلق أو يرد عليه ردا علميا صحيحا . وبذلك يكون المؤلف قد حقق الغاية التى توخاها من وضع كتابه . وهكذا تم العزم على تعريب هذا الكتاب . وتوزيع ترجمته على أوسع نطاق ممكن . مع الرد عليه حيث يقتضى الرد ،

وتصحيح ما فيه من أخطاء وتشويه حيث يتحتم التصحيح ، وتقرر أن يصدر عن دارين للنشر • الدار القومية في القاهرة والمكتب التجارى في بيروت وكلى أمل أن نونق في ترجمة الردود والتعليقات والتصحيحات الى اللغة الانجليزية لتنشر مع الاصل الانجليزى • وبذلك تتحقق الغاية الكاملة من الرد عليه • وبذلك أيضا يتاح المجال لكل قارئ من قراء الكتاب ليرى الحقيقة التى حاول المؤلف اخفاها بذكاء وبراعة • ويحكم على ضوء تفكيره ووعيه على صحتها أو زيفها ، كما نحفظ للأجيال القادمة من القراء وثيقة تبين أن هذا الكتاب قد صدر وصدر الرد عليه احقاقا للحق والحقيقة •

وقد راعيت في التعريب الامانة كل الامانة لأبين لكل قارئ - قديكون لايزال مخدوعا بجلوب- حقيقة هذا الرجل الذى عاش بين ظهرانينا قرابة ثلاثين عاما ، كان فيها المنفذ لسياسة الاستعمار البريطانى فى بلادنا • والمخطط أحيانا لهذه السياسة • وسيكون هذا الدور الذى مثله على مسرحنا موضوع كتاب خاص أعتمزم وضعه فى حلقة « أعمدة الاستعمار البريطانى السبعة فى الوطن العربى » ، وهى الحلقة التى أصدرت منها أول كتاب عن « عبد الله فيلبس » وسأبعه عما قريب باذن الله بالكتاب الثانى وعنوانه « أسطورة لورنس » •

وكلى أمل أن أكون قد حققت الغاية التى توخيتها من تعريب هذا الكتاب الطريف برغم ما فيه من تشويه ، والمهم كل الاهمية برغم كل ما فيه من تضليل •

القاهرة فى ١٥/٦/١٩٦٣

خيرى حماد

« أبرز العرب أنفسهم منذ أيام محمد ، على صعيد
عالمى ، بفضل قوتهم العسكرية وتفوقهم العلمى • ولهذا
لا يقل تفهم شئونهم ضرورة ان لم يزد عن تفهم أى شعب
من الشعوب التى ازدهرت منذ أن سارت الامبراطورية
الرومانية فى طريق الانحلال » •

سيمون أوكل ••• تاريخ العرب

« قد نعجز عن الفهم ••• الا اذا كنا راغبين فى أن
نضع نصب اعيننا حقيقتين اضافيتين اولاهما ما فى
الطبيعة البشرية من تشابه أساسى على مر الدهور
وثانيتهما ما فى الاجواء الانسانية من اختلاف وافتقار
الى التماثل ••• ولازيب فى أن هاتين الحقيقتين توضحان
ما يبدو عند أصحاب الشخصيات المثلى من ايمان ذاتى
موموق وما يصدر عن الجماهير من لاهبالاة يشير اليها
عدم نفاذ التعاليم الدينية لديها بعيدا الى الاعماق الا
فيما ندر ••• »

جى•جى•كولتون-صورة جلوية للعصور الوسطى

مقدمة

بعثت قبل أيام الى رئيس تحرير احدى الصحف بمقال عن بلد عربي
 ضمنته صورة جانبية سريعة عن تاريخ هذا البلد في فقسرتين أو ثلاث
 فقرات . انتقلت منها الى شرح أوضاعه على النحو الذي هي عليه اليوم .
 وقد رد رئيس التحرير المقال الى مرفقا اياه بمذكرة قصيرة قال فيها انه
 على استعداد لنشره اذا حذفت منه مقدمته التاريخية . وأنهى مذكرته
 قائلا : « لم يعد الناس يهتمون اليوم بالتاريخ وكل ما يودون معرفته هو
 رأيك في الوضع السياسي اليوم » . واذا ما حكمنا على الامور على ضوء
 الاخطاء المفجعة التي ارتكبناها في الشرق الاوسط في السنوات الاخيرة ،
 تبين لنا ان هذا الرأي لا يحمله هذا الصحفي وحده ، وانما يسود على
 أوسع نطاق ممكن . وتشتترك فيه حكومتنا مع الرأي العام في بلادنا .

ولعل من الغريب كل الغرابة ، أن يكون هذا هو الواقع في عصر
 يكثر من الحديث عن علم النفس ، وينفق الكثير من الاموال في اعداد
 أطباء التحليل النفسي وتمكينهم من أداء تجاربهم . ولا يقتصر تأكيد الخبراء
 المستمر في هذا الميدان على أهمية خصائص آبائنا واسلافنا التي قد نكون
 ورثناها عنهم . وانما يتعداها الى الأوضاع التي نشأنا فيها والتي أحاطت
 بطفولتنا وصبا . وكثيرا ما سمعنا أن الظروف التي عشناها في الأيام
 الاولى من حياتنا تؤثر على عقلياتنا ما تبقى من هذه الحياة . واذا صح
 ما سمعناه فان مما يثير الدهشة حقا أن نرفض تطبيق هذه الاعتبارات
 نفسها على الامم الاخرى وأن نرفض دراسة تاريخها . في الوقت الذي
 نبذل فيه كل جهد لتفهم الاسباب التي تدعوها الى سلوك ما تسلكه اليوم .

ولو كان للتاريخ من معنى . فان هذا المعنى يجب أن يتناول وبكل
 تأكيد تطور الجنس البشري منذ أيامه الاولى حتى أوضاعه الراهنة . ولضمان
 فهم هذه العملية وادراكها يجب أن يتوافر فيها عنصر الاستمرار والاتصال .
 ولو حصرنا أنفسنا في تسليط أضوائنا الكاشفة على بلد أو بلدين ، وعلى
 عهد أو عهدين ، وقعت فيهما الاحداث بشكل يتفق مع أهوائنا وعقائدا
 وتركنا ما يتبقى من سير تطورها يقبع في غياهب الظلمات ، فان الصورة

التي سنحصل عليها . ستخلو حتما من كل انسجام وتناسق ، ويظل موضوع التطور البشرى كله ، وكأنه لا معنى له . وهى حقيقة يحس بها طلاب المدارس . والاكتفاء بتعلم فترة قصيرة من التاريخ الرومانى ينتهى بالامبراطور أوغسطس، ثم القفز منها الى تاريخ انجلترا ابتداء بعام ١٠٦٦م انكار لفكرة التطور البشرى المستمر كلها . ومع ذلك فان الاغلبية الغالبة من أبناء بريطانيا والولايات المتحدة لم تسمع قط الا فيما ندر شيئا عن امبراطورية البيزنطيين أو الفتوحات العربية . ولكننى أرى ان القصة التي سأسردها فى هذا الكتاب تنطوى على مفتاح من المفاتيح الرئيسية لتفهم العالم المعاصر الذى عاد المسلمون يلعبون فيه دورا أساسيا بارزا .

ولقد واجه مؤرخو الفتوحات العربية الاولى مشاكل عدة من النوع الذى يقطع الانفاس حله . فعندما اندفع العرب فى القرن السابع للميلاد من جزيرتهم ليقيموا امبراطورية . كانوا لا يزانون بوجه عام خامات غير مصقولة ، تجهل القراءة والكتابة . ولما كان جل اهتمامهم منصرفا الى العمل ؛ فقد قاتهم أن يدونوا ما عملوه بل لم يكلفوا أنفسهم عناء تدوينه . وكان أبناء الجزيرة العربية ، هم وحدهم الذين قاموا بهذه الفتوحات العظيمة الاولى ؛ وكان جلهم من أبناء البادية الرحل . أما الشعوب التي فتحوها بلادها فكانت فى غالبيتها غير عربية . وكان معظمها وارثا لحضارات عريقة تليدة وظل أبناء الجزيرة يحتلون مركز الصدارة فى الامبراطورية العظيمة التي أقاموها طيلة المائة عام الاولى بعد الفتوحات (١) . ولكن مع انقضاء هذه المدة ، فقد المحتلون العرب الاصليون مكانتهم بتأثير أحد هاملين اما عامل الإقامة فى البلاد المحتلة والتزاوج مع أهلها المتباينى الاجناس ، والضياع وسط هذه الشعوب المختلفة أو عامل البقاء على حياة البادية فى الجزيرة العربية وما يتبع هذه الحياة من جمود ، ومن عزلة عن مراكز النشاط والحياة فى الامبراطورية التي أقاموها .

فلقد انتقل السلطان الى الخلافة العباسية فى عام (٧٥٠) ميلادية . أى بعد مائة وثمانية عشر عاما من وفاة محمد . ومنذ ذلك التاريخ . وبعد

(١) اعتقد أن تحديد هذه المدة بمائة عام خطأ تاريخى وقع فيه المؤلف فالمعروف ان عهد الفتوحات العربية بدأ بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فى سنة (٦٣٢) ميلادية . والمعروف ان السيطرة العربية على الامبراطورية الاسلامية ظلت قائمة بشكل كامل حتى بداية عهد الخليفة العباسى المأمون فى عام (٨١٣) ميلادية عندما شرع الامام فى التدخل فى شئون الامبراطورية ويتبين من هذا ان السيطرة العربية المطلقة ظلت قائمة (١٨١) عاما لا مائة عام كما قال المؤلف . (العرب)

نقل العاصمة الى بغداد ، اكتسبت الامبراطورية طابع الشعبية ولم يعد أساسها القومية العربية وانما الاسلام . ولم يظهر المؤرخون (العرب) الكبار الا بعد نحو قرنين من وفاة النبي وبعد أن تحولت السيطرة في الامبراطورية الاسلامية من أيدي العرب الى أيدي الشعوبيين .

ومن هنا نستطيع القول بأن وجهات نظر هؤلاء المؤرخين كانت اسلامية أكثر منها عربية . ويضاف الى هذا أن أيا من المؤرخين لم يكن من أصل عربي صميم . وقد نشأوا في بلاد مختلفة فبعضهم من المغرب وبعضهم من الاندلس وبعضهم الثالث من فارس . ولم يكن بينهم مؤرخ واحد من العرب البداة الذين جاءوا من الجزيرة العربية وحققوا تلك الفتوحات العظيمة . ومن هنا يتبين أن مؤرخي العصر العباسي ، لم يكونوا على اطلاع صحيح على الحياة البدوية التي عاشها الفاتحون الاول . كما انهم لم يكونوا كثيرى العناية بالعمليات العسكرية . ولم يكونوا يهتمون أيضا بالغ الاهتمام بالتواريخ والارقام والحقائق ، وهى المظاهر التي يعتبرها المؤرخون اليوم شيئا حيويا . وكانوا يكتفون في وصف معركة من المعارك الحربية بالقول بأن « مشيئة الله أرادت أن يهزم الكفرة » وكثيرا ما افتقرت التواريخ التي أوردوها الى الدقة . وكان الواحد منهم يختلف عن الآخر ، في تحديد تاريخ معركة من المعارك بنحو عامين على الأقل . وكثيرا ما لف الغموض والابهام تقديراتهم للقوات المتحاربة . وعلى الرغم من ميلهم الى اعطاء الارقام القريبة من الصحيحة بالنسبة الى قوات المسلمين ، الا أنهم كانوا ميالين كل الميل الى المبالغة في تقدير قوة أعدائهم (١) .

وبالاضافة الى افتقار هؤلاء المؤرخين الى الاهتمام بالعمليات العسكرية فانهم دونوا تواريخهم ، وقد حرموا من ضرورة وجود خرائط عسكرية تشرح هذه المعارك . فبالنسبة اليينا نحن ألفنا النظر الى الخرائط

(١) ليس ثمة من شك في أن هذه الحملة التي يشنها جلوب على المؤرخين العرب مستمدة من وحى ما يحس به الغربيون من كراهية عامة للعرب ولو كان في حملته هذه موضوعيا ينحو المنحى العلمى لاورد على ما قاله الادلة والشواهد ، دون أن يكتفى بالاحكام العامة التي تجعل كتابه مفتقرا الى الثقل العلمى . ولربما اندفع الى حملته هذه برغبته في ارضاء قرائه الذين يعرف انهم يستمرون كل حملة على العرب بالنظر الى جدول الكراهية المتأصلة في أعماقهم منذ أيام الحروب الصليبية متجاوزا في الوقت نفسه مع جزائره الشخصية التي لا بد وان تكون قد تضاعفت بعد خروجه من الوطن العربى على النحو الذى خرج فيه .

منذ نعومة أظفارنا وتعودنا تصور المواقع المتصلة بمختلف الاماكن • نرى من المتعذر علينا أن نتصور كيف يمكن للمرء أن يتابع الحديث عن معركة من المعارك دون أن تكون هناك خريطة يتابع عليها هذا الحديث • ومن الواضح حقا ان المؤرخين العرب لم يكونوا على فهم صحيح بالمعارك والحملات الحربية التي يتحدثون عنها • وكل مابقى هنالك اسم موقع هنا أو موقع هناك • تناقلته القصص والروايات القديمة • وما زال قيد الاستعمال حتى يومنا هذا متيحاً المجال للمؤرخ المعاصر العثود على أثر أو علامة تصل به الى الحقيقة •

وأرى لزاما على أن أورد هنا نقطة أخرى تتعلق بالسجلات العربية الاولى فلم يكن المؤرخون وناقلو السير واضحين كل الوضوح في ترديد أسماء مصادرهم أو في الرجوع بهذه المصادر الى أولئك الذين شهدوا هذه الاحداث التي يدونونها هم عند وقوعها • وكان المؤرخ يحس بعد أن يسرد قائمة بأسماء مصادرهم أن مهمته قد انتهت • فلا يقوم بأية محاولة أخرى للتثبت مما اذا كانت الاحداث التي يصفها ويسردها قد وقعت حقا • وعندما تكون هناك روايتان عن حادث واحد ، أو مجموعة من الروايات المتناقضة ، يكتفى المؤرخ بسردها كلها • ساندا كل رواية منها الى مصادرهم ومراجعتها • وتاركاً للقارئ نفسه مهمة الخروج بالرواية الصحيحة من هذه الروايات المتضاربة •

وقد سارت هذه المتاعب الموروثة من الماضي جنباً الى جنب مع متاعب لا تقل عنها أهمية نشأت في العصور الحديثة • فلقد كانت العربية تعلم منذ قرون في إنجلترا ، وهذه هي الصعوبة الاولى وكأنها احدى اللغات الميتة • وقد قام المستشرقون الاوربيون بمهمة عظيمة بترجمتهم كتب الادب العربية القديمة الى الانجليزية ؛ وان كانوا قد ركزوا عملهم على النواحي الدينية والسياسية والعلمية في المخطوطات الباقية دون أى تركيز على النواحي العسكرية • ولم تكن الفرصة لتتاح الا نادرا للعسكريين المحترفين لتعلم لغة من اللغات الميتة مع ما فى هذه اللغة من صعوبة •

أما الصعوبة الثانية فهي أن الجزيرة العربية كانت حتى الخمسين سنة الاخيرة منيعة الاختراق الا لاكثر المكتشفين جرأة ومخاطرة، وهكذا كان من المستحيل بالنسبة الى المؤرخ الغربى أن يدرس على الطبيعة مواقع هذه المعارك • أو يطلع بنفسه على طراز العرب الذين خاض أمثالهم تلك المعارك التي أدت الى هذه الفتوحات العظيمة •

أما الصعوبة الثالثة فهي ان أوروبا ظلت قرونا طويلة تعتبر الفتوحات

الاسلامية كوارث رهيبة • ولم يكن ثمة مسيحي يود أن يذكره الناس بها وليس المؤرخون الا بشرى • ولذا تثبط عزائمهم اذا لم يجدوا من يقرأ لهم فلقد كتب سيمون أوكلي ، وهو أحد المؤرخين الانجليز الاوائل الذين ارحوا الفتوحات العربية بعض كتبه العظيمة وهو رهن السجن في كمبردج وفاء لدين عليه • ولم يكن دخله من بيع كتبه كافيا لتمكينه من اعالة أسرته • ولقد كتبت الوف الكتب منذ عصر النهضة عن تاريخ الامبراطورية الرومانية • أما عدد الكتب ذات المستوى الطيب عن الفتوحات العربية في اللغة الانجليزية فلا يعدو أصابع اليد الواحدة • وليس غريبا والحالة هذه اذا ما ارتكبنا هذا العدد الضخم من الاخطاء الجذرية في سياستنا نحو العرب • طالما أن موقفنا منهم يركز على مثل هذا الاساس الواهي من المعرفة •

ولكن اذا كان مؤرخ الفتوحات العربية يمارس عمله امام مثل هذا العدد الكبير من المتاعب فانه أيضا يحى بنعمة من النعم الممتازة • فما زال هناك بعض البداء في قلب الجزيرة العربية ، يعيشون على النحو الذى كان يعيش فيه أسلافهم في القرن السابع الميلادى دون أى تبدل أو تغيير (١) • ولا ريب في أن مثل هذا الوضع فريد في نوعه في العالم وهناك بالطبع أجناس بشرية غير متحضرة وبدائية لم يطرأ على نمط حياتها أى تبدل منذ الوف السنين • ولكن هذه الاجناس لا تمثل شعوبا لعبت دورا قياديا في تاريخ الحضارة العالمية كاللور الذى لعبه العرب •

ترى ألا يكون من الانباء المثيرة كل الاثارة لو عثر في احدى الجزر الضائعة على جماعة من الجمهوريين الرومان ، يعيشون اليوم على النحو الذى كان يعيش فيه اسلافهم في أيام ماريوس وصولا ، أو بومبي وقيصر ؟ ومع هذا فان مثل هذا المجتمع موجود في الواقع في قلب الجزيرة العربية • اذ ما زالت القبائل هناك تعيش على النحو الذى كان يعيش فيه أبناء قبيلتي هوازن وبكر ، في القرن السابع •

(١) ان هذه النعمة التى يشير اليها المؤلف • هي في الواقع اداة قاطمة على نظام الحكم السعودى الذى يسود الجزيرة العربية • فلقد عمل هذا النظام على الرغم من مئات الملايين من الجنيهات التى يدرها الزيت في كل عام على هذه البلاد ، على ابقاء اهلها يعيشون في اوضاع القرن السابع اى قبل الف وثلثمائة عام لان هذا النظام ينقذه على لهر الملك والامراء ومبازلهم ولا يابه لاحوال الشعب • (العرب)

وكان الحماس الدينى هو الحائز على الفتوحات العربية ولكن أثر
ماطراً على الاندفاع العاطفى الاول من خفوت تدريجى . أخذت طبيعته
الامبراطورية الجديدة فى التبدل . وقد تحولت من دولة دينية ثيوقراطية
مثالية الى امبراطورية علمانية ، ما لبثت أن لجأت الى سياسات القوة
للدفاع عن نفسها ولتوسيع حدودها وسيطرتها ، واستغرقت عملية
التحول هذه عدداً من السنوات . ولقد كان هدفى من هذا الكتاب بصورة
عامة أن أعرض عصر الحماس الدينى . وكل أمل فى أن أتمكن فى كتاب
آخر من الحديث عن قصة الامبراطورية العربية كدولة عظمى فى ظل
الخلافة الاموية ومستهل عهد الخلافة العباسية . ويبدو أن خلافة معاوية
تمثل عهد الانتقال من نظام يقوم على الاساس الدينى الى نظام سياسى
عالمى بصورة رئيسية . وعلى الرغم من أن الحكومة فى هذا العهد كانت
تستوحى أعمالها على الغالب من حوافز دنيوية الا أن الروح الدينية
الصادقة كانت لا تزال سائدة أوساط الجنود والشعب ولهذا فقد
أثرت انهاء كتابى هذا بوفاء معاوية .

ولقد سبق لى أن أوضحت فى هذه المقدمة أن العسكريين المحترفين
ماكانوا يجدون الفرصة لتعلم لغة صعبة ميتة . وانى لأبدو بهذا الاعتراف
وكانى قد حكمت على هذا الكتاب بالموت سلفاً . ولكن سلسلة بارزة من
الاحداث المتزامنة شجعتنى على كتابته ، وأول هذه الاحداث اننى تعلمت
العربية لا كلفة ميتة ، بل بالعيش مع الشعب الذى يتكلمها الى الحد الذى
جعلنى أنطقها بنفس السهولة التى أنطق بها الانجليزية . أما الثانى فهو
اننى قدت بالفعل ولمدة ثلاثين عاماً جنوداً جمعوا من نفس تلك القبائل
التي قام أبناؤها بتلك الفتوحات العربية العظيمة ، والتي لم يطرأ عليها
أى تبدل منذ ثلاثة عشر قرناً . يضاف الى هذا اننى خضت مع هؤلاء الجنود
عمليات عسكرية فى نفس تلك المناطق التى حاربت فيها الجيوش العربية
القديمة .

وتحتل بعض المعالم الطبيعية فى أى بلاد كالجبال والمضايق والانهار
والصحارى ، أهمية كبرى بالنسبة الى العمليات العسكرية ؛ ومع ذلك ؛
فمن الممكن أن يعيش المرء حياته كلها على مقربة منها دون أن يوليها
أهمية بارزة . ولكن عندما يجد المرء نفسه خائضاً فى عمليات عسكرية
على نفس هذه الاراضى . فان تلك المعالم الطبيعية ذات الاهمية
الاستراتيجية ، سرعان ما تقفز أمام عينيه . وعندما يقرأ المرء بعد
مروره بهذه التجارب وصفا للحملات العسكرية القديمة التى دارت فوق
تلك الاراضى فانه يدرك على الفور كل ما كان ينتويه القادة العسكريون

الاولى الذين قادوا تلك الحملات . وكانت هذه هي الطريقة التي قفزت بها الفتوحات العربية القديمة فجأة أمامي لتحلّ جماع تفكيرى .

واننى طبقا لمعرفتى لا أعتقد أن مؤلفا سبقنى سواء أكان عربيا أم أوربيا تمكن من اخراج قصة معقولة وواضحة للفتوحات العربية التي وقعت فى العشرين سنة الاولى بعد وفاة محمد . وكلّ أمل فى أن تكون ظروفى المواتية التي شرحتها قد حققت لى النجاح فى تحقيق هذه الغاية . ومن سوء الحظ (طبعا) ان المزايا الهائلة التي أتيت لى لحسن طالعى لن تتكرر لاي كاتب آخر باللغة الانجليزية . ولم يكن أى قائد عسكري بريطانى قد حارب حتى نشوب الحرب الكونية الاولى على أرض هذه البلاد . وقد لا تتاح هذه الفرصة لاي قائد بريطانى فى المستقبل أبدا (١) . يضاف الى هذا ان استقلال هذه البلاد أدى الى عدم احتمال تولى أى ضابط بريطانى قيادة القوات العربية فى هذه المناطق فى المستقبل . وأخيرا فان تصنيع الجزيرة العربية سيؤدى قريبا الى اختفاء الطريقة البدوية فى الحياة . وهى الطريقة التي احتفظت الجزيرة بها ألوف السنين وكانها « متحجرة » مطورة فى الأرض .

واعتمادا على هذه الظروف المواتية لا على معرفتى وعلمى ، أجد نفسى مضطرا الى المغامرة باصدار هذا المؤلف الى القراء متحدثا عن حقبة من أكثر الحقب أهمية فى التاريخ وهى حقبة الفتوحات العربية العظيمة .

ويسن دود سنت دونستان

جون باجوت جلوب

ميفيلد - سيسكس

(١) يكاد جلوب يفصح نفسه في مقدمته . ويفصح نياته الاستعمارية والدور الذى كان يؤديه فى المنطقة العربية . فهو يعتبر أن من سوء حظ بريطانيا طبعا أن أيا من رجالها لن يحتل فى المنطقة المركز الذى احتله هو . وهو لا يود أن يجرم بأن أى قائد بريطانى لن يحارب فى المستقبل على أراضيها ، لان أحلام الامبراطورية مازالت تراوده وبمنه هو أو من هم على شاكلته بالعودة الى المنطقة وقيادة الجيوش العربية فيها . ولكننا نود أن نجزم لجلوب ونؤكد له أنه لن يمود لا هو ولا غيره من أعمدة الاستعمار البريطانى الى أرضنا العربية التى طهرها وسيطر عليها شعبنا العربى من مخلفاته وعملاته . ونود أن نشترك معه في قوله بأن ما أتيج له لن يتاح لغيره أبدا لان هذه هى ارادة الشعب العربى .

(العرب)

إيضاح للمؤلف

لجأت في أسماء المواقع في معظم الحالات الى اللفظ العربي للاسم
اما بالنسبة الى المواقع المعروفة الى القراء الانجليز فقد استعملت الاسم
الشائع المعروف عندهم ، كاسماء القاهرة مثلا ودمشق والقدس ودجلة
والفرات . وقد أطلقت على اسمبول أحيانا اسم القسطنطينية وأحيانا
أخرى اسم بيزنطية .

وتحتاج بعض الاسماء العربية الشخصية الى بعض الايضاح فالعرب
يلجئون الى طريقة غريبة تثير البلبلة والحيرة . وهى تسمية الشخص
باسم أبوته لولده الاكبر ويبدو أن هذه العادة كانت أكثر شيوعا في القرن
السابع للميلاد منها في وقتنا هذا حتى ان الاسم الاول الشخصى للرجل
كثيرا ما ينسى ولا يذكر أبدا وكثيرا ما تتضمن الكنية اسم الولد الاكبر
الذى يكون قد مات في طفولته ، وهكذا فقد يكنى الرجل طفيلة القسم
الاكبر من حياته باسم «أبى القاسم» مع أن «القاسم» ولده الاكبر توفى
في الشهر الاول من عمره ولم يسبق لأحد أن رآه أو سمع باسمه . ويفسر
هذا المألوف الغريب تسمية عدد كبير من الاشخاص فى كتابنا هذا ،
باسم أبى فلان . وهناك نقطة أخرى وهى أن عبارة «أبو» تصبح «أبى»
فى حالات الجر أما الابناء الآخرون لأبى القاسم والذين قد يعيشون
فيكونون بأسماء فلان « ابن أبى القاسم » .

وعند تدوين الكلمات والاسماء العربية راعيت تهجنتها بحيث يتمكن
القارئ الانجليزى من لفظها فى صورتها العربية الصحيحة . وتكتب
العربية بحروف تختلف عن حروفنا ولهذا يصعب أحيانا نقل الاسماء
العربية الى الحروف الانجليزية عن طريق وضع الحرف الانجليزى محل
ما يعادله من لفظ عربى . وليس لبعض الحروف العربية حروف
انجليزية تماثلها . وقد راعيت على الغالب حذف ال التعريف العربية من
أول الاسماء مع العلم أنها تسبق جميع أسماء الاماكن والاشخاص .

وقد حاولت بكل ما لدى من جهد أن أحصل على قصتى من مصادرها

العربية الأصلية مباشرة • ولعل أهم هذه المصادر تاريخ الطبرى الذى يسمى كثيرا «بليقي» العرب (١) • ولكن سرده للحملات الحربية لا يتسم دائما بالوضوح • ولا أعرف ان هناك ترجمة انجليزية كاملة لتاريخ الطبرى • وقد أفدت كذلك من عدد من الترجمات الاوربية الرائعة لبعض الآثار العربية ولا سيما فى الانجليزية والفرنسية ولم الجأ الى مضايقة القارئ بالاكثار من الهوامش والشروح والاشارة الى مصادر كل واقعة أو حكم • وقد لا أزعج ان كتابى هذا مؤلف علمى دقيق • ولكننى أجزؤ فأقول اننى حاولت تطبيق القواعد العلمية المعروفة على الحقائق الواقعة وأن أفسر النصوص التاريخية على صعيد التجارب العملية التى مرت بها •

وأود أن أتقدم قبل ختام ايضاحى هذا بالشكر العميق الى أمين مكتبة معهد الدراسات الشرقية والافريقية فى جامعة لندن المستر جى • دى • برسون • والى نائبه المستر • آر • جى • هوى • اللذين لولا مساعدتهما القيمة لى لما صدر هذا الكتاب • وأود أن أتقدم بالشكر أيضا الى أمين المكتبة العامة فى معهد تونبريدج ويلز المستر آر جى • بيرد • وكذلك الى الاستاذ أى • جى اربيرى أستاذ اللغة العربية فى جامعة كامبردج على المساعدات القيمة • ولا سيما تلك التى قدمها الى الاخير لايضاح بعض النقاط الغامضة فى العربية التى كانت خافية على •

(١) ثينوس ليفى (من ٥٩ قبل الميلاد الى ١٧ بعد الميلاد) مؤرخ روماني مشهور ولد في بادوا من أسرة طيبة ودرس دراسة عالية متخصصة في أدب الافريق والمنطق والفلسفة • كان من مؤيدى الحزب الجمهورى اثناء الحرب الاهلية ورفض التملق للامبراطور أوغسطس على الرغم من المحاولات التى بذلها هذا لاجتدابه متنبها له بسقوط الامبراطورية الرومانية مات في مزرعته في اكتوبر • اشهر كتبه التاريخ المروى باسمه والذى اعتمدته مكيا فى كتابه «مطارحاته» التى تمت بتعريبها ولا تعتبر حقائقه التاريخية صادقة دائما على الرغم من وفرة المصادر التى اعتمدها • (المعرب)

الجاهلية

« وقد اغضى الله عن أزمته هذا الجاهل فيبشر الآن
جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا • لأنه قد عين
يوما فيه يدين العالم بالعدل » •

أعمال الرسل - الفصل السابع عشر - الآية الثلاثون

« علينا لكي نترك طبيعة ما أحدثه محمد من
تبدلات ، وطبيعة نتائجها ، أن نفهم تفهما كاملا حقيقة
الأوضاع التي وجدها قائمة عند ظهوره في بلاده العربية
وفي امبراطوريتي الرومان والفرس المجاورتين لبلاده ،
وهما الامبراطوريتان اللتان احتلت قوات خلفائه
المنتصرة ثانيتهما احتلالا كاملا ، واحتلت أجزاء كبيرة
من اولاهما » •

اي • اي • فريمان - تاريخ العرب •

كانت الجزيرة العربية تحتل في مستهل القرن السابع للميلاد ، مركزا في السياسات العالمية ، لا يختلف عن المركز الذي تحتله اليوم . وكان ما ندعوه اليوم بالشرق الاوسط ، موضع التنازع آنذاك ، كما هو اليوم بين كتلتين دوليتين ، احدهما شرقية والاخرى غربية . وكانت امبراطورية البيزنطيين الرومانية – الاغريقية تمثل كتلة الغرب ، بينما كانت فارس تمثل كتلة الشرق . وكانت اعالى دجلة والفرات تمثل بصورة عامة الحدود الفاصلة بين الكتلتين . وكان العرب يسكنون على مقربة منهما الى الجنوب ، وعلى اتصال مباشر بالكتلتين . وكانت التجزئة والفرقة تسودان العرب آنذاك كما تسودانهم اليوم . وكان هؤلاء يحاولون كما يحاولون اليوم الافادة من التنافس القائم بين الدولتين الكبيرتين في حين يسمعون هم الى البقاء على الحياد (١) .

ويعود النزاع بين رومة وفارس الى عدة قرون خلت . فقبل ثلاثة وخمسين عاما من ميلاد المسيح منى كراسوس القائد الروماني – وكان على رأس عشرة فيالق رومانية – بهزيمة شنيعة في « قرهى » ، وكانت هذه الهزيمة كارثة ، لم يخف أثرها الا بعد ثلاثة وثلاثين عاما ، عندما تمكنت دبلوماسية الامبراطور أوغسطس من اقناع ملك البارثيين باعادة النسور الرومانية التي سلبها المنتصرون واذلوا كل الاذلال . وتمكن الجندي الامبراطور تراجان في عام ١١٥ هيلادية ، من الزحف على رأس جيوشه الرومانية الظافرة ، عبر سهول العراق حتى وصل بها الى مياه الخليج العربي ، حيث تطلع الى مياهه ، متمنيا لو عاد الى شبيباه كالاسكندر المقدوني ليوصل زحفه الموفق الى الهند .

ولكن هنا على سهول العراق المحرقة ، أصيب الامبراطور الروماني جوليان في السادس والعشرين من حزيران (يونيو) عام ٣٦٣ للميلاد بجراح مميتة في معركة يائسة خاضها مع الفرس ، واضطرت رومة وهي صاغرة الى عقد صلح ، وافقت بموجبه على التنازل عن خمس مقاطعات من

(١) يشوه المؤلف هنا صورة الحياد العربي فيحاول ان يرسمه على شكل انتماء يهدف الى استغلال التنافس القائم بين الشرق والغرب والافادة منه ، بينما الحقيقة ان هذا الحياد نابع من فكرة اصيلة قوامها الايمان بالسلام العالى ، والايمان بالا شأن للعرب بهذا النزاع المذهبي والمصلحي بين الشرق والغرب . (العرب)

امبراطوريتها الى العدو المنتصر . وما أوردته هنا ليس الا لمحة خاطفة من هذا الصراع الذي طال بين الدولتين . اذ استمرت المنافسة الحادة على أشدها مدة خمسة قرون ، بين حرب باردة وأخرى ساخنة ، وبين مد وجزر ، يتقلب فيهما التيار أحيانا الى مصلحة هذه ، ليعود فينقلب بعد حين الى مصلحة تلك ، وأخيرا وفي عام ٤٧٥ للميلاد ، سلم روميولس أوغستولوس ، آخر أباطرة الرومان في الغرب ، مظاهر الابهة الرومانية الى البرابرة . مقدما اوروبة الغربية بأسرها فريسة لهم . وظلت منذ ذلك التاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية في بيزنطة وحدها ، تحتل أعباء الصراع مع الفرس ، وهو الصراع الذي استنزف من رومة طيلة خمسة قرون كاملة مواردها كلها ، وهي في عنفوان قوتها وسلطانها .

وارتقى جوستينيان بعد نحو من خمسين عاما من زوال الامبراطورية الغربية ، عرش بيزنطة ، واشتبك وهو محجج في حرب من تلك الحروب التي لا نهاية لها مع فارس ، ليبتاع بعد خمس سنوات من الاشتباكات غير الحاسمة في عام ٥٣٢ للميلاد هدنة مهزوزة ، دفع ثمنها جزية كبيرة . وقد وقع هذا الاتفاق عن الجانب الفارسي كسرى أنوشروان ، الذي كان قبل عامين ليس الا ، قد ارتقى عرش فارس . وقد أطلق عليه الموقعون على الاتفاق اسما متحذلقا هو اسم « الصلح الازلي » .

وسأوضح غما قريب ان كلتا الامبراطوريتين كانت قد عقدت أحلفا مع الامراء العرب المقيمين على حدودهما الجنوبية . ولم يستسغ الغزاة العرب الذين دأبوا على السلب والنهب ، مذاق هذا « الصلح الازلي » حتما ، ولم يمض طويل عهد حتى كان خالد بن غسان أمير الغساسنة الحليف لبيزنطة ، يسارع الى خرقه بغزوه مملكة المندر في الحيرة التابعة للفرس .

ونار كسرى لنقض العهد ، وهرع الى السلاح يجعله حكما بينه وبين أعدائه ، وزحفت جيوشه لتجتاح الامبراطورية البيزنطية ، فاحتلت مدينتي حلب وحمص ونهبتها . واضطر البيزنطيون الى شراء الصلح من جديد بعد أن تنازلوا عن جميع المدن التي احتلتها جيوش كسرى . لكن توقف العمليات الحربية لم يخفف الا قليلا من غلواء التنافس بين الشرق والغرب ، وتابع الفريقان السعي لتحقيق أطماعهما المشتركة ، بأساليب نعرفها اليوم حق المعرفة ، تضم الدسائس وحرب الدعاية والتنافس التجاري .

ومات كسرى أنوشروان في عام ٥٧٩ للميلاد ليخلفه ولده هرمز

الرابع ، الذى ما لبث ان خلع عن العرش فى عام ٥٩٠ ليع خلفه عليه كسرى ابرويز . وثار الجيش الفارسى على الملك الغاصب الجديد ، واضطر هذا الى الفرار ناجيا بحياته الى سوريا حيث استنجد ببعده ومنافسه الامبراطور موريس البيزنطى . وتمكن كسرى ابرويز بمساعدة الجيش البيزنطى من استعادة العرش ، واصبح الامبراطوران حليفين لفترة قصيرة ، ساد فيها السلام العالم المعروف آنذاك .

لكن فترة الهدوء هذه لم تطل . ففي سنة ٦٠٢ ميلادية ، أعلن الجيش البيزنطى بدوره العصيان ، وخلع امبراطوره موريس . وسرعان ما هب كسرى ابرويز يعلن استعداده للثأر لحليفه الامبراطور الذى كان قد نصره فى محنته الماثلة . وزحف كسرى بجيوشه على الاراضى البيزنطية التى اجتاحتها ونهبها ودمرها ، دون أن يلقى مقاومة وظلت جيوش فارس تحتل مدة خمسة وعشرين عاما ، امارات مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى التابعة لبيزنطة . وكان العصاة قد ذبحوا الامبراطور موريس بعد الفتنة . وقدر خليفته «فوقا» ، وهو ضابط فظ كان معروفا بادامانه شرب الخمر ، أن ينزل بسبعة الامبراطورية عن طريق عهده وفجوره وغلظته الى الحضيض .

وأخيرا أعلن هرقل نجل الحاكم البيزنطى فى افريقيا الثورة فى عام ٦١٠ ، وراح يبحر على رأس أسطول ضخم يحمل جيشا كبيرا الى العاصمة ليجتليها . وجر «فوقا» الشرير من العرش جرا ، ليلقى العذاب والموت ، وأعلن هرقل نفسه امبراطورا ، هلى الشعب له ، وصفق معربا عن فرحه بانقاذه من الطاغية .

وكان كسرى ابرويز ، قد تظاهر بالرغبة فى الثأر لمصرع موريس صاحب الفضل عليه ، متذعرا بهذه الحجة لاحتلال ما احتله من اراضى الامبراطورية البيزنطية ، وما هو ذا هرقل يحقق له الآن هذه الغاية . وسرعان ما حسرت الجهود المضاعفة التى بذلها ملك الفرس الآن لتشديد قبضته على الاراضى البيزنطية التى يحتلها ، كذب المبررات التى تدرع بها لتغطية مطامحه العسكرية واخفاؤها اذ راح فى عام ٦١٣ للميلاد ، وقبل أن يتمكن هرقل من اعادة الامن الى ربوع الامبراطورية الداهلة ، يحتل دمشق ليتبعها فى عام ٦١٤ بالقدس ، وليحمل منها الى بلاده خشبة الصليب المقدسة التى شهدت صلب المسيح . وغزا كسرى فى عام ٦١٦ مصر وآسيا الصغرى فى وقت واحد ووصلت جيوشه الى مقربة من اسوار بيزنطة .

(وبينما كانت هذه الأحداث العظيمة ، تهز أركان أكبر امبراطوريتين

فى العالم ، كان هناك طفل يتيم ، يدب على معارج الحياة والنمو فى بلدة صحراوية نائية من بلاد الجزيرة العربية . فى العشرين من آب (اغسطس) عام ٥٧٠ للميلاد ولد محمد فى مكة . وكان الامبراطور جوستينيان قد مات قبل ولادته بخمس سنوات ، بينما قدر لكسرى انوشروان ان يعيش حتى كان محمد قد بلغ التاسعة من عمره . وفى عام ٦١٢ طلع محمد النبى العربى برسائله ، فى الوقت الذى كانت فيه جيوش فارس تحتل عدة مقاطعات بيزنطية .

الحرب الباردة :

وبينما كان التنافس مستمرا على هذا النحو بين بيزنطة وفارس، ليتخذ شكل الحرب والسلام فترات متراوحة على حدودهما ، كانت مظاهر البغضاء التى لا تنتهى بينهما ، تمتد على شكل حرب باردة الى الجنوب ، باتجاه الجزيرة العربية وشرق افريقيا . وقد اتخذ التنافس بينهما هنا شكل سباق تجارى من ناحية ، وشكل صراع على مناطق النفوذ تتخلله بعض الحروب الموضعية الصغيرة والمعاهدات السلمية من ناحية اخرى .

وكانت أهمية الجزيرة العربية ونفوذها آنذاك مستمدين كما هما اليوم من موقعها الجغرافى كفاصل بين المحيط الهندى وجنوب آسيا وبين البحر الابيض المتوسط وأوروبا . وكانت التجارة مع الشرق لا تقل فى أهميتها بالنسبة الى الامبراطورية البيزنطية فى القرنين السادس والسابع عن أهميتها اليوم وفى القرن العشرين بالنسبة الى أوروبا الغربية . وكانت هذه التجارة تسير هينة سهلة ، أو صعبة تقوم أمامها العوائق تبعا للدولة التى تسيطر بنفوذها على الجزيرة العربية والبحر الأحمر .

وكان المرشد البحرى الاغريقى هيبالوس قد اكتشف منذ عام ٤٥ بعد الميلاد سر الرياح الموسمية ، وسارت التجارة منذ ذلك التاريخ وباستمرار نشطة بين الهند وبين الامبراطورية الرومانية ، اذ اخذت السفن تبحر مباشرة من بومباى أو من سواحل الهند الجنوبية . ولقد روى بلىنى (١) فى عام ٧٧ بعد الميلاد ، أن باخرة ابحرت الى الهند

(١) غالوس بينيوس سيكوندوس (بلىنى الكبير ٢٣ ق م - ٧٩ ب م) كاتب رومانى فى التاريخ الطبيعى . عمل فى أماكن عدة فى افريقيا والمنايا واليونان وتابع دراساته الى آخر أيام حياته . واشتهر امره بأنه اعظم علماء عصره . يعتبر مؤلفه «التاريخ الطبيعى» من أعظم الكتب القديمة فى الموضوع . (العرب)

فوصلتها في مدة لا يكاد يصدقها العقل وهي خمسة عشر يوما . ولكن معظم البحارة ، كانوا يتجنبون الملاحة في البحر الاحمر ، لان مياهه كانت في الغالب تحت سيطرة القرصان ، ولان سواحله كانت تفتقر الى الموانئ الصالحة ، وعسيرة على الملاحة بسبب الصخور المرجانية المنتشرة فيها . ولهذا كانت البواخر كلها او معظمها تفرغ شحناتها التجارية في عدن او على الساحل اليمنى ، لتفيد في عودتها السريعة الى الهند من هبوب الرياح الموسمية في المحيط الهندي .

وكانت قوافل الابل تحمل هذه الشحنات التجارية من طرف الجزيرة الجنوبية الى ميناء ايلة (العقبة) ، في شمال البحر الاحمر ، على طول الساحل الشرقي لهذا البحر . ومن ايلة كانت القوافل تنفرغ فبعضها يتجه الى دمشق شمالا ، وبعضها الآخر الى غزة ومصر غربا ، ومنها تنتشر السلع الى عالم البحر الابيض المتوسط ، وقد اذت تجارة الشرق هذه منذ اقدم العصور الى قيام ممالك متحضرة في جنوب الجزيرة العربية والى ازدهارها ، كممالك المعينيين والسبئيين والحميريين . وتحدثنا التوراة عن ملكة سبأ التي زارت سليمان و « اسرت اليه بكل ما في قواذها » . وكانت التهم بتولد الفرام اللاهب بين الملكين قد انتشرت وذاع امرها . لكن السبب في الزيارة ، كما ارى ، لم يكن الفرام ، وانما التجارة ، لان سليمان كان قد وسع ملكه فشمّل شرق الاردن من العقبة الى دمشق ، وبات في وضع يمكنه من التدخل في طرق قوافل سبأ التجارية . ولا ريب في أن سبب رحلة الملكة يعود الى رغبتها في الحصول على وعد من سليمان بعدم اعتراض طريق هذه القوافل .

وقبل قرنين من ميلاد السيد المسيح ، كانت هناك قبيلة عربية تدعى الأنباط يبدو أنها عملت أيضا في هذه التجارة المربحة . ولا ريب في أن السبئيين كانوا قد بدعوا في الانحلال آنذاك ، أو أنهم شرعوا . يصلون بالقوافل الى موقعي « العسلا » و « تيمة » في الحجاز ، حيث يسلمون البضائع التي يحملونها الى تجار الشمال . وقد وصلت دولة الأنباط بعاصمتها الوردية الحمراء والاسطورية في البتراء الواقعة في الاردن الحديث قمة ازدهارها في القرن الاول للميلاد ، وفرض ملوكها سلطانهم شمالا حتى حدود دمشق . ويحدثنا بولس الرسول في الآية الثلاثين من الفصل العاشر من رسالته الثانية الى أهل كورنث ، كيف « كان الحاكم بدمشق تحت أمرة ارتاس الملك يحرس مدينة الدمشقيين ليقبض على » مما أدى الى ان يدلى الرسول « من كوة في السور في

زنبيل لينجو من يديه » . ولم يكن ارتاس الا الاسم الاغريقي
« للحارث » ملك الأنباط ، واحتل الامبراطور الروماني تراجان في عام
(١٠٦) للميلاد البتراء عاصمة الأنباط ، بعد أن حطم مملكتها ، وحول
ارضها (شرق الاردن الحديث) الى امارة العرب الرومانية وادت
هذه الكارثة التي حلت بالأنباط ، الى اختفاء تجارهم وقوافلهم من
الميدان .

وشيد ملوك العرب في الجنوب في القرون الثلاثة الاولى للميلاد
امبراطورية عسكرية ، وراح الملك أسعد أبو القرب يغزو العراق في
عام (٢٠٦) بعد الميلاد بجيش لجب ، هزم به الفرس متوغلا في مملكتهم .
وبالطبع لم يكن هذا ممكنا ، لولا أن فارس كانت في ذلك الحين تمرقها
الحروب الأهلية (١) . ومع ذلك فالواضح أن هذا الملك العربى أصبح
بلا منازع الحاكم المطلق للجزيرة العربية .

ويبدو أن جميع القبائل العربية قد خضعت لسلطان ملوك
الجنوب في اليمن وظلت خاضعة له حتى عام (٥٢٢) للميلاد ، عندما
غزا الاجاش أرض اليمن كما سنرى بعد قليل . ويظهر من هذا كله ،
أن العرب لقرون طويلة قبل محمد ، شهدوا دولا عدة ، لها شأنها
في القوة والحضارة ، وأن لم تصل الى نفس المنزلة التي وصلت اليها
فارس ورومه .

ومن المعتقد أن سد مأرب العظيم الذى كان يؤمن الرى لقسم
كبير من الأراضى في جنوب الجزيرة العربية « قد انهيار في عام (٤٥٠) ،
أو حوالى هذا التاريخ . وادى انهيار السد الى ازمت اقتصادية
ضخمة ، مما حمل عددا من القبائل الى الهجرة شمالا وأسفر عن نقل
العاصمة من مأرب الى صنعاء ، عاصمة اليمن اليوم . واختفى اسم
السبئيين منذ ذلك التاريخ ليحل محله اسم الحميريين .

(١) لا أدري كيف يسمح جلوب لنفسه وهو يرمم أنه يضع تاريخا للفنوحات
الاسلامية أن يطلق بمثل هذا الحكم العام الذى لا يقيم عليه الدليل أو البرهان . فالمعروف
أن العرب كانوا من خيرة المحاربين ، وقد هزموا الفرس في الجاهلية أكثر من مرة ولعل
معركة ذي قار التى انتصر فيها بنو شيبان على الفرس خير دليل على ما نقول وإذا كانت
قبيلة واحدة انضم اليها بعض الاخلاف من القبائل الاخرى المجاورة قد تمكنت من هزم
الفرس في « ذي قار » يصعب عليهم وكانت الجزيرة العربية كلها متحدة في ظل ملك اليمن
كما يعترف المؤلف ، أن يهزموا الفرس ؟ نتيجة لا ريب في أن جلوب لم يشأ أن يفسعها
نصب عينييه .
(العرب)

وعلى كل حال فانه مهما كانت الأوضاع الاقتصادية او الأوضاع السياسية الداخلية التى سادت مملكة الجنوب العربى ، فان هذه المملكة لعبت دورا بارزا فى الحرب الباردة بين البيزنطيين والفرس . فلقد كانت المستودع الرئيسى للتجارة الوافدة من الشرق ، وكانت المستقر الذى تصل اليه السفن القادمة من الهند .

وكانت اليهودية والمسيحية آنذاك تسيران فى طريق الانتشار . فلقد ضمت نجران فى الجنوب العربى مجتمعا مسيحيا مزدهرا له كاتدرائيته وله مطرانه . وتقول الاساطير ان ذا نواس ملك الحميريين فى صنعاء ، تحول الى اليهودية فى مطلع القرن السادس . وراح مدفوعا بالحماس الدينى المألوف عند من يتحول الى دين جديد يذبح نصارى نجران . ويقال ان أحد هؤلاء الضحايا تمكن من الفرار والوصول الى بيزنطة ، حاملا معه نسخة محروقة من الانجيل ، وناشد امبراطور البيزنطيين التدخل لحماية اخوانه النصارى . ولم يكن فى وسع الامبراطور أن يبعث بحملة عسكرية أو بحرية الى الجنوب العربى ، فراح يسلمه رسالة الى امير الحبشة المسيحي ، يحثه فيها على أداء واجبه فى انقاذ بنى دينه .

وكانت الحبشة تطمع فى الجزيرة العربية وتتشهاها منذ امد طويل . ويحدثنا التاريخ عن محاولات بدأتها منذ القرن الرابع لفرض نفوذها وسلطانها على هذه البلاد وكان بينها اقامة أسطول بحرى ، حاول السيطرة على مضيق باب المندب . وتشجع الاحباش الآن برسالة الامبراطور . واعتمدوا على ما زودهم به من ستمائة مركب لنقل الجنود (١) ، فراحوا يفزون الجنوب العربى فى عام (٥٢٢) للميلاد وخلعوا ذا نواس عن عرشه ليقيموا بدله حكما حبشيا مباشرا فى البلاد .

وهكذا ينسب المؤرخون تدخل الاحباش فى البلاد العربية الى

(١) لايعاول المؤلف هنا ان يشرح لنا كيف تمكن امبراطور بيزنطة من ايصال هذه المراكب الستمائة الى امير الحبشة ، واكتفى بان روى الرواية التى لم يتكرها وانما جاءت فى بعض كتب التاريخ دون أن يناقشها . مع العلم انه لم يكن ثمة سبيل للاتصال البحرى بين بيزنطة والحبشة . وهناك من يقول انها نقلت عن طريق النيل ولكن وجود منطقة الشلالات تستبعد هذا الاحتمال . وهناك من يقول انها نقلت من غزة الى ابله (خليج العقبة) على ظهور الجمال ثم مخرت فى البحر ولكنها فرضية اخرى مستبعدة .
ولعل هذه المهفوة من المؤلف تبين الحقيقة العلمية للكتاب .
(المغرب)

الدوافع الدينية ولكننى لا أستبعد على أى حال أن تكون سياسات القوة وتوازن القوى ، قد لعبت دورا فى هذا التدخل . اذ المعروف أن الفرس كانوا يحاولون نشر نفوذهم جنوبا على الساحل العربى فى منطقة الخليج وعمان . وكانت الدولتان الشرقية والغربية تحاولان فى الحقيقة تمهيد الطريق أمامهما للسيطرة على طرق التجارة الشرقية . وكانت الحبشة النصرانية حليفة لبيزنطة ، واذا ما أصبح الأحباش مسيطرين سيطرة وطيدة الاقدام على الجنوب العربى ، فإن التجارة بين الهند وبيزنطة تصبح فى مأمن . ولكن هذه التقلبات السياسية قد أدت الى افتقار كبار التجار الحميريين . ولهذا فأننا نرى تجارة القوافل تنتقل فى هذه الآونة الى أيدى تجار مكة ؛ وهى مدينة كانت منذ أمد طويل محطة استراحة على الطريق التجارى الرئيسى .

* * *

للحلفاء العرب :

كانت هذه هى الصراعات العسكرية والتجارية والسياسية التى تدور فى الجنوب العربى فى القرن الذى شهد مولد محمد . أما فى الشمال فقد كان العرب فى غضون ذلك يلعبون دورا أكثر نشاطا وحيوية فى الحربين الباردة والساخنة بين بيزنطة وفارس .

تتألف الجزيرة العربية من الناحية الجغرافية من شبه جزيرة تقوم الى الجنوب من خط يمتد من رأس الخليج العربى الى ايلة (العقبة) ومن مثلث يكون هذا الخط قاعدته وتقوم مدينة حلب فى رأسه . وكل هذه المنطقة صحراوية الطبيعة . ويتألف المثلث الشمالى من سهول فسيحة دوارة ، أما القسم الجنوبى فيتألف من هضبة عظيمة تمتد من قمم جبال الحجاز لتأخذ فى الانحدار بصورة متدرجة حتى تصل الخليج العربى . وتقوم داخل هذه المنطقة صحراوان من الكتبان الرملية صفراهما تسمى صحراء النفود فى الشمال وكبراهما تسمى الربع الخالى فى الجنوب . وتنتشر فى شبه الجزيرة الواسعة هذه ، الواحات والمدن الصغيرة والقرى ، ولكن القسم الأكبر منها يتألف من مراعى فسيحة تجول فيها القبائل البدوية الرحل (١) . وكانت الإبل هى الوسيلة الوحيدة للمواصلات عبر الصحراء .

(١) أطلقت معان كثيرة على اسم البدو . أما فى هذا الكتاب فيعنى بعبير البدو قبائل البادية الرحل التى تعيش على رماية الإبل . (العرب)

وكان العرب محتكرى هذا الحيوان النافع . وهكذا لم يكن فى وسع البيزنطيين أو جيوش الفرس أن تجوز الصحراء وتعبسرها ، أو أن تجرى أى اتصال بينها إلا إلى الشمال الشرقى من حلب حيث تنتهى حدود الصحراء . وهنا كانت تقوم حدود ثابتة بين الفريقين تمتد من نهر الفرات إلى القفقاس . وقد يكون البحر عقبة أمام أولئك الذين لا يملكون السفن . ولكنه بالنسبة إلى الشعوب التى آلفت الملاحة ، طريق لتجارة والحرب فى آن واحد . وكان العرب على ظهور إبلهم ، ملاحي هذه الصحراء ، بينما كان الفرس والبيزنطيون من رجال البر لا يملكون السفن .

وانتشرت على الحدود الفارسية - البيزنطية الممتدة من الفرات إلى القفقاس سلسلة ضخمة من القلاع ، ولكن كلتا الإمبراطوريتين كانت مكشوفة من ناحية الجزيرة العربية ، الأولى على خط الفرات الذى يضم ما يسمى اليوم بالعراق والثانية على خط الحدود من دمشق إلى أيلة (العقبة الحديثة) .

وقد احتفظت الدولتان بيزنطة وفارس بدولتين عربيتين تابعتين لهما لحماية جناحيهما الجنوبيين المكشوفين . ففى القرب كان ملوك الفساسنة حلفاء للإمبراطور البيزنطى ، بينما كان ملوك اللخمين العرب على الفرات يتولون حماية الجناح الجنوبى لإمبراطورية الفرس . وكان أمراء الاسرتين العربيتين يحتلون منسلة رفيعة فى الإمبراطوريتين اللتين يتبعونهما ، فكان الأمير الفسانى يحتل منزلة الشريف الرومانى فى بلاط بيزنطة ، وكان الحاكم اللخمى يحتل منزلة الأمير الاقطاعى فى ظل العرش الفارسى (١) .

وقد شغلت الاسرتان العربيتان المتنافستان نفسيهما فى حروب صحراوية دائمة ، وكانتا تتبادلان الغزوات . وقد سبق لنا أن رأينا أن « السلم الأزلى » بين جوستينيان وكسرى انوشروان ، قد انتهى قبل أوائله فى عام ٥٣٢ ميلادية اثر هجوم شنه الفساسنة على منافسيهم اللخمين .

(١) أعتقد أن جلوب وهو يكتب هذه الفقرة ، كان يرى أمامه صورة الملوك والأمراء العرب ، الذين أقامهم الاستعمار البريطانى فى المنطقة أو دماهم فى القرن العشرين لخدمة أهدافه . وكان يرى فى هؤلاء الملوك والأمراء صورة مجسدة لأنراء لخم وغسان . حقا أن التاريخ يعيد نفسه . وكما تحرر العرب وانتهى عهد الإبداع من لخم وغسان ، فسيحررون عما قريب وينتهى عهد الإبداع من الملوك والأمراء . (العرب)

وبالغت أسرة الـخمينين أوج قوتها في أواسط القرن السادس أيام المنذر الثاني ، وعندما عقد « الصلح الازلي » بين ييزنطة وفارس في عام (٥٣٢) ميلادية دفع الامبراطور جوستنيان التعويضات النقدية المباشرة الى المنذر بالإضافة الى ما دفعه الى كسرى . ولكن المنذر ما لبث أن وقع أسيرا في أيدي الرومان ، الذين أبعده الى صقلية حيث لقي حتفه فيها . وكان قد خلفه على عرش الحيرة النعمان الخامس .

وسبق لنا أن ذكرنا أن الاحباش قضوا على دولة الحميريين في الجنوب العربي في عام ٥٢٢ ميلادية بتحريض من الامبراطور البيزنطي . ولكن عرب اليمن مالبثوا بعد خمسين عاما من حكم الاحباش أن ملوا هذا الحكم . وقام وفد من الحميريين في عام ٥٧٣ أو ٥٧٤ ، بزيارة الحيرة عاصمة الـخمينين ليشتكو الى النعمان من ظلم الاحباش . واستصحب النعمان الوفد لمقابلة كسرى . ولم يتردد الفرس في استغلال الفرصة ، لاكتساب الشهرة عن طريق الاشتراك في « حرب التحرير » (١) وأوفدوا قوة الى الجنوب العربي تولت طرد الاحباش . واختار كسرى بعد فترة من الاضطراب نائبا له في الجنوب العربي في عام ٥٩٧ ، وأصبح الجنوب الذي ساطق عليه منذ الآن اسم اليمن مستعمرة فارسية . وكان محمد النبي المنتظر ، قد بلغ في ذلك الحين السابعة والعشرين من عمره .

ووقع نزاع في عام ٦٠٥ بين النعمان وكسرى ، الذي قضى على مملكة الـخمينين ولكن عرب الفرات والخليج ظلوا منذ ذلك التاريخ في حالة تشبه العصيان على الفرس حتى جاء المسلمون في الفتح الاسلامي (٢) وأدت هذه الأوضاع الى ضعف النفوذ الفارسي الذي كان

(١) اختلف مع المؤلف في تحديد الدافع الى ارسال قوة فارسية الى اليمن لطرد الاحباش منها . فلم تكن الغاية مطلقا الاشتراك في حرب التحرير ، وانما كانت ، اخراج الاحباش وهم حلفاء الروم من اليمن التي تبدأ منها طرق التجارة بين الشرق والغرب ، واضعاف نفوذ الروم ، امداء الفرس في كل مكان .

(٢) تجاهل المؤلف هنا كل التجاهل معركة ذي قار ، مع أن تواريخ العرب كلها تجمع على أنها من أبرز أيام العرب في الجاهلية ، إذ انتصرت قوات العرب لصرا مينا على الفرس . ولا ريب في أن هذا النصر ، اضعف شوكة الفرس في نظر العرب ، وازال منهم حالة القوة ، مما شجع العرب بعد نحو من أربعين عاما على مهاجمة امبراطورية الفرس وازالتها من عالم الوجود . يضاف الى هذا أن المؤلف وقع في خطأ تاريخي شخم . فهو يصور أن مملكة الحيرة قد ازيلت من الوجود بعد نزاع كسرى والنعمان ولم تعد ابداً -

قد بلغ في مرحلة من المراحل درجة الحكم الاستعماري في الخليج وعمان واليمن ، وقامت القبائل العربية الثائرة في جنوب الفرات ، بعد أن حرمت من حكماها العرب ، بقطع طرق المواصلات بين فارس وبين مستعمراتها في الجنوب العربي (١) .

وقد ألف العرب بعد ظهور الاسلام ، أن يطلقوا على الفترة التي سبقت رسالة محمد اسم الجاهلية ؛ ولا يمكن تطبيق هذا التعبير تطبيقا عادلا الا على الصعيد الديني . فلقد كان بعض العرب قد تثقفوا على صعيد الثقافة والسياسة ، قبل ظهور الاسلام بأمد طويل ، وكانوا قادرين على أداء دورهم في حقول الدبلوماسية والسلام والحرب مع الدول العظمى في أيامهم (٢) .



العوامل الدينية :

ووقفت الامبراطورية الرومانية لأول مرة في عام ٣٣٠ ميلادية ، موقف التسامح ، رسميا من المسيحية ، التي باتت في عام ٣٧٥ الدين الرسمي للدولة . وبدأ في هذه الفترة بالضبط تحول العرب على حدود سوريا الصحراوية الى النصرانية . واعترف الامبراطور جوستنيان في عام ٥٢٩ بالحادث الرابع الفسائي اميرا قبليا برتبة شريف روماني ، مع العلم أن نحو من مائتي عام كانت قد انقضت على ظهور الاسرة الفسائية ، وكان الفساسنة وجميع غرب الحدود السورية قد تحولوا قبل ذلك التاريخ الى النصرانية .

بينما الحقيقة أن الروال كان مؤقتا وان دولة اللخمين عادت الى الوجود بعد الصلح بينهم وبين الفرس وكانت جيوش الفتح الاسلامي هي التي قضت على دولة اللخمين القضاء النهائي . (العرب)

(١) ليس ثمة من دليل تاريخي مطلقا يؤيد وجهة نظر المؤلف في أن الفرس قد استعمروا الجنوب العربي . وكل ما في الامر انه على اثر المساعدة التي تلقاها الحميريون من الفرس لطرد الاجابش من بلادهم ، حاول الفرس استعمار اليمن وحكمه ، ولكن أيامهم فيه كانت محدودة . ولذا لا يمكن القول بأن الجنوب العربي كان في وقت من الاوقات مستعمرة فارسية .

(٢) يبدو أن المؤلف لم يفهم تمام الفهم حقيقة مايشيه التعبير العربي من الجاهلية . فالجبل لا يقتصر على الناحية الدينية مطلقا وانما يعتمداها الى النواحي السياسية والاجتماعية . ولقد جاء الاسلام فأنار الطريق للعرب لاني شئون دينهم فحسب ، بل في شئون دنياهم أيضا ، ومن هنا يتبين لنا مايشيه بعض المفكرين العرب ، عندما يصفون العصر الذي سبق الوبلة العربية المعاصرة ، بالجاهلية الثانية . (العرب)

ومزقت الخلافات والانشقاقات في القرنين الخامس والسادس ، وملا أعقبهما من قرون ، الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية . وبينما كانت الخلافات السابقة منحصرة في محاولة تحديد طبيعة الثالوث المقدس ، أخذت الهرطقات الجديدة تتركز على تحليل العقيدة المتعلقة بتجسد الاقنوم الثاني وعلى التعبير عنها في الاصطلاحات الفنية المألوفة لدى الفلسفة الاغريقية . ولا ريب في أن المنافسات الحادة التي استغرقتها هذه المناقشات التي أوجع الاغريق بعقولهم الذكية والمأكرة بها ، كانت من الاسباب الرئيسية التي أدت الى هذه السرعة الهائلة التي تمت بها الفتوحات العربية (١) .

وراح القديس نسطور يبشر في عام (٤٢٠) للميلاد برأى جديد في موضوع تجسيد الاقنوم الثاني ، ولكن المجمع المقدس الذي عقد في مدينة افيزوس في عام ٤٣١ استنكر هذا الرأي وحمل عليه أشد الحملات . وتلت ذلك حملة اضطهاد رهيبية ، واضطر عدد كبير من النساطرة الى اللجوء الى فارس ، حيث حظوا برعاية الشاهنشاه وكرم ضيافته . وبالطبع كان هؤلاء النساطرة أكثر ثقافة من الفرس ولا سيما في علم الطب وارتقى بعضهم أعلى المناصب في بلاط الشاه الذي تظاهر بالعطف عليهم نظرا لما عانوه من احن وظلم على يد غريمه امبراطور بيزنطة . وكان النساطرة من أنشط المبشرين بالنصرانية وقد تمكنوا من تحويل كثيرين من عرب الفرات والخليج الى المسيحية .

ولم يكد النساطرة يطردون من الامبراطورية ، حتى ظهرت فيها هرطقة جديدة فقد خرج في بيزنطة راهب يدعى يوتيشر ، أخذ يبشر بأن العنصر البشري في المسيح يتألف من الجسد بعقله وروحه ، ولكن عندما حلت فيه الروح القدس ، امتصت الروح البشرية منه ليصبح جزءا منها . وأعلن المجمع المقدس الذي عقد في كلدونيا في عام ٤٥١ تحريم تعاليم هذا الراهب . وقد أطلق على الهرطقة الجديدة اسم « الطبيعة الواحدة » ومعناه ان للمسيح طبيعة واحدة ، وهي الطبيعة الالهية . وتؤمن الكنيسة الارثوذكسية ان هذه الطبيعة جماع من الطبيعتين الالهية والانسانية .

(١) قد يكون هذا السبب الذي ذكره المؤلف ، من الاسباب الثانوية لسرعة الفتح الاسلامي ولكنه ليس من الاسباب الرئيسية كما يدعى المؤلف ، مدفوما بالرغبة الواضحة في الانتقام من شان البقربة العسكرية العربية . ومظنوا ان سبب هذه السرعة ، هو مجرد انقسام الرومان داخليا . ولو كان هذا السبب رئيسيا كما يدعى جلوب ، لتمكن الفرس مثلا من تحطيم الامبراطورية الرومانية في الحقب الاخيرة التي سبقت الاسلام ، لكن غرض المؤلف واضح . (العرب)

ويبدو ان جميع أتباع الكنيسة في مصر قد تحولوا الى المذهب الجديد كما تحول اليه أيضا غالبية الناس في فلسطين وسوريا ولاسيما من الغساسنة وأفراد القبائل البدوية . وشرع جهاز الحكم في الامبراطورية البيزنطية ، يعمل بشدة وعنف على اضطهاد أتباع المذهب الجديد الذي كانوا حوالى عام (٥٤٠) ميلادية في حالة ثورة تقريبا في كل مكان .

وهكذا في الوقت الذي كان فيه كسرى الفرس قد أثار عداء حلفائه من العرب وسخطهم ، عن طريق اضطهاد النعمان ملك الحيرة كان الامبراطور البيزنطي أيضا قد دفع بالغساسنة الى موقف المعارضة عن طريق اضطهادهم كأتباع مذهب « الطبيعة الواحدة » . واتبعت الكنيسة الحبشية أيضا نفس المذهب ، كما اتبعته على الغالب كنيسة نجران التي أشرنا اليها فيما سبق . واعتقل أمير الغساسنة في عام ٥٨١ ، واقتيد أسيرا الى القسطنطينية . وشق أولاده عصا الطاعة ، ولكن جيوش الروم تمكنت من اخضاع ثورتهم ، وسحب الرومان اعترافهم بالاسرة الغسانية الحاكمة ، كما منعوا عنها الجرايات والمساعدات . وظل عرب الحدود البيزنطية منذ ذلك التاريخ في حالة عصيان وشبه ثورة ضد القسطنطينية ، تماما كما كانت حالة اخوانهم عرب الفرات ضد الفرس . وكان محمد بنى المستقبل قد بلغ الحادية عشرة من عمره ، عندما تحول الغرب من حماة الحدود البيزنطية الى موقف العداء .

وعلى الرغم من الجوار الذي كان قائما بين الاغريق والعرب في سوريا الا ان فجوة هائلة كانت تفصل بين العقليتين . ولقد كان الاغريق دائما من الفلاسفة ورجال الخيال وأصحاب النظريات الفكرية . أما العرب فكانوا على النقيض من ذلك رجالا عمليين لا يعنى التفكير الادراكي لهم شيئا كبيرا . وكانت عقريتهم تتمثل في الفعل لا في القول وفي العمل لا في الخيال . وبينما كان الاغريق غارقين في محاولاتهم تعريف طبيعة الله ، كان العرب أكثر اهتماما بمعرفة ما يريد الله منهم أن يفعلوا . وكانت اليهودية والمسيحية في الواقع ديانتين عمليتين في البداية ، تعنيان بالطريقة التي يطيع فيها الانسان ارادة الله ، وذلك لان كلتا الديانتين نشأت بين القبائل السامية والفلاحين الذين يمتون الى أصل واحد مع العرب . ولكن المسيحية لم تصل الى العرب عن طريق اليهود الذين طردهم تيتوس الروماني من القدس في عام ٧٠ للميلاد (١) ، وانما وصاتهم بعد

(١) المصواب عام ٧٦ ميلادية . وهي السنة التي يؤرخ اليهود فيها خراب هيكل سليمان .
(العرب)

عدة قرون متسللة اليهم عن طريق خبث الاغريق ، وبراعتهم العقلية ولا ريب في أن نصرانية الاناجيل ، كانت تستهوى العرب كما استهوت صيادى بحيرة طبريا ، ولكن النصرانية التي وصلت اليهم في القرن الخامس والسادس لم تكن تلك العقيدة البسيطة التي بشر بها المسيح على الجبل . أما الاسلام فكان من الناحية الأخرى ، عقيدة واضحة ومستقيمة في عمليتها ، ومتحررة من كل ما في الفلسفات من خبث ودهاء . فلا بدع ان استهوت هذه العقيدة عقول العرب البسطاء ، الذين رأوا فيها أساسا مرضيا للحياة ، يفوق تلك العقائد المتزمتة والمحاكة التي نشرها الاغريق . وكثيرا ما أطلق على الاسلام تعبير « هرطقة مسيحية » ، ولكن الهرطقات تكون دائما ردود فعل مفرقة في العنف لسوء التصرف في الاصل (١) . ومن هنا قد يكون الاسلام احتجاجا عنيفا ضد الحقيقة الواقعة . وهي ان الرسالة الحقيقية للمسيحية كانت قد غرقت في تعقيدات التزمت الاغريقي .

وكانت هناك عدة جاليات يهودية أقامت في الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي ، بالإضافة الى المسيحيين . وكانت الجماعات اليهودية التي تعيش في حوضي دجلة والفرات منذ أيام سبى بابل ، تحظى بالتسامح الديني في ظل ملوك الفرس . وسبق لنا أن رأينا أحد ملوك الحميريين في اليمن يتحول الى اليهودية فيضطهد نصارى نجران . وظل عدد كبير من اليهود يعيش في اليمن حتى عام ١٩٤٨ عندما هبط هذا العدد كثيرا اثر هجرتهم الى فلسطين المحتلة .

وكانت هناك في القرن السادس بالإضافة الى يهود اليمن ، عدة جاليات يهودية تقيم في شمال الحجاز ولا سيما في تيمه وفدك وخيبر ويثرب (المدينة المنورة) . ولم تتوافر الأدلة الواضحة على المكان الذي جاء منه هؤلاء اليهود ، وهل كانوا يهودا من العبرانيين أو عربا دانوا باليهودية (٢) . ولكننا عندما نشرع في التعرف اليهم في حياة محمد ، نرى أن لغتهم كانت العربية وأنهم كانوا منظمين في قبائل تماما كالقبائل العربية .

.

(١) لا أدري من أين جاء جلوب بهذه التسمية . وقد تكون إحدى شطحات الخيال .
(٢) يقول الرحوم الخضرى في محاضراته ان اليهودية جاءت الى الحجاز مع اسرائيليين فارقوا الشام اثر اضطهادهم هناك . ويضيف ان بعض القبائل العربية قد تهودت على أيدي هؤلاء الوافدين . ومن هنا انتشرت اليهودية . (العرب)

عبدة الأصنام :

لم يعرف الا التلليل عن ديانة العرب القديمة ، وذلك لان المؤرخين ، المسلمين لم يروا فيها شيئا يستحق التسجيل . ويبدو ان العرب كانوا يعبدون فى الاصل نصبا حجرية وأشجارا على الرغم من أن هذه الاشياء المقدسة لم تكتسب قداستها الا من الاعتبار ، لا من واقعها ، أى من اعتبارها . المستقر الذى تأوى اليه بعض الارواح .

ويبدو أن عبادة الاصنام المنحوتة ، جاءت تطورا متأخرا . فعبادة الاصنام الحجرية المنحوتة فى شكل مخلوقات بشرية ، كانت الى حد ما ، انحرافا فاسدا نقل الى الاشياء المادية الاحترام والتوقير اللذين كانا يوجهان فى يوم ما الى الارواح النقية الصافية . ومن المحتمل أن تكون الاصنام المنحوتة قد نقلت كما تشير التقاليد من سوريا حيث كانت تماثيل آلهه الاغريق والرومان منتشرة فيها ، ولا ريب ، قبل انتشار المسيحية .

وكان العرب البدائيون يعتقدون ان فى مكنتهم الحصول على البركة عن طريق تقبيل شئ مقدس أو لمسه أو دعه بأصابعهم . وما زال أبناء القبائل حتى يومنا هذا يقومون بلمس أضرحة الاولياء المحليين عند زيارتهم لها بأيديهم أو تقبيلها بشفاهم ، ثم يمسحون وجوههم بأيديهم طلبا للبركة .

ومن المحتمل أيضا أن تكون هذه الاصنام المنحوتة ، مخلفات عصر قديم من عصور «الطواطم» . حيث كانت كل قبيلة تضع لنفسها شعارا (طوطما) تستمد رموزه من الطبيعة ، أو تربطه بالاقوال المتناقلة عن أسلافها . وكثيرا ما ارتبطت الاصنام بمكان مقدس ، لتكون الروح الامينة الحارسة لينبوع من الينابيع أو مجموعة من الآبار . وكانوا يعتبرون الصنم الاله أو الروح الذى يتولى حراسة القبيلة طيلة اقامتها الى جانب هذا الينبوع أو تلك البئر . ولكن عند ما تسبب الحروب أو المجاعات أو تزايد السكان ، هجرة القبيلة الى مناطق أخرى للرعى ، فان القبيلة الجديدة التى تحل محلها تجعل من أرواح الآبار المحلية أو الاشجار أو الصخور الآلهة الخاصة بها .

وكانت جماعات بنى صخر فى شرق الاردن حتى الحقبة الثانية أو الثالثة من القرن الحالى ، اذا ما مرت بآبار (باير) (١) فى وسط الصحراء

(١) مكان فى صحراء الاردن ، فيه معتقل صحراوى ، كثيرا ما استخدمه جلوب وغيره . من حكام الاردن سجناء ينفون اليه الاحرار للتكيد بهم . (العرب)

تتولى ذبح بعير من أباعرها تكريما لضريح جد القبيلة «أسد» ، الذى يقال انه موجود فى هذا المكان ولا ريب أن هذه الآبار موجودة منذ آلاف السنين . ومن المحتمل أن تكون هى التى أشار إليها سفر العسدر فى التوراة فى الآية السادسة عشرة من الفصل الحادى والعشرين اذ قال : «ورحلوا من ثم الى البئر وهى البئر التى قال الرب فيها لموسى اجمع الشعب حتى أعطيهم ماء . . بئر احتفرها الرؤساء ، احتفرها اشراف الشعب » . تكن قبيلة بنى صخر لم تغد الى شرق الاردن الا منذ نحو من ثلاثة قرون . ومن هذا يبدو أن أسد ، الذى يرجع تاريخه الى ما قبل الاسلام لم يكن الا الروح المقيمة فى هذه الآبار ، ثم بنى الضريح الذى يستعقل هذه الروح بعد قرون طويلة ، ليرمز الى جد بنى صخر ، عندما احتلت القبيلة هذه المنطقة وسنرى بعد قليل كيف أن مكة نفسها انتقلت من قبيلة الى أخرى ، بطريقة لا تختلف عن هذه كثيرا .

ويبدو أن عبادة الاجرام السماوية التى انتقلت من الكلدانيين فى العراق ، قد اختلطت فى هذه الآونة بعبادة هذه الارواح المثلة للسيرول والصخور والاشجار . ولا ريب فى أن وفرة عدد من كانوا يسمون «بعبد شمس» فى اليهود التى سبقت الاسلام ، تقوم دليلا على صحة هذه الحقيقة .

وكان الشعر هو أعظم ما تميز به العرب فى العهد التى سبقت الاسلام . ولما كانوا محرومين من التأثيرات الروحية ، ومفتقرين الى الايمان بالحياة الثانية ، فان جل اشعارهم كانت تتناول موضوعات الحرب والفخر والنساء والخمر . . فقد جاء فى ديوان الحماسة .

ان شواء ونشوة (١)	وخيب البازل الامون
يجشمها المرء فى الهوى	مسافة الغائط البطين
والبيض يرفلن كالسدى	فى الربط والمذهب المصون
والكثر والخفض آمنا	وشرع المـزهر الحنون
من لذة العيش والفتى	للدهر والدهر ذو فنون
والسر كاليسر والغنى	كالعدم والحى للمنون

(١) اخلا نيكولسون المستشرق المعروف بعض الاخطاء فى ترجمة هذه الابيان الى الانجليزية فذكر الخمر مثلا . وقد استعدها من النشوة . مع أن معنى النشوة هنا الجمر وهى والخيب ضرب من سر الابل . كما قال ان الانسان هو حماقة الدهر أو الزم مع أن القصد كما يبدو فى البيت أن الانسان هو ملك الدهر يتصرف فيه كيف يشاء .

(العرب)

ويقال أن الكعبة في مكة كانت تضم في عصر الجاهلية نحوا من (٣٦٠) صنما ، ومن أشهر هذه الاصنام العزى واللات ومناة ، وثلاثتها من الآلهة، وهبل وهو كبير الاصنام المذكورة ، ويقال انه جاء من سوريا . وقد تصلق الروايات التي قيلت في هذا الصدد . اذ عثر في كتابات الانباط في البتراء في شرق الاردن والتي يعود عهدها الى عدة قرون خلت على اسم «هبل» بين الآثار المكتوبة .

ولكن على الرغم من أن العرب كانوا يصبنون كما يبدو ، أو يجعلون عددا كبيرا من الأوثان والاصنام قبل ظهور الاسلام ، الا أنهم كانوا على علم كما يبدو بفكرة «الله» كالمهيمن المطلق على الكون . وانى لأرى أن من واجبنا أن نحذر من الاستنتاج بأن العرب كانوا قوما من المتوحشين الجهلة لأنهم عبدوا الاصنام والأوثان . فلقد بات الدين الذي كانوا يعتنقونه صحيحا في مجاهل التاريخ ، بحيث اصبح من العسير علينا أن نشرح حقيقة ما عناء هذا الدين لهم . ولقد رأينا أن اجلال الاصنام في التاريخ سار جنبنا الى جنب مع المقاييس الرفيعة للثقافة والفكر . ولقد رأينا رومة في عهدها الذهبية في أيام أوغسطس والأباطرة الانطونيين ، تعيش في عصر الوثنية وذلك بعد قرون طويلة ، من الافكار الرفيعة التي جاء بها افلاطون وسقراط .

والخلاصة ...

لا يمكن مطلقا أن يتكون لدينا الانطباع بأن العرب في عهود ما قبل الاسلام كانوا قبائل متوحشة تعيش على النهب والسلب . فلقد كانت الجزيرة العربية ، تقع كما تقع اليوم بين المحيط الهندي والبحر الابيض المتوسط ، وكانت أهم طرق التجارة العالمية التي لم يتغير حالها منذ الأزل تمر عبرها أو حولها . وقد أدى هذا الموقع السوقي الهام الى نتيجتين اولاهما أن التجار العرب ، وكثيرون منهم من الاغنياء والناجحين ، كانوا يؤمون أسواق فارس وسوريا ومصر ، وكانوا يؤلفون ولا ريب مجتمعا مختلطا يسوده الرخاء والثراء ، أما النتيجة الثانية فهي أن دولا عربية غنية ومتحضرة نمت وازدهرت قبل قرون طويلة من ظهور الاسلام على الطرق التي تسير فيها تجارة الشرق . ومن هذه الدول دولة سبأ في الجنوب العربي والانباط في شرق الاردن ، والغساسنة في سوريا واللخمين في الحيرة . وكان أمراء الدولتين الاخيرتين يعرفون حق المعرفة بلاطات القياصرة والأكاسرة .

ومن الصحيح أن يقال ان الجزء الاكبر من داخل الجزيرة العربية ، كان يتألف من سهوب شبه صحراوية يضطر ساكنوها الى كسب قوتهم اليومي كقبائل رحل من انتجاع الكلأ للابل والماعز والاغنام التي يربونها . وتجعل حياة البدو التي تتطلب الترحال الدائم المستمر من العلم وحتى من مجرد القراءة والكتابة ، أمرا يكاد يشبه المستحيل . ولم تفتح ثقافة الشعوب الفربية الطريق أمام توفير العلم للجميع الا في عصرنا هذا . فقبل نحو من مائتي عام كان الفلاحون وأهل الارياف في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وإنجلترا ، وهي أكثر بلاد العالم حضارة آنذاك ، أميين ويؤمنون بالحرافات والاشباح ، فلا بدع ان عاشت الثقافة والهمجية في القرون القديمة جنبا الى جنب في بلاد واحدة .

وكانت المسيحية واليهودية منتشرتين الى حد كبير بين العرب في حقل الدين وكان بين المؤمنين بهما عدد من القبائل البدوية التي يدين بعضها بالنصرانية اسما على الاقل . أما الغالبية فكانت لاتزال تعبد ارواحا لا عد لها ولا حصر ، تقيم في الصخور ومسائل المياه والاشجار وتقدم تقديسها الى حد ما الى الشمس والقمر والنجوم ولكنها تعترف في الوقت نفسه وبطريقة يشوبها بعض الغموض بوجود ديان سماوى أعظم يهيمن على الكون .

وقدر لهذا الشعب - المتميز بالقسوة والتعود على شظف العيش ، وعلى اثاره الفتن والذي يضم مجموعة من العقائد الدينية المختلفة وتسوده الغربة والتجزئة نتيجة فروق شاسعة على الصعدان الثقافية ، أن يخلق تيارا عاصفا من المحاربين الملهبين حماسا والمتقدين حيوية وايمانا والذين شاء لهم قضاؤهم أن يبدلوا تاريخ العالم بأسره . وقدر لهذا التفجر البركاني أن يتزامن مع عهد من الضعف المتزايد والاضطراب في كل من امبراطوريتي فارس وبيزنطة . وقد نجمت هذه الحالة من الاجهاد التي أصابت الدولتين الكبيرتين من الدمار الذي لحق بكليتهما من جراء الحروب التي لانهاية لها والتي شنتها الواحدة منهما على الاخرى ، تماما كما حدث اليوم بالنسبة الى الدول الكبرى في أوروبا . أما بالنسبة الى بيزنطة ، فقد تزايد هذا الضعف الخارجى ثمرة للفتن التي أثارها الخلافات والاضطهادات الدينية .

تواريخ بارزة

(سنلحق قائمة عامة بالتواريخ في نهاية الكتاب)

بعد الميلاد

٥٢٢	احتلال الاحباش لليمن
٥٧٠	مولد محمد
٥٧٤	طرد الاحباش من اليمن بمساعدة الفرس
٥٨١	الامبراطورية البيزنطية تقضى على دولة الفساسنة
	كسرى ابرويز يغزو الامبراطورية البيزنطية ليشأر
٦٠٢	للامبراطور موريس
٦٠٢	القضاء على دولة المناذرة
٦١٠	هرقل يصبح امبراطورا
٦١٦	كسرى يحتل مصر وآسيا الصغرى

قائمة الملوك

التاريخ	التاريخ (الارتقاء)	اباطرة القسطنطينية
ب . م	ب . م	
	٥٢٧	جوستنيان
٥٧٩	٥٦٥	جوستنيان الثاني
٥٩٠	٥٧٤	طيبيريوس
	٥٨٢	موريس
	٦٠٢	فوقا
	٦١٠	هرقل

قريش

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل • ألم
يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ،
ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف ماكول »

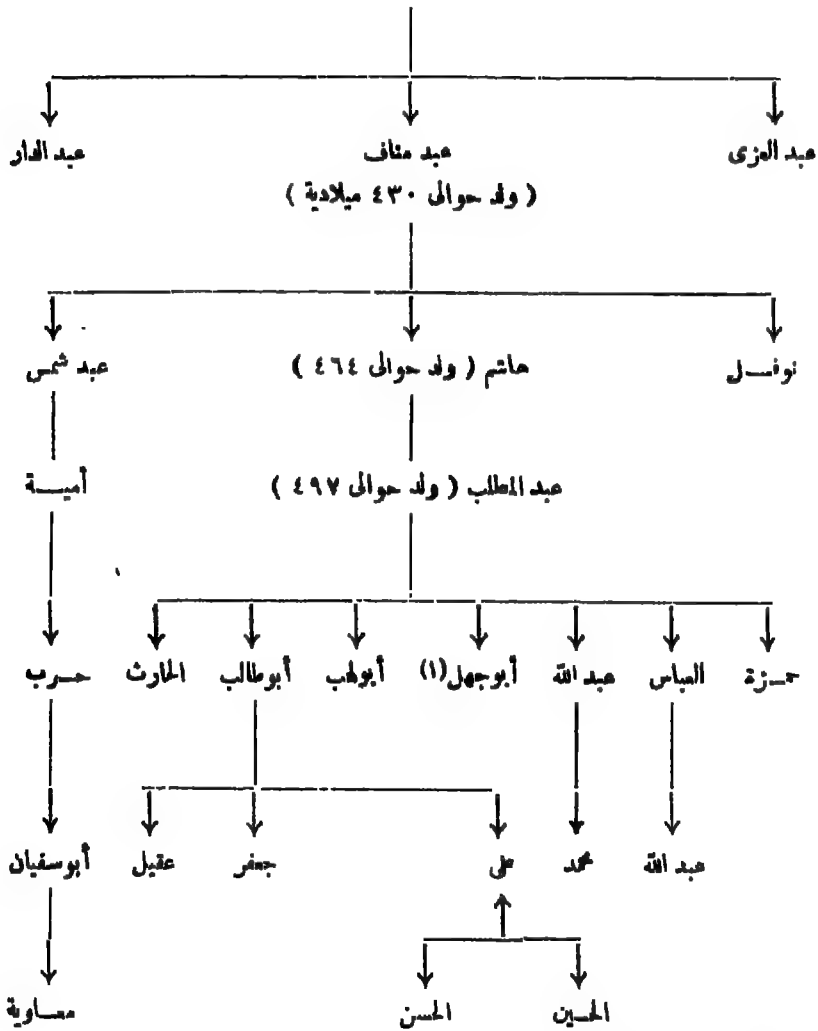
(القرآن الكريم - سورة الفيل)

« لا يلاف قريش أيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ،
فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم
من خوف » •

(القرآن الكريم - سورة قريش)

نسب قریش

قصی (ولد حوالي ٤٠٠ ميلادية)



(١) أخطأ المؤلف خطأ كبيرا إذ جعل أبا جهل من أبناء عبد المطلب مع أن أبا جهل واسمه عمرو بن هشام من بنى عبد الدار لا من بنى هاشم بن عبد مناف . وهذا خطأ يظهر حقيقة قيمة الكتاب من الناحية التاريخية والعلمية . (العرب)

رأينا في الفصل السابق كيف أن تجارة الشرق والتوابل ، ظلت تمر طيلة نحو من ألف عام قبل القرن السادس للهجرة من الجنوب العربي حيث تحملها السفن الى الشمال عن طريق القوافل التي تبدأ مسيرها من مملكتي سبا وحميز الى مصر وسوريا فرومة وبيزنطية . وكانت مكة تقع تقريبا في منتصف الطريق بين مملكة الجنوب العربي وبين مراكز التوزيع على البحر الابيض المتوسط في مصر وغزة وسوريا . وكانت طرق القوافل تنفرع من مكة أيضا الى الشمال الشرقي باتجاه الحجرة (القطيف المحاصرة) (١) الواقعة على الخليج ومنها باتجاه الشمال الى الحيرة على الفرات متجنبين صحراء الربع الخالي وصحراء النفوذ . ويتبين من هذا أن مكة ظلت قرونا طويلة ، مركزا مهما من مراكز القوافل .

وكانت تضم منذ أقدم العصور بناء الكعبة التي كان يؤمها أبناء القبائل الدانية والقاصية من كل فج عميق لأداء الحج ، نظرا لما تحتله من مكانة القداسة في عيونهم . ويبدو أن بئر مكة وكعبتها أضحتا منذ عام (١٠٠) قبل الميلاد ، في رعاية قبيلة عربية تدعى بنى جرهم . ومن المحتمل أن تكون هذه القبيلة قد أخرجت من أرضها في القرن الثالث للميلاد أمام الهجرات المألوفة نحو الشمال الناجمة عن الفاقة التي أحاقّت بدولة سبا وأن تكون قبيلة خزاعة ، وهي فرع من قبائل الأزدي التي هاجرت من اليمن نحو الشمال قد حلت محلها .

وكانت هناك قبائل عدنانية من نسل اسماعيل بن ابراهيم قد أقامت في شمال الحجاز ، وكانت بينها قبيلة قريش (٢) . ويقال ان فهر زعيم قريش بنى في عام ٢٣٥ للميلاد بامرأة من خزاعة ، هي ابنة شيخها

(١) اختلف مع المؤلف في اعتباره القطيف اسما حديثا . فالقطيف اسم قديم وقد أورده البلاذري في أكثر من مكان من كتابه « فتوح البلدان » كما أورده ياقوت الحموي في كتابه « معجم البلدان » . ونقل الأستاذ الخضري الاسم نفسه في كتابه . (العرب)

(٢) يتفق المؤرخون العرب على تقسيم الجنس العربي الأصلي الى مجموعتين أولهما شمالية والثانية جنوبية . ويرد أصل المجموعة الشمالية الى اسماعيل بن ابراهيم ويقال انها نشأت فيما يؤلف الآن شمال الحجاز وجنوب الاردن . وتتألف المجموعة الثانية من تلك القبائل التي هاجرت شمالا من اليمن الى اواسط الجزيرة العربية حيث تم الاختلاط بين المجموعتين وكانت قريش تنتمي الى المجموعة الشمالية . (المؤلف)

الذى كان يتولى سدانة الكعبة ، وعاد قصى وهو من ذرية قهر فتزوج فى عام ٤٢٠ ميلادية بابنة رئيس خزاعة . ويبدو أن الخزاعى أعجب كثيرا بصهره قصى فأسلمه مفاتيح الكعبة ، وإناؤه عنه فى سدانتها وخدمتها . ولما توفى الرئيس الخزاعى ، أراد قصى أن ينقل هذا الشرف أصالة الى نفسه لا وكالة عن خزاعة ، ولكن رجال القبيلة عارضوه فيما أرادوه ، ومع ذلك فقد تمكن قصى الذى أعد للأمر عدته . واستنجد بأبناء قبيلته من قريش ، من تحقيق ما أراد . ودارت رحى معركة عنيفة فى عام (٤٤٠) ميلادية هزمت فيها خزاعة ، وأصبح قصى سادن الكعبة وحارسها ، فى حين تحولت خزاعة الى مركز ثانوى .

ويبدو أن قصيا هذا ، كان رجلا بارزا فى شخصيته وذكائه . اذ لم يكند يسيطر على مكة سيطرة كاملة حتى شرع ينظم أمره فيها . ولم تكن هناك حتى هذا التاريخ أية أبنية فى المدينة باستثناء بناء الكعبة والمصلى أما العرب فكانوا يقيمون فى خيام فى الوديان المحيطة بشعابها . وقد أصدر قصى أمره الى قريش ببناء البيوت حول المصلى . وكانت القبائل العربية هنا تسير على السنة القمرية ، نظرا لسهولة هذا الحساب بالنسبة الى الأميين الذين يجهلون القراءة والكتابة لقدرتهم على تمييز الدورة القمرية فى مراحلها المختلفة . لكن السنة القمرية تقل أحد عشر يوما وجزءا من اليوم عن السنة الشمسية . وهكذا فإن موسم الحج الى الكعبة المحدد فى الشهر الاخير من السنة القمرية يرتد كل سنة أحد عشر يوما الى الوراء تقريبا وبذلك يطوف جميع فصول السنة الشمسية وأيامها مرة كل ثلاث وثلاثين سنة . ولما كان قصى قد أدرك أن الحريف هو أفضل فصل لاداء موسم الحج ، فقد أفلح فى اقناع العرب بقبول ضم شهر ثالث عشر الى السنة القمرية مرة كل ثلاث سنوات . وكانت هذه المحاولة جريئة للتوفيق بين السنتين الشمسية والقمرية ، وان كان هذا التوفيق لا يتم على نحو دقيق تماما . (ولكن النبى محمدا لامر نجهله ، وهو من أحفاد قصى ، أمر بإلغاء هذا الشهر الاضافى ، مما أدى الى بقاء فرق الأحد عشر يوما وكسور اليوم بين السنتين الشمسية والقمرية منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا . لكن الحادث يوضح لنا على أى حال ما اتصف به قصى من ذكاء وإقدام) .

أما وقد انتهى الزعيم من تحديد الموسم السنوى للحج ، فقد شرع فى تنظيم الترتيبات السنوية الخاصة به . وكانت الواجبات المرتبطة بالحج مثلثة الشكل ، فهى تشمل سدانة الكعبة ، وتأمين الغذاء للحجاج طيلة أيام الفروض الدينية الثلاثة ، وتأمين السقاية والماء لهم ، وهو عمل

كان يعتبر شاقا الى حد ما ، ويبدو أنه قرر أن الشرف الرفيع الذى تحظى به قريش من سدانة الكعبة ، يجعل من المحتوم عليها ، أن تتسولى رفاة الحجيج وسقايتهم بلا مقابل طيلة الايام الثلاثة . وليؤمن هذه النتيجة فرض قصى ضريبة على أهله من قريش بدلا من أن يفرض رسوما على الحجيج .

وقد يتساءل المرء ، كيف كان بالامكان ايجاد الموارد الكافية لمثل هذا الانفاق الضخم . لكن أسواقا تجارية كانت تعقد في موسم الحج فى مكة وفى الشعاب المجاورة لها . فعندما كانت القوافل تمنى الى سورية ومصر محملة ببضائع الشرق ومنتجاته كانت تنوب من هناك الى مكة مثقلة بما تحمله من بضائع تطلق عليها اليوم اسم السلع الاستهلاكية ، مصنوعة فى منطقة البحر الابيض المتوسط . وفى وسعنا أن نفترض أن قريشا حافظت على مكانتها عن طريق التجارة التى تحملها هذه القوافل وبيع سلمها الى الحجيج فى هذه الاسواق المحلية . ومن هنا يظهر أن خدمة الحجيج المجانية ، على الرغم من ظاهرها الورع التقى ، كانت حافزا فى الوقت نفسه على تنشيط تجارة قريش عن طريق زيادة عدد المتعاملين معها . وأرى لزما على أن أذكر اجراءين آخرين ابتدعهما قصى أولهما انشاء مجلس لشيوخ قريش شيد له مقرا على مقربة من الكعبة . وثانيهما العادة التى جرى عليها وهى أن يسلم الى قائد أية حملة عسكرية تبعث بها القبيلة ، رمحا يعقد هو بنفسه على رأسه قطعة بيضاء من القماش لتكون راية القبيلة ، يلتف حولها المحاربون . وقد قدر لبعض هذه العادات التى استنساها هذا الرجل المتفوق اللامع لاهناء عشيرته انصاف العراة المقيمين فى اكواخهم الطينية حول هذه البئر الصحراوية ، فى منطقة مجربة وغير ذات زرع من الجزيرة العربية ، أن تعمر قرونا طويلة ، كطقوس مبهجة فى امبراطورية تعتبر من أعظم ما شهده العالم من امبراطوريات .

وقد غدا قصى رجلا له مكانته المرموقة ، عن طريق هذا التنظيم الفعال فى الميدانين الدينى والتجارى ، وطارت شهرته الى أقاصى الشمال والجنوب ، يحملها تجار القوافل ، والى صحارى الجزيرة العربية ينقلها الحجاج من أبناء القبائل الذين كانوا يقدون الى الكعبة المقدسة من كل فج عميق .

وتوفى قصى حوالى عام ٤٥٠ أو ٤٦٠ ميلادية مخلفا مركزه المرموق الى أكبر أولاده عبد الدار . وتبدو الاهمية التى كان قصى يعلقها على التزاماته الدينية فى الاسماء التى اختارها لأولاده وهى عبد الدار أى خادم الدار والمعنى بالدار «الكعبة» ، وعبد مناف وعبد العزى ، ومناف والعزى صنمان.

من أصنام الكعبة • وانجب عبد مناف عددا من الاولاد ومنهم عبد شمس ، ونوفل وهاشم • واستعرت الاحقاد والغيرة بين ذرية عبد الدار وذرية عبد مناف ، مما أدى الى تجزئة مسئوليات القبيلة بين الاثنتين • واحتفظ آل عبد الدار بسدانة الكعبة والحق في عقد الراية أيام الحروب ، وتسمى اللواء وكذلك بالندوة في حين كان من نصيب آل عبد مناف الحق في سقاية الحجاج ورفادتهم •

وكان هاشم أبرز أبناء عبد مناف • وكان أخوه عبد شمس قد تولى الحق الوراثي في قيادة قريش في حروبها ، بينما كان هاشم الذي ائثرى من تجارة القوافل قد اكتسب الشهرة وذبوع الصيت بجوده وبالغ كرمه في رفادة الحجيج القادمين من مختلف أطراف الجزيرة العربية • وبنى هاشم أثناء رحلاته التجارية بامرأة من يثرب وهي بلدة تقع على بعد نحو من مائتين وخمسين ميلا الى الشمال من مكة • وكانت سلمة التي تزوجها هاشم من قبيلة بنى النجار التي تقيم على مقربة من البلدة وقد امتازت بشخصيتها البارزة وقد وضعت في عام ٤٩٧ غلاما أسماه أبوه «عبد المطلب» وقد تولى عن أبيه ، بعد بلوغه سن الرشد مسئوليات رفادة الحجيج وسقائهم في مكة •

وسرعان ما ذاع صيت عبد المطلب في كل مكان ، حتى بز صيت والده هاشم ، وكاد يضارع شهرة جده قصي • وكان بنو عبد الدار قد ههوا في المنزلة الى الرتبة الثانية وان كان حرب بن أمية ، حفيد عبد شمس قد حاول منافسة عبد المطلب في مكانته وشهرته • لكن محاولاته باءت بالفشل ولكن قدبر لهذه المنافسة التي قامت بين هاتين العشيرتين العربيتين وما قام بينهما من حزازات أن تهز العالم المتحضر بعد نحو من قرن من الزمان • ولكن من الواجب أن نلاحظ هنا أن قريشا لم تعد تدين لرئيس واحد ، فليد كان لكل عشيرة رئيسها ، وكان لكل واحدة منها في بعض الحالات ، واجباتها الخاصة بها وامتيازاتها • ولقد نمت المنافسة بصورة خاصة بين ذرية هاشم وذرية أمية •

وقد تحدثنا في الفصل الاول عن احتلال الاحباش للجنوب العربي في عام ٥٢٢ • وكان قد سبق لنجران في أيام الوثنية ان ضمنت كعبة ، يحج إليها الناس • فلما تحولت نجران الى النصرانية ، تحولت هذه الكعبة الى كاتدرائية • وتقول الاساطير ان ابرهة ، نائب ملك الحبشة في اليمن ، أراد بدافع تعلقه بالنصرانية أن يدمر كعبة قريش في مكة ، ليجول الحجيج من أبناء القبائل العربية الى نجران النصرانية • ومهما

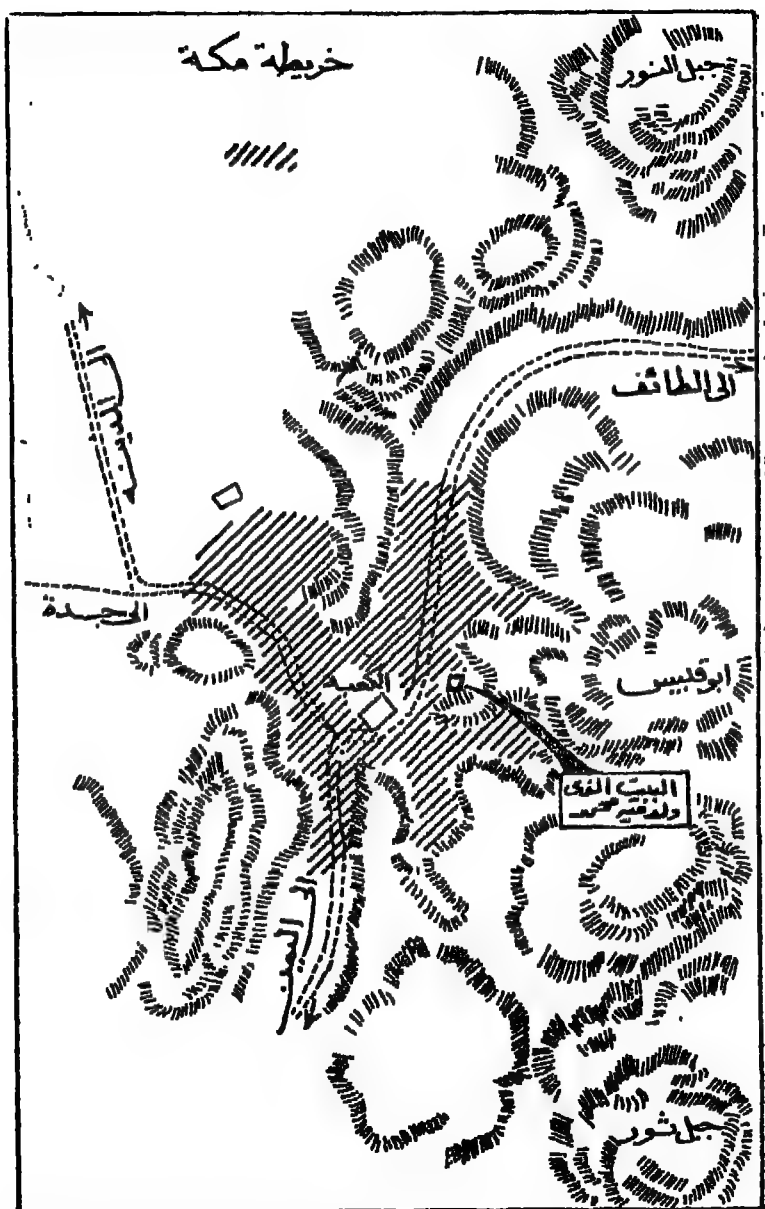
كانت دوافع ابرهة ، وسواء اكانت دينية أم استعمارية فانه زحف على مكة في عام ٥٧٠ ووصل الى نقطة لا تبعد الا بضعة أميال عن المدينة • وكانت قريش أضعف أو أجبن من أن تقف أمام الجيش الحبشي ، ومضى عبد المطلب على رأس وفد لمفاوضة ابرهة • وأعلن الجيش للوفد انه لا يقصد تدمير المدينة ولكنه يريد أن يدمر الكعبة الوثنية ، وهو طلب رفضه المكيون بأصرار الازعان له •

وعاد الوفد الى المدينة ، وقلوب أفرادها مثقلة بالهموم والاعباء • ونصح عبد المطلب أفراد شعبه بأن يجلوا عن مساكنهم وأن يلجأوا الى الكهوف القائمة في الجبال القريبة ويقال انه قبل أن يغادر المدينة أمسك بقضبان الكعبة وراح يصلى الى الله طالبا حماية بيته • ويستحيل علينا هنا أن نقرر ما اذا كان دعاؤه يحمل حقا هذا المعنى من الوحدةانية ، أو أن المؤرخين المسلمين اللاحقين هم الذين نسبوا اليه دعاءه لكن الصورة كلها تعكس على أى حال اخلاص أهل مكة لكعبتهم • اذ آثروا أن يهجروا مدينتهم ودورهم لجيش العدو على أن يوافقوا على هدم الكعبة التى يقدسونها •

ويبدو فى غضون ذلك ان الجدرى قد انتشر بسرعة بين رجال الجيش الحبشى ونسى الجنود هدف الحملة ، وتخلي ابرهة عن هدفه فى هدم الكعبة ، وشرع الجيش فى عملية انسحاب هى أقرب الى الهزيمة ، ليموت ابرهة بعد وصوله الى صنعاء • وكان الاحباش قد جاءوا معهم بفيل الى مكة ، ولهذا فقد أطلق على عام ٥٧٠ ، منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا اسم عام الفيل الذى ورد فى صفحات القرآن أيضا (١) •

وشهد عام ٥٧٠ حادثا آخر أكثر أهمية من الكارثة التى أحاقها بالجيش الحبشى • ففي العشرين من أغسطس (٢) من تلك السنة ولد محمد نبي الاسلام المنتظر فى مكة • وكان أبوه عبد الله بن عبد المطلب قد توفى قبل بضعة أشهر من ولادته • أما أمة أمه فهى من

-
- (١) تقول رواية سيرة ابن هشام أن الجدرى والعصبة قد انتشرا بين الاحباش •
 (٢) يقول المرحوم الخضرى في تاريخه ان الرسول ولد مبيحة الاثنين التاسع من ربيع الاول لاول عام من حادثة الفيل ، وهو الموافق العشرين من شهر ابريل سنة ٥٧١ ميلادية • أما المؤلف فقد استقى روايته من برسيغال في كتابه « العرب قبل الاسلام » •
 (العرب)



عشيرة زهرة التي كان جدها أخا لقصى الشهير . ولما كان الطفل يتيم الأب ، فقد احتضنه جده عبد المطلب ، شيخ العشيرة الوقور وكان قد جاوز الآن السبعين من عمره . وكانت عادة قريش قد جرت على التماس المراضع لأولادهم في البادية عند نساء القبائل المجاورة ، ليستنشقوا هواء البادية النقي الصافي مما في المدن من عفونات وغبار . وهكذا عهد برضاة محمد الى امرأة من بنى سعد النازلين على مقربة من مكة .

وعاد الطفل الى أمه في مكة وكان في السادسة من عمره (١) ولكن لم تمض قرابة سنة حتى توفيت بعد أن تركته يتيم الابوين ، وإن كانت هناك أمة لجده تسمى أم أيمن ظلت تعنى به وترعاه . ونقله عبد المطلب الى داره وغدا شديد التعلق به ، وكثيرا ما كان يداعبه ويلهو معه . ولكن جده ما لبث أن توفي وهو في الثامنة من عمره ، وعاد مستقبل الطفل من جديد عرضة للاقدار ، وإن كان الزعيم المحتضر قد أوصى وهو على فراشه الموت ، بحفيده الى عناية ولده أبي طالب عم محمد .

وهكذا أصيبت حياة الطفل من جديد بانقلاب كلي . ولكن المشاعر القبلية كانت أقوى بكثير من أن تسمح باهمال طفل أو التخلي عنه ، وإن كانت هذه التبدلات المستمرة في المكان الذي يعيش فيه الطفل قد ولت لديه مشاعر من عدم الاستقرار والاحساس بالوحدة ، مما يخلق عادة عند ذوى هذه المشاعر مزاجا دائم التأمل كثير التفكير . ولكن الحامي الجديده الذي تولى رعايته كان على أى حال لطيفا كل اللطف ، وكان ذا شخصية نبيلة ، وسرعان ما غدا شديد التعلق بمحمد ، واستصحبه معه ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، في إحدى رحلاته طلبا للتجارة الى سورية ، وهي رحلات كان يعتمد عليها تجار مكة في كسب أودهم .

وإذا ما استثنينا هذه الرحلة ، فإن الحراسة ظلت على وتيرة واحدة . بالنسبة الى محمد الفتى ، الذي كان يعيش كواحد من أسرة عمه . لكن أبا طالب على الرغم من لطفه وكرمه لم يكن بالرجل الثرى . وكان عند أولاده آخذا في التزايد مما استنزف موارده وأنضبها . ولم تكن لمحمد موارد خاصة ولذا فكان يقنع بأن يكسب ما يستطيع إما عن طريق بعض الصفقات التجارية أو عن طريق رعاية الماشية . وظل في فتوته يتميز بطابع الهدوء والتحفظ والجدية والوقار ، وكلها صفات قد تكون ناجمة عن

(١) تقول جميع السير وكتب التاريخ أن محمد عاد من البادية وهو في الرابعة

(الهريب) .

من عمره .

أوضاع يتمه ، وعما عاناه في طفولته من رزايا • واقترح عليه عمه أبو طالب عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره أن يستصحب إحدى القوافل المسافرة الى سورية • وكانت هناك أرملة ثرية موفورة الحال من قريش تدعى خديجة تتعهد شئونها بنفسها، وتقوم على تصريف مشروعاتها التجارية التي تشمل الاشتراك في تجارة القوافل • وكانت خديجة في حاجة الى وكيل أمين موثوق به ليصحب رجالها في القافلة المسافرة الى الشمال وليشرف على بيع بضائعها وعلى شراء شحنة من البضائع السورية بما يتجمع من عملية البيع الأولى ، لبيعها في مكة • وقد تمكن أبو طالب من تعيين ابن أخيه في هذا المنصب ، ولأسيما وأن محمداً نال شهرة عطرة بما عرف عنه من صدق وأمانة •

ومن المحتمل أن تكون هذه الرحلة قد استغزت تفكير الشاب الكثير التأمل • ويبدو ان العملية نجحت كل النجاح من الناحية المالية ، مما أرضى خديجة كل الرضى وجعلها تعجب بوكيلها الجديد • ولم تمض بضعة أسابيع على عودته من رحلته حتى كانت توفد اليه من يقترح عليه الزواج بها • ويقال انها كانت في ذلك الحين في الأربعين من عمرها في حين كان محمد في الخامس والعشرين • وإذا ما استثنينا فارق السن فإن الزواج كان مرضياً للفريقين من جميع النواحي • فلقد كان خويلد والد خديجة من وجوه مكة ويمن في نسبه أيضاً الى قصي • وقبل محمد الاقتراح وتم الزفاف •

وعلى الرغم من فارق السن فلقد كان الزواج موفقاً كل التوفيق وحملت خديجة لمحمد بولدين توفيا في سن الطفولة وبأربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وقد يثير حملها لستة أولاد الشك في الرواية التي تقول بأن خديجة كانت في الأربعين من عمرها عندما بنى بها محمد ، ومن المحتمل أن تكون جاهلة لحقيقة سنها كما هي الحال بالنسبة الى كثيرات من بنات القبائل العربية حتى يومنا هذا •

وحزر ثراء خديجة زوجها محمداً من العوز ، فأتاح له المجال لاحتلال مركز اجتماعي مرموق في مجتمع مكة الذي كان يقدر الثراء (١) • لكنها واصلت على أي حال ادارة أعمالها التجارية بنفسها وبذلك حررتة من

(١) لم يكن المركز المرموق الذي احتله محمد في مجتمع مكة بفضل ثروة خديجة وإنما تان بفضل أخلاقه التي أجمع المؤرخون على أنها ضمت صدق الحديث والأمانة حتى سموه بالأمين والأمناع من الشر ومن حياة اللهو ، والوقار • (العرب)

المتاعب المالية ليجد الوقت الكافي لاشباع رغباته فى الوحدة والتأمل وهى رغبات ازدادت قوة مع نضوج سنه • وعلى الرغم من أن محمدا كان موزونا ومتحفظا ، صموتا ميالا الى الهدوء ، الا انه كان يحس بالراحة الى العشرة الطيبة فتنفرج أساريره فى مثل هذه الحالات ويغدو انسانا سمحا رقيق المعشر ميالا الى المزاح البرى •

وعندما أحس محمد بالاستقرار فى حياته شرع - مدفوعا بحبه لعمه أبى طالب الذى احتضنه ورعاه - يحاول التخفيف من ضائقته وعرض على عمه أن يهون عليه بعض نفقاته ، وأن يحتضن أحد أولاده ليتولى الانفاق عليه •• ووقع الاختيار آنذاك على على ، وكان فى السادسة من عمره فنشأ فى كنف ابن عمه محمد وكأنه أحد أولاده •

وكان لخديجة عبد يدعى زيد بن حارثة ، وهو ينتمى الى قبيلة أضره (١) العربية المسيحية التى كانت تقيم فى جنوب سورية فسرقه بعض اللصوص وهو طفل ثم باعوه عبدا فى أسواق مكة الى أن وصل أخيرا الى يد خديجة • وقد أولع محمد ولعا شديدا بهذا الخادم وتعلق به فانتدبته خديجة ليتولى خدمته الشخصية • ولم يمض طويل وقت حتى كان والد زيد الذى ظل يبحث عنه السنوات الطوال قد وصل الى مكة متفيا أثر ولده فعرض على خديجة مبلغا كبيرا من المال يفتدى به حريته ولده من الرق • واستدعى محمد زيدا أمام أبيه وخيره بين اللحاق بأبيه فى الشام أو البقاء معه فى مكة ، ولكن الشاب كان قد تعلق بمحمد تعلقا شديدا فى حين لم يكن يعرف أباه الذى فارقه وهو طفل • واختار زيد البقاء مع محمد • وسر محمد بهذا الوفاء النادر فقاد الفتى من يده الى الكعبة حيث أعلن فى حرمها عتقه له وتبنيه إياه •

وعلى الرغم من أن أوثان الكعبة كانت موضع العبادة الرسمية فى مكة الا ان كثيرين من أهلها كانوا قد فقدوا إيمانهم بمثل هذه العبادة الفطرية الجاهلة • ولقد سبق لنا أن بينا ان عددا كبيرا من العرب كان قد اعتنق النصرانية وأن الجاليات النصرانية كانت منتشرة فى كل مكان • ولم تخل قرىش نفسها من رجال تحولوا الى النصرانية وكان ورقة بن نوفل وهو ابن عم لخديجة من أولئك الباحثين عن ديانة روحية أعمق من

(١) أجمع مؤرخو العرب على ان زيدا من بنى كلب لا من بنى أضره كما يقول المؤلف ولذا كان يسمى زيد بن حارثة الكلبى •

ديانة قريش ، ويقال ان رجلا آخر يدعى زيد بن الطفيل(١) وهو من قريش ، وقد توفي في هذا الوقت تقريبا ، اثر على محمد الشاب في تطلعاته وبحثه عن الله . .

واقترب عام (٦١٠) ميلادية وكان محمد قد بلغ الاربعين من عمره وازداد ميله الى الوحدة والتأمل . وكان يهرب من طرقات مكة المحرقة المغبرة ويلجأ الى كهوف الجبال القريبة من الوادي العتيق الذي تقع فيه المدينة ليقضى فيها أحيانا أياما متوالية . وتسرح أفكار الرجل متأملا في هذه القمم الجرداء الداكنة التي يراها أمامه من فتحات الكهوف والتي لا تظهر عليها نامة حياة ، ولا تفصلها بعضها عن بعض الا شعاب عميقة ضيقة من الاخايد والوديان الجافة وتعود فتتركز على فلسفة الحياة الاخرى التي كان قد سمع نتفا عنها من اليهود والنصارى ، وعلى وجود اله واحد أحد ، قوى صمد عنده الجنة السرمدية والحياة السعيدة الازلية يمنحها للمؤمنين من عباده ، وعنده جحيم جهنم بما فيها من عذاب لا نهاية له ينزله بالكفرة وغير الصالحين . وكان يعود الى بيته وقد أثقلته هذه الافكار فيبوح بها الى زوجته الوفية خديجة التي ما برح يجد عندها المستقر والمراح والحث والتشجيع وقد مزجت في رعايتها له بين حب الزوج وحنان الام .

وألّف محمد اللجوء الى الغار في الجبال في فترات معينة من شهر رمضان طلبا للتأمل والتعبد والتفكير والتهجد . وبينما كان يتعبد يضار حراء حسب عادته اذ نزل عليه جبريل رأس الملائكة . . وروى محمد . . قائلا : وجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال . . اقرأ ، قلت ما اقرأ . . ثم غشيني حتى ظننت انه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ ، قلت ماذا اقرأ ، وعاد فغشيني حتى ظننت انه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ . . قلت ما اقرأ ، فقال : «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم» . .

وقرأ محمد ما قاله الملاك ، وانتهت الرؤيا وهب من نومه فزعا ويكاد عقله يضطرم . . ويمضى محمد فيقول : « وخيل الى أن أذهب الى الجبل وأقذف بنفسى منه لاستريح . . فإذا ما كنت في الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : (يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل) فرفعت

(١) زيد بن عمرو بن نفيل المدوي . . لا زيد بن الطفيل . . . وهو الاسم الذي أورده البلاذري في « فتوح البلدان » وابن هشام في سيرته (العرب)

رأسى الى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قسيمه فى أفق
السماء .

وهزته هذه الرؤيا وعاد محمد الى بيته وأتى خديجة ليرى على
حسامها كل ما وقع له فقالت : أبشر يا بن عم واثبت فوالذى نفس
خديجة بيده انى لارجو أن تكون نبى هذه الامة (١) ، وكانت خديجة أولى
المؤمنات برسالة محمد . وكان ابن عمه على بن أبى طالب ثانياً من آمن
وكان فى العاشرة من عمره ليتبعه ابن محمد بالتبني زيد بن حارثة .

وكان بين تجار مكة المعتبرين تاجر يدعى عبد الله أو عتيق ، أبو بكر
بن أبى قحافة وينتمى الى فرع من فروع قريش . وكان أبو بكر من
الرجال المحبوبين ذوى المنزلة لما عرف عنه من خلق طيب ودعائه وكرمه .
وكان يصغر محمداً بسنتين وجاء ترتيبه الرابع بين من آمنوا برسالته .
ولا ريب فى أن مما يقيم الدليل على صدق محمد واخلاصه أن يكون
المؤمنون به الأولاد زوجته وولديه بالتبني وصديقه الحميم اذ ان هؤلاء
الاربعة كانوا على اتصال وثيق به فى كل يوم بحيث كانوا أعرف الناس
بمدى صدقه .

ولم يرب عدد من آمن بالرسالة فى أيامها الأولى على حفنة من
الناس ، نذكر منهم عثمان بن عفان من خلفاء المستقبل والزبير بن العوام
وسعد بن أبى وقاص وهى أسماء قدر لها بعد بضع سنوات أن تصبح
هدوية معروفة فى العالم المتحضر بأسره ، وكانوا جميعاً من قريش فلقد كان
عثمان من بنى أمية الذين يذكر القارىء ولا شك انهم كانوا ينافسون بنى
هاشم على الزعامة فى قريش . أما الزبير فكان من أقارب خديجة ومن
الذين يتصل نسبهم بنسب محمد أما سعد فكان قريباً لمحمد عن طريق
أمه .

وظلت الدعوة فردية ثلاث سنوات صدر الامر بعدها لمحمد بأن
يجهر بدعوته الى الدين . وكان محمد فى الثالثة والاربعين عندما انتهى
تررده وخرج الى ساحة المدينة التى تقوم الكعبة فى وسطها يدعو الى دينه
متحدياً المشركين من عبدة الأوثان (٢) . وكانت خطوط دعوته متناهية فى

(١) يقول المؤلف انه نقل هذه الرواية من ترجمة الاستاذ جيوم لرواية ابن اسحق
وقد قارنتها مع رواية ابن هشام فوجدتها قريبة منها كل القرب . واذا كان قد وقع بعض
التحريف فى اللفظ وهو قليل نادر فانما مصدره ترجمة رواية جيوم . (المغرب)
(٢) كانت انجلترا لا تزال فى ذلك الحين وثنية . فقد هبط القديس أوغسطين =

بساطتها فهو يقول للناس ان هناك الها واحدا وان الاوثان شرك لا نفع منها ولا ضرر ويجب أن تزال ، وانه رسول الله جاء مبشرا ونذيرا ، وأن يوم الحساب قريب حيث يخرج الناس من قبورهم اشتاتا فيمضى منهم الى فراديس النعيم الصالحون المؤمنون ، ويمضى الى غياهب الجحيم الاشرار المشركون حيث يصلون سعيها الى أبد الآبدين .

وذكر محمد ليعزز أقواله ان الوحي الالهى يهبط عليه مباشرة . وقال ان جبريل كان ينزل عليه بسور القرآن متحدنا اليه كما يتحدث الرجل للرجل وقيل أيضا ان الوحي كان يهبط عليه أحيانا على شكل صوت داخلي يوحى له بما يقول .

وسرعان ما تمكن القريبون منه من تمييز علائم الرسالة فيه . فلقد كان يبدو قبل مجيء الوحي بلحظات متوتر الأعصاب قلقها تنتابه حمى وبرداء ولا ينقسم عنه التنزيل الا وجبينه يتفصد عرقا وقد أضيف الى القرآن فصل جديد . ولم يكن هذا هو المؤلف الدائم لنزول الوحي . فكثيرا ما جاءه على شكل احياء ابان حياته العادية .

وكان مذهب ابراهيم الاساس فى تعاليم الرسول الجديدة . وكان يقول ان الرسالة الصافية النقية التى نزلت على ابراهيم تعرضت لتشويه اليهود الذين أفسدوها وجاء عيسى بن مريم رسولا من عند الله ليظهر الدين مما أدخله اليهود عليه من هرطقة وتشويه . وقد آمن محمد بظاهرة العذراء وميلاد عيسى وقال ان المسيح من روح الله وانه جاء رسولا يدعو الى رسالة ابراهيم النقية الصافية . ولكنه يعود فيقول ان المسيحيين أيضا شوهوا العقيدة الصافية كما فعل اليهود من قبل ، فجاء هو رسولا من الله الى الناس جميعا يدعوهم الى الدين النقي الصافي .

ومن هنا يظهر ان النبى لم يدع الى دين جديد لا علاقة له بالديانات الاخرى وانما دعا الى الدين الذى بشر به من قبل ابراهيم وموسى وعيسى . وقد روى كثيرا من القصص التى رواها العهد القديم وان كانت رواياتها تختلف أحيانا عنها فى التفاصيل على الاقل ، ولما كان المعروف ان محمدا لا يقرأ ولا يكتب فمن المحتمل انه سمع هذه القصص وأعاد تلاوتها معتمدا

= ارض انجلترا في عام ٥٩٧ هـ ليعمل على تحويلها الى المسيحية أى قبل ستة عشر عاما من بداية رسالة محمد .
(المؤلف)

على ذاكرته (١) . ويمكن القول ان تعاليمه كانت تحمل شبيها من طابع العهد القديم . فمثلا هناك آيات في القرآن تأمر المؤمنين بأن يحاربوا الكفرة والمشركين ، وفي الامكان مقارنة معانيها بما ورد في العهد القديم عندما صور الرب «يهوه» وهو يأمر بآبادة العمالة (٢) . ويبدو ان اطلاق محمد على اليهودية لم يكن أوسع من اطلاعه على النصرانية فقد آمن مثلا بأن عقيدة التثليث تتألف من الله والمسيح والعدراء (٣) .

وكان يقول ان القرآن كلام الله أنزله عليه . وكثيرا ما تسبق الآيات والاوامر والنواهي بكلمة «قل» وهي الامر الالهى لمحمد بأن يقول ويتكلم . وكثيرا ما يجيئه الوحي محذرا اياه مما قد يثيره المشركون من مسائل واعتراضات أو ما قد يثيره المؤمنون من أسئلة فيبين له طريق الرد عليها . . كما جاء في سورة المائدة «يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات» أو كما جاء في سورة يونس «قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم اليها مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ، واثل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه ، يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت . .» .

وكان أقوى حافز دفع العرب الى فتوحاتهم العظيمة وعد الله لهم بأن كل من يستشهد في الحرب ضد الكفرة يروح الى فراديس النعيم فورا . يضاف الى هذا ان الوصف المسهب للجنة بما فيها من جداول وأنهار . وماء عذب سلسبيل وثمار تتشبهها بالانفس والاعين وما فيها من حور عين عذارى أبكار في منتهى الجمال وفي شباب دائم كان مغريا للبداة الحفاة ، العراة والجفاة ، الذين ألفوا شظف العيش والذين كانت حياتهم صراعا لا ينتهي مع الطبيعة وما فيها من مشاق لا تطاق . وتسرد جميع كتب المسلمين ما كان يسود المسلمين الاوائل من رغبة عارمة في الوصول الى النعيم المقيم عن طريق الاستشهاد . وحتى في عام ١٩٢٠ كانت هتافات الوهابيين وهم يقدفون بأنفسهم في اتون المعركة على أعدائهم . . الجنة يامسلمين الجنة . . يا حواري الجنة . . جينا . . ونحن في الطريق .

وأخذ الاسلام في الانتشار ولكن ببطء ورغم كل ما بذله الرسول

(١) لاستغرب هذه الطريقة في الكتابة من المؤلف الذى لا يؤمن بالاسلام . ولذا فان مناقشة اقواله في هذا الصدد لاتجدي فتيلا لانه غير مؤمن بالرسالة المحمدية .

(٢) سفر الملوك الاول - الفصل الخامس عشر - الآية الثالثة .

(٣) كذب صراح . فالاسلام لم يؤمن بالتثليث ، ولا يؤمن الا بالواحد الاحد ، الله

الصمد لم يلد ولم يولد . . اما المسيح فهو من روح الله ليس الا . (العرب)

من جهد • ولم يكن عدد المسلمين قد تجاوز الخمسين حتى بعد أربع سنوات من بدء الرسالة • لكن سخط الكثيرين في مكة اشتد وتعاطف على هذه البدعة • فالمدينة وقريش نفسها مدينتان بالكثير من أهميتهما إلى ما يبديه العرب في كل مكان من اجلال لکعبتهم وما فيها من اصنام وأوثان ، وهو اجلال سبق لى أن أشرت اليه عند الحديث عن غزو الاحباش لها في ذلك العام المسمى بعام الفيل • وقد اشتدت المعارضة لمحمد عند قريش عندما راح يعلن لهم • ان آباءهم وأسلافهم يصلون السعير ونار جهنم لاشراكهم بالله • فالمعروف عن العرب انهم يوقرون جدودهم توقيرا شديدا ويجلونهم اجلالا جما • وكثيرا ما سمعت بعض البدو يقولون حتى في أيامنا هذه وهم يحاولون تعزية رفاق لهم أو التسرية عنهم • • « رحم الله أباك وجعل الجنة مثواه » •

ولكن على الرغم من نقمة الكثيرين من القرشيين على تعاليم محمد فان العرف البدوي كان يحميه من غضبهم ونقمتهم • ومن الواجب علينا هنا أن نؤكد عاملا يصعب علينا اليوم فهمه تمام الصعوبة وهو عدم وجود أية حكومة في الحجاز في ذلك الحين أى في القرن السابع للميلاد • ويصعب علينا أن نتصور مجتمعا لا سلطة مهيمنة فيه توجهه ولا قوانين تحكمه ولا شرطة ولا أية وسائل أو اجراءات تفرض العقاب • وكانت الامبراطوريتان الفارسية والبيزنطية بالطبع منظمتين غاية التنظيم على نحو ما نعرف ولكن شيئا من هذا النوع لم يكن موجودا في الجزيرة العربية الا عندما كانت اليمن تابعة اما للاحباش أو للفرس (١) •

وكان الناس في مثل هذه الظروف يجدون الامان والملجأ في رحاب القبيلة التي ينتمون اليها • وكانت القبيلة تمنع جميع أفرادها وتحميهم من كل اعتداء خارجي ولكن لم يكن هناك أى تعريف محدود للقبيلة • فالقبائل الكبرى التي تعد الواحدة منها عدة ألوف من الناس قد تشتبك في معارك الواحدة منها مع الاخرى في حين قد تنشأ المنازعات وأحيانا الحروب وان كان على نطاق أضيق داخل القبيلة الكبرى نفسها بين العشائر والاسر المختلفة • ولم تكن الحماية التي تضفيها القبيلة أو

(١) لا أدري لم هذا الانكاس من جانب المؤلف ؟ لقد كان للعرب دول في اليمن كدولة حمير وقبلها دولتا سبأ ومعين • وكان لهذه الدول أنظمتها أيضا • فلا يجوز أن يقول أن العرب لم يعرفوا التنظيم الا عندما كانوا مستعمرين للاحباش أو الفرس الا اذا أراد أن يطبق قوله على حاضرتنا فيزعم أن العرب لم يعرفوا النظام الا عندما كانوا مستعمرين له ولدولته بريطانيا ... (العرب)

العشيرة على أعضائها تعتمد على ما فى أعمالهم من تطابق مع الاخلاق أو نبو عنها • فالقبيلة تحمى ابنها اذا كان قاتلا أو سارقا تماما كما تحميه اذا كان بطلا أو قديسا وهو ما تفعله شركات التأمين عندما تعوض نيل الخسارة الناجمة من حادثة سيارة سواء كان صاحب السيارة المؤمن عليها هو المسئول عن الحادث أو ضحيته •

فحيث تنعدم السلطات العامة لا يكون ثمة مجال لعقوبة على جريمة • وجل ما يمكن الحصول عليه من المسء هو التعويض أو اعادة الحق الى صاحبه • وتعين القبيلة أو العشيرة ابنها على ضمان حقوقه على هذا النحو أو على أن ينزل بخصمه ضررا هو عين الضرر الذى أنزله هو به • ويعترف العرب بالحق فى الثار • العين بالعين والسن بالسن والروح بالروح •

وكان حق الانسان الذى لحق به الاذى فى أن يثار ، ناجما عن عدم وجود أية سلطة عامة قادرة على حمايته •

كان محمد ينتمى الى بنى هاشم • وهم أحد البيوتات التى تضمها قريش والتى تسلسلت عن هاشم • وسواء أكان بنو هاشم مؤيدين لما يقوم به من نشاط أم معارضين له • فقد كان العرف القبلى يفرض عليهم حمايته من التعرض الى أى أذى بدنى أو عنف ، وكذلك حماية مريديه الشباب على بن أبى طالب وزيد بن حارثة ابن محمد بالتبني • وكان غير هؤلاء من المسلمين القرشيين يلقون الحماية نفسها من البيوتات التى ينتمون اليها • لكن بعض المسلمين كانوا على أى حال من العبيد أو الخدم ولم يكونوا يحظون بأية رعاية قبلية • ونفثت قريش سمنوم غلها وحققها فى هؤلاء • ويقال ان قريشا أمسكت ذات يوم بعبد حبشى طويل القامة نحيل العود يدعى بلالا كان قد اعتنق الاسلام فطرحة سيده أرضا فى وهج الشمس وحرارته وقد أثقل صدره بالحجارة الضخمة لتحويل بيته وبين الوقوف أملا فى ارغامه على الارتداد عن دينه • وعلى الرغم من العذاب الشنيد الذى عاناه من الظما فقد ظل يهتف « أحد ، أحد ، أحد ، أحد صمد » متحديا مضطهديه من المشركين • وكان أبو بكر الصديق الرجل الثرى التقى الذى وقف نفسه وروحه لدعوة محمد يستخدم ماله فى شراء العبيد المسلمين من ساداتهم المشركين ليعتقهم ومع ذلك فقد ظل عدد من فقراء المسلمين يعانون العذاب والاضطهاد • وعلى الرغم من أن محمدا كان فى منجاة من الاغتيال الا انه كان يتعرض دائما للعذبة من المزعجات والاهانات • وكانت النسوة المشركات يقلدن الرسول بالنفائات من

أسطحة منازلهم ، وأولادهن يلقونه بالاهانات فى الشوارع فى حين تضع امرأة عمه أبى لهب الاشواك على عتبة داره لتدعى بها قدماها عندما يخرج حافيا .

وراح محمد ينصح أتباعه فى عام ٦١٥ ، أى بعد خمس سنوات من نزول الوحي بالهجرة من مكة بعد أن عجز بما عرف عنه من طيبة خلق عن رؤيتهم وهم يعانون ويلات العذاب وصنوف الاضطهاد . وكانت الحبشة المملكة النصرانية قريبة لا يفصلها عن الجزيرة العربية الا البحر الاحمر وتمكن أحد عشر رجلا وأربع من النساء من الخروج من مكة والابحار الى الحبشة وبينهم عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة محمد (١) .

وبدت آمال الدعوة المحمدية فى أسوأ أوضاعها . فلقد انقضت خمس سنوات على الدعوة ولم تحقق الا نجاحا جزئيا اذ لم يتحول الى الاسلام الا حفنة من الناس بعضهم عاد فارتد عنه (٢) فى حين اضطرت غالبية الباقين الى الهجرة من البلاد وبدأ ان محمدا قد ظل وحيدا باستثناء بعض ذوى قرباه من أمثال خديجة وعلى وزيد وصديقه الوفى المخلص أبى بكر . وعلى الرغم من أن مكة شهدت أناسا يبحثون عن عقيدة روحية سامية الا ان معظم هؤلاء كانوا من الفلاسفة الذين ينشدون معرفة الله لانفسهم ، وكان محمد قد أثار معارضة قريش له بهذه الحملة العنيفة التى شنّها على الاوثان القائمة فى الحرم المكى ، وبتأكيداته المتوالية من أن اسلاف قريش يصلون نار جهنم وان الذين يتكرون دعوته من المواطنين ويرفضون رسالته سيصلون العذاب الدائم . وقد أدت معارضتهم هذه وسخطهم الى النقرة على الحركة كلها . أو ليس ثمة من مجال لتفاهم أو ترضية ؟ لو انه خفف من غلواء هجومه على عقيدتهم فلربما تمكن من أن يقود أهله وأبناء مدينته بأساليب المهادنة التدريجية الى طريق البحث عن اله واحد .

ولا يقضى الناس فى أجواء الجزيرة العربية الحارة وقتا طويلا داخل بيوتهم . وكانت باحة الكعبة المكان الذى يلتئم فيه شمل أهل مكة

(١) تؤكد كتب التاريخ العربى أن عدد الذين هاجروا الى الحبشة كانوا ثلاثة وثلاثين رجلا وسبع عشرة امرأة وعددا من الاطفال ويمثلون جميع بطون قريش .
(العرب)

(٢) لم يرد فى كتب السير او التاريخ العربى اى ذكر لمسلمين أرتدوا عن الاسلام فى هذه الآونة ولا أدرى من أين جاء جلوب بهذه الرواية الغريبة التى لا أصل لها فى كتب العرب .
(العرب)

ويعقدون اجتماعاتهم • فالبسطة تنشر على الأرض ويجلس شيوخ القبيلة في حلقات يتذكرون شئون اليوم • وعندما تشتد الهاجرة تنقل البسطة الى ظل الكعبة أو ظلال البيوت المجاورة • وكانوا لا يفتحون ندوة قصي الا في الحالات النادرة وعندما يتساقط المطر أو تهب الزوابع الرملية ولم يكن في هذه القاعة التي تطل على ساحة الكعبة أى فراش أو أثاث • وانما هي مجرد بناء من الحجر المقسوى بالطين والمسقوف بالاغصان والاخشاب والتراب •

وكان وجوه مكة وشيوخها يجلسون ذات يوم في العراء على مقربة من الكعبة عندما اقترب منهم محمد واقتعد مجلسه معهم ، وبعد صمت قصير بدأ النبي يتلو على مسامعهم سورة النجم ، فيحدثهم عن الوحي والتنزيل وكيف وقف الملك جبريل على بعد خطوتين منه ثم حدثهم عن زيارة الملك الثانية « عند سدة المنتهى » ثم مضى يقول : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى • افرأيتم اللات والعزى • ومناة الثالثة الاخرى • الكم الذكر وله الانثى ، تلك اذا قسمة ضيزى » ورأى سادة قريش الرسول وهو يشهد لهذه الالهة الثلاث ثم رأوه في نهاية السورة وهو يسجد في صلاته فسجدوا معه جميعا وأخلوا يصلون معه (١) •

ولا ريب في أن هذا الحادث يقيم الدليل على أن أهل مكة كانوا يعترفون بصورة عامة بوجود اله عظيم واحد • ولكنهم كانوا يرون أن آلهتهم المحلية هذه هي سبيل للوساطة عنده • وكانوا يقولون انهم على استعداد لاتباع النبي في عبادة الله شريطة أن يكون على استعداد للاعتراف

(١) لاأدرى من أين جاء جلوب بهذه القصة المختلقة التي يظهر اختلافا جليا واضحا في وثوقه عند هذا الحد من السورة الكريمة دون أن يكملها لم انتقله فجأة الى حادث السجود وهو يود أن يظهر وكان الرسول قد سجد لاصنام الكعبة ... حقا انه اخلاق معيب .. فبعد الآيات الكريمة التي أوردها جلوب ووقف عندها مضي السورة الكريمة قائلا .. « ان هي الا أسلمة سميتوها انتم وأبلاؤكم ماأنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى • أم للانسان ماأمنى • فله الاخرة والاولى ... » الى أن تصل السورة الكريمة الى نهايتها .. « فاسجدوا لله واعبدوا » وهنا سجد الرسول لله تعالى لا لاولاد الكعبة كما يحاول جلوب أن يقول .. ومن هنا يظهر اختلاق القصة كلها •

(العرب)

بدور آلهتهم الصغرى • وسرعان ما وقعت مهادنة آنية وتوقفت حملات العذاب والاضطهاد (١) •

ولكن الرسول ما فتىء ان عاد الى داره وشعر بضميره يعذبه فهل من الحق أن يهادن الشرك حتى ولو كانت غايته انقاذ اتباعه من الاضطهاد ؟ وظهر له جبريل من جديد وأخذ يعاتبه • وأحس بالآلم والخوف من الله • انه لا يرضى عن تراجع وقرر أن يتراجع عن موقفه السابق وأن يواجه من جديد غضب قومه • وعاد الى القوم فأكمل على مسامعهم السورة على النحو الذى يبدو فى القرآن • وأثار هذا التراجع سخط أهل مكة واستفزهم فعادوا الى اضطهاد المسلمين (٢) •

واستدعى القرشيون فى سورة غضبهم أبا طالب وناشدوه أن يتخلى عن نصرة ابن أخيه وأن يتراجع عما تفرضه عليه التقاليد القبلية وأن يسمح لهم بمحاسبة محمد • ورد الرجل الشيخ عليهم مهدئا ثم بعث فى طلب ابن أخيه مسرا اليه بمخاوفه وقلقه ولم يكن أبو طالب من المسلمين ، ولكن لم يكن فى وسعه أن يسحب حمايته لابن أخيه وهى الحماية التى تفرضها عليه التقاليد القبلية لا سيما وأنه يحبه حبا جما • أولا يمكن لمحمد أن يفعل شيئا ليساعده وذلك بسلوكه سلوكا يحمل طابع التهادن والتفاهم ؟ ولكن النبى عانى كثيرا فى قرارة ضميره منذ المحاولة السابقة فرد على عمه قائلا : « لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر ما تركته » • ثم انخرط مجهشا بالبكاء • وقد تأثر عمه العجوز من بكائه واستندعاه الى جانبه مؤكدا له أن فى وسعه أن يمضى فى دعوته كما يشاء فهو لن يتخلى عنه •

وبينما كانت أوضاع المسلمين على هذا النحو من السوء تحول

(١) هناك ناحية اخرى تكذب هذه القصة • وهى القصة التى أوردتها جميع كتب السيرة والتاريخ الاسلامى عن مجيء أبى طالب الى النبى (صلعم) بعد أن هددته قريش اذ قال له • يا ابن اخى ان قومك جامونى وقالوا لى كذا وكذا فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى مالا أطيع فظن الرسول أن عمه خاذله ومسلمه وأنه ضف من نصرته والقيام معه فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته • ثم استعبر وبكى فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : اقبل يا ابن اخى ، فلما اقبل عليه قال له « اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا » • (العرب)

(٢) هذه هى تكملة القصة المختلفة التى لم أجد لها اثرا فى كتب السيرة ، وأنا اعتقد أن جلوب قد نقلها عن بعض الكتب الغربية وحتى لو صح هذا الاعتقاد فان جلوب هو الملووم لانه لم تثبت من صحتها من الكتب التاريخية • (العرب)

شخصان الى الاسلام فادى اسلامهما الى تحسن الوضع مؤقتا وأولهما حمزة عم النبي ، وهو محارب معروف مشهور بالفتوة والنجدة وقوة البنية وقد فرض مهاجته على الناس ، وناييهما عمر بن الخطاب من بيت آخر من بيوت قريش وكان معروفا بحدة الطبع كما كان حتى لحظة اسلامه من أشد أعداء الدعوة المحمدية .

وتروى القصة ان عمر مضى ذات يوم الى دار شقيقة له متزوجة وعندما دخل من الباب الخارجى سمع صوتا يقرأ شيئا لا يعرفه . واقتحم عمر الغرفة فرأى صهره وشقيقته يجلسان معا فبادرهما قائلا وهو غاضب «ما هذا الصوت الذى سمعته ؟» فرد الاثنان معا «لاشيء» مع انهما كانا يتلوان فى الحقيقة سورة «طه» من القرآن . وانبرى يوجه اليهما السباب، وقد استشاط غضبه فضرب صهره وركله بقدمه ثم لطم شقيقته على وجهها . وفجأة رأى الدماء تنزف من أنفها وفمها وسرعان ما هدا غضبه وراح يقول لهما بهدوء وحنان انه يود أن يرى ما كانا يقرأنه وانه تأثر بالغ التأثير بما سمعه منهما . وأمسك صهره بيده ومضى به الى محمد الذى تقبل اسلامه ولم يمض عشرون عاما على هذا الحادث حتى كان عمر ابن الخطاب قد غدا أعظم حاكم فى العالم .

وعلى الرغم من ان اسلام هذين الرجلين قد شجع النبي الا انه فى الوقت نفسه حفز كبراء قريش على أن يوسعوا من نشاطهم ضد الدعوة الاسلامية . وخافوا أن يؤدى اغتيالهم المسلمين من القرشيين الى منازعات دموية فى المدينة ولا سيما مع بنى هاشم . وقررت قريش مقاطعة بنى هاشم . ويبدو ان كل عشيرة كانت تقيم فى حى خاص بها فى مكة . ويبدو ان بنى هاشم كانوا يحتلون واديا ضيقا يقبع وراء صخور أبى قبيس الشاهقة التى تطل على المدينة . وقد أقام بنو هاشم فى هذا الوادى أو الشعب حيث قاطعتهم قريش بعد أن التزموا فى صحيفة كتبوها بالآ يشتروا شيئا من بنى هاشم أو لا يبيعوهم شيئا ولا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم وأن يتجنبوا الحديث اليهم . ويبدو ان المشاعر القبلية كانت قوية الى الحد الذى دعا بنى هاشم جميعا الى الانحياز الى أبى طالب والاذعان للمقاطعة . على أن يتخلوا عن محمد على الرغم من أن معظمهم لم يكونوا قد آمنوا بدعوته ولم يخرج عليهم الا أحد أعمام الرسول وهو أبو جهل(١) الذى انضم الى قريش وظاهرهم وأوقدت قريش الى الحبشة

(١) اخلا المؤلف ثانية فذكر أبا جهل وهو ليس بعم الرسول والمقصود فى الحقيقة عمه أبو لهب .
(المررب)

رجلين (١) من رجالها لاقتناع النجاشي برد مهاجري المسلمين الى بلادهم ولكن البعثة منيت بالفشل . وهكذا انقضت السنة السادسة منذ بدء الدعوة والرسول مازال عرضة في كل مكان للزراية والسخرية والاضطهاد من قومه ، في حين كان قسم من أتباعه لا يزالون يقضون حياتهم في المنفى في الحبشة أما الباقون فمحاصرون في بيوتهم في مكة .

ودامت المقاطعة ثلاث سنوات ولم تؤد في النهاية الا الى تحول المشاعر نحو بنى هاشم والعطف عليهم ولا سيما أن بعض هؤلاء المحاصرين لم يكونوا من المسلمين وان لم تتبدل مشاعرهم تجاه الرسول نفسه فقد تقرر في النهاية الغاء المقاطعة . واصبح محمد ثانية حرا طليقا في الانتقال في المدينة حيث يشاء . وفي هذا الوقت بالذات أعلن النبي ذات صباح انه أسرى به في الليلة الفائتة من مكة الى القدس حيث عرج منها الى السماء والتقى بالانبياء والرسول كآدم وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم حتى وصل الى سدرة المنتهى . وقوبلت هذه الرواية بالسخرية من المشركين من أبناء قريش وبالايمان العميق من أتباعه وفي مقدمتهم أبو بكر .

وفجع الرسول وهو يعاني في دعائه كل هذه الآلام بفجيعتين شخصيتين ففي ديسمبر (كانون الاول) عام ٦١٩ توفيت شريكة حياته الامينة خديجة ففقد بوفاتها ما كان يلقيه عندها من حب وحنان وعطف وتشجيع . ولم يمض الا شهر واحد على هذه الفجيرة حتى كان عمه وحاميها أبو طالب الوقور ينتقل بدوره الى الرفيق الأعلى ، وأحس محمد بهول الفاجعة فلقد ظل هذا العم له نحو من أربعين عاما بمثابة الوالد الحنون والحامي الأمين . وعلى الرغم من أن أبا طالب لم يقتنع برسالة ابن أخيه السماوية الا انه احتمل الوعيد والتهديد والخطر والخسائر المادية في سبيل وقاية محمد من غل أعدائه وحقدهم .

وبدا مركز الرسول وإهنا ويائسا في هذه الآونة . فلقد كان نفوذ أبي طالب هو الذي وحد بنى هاشم في الدفاع عن محمد ، وانقضى طويل وقت دون أن يتحول الى الاسلام نفر جديد . والمسلمون مهددون بالفجار غضب قريش في أية لحظة من اللحظات وقد يؤدي هذا التفجر الى إبادة

(١) يقول المؤلف ان أحد الرجاين هو عمرو بن العاص الذي فتح مصر فيما بعد وهذا صحيح اما الرجل الثاني ولم يذكره المؤلف فهو عبد الله بن أبي ربيعة .
(العرب)

المسلمين المنشقين على قريش • وبدأ أن مناعة قريش على الدين الجديد من النوع الذي لا يمكن أن يخرق •

وكانت مدينة الطائف تقع على بعد أربعين ميلا إلى الشرق من مكة في واد في سلسلة جبال الحجاز العالية • وتقيم قبيلة ثقيف في هذه البلدة • وراح محمد يرتحل راجلا إلى هذه البلدة لا يصحبه إلا زيد ولده بالتبني ليدعو أهل البلدة إلى الإسلام • وقصد أول ما قصد ثلاثة من رؤساء الطائف • ولكن حديثه اليهم لم يترك أثرا في نفوسهم وإنما ردوا عليه ساخرين : «إذا كان لابد لله أن يبعث رسولا أو لم يستطع أن يجد من هو خير منك لحمل رسالته ؟ » وعاد يجرب حظّه مع أهل البلدة في شوارعها فهزئوا به وسخروا منه وراحوا أخيرا يرشقونه بالحجارة مما اضطره إلى مغادرة البلدة ناجيا بروحه والدماء تنزف من جراحة الكثر ولا معين له إلا رفيقه الأمين زيد الذي أصيب بدوره بعدة جراح • ولا ريب في أن الرسول شرب في ذلك اليوم كأس الأذى حتى الثمالة ويقال أنه هتف بربه شاكيا له أذى الناس وطالبا رحمته وعونه • ولا ريب في أنه عاد مرتعدا إلى بيته في مكة • ولم يخرج منه بعد ذلك إلا فيما ندر إلى الشوارع والأماكن العامة (١) •

وكان موسم الحج قد بات وشيكاً وفي مثل هذا الموسم يفد الناس أفواجا من أنحاء الجزيرة العربية إلى مكة ليحجوا إلى كعبتها • ولما يثس من هداية أهله من قريش انصرف يحاول هداية بعض الوافدين من الحجاج • وانهز فرصة لقائه بسبعة رجال من يشرب (المدينة المنورة) فدعاهم إلى الجلوس معه في ناحية ليتحدث اليهم في هدوء عن أمر يهمهم (٢) • وكان أهل يشرب أخواله إذ يذكر القاريء أن جده الأول هاشما كان قد بنى امرأة من أهل تلك المدينة • وأعرب الرجال السبعة بعد أن استمعوا طويلا إليه عن اقتناعهم بصحة رسالته • هنا سألهم

(١) رواية كاذبة مختلفة تجمع على كذبها كل كتب السيرة • فقد روت كلها أن الرسول عندما عاد إلى مكة أرسل إلى المطعم بن عدي يخبره أنه يدخل مكة في جواره ، فاجابه إلى ذلك ثم تسلم المطعم وأهل بيته حتى أتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله أن ادخل ، فدخل رسول الله فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله وفي ذلك يقول حسان بن ثابت شاعر الرسول في رثاء المطعم لما توفي :

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا هبيلك مالبى مهل واحرما

(٢) ستة رجال لا سبعة ... بذلك قالت كتب السيرة •

(العرب)

الرسول عما اذا كان ممكنا أن يهاجر الى يثرب ليعيش في حمايتهم(١) . ولكنهم ردوا عليه ردا حذرا وكان أهل المدينة يتفرون الى قبيلتين هما الأوس والخزرج وكانتا في حالة نزاع مستمر ، ولم يكن قد مضى أربع سنوات على نشوب معركة حامية الوطيس بينهما وهكذا لم تكن الحياة قد استقرت بعد في المدينة وتردد هؤلاء في أن يعدوا محمدا بحمايتهم .

وقد وقع هذا الحديث مع رجال يثرب في مارس عام ٦٢٠ ميلادية وانقضى عام آخر في حالة من القلق والترقب . وحل موسم الحج أخيرا واجتمع اثنا عشر رجلا من أهل يثرب الى النبي في واد ضيق في الجبال الواقعة الى الشرق من مكة . وقد أعلن هؤلاء ايمانهم بمحمد واقسموا على ألا يعبدوا الا الله والا يطيعوا الا أمر نبيه . وأن يمتنعوا عن نواهيه وبينها السلب والزنا وواد البنات والكذب . كان الرسول يدهم بأنهم اذا عملوا بهذه الشروط فان مثواهم الجنة في الحياة الاخرى وقد اسميت هذه البيعة ببيعة العقبة(٢) ، وهو اسم الشعب الصغير الذي تم فيه أخذ الموائيق .

ولم يكن كسب اثني عشر رجلا الى الاسلام في بلدة تقع على بعد مائتين وخمسين ميلا عن مكة بالشئ المثير حقا . ولكن هؤلاء المسلمين الجدد عادوا الى يثرب بلهيم حماس الايمان وشرعوا يكسبون الى صفوفهم المزيد من المسلمين من رجال الأوس والخزرج . يضاف الى هذا ان حالة الامن في البلدة قد تحسنت . فلقد ارتضت القبيلتان برئيس واحد هو عبد الله بن أبي ووضعتا بذلك حدا لعدائهما المستمر وأوفد النبي مصعب بن عمير من قريش وهو أحد المسلمين الأوائل الى المدينة ليعلم أهلها الدين الحنيف .

(١) هذه رواية كاذبة اخرى . فالرسول كما تجمع كتب السيرة لم يطلب الهجرة الى المدينة ولا سيما في ذلك اللقاء الاول فقد وقع بعد ذلك اللقاء بعام في موسم الحج التالي لقاء ثان مع اثني عشر رجلا من أهل المدينة في العقبة وبأبويه على الاسلام ببيعة تسمى في التاريخ ببيعة النساء ، وبعث معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين . وفي العام التالي أقبل مصعب على رأس جمع كبير من المسلمين واجتمعوا في الشعب عند العقبة الى النبي (ص) وكان عددهم (٧٣) رجلا وامراتين . وجاءهم النبي ومعه عمة العباس بن عبد المطلب وهو لا يزال على دين قريش . فدعا المسلمون من أهل يثرب النبي الى الهجرة الى المدينة فلم يقبل بها الا بعد ان أخذ عليهم اليهود والمواثق وبعد أن أكدها (١٢) نقيبا من الأوس والخزرج كانوا بمثابة الكفلاء .

(٢) هذه بيعة النساء وليست بيعة العقبة كما أوردنا في الهامش السابق .
(العرب)

وانقضى عام طويل آخر فى مكة . لكن اليأس لم يعرف طريقه الى محمد فقد تركزت أفكاره الآن على يثرب . ولم يقم بأية محاولة جديدة فى مكة فى هذه الآونة للتبشير بديانته جهرا (١) . وهدأت سورة قريش بعض الشيء وانصرفوا من جديد الى أمور تجارتهم وتكديس ثرواتهم .

وحل موسم الحج من جديد فى مارس عام ٦٢٢ . ووفد مصعب من يثرب الى مكة قبل الحج بأيام لينقل الى النبى انباء النجاح الذى حققه . وتم اعداد اجتماع بين النبى وبين أهل المدينة فى اليوم الاخير من الحج . وكانت طقوس الفريضة قد انتهت . وكان من المقرر أن تنفر قوافل الحجاج خفافا عند الفجر تضرب الصحراء طولا وعرضا عائدا الى بلادها . ووقع الاختيار على نفسه الشعب الصغير نفسه المسمى «بالعقبة» والواقع على بعد نحو من أربعة أميال من مكة وسط الجبال ليكون مكان اللقاء على أن يتم الاجتماع قبل ساعة من منتصف الليل . ووصل النبى راجلا يصحبه عمه العباس . وهنا تتجلى العصبية العائلية من جديد إذ ان العباس الذى كان الرفيق الوحيد لمحمد فى هذه المخاطرة القريبة كان لايزال من المشركين . وألقى الرجلان على بساط الصحراء فى هسدة الليل العميق . ولم تمض هنيهة حتى أخذ أهل يثرب يتوافدون أزواجا أزواجا ليتجنبوا العيون والارصاد . واجتمع ثلاثة وسبعون رجلا فى الوادى المدلهم الذى لا يضيئه الا قمر الصحراء يبعث بشعاعه القضى . وراح احدهم يروى فيما بعد قائلا . . . « اخذنا ندب الى المكان كالقطا لنجتمع الى رسول الله » .

وبعد ان خطب النبى فى القوم دعاهم الى ان يقسموا على الاخلاص له وعلى أن يتولوا حمايته فى يثرب. اذا وفد اليهم . وكان البراء بن معرور وهو من سادة يثرب من أول الدين اقساموا على أن يمنعوا الرسول وسرعان ما لحق به الرجال الاثنان والسبعون يمرون فرادى بمحمد فى ظلمة الليل فيمسك الواحد منهم بيده ويهزها قائلا « . . . أنا منك وأنت منى » . ورد النبى فى النهاية هاتفا «أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم » . واختير اثنا عشر رجلا من صفوة القوم ليكونوا كفلاء على عهد قومهم ، تقليدا كما يظهر ، لحواشي عيسى بن مريم وكان ثلاثة منهم من الاوس وتسعة من الخزرج . وتفرق المسلمون بهدوء بعد ذلك وعادوا

(١) ليس ثمة من دليل على أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تقاعس عن دعوته او توانى فيها ولكن استجابة قريش لها كانت بطيئة ومن هنا كان العدد القليل من المسلمين الذين أقبلوا على الدين الجديد في هذه الفترة . (العرب)

كما جاءوا أزواجاً ، وأطلق على هذه البيعة فى التاريخ الاسلامى اسم بيعة العقبة الثانية . وقدر لهؤلاء السبعين بدويًا عربيا الذين اجتمعوا على مسيل ماء فى مكان ناء من ارض العرب ان يغيروا مجرى التاريخ العالمى .

تواريخ مشهورة

بعد الميلاد

٤٤٠	تم الامر لقصى فى مكة
٤٩٧	ولد عبد المطلب جد النبى
٥٢٢	احتل الاحباش اليمن
٥٧٠	عام الفيل - ولادة النبى
٥٧٨	وفاة عبد المطلب - محمد فى رعاية عمه ابي طالب
٥٩٥	زواج محمد بخديجة
٦١٠	نزول الوحى
٦١٥	هجرة المسلمين الى الحبشة
٦١٩	وفاة خديجة
٦٢٢	بيعة العقبة الثانية

شخصيات مشهورة

جد النبى	عبد المطلب
عم النبى	ابو طالب
زوجة النبى	خديجة
ابن عم النبى نشأ فى بيته	على بن ابي طالب
ابن النبى بالتبني	زيد بن حارثه
صديق النبى	ابو بكر الصديق
	همر بن الخطاب
	عثمان بن عفان
	الزبير بن العوام
	حمزه
	سعد بن ابى وقاص
شخصيات	
اسلمت ولعبت	زوج بنت النبى
دورافى التاريخ	من اقارب النبى
الاسلامى	عم التنبى
	من اقارب النبى

دلوالب

« وجد النبي الذي لا كرامة له في عشرته الولاء
والاجلال في مدينة الهجرة . وأخذ النبي يظهر تدريجيا
في صورة جديدة . قال النبي المصطفى يتحول الآن الى
معارب ظافر . واذا فشلت نذر النبي وبشارته في
اقتناع قورش فان سلطان الفاتح سيرغمهم على
الاقتناع »

فريمان - تاريخ العرب

« اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بالرفق
من الملائكة مردفين »

القرآن الكريم - سورة الانفال

« قد كان لكم آية في فتيتي التقتا ، فئة تقاتل في
سبيل الله واخرى كافرة يرونهم مثليهم راي العين ،
والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولي
الابصار » .

القرآن الكريم - سورة آل عمران

أصدر محمد أمره بعد أيام من بيعة العقبة الثانية إلى اتباعه بالهجرة سرا وفي جماعات صغيرة إلى يثرب . وكانت غالبيتهم من الفقراء ولم يتمكن إلا قلة منهم من الحصول على الإبل فكان يركب البعير الواحد منهم رجلا . واضطر الكثيرون منهم إلى قطع المسافة التي تقع في (٢٥٠) ميلا ورجلين . ولم تنقض سبعة أسابيع أو ثمانية حتى كان جميع المسلمين قد هاجروا من مكة باستثناء النبي نفسه وابن عمه علي بن أبي طالب وولده بالتبني زيد بن حارثة ورفيقه الأمين أبي بكر الصديق . وارتد عن الإسلام نفر خوفا من أهلهم ، بينما حال هؤلاء دون هجرة نفر آخر (١) . وجدير بنا أن نعترف هنا بأن محمدا أبدى جرأة منقطعة النظير ببقائه في مكة حيث لم يعد يحظى بحماية عمه أبي طالب كبير بني هاشم الذي انتقل كما روينا إلى الرفيق الأعلى .

وأدركت قريش خطورة ما وقع من تطور وهالهم أن المسلمين أخذوا يقيمون في يثرب الآن مجتمعا متلاحم الوشائج خارجا على نفوذهم وبعيدا عن متناول أيديهم ، وأنهم شرعوا يكسبون الانصار إلى جانبهم من أبناء القبائل الأخرى الذين قد يتحولون إلى معاداة قريش ، واجتمع كبار القوم في دار الندوة يتشاورون في أمر محمد . ورأى بعضهم أن محمدا هو سبب كل ما يواجهونه من متاعب وإن من الخير لهم لو تخلصوا منه في أسرع وقت ممكن قبل أن يتمكن من إلحاق بأصحابه في يثرب . وأعد أبو جهل عم النبي (٢) والذي كان قد خرج على بني هاشم أبان المقاطعة وكان من أشد خصوم النبي واعدائه خطة لقتل النبي وإخلائه منه . واقترح أن تختار كل قبيلة من قريش شابا من فتياتها ، وإن يشترك هؤلاء جميعا في قتله ليتفرق دمه في القبائل كلها فلا يستطيع بنو هاشم حرب القبائل مجتمعة ثارا لمحمد ووصلت أنباء المؤامرة إلى مسامع النبي فخرج من داره إلى أبي بكر ، وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه إليها ثم هيا ما يلزم لهذا السفر . وأمر

(١) ليس هناك أي تأكيد لادعاء المؤلف بأن نفرا من المسلمين قد ارتدوا عن الدين في هذه الآونة .

(العرب)

(٢) يمر جلوب على خطته الكبير في الخلط بين أبي جهل وأبي لهب وتسمية الأول بعم النبي .

(العرب)

النبي ابن عمه عليا وكان قد بلغ الآن العشرين من عمره بأن يتسجي ببرده وان ينام مكانه لئلا يرتاب احد في وجوده ببيته ، وعندما جن الظلام خرج النبي وصاحبه أبو بكر من خوخة لابي بكر في ظهر بيته وراحا يتسلقان الصخور في بطن الجبل المسمى بجبل ثور ، والواقع بأسفل مكة حيث قررا أن يلجئا الى غار هناك يقيمان فيه حتى تهدأ الضجة وتعدل قريش عن طلبهما . وكان أبو بكر قد أعد للامر عدته وأمر ابنته أسماء أن تأتي اليهما بالطعام في كل مساء بعد ان يجن الدجى كما أمر ابنه عبد الله بالبقاء في مكة يتسمع لهما الاخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما اذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر واتماما للخطة أمر مولاه بأن يرمى غنمه نهاره مارا بها أمام الغار ليعفى اثر عبد الله وأسماء ، وهما في غشون ذلك راحلتين على استعداد في كل لحظة للسفر . وحمل أبو بكر وهو التاجر الحصيف معه كيسا من النقود أما محمد فلم يحمل معه شيئا لأنه لا يحسب للمال أى حساب . وكان الرجلان من أبناء المدينة ولا علم لهما بالصحراء ودروبها ، ولم يكن من السهل عليهما أن يعرفا طريقهما الى المدينة إلا اذا اتبعا طريق القوافل المألوف ولهذا قرر أبو بكر أن يستأجر دليلا يرشدهما الى الطريق وهو من الذين سبق لهم التعامل مع أبي بكر وان كان من المشركين .

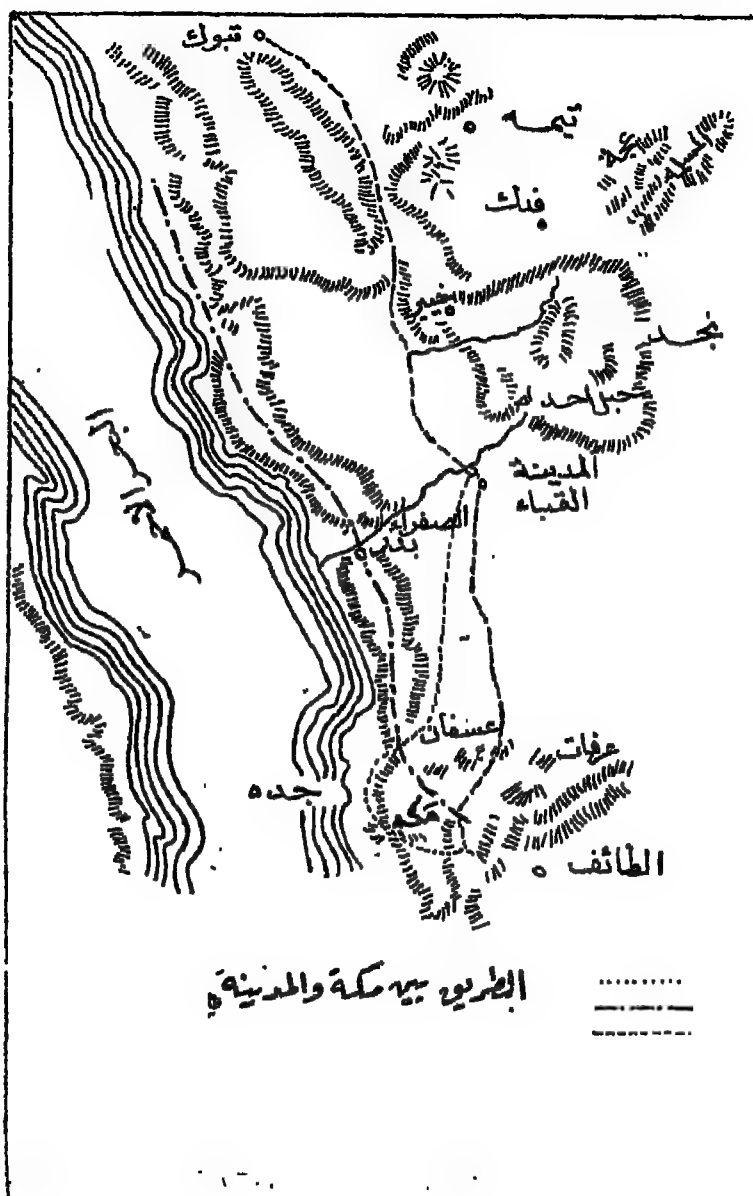
ولم يكد رجال قريش يسمعون بفرار محمد حتى هاجوا وماجوا وبسئوا بالرسول في طلبه الى كل مكان وجعلوا لمن يأتيهم به حيا أو ميتا مائة ناقة . وكان في مكنة العائلة البدوية الواحدة ان تعيش على خمس نياق ، ولهذا كانت الجائزة كافية لخمس أسر . ولم يكن المكيون أنفسهم خبراء في الصحراء ومسالكها ومجاهلها بحيث يستطيعون القيام بالبحث عنه بأنفسهم . واستمرت ضجة البحث ثلاثة أيام بلياليها . وجاء عبد الله ابن أبي بكر في نهاية اليوم الثالث ينبئهما بأن الطلب في أثرهما قد هدا وأن في مكنتهما أن يبادرا بالرحيل فأمره أبوه بأن يأتي بالراحتين في اليوم التالي .

ووصلت ثلاث راحل في المساء التالي بعد أن جن الليل الى فتحة الغار وكانت أسماء قد حملت معها بعض الطعام وحزمتها الى احدى الرواحل بنطاقها وامتطى الدليل بعيره . وحمل أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة خلفه واستقل النبي البعير الثالث . ومضى الركب في طريقه يهبط مع الجبل نحو الساحل، وقد سار الدليل في المقدمة وبعد مسيرة طويلة نحو الغرب تحرك الركب نحو الشمال مع الساحل ليعود من جديد فيقطع طريق القوافل عند عسفان ويتبع طريقا غير مطروق عبر التلال . ويقال ان فارسا

من العرب قد تمكن من اللحاق بالركب • وكان يطارده طمعا في الجائزة التي رصدتها قريش ولكن النبي ورفيقه تمكنا من اقناعه بعدم افشاء طريقهما الى قريش • على أى حال لم تكذب أنباء الطريق التي سلكها الركب تصل الى مسامع قريش حتى كان النبي وصاحبه قد أصبحا فى نجوة من المطاردة • وكانت أنباء خروج الرسول من مكة قد صبغت الى المدينة ولم يكن المهاجرون قد عرفوا بأمر اختفائه فى الغار أربعة أيام فلما انتهت المدة التي قدرها لوصوله الى المدينة ولم يكن قد وصل بعد عنهم القلق • وكانوا يخرجون فى كل يوم فيرتقون الجبل الى الجنوب من المدينة يتطلعون بلهفة الى الافق البعيد فى الطريق الداهب الى مكة يحرقهم الشوق الى رؤية الركب • وما كانوا ليعودوا الى المدينة الا فى الهجرة عندما يشتد وهج الشمس ويكثر السراب قاطعا الرؤية الى مسافات بعيدة • وبعد ظهر الثامن والعشرين من يونيو (حزيران) عام ٦٢٢ ميلادية (١) قطع المسافرون المجهدون المرحلة الأخيرة عبر الجبال الصخرية الجرداء التي تغطى سفوحها فى هذا المكان صخور بركانية سوداء لانبات فيها ولا طير ولا عشب ولا شجر •

وعندما اجتازوا أخيرا المضيق امتدت أمامهم مناظر وروى مختلفة كل الاختلاف فبدلا من مكة القاحلة التي الفوها بشعابها الصخرية الجرداء وأوا أمامهم يثرب وقد أحاطتها الآبار والينابيع وأبصروا بواد تقع فيه المدينة وقد اكتظت فيه أشجار النخيل وامتدت على مرأى البصر الحقول المزروعة الخضراء تبعث الراحة فى النفس والطمانينة الى البصر بعد أن كاد يعشى من وهج الصحراء • وامتدت فوق ذلك الوادى الواسع مساكن لا عد لها ولا حصر تقع فى مجموعات تقيم فى كل مجموعة منها تكاد تشبه القرية القائمة بنفسها عشيرة من العشائر التي تؤلف أهل المدينة • وقد أحاطت كل منها قريتها بالحصون والقلاع المبنية من الحجر والطين • ولا ريب فى أن هذا الوادى الخصيب يوحى بعد الصخور المحرقة والقمم الجرداء السامقة بالوفرة والامن والطمانينة والرضا • ومضت القافلة الصغيرة خبيبا الى قباء ، الواحة الاولى من واحات يثرب كانت المدينة مأهولة عندما هاجر اليها النبي بقبائل عدة منها العربية ومنها اليهودية • (أرى من الاسهل التمييز بينها على هذا النحو ، وان كان من يدعو باليهود قد لا يخرجون عن كونهم عربا تحولوا الى

(١) يجمع مؤرخو العرب على أن وصول النبي الى المدينة كان يوم الجمعة فى الثانى عشر من ربيع الاول المصادف ٢٤ سبتمبر (ايلول) عام ٦٢٢ ميلادية •
(العرب)



اليهودية) . وكان اليهود ينقسمون الى ثلاث قبائل تعمل اثنتان منها في الزراعة وتعيش على زراعة النخيل والحبوب أما الثالثة فتضم فنيين يعملون في صياغة الذهب والفضة وصناعة الاسلحة . أما العرب فكانوا قبيلتين ، الأوس والخزرج ولم تكن قد انقضت أربع سنوات على توقف الحرب بينهما ليحل محلها السلام وليصبح للقبيلتين رئيس واحد هو عبد الله بن أبي يتولى قيادتهما وزعامتهما معا .

وهكذا كان عبد الله بن أبي عند وصول الرسول أقوى زعيم عربى في واحة يثرب كلها ويبدو ان ابن ابي هذا لم يعترض على مجيء النبى فى البداية اذ كان مهاجرا لا حول له ولا طول . وعلى الرغم من أنه ينتمى الى الخزرج فلقد رفض عندما نشبت الحرب بينها وبين الأوس ان يشترك مع قبيلته وظل يعمل من أجل السلام والتفاهم ، ولا ريب في أن الشهرة التي اكتسبها بحياده واعتداله هي التي اقنعت القبيلتين بقبوله رئيسا لهما معا . ولكن عبد الله هذا ما لبث أن وجد نفسه بعد ان اخذ نفوذ النبى في التزايد والقوة وقد انتقل الى مرتبة ثانوية . ومن المحتمل ان تكون الغيرة قد لعبت دورها في نفسه . ولكن الشيء الثابت ان حقدا خفيا تولد في نفسه على المسلمين وعلى الرغم من أنه تحول الى الاسلام بعد قليل الا ان النبى كثيرا ما ساورته الشكوك فيه وبأنه ينشر الشائعات والدسائس ضد المسلمين . ويبدو ان الاشارات الكثيرة عن المنافقين التي وردت في أوائل السور القرآنية المدنية انما كانت ترمز الى عبد الله ابن أبي ومؤيديه .

ولم تجهر قبائل اليهود بعدائها للنبى منذ بداية الامر ولا سيما أن محمدا كان قد أعلن أن العقيدة التي يبشر بها ويدعو اليها ليست الا ملة ابراهيم حنيفا . وكان المسلمون حتى تلك الساعة يتوجهون في صلاتهم الى القدس ، كما كان النبى ميلا كل الميل الى التواد معهم ولذا فقد عقد معهم اتفاقا يقضى بالتعاون المتبادل .

وعم الفرخ المهاجرين بوصول النبى سليما معافى وهو فرح سرعان ما اشترك فيه عرب الأوس والخزرج الذين كان معظمهم لا يزال على الشرك . ولم يكن في وسع اليهود ان يرفضوا ايواء المسلمين في يثرب فحق الجار في المنعة والحماية حق مقدس يفرضه الشرف على جميع القبائل العربية . وانتشرت الانباء السارة بوصول النبى سالما كالبرق بين المهاجرين والأنصار . وهرع الناس من كل فج والفرحة تملو وجوههم يهتفون بصوت واحد . . . «لقد أقبل . . . » «لقد أقبل» وانتقلت هذه العبارة من شفة الى شفة وكأنها الرسالة السحرية .

وعلى الرغم من هذا الاستقبال الودى والسعيد فان الرسول كما يبدو كان على علم بطبيعة وضعه الغريب فى المدينة ولم يكن عدد المهاجرين يربو على السبعين رجلا . أما عدد الانصار من أهل المدينة فكان يزيد على عددهم . وكان معظم المهاجرين لا يملكون شيئا فقد نجوا من بلدتهم بجلدهم مخلفين ورائهم كل ما يملكونه . وقد يقع الاحتكاك بسهولة بين الجماعتين ، ورغبة من محمد فى عدم وقوع أى خلاف آخر بين المهاجرين والانصار كتب عهدا بينهم كما كتب عهدا للمجتمع الاسلامى الجديد أكد فيه أن جميع المسلمين يؤلفون جماعة واحدة وان على كل مسلم أن يقف الى جانب أخيه المسلم والانصر مشركا عليه . وعنى هذا التنظيم الغاء العصبية العائلية والقبلية القوية وان يستعاض عنهما بتضامن يشمل المجتمع الاسلامى كله .

وابتاع أبو بكر بأمواله بعد أيام بستانا من بساتين النخيل على مقربة من وسط الواحة . وبدأ العمل فى بناء المسجد وبناء دار (لا نعتقد أنها أكثر من مجرد بيت صغير عادى) يقيم فيها الرسول . وراح المهاجرون والانصار يعملون معا فى بناء المسجد وهم ينشدون وهم يضعون الطوب واحدة فوق أخرى وعلى رأسهم النبى وقد تعالى انشادهم قائلين : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة . . . اللهم ارحم الانصار والمهاجرة » .

وأراد محمد أن يضرب المثل لرجالہ فشرع ينشد معهم ويشترك فى البناء ويتولى على بن أبى طالب قيادة الجمع فى النشيد .

والحداء عند العرب أثناء العمل كاغانى البحر عند الملاحين ، عادة قديمة قدم التاريخ كله . ويبتكر كل واحد من الذين يعملون بيتا ينشده فبرده الآخرون معه وكانهم أفراد جوقة موسيقية الى أن يقوم آخر فيطلع ببيت جديد ينتقل اليه المنشدون ولا ريب أن كل من رأى جماعات من العمال العرب ينشدون ابان ادائهم العمل يستطيع ان يتخيل أو يتصور هذا المنظر الجميل .

وكان النبى ذا مزاج رقيق ومولعا باطلاق النعوت والاسماء ولذا فقد أطلق على مسلمى المدينة اسم الانصار وعلى لاجئى مكة اسم المهاجرين وقد قدر لهدين الفريقين اللذين لم يرب عدد أفرادهما على بضع مئات أن يؤلفا ولعدة قرون الطبقة الارستقراطية فى الاسلام وان تتردد أسماؤهم على كل شفة ولسان فى العالم الذى يضم ملايين المسلمين .

ولم يمض طويل وقت على وصول النبي الى المدينة حتى كان يبني بعائشة ابنة صديقه أبى بكر الذى رافقه فى هجرته من مكة ، وتقول كتب التاريخ العربى : انها كانت فى التاسعة من عمرها عندما تزوجها النبي وكان فى الثالثة والخمسين . وقد تزوج الرسول قبل وفاته باحدى عشرة امرأة لكن هذه الحقيقة يجب ألا تعزى مطلقا الى ان النبي كان مغرقا فى حياته العاطفية فلقد ظل خمسنا وعشرين سنة الزوج الوفى المخلص لامرأة واحدة هى خديجة مع انها تكبره سنا وانما لأسباب أخرى بعضها سياسى وبعضها شخصى ، فلقد كانت عائشة هى الشابة الوحيدة التى اختارها . أما الباقيات فكن أرامل . وقد اختارهن الرسول كما يبدو لدوافع سياسية لتوثيق الصلات بينه وبين الاسر التى ينتمين اليها . وتظهر الحقيقة الواقعة وهى أن معظم زيجاته قد تمت فى خمسينات حياته ، ان من الدوافع أيضا رغبته فى أن تلد احداهن له ولدا يظل على قيد الحياة اذ من المعروف عنه انه كان مولعا بالاولاد .



وكان النبي قد أظهر طيلة الاثنى عشر عاما التى انصرفت منذ بدء الرسالة فى مكة درجة غير عادية من الصبر والاحتمال لكل ما وجه اليه من اذى وسوء معاملة . . أما الآن فقد تحولت طبيعته تمام التحول . وراح يقول للمسلمين ان الوحى قد أمره بفرض الجهاد على المسلمين ضد المشركين . وكان موقع المدينة من الناحية السوقية (الاستراتيجية) يمكنها من أن تكون قاعدة صالحة للعمليات الحربية ضد مكة .

ولقد سبق لى أن أوضحت ان مكة كانت تعيش فى هذا الوقت بالذات على تجارة القوافل بين اليمن وسوريا أما أهل المدينة فكانوا يعيشون حياة مغامرة تماما لحياة أهل مكة : اذ بينما تقوم المدينة الاخيرة فى واد ضيق تحرقه أشعة الشمس اللاهبة بين سلاسل التلال الصخرية الجرداء من كل نبات ، كانت المدينة تقبع فى منخفض أوسع ترويه مياه الأبار وكان أهلها يعيشون على ما تنتجه حقولهم الخضراء وبساتينهم فى حين كان أهل مكة القاحلة يعيشون على مغامراتهم التجارية التى تمتد الى مسافات بعيدة .

ولقد وقع حادث بعد وصول النبي الى المدينة يشرح لنا شرحا وافيا جهل أهل مكة بالثبتون الزراعية . فالمعروف ان أشجار النخيل على نوعين منها الذكر ومنها الأنثى . ويتسلق الزارع فى كل عام الشجرة الذكر فيأخذ منها لقاحها ليطعم به الأشجار الاناث . ولم يكن النبي قد سمع

بهذه العملية من قبل وعندما وصل الى المدينة راح يأمر بمنعها وبالطبع لم تثمر أشجار أولئك الذين أطاعوا أمر الحظر مما دعا النبي الى الغائه والاقرار بعدم معرفته بالشئون الزراعية (١) .

وتتألف السواحل الغربية للجزيرة العربية من سهل ساحلي يضيق عرضا ويتسع طولا وتقوم وراه سلسلة من الجبال الجرداء ذات القمم العالية تقوم وراهها هضبة نجد الفسيحة الواسعة التي تمتد نحواً من ستمائة وخمسين ميلا لتتهبط بصورة متدرجة باتجاه الخليج العربي . وكانت قوافل المكيين تتجه شمالا الى سوريا على طول الطريق الممتد في السهل الساحلي مارا بين المدينة وساحل البحر الأحمر وهي فجوة لا يتسع عرضها أكثر من ثمانين ميلاً . ومن هنا كان مسلمو المدينة على مرمى تستطيع القوات الضاربة استخدامه لقطع شريان الحياة التجاري الممتد بين مكة وسوريا .

وكانت الخطط السوقية التي اتبعتها النبي بين عامي ٦٢٣ و ٦٣٠ هي عين الخطط السوقية التي اتبعتها فيصل ولورنس في الحملة بين عامي ١٩١٦ ، ١٩١٨ . فلقد احتفظ الاتراك في الحرب العالمية الاولى بحاميات ضخمة في مكة والمدينة وكانت هذه الحاميات تعتمد في بقائها لا على قوافل الابل بل على الخط الحديدي بين المدينة ودمشق . وقد عزز الامير فيصل ولورنس مواقعهما الى الشمال من المدينة حيث كانا في وضع يمكنهما من قطع شريان حياتهما مع سوريا .

لكن عمليات النبي العسكرية لم تبدأ على الفور على أي حال . فلقد انقضت ستة أشهر على الأقل قضاها محمد في توطئ المهاجرين في المدينة وفي تثبيت مكانته الشخصية بين أهلها .

لكن بعض المهاجرين كانوا قد أصبحوا في غصون ذلك في أمس الضيق والحاجة ، وكان بعضهم قد ترك أهلهم في مكة ولم يكن يجد مكانا يأوى اليه لينام الا في ساحة المسجد المكشوفة . وكان عدد منهم يعمل لحساب أهل المدينة وإن كانوا كما ذكرنا من قبل يجهلون كل ما يتعلق بالشئون الزراعية . وقد أحس النبي نفسه بما يعانيه أتباعه من ضيق وجوع . وكان في استطاعته بالطبع أن يحيا حياة أسعد ولكنه لم يكن

(١) لم ترد هذه القصة الا في كتاب واحد من كتب التاريخ الاسلامي في حين لم نشر اليها كتب السيرة الصحيحة ، مما قد يوحي باختلافها من قبل بعض الشعوبيين الذين تظاهروا بالاسلام ليحاولوا المساءة . (العرب)

ليُرجب في أن يعيش في رخاء ودعة في حين أن أتباعه يتضورون جوعاً . ولقد ذكرت عائشة بعد سنوات طويلة أن بيت النبي كان يخلو اسبوعاً بعد اسبوع من الحطب اللازم لاشعال النار كما لم تكن هناك حاجة الى اشعال النيران اذ لم يكن في البيت ما يصلح لان يطهى وكان غذاؤه وأهل بيته التمر والماء .

وكان الغزو بالنسبة الى العرب وسيلة طبيعية للخلاص من العوز . ولقد تولت القيام بالغزوات الصغيرة الاولى جماعات صغيرة من المهاجرين . ولم يشترك أهل المدينة في هذه المشروعات لكن أهل مكة والمدينة على السواء لم يكونوا قد ألفوا العمليات الحربية . وهى العمليات التى يقضى فيها البدو الرحل أوقات فراغهم . ولا تعرفها الجماعات التى تعمل فى التجارة أو الزراعة . لكن أيا من الغزوات الاولى لم تحقق نجاحاً مذكوراً فلقد كانت أنباء الحملة تصل الى قريش قبل وقوعها فى حين كانت الأنباء التى تصل الى المسلمين اما متأخرة أو مفتقرة الى الدقة . وفى خريف عام ٦٢٣ ميلادية مرت قافلة كبيرة تضم نحواً من ألف بعير محملة بالبضائع التى تملكها قريش ويتولى قيادتها أبو سفيان أحد كبار أعداء النبي فى مكة قاصدة الشمال الى غزة . وقد حاول المسلمون قطع الطريق عليها فى ذهابها ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك .

ولكن بينما كان رجال مكة والمدينة يعيشون فى هاتين المدينتين كانت الصحراء الفسيحة المكشوفة مأهولة بقبائل متفرقة من البدو وتعيش على الرعى . وبدأ النبي يدرك ان مساعدة هؤلاء البدو ضرورية لنجاح حملاته الصحراوية ولذا فقد شرع بصورة تدريجية يقيم علاقات معهم ولا سيما مع قبيلة جهينة التى كانت تقيم آنذاك كما تقيم اليوم بين المدينة والبحر .

وكان من المتوقع فى يناير (كانون الثانى) عام ٦٢٤ ميلادية أن تمر قافلة أبى سفيان على مقربة من المدينة فى طريق عودتها من الشمال وقرر النبي أن يضع يده عليها . ولكن خطة النبي سرعان ما عرفت ووصل التحذير الى أبى سفيان وهو على مقربة من الزرقاء (فى شرق الاردن على بعد ١٠٠ ميل الى الجنوب من دمشق) فى طريق عودته من سوريا . وسرعان ما أوفد أبو سفيان رجلاً الى مكة يستنفر قريشاً الى حمل السلاح ويطلب اليهم أن يرسلوا قوة لملاقاته على مقربة من المدينة تتولى حراسة القافلة وحمايتها من الخطر .

وفى الثامن من يناير (١) (كانون الثاني) عام ٦٢٤ ميلادية خرج محمد على رأس قوة قوامها (٣١٤) رجلا منهم ثمانون من المهاجرين ومائتان وأربعة وثلاثون من الانصار من المدينة لقطع الطريق على القافلة . وكان المسلمون على درجة من الفقر بحيث لم يستطيعوا توفير أكثر من سبعين بعيرا وجوادين لاستخدامها فى الحملة ففى آمامد الصحراء الفسيحة لم يكن فى وسع المحاربين أن يقاتلوا راجلين وكان الافتقار الى الحيوانات يحد كثيرا من قدرتهم على الحركة .

وعندما وصل النبي بجيشه الى الصفراء التى تقع على بعد ستين ميلا الى الغرب من المدينة أوفد رجلين من عيونه يستطلعان أحوال الآبار فى بدر على طريق القوافل الى سوريا وهى الطريق التى لابد لقافلة أبى سفيان من سلوكها . وسمع الرجلان من بعض النسوة وكن يملأن الجرار من البئر بأن من المتوقع وصول قافلة كبيرة فى اليوم التالى فعادا بسرعة الى النبي ينقلان اليه ماسمعا لىتمكن من نشر قواته قبل الموعد المنتظر .

وبينما كان محمد على بعد خمسة وعشرين ميلا الى الشمال الشرقى من بدر ينتظر وصول كشافيه وتقريهما كانت قافلة أبى سفيان على بعد مماثل من الآبار الى الشمال الغربى وكانت تسير ببطء نحوها مصحمة على الوصول اليها للسقاية من مائها . لو واصل الفريقان سيرهما على النحو الذى كانا يسيران فيه آنذاك لالتقى المسلمون بالقافلة المكية على الآبار فى اليوم التالى . ولكن أبى سفيان كان قائدا مجربا ومحتكا للقوافل . وكان القلق قد استحوذ عليه اذ لم تصل اليه أنباء من الرجل الذى أوفده ولا عن الحامية التى طلبها من مكة لتتولى حراسته وأيقن ان الساعات الاربع والعشرين القادمة ستكون حرجة كل الحرج وخطرة كل الخطورة . وكانت بدر أقرب نقطة الى المدينة على الطريق التى يسير فيها . فقرر أن يمضى قبل القافلة الى بدر ليستطلع الوضع بنفسه . وعندما وصل الآبار وجد شيخ جهينة القبييلة البدوية التى تقيم فى الناحية فسأله عما اذا كان قد رأى غرباء فى المنطقة ورد البدوى بالنفى قائلا انه لم ير سوى رجلين على ناقتيهما غادرا المكان قبل قليل بعد أن وردا البئر . وترجل أبو سفيان عن ناقته كما يفعل أى مسافر فى الصحراء ومشى حذرا الى البئر متطلعا الى الارض بامعان الى أن عثر على آثار البعيرين

(١) يقول الاستاذ الخضرى طبقا لتقويم محمد مختار المحرى ان خروج النبي من المدينة كان فى الخامس من مارس (اذار) عام ٦٢٤ . (العرب)

وهدهاء بحثه الى العثور على بعض روئهما ففركه بين أصابعه ووجد بعض نوى التمر فيه وسرعان ماميزه بأنه من أنواع التمر التي يثمرها نخيل المدينة • فلقد كان يعرف أن ليس في البدو من يطعم بعيره تمرا • وقرر على الفور أن الرجلين لابد وأن يكونا من أهل المدينة وانهما من عيون محمد • الذي لابد وأن يكون قد نصب كمينه على مقربة لاصطياد القافلة • وراح أبو سفيان يمتطي بعيره ليغذ به السير عائدا الى قافلته التي تدب في طريقها الى بدر ليلقاها قبل أن تصل •

وكان الرسول الذي أوفده أبو سفيان من سورية الى قريش قد وصل الى مكة وان لم يعلم بوصوله محمد أو أبو سفيان • وكان أهل مكة قد فزعوا على أموالهم فراحوا الى سلاحهم ينتفضونه والى ابلهم يركبونهم ليسرعوا الى انقاذ القافلة وخرجت من مكة قوة تضم سبعمائة وخمسين رجلا من راكبي الابل ومائة من الفرسان المدرعين بالزرد^(١) وراحت هذه القوة تغذ سيرها على طريق القوافل الى بدر قادمة من الجنوب وهكذا كانت الفئات الثلاث تتقدم الى المكان نفسه والواحدة منها لا تعرف شيئا عن الاخرى •

والتقى أبو سفيان الداهية بقافلته على بعد بضعة أميال الى الشمال من بدر وأمر بتحويل اتجاهها غربا نحو الساحل وأخذ بعد ذلك يتابع السير في الليل والنهار دون توقف مارا على بعد اثني عشر ميلا الى الغرب من بدر ومتجها الى الجنوب بأقصى ما أمكنه من سرعة الى أن غدا في نجوة من الخطر •

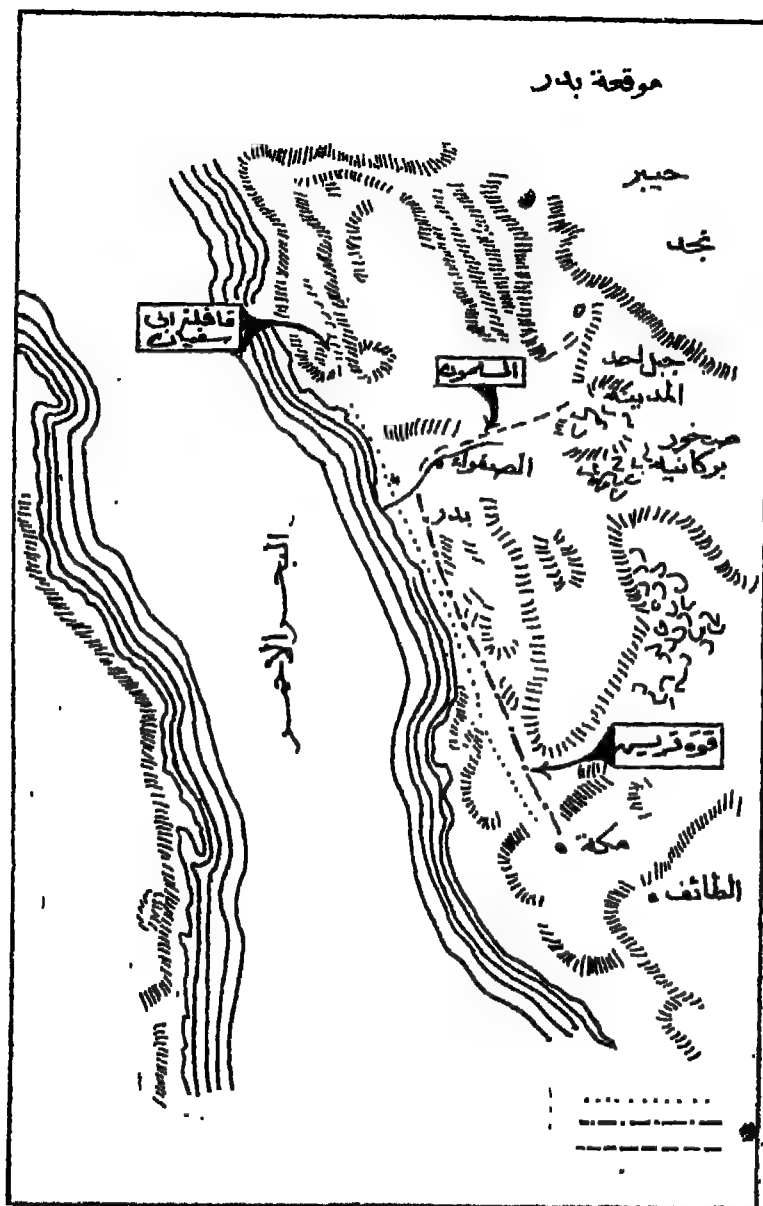
وبينما كانت القافلة تغلح في الافلات من الخطر كانت قوة النبي المؤلفة من ثلثمائة رجل يتناوبون الركوب على السبعين بعيرا التي ترافقهم تتقدم ببطء نحو بدر انتظارا لوصول القافلة الضعيفة الحراسة اذ لم يكن يتولى حراستها أكثر من ثلاثين رجلا يواجهون ثلثمائة محارب من المسلمين ، ولكن قبل أن يصل المسلمون الى بدر قابلوا بعض المسافرين الذين أبلغوهم ان قوة من قريش تضم نحو من ألف رجل هي في طريقها لانقاذ القافلة • وكان هذا أول نبأ وصل الى النبي عن أن قريشا قد استنفرت رجالها لحماية قافلته المعرضة للخطر • وفزع النبي من هذه الأنباء ولا سيما أنه لم يكن قد عرض ولاء مسلمي المدينة لمحك التجربة

(١) قدرت كتب التاريخ العربي عدد محاربي قريش بألف ما بين فارس وهجان .
(العرب)

العملية بعد فعقد مجلسا عسكريا للتشاور في الامر فأيدوا جميعا رغبتهم في المضي الى القتال .

وعندما اقترب النبي من بدر أوفد على بن أبي طالب على رأس جماعة من الكشافين لاستطلاع الوضع فلما وصلوا البئر باعثوا رهطا من قريش كان يستقى الماء . وقال لهم هؤلاء ان رفاقهم قد وصلوا في هذه اللحظة الى مسافة بضعة أميال فقط من البئر وانهم يقيمون على خط وراء التلال الرملية القريبة وهكذا وجد المسلمون امامهم بدلا من القافلة الكبيرة المفترية بشرواتها العظيمة قوة عسكرية تبلغ ثلاثة أضعافهم . وربط المسلمون على أقرب بئر من العدو ضامين لانفسهم السقاية من الماء ، ومانعين الماء عن قريش . وترامى الجيشان ولم يكن من الحرب بد في الصباح التالي وكان لابد للقوة المسلمة الصغيرة من أن تخوض المعركة مع قريش ، وسلمت راية المعركة بالنسبة الى المهاجرين الى مصعب بن عمير الرجل الذي كان النبي قد أوفده الى المدينة قبل سنتين لتعليم مسلميها الدين الحنيف . أما راية الخزرج فقد حملها الحباب بن المنذر في حين حمل سعد بن معاذ من زعماء الأوس راية قومه .

وانتشر الاضطراب في غضون ذلك في معسكر قريش . وقد سبق لي أن أوضحت ما للعصبية القبلية من أثر عند العرب وبينت أن محمدا كان يلقي الحماية وهو في مكة من بني هاشم على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا لا يزالون من المشركين . وكان رسول أبي سفيان قد وصل الى مكة ليقول لاهلها ان القافلة قد أضحت في نجوة من الخطر وانها تغذ السير في طريقها الى مكة . وأشار عدد كبير من القرشيين بالتراجع بدلا من أن يسفكوا دماء أبناء عموماتهم من المهاجرين . ولم تكن قوافل مكة التجارية ملكا خاصا للتجار الاثرياء فلقد كان في وسع كل رجل من أبناء المدينة يستطيع أن يؤمن مبلغا من المال مهما صغر هذا المبلغ ، ان يبعث به مع أحد الموثوق بهم من أصحاب القافلة على أمل استثماره في صفقة تجارية رابحة . وهكذا فان أى تهديد للقافلة يعنى تعريض كل ما وقره المكيون جميعا من أموال للخطر . أما وقد أصبحت ثروتهم الآن في مأمن من الخطر فلم يعد هناك أى مبرر للقتال . فالمهاجرون الذين لحقوا بالرسول ينتمون الى جميع عشائر قريش وبطونها . ومن هنا كان تردد القرشيين في خوض معركة لا ضرورة لها وتسفك فيها دماء اخوانهم وأولاد عمومهم . لكن الفريق المؤيد للقتال ما لبث أن تغلب على المترددين وذلك بفضل



ما أبداه أبو جهل عم النبي (١) من اصرار ومن حماسة في حديثه ،
لمحاربة المسلمين .

وهكذا تقدمت قريش الى المعركة وهي موزعة بين الاقبال والاحجام
كما أن بنى زهرة اخوال النبي رفضوا القتال وعادوا الى مكة . أما نفسية
المسلمين فكانت على النقيض من ذلك تماما فلقد كان المهاجرون يائسين ،
تخلوا عن كل مايملكونه في مكة ولا يحملون الا سيوفهم ، يضاف الى هذا
ان المسلمين تخلوا عن العصبية القبلية والعائلية التي تربطهم بعد أن
أكد لهم النبي ان المسلمين هم اخوانهم فقط فالخوف من سفك دماء الاقرباء
وهي النزعة التي كبحت جماح قريش وحدث من اقبالهم على المعركة ، والتي
لا تزال مهيمنة على عقلية البدو من العرب حتى اليوم لم تكن معروفة
عند المسلمين الاول ، الذين قيل أن بعضهم قتلوا آبائهم أو اخوانهم اذا
كانوا من المشركين . يضاف الى هذا أن تعودهم الوقوف في صفوف
منتظمة خمس مرات في اليوم لاداء فريضة الصلاة مؤتمنين بقائدهم قد
أرعى الى عقولهم الباطنة بشيء من الانضباط ومن الروح العسكرية المنظمة .
يضاف الى هذا أن المهاجرين والانصار كانوا تحت تأثير حمية دينية طاغية
وهم يشهدون قائدهم محمد وسطهم يشترك معهم في القتال (٢) .

وكانت التلال العالية تقوم الى الشمال والشرق من الوادي الذي يضم
آبار بدر . اما الى الجنوب فتقوم نتوءات صخرية تحد من الرؤية وتضيق
من نطاق المجال للمناورة في حين كان هناك الى الغرب حيث تنحدر الارض
باتجاه البحر سلسلة خفيفة من التلال والكثبان الرملية التي تغلق
الوادي . وتقدم المكيون ثوق هذه الكثبان باتجاه المسلمين الذين وقفوا
في صفوف أمام الآبار يرفعون راياتهم القبلية الثلاث . وكان أبناء عبد الدار
وفقا لتقاليد قريش يرفعون رايات المكيين في قالب الجيش وجناحيه .
وعندما ظهر جيش المكيين من وراء الكثبان دعا النبي ربه طالبا نصرته على
اعدائه وأعداء رسوله الذين ينكرون رسالته ويحاربون كلمة الله .
ويبدو لي أن من التشويه للحقيقة عند الحديث عن هذه المعارك

(١) اصرار جديد من المؤلف على جهله وتسمية أبي جهل بعم النبي . مع انه لا يربطه
به اية رابطة سوى رابطة القرابة في قريش . (المغرب)

(٢) يبدو لي أن المؤلف أراد التأكيد على قوة العصبية القبلية عند قريش ليظهر
قريشا بمظهر المازف من القتال المتروك فيه رغبة منه في تقليل أهمية النصر العسكري
الذي حققه المسلمون في هذه المعركة الفاصلة في التاريخ الاسلامي وان كان لرايه بعض
الامر لو كان صحيحا . لكن كتب السيرة والتاريخ الاسلامي أكدت ان قريشا اقبلت على
المعركة بحماسة منتظمة النظير وتصميم على قتال المسلمين . (المغرب)

الاسلامية الاولى أن نتكلم كما تكلم بعض المؤرخين الاوربيين بلغة الجيوش والقادة العسكريين والجنود . فلقد كان من المتوقع في الجزيرة العربية أن يحارب كل رجل في أوقات الطوارئ دفاعا عن قبيلته . أما في الاوقات التي لا أزمات فيها ولا طوارئ فليس نمة من جنود نظاميين وليس نمة من تدريب يعتبر ضروريا وكان المقاتلون يحاربون لا في سرايا أو أفواج وانما في جماعات قبلية أو عشيرية يقود كل جماعة منها رئيس القبيلة أو العشيرة . وكانت المعارك تبدأ في العادة بمبارزات فردية بين أبطال المتحاربين تقف قوات الفريقين موقف التطلع اليها ومشاهدتها . وأخيرا يكر الفريقان في شكل هجوم ويقرر مصير المعركة في اشتباك عنيف ينطوي على عدد كبير من حالات الصراع بالايدي وكان السيف هو السلاح الرئيسي في القتال ولكن المتحاربين كانوا يلجئون أيضا الى الأسنة والرمح وكانت النبال تؤلف نار التغطية كالمدفعية في يومنا هذا ، وكانوا يستعملون أيضا الحراب والرمح التي تقذف، وهي أسلحة قيل ان المرتزقة من أبناء القبائل البدوية التي كانت قريش تستأجرها لحماية قوافلها يؤثرونها (١) . أما الاسلحة الدفاعية فغالية التكاليف . وكان العرب يستوردونها من البلاد المتقدمة تقنيا كفارس وبيزنطة . وتألّف هذه الاسلحة عادة من خوذ فولاذية ودروع من الزرد مصنوعة من الحديد . لكن العرب بما كانوا عليه من فقر كانوا أعجز من أن يستطيعوا شراء الدروع والاسلحة الدفاعية .

وتقدم من صفوف القرشيين ثلاثة قادة هم شيبه وعتبة والوليد بن عتبة وتحدوا المسلمين أن يخرجوا اليهم ثلاثة لمبارزتهم، فخرجوا اليهم ثلاثة من الانصار ولكن محمدا أمرهم بالعودة وهتف بالمهاجرين طالبا أن يخرج اليهم ثلاثة من بنى هاشم . وتقدم ثلاثة كانوا مدرعين بالدروع أولهم حمزة عم النبي وثانيهم علي بن أبي طالب ابن عمه وربيبه وثالثهم عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه .

واشتبك الشابان أولا ، علي والوليد ولم تمض لحظات على المبارزة حتى كان الوليد يسقط مضرجا بدمائه بضربة سيف قاتلة من علي واشتبك حمزة عم النبي مع شيبه فضربه بسيفه بضربة بترته نصفين . أما عبيدة ابن الحارث البطل المسلم الثالث فكان قد أربى على الستين وثقلم منه عتبة فأصابه بسيفه في فخذه وأوقعه على الارض ولكن بعد أن أصيب

(١) كانت القبائل البدوية تسخر من قريش وتقول ان رجالها يخشون الخروج الى الصحراء دون حراسة مسلحة من قيرهم . (العرب)

بجراح من سيف عبيدة • وهوى المتبارزان على الارض • فتقدم حمزة وعلى وأجهزا على عتبة ثم حملا عبيدة الى صفوف المسلمين حيث توفى متأثرا من جراحه (١) •

وكان النبي قد أصدر أوامره الى المسلمين بأن يثبتوا في مواقعهم حتى تهاجم قریش على أن يحرسوا على جناحيهم نظرا لان صفوف قریش كانت أطول من صفوفهم وذلك تحت حراسة الرماة ، وتقدمت قریش مهاجمة ، لكنها عانت من عدة عوامل ضعف تعبوية (تكتيكية) • فلقد ارتفعت الشمس آنذاك في كبد السماء وكانت تواجه المسكين المهاجمين وبينما تقطعت أنفاسهم وهم يخوضون الكثبان الرملية للوصول الى المسلمين كان هؤلاء ثابتين في أماكنهم وقد خلفوا الشمس وراهم • وكان الصباح عاصفا اثر مطرة ليلية شديدة وعندما أصبح الفريقان على وشك الالتحام هبت زوبعة رملية شديدة في وجوه المكين وهتف النبي بحماسة دافقة يقول ان الفا من الملائكة يقودهم جبريل قد هاجموا العدو •

وحمي وطيس القتال وامتلا المكان بهتافات الحرب وصراخ المتحاربين وصليل السيوف ، وظلت المعركة معلقة في كفة القدر بعضا من وقت دون أن يضعف أحد الفريقين • وكان محمد قد أقام مع أبي بكر في عريش بناء له المسلمون في الليلة الماضية حيث راح يصلى الى الله مبتهلا اليه أن ينصر جنده ويعز دينه • وكان يردد القول بأن خسارة المسلمين تعنى انعدام من يعبد الله • وظل النبي يمد يديه متضرعا الى الله مناشدا إياه نصرته الى أن هوت عباءته من فوق كتفيه دون أن يحس بها • وهنا أمسك به أبو بكر قائلا : كفى يا رسول الله فلا بد أن يصدق الله ما وعده المؤمنين •

وخرج محمد مع أبي بكر من العريش يرقبان المعركة • وكان يردد وعده للمسلمين بأن كل من استشهد اليوم دفاعا عن دين الله فمأواه الجنة • وكان هناك شاب يقف الى جانب النبي يلهو بأكل حبة من التمر فعندما سمع ما قاله النبي صرخ هاتفا • • أبيني وبين الجنة أن أقتل في المعركة ؟ وانتضى سيفه بعد أن قذف بما يحمله من تمر وهجم على صفوف قریش وظل يعمل فيهم قتلا الى أن استشهد متأثرا بجراحه • هذا هو الايمان المجرد البسيط الذي غمر المسلمين الاوائل •

(١) تختلف رواية المؤرخين من رواية المؤلف • • فلقد ذكرت كتب السيرة ان عبيدة ومنبة اختلفا فربتين كلاهما أثبت من صاحبه ثم حمل حمزة وعلى على حبة فقتلوا عليه واحملا عبيده وهو جريح الى صفوف المسلمين • (العرب)

وانحنى النبي على الارض يلتقط حفنة من الحصى وقذف بها في اتجاه العدو مبتهلا الى الله أن يوقع الارتباك في صفوفه . وبدأت قريش تترنج من شدة ضربات المسلمين فازداد هؤلاء حماسة وضراوة في هجومهم وأخذ العدو في التراجع . وكان من المحال أن يتم تراجع منظم من قبل قوات كهذه تفتقر الى نظام . وسرعان ما تحول التراجع الى هزيمة ساحقة . وقتل من قريش تسعة وأربعون وأسر المسلمون منهم عددا مائلا (١) . وكان أبو جهل أشد أعداء النبي بين القتلى وبعث الرسول مولاة فقطع هذا رأس أبي جهل وعاد به الى النبي ليقتل به أمامه فهتف الرسول فرحا . . « هذا رأس عدو الله . الحمد لله ولا اله الا الله » .

وبلغت حماسة المسلمين حدا ضاريا حتى أن بعضهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب طالب الرسول بقتل الاسرى . لكن النبي أمر بإبقائهم على قيد الحياة طلبا للفدية ، وهو حل أكثر عملية من الذبح ، إذ أن المهاجرين كانوا في أشد حالات الفقر والضعف . وكان العباس عم النبي والذي صاحبه في بيعة العقبة بين الاسرى ولكن النبي أمر على أن يدفع أهله فديته . وأمر الرسول بدفن الموتى ثم عاد على رأس المسلمين تكلل هاماتهم أكاليل النصر الى المدينة .

وجدير بنا أن نذكر هنا ان بعض الاسرى شرعوا وهم ينتظرون الفدية من أهلهم في تعليم أهل المدينة القراءة والكتابة . وجدير بنا أن نذكر أيضا أن تجار مكة كانوا يرون في الكتابة على النقيض من مزارعي المدينة أمرا ضروريا لتصريف أعمالهم .

وكان انتصار بدر حجر الزاوية في التاريخ المبكر للإسلام . فلو قدر للمسلمين أن يهزموا أو لو قدر لمحمد أن يستشهد في هذه المعركة لما ظل الإسلام قائما ولاختفى هذا المذهب الجديد من عالم الوجود ، بدلا من أن يكسب كما كسب بالفعل انصارا جندا . ولم يتردد محمد في أن يعزو هذا النصر على عدد يعد ثلاثة أضعاف قواته الى عون الله وأن يعتبره دليلا ساطعا على هذه النصرة الالهية ومن هنا كان قراره في أن يكون انتصاره هذا وسيلة جديدة لتوسيع سلطانه .

وقد سبق لي أن ذكرت شيئا عن وجود قبائل يهودية في المدينة وسبق لي ان بينت أيضا ان النبي اتبع مع هذه القبائل أول وصوله الى المدينة سياسة ودية وعقد نوعا من الاتفاق معها . ولم يكن قد انقضى على

(١) تجمع كتب السيرة على أن عدد الاسرى بلغ سبعين رجلا .

وجوده في المدينة حول كامل عندما نشب الاحتكاك بين المسلمين واليهود فقد رفض هؤلاء الاقرار بنبوّة محمد وراحوا يعربون عن زرايتهم بالمسلمين واستهانتهم بهم . ونشب شجار بعد معركة بدر بين أحد المسلمين وأحد اليهود فقام النبي بحصار بني القينقاع . وهم الذين ينتمى اليهم ذلك اليهودي في الحى الذين يقيمون فيه الى أن استسلموا لحصاره . وخشى اليهود أن يأمر النبي بذبحهم عن بكرة أبيهم إلا أن عبد الله بن أبى الزعيم الأكبر للأوس والخزرج تشفع لهم بقوة عند النبي فعفا عنهم واكتفى بأن يصدر أمره اليهم بالهجرة من المدينة الى سوريا بعهد أن وزع مساكنهم وأموالهم على المسلمين . وهكذا ارتحل بنو القينقاع الى سوريا حيث أقاموا في ناحية درعا (١) .

وأثارت غلبة محمد على بني القينقاع واجلاؤهم من المدينة الفرع عند جميع أولئك الذين كانوا يعارضون النبي في المدينة سرا أو علانية . وكان عبد الله بن أبى زعيم الأوس والخزرج قد توقع تضائل شهرته ونفوذه بصورة متدرجة بالنسبة الى شهرة محمد ونفوذه الآخذين في الارتفاع والازدياد . وأدى فزع من تبقى من اليهود الذين كانوا لا يتورعون عن اظهار سخريتهم بما يقوله النبي عن الوحي الذى ينزل عليه الى أن يسكتوا مرغمين . يضاف الى هذا ان أموال بني القينقاع ومساكنهم كانت نافعة ومفيدة في سد حاجات المهاجرين المادية الذين وجدوا فيها ما أغناهم عن الحاجة المذلة الى العيش على حساب اخوانهم من الانصار وجودهم . وهكذا تجددهم يخطون في الواقع خطوات في طريق الشراء (٢) .

وتعزز سلطان محمد في المدينة بوقوع عدد من الاغتيالات فيها . وكان شديد الحساسية من قصائد الهجو التى يقولها بعضهم فيه والتى ينشرونها بين العرب بصورة مستمرة ولذا فقد حمل على الشعراء حملات عنيفة . وكان قول الشعر وتناقله شفويا من فم الى فم سواء أكان في

(١) لم يذكر المؤلف ابن بنى القينقاع هم الذين نقضوا عهدهم للنبي وانهم هم الذين قعدوا المسلمين عندما اعتدى رجل منهم على امرأة من العرب تعديا معيبا فصاحت مستغيثة فلما انها رجل من المسلمين قام الى اليهودي فقتله فقام اليهود على المسلم فقتلوه . ولا ريب في أن افقاله للسبب مقصود لاطهار المسلمين بمظهر المتدين . (العرب)

(٢) يكثر جلوب ، رغبة منه في تشويه التاريخ الاسلامى من الحديث عن فقر المهاجرين وميشهم على حساب الانصار . ولئن كان الانصار قد قدموا العون الى اخوانهم اول هجرتهم فان هذا العون أمر تفرضه الشريعة الاسلامية على المسلمين وليس فيه من منة - يضاف الى هذا ان المهاجرين مالبثوا أن أخذوا يعملون وسرعان ما أصبحوا في فنى من اللون . (العرب)

المديح أم الهجاء أهم وسيلة من وسائل ما نسميه اليوم بالدعاية عند العرب الذين تنتشر الامية بينهم . وعندما قتل اثنان من هؤلاء الشعراء الذين دأبوا على هجاء المسلمين فان من تبقى منهم من ناقدين قد أرغم على السكوت . وكان بين الذين اغتيلوا امرأة طعنت وهى نائمة فى فراشها مع أطفالها (١) .

وكان الحادث الذى أثار الناس فى المدينة أكثر من غيره من الاحداث اغتيال كعب بن الاشرف هو رجل ينتمى الى قبيلة طيء وان كانت أمه يهودية من بنى النضير . وقد عاش الرجل مع اخواله من يهود المدينة ونشأ فى كفهم . وكان كعب بن الاشرف قد نصر محمدا فى بداية الامر ولكنه ما لبث ان ارتد عن نصرته وقد قام بزيارة مكة بعد موقعة بدر ويقال انه شجع القرشيين على حرب المسلمين وتقرر أن يمضى خمسة من المسلمين لاغتياله . وقد مضوا الى بيت كعب بعد أن خيم الدجى ويقال ان النبى قد رافقهم جزءا من الطريق ثم تمنى لهم التوفيق عائدا وحده . وقد استخلص أخ لكعب فى الرضاع وهو من المسلمين لخدا كعب واخراجه من منزله حيث هاجمه المتآمرون . وقطعوه اربا اربا بسيفهم . ومنذ هذا الحادث أخذ يهود المدينة يعيشون فى رعب دائم (٢) .

(١) صورة متحوة أخرى . فليس في الموضوع اغتيال مطلقا . وانما هناك هذه لنظام ودين يظهر أحيانا على شكل هجاء متدلج يمس المسلمين وأمراسهم وليس من الغريب والحالة هذه ان يكون نصيب من يمس الأمراض ويقاوم النظام القتل من مؤمن متحمس للعقيدة لكن رواية الاغتيال هذه لم ترد الا في كتاب أو كتابين من كتب التاريخ القديمة ولعلها لا تخلو من الغرض من الشعبيين . (المغرب)

(٢) يخرج القارئ البريء الذى لا يعرف شيئا من تاريخ الاسلام من هذه القصة التى يرويها جلوب بعد أن وضع حقائقها فى الصورة التى يريد بها بالانطباع بان اليهود كانوا نحية للمسلمين وان اغتيال - كما شاء أن يسمى القصص العادى - كعب بن الاشرف عمل بعيد من سنن الاخلاق . ولا ريب في أن المؤلف يكشف عن خبيثة نفسه في هذه القصة ويعرض مظهره على اليهود الذين دلفه حبه لهم الى تزييف الوقائع . فالقصة الحقيقية كما ترويها جميع كتب التاريخ والسير النبوية هى على النحو التالى :

« كان كعب بن الاشرف يهوديا من طيء هم بنى نهبان وأمهم من بنى النضير فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حادثة ومجد الله بن واحة يشران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش قال كعب : « والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها » ولما يقين الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب ابن ابى وداعة السهمى فانزلته امرأته وأكرمته وجعل يحرض على رسول الله ويقول الاشمار ويكى أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال : =

ولجأ النبي بالاضافة الى اغتيال أعدائه من الشعراء الى استئجار آخرين يتولون الدفاع عنه . وكان من أشهر هؤلاء حسان بن ثابت وهو شاعر من أهل المدينة (١) ويقال انه عندما نعى اليه أن النبي في حاجة الى خدماته مد لسانه قائلا : وليس هناك من درع يصمد أمام هذا السلاح . ويقال ان النبي استوضح منه عن الطريقة التي يمكنه فيها أن يهجو قريشا دون أن يسيء الى النبي وهو منهم فرد الشاعر قائلا : « لا تخش يارسول الله ففى وسعى أن أستلك من وسطهم كما أستل الشعرة من العجين » .

وكانت قريش في غضون ذلك تعيش في متاعب ومشاق بالغة فلقد كانت حياتها تعتمد على تجارة القوافل وقد أصابها الفزع بعد معركة بدر من ايفاد قافلة أخرى الى سوريا . وأخيرا قررت قريش في سبتمبر عام ٦٢٤ أن توفد قافلة الى الشمال عن طريق نجد بدلا من طريق ساحل البحر الاحمر . ولكن أنباء عزمهم هذا وصلت الى المدينة فأوفد محمد ربيبه زيد بن حارثة على رأس قوة لتهاجم هذه القافلة وتقطع عليها طريقها ونجحت المحاولة تمام النجاح ، واستولى المسلمون على القافلة بكاملها وغنموا غنائم كبيرة من الحرير والدمقس والسلع التجارية واقتسموها بينهم .

وعلى الرغم من أن العداء كان في هذه الفترة قائما بين مدينتي مكة والمدينة الا أن القبائل البدوية التي تعيش في الصحارى المجاورة لعبت دورا هاما في المشاحنات التي قامت بين المدينتين . وكان هؤلاء البدو بتجوالهم المستمر بين المدينتين يؤدون دورا بارزا في نقل الاخبار والمخابرات وهي ضرورة عسكرية كان المسلمون مفتقرين اليها اشد

= طحنت رحا بدر لهلك أهله . ولئىل بدر تستهل وتدمع
قتلت مراة الناس حول حياضهم لا تيمسداوا ان الملوك تصرع
كم قد أصيب به رفيق ماجد ذو بهجة تأوى اليه الفصيح

الى آخر القصيدة . . ثم رجع الى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى اذا هم لأرسل له عليه السلام نفرا من الانصار لقتلوه جزاء خيائته العهد .

(العرب)

(١) غريب أمر جلوب هذا فقد جعل من الشعراء أعداء المسلمين اناسا يدافعون من عقيدتهم اما الشعراء من المسلمين وبينهم حسان بن ثابت شاعر الرسول فهم اجراء استأجرهم النبي ليدافعوا عنه . حقا انه هداة ظاهر بجمل جلوب بعيدا عن صفوف المؤرخين وبجبر لنا أن نماله في تمليقنا على أقواله بما يستحقه من نقد لاذع

(العرب)

الافتقار في البداية ، يضاف الى هذا أن هذه القوافل كانت تحتل الصحراء المكشوفة وكانت قادرة عن هذا الطريق على حماية القوافل أو نهبها وكانت قريش واثقة من أنها لو استطاعت ضمان ولاء هؤلاء البداة فإن قوافلها تستطيع أن تنجو من الفزاة المسلمين . أما إذا افاح النبي في كسب ولاء هذه القبائل فإن أهل مكة سيصبحون محصورين داخل مدينتهم ويتعرضون للتضور جوعاً . وكان المسلمون قد فازوا بصداقة قبيلة جهينة التي تقيم في السهل الساحلي لكن قبيلتي غطفان وبني سليم المقيمتين الى الشرق من المدينة ظلتا حليفتين لقريش . ودفعت هذه الأوضاع المسلمين الى القيام بغزوات صغيرة عدة ضد هاتين القبيلتين لارهابهما واقناعهما بأن صداقة محمد خير لهما من التحالف مع أهل مكة .

وبدا العام الثالث من هجرة المسلمين الى المدينة بداية سيئة ففي يناير (كانون الثاني) ٦٢٥ (١) خرجت قريش من مكة بقوة تضم نحواً من ثلاثة آلاف رجل وقد صممت على التآمر لهزيمتها في بدر وعلى فتح طريق القوافل أمام تجارتها . وكانت الطريق الى المدينة من ناحية الجنوب تمر عبر جبال جرداء قاحلة وهكذا مرت القوة المكية الى الغرب من المدينة ثم اتجهت الى اليمن لتدخل واديا واسعا الى الشمال من المدينة عند سفح جبل أحد الذي تكثر فيه الصخور . وهنا انتشرت القوة القرشية منتظرة من المسلمين أن يبدأوا هجومهم .

ولم يكن القلق الذي اثاره وصول هذه القوة الضخمة التي تبلغ في عددها ثلاثة أضعاف القوة التي خاضت معركة بدر قليلاً أو تافها . وكان من رأى محمد وعبد الله بن أبي وعدد من شيوخ المدينة البقاء فيها وعدم الخروج منها للقاء قريش . وكانت كل عشيرة سواء أكانت من الأوس أم الخزرج أم من قبائل اليهود تعيش في حيها الخاص بها حيث تقوم البيوت مجتمعة داخل أسوار تجعلها أشبه ما تكون بالقلع حصية على الاقتحام من رجال لا سلاح لهم إلا السيوف والسهام . ولما كان الجيش المكي قوة تفتقر الى تنظيم الجيوش وما تحتاج اليه من تموين فإنها كانت ولا ريب عاجزة عن فرض حصار طويل على المدينة . لكن الشبان من المسلمين وقد أثملهم انتصار بدر ضجوا مطالبين بالخروج لمقابلة قريش في معركة مكشوفة مما حمل النبي أخيراً على

(١) يختلف هذا التاريخ من التاريخ الاسلامي فقد كان خروج قريش في الثالث عشر من شوال الذي عاد له تقويم مختار المصري بالتاسع عشر من مارس سنة ١٩٢٥ .
(العرب)

التسليم برايمهم . وخرج الرسول بعد أداء صلاة الظهر على رأس أتباعه للقتال . وحاول بعض اليهود أن يلحقوا بالقوة الإسلامية كرديف لها يقدم العون ولكن النبي ردهم معلنا أن المسلمين وحدهم أصحاب الحق في الدفاع عن دين الله واتخذت القوة الإسلامية مواقعها في الليل لتشرع في التقدم نحو العدو عند فجر اليوم التالي ، وهنا وفي هذه اللحظة الحرجة انخزل عبد الله بن أبي بنحو من ثلثمائة رجل عائدا الى المدينة متأثرا بغيرته من سلطان النبي ومن رفضه العمل بمشورته وهي البقاء في المدينة. وهكذا تقدم المسلمون وقد خذلهم ابن أبي وصحبه في هذه اللحظة الشديدة الخطر بنحو من سبعمائة رجل ليحاربوا عددا يعد نحو من ثلاثة آلاف يضاف الى هذا أن القوة الإسلامية كانت تفتقر الى الجنود من أصحاب الدروع اذ لا يزيد عدد المتسربلين بها عندهم الى المائة وتفتقر ايضا الى الجياد بينما حشدت قريش وحلفاؤها نحو من سبعمائة رجل بدروعهم ومن مائتي فارس.

ولم يكن ثمة من شك في أن المسلمين وقد شعروا بقلّة عندهم ازاء العدو ودوا لو حموا ظهورهم بالجبل وبالفعل جعلوا أحدا وراء ظهورهم وخلف جناحهم الايمن بينما ظل جناحهم الايسر مكشوفاً ومعرضاً لهجوم يشنه فرسان العدو واحتاط محمد لهذا الخطر فوضع خمسين شخصا من الرماة لحماية هذا الجناح مصدرا امره اليهم بالا يتركوا مواقعهم مهما حدث . اذ أن هذه المواقع تحمي جناح الجيش من فرسان قريش .

وكان أبو سفيان بن حرب بن أمية يتولى قيادة أهل مكة وحري بنا أن نتذكر هنا أن التنافس كان قويا قبل الاسلام بين بنى أمية وبنى هاشم على البروز والنفوذ ، وأن بنى أمية كانوا يتولون بالوراثة قيادة جيوش قريش بينما يتولى بنو هاشم رفادة الحجاج وسقايتهم ولهذا فقد تولى أبو سفيان قيادة الجيش المكي بحق الوراثة بينما حمل بنو عبد الدار الراية على مالوف عادتهم . وعهد النبي براية المهاجرين الى مصعب بن عمير الذي حملها في موقعة بدر والذي يمت الى بنى عبد الدار أيضا . وأصطف المكيون يواجهون المسلمين الذين جعلوا جبل أحد في مؤخرتهم ففصلوا بذلك بين المسلمين وبين المدينة .

واشتمل النبي بدرعين من الزرد ثم استل سيفه وهتف بالمسلمين قائلا : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ وخرج من صفوف المسلمين رجل يدعى أبو دجانة فسأل الرسول قائلا : وما حقه يا رسول الله ؟ قال

فان تضرب به العدو حتى ينحني ، وتسلم أبو دجانة السيف من النبي
واخذ يختال بين صفوف الجيش قائلا :

انا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
الا اقوم الدهر في الكيول (١) أضرب بسيف الله والرسول

وراح النبي يقول وهو يرى أبا دجانة يتبختر في مشيته . . . انها
لمشية يبغضها الله الا في مثل هذا الموطن .

وكانت قريش قد حملت معها الى المعركة عددا من النسوة
يحملونهن في هودج ، وهي عادة ظلت قائمة عند بدو نجد حتى بداية
القرن العشرين . وعندما اقترب الفريقان بعضهما من بعض ، شرعت
نساء قريش في إيقاد الحماسة في صدور رجالهن بقرع الدفوف
، وانشاد افانئ الحرب وارخاء شعورهن الطويلة . وكان أبو سفيان قد
استفز حماسة بني عبد الدار بتعييرهم بأن جبنهم كان السبب في
هزيمة بدر ، وهنا خرج طلحة بن عبد العزى من صفوف قريش -
وهو من بني عبد الدار - يحمل راية قريش ويتحدى المسلمين طالبا
ان يخرج اليه أحدهم لمبارزته . وخرج اليه على بن أبي طالب وسرعان
ما ضربه بسيفه ضربة اسقطته مضرجا بدمائه . وخرج أخو طلحة على
الفور ويدعى عثمان من صفوف قريش فرفع الراية الساقطة بينما
ارتفع التكبير من صفوف المسلمين . واعاد عثمان تحدى أخيه القتيل
للبراز فخرج اليه حمزة عم النبي ، وبعد اشتباك قصير هوت راية
قريش من جديد الى الأرض وعاد حمزة ظافرا الى صفوف المسلمين
بعد أن صرع خصمه . ولم تات عشية ذلك النهار حتى كان خمسة
من بني عبد الدار قد خروا قتلى في ميدان المعركة وهم يحملون راية
قريش .

وكانت فترة المبارزات الفردية قد انتهت الآن وكر المسلمون على
رجال قريش بعزيمة ومضاء . وحمل عبد حبشي لآل عبد الدار راية
قريش بعد أن رفعها من الرغام وظل يقاتل حتى قطعت يدها فهوى
على ركبتيه وهو يحمل الراية بينهما الى صدره الى أن قتل مشحنا
بالجراح وكر المسلمون بعزيمة يؤمنون بأن الاستشهاد في سبيل الله
هو سبيلهم السريع الى الجنة . وأخذت صفوف قريش تترنج أمام
ضربات المسلمين القاصمة وظل أبو دجانة وقد لف منديلا أحمر على لামته
بضرب بسيف النبي ضربات قاتلات أما حمزة فكان يصول ويجول في

(١) الكيول آخر الصفوف في الحرب .

المجدان فتتهوى الرعوس أمام ضرباته يمنة ويسرة . وحاول فرسانه قريش الالتفاف حول جناح المسلمين ولكن رماة المسلمين الخمسين صدوهم على أعقابهم . وظل على بن أبي طالب يواصل الضغط على صفوف العدو وعادت معجزة بدر الى الظهور فالمسلمون لا يقهرون .

وظلت نساء قريش تقودهن هند زوجة أبي سفيان ينشدن ويهزجن وراء الخطوط ويعزفن على الدفوف وهند تقول :

نحن بنات طارق . . .

الى ان تقول . . .

ان تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
او تدبروا نفاارق فراق غير وامق

وفجأة انطلق أبو دجانة يضرب بسيف الرسول يمنة ويسرة فاخترق صفوف قريش حتى وصل الى النسوة فرحن يتبعثرن هنه وهناك ينشدن الخمار .

ولكن الفرور سرعان ما استخف ببعض المسلمين . فقد تاهوا اعجابا وفخارا وخيل اليهم أنهم حققوا النصر فاقبلوا على النهب (١) . وكانت الحماسة التي رافقت هجومهم قد فرقت صفوفهم وبددتها . ولعل ما هو اسوأ من ذلك ان الرماة الخمسين أو قد تصوروا أن المعركة قد انتهت ، تخلوا عن موقعهم على الجناح الايسر طلبا للنهب . وكان بين البارزين من رجال قريش في ذلك اليوم رجلا ندر لهما أن ينالا شهرة، خالدة كقادة عسكريين للمسلمين وهما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص . وقد رأى هذان القائدان الفرصة التي اتاحها تخلي الرماة المسلمين عن موقعهم فقادا فرسانهما والتفأ بهم حول الجناح الايسر للمسلمين، لم اتجها الى اليسار ثانية وهاجما خطوط المسلمين من مؤخرتها (٢) . وكان النبي يرافقه عدد من الصحابة يقومون على حراسته يسير وراء

(١) لا أدري من أين جاء المؤلف بهذه الرواية المشوهة فلقد أجمعت كتب السيرة، وفي طليعتها سيرة ابن هشام نقلا عن الزبير بن العوام قوله يصف تحول المعركة : ولقد رأيتني انظر الى هند بنت عتبة وصواحبها مشمرت هوارب وما دون اخذهن قليل ولا كثير اذ مالت الرماة الى المسكر حين كشفنا القوم عنه وخلصوا ظهورنا للخيل فابتينا من خلفنا وصرخ صارخ الا ان محمدا قد قتل فالتفتنا والتكفأ علينا القوم .
(٢) تجمع كتب التاريخ العربي على ان خالد بن الوليد وحده هو الذي قاد فرسان قريش اما عمرو بن العاص فكان قائدا في المعركة . - الحرب -

الصف الزاحف من المسلمين يرقب سير المعركة عند ما داهمته من المؤخرة ثلثة من فرسان قريش اقتحمت طريقها متجهسة الى الامام واستشهد مصعب بن عمير وهوت راية المهاجرين وبوغت المسلمون بهذا الهجوم الصاعق من المؤخرة وتمزقت صفوفهم وتفرقوا شلدر مدر وارفع صوت الندير يقول ان محمدا قد قتل وراح الناجون من المسلمين يولون الاديبار لينجوا الى سفوح احد وراءهم . وكان المسلمون يمرون بالرسول في طريق فرارهم فيهتف بهم قائلا : أين تذهبون ؟ .. هودوا انا رسول الله ولكن دون جدوى (١)

وكانت راية قريش لا تزال ملقاة على الثرى منذ قتل المحاربين من بنى عبد الدار واسرعت فتاة شجاعة تسمى عمرة بنت هلقمة فرفعت الراية التي التفت حولها قريش بعد أن أعادت تنظيم صفوفها وأخذت تهرج بأهازيج العزى وهبل من الأصنام وعادت قريش الى الهجوم على المسلمين . وعندما سمع بعض المسلمين النداء بأن محمدا قد قتل هب رجل منهم يدعى أنس بن النضر فهتف قائلا : « قتل رسول الله ، فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله » ثم استقبل القوم فظل يقاتل يمئة ويسرة حتى قتل . وتقول الروايات أن المسلمين وجدوا بعد المعركة في بدنه سبعين ضربة .

وسرعان ما ضيق العدو الخناق على الفئة القليلة العدد التي تتولى حراسة النبي وانهالت الحجارة والنبال كالامطار على حراس النبي . وأصحاب حجر رسول الله في وجهه فشجه وأصاب شفته وثناياه . ووقعت ضربة على رباطيته فوق هامته ... وهتف النبي يطلب العون بعد أن وقع في الحفرة . وسرعان ما هب خمسة من المسلمين لنجدته اذ سمعوه يقول : « من يشري لنا نفسه » . وظل هؤلاء الخمسة يدافعون عن النبي حتى استشهدوا عن آخرهم .

(١) هذه رواية أخرى من روايات المؤلف المشوهة . فلقد دافع المسلمون من النبي دفاع الابطال ولم يروى اي رواية ان النبي قال لهم هذا القول فلقد روى ابن هشام أن أم عمارة نسبية بن كعب المازنية قالت يوم احد دلفاها عن الرسول الى ان أصيبت . وروى ابن اسحاق أن ابادجانه ترس دون رسول الله يقع النيل في ظهره وهو منحن عليه حتى كثر قيح النيل . واضاف ان سعد بن ابى وقاص رمى دون رسول الله كما رمى عنه قتادة بن النعمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم كثر من صحابة الرسول ومن هنا تظهر رواية المؤلف المشوهة .

(العرب)

وتمكن فارس مشهور من قريش يدعى ابن قمئة من الوصول الى النبي فضربه بسيفه ولكن طلحة بن عبيد الله من أقارب النبي درأ الضربة يديه فتحطمت أصابعه . ووقع النبي على الأرض والدم ينزف من وجهه بينما واصل ابن قمئة صراخه معانسا قريشا انه قتل محمدا . ومن الغريب أن يفكر المرء اليوم كيف كان من الممكن أن يتغير مجرى التاريخ لو أن ضربة سيف ابن قمئة قد أصابت هدفها قبل ألف وثلثمائة عام .

وكان نفر من المسلمين قد تحلقوا حول النبي في غضون ذلك ومن المحتمل أن يكون ادعاء ابن قمئة بأنه قتل محمدا قد خفف من عزيمة قريش ودعاهم الى الاسترخاء اذ أن نضالهم كان مع محمد وحده ، واغتنم طلحة بن عبيد الله فرصة هذا الاسترخاء ورفع النبي برغم جراحه من الحفرة التي وقع فيها ، والتف حول النبي أبو بكر وعلى وغيرهما من الصحابة المقربين يحملونه ويدفعون عنه الأذى حتى وصلوا به الى صخور احد حيث أنزلوه مكانا أميناً ، ومضى على يطلب ماء ليمسح به جراح النبي بينما هتف الرسول قائلا : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم الى ربهم ؟ !

وهكذا انتهت المعركة وباتت قريش مسيطرة على ميدانها تمام السيطرة ولجأ من تبقى من المسلمين الى شعاب أحد يرقبون منها رجال قريش دونهم في سفح الجبل وأصبحت المدينة نفسها مفتقرة الى من يدافع عنها لو أراد المشركون غزوها . لكن المكين اشتغلوا في غضون ذلك في نزع الملابس عن قتلى المسلمين وتشويه جثثهم فلقد قتل نحو من خمسة وسبعين من المسلمين بينما لم يخسر قريش الا عشرين رجلا (١) . وقد حزن الرسول أكثر ما حزن على عمه حمزة . فقد استأجرت هند زوجة أبي سفيان رجلا حبشيا يدعى وحشيا اشتهر بمهارته في قذف الحربة ليقتل حمزة ثارا لوالدها الذي قتله حمزة في موقعة بدر (٢) . وكمن وحشى لضحيته الذي لا يشق له غبار في

(١) روت كتب السيرة ان شهداء المسلمين بلغوا (٧٠) وان قتلى قريش كانوا

(٢٢) .

(٢) تؤكد كتب السيرة وفي طليعتها سيرة ابن اسحاق ان حبشيا كان غلاما لرجل يدعى جبير بن مطعم وكان هم هذا ويدعى طيمية بن عدى قد أصيب يوم فلما سارت قريش الى أحد قال له جبير ان قتلت حمزة هم محمد بمعنى فأنت عتيق . ومضى الرواية وهي على لسان حبشي تقول . . فخرجت مع الناس انظر حمزة وابصره وليست لي بغية سواه الى ان قتلت .

(العرب)

شجاعته وشدة بأسه حتى لاحت له منه صانحة وهو يبارز قرشياً فضربه بحريته فوقعت في ثنيته حتى خرجت من بين رجليه وخر صريعاً لقتوه . وعثرت هند على الجثة بعد المعركة فثارت لنفسها بجذع أذنيه وأنفه وراحت بعد ذلك تفتح بطنه لتنهش من كبده .

- وعندما انتهت قريش من التمثيل بجثث المسلمين وإرادت الانصراف تقدم أبو سفيان فأشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته لیسمعه المسلمون القابعون فوقه بين صخور الجبل : « أنعمت فعال وإن الحرب سجال . يوم بيوم . أعل هبل ، إن موعدكم بدر للعام المقبل » ، وامتطى المكيون اثر ذلك ابلهم وراحوا يغادرون المكان وخشي النبي أن تكون وجهتهم المدينة وأن يحتلوها بسهولة لعدم وجود قوة تدافع عنها ، فأوفد على بن أبي طالب في أثرهم لينقل اليه أخبارهم وحركاتهم ، وسرعان ما عاد « على » ليقول إن قريشاً اتجهت الى الجنوب فنى طريق مكة وأنها جاوزت المدينة وفرغ المسلمون بعد ذلك لقتلهم يدفنونهم . وقيل : إن محمداً غضب غضباً شديداً عندما رأى ما رآه من تمثيل قريش بشهداء المسلمين ولا سيما بجثة عمه حمزة وتوعد قريشاً أن أظهره الله عليها في موقعة من المواقع أن يمثل بثلاثين رجلاً منهم . ولكن الرسول سرعان ما ندم على قوله وأصدر أمره بتحريم المثلة بالأموات .

وبالنظر الى أننا ألفنا فكرة الحرب الجماعية بكل ما فيها من قسوة وخشونة ووحشية فإن الأساليب العرضية والمتنافرة التي يتبعها العرب تبدو لنا غير مفهومة اطلاقاً فنحن نرى في الوحشية التي أبدتها قريش في التمثيل بجثث قتلى المسلمين شيئاً يرمز الى الكراهية التي لا تنطفئ ولا تخمد ، ومع ذلك فإن قريشاً تقاعست عندما بات النصر الكامل في متناول يديها عن طريق احتلال المدينة عن هذا العمل ، وعاد رجالها الى بلدتهم مكتفين بتحدي المسلمين للقتال في بدر في العام المقبل . ويبدو أن مثل هذا التحدي لمعركة في كل سنة كان شيئاً تقليدياً بالنسبة الى عرب تلك الايام ، فلقد نشبت الحرب قبل سنوات عدة بين قريش وهوازن ، عندما كان محمد لا يزال فتى غضض الاهداب . ودارت خمس معارك سنوية كانت الواحدة منها تقرر في السنة التي تسبقها ويتلاقى الفريقان على موعد بالقتال وذلك قبل أن يعقد الصلح النهائي بينهما .

وقد استمرت طرق الحرب بين القبائل البدوية في وسط الجزيرة العربية على هذا النحو الى حد كبير حتى القرن العشرين .

فلقد كانت هناك قبائل معينة تخوض باستمرار المعارك بعضها ضد بعض دون أن يرغب أحد الفريقين أدنى رغبة في قيام الصلح النهائي بينهما . وكانت أوضاع هذه الحروب التي لا تنتهى تؤمن المواضع الإبداعية الرومانطيقية التي تمكن فتيان العرب وبواسلهم ومغامريهم من أداء أعمال البطولة التي أضفت على شعرهم ذلك الرونق والمجد الذي لا يؤمنه لهم حياتهم الرتيبة التي يعيشونها . وصحيح أن قريشة لم تكن قبيلة بدوية وكانت مصالحها الأساسية معتمدة على التجارة ولكنها عندما تخوض حربا من الحروب كانت تميل الى اتباع العادات الحربية المألوفة في عصرها حتى ولو كانت هذه المصادات والتقاليد ناشئة في أجواء بدوية .

لكن المنازعات الدموية كانت تنفلذ خلال هذه المشاحنات العارضة والرومانطيقية لتؤدى في أحيان كثيرة الى المزيد من الكراهيات ومن أعمال الانتقام الوحشية ، ومن هنا كان التناقض يبرز كل البروز . فالحروب تدور في صورة عرضية وتتبع فيها أنظمة الغرسية وتخاض المعارك بمواعيد مسبقة تسبقها مبارزات فردية ولكن عندما يصبح من المعروف أن هذا الفارس قد قتل الفارس الآخر اذ لا يعترف في الاشتباكات الدموية من القاتل ومن القتيل ، فان حزازات دموية سرعان ما تنشأ لا بين القبيلتين المتقاتلتين فحسب بل وبين أسرئى القاتل والقتيل في كل حادث معين . ولم يكن التمثيل بجثة حمزه ناشئة من تعصب ديني بل من الحقيقة الواقعة وهى أن حمزة قد قتل والد هند في معركة بدر (١) .

وقد استمرت عادات القبائل العربية في القتال كما سبق لى أن اوضحت حتى القرن الحالى . ولكن من الطريف أن نبين أنه في غضون الثلاثة عشر قرناً الماضية كانت الاندفاعات الدينية تنشب من وقت الى آخر وكان آخرها قيام الوهابيين بين عامى ١٩١٢ و ١٩٣٠ ، وكانت هذه التفجرات الزمنية من الحماس الدينى لا تستمر في كل مرة أكثر من ثلاثين عاماً تقريباً . وفي هذه الفترات كان المتقاتلون يخرجون جزئياً أو كلياً على التقاليد القبلية القديمة وكان أصحاب الدعوة الجديدة يقاتلون بقصد الفوز والكسب . والاساليب التي تتجنب سبل الرحمة حتى وان كانت التقاليد البدوية القبلية لا تسمح بها

(١) سبق لنا أن ذكرنا في هامش سابق الرواية الصحيحة التي اوردتها سيرة ابن هشام من مقتل حمزة هم النبي .

تصبح مبررة اذا كان القصد منها خدمة الله ، وسنرى في الصفحات المقبلة كيف أنه في الوقت الذي كانت فيه قريش والقبائل الاخرى تتبع الاساليب القديمة العرضية كان محمد يقاتل ليفوز ويربح .

* * *

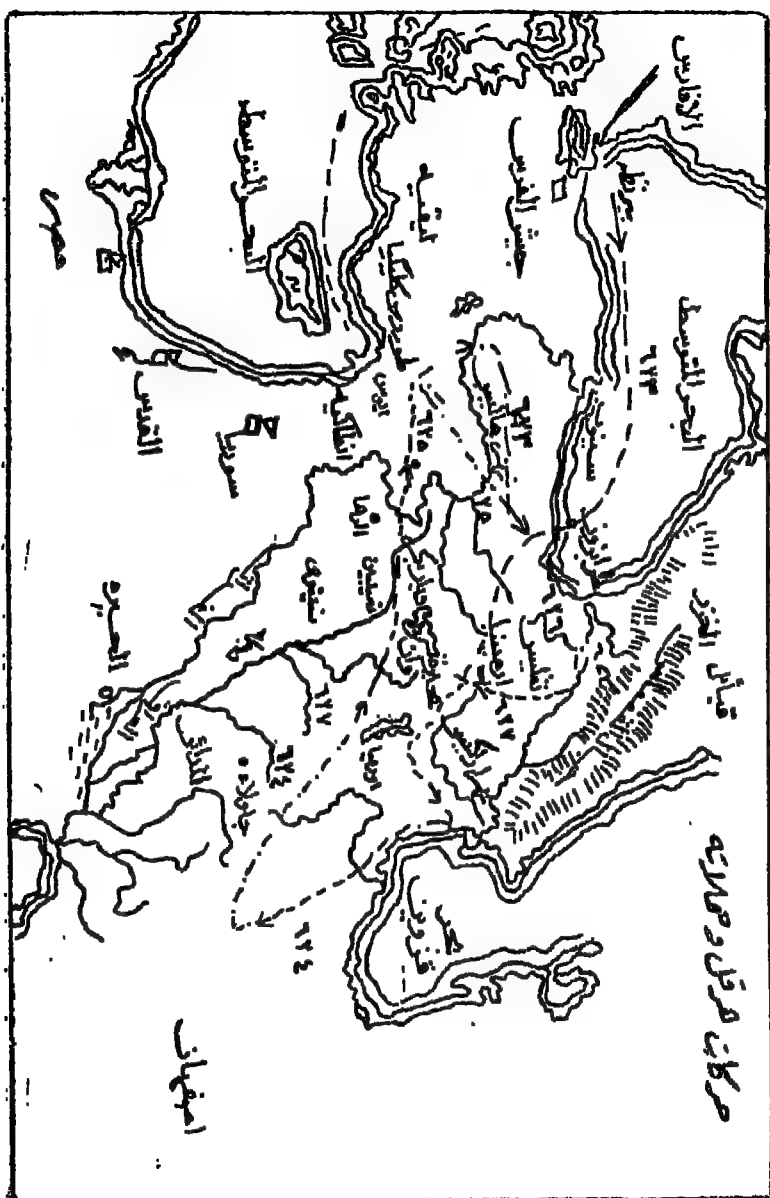
ولم تكن حظوظ العرب في صعود وهبوط وكانها دلو في بئر في الجزيرة العربية وحدها فلقد كانت الامبراطوريتان العظيمتان في ذلك العهد تمران بشرور مماثلة . ولقد سبق لنا أن رأينا كيف أن هرقل قد ارتقى عرش القسطنطينية في عام ٦١٠ وكانت أولى الانباء التي استقبلته بعد ارتقائه العرش من جبهة فارس فقد جاءه نبأ سقوط انطاكية في أيدي أعدائه واحتلت جيوش كسرى مدينة القدس في عام ٦١٤ كما احتلت مصر في عام ٦١٦ ، واكتسحت جيوش فارسية أخرى آسيا الصغرى ، ووصلت الى ابواب القسطنطينية على مضيق البوسفور ، وترأت أمامها أبراج بيزنطة وأسوارها . وفي غضون ذلك كان شعب من البرابرة يدعى الافارس قد زحف من مناطق روسيا الجنوبية على البلقان فاحتل شبه الجزيرة حتى وصل الى أسوار العاصمة . ورأى هرقل أن الأعداء يحيطون به من كل جانب وأن هؤلاء الأعداء أشداء ولا حول له ولا طول على قراهم ففكر في الجلاء عن بيزنطة والرحيل بحكومته الى قرطاجنة في الشمال الافريقي . ولكن البطريرك حمله على البقاء وراح يوفد البعثات والسفراء الى كسرى مناشدا اياه السلام ولم ينج من الموت والاغتيال الا بأعجوبة عندما سعى بنفسه الى لقاء زعيم البرابرة . ورفض كسرى في بداية الامر عروض الامبراطور ولكنه وافق في النهاية على عقد هدنة مقابل جزية سنوية قدرها الف طالن (وزن قديم) من الذهب والفضة و ألف رداء من الحرير و ألف جواد و ألف فتاة من الإبكار . وقد أنحى المؤرخون على هرقل باللوم لانه فشل في الاثنى عشر عاما الاولى من حكمه في طرد الغزاة من أراضيه . لكن بعضهم وجد له العذر في الصراع الداخلي الذي نشأ بينه وبين مجلس الشيوخ على السلطان مما أدى الى استحالة قيام سياسة قومية جريئة . واني لأرى أن المعلومات المتوافرة لنا عن الموضوع أقل من أن تمكننا من الوصول الى حكم سليم فيه .

وسلم الامبراطور بعد يومين من عيد الفصح في عام ٦٢٢ مقاليد الامور في القسطنطينية الى البطريرك والى مجلس الشيوخ . وعلى الرغم من أن الحصار على المدينة كان شديدا من ناحيتي الشرق والغرب

أى من جانب الفرس والافارس فان البيزنطيين كانوا مسيطرين على البحر وحمل هرقل جيشه على أسطوله ومر به عبر الدردنيل لينزل به على الساحل الشمالى من خليج الاسكندرون حيث سيطر فوراً على المضيق المعروف في جبال طوروس ببوابة كليكية . وأقام هرقل معسكره على مقربة من أضنة (إيسوس) التى كان الاسكندر الأكبر فيها قد قهر جيش « دارا » ملك الفرس قبل نحو من ألف عام . وهزم هرقل جيشاً فارسياً جاء لمحاربته واجتاح كبادوكيا قاطعاً مواصلات الجيش الفارسى الرابط أمام القسطنطينية ، وخلف جيشه مرابطاً على نهر هاليس ليقضى الشتاء فيها . وعاد في نهاية عام ٦٢٢ الى القسطنطينية وكان النبى محمد قد غادر في يونيو (حزيران) من العام نفسه مكة مهاجراً الى المدينة .

وأبحر هرقل في ربيع عام ٦٢٣ من بيزنطة الى البحر الأسود يفود جيشاً مختاراً قوامه خمسة آلاف رجل ونزل هذا الجيش في طرابزون ثم زحف جنوباً الى أن التقى بجيشه المرابط طيلة الشتاء في كبادوكيا . وراح يجتاح بعد ذلك أرمينيا الى أن وصل الى نهر أراكسيس حيث قضى الشتاء التالى داخل الامبراطورية الفارسية على سواحل بحر الخزر (قزوین) الجنوبية . وكانت معركة بدر قد وقعت آنذاك في عام ٦٢٤ ويقال ان الامبراطور وصل في صيف عام ٦٢٤ الى قزوین التى تبعد مائة ميل الى الشمال الغربى من طهران الحالية ، لكن المعلومات الجغرافية عن هذه الحملات ضئيلة وغامضة . ويبدو أن « هرقل » قضى شتاءه الثالث في بلدة أميده (ديار بكر الحالية) وعاد في عام ٦٢٥ فهزم الفرس من جديد في كليكية وعاد في خريف ذلك العام وبعد أن قضى ثلاثة أعوام يشن حملاته داخل الاراضى الفارسية الى سواحل البحر الاسود .

وكان كسرى قد اتفق مع الافارس في غضون ذلك على ضرورة احتلال القسطنطينية ، واضطر هرقل الى امادة « ١٢ » ألف رجل الى عاصمته لتعزيز الدفاع عنها . وراحت الامواج المتلاحقة من جيوش البرابرة تقذف بنفسها لمدة عشرة أيام في صيف عام ٦٢٦ على أسوار القسطنطينية . وكان الافارس قد برعوا في فنون الحرب فنصبوا الابراج الخشبية على مقربة من الاسوار وعبروا الخنادق والحفر وتمنطقوا بالدروع والزرر الحمايتهم من الصواريخ البيزنطية . ولكن بعد عشرة أيام من القتال المرير العنيف اضطر الافارس الى الانسحاب تعبين مجهدين . وكان هرقل قد أفلح في غضون ذلك في مواجهة الحلف بين كسرى والافارس بحلف عقده مع شعب الخزر التركى المقيم على



مصب الفولجا • واجتمع رئيس هذا الشعب مع هرقل في «تفليس» وقدم الى جيشه نجدة قوامها أربعون ألف رجل .

وزحف هرقل في صيف عام ٦٢٧ جنوباً من جديد عبر أرمينيا وأحرز في الأول من ديسمبر (كانون الأول) نصراً حاسماً على الفرس في «نينوى» • ولم يكتف الفرس بالانسحاب من ضفاف البوسفور بل انسحبوا أيضاً من مصر وسوريا وبدأت مملكة الفرس في التفسخ والانحلال . وقام شيرويه باغتيال والده كسرى أبريز في عام ٦٢٨ ميلادية وسمت الفوضى جميع أنحاء المملكة . وتم أخيراً الوصول الى الصلح وعقدت معاهدة بعد ستة وعشرين عاماً من القتال والدمار أعادت الحدود بين الإمبراطوريتين الى ما كانت عليه في عام ٦٠٢ . وقد لحق الخراب بكلتا الإمبراطوريتين وخلت خزائنها من المال وأصاب الدمار أراضيها الغنية وشلت تجارتها وصناعاتها •

ولقد رأيت من الضروري أن أقدم هذا التحليل لسببين أولهما وأهمهما : أن ما أصاب الدولتين من انهك في هذه الحروب التي استمرت ستة وعشرين عاماً قد فتحت الطريق أمام الفتوحات العربية العظيمة • وثانيهما : ان الخطة السوقية التي اتبعتها هرقل في حروبه هذه عاد فحاول تطبيقها ولكن بنتائج مغايرة تماماً أدت الى كارثته وذلك ضد الغزو العربي لإمبراطوريته •

وقد لا يلام المسلمون اذا رأوا في هذه المذابح المتبادلة الحمقاء بين بيزنطة وفارس قضاء من الله ونصرة لهم ولا سيما انها وقعت في السنوات نفسها التي كان المسلمون فيها يوثقون من وحدتهم ويبنون قوتهم قبل أن يخرجوا من حدود الجزيرة العربية لاحتلال الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تحيطان بهما والاستيلاء على معالم حضارتهما العريقة •

تواريخ مشهورة

عيد الفصح عام ٦٢٢	هرقل يبحر من بيزنطة
٢٨ من يونيو (حزيران) ٦٢٢	وصول النبي الى المدينة
يناير (كانون الثاني) ٦٢٤	معركة بدر
يناير (كانون الثاني) ٦٢٥	معركة أحد
صيف عام ٦٢٦	هجوم البرابرة على بيزنطة
أول ديسمبر (كانون الاول) ٦٢٧	معركة نينوى
فبراير (شباط) ٦٢٨	اغتيال كسرى ابرويز وعقد الصلح بين بيزنطة وفارس

شخصيات مشهورة

ابن عم الرسول وقد نشأ في كتفه	علي بن أبي طالب
ابن الرسول بالتبني	زيد بن حارثة
أصدق صديق للنبي	أبو بكر
زعيم من زعماء المدينة (كبير المنافقين)	عبد الله بن أبي
قائد قریش ضد المسلمين	أبو سفيان
امبراطور بيزنطة	هرقل
ملك الفرس	كسرى

النَصْرُ وَالْوَفَاة

« وقتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا
ان الله لا يحب المعتدين • واقتلوههم حيث ثقفتهموهم
واخرجوهم من حيث اخرجوكم • »

سورة البقرة - القرآن الكريم

« انا فتحنا لك فتحا مبينا • ليغفر لك الله ماتقم من
ذنبك وما تاخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا
مستقيما • وينصرك الله نصرا عزيزا • هو الذى انزل
السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ،
ولله جنود السموات والارض وكان الله عليهما حكيما •

ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار
خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله
فوزا عظيما • ويعلب المنافقين والمنافقات والمشركين
والمشركات الظانين بالله ظن السوء » •

سورة الفتح - القرآن الكريم

« سواء سميتموه نبيا او مصلحا او اى شىء آخر فان
راعى الابل فى مكة وفاتح المدينة يفوق اى انسان آخر
عرفه تاريخ الشرق وليس ثمة فى تاريخ العالم رجل
واحد نستطيع أن نعزو اليه مباشرة آثارا عظيمة كالآثار
التي تعزى الى هذا الرجل • »

أى • أى • فريمان - فتوحات العرب

« امامه يجثو اهل البادية وأعداؤه يلحسون التراب •
ملوك ترشيش والجزائر يحملون اليه الهمايا • ملوك
شبا وسبا يقربون له العطايا »

الزمور الحادى والسبعون - سفر الزمير

أصابته هزيمة «أحد» الدعوة الإسلامية بما يشبه الجزر بعد المد الذي حققه نصر بدر ولما كان النصر في بدر قد عزى إلى نصره الله وعونه للمؤمنين فقد صعب على هؤلاء أن يفهموا لماذا ضنت العناية الإلهية عليهم بالنصرة في أحد • وتوالت الآيات منزلات على النبي • لتعينه في الحفاظ على الروح المعنوية القوية عند المسلمين • وسورة آل عمران في القرآن طافحة باللوم والتثريب على عبد الله بن أبي واتباعه لتخاذلهم وبالوعد للمسلمين بالنصر النهائي والتأكيد لهم بأن الله أراد لهم الانكسار ليعتليهم ويمتحنهم •

ولم يكده المسلمون ينالون قسطا من الراحة من عناء ما ألم بهم في أحد حتى كان محمد يعاود السعي لبسط نفوذه ونشر سلطانه • وغزا المسلمون بني أسد وهي قبيلة من أشد القبائل بأسا تقيم في نجد على مودة لقريش ونهبوا أبلها وخيلها وقتلوا شيخ بني لهيان وكان قد أظهر العداء للمسلمين وقطعوا رأسه وحملوها معهم إلى المدينة • ولكن بني لهيان خطفوا ستة من المسلمين ثارا لشيخهم وقتلوا أربعة منهم ثم باعوا الاثنين الباقين إلى قريش ليقتلها أقرباء قتلى بدر من المشركين (١) ويعتبر هذان وهما زيد وخبيب من الشهداء عند المسلمين ويقال إن أهل مكة عندما شرعوا يجلدون خبيبا بسيياطهم بعد أن صلبوه هتف قائلا : « اللهم احصهم عددا واقتلهم بددا ولا تقادر منهم أحدا » وعندما شد القرشيون وثاق الرجلين سلمت الرماح إلى أبناء قتلى بدر وطلب إليهم أن يقطعوهما

(١) تشويه آخر في الروايات من جانب المؤلف فكتب السيرة تجمع على أن هبطا من همل والقارة وهما بطنان من خزيمه (لا لهيان كما يقول المؤلف) قدم على رسول الله (صلم) بعد أحد فقالوا يارسول الله ان فينا اسلما فلو ارسلت معنا نفرا من اصحابك يفقهوننا في ديننا ويقرئونا القرآن ويعلموننا الاسلام فبعث معهم ستة من اصحابه أميرهم مرثد بن أبي مرثد الفتوى فخرجوا معهم حتى اذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هديلا فلم يرع القوم في رجالهم الا الرجال بأيديهم السيوف قد هشوهم فآخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلهم فقالت لهم هديل : انا لا تريد قتلكم ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه الا نقتل بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد ثلاثة فقتل أحدهم بالطريق والآخران بيما بمكة فقتلا هناك •

(الحرب)

بها حتى يموتا • ويظهر تراجع قريش بعد معركة أحد دون استغلال نصرهم والوحشية القاسية في قتل زيد وخبيب بعد صلبهما عفوية العرب في أساليب قتالهم من ناحية وقسوتهم التي لا تعرف الرحمة في الثأر لقتلاهم من الناحية الأخرى

ولعل المفارقة العظيمة بين الجانبين في هذه الفترة من سنوات المعارك تبدو واضحة جلية فيما امتاز به المسلمون من نشاط لا حدود له وما اتسمت به قريش من سلبية وجمود • وظل المسلمون يقومون بغزوات وسرايا من هذا النوع ، من قاعدتهم في المدينة وضد القبائل البدوية الحليفة لقريش مستعينين فيها بحلفائهم من البدو ، أما الأفراد الذين يظهرون عداء شديدا للمسلمين أو للنبي فكان مصيرهم القتل في معظم الحالات وبوسائل من النوع الذي نسميه اليوم بالوسائل الإرهابية (١) • وأوفد النبي في هذه الآونة رجلا إلى مكة لاغتتيال أبي سفيان ولكن الخطة لم تنجح (٢) • ومشيت الدعوة الإسلامية جنباً إلى جنب مع الاغتيالات ومع الدعاية كمحاولة للتأثير على عقول عدد آخر من الناس • ولعل كون محمد نبيا وحاكما وقائدا عسكريا في آن واحد هو الذي أدى إلى ترابط في وسائل القوة ووسائل الاقناع السياسي والتأثير الديني التي اتبعتها •

وكانت هذه الأعمال تصرف عند الجماعات القديمة ومنها قريش بالطبع من قبل جهات عدة لعدم وجود زعيم واحد لها مما أدى إلى الافتقار إلى التنسيق بين التعاون الكامل والوثيق للدعاية السياسية وبين التهديد باستخدام القوة العسكرية • وهكذا فإن محمداً كان يتمتع بالنسبة إلى

(١) يظهر المؤلف في هذه اللهجة حقه الأسود الدفين على الإسلام والمسلمين فهو يتهم المسلمين بأعمال الاغتيال دون أن يشير إلى ما قام به أعداؤهم من أعمال الاغتيال والفكر بالمسلمين وبينها محاولات عدة لاغتيال النبي نفسه • وهذه الحوادث كثيرة منها غدر أبي براء بالبعثة التي طلب من النبي إيفادها إلى نجد لتعليم النجديين شؤون الدين ومنها قتل عامر بن الطفيل برجلين مسلمين من بني سليم وغدر بني النضير برجلين مسلمين ومحاولة اغتيال الرسول وغير ذلك من الحوادث التي لأحد لها ولا حصر • وإذا ما أخذ المرء كل هذه المحاولات والأعمال الإجرامية بعين الاعتبار تبين له ما في اعتماد المؤلف من الموضوعية من تحيز ضد المسلمين كما وجد المبرر لثأر المسلمين من القاديين •

(العرب)

(٢) لم أجد في كتب السيرة أي تأكيد لهذه الرواية التي جاء بها المؤلف

(العرب)

المكيين بالمازيا نفسها التي يتمتع بها الديكتاتوريون المعاصرون في تعاملهم مع الديموقراطيات القديمة (١) .

وفى امكاننا المضى بهذه المقارنة الى مدى أبعد فلقد كان فى مكة المسلمين - كالشيوعيين اليوم - أن يضمّنوا حماسة عظيمة تثيرها العقيدة الجديدة ولاسيما عند الشبان . واضطرت قريش بطريقتها القديمة فى الحياة الى أن تلجأ الى موقف الدفاع وبدلاً من أن تكون كمحمد مشتبكة بصورة دائمة فى عمل هجومى لا يستقر على حال نراها سلبية جامدة لا نشاط لها الا فى الازمات الموسمية الطارئة .

وكان اجلاء بنى النضير أهم حادث وقع فى السنة التى تلت معركة أحد وتعتبر هذه القبيلة ، القبيلة اليهودية الثانية فى المدينة وكانت تعيش فى قرية منفصلة تحيط بها بساتين النخيل الى الجنوب من المدينة . وقد أذمنت القبيلة فى سبتمبر (أيلول) عام ٦٢٥م وبعد حصار دام خمسة عشر يوماً الى أمر الرسول بالجلء من بيوتها والهجرة الى سوريا حيث أقامت فى أريحا وفى منطقة درعا . وبينما كان بقو القينقاع وهى القبيلة اليهودية الاولى التى أجلاها المسلمون من الصاغة وصناع الاسلحة فان بنى النضير كانوا من الفلاحين وتوزع المسلمون دورهم وحداثتهم وحقولهم (٢) .

وهكذا واصل النبى على رغم الهزيمة فى أحد بسط نفوذه طيلة العام الذى انقضى بعد هذه الغزوة . وكان بغاراته على البدويّات فى اقناعهم بأن من الخير لهم لو انضوا الى جانبه بدلاً من جانب قريش وهى جماعة

(١) مقارنة سخيفة باطلة . لا وجود لاي مقومات التشابه فيها . فليس أبعد من الاسلام من الديكتاتورية وليس أبعد من تصرفات النبى من أعمال الديكتاتور . فلقد نص الاسلام على أن الامر شورى بينهم وليس أبعد من الشورى من الديكتاتورية . وكان النبى لا يقدم على عمل سياسى أو عسكرى الا بعد التشاور مع صحابته الا اذا كان هناك امر صريح من الله عز وجل . وقد رأينا كيف نفذ النبى رأى الاغلبية فى معركة أحد بالخروج للافاة قريش مع أن رفبته هو كانت فى البقاء فى المدينة . - العرب -

(٢) تحييل واضح سائر لليهود فقد تحدث المؤلف من جلاء بنى النضير دين أن يذكر السبب الذى دعا اليه وذلك من قصد سيئ وهو أن يظهر لقرائه ظلم المسلمين لليهود ولو كان منصفاً للذكر السبب الذى أجمعت عليه كتب السيرة . وهو تأمرهم على حياة النبى عندما مضى اليهم ليحدثهم فى أمر مسلمين قتلها بنو عامر حلفاء بنى النضير وأرادوا القاء صخرة على رأسه وهو متكئ على جدار فى أرضهم ليقتلوه فوقاه الله منهم .

(العرب)

تجارية لاتعرف الغارات والغزو وتوخي مناجلاء بنى النضير أضعاف قوة الجماعات غير الموالية له في المدينة ، وإيجاد وسيلة أكثر رخاء ليعيش المهاجرون الذين خلفوا ممتلكاتهم في مكة •

وبعد انقضاء الحول على « أحد » أى في يناير عام ٦٢٦ حلت الساعة اللازم لتقبل التحدي الذي كان أبو سفيان قد وجهه الى المسلمين للقاء في بدر بعد عام - وكانت السنة سنة أمطار شحيحة وهي حالة تجعل الحركة والتنقل متعذرين في الجزيرة العربية حتى يومنا هذا نظرا لاعتماد الأبل والخيول (وهي وسائل التنقل) في غذائها على ما ترعاه من الأرض • وأوفدت قريش رجلا الى المدينة ليزيد فيها أن المشركين يقومون بأعدادات واسعة لالقاء الدعر في قلوب المسلمين ومنعهم من المضي الى الموعد المضروب • وكادت المكيدة تحقق نجاحها الا أن تصميم النبي أفلح في النهاية في حشد نحو من ألف وخمسمائة رجل للمعركة وهو عدد يقارب ضعف العدد الذي خاض به معركة أحد • وكانت النتيجة ان قريشا هي التي تخلفت عن الموعد وظل المسلمون يرابطون ثمانية أيام في بدر دون أية مقاومة وحققوا نصرا أبيض لم يسفكوا فيه قطرة •

واستمرت سياسة توسيع الغزوات والغارات القبلية طيلة السنة الخامسة للهجرة واتسعت شمالا حتى وصلت الى الحدود البيزنطية وكان هدف إحدى هذه الغزوات قبيلة صغيرة تسمى « بنى المصطلق » وقد وقع إبانها حادث مؤسف • فلقد ألف الرسول أن يصطحب إحدى زوجاته في هذه الحملات وكانت رفيقته في هذه الحملة ، زوجته عائشة بنت أبي بكر وفي الليلة الأخيرة من الحملة - وكان الناس قد بدعوا في الرحيل - خرجت عائشة لبعض حاجتها بعيدا عن المعسكر وعندما عادت الى الرجل افتقدت عقدا كان في عنقها فرجعت الى المكان الذي كانت فيه في ظلمة الدجى ، وعندما كانت تبحث عن عقدها الضائع كان الركب قد ارتحل مخلفا إياها وراه دون أن يحس بها أحد • وحمل الناس هودجها وهم يظنون انها فيه اذ كانت ستائرهم مسدلة • وعندما عادت الى المعسكر رأت القوم وقد ارتحلوا فتلفقت بجلبابها ثم اضطجعت في مكانها متصورة انهم سيفقدونها ويعودون للبحث عنها •

وبينما هي في نومها مر بالمكان شاب يدعى صفوان كان على بعيره قاصدا المدينة • ولما رآها في حالها هذه حملها على جملة وأخذ برأسه وانطلق به يقصد الناس • وأثار وصول زوجة النبي على بعير يقوده شخص غريب { الاقاول وأحاديث الافك •

وأخذ أعداء النبي يروجون الشائعات بسرعة للطعن في شرفها
والاضرار بسمعتها وثارت في نفس النبي الشكوك . ويقال ان عليا اقترح
على محمد أن يستخلف عائشة قائلا له ان النساء لكثيرات .

وبعد شهر من القلق نزل الوحي ببراءة عائشة وعاد الانسجام الى
صفوف المسلمين لكن موقف «علي» أحدث جفاء بينه وبين عائشة قدر له أن
يترك آثارا مفجعة بعد وفاة الرسول . وكان من نتائج هذه القضية أيضا
نزول سورة «النور» التي تشترط وجود الشهود الاربعة لاثبات جريمة
«الزنا» والتي تفرض عقوبة الحد الشرعي ثمانين جلدة على كل من يطعن في
«النساء المحصنات دون إقامة الدليل بوجود الشهود الاربعة (١)» .

وساد الذعر قريشا من رؤية نفوذهم يتقلص أمام نفوذ محمد الذي
يلجأ الى أساليب سياسية يجهلونها فقررت الا أن تضع نهاية للمسلمين
في المدينة . وحشدت في عام ٦٢٧ قوة لا يقل عددها عن العشرة آلاف
أي ثلاثة اضعاف ماكان لهم من قوة في معركة أحد . وكان نحو من أربعة
آلاف من هذه القوة من قريش أماالبقيةفمن قبائل غطفان و«بنى سليم»
و«بنى كنانة» وهي قبائل حليفة لهم . واثارت أنباء هذاالجيشالضخم
المتأهب للغزو قلعا كبيرا في المدينة .

وحدث أن ضمت المدينة في هذه الايام فارسيا اعتنق الاسلام اسمه
«سلمان» وكان هذا الرجل كما يبدو قد مرتجارب علمته شيئا منالاساليب
الحربية الفنية المتبعة في الامبراطوريةالفارسية . وقد اقترح هذا الرجل
تحصين المدينة بحفر الخندق لدفع الاعداء عنها . ويبدو أن القسم الأكبر
من محيط المدينة كان محميا بالاسوار والبيوت لكن الجانب الشمالي منها
كان مكشوقا معرضا للاعداء . وشرعت أيدي المسلمين جميعا في الحفر
وعلى رأسهم محمد الذي حفر بيديه والتراب يعلوه منشدا مع المسلمين
والمعول في يديه لاستثارة الحمية في نفوسهم . وتم حفر الخندق في
سنة أيام أي في الوقت المناسب قبل وصول العدو اليها لاقتحامها بهجوم
كاسح .

(١) المقصود هنا الآية الكريمة .. « والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا بأربعة
شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون »
(المرب)

وتظهر محافظة العرب على أساليبهم القديمة في الحرب من الحقيقة الواقعة وهي أن قريشا لم تكثر مطلقا بهذا التطور غير المتوقع الذي وضعته والزراية تنضح في نظرتها اليه بأنه عمل غير عربي وبعيد عن الشجاعة والشرف • وعسكرت قريش أمام الخندق دون أن تقوم بأية محاولة لشن هجوم عام على المدينة على الرغم من أن عددها كان يبلغ ثلاثة أضعاف عدد المسلمين • واقتحم أربعة من فرسان قريش الخندق مدفوعين بهذا الايثار النموذجي لأعمال البطولة الفردية ووجدوا أنفسهم وسط المدافعين عن المدينة متحدينهم الى مبارزات فردية • وخرج على بن أبي طالب كعادته من صفوف المسلمين فبارز قائدهم وقتله مما أرغم الثلاثة الآخرين على الفرار فوق الخندق •

ولم يكن حلفاء قريش من قبائل البادية يستسيغون طعم الحرب الثابتة وسرعان ما أخذت المؤن تنضب والاحتكاك ينشب بين الأحزاب • وقد أثار الكثير منه رسل محمد الذين أخذوا يبدرون الخلافات سرا في صفوف المشركين وراحت اهل قريش وجيادها تنفق لنقص المرمى • وعلى الرغم من أن أبا سفيان كان القائد العام للحملة اسميا الا أن الأحزاب اتبعت نظاما غريبا للقيادة وهو اسناد أمرها في كل يوم الى واحد من رؤسائهم • وعلى الرغم من أن هذا النظام كان ضروريا لتهدئة حوافز الغيرة والحسد بين مختلف القادة الا أن مثل هذا الترتيب جعل أية عمليات منظمة للحصار أمرا مستحيلا •

وكان القلق في غضون ذلك قد استشرى في المدينة • وفزع الرسول نفسه من تخاذل بعض أتباعه فشرع يفاوض سرا رؤساء غطفان عارضا عليهم ثلث محصول المدينة في كل عام من التمر شريطة السحاب غطفان من الحصار والعودة الى أراضيها • وقد قبل شيوخ غطفان هذا العرض ولكن قبل أن يعقد محمد الاتفاق النهائي معهم بعث في طلب رئيسي الأوس والخزرج ليستشيرهما في الخطة التي اعتزم تنفيذها • وراح الزعيمان يسألانه: أهو أمر نحبه فنصنعه أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيء تصنعه لنا ؟ ورد الرسول قائلا : بل شيء أصنعه لكم • ورد الزعيمان قائلين • • يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا قرى أو يبيعوا أكرمتنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيتهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة والله لا نعطيتهم الا السيوف حتى يحكم الله بيننا وبينهم وكانت هذه إحدى حالات كثيرة أثبت فيها المسلمون

أنهم كانوا أكثر تصميمًا على القتال من النبي نفسه (١) .

وبعد انقضاء عشرين يوما من الحصار هبت عاصفة شديدة ذات ليلة باردة على الواحة وأخذت الريح المربدة المزمجرة تعصف بخيام المحاصرين وتطفئ نيرانهم وتكفأ قدورهم بينما ظل المطر ينهمر مدرارا . ولم تكد تنقضى العاصفة حتى استدعى أبو سفيان رجال قريش وزعمائها الى اجتماع عاجل وأبلغهم أنه قرر الرحيل والعودة الى مكة . ولم تكد قريش ترتحل حتى راح حلفاؤهم من البدو يتفرقون بددا نى الصحراء وهكذا ارتفع الحصار وزالت الغمة عن المسلمين .

وبينما كان الاعداء يختفون من ظاهر المدينة عائدين الى مكة انصرف محمد عائدا الى بيته وهو مجهد وبدأ المسلمون فى وضع سلاحهم وفجأة أتى جبريل رسول الله على بغلة عليها رحالة وقال : أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم . فقال جبريل كما وضعت الملائكة السلاح بعد . ومارجعت الآن الا من طلب القوم . ان الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير الى بنى قريظة فانى عامد اليهم فمززل بهم . فأمر النبي مؤذنا يؤذن بالناس طالبا اليهم العودة الى سلاحهم والمسير الى بنى قريظة ومضى على ابن أبى طالب يقود الزحف على بنى قريظة وقد حمل راية الرسول ، وهى مقيمة فى قرية مجاورة للمدينة ، وكانت هذه القبيلة آخر قبيلة يهودية ظلت فى واحة المدينة . وقد لا يكون غريبا أن تقف القبيلة موقف العداء من المسلمين الذين كانوا قد أخرجوا اخوانهم اليهود من ديارهم (٢) . وكان وصول قريش على رأس تلك القوة الضخمة الى المدينة قد شجع بنى قريظة على الثار ولذا فقد اتصلوا بقريش وعندما انسحبت قريش فجأة رافعة الحصار عن المدينة ظل اليهود وحدهم يواجهون نقمة المسلمين وسخطهم .

(١) صورة أخرى من صور الكراهية التى يحملها المؤلف للرسول . يجوز له وهو يدعى الموضوعية أن يقول هذا القول لمجرد أن النبي رأى رأيا غير ما رآه صحبه ؟ ان هذه القصة على أى حال دليل على دحض اتهام المؤلف للنبي بالديكتاتورية اذ انه عمل برأى انصاره .

(٢) تجاهل المؤلف مساهمة من له مواظفه الواضحة مع اليهود ادراج الحقيقة التى أجمعت عليها كافة الروايات وهى أن اليهود هم الذين حرضوا قريشا وغطفان على حرب « الاحزاب » وان بنى قريظة نكثت بعهدها وحلفها للمسلمين عندما وصلت قوات المشركين الكبيرة أمام المدينة وراحت تعمل على طعن المسلمين من خلفهم فهم والحالة هذه خونة وجزاء الخائن القتل ولا سيما فى أيام الحروب ولا ريب فى أن تجاهله هذا يؤيل كل ادعاء له بالموضوعية .

(العرب)

ودام الحصار على بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة • ونزل اليهود أخيرا على حكم النبي دون قيد أو شرط • وكان هؤلاء قد أقاموا في المدينة منذ عهد طويل حلفاء لاهلها وأصدقاء ووافق الرسول على أن يولى أمرهم حليفهم السابق سعد بن معاذ زعيم الأوس ليقول كلمته في مصيرهم • وكان سعد من المؤمنين الاوائل من أهل المدينة، وقد حمل راية الخزرج في موقعة بدر وكان يحضر الآن من جرح أصابه به سهم إبان معركة الخندق • ويبدو أن جرحه هذا قد أحفظ فؤاده على اليهود حلفائه فأعلن قراره وهو يقضى بقتل الرجال وتقسيم الاموال وسبى الذراري والنساء • ورضى الرسول بحكم سعد بن معاذ وأمر بتنفيذه • وحفرت الخنادق في الليل في سوق المدينة ثم بعث اليهم فضربت أعناقهم في جماعات صغيرة وهم قابعون في الخنادق ، وقد ربطت أيديهم • وقد عرض عليهم الاسلام قبل تنفيذ حكم الموت فيهم وكان في مكنتهم عن طريق الشهادة أن يتحولوا من مجرمين حكم عليهم بالموت الى مسلمين لهم من الحقوق مالمساوهم ولكنهم رفضوا ذلك •

كانت قريش قد بذلت جهدا هائلا في حشد ألف رجل لحصار المدينة ولذا فقد وصلت مكانة محمد بعد فشل المشروع العظيم الى الاوج وكان مصير بنى قريظة انذارا كافيا للخونة والمارقين •

ورأى النبي في نومه في مطلع عام ٦٢٨ انه دخل مكة دون مقاومة وانه أدى فريضة الحج في كعبتها • وراح يعلن على الفور عزمه على ذلك • ولا تؤدي فريضة الحج الا في موسمها المحدد له وقت معين من كل عام ، أما العمرة وهي الحج الاصغر ، فيمكن أن تؤدي في أى وقت من أوقات السنة • وقد ارتأى محمد أن يؤدي العمرة وكان العرب في الجاهلية قد جروا على اعتبار أربعة أشهر في السنة من الاشهر الحرم التي لايجوز القتال فيها ولا الغزو • وهكذا قرر الرسول ان يزور مكة في هذه الفترة من السنة التي تفرض التقاليد الهدنة فيها • ولم يكن من حق قريش من الناحية النظرية أن تعترض مسيله وأن تحول بينه وبين زيارة الكعبة •

وفي فبراير (شباط) عام ٦٢٨ ، أى بعد عام من حصار المدينة خرج النبي يريد مكة معتمرا على رأس ألف وخمسمائة من أتباعه • لكن قريشا لم تقتنع بنيات الرسول السلمية • فسارعت تسليح نفسها وتتخذ مواقعها على طريق المدينة للدفاع عن مكة • ولم يكن المعتمرون من المسلمين يحملون الا السيوف ولم يكونوا في وضع يمكنهم من خوض القتال ويبدو أن محمد

بحركته هذه مع جماعته نصف مسلحين قد ارتضى المغامرة وكانت مغامرة من طراز نادر . وعندما وجد المسلمون طريق مكة مغلقا فى وجوههم انحرفوا ناحية اليمين ومروا الى الغرب من مواقع العدو واقتربوا من مكة من الطريق المؤدى اليها من ساحل البحر ثم توقفوا عند الحديبية وهى على مسيرة يوم الى الغرب من مكة .

وعندما سمع أهل مكة بأن محمدا قد التفت حول جناح مواقعهم الدفاعية تراجعوا مسرعين الى مكة وراحوا يوفدون الرسل لمفاوضته وكان بديل بن ورقاء شيخ خزاعة وهى القبيلة التى كانت تقيم فى مكة قبل قریش أول هؤلاء الرسل . وقد أوضح له النبى أنه جاء لا يريد حربا وانما لزيارة البيت ثم عرض عليه - ليؤكد له نياته السلمية - الماشية التى جاء بها المسلمون ليدبحوها اكراما للبيت العتيق . وتوافد الرسل بعد ذلك على محمد من قریش وقد خلف ننا أحدهم فى تقريره الى قریش عن نتائج بعثته صورة ناطقة عن المكانة التى يحتلها محمد عند صحابته اذ قال . . . «لقد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وانى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه » . وعندما ندهش من الاسباب التى أدت الى رفعة الاسلام علينا أن نذكر هذه السطور القليلة . وفى وسعنا فقط أن نقدر العوامل المادية التى كانت سببا فى انتصار المكين أو فى انتصار المسلمين . أما الهالة التى كانت تحيط بشخصية النبى فهى فوق مستوى مداركنا وأفهامنا وان كان هناك ولا ريب فى هذه الشخصية شىء يوحى بهذا الاخلاص الكلى عند اتباعه وهو إحياء يؤلف أحد الاسباب الرئيسية التى أدت الى نجاح الاسلام . وحرى بنا أن نذكر أن روح الحركة كلها قد تبدلت فور وفاة آخر صحابى من صحابة الرسول .

وعاد رسل مكة الى قریش يحدثون قادتها بما رأوه وسمعوه وأوفد

النبى عثمان بن عفان لمقابلة قادة قریش ، وكان عثمان من المسلمين الاوائل وأحد المهاجرين الاول الى الحبشة . وكان قد تزوج من رقية ابنة النبى فلما توفاه الله بنى بشقيقته أم كلثوم فصاهر الرسول بذلك مرتين . ولكنه ينتمى الى بنى أمية وهو البطن من قریش الذى يرأسه أبو سفيان . وهكذا كان عثمان قريب أقوى رجل فى قریش وأكثرهم ثراء .

وكانت الحديبية قريبة من مكة ولذا فقد توقع المسلمون عودة عثمان فى غضون بضع ساعات ، ولكن الساعات مرت متثاقلة وعثمان لا يعود ، وفجأة وصل الى محمد نبأ لم نعرف مصنزه يقول ان قریشا قتلت عثمان .

ولو صح أن قريشاً قد قتلت عثمان متجاهلة بذلك ما تؤمن به من عصبية قبلية نظراً لانتمائه إلى بني أمية فإنها بعملها هذا تكون قد قررت القيام بأجراءات حاسمة متطرفة وإن إجراءاتها هذه لابد وإن تكون قد حفزتها على حشد قوة ضخمة للهجوم على المسلمين وإبادتهم مرة وإلى الأبد . ولما كان المسلمون يفتقرون إلى السلاح ولا يحملون إلا السيوف فقد وجدوا أنفسهم في وضع غريب وشاذ ، وعندما أخذت الساعات تمر بطيئة متناقلة دون وصول أية أنباء عن عثمان أدرك جميع الحاضرين خطورة الوضع الذي يواجهونه .

ويبدو أن النبي نفسه فكر في أن الحرب واقعة لا محالة ووقف النبي تحت شجرة من تلك الأشجار الشائكة التي تطلع هنا أو هناك في هذه الجبال الصخرية الجرداء ودعا جميع الحاضرين إلى بيعته على الموت . ولا ريب في أن عمل النبي هذا يدل دلالة واضحة على إدراكه خطورة الوضع الذي كان فيه . وأخذ المسلمون في جو من التوتر الكبير يملكون بالنبي فيصافحونه مبايعين تماماً كما فعل الحجاج من الانصار قبل سبع سنوات في بيعة العقبة الثانية . وكان المسلمون في هذه اللحظة في غمرة من الإيمان الطاغى والحماسة . وبعد سنوات طويلة عندما كانت جيوش المسلمين قد تمكنت من إقامة الامبراطورية الاسلامية العظيمة وكان الرنق السابقون يتحدثون كما يتحدث العسكريون دائماً عن التجارب التي مرت بهم مستعدين ذكرى أمجاد الايام الاولى ، كانوا يظهرين دائماً أعظم الاجلال للذين حاربوا في بدر والذين بايعوا النبي في الحديبية . وتظهر هذه الذكريات الطويلة الدائمة مدى القلق الذي أحس به المسلمون في تلك الفترة الطويلة من الانتظار المتلف .

ولجأة ظهر رجل مستقل بعيراً قادماً من ناحية مكة واتجهت الأعين كلها إليه . وكان القادم سهيل بن عمرو وهو مبعوث آخر من المبعوثين الذين أوفدتهم قريش وعندما تبينه النبي من بعيد هتف قائلاً وقد اطمانت نفسه وسرى عنه . . . « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » . وكان سهيل من أبلغ المتكلمين ومن أبرع الدبلوماسيين وأقواهم حجة ومنطقاً . وطال أمر المفاوضات قبل أن يصل مع المسلمين إلى صيغة اتفاق ورفض سهيل إدراج عبارة « محمد رسول الله » في مقدمة العقد وأخيراً تم عقد الاتفاق بين محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو وتقررت الهدنة بين قريش والمسلمين لمدة عشر سنوات وأن يعود المسلمون عن مكة هذا العام دون أداء الحج على أن يسمح لهم بالحج في العام المقبل . ونص الاتفاق على

السماح للطرفين المتعاقدين بعقد الأحلاف مع القبائل التي يريدانها وان اشترط اعادة أى مكى من المدينة اذا ترك مكة قاصدا المدينة دون اذن من وليه .

ولم يكد التوقيع على الاتفاق يتم حتى وصل أبو جندل بن سهيل بن عمرو المفاوض القرشى قادما من مكة طالبا اعتناق الاسلام . وهنا طالب والده بتنفيذ الاتفاق الذى تم توقيعه وراح النبى يأمر الرجل الذى جاء يطلب الاسلام بالعودة الى مكة وهو متألم لامره ، هذا وعندما جرى بالشاب وهو يرسف فى قيوده ليقاد الى مكة . ويقال : ان عمر بن الخطاب النارى المزاج سار الى جانبه وهو يحمل سيفه بيده ويدنيه منه . ويقال : ان عمر قال فيما بعد وهو يذكر الحادث « وكنت أرجو أن يأخذ السيف فيضرب به أباه » . ولكنه ضمن بأبيه ونفذ الميثاق .

وتوضح المادة - التى اشترطت فيها قریش على محمد أن يرفض من يأتيه من قریش طالبا الاسلام من غير اذن وليه مع الحادثة التى وقعت لابن سهيل بن عمرو - السبب فى ضعف قریش على الرغم من قوتها المادية الظاهرة ، فمما لا ريب فيه أن قریشا كانت تحس بعدم الولاء فى صفوفها ولا سيما بين الشبان . اذ تعددت الحوادث طيلة سنوات الهجرة الطويلة عن وجود شبان فى صفوف المسلمين ما زال آباؤهم يحاربون الى جانب قریش . ويقال ان ابن عبد الله بن أبى شيخ المنافقين طلب من الرسول السماح له بقتل أبيه ومن هذا يبدو أن العرب باتوا أكثر نضوجا لتقبل هذا الدين التقدمى الجديد الذى كان الشبان على استعداد للترحيب به وقبوله بينما كان كبارهم لا يزالون متمسكين بتقاليد الأيام الغابرة .

وقد أصيب كثيرون من المسلمين بخيبة الأمل اثر صلح الحديبية وذلك لرجوعهم عن مكة دون الطواف بالبيت وكانوا يتوقعون الدخول طافرين اليه . وراح عمر بن الخطاب - على ما لوف عاداته - يعلن سخطه على هذا الصلح قائلا لأبى بكر: «يا أبا بكر أليس برسول الله؟» قال أبو بكر الهادى الوديع بلى ، قال عمر «أولسنا بالمسلمين؟» قال بلى ، قال «أوليسوا بالمشركين؟» قال بلى ، قال «فعلام نعطي الدنية فى ديننا؟» قال أبو بكر ، وهو هادى . . . يا عمر الزم غرزه (أى الزم أمره) فانى أشهد أنه رسول الله ، ثم انصرف الرسول بالمسلمين قافلا الى المدينة حتى اذا جاءت نهاية اليوم الاول من العودة هبط الوحي على النبى بسورة الفتح التى صورت الصلح على أنه نصر عظيم ومن الصعب علينا نحن ألا نتصور أن المسير الى الحديبية بهذه القوة الصغيرة التى لا سلاح لها الا السيوف لم يكن

خطأ عسكريا خطيرا • ولو كانت قریش أكثر جرأة أو كان لها قائد واحد حازم لكان في إمكانها أن تلحق بالمسلمين هزيمة خطيرة أو أن تزيل المسلمين من عالم الوجود إذ أن المسلمين الذين اشتركوا في المسيرة كانوا مجموعة من اعتنق الاسلام • ولم يكن محمد في الحقيقة قائدا عسكريا ذا مواهب عسكرية بالغة ، ولم يكن يشترك بنفسه في المعارك بل يظل في الصفوف الخلفية لا يشترك في القتال اشتراكا فعليا • ولا ريب في أن هذه الناحية جديرة بالملاحظة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن العادة في تلك الأيام كانت قد جرت على أن يسير القائد على رأس جنوده شخصيا ويحمل الراية الحربية بيديه (١) •

ومن الصحيح أنه استخدم وسائل الاغتيال والقتل أو رتب حوادثهما ولكنه تمكن في الغالب من التأثير تأثيرا مطلقا على اتباعه الأكثر ميلا منه إلى سفك الدماء (٢) • فلقد عاش في مجتمع لا يعرف الرحمة وكان كأي حرد منا وإلى حد كبير ثمرة عصره ومحيطه • لكنه بطبيعته كان ميسالا إلى التأمل وإلى اللين والرافة لا إلى الشدة ولعل من المفارقات أن هذه الشخصية البعيدة عن العسكرية بطبيعتها قد جاءت بالاسلام دين الجندية والقوة •

(١) لا ريب في أن جلوب دفعه كرهه للاسلام والمسلمين إلى الخروج عن الوضعية تماما مخالفا بذلك حتى الكثيرين من المؤرخين الغربيين الذين اعترفوا بالحقيقة برغم كرههم للاسلام فقد أئزر على محمد (صلم) مهارته كقائد عسكري وزعم أنه كان خلوا من المواهب العسكرية لكن الواقع القلبي، إذا تركنا أي اعتبار آخر، يقيم الدليل على سفيه رأى جلوب هذا، فلقد أثبتت الحروب الصغرى التي خاضها النبي أنه كان إلى جانب رسالته النبوية قائدا عسكريا بفطرته إذ استطاع أن يخلق من المدم نواة جيش قام بمدد بفتح عسكري لم يشهد له التاريخ البشري مثيلا. ناهيك عن أن اختلاف الخطط الحربية التي كان النبي يتبعها في كل معركة من المعارك بحسب طبيعة المعركة وأرضها والقوات المشتركة فيها يدل دلالة واضحة لا تقبل الشك ولا الجدل على أن محمدا كان مبتعيا في شئون الحرب كمبتعريته في شئون السياسة ، وأنه قاد أمته إلى النصر وإلى العظمة بشكل وقف له التاريخ كله اعجابا •

(الحرب)

(٢) عاد المؤلف هنا ثانية إلى ثقت سموه ولقد سبق لي أن أوضحت في هامش سابق كذب هذا الادعاء ولو شئنا تعداد كل من قتلهم المسلمون تبين لنا أن جميع هؤلاء كانوا من أشد أعداء المسلمين ومن أكثرهم تعريضا بهم وبأعراضهم • ناهيك عن أن هذا القصص الذي كان ينزله المسلمون بأعدائهم كان الوسيلة الوحيدة لعقاب المجرمين الذين لا يتورعون من القتل بالمسلمين ، نظرا لافتقار المجتمع العربي آنذاك إلى الحكومات التي تتولى مثل هذا العقاب •

(الحرب)

وهكذا كما أزال النبي ما أحس به المسلمون في أحد من خيبة أمل بغزو اليهود من بنى النصير فانه بعد ستة أسابيع من صلح الحديبية أزال ما لحق بالمسلمين من خيبة أمل ، ورد اليهم معنوياتهم بالسير في حملة في يونيو (تموز) من عام ٦٢٨ على خيبر وهي واحة يهودية تقع على بعد ثمانين ميلا الى الشمال من المدينة (١) . ولقد أبدى اليهود بعض المقاومة ولكن المسلمين تمكنوا من اقتحامها حصنا بعد حصن . ولم يبق النبي باجلاء اليهود الزارعين هذه المرة وانما أبقاهم على أرضهم اذ أراد الإبقاء على أتباعه الى جانبه في المدينة . ولهذا لم يرغب في أن يقطعهم أرضا أو يمنحهم دورا في خيبر وأسفرت خطة الرسول هذه عن الإبقاء على اليهود في أراضيهم شريطة أن يدفعوا للمسلمين نصف ثمارها جزية . أما المنقولات والاموال والمجوهرات والابل والماشية ومخزونات التمر والزيت والقمح فقد حملها المسلمون غنيمة لهم وسلبوها (٢) .

(١) مرة أخرى يظهر المؤلف تشييعه الظاهر لليهود فهو لا يذكر السبب الذي حمل النبي (صلم) على القيام بغزوة خيبر مكتليا بأن يقول انه أراد منها أن تكون وسيلة لرفع معنويات المسلمين بعد خيبة الأمل التي منوا بها في صلح الحديبية. لكن وقائع التاريخ تؤكد وجود أسباب أخرى منها اشتراك يهود خيبر في تحريض قريش على حملة الأحزاب وحصار المدينة، ومنها انهم لم يعطوا بمصر يهود المدينة فراحوا يستعدون لحرب يعلنونها على المسلمين . ومنها ان سلام بن مشكم وهو من زعماء يهود خيبر أعلن لقومه ان خطرا يهدد كيان اليهود في شمال الحجاز وان عليهم أن يبادروا لتأليف اتحاد يهودي يجمع يهود خيبر ووادى القرى ولذلك وتيماء ، لم يرحلون على يثرب دون أن يعتمدوا على البطون العربية المشتركة، وقد علم النبي بكل ذلك وعلم ما هم عليه من قوة بأس ووقرة مال وسلاح. ولم يكن هناك كما يقول الأستاذ محمود الدرة في كتابه « تاريخ العرب العسكري » أي أمل في أن يعتنقوا الاسلام ولا كان الغرض الذي يرمى اليه النبي جمع العرب على دين واحد وتأليف كتلة متحدة منهم فقد وجد أن عليه أن يقضي على هذا الخطر الجديد الذي بدأ يتحمل للانقضاء عليه قبل أن يفكر في غزو بلاد الروم والفرس ، وهو ما بدأ يفكر به النبي جديا في هذه الايام كما يظهر من رساله الى ملوكهم داعيا اياهم الى الاسلام .

(العرب)

(٢) تظهر الطريقة التي يمرض فيها المؤلف الموقف، العقد الدفين والخروج على الموضوعية ولو كان المؤلف منصفاً بعض الانصاف لما سمي هذائم المسلمين نهبا اذ انها شرمة الحرب ، ولعل المؤلف لم ينس ما فرضته دولته بريطانيا بعد انتصارها وحلفائها على ألمانيا في نهاية الحربين الساليتين من هزائم حربية على الشعب الألماني . كما نعتقد انه لم يكن لينسى مطلقا ما كانت تبتره بلاده من الاراضي التي تحتلها أو تستعمرها في افريقية وآسيا .

(العرب)

وكان النبي قد زوج ابنته فاطمة من ابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان قد رباه وكانه ولده وقد وضعت فاطمة ولدين هما الحسن والحسين اللذان قدر لمصيرهما المفجع أن يؤثر تأثيرا عميقا في التاريخ الاسلامي ولكن في هذه الايام المبكرة لم يكن هناك أى تكهن بالمصائب التي ستحل في المستقبل ، ولما كان النبي من أكثر الناس ولوعا بالأطفال فإنه كان دائم اللعب مع حفيديه . وكانا حتى في الاوقات التي يؤدي فيها صلاته لا يتورعان عن الطلوع الى ظهره فينزلهما بكل رقة وحنان ويمضى في صلاته وعبادته

وتقول الروايات : انه في هذه الفترة في عام ٦٢٨ بعث برسله الى ملك الفرس وامبراطور الروم وحاكم مصر ونجاشي الحبشة يدعوهم الى الاسلام . ويقال: ان كسرى الفرس مزق رسالة النبي وأساء الى حاملها أما هرقل امبراطور الروم فقد تسلم الرسالة بشيء أقل من الغضب سائلا عن هوية مرسلها ، أما المقوقس حاكم مصر فقد تلقى الرسالة بقبول حسن ورد عليها معتذرا عن قبول الاسلام ، ولكنه حمل الرسول هدية الى النبي تضم جوادا جميلا وبغلة وحمارا للركوب وجاريتين كانت احدهما مارية القبطية التي ولدت للنبي ابنه ابراهيم وهو الولد الذي توفي في سنى طفولته .

وتقول الروايات بالنسبة الى هرقل : ان أبا سفيان سار بعد صلح الحديبية على رأس قافلة تجارية الى الشام فألقت شرطة الروم القبض عليه في دمشق (١) . وكان هرقل قد أصدر أوامره بأنه راغب في لقاء أى قادم من الحجاز وهكذا نقل أبو سفيان الى القدس ليقابل الامبراطور فيها . وراح الامبراطور يسأله عن تفاصيل ما يقال عن اضطرابات في الحجاز وعن هذا النبي الجديد . ورد أبو سفيان بأن اتباع هذا النبي هم الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وان معارضيه هم ذوو الأسنان والشرف من قومه . ولو صحت هذه الرواية فإنها لا تقيم الدليل على أن الامبراطور قد تسلم رسالة من محمد ، فلا بد أن يكون هرقل - وهذا شيء

(١) تقول رواية أبي سفيان نفسه ان اللقاء القبض عليه ثم في غرة لا في دمشق كما يقول المؤلف . وفي هذا دليل على افتقار المؤلف للدقة التاريخية .

(العرب)

طبيعي - قد تلقى معلومات من مخابرات حكومته عن الحركة الجديدة في الحجاز ولا بد أن يكون قد رغب في سؤال أى قادم من مكة عما سمعه للحصول على ما يريده من تفاصيل جديدة .

لكن بعض المؤرخين المعاصرين أثاروا بعض الشكوك في موضوع الرسائل فليس هناك فيما حفظ عن حياة النبي ما يشير الى أن النبي قد تصور أو توقع احتلال سوريا وفارس ولقد أدهشت الانتصارات العظيمة التي حققها العرب بعد وفاة النبي ، المسلمين أنفسهم وهي انتصارات ما كانت لتتحقق لو أن النبي قد تنبأ بوقوعها لكن مارية القبطية كانت من الناحية الأخرى شخصية تاريخية . ولا ريب في أن صورة بدوى بسيط حافي القدمين يتحدث ملك الملوك في قصره بفارس ، تعتبر صورة دراماتية مسرحية (١) .



(١) لا أدري هل هذا التشكيك في الرسائل ، فلقد اجتمعت كتب التاريخ الاسلامي على وجود هذه الرسائل ونقلت نصوصها واسماء الذين حملوها وروت كيف استقبل كل منهم في المكان الذي قصده . فقد حمل دحية بن خليفة الكلبى الرسالة الى ملك الروم وهذا نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم : السلام على من اتبع الهدى . أما بعد اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان تتول فان اثم الاكافرين عليك » . وتضيف الروايات وهي صحيحة ان قيصر عندما تسلم رسالته جمع بطارقه وعرض عليهم الكتاب واستشارهم في اتباعه فآظفروا كراهة ذلك ولما رأى نفورهم قال انما قلت ماقلت لاختبر صلابتكم في دينكم ومن هنا تفهم السبب في احشاد الروم والعرب لمحاربة المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت وقعة مؤته كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الامر قبل استفحاله .

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب الى المنذر بن الحارث بن شمر القسائي صاحب دمشق وكتب اليه « سلام على من اتبع الهدى وأمن بي واني ادعوك الى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك » . ولما وصله الكتاب قال : « من ينزع ملكي مني أنا سائر اليه » ولم يسلم .

وبعث عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي بكتاب يدعو فيه الى الاسلام ويطلب منه أن يرسل جعفرًا ومن معه من مهاجري الحبشة ففعل النجاشي ما طلب منه فأرسل جعفرًا وأجاب الى الاسلام كما أعلن بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة .

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ومعه كتاب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وأمن بالله ورسوله وهذا الا اله الا الله واني رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا . اسلم تسلم فان ابيت فائما عليك اثم المجوس » فمزق كسرى كتابه ولما بلغ ذلك رسول الله (سلم) قال « مزق الله ملكه » ، ثم كتب كسرى الى باذان عامله على اليمن « ابعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز وجلين من عندك قلياتياني به » ولكن أمره لم يتنفذ .

أراد المسلمون في السنة السابعة للهجرة • أي بعد عام واحد من صلح الحديبية أن ينفذوا الحق الذي نص عليه هذا الصلح وهو الحج الى مكة • وخرج نحو من ألفين من المسلمين ينتهزون الفرصة لأداء العمرة وراحت قريش رغبة منها في اجتناب الصدام المسلح مع المسلمين أو خشية منها في أن يتمكن الرسول ببلخ قوله وفصيح كلمه من هداية عدد جديد من أبنائها وتحويلهم الى الاسلام تجلو عن مكة جلاء كاملا وتنتشر على سفوح الجبال المطلة على المدينة وقد استبد بها الفضول لرؤية ما سيفعله المسلمون • وظهرت أخيرا طليعة الركب مطلة من الوادي الضيق الملى بالغبار والذي تسير فيه الطريق المؤدية الى المدينة • وكان النبي على رأس الركب وقد أحاط به أبو بكر وعلي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب ورهط من صحابته وسار وراءه وسط عاصفة من الرمال نحو ألفين من المسلمين بعضهم يركب الابل والبعض الآخر يمشى على الاقدام واتجه النبي فورا الى الكعبة فلمس الحجر الاسود ثم طاف بالبيت سبع مرات • وكان هذا الطواف من التقاليد التي عرفت قريش في عهد الجاهلية ثم سار عليها الاسلام •

وكان العباس بن عبد المطلب عم النبي قد بقى في مكة ولم يبرحها مع قريش وان لم يكن قد أشهر اسلامه بعد • وكان قد بعث برسالة سرية الى ابن أخيه قبل معركة أحد يحذره فيها من نيات قريش • وراح يرحب به. الآن وهو يدخل الى مكة مبلغا اياه انه قد أعد له عروسا يبنى بها على الفور محاولا بذلك أن يكسب مودة ابن أخيه الذي بدا له الآن جديرا بالتقرب والود(١) • وقد اختلف المؤرخون في سلوك العباس اختلفا

= وبعث خالط بن ابي بلتعة الى القوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذي بعث الى رسول الله (صلم) « بمارية القبطية » ام ابراهيم فكان بذلك الرحم الذي بين العرب واهل مصر .

وبعث سليط بن عمرو العامري الى هودة بن علي الحنفي وبعث العلام بن الحفري الى المنذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص الى جيفر واخيه عباد الازديين هذه حقائق تروىها كتب التاريخ العربى وتروى أسماء خالطى الرسائل فهل يمكن المؤرخ يدهى الموضوعية أن ينكرها الا اذا كان يريد المغالطة ويريد التشكيك في صحة التاريخ الاسلامى !! (العرب)

(١) يناقض المؤلف نفسه بنفسه فهو يقول قبل قليل بأنه كان على أن يسأل نبي بالنبي منذ امد طويل مما يظهر اخلاصه له ثم يعود فيحاول تصويره بالانسان الانتهازى الذى مال الى التقرب من النبي بعد أن قويت شوكة واصبح جديرا بالتقرب • أما التفسير الضحيح لسلوك العباس في رأي فهو ان العصبية القبلية عنده كانت اقوى من

كبيرا فادعى بعضهم انه كان قد أسلم منذ أمد طويل وانه كان مخلصا في اسلامه ولم يبق كل تلك المدة في مكة متظاهرا بالشرك الا لخدمة مصالح ابن أخيه . ورأى بعضهم انه كان صورة مبكرة لرأى أبرشية برى (The vicar of Bray) (١) متظاهرا بالاخلاص لقريش ومتصلا سرا بالمسلمين . وقد قدر لهذا العربي الذكي ان لم نقل هذا البدوى الماكر أن يكون جد أسرة أضحت من أقوى الاسر الحاكمة في تاريخ العالم ومن هنا تنشأ الصعوبة اليوم في الحكم على شخصيته وسلوكه . فلقد رأى المؤرخون العرب بعد نحو من قرن وبعد أن أصبح أحفاد العباس خلفاء ان مصلحتهم تقضى بأن يصوره في أحسن صورة .

وكان من أهم النتائج التي حققها اتساع نفوذ محمد وانتشار شهرته الآن تحول عدد من أبرز قادة قريش العسكريين الى الاسلام وفي طليعتهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة . ولقد سبق لنا أن رأينا ان خالدا وعمرا كانا السبب في انتصار قريش في أحد . وذلك بالتفافهما على رأس الفرسان حول جناح المسلمين وقدر لهما أن يصبحا من أعظم قادة المسلمين العسكريين بعد قليل . أما عثمان بن طلحة فكان من أبرز رجالات قريش اذ بيده سدانة الكعبة وهو حق ورائي في آل عبد الدار أبرز بطون قريش ، وهكذا تحول سنادن كعبة المشركين الى الاسلام ، وليس ثمة من شك في أن تحول هؤلاء البارزين الى الاسلام وسلوك المسلمين الرائع في مكة في أيام العمرة الثلاثة قد تركا أثرا ملحوظا عند أهل المدينة .

وعلى الرغم من أن خروج العام المنصرم الى الحديبية كان عملا سابقا لأوانه الا أن فكرة النبي في أداء فريضة الحج كانت فكرة رائعة حقا فلقد

= إيمانه بأصنام الكعبة وان لم يكن قلبه قد امتدى حتى تلك اللحظة بنور الاسلام ، ومن هنا فان مساعدته للنبي كانت ثمرة ارتباطه العائلي به لا ثمرة انتهازية او نفاق كما يحاول المؤلف ان يصوره .

(١) رأى أبراشية «برى» في انجلترا .. هو وصف يطلق على كل انتهازي متافق لا مبدأ له ولا عقيدة ويدعى هذا الرجل «سيمون الين» وكان راعيا لكنيسة برى في ههد هنرى الثامن ملك انجلترا . وتمكن من المحافظة على منصبه رغمًا من التقلبات الدينية في انجلترا في تلك الايام طيلة جهود ادوارد السادس وماوى والىصابات من طريق تكيف عقيدته طبقا للمهد الحاكم اى بالتقلب من الكتلة الى البروتستانتية وبالعكس وكانت شخصيته الفكرة التي صورتها قصيدة « في العصر الذهبي أيام شارل الثانى الطيب » واضحت بعد ذلك مثلا يضرب للانتهازية والتلون العقائدى .

(العرب)

كان من أهم أسباب مقاومة قريش للإسلام اعتقادهم بأن تقبل هذا الدين الجديد سيؤدي إلى الحط من شأن الكعبة ويضع نهاية لمركزها المبجل كمدينة مقدسة ، أما وقد أظهر النبي أنه يحترم هذه الكعبة وأن الإسلام يفرض على أتباعه أداء طقوس الحج القديمة ، فإنه بعمله هذا أقنع المكثين بأن الإسلام لن يؤدي بأية حالة من الأحوال إلى الحط من شأن مدينتهم وقد تأيد هذا الإجراء بالقول بأن إبراهيم النبي هو الذي بنى الكعبة وأن رسالة محمد هي بعث دين إبراهيم حنيفاً • وكان النبي يقول : ان اليهود والنصارى قد انحرفوا عما في دين إبراهيم الجد من طهر ونقاء كما أن قريشاً جعلها الكعبة مستودعاً للصنام والوثان قد انحرفت أيضاً عن دين إبراهيم • لكن شرك قريش لم يؤد على أي حال إلى الانقاص من قداسة الكعبة بيت الله العتيق وكل ما يطلب الآن هو تطهيرها من رجس هذه الوثان • وكانت هذه الأقوال كافية لاقتناع أهل مكة بأن الإسلام لا ينتقص من قدرهم ولا من قدر كعبتهم •

يضاف إلى هذا أن محمداً قد غدا الآن وعلى الرغم من اعتباره رسمياً العدو الأول لمكة صاحب قوة وسلطان يفرضان على العرب في جميع أنحاء الجزيرة احترام صاحبهما، وأخذ القرشيون يتساءلون في قرارة ضمائرهم ترى هل من الحكمة أن يناصبوا العداة أعظم من أنجيته قبيلتهم من رجال؟ وليس ثمة من شك في أنهم كانوا يتابعون بشيء من الحسد والغيرة هذه الوفود وهي تتجه من جميع أنحاء الجزيرة إلى محمد لتعرض عليه احترامها واجلالها • وسرعان ما غدا هذا التحول في الرأي العام في مكة طاعياً يتسلط على أغلبية الناس فيها •

وأولفد النبي في عام ٦٢٩ عدداً من الحملات العسكرية والغزوات • وكان النصر من نصيب بعضها كما كان الفشل نصيب بعضها الآخر • وقد يكون من الطريف كل الطرافة أن نقارن هذه الأساليب بتلك التي اتبعها الوهابيون في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين • فلقد وضع الوهابيون مخططهم عن سابق عمد وإصرار على الأسس نفسها التي اتبعها المسلمون الأول ولم يكن النبي قد وجه أية قوة ضخمة كبيرة لمحاربة قبائل البادية إذ ركن عملياته العسكرية الكبيرة على محاربة قريش أما الحملات على البدو فكانت من النوع الارتجالي ، وتقوم بها قوات صغيرة وبهذا يمكن تفسير نجاح بعضها وفشل بعضها الآخر وإن كان تكررها يحمل طابع الفائدة إذ يقنع القبائل البدوية بالأخلاص لها من هذا الأزعاج إلا بالاذعان لإرادة محمد •

ويبدو لي أن أساليب الوهابيين التعبوية كانت أكثر كفاية ونشاطا
اذ بينما كان ابن سعود يسمح لرجالها بغزو القبائل غير الوهابية متى
شاءت فإنه كان يحشد قواته كاملة من وقت الى آخر ليهاجم بها هجوما
كاسحا قبيلة كانت ترفض الاذعان له باعثا بما يوجهه اليها من ضربات
عنيفة ، الفزع والرعب في قلوب القبائل الاخرى ، مما يدفعها الى
الاستسلام له فورا وسرى فيما بعد كيف ان الخلفاء اتبعوا هذه الاساليب
بعد وفاة النبي ، ولا ريب في ان عدم لجوء النبي الى هذه الاساليب يمكن
أن يعزى الى أن النبي لم يكن واسع الاهتمام بالشئون العسكرية ولم يكن
يوليها الكثير من تفكيره . يضاف الى هذا ان شخصية النبي كانت طاغية
بما عرف عنه من قدرة على الاقتناع والتأثير بحيث استطاع أن يكسب
الانصار دون الحاجة الى اللجوء الى نظام عسكري فعال . وأصبح من
الضروري بعد وفاته اللجوء الى استخدام القوة بصورة أكثر تنظيما وذلك
بضبط المسلمين والسيطرة عليهم .

• 'ومع كل هذه العوامل فقد أعد النبي في شهر سبتمبر (ايلول) عام
٦٢٩ حملة عسكرية كبيرة الاهمية وكثيرة التنظيم وكان القصد منها غزو
بعض الاراضي الخاضعة للسيطرة البيزنطية ، وتقول الروايات العربية : ان
القصد من الحملة كان الثار لبعض الرسل المسلمين الذين أوفدهم النبي
الى المنطقة (١) . وكان الثار دافعا أقسى في الحروب العربية من الفتح
والاحتلال . وكان النبي قد بلغ الواحدة والستين من عمره في هذه الآونة
وخطط الشبيب فوديه ولذا لم يرافق أيا من الحملات التي أوفدها في تلك
السنة الثامنة للهجرة .

وأقام النبي معسكرا على بعد بضعة أميال الى الشمال من المدينة
وأمر المتطوعين من المسلمين بالتجمع فيه وولى زيد بن حارثة ولده بالتبني
قيادة الحملة التي ضمت نحواً من ثلاثة آلاف رجل . وكانت هذه هي
الحملة الاسلامية الاولى على هذا النطاق الضخم التي خرجت الى هدف
بعيد عن المدينة . وتطلب اعداد مثل هذه الحملة وقتا طويلا ولذا فان
أنباءها بلغت ما يسمى الآن بشرق الاردن قبل تحركها .

(١) تروى كتب السيرة أن شرحبيل بن عمرو أمير الفساسنة كان قد قتل الحارث .
ابن عمر الأزدي الذي أوفده النبي عليه السلام الى هرقل وان مقتله سبب الماشددا .
للنبي فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله .

ويبدو أن المسلمين وكانوا لا يزالون يعتمدون في نصرهم على النصرة
الالهية وعلى معنوياتهم العالية قد أهملوا إيفاد العيون لرصد حركات
العدو وتنقلاته ولم تبلغهم أنباء حشد العدو لقوة عسكرية ضخمة في موآب
(الكرك) من أرض البلقاء حتى كانوا قد وصلوا إلى معان . وأمر القائد
بقوته بالتوقف وانقضى يومان في نقاش بين قادة المسلمين ليقرروا إما
المضي في حملتهم أو الرجوع إلى المدينة . وكان موقف عبد الله بن رواحة
وهو أحد المسلمين الأوائل ومن أشد المسلمين حماسة وتعصبا هو الذي
خلب الوضع تماما فقد انبرى يقول : « يا قوم والله إن التي تكرهون للتي
خرجتم تطلبون الشهادة . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة
وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي آكرمنا الله به فانطلقوا فانما هي إحدى
الحسينين إما ظهور وإما شهادة » وصدق الناس ابن رواحة ومضوا على
التو في زحفهم للقاء الروم .

واتجه الغزاة شمالا وقد جعلوا سلسلة جبال البلقاء العالية والطويلة
إلى يسارهم بينما انحدرت سفوحها نحو الشرق لتدوب في هذه الأما
الفسيجة من الصحراء وعبر المسلمون هذه السفوح على بعد خمسين ميلا
إلى الشمال من معان ليجدوا أنفسهم وجها إلى وجه أمام قوة تبلغ أضعاف
أضعافهم جلها من القبائل البدوية الموالية للروم وتعززها كما تقول
الروايات العربية بعض قوات الروم ، ولعلها كانت تؤلف بعض الحاميات
الرومانية المربطة في المنطقة . وهناك على مقربة من قرية مؤتة الصغيرة
سهل صغير يقبع بين هذه السلاسل الجبلية المسماة بجبال البلقاء . وقرر
المسلمون أن يخوضوا المعركة في هذا السهل . والتقى الناس واقتتلوا
وقاد زيد بن حارثة ، ورأية النبي في يده ، هجوم المسلمين مقتحما صفوف
الروم حتى قتل برماحهم ، وانبرى جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي
يحمل الراية من زيد الشهيد ويقتحم صفوف الروم قائلا ...

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وباردا شاربها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
على أذ لاقيتها ضاربها

ويبدو أن عرف العرب بأن يحمل القائد نفسه الراية ويخوض بها
المعركة لم يكن يصلح للمعارك المنظمة وإن صلح لطراز الحروب العربية .
وأطبق العدو على جعفر البطل وسرعان ما وقع مشخنا بالجراح . وتقول
الروايات العربية : أن جعفرا أخذ اللواء بيمينه فقطعت فأخذه بشماله

فقطعت فاحتضنه بعضده حتى قتل على يد جندي روماني ، وراح عبد الله.
ابن رواحة يحمل الراية فورا وعندما نظر الى صفوف المسلمين وقد علاها
الاضطراب اقتحم صفوف العدو وهو يقول :
يا نفس الا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ان تفعل فعلهما هديت
وظل يقاتل ويتقدم حتى قتل وهو ينشد الجنة التي طالما تلهف
اليها .

وكان خالد بن الوليد وقد تحول أخيرا الى الاسلام يقاتل بين
المسلمين . وكان أكثر خبرة في القيادة العسكرية من زيد أو جعفر وقد
يكون أقل تشوقا منهما الى الجنة (١) . وعندما تولى القيادة في هذه اللحظة
من الانكسار أفلح في أن يسيطر بشخصيته القوية الأسرة على من تبقى
من المسلمين . وثبت أحد الانصار الراية في الارض فالتفت حولها
المسلمون . وأخذ خالد يتأخر بهم قليلا قليلا مع الاحتفاظ بالنظام حتى
انسحب من الميدان دون أن يلحق به الروم الذين كانوا قد أجهدوا كل
الاجهاد (٢) .

ويقوم مسجد الآن في أرض مؤتة وله مئذنتان عاليتان وفي هذا
المسجد ضريح جعفر بن أبي طالب وكان الضريح مهديا ومهملا في عشرينات.
القرن الحالي واني لأعتر كل الاعتزاز لان الجيش العربي الاردني هو الذي
تولى اصلاح الضريح وبناء مئذنتيه (٣) ومازال أهل مؤتة يعتقدون حتى

(١) محاولة مأكرة من المؤلف للتشكيك في صدق اسلام خالد بن الوليد مع ان أي
تفكير في طبيعة هذا القائد الكبير تجعله أبعد الناس عن الريف ولا سيما أنه لم يكن مرفعا
على الاسلام لو لم تكن نيته صادقة فيه . مع العلم بأنه كان يحتل منزلة رفيعة في قريش
بسبب مهارته العسكرية .

(العرب)

(٢) تقول إحدى الروايات العربية ان الروم لم يلحقوا بجيش المسلمين لانهم ظنوا
أن خالدا يخدمهم حتى يرمى بهم في الصحراء .

(٣) دليل واضح واعتراف صريح من المؤلف بالدور الذي كان يؤديه في الاردن
بتولي قيادة الجيش العربي الاردني الذي كان يعتبره جلوب جيشه الخاص أو جيش
بلاده بريطانيا التي يتولى خدمة مصالحها ، فهو يعلن اعتزازه . لان الجيش الاردني هو
الذي بنى المسجد ، وانا لا أنهم هذا الاعتزاز اذا كان جلوب يعتبر نفسه مجرد قائد
لهذا الجيش لكن اعتزازه هذا ناجم عن اعتباره الجيش ملكا له ومن هنا نستطيع أن
نفهم حقيقة الدور الذي أداه جلوب في قيادته لهذا الجيش ابان حرب فلسطين وفي
جميع المعارك العربية التي تلت هذه الحروب الى أن أخرج ضباطه الاحرار جلوب من
قيادته ليمربوا الجيش ويحولوه الى جيش عربي يخدم العروبة ليس الا .

(العرب)

يومنا هذا ان جيشنا من أشباح المسلمين يزحف عند فجر كل يوم من أيام الجمعة عبر السهل متجها الى الشرق حاملا رايته البيضاء ليشن هجوما عنيفا كاسحا على المكان الذى كان يقف فيه جنود الروم .

وعندما اقترب المسلمون المتراجعون من المدينة تلقاهم رسول الله والمسلمون في خارجها وأخذ الناس يحدثون على الجنود التراب ويقولون « يا فرار قررتم في سبيل الله » ولكن محمدا بتلك الابوة الرحيمة التى عرفت عنه والتي كان يحسن استعمالها راح يقول : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ان شاء الله تعالى » . وأسرع النبي الى بيت ابن عمه جعفر حيث احتضن أولاده وعيناه مغرورقتان بالدمع ثم قصد بيت زيد حيث احتضن طفله الصغيرة التى جاءت الى النبي مهرولة وقد أشرق وجهها بالدمع ، وراح النبي يعلن في المسجد في اليوم التالى انه رأى في نومه شهداء مؤتة في فراديس النعيم على سرر من ذهب ، وكان جعفر على هيئة ملاك له جناحان خضبتهما دماء الشهادة . ولعل هذا هو السبب الذى دعا الناس فيما بعد الى تسمية جعفر بالطيار .

وعلى الرغم من نكسة مؤتة فان عددا من القبائل العربية أوفدت رسلها وبعوثها طيلة عام ٦٢٩ تنشد صداقة النبي والتحالف معه .



وكان الرأي العام في مكة قد تحول في هذه الآونة تحولا واضحا الى جانب المسلمين وأدرك النبي ان الوقت قد حان لتوجيه ضربته النهائية الى قريش . وسرعان ما أمنت له القبائل البدوية الذريعة أو المبرر . وكانت هناك قبيلتان احدهما تسمى خزاعة والاخرى بنو بكر تعيشان متجاورتين خارج مكة وبينهما ثارات قديمة منذ عهد الجاهلية . وكانت خزاعة حليفة للنبي بينما كان بنو بكر حلفاء لقريش . وحدث في هذه الآونة ان أرادت بكر الثار من خزاعة فخرج نفر منها لمساغمة أعدائهم على ماء خارج مكة وأوقعوا بالخزاعيين عددا من الاصابات القاتلة . وخرج بديل بن ورقاء أحد شيوخ خزاعة والذي قام بدور الوساطة في الحديبية على رأس وفد من قومه الى المدينة فأخبروا النبي بنقض قريش لعهدهما وان غدر بنى بكر حلفاء قريش يعتبر خرقا لمعاهدة الحديبية .

ويبدو أن النبي قرر ان الفرصة جد مواتية للقيام بعمل حاسم ازاء قريش وراح في يناير (كانون الثانى) عام ٦٣٠ يأمر المسلمين بالتأهب للحروب وسيطر الرعب على زعماء قريش الذين كانوا يدركون ولا شك

«ما بلغ اليه نفوذ محمد وسلطانه وراح أبو سفيان قائدها في معركة أحد
«وأحد كبار أعداء النبي ومعارضيه يسرع الى المدينة ولكن هذا القائد
«المتقسط وزعيم قريش لم يستطع مقابلة النبي اذ رفض السماح له
«بمقابلته واضطر الى أن يرجو أبا بكر وعمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب
«الوساطة والشفاعة عند محمد فضنوا بها عليه وعاد الى مكة مخذولا
«مهانا (٩) »

(١) في رواية المؤلف بعض الخطأ فلقد قابل أبو سفيان النبي (صلم) ولكنه لم
يستمع اليه كما ان سفارة أبي سفيان لم تكن نتيجة علم قريش بما اعترمه النبي اذ
حافظ النبي اشد الحفاظ على سرية الحملة ولم يطلع عليها حتى اشد الناس قربا
اليه ، وانما كانت نتيجة خوف قريش من النبي بعد نقضها لعهدها في النزاع الذي وقع
بين خزاعة وبينى بكر . وهذه هي الرواية الصحيحة كما نقلها ابن اسحق وابن هشام
خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله (صلم) في المدينة فدخل على ابنته
أم حبيبة زوج النبي فلما ذهب ليجلس على فراش الرسول (صلم) طوته منه فقال
يا بنية ما أدري أريبت بي من هذا الفراش أم رقيبت به عنى قالت بل هو فراش رسول الله
وانت رجل مشرك نجس ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله (صلم) قال : والله
لقد أصابك يا بنية بعدى ثم خرج حتى أتى النبي فكلمه فلم يرد عليه شيئا ثم ذهب
الى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله (صلم) فقال ما أنا بفاسل ثم أتى عمر بن
الخطاب فكلمه فقال أنا أشفع لكم الى رسول الله (صلم) ؟ فوالله لو لم أجد إلا
الدر لجاهدتكم به . ثم خرج الى على بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت النبي (صلم)
وعندها الحسن بن على غلام يدب بين يديها ، فقال يا على انك أمس القوم بي وحما
واني قد جئت في حاجة فلا أرجمن كما جئت خائبا فاشفع لي الى رسول الله . فقال
على : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله (صلم) على أمر ما نستطيع أن
تكلمه فيه فالتفت الى فاطمة وقال : يا ابنة محمد هل لك أن تأمرى بتيك هذا ليجير
بين الناس ليكون سيد العرب الى آخر الدهر . قالت : والله ما بلغ بنى ذاك أن يجير
بين الناس وما يجير أحد على رسول الله . قال : يا أبا الحسن اني أرى الامور قد
اشتدت على فالصحنى قال : والله ما أعلم لك شيئا يفنى منك شيئا ولكنك سيد بنى
كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا قال :
لا والله ما أظنه ولكني لا أجد لك غير ذلك فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيتها
الناس اني قد أجزت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش قالوا :
ما وراءك قال جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد على شيئا ثم جئت ابن أبي قحافة فلم
أجد فيه خيرا . ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعذى العدو ثم جئت عليا فوجدته
الين القوم وقد أشار على بشيء صنعت فوالله ما أدري هل يفنى ذلك شيئا أم لا ؟
قالوا : وبم أمرك قال أن أجير بين الناس ففعلت قالوا هل أجاز ذلك محمد ؟ قال لا :
قالوا ويلك ! والله ان زاد الرجل على أن لعب بك فما يفنى منك ما قلت .

(العرب)

وخرج محمد في عشرة آلاف من المسلمين قاصدا مكة في يناير عام ٦٣٠ . وكان المهاجرون والانصار يسرون خلفه مسيرة رجل واحد ولكن معظم القوة كان من أبناء القبائل (١) وانضم اليه بنو سليم وكانوا لا يزالون معادين له وهو في طريقه الى مكة ومضى الجيش في زحف سريع حتى بلغ «مر الظهران» في خارج مكة ولم تكن قريش قد عرفت بعد بما فعله المسلمون . وأدرك العباس عم النبي . ان النهاية غدت قريبة وحتمية فهجر مكة أخيرا وانضم الى جيش المسلمين الزاحف (٢) .

وجاء أبو سفيان نفسه في تلك الليلة طالبا الاستسلام لمحمد . وهب عمر بن الخطاب يطلب من النبي السماح له بقتله ولكن النبي دعاه بلهجة رقيقة الى الاسلام وراح هذا المحارب العجوز الكبير حتى في موقفه هذا وهو وحيد بين عشرة آلاف مسلم يعترف بوحدانية الله ويظهر بعض الشكوك في رسالة النبي ولكن شكوكه هذه ما فتئت ان زالت عندما راح العباس يقول له بحماسة من أسلم حديثا «ويحك أسلم واشهد ألا اله الا الله وان محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك» . ولم يكن في وسع أبي سفيان أن يناقش فأشهر اسلامه فورا (٣) .

(١) تروى كتب السيرة ان قوة المسلمين ضمت سبعمائة من قبيلة سليم والقبائل من مزينة وأربعمائة من بنى خفار وأربعمائة من بنى أسلم ونفرا آخر من تميم وقيس .
واسد .

(٢) يحاول المؤلف مرة أخرى التشكيك في اسلام العباس مع أن السياق التاريخي للقصة يشير الى أن العباس كان على اتصال بالنبي قبل أن يسلم علنا . وهذا الاتصال هو وحده الذي يفسر كيف علم العباس بمسيرة المسلمين الى مكة في الوقت الذي لم تكن قريش تعرف عنها شيئا كما سنرى في الهامش اللاحق وكيف ذهب الى لقاء محمد قبل ان تعرف قريش شيئا عن مجيئه .

(٣) في قصة اسلام أبي سفيان بعض الأخطاء . وأرى أن أروها كما رواها ابن هشام في سيرته : « لما نزل النبي مر الظهران قال العباس بن عبد المطلب واصباح قريش . والله لئن دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكة حنوة قبل ان يأتوه فيستأمنوه فانه لهلاك قريش الى آخر الدهر . وخرج العباس على بغلة الرسول البيضاء حتى وصل الراك فلعله يجد بعض الخطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان الرسول . ليخرجوا اليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم حنوة . وبينما هو في طريقه سمع كلاما تبينه بأنه كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وسمع أبا سفيان يقول : «ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكريا وبديل يرد عليه : هذه والله خزاعة خمستها الضرب ، ويرد أبو سفيان قائلا خزاعة أقل من أن تكون هذه نيرانها وسأكرها ، وهتف العباس بهما قائلا : ويحك أيا أبا سفيان هذا رسول الله في الناس واصنباخ قريش والله وقال . أبو سفيان فما الحيلة ؟ فذاك أبي وأمي . قال العباس والله لئن ظفر بك ليضربن =

وأملى النبي شروطه • وأمر أبا سفيان بالعودة سراعا الى مكة ليعلن
فى الناس ان من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق بابيه فهو آمن
ومن دخل المسجد (الكعبة) فهو آمن •

وراح جيش المسلمين الذى يضم عشرة آلاف مقاتل يخرج من بطون
الجبال متجها الى مكة وقرر النبي تقسيم قوته الى أربعة ارتال أولها رتل
يقوده أبو عبيدة بن الجراح الذى سنسمع عنه كثيرا فيما بعد ويضم
المهاجرين وبينهم النبي نفسه ليدخل المدينة من شمالها الغربى • والى
اليسار رتل يقوده الزبير بن العوام ويسير فى خط مواز لخط الرتل
الأول • أما الرتل الثالث فيقوده سعد بن عباد شيوخ الخزرج ويدخل من
الناحية الغربية بينما يقود خالد بن الوليد الرتل الرابع الذى يضم فئات
من مختلف القبائل ومهمته الالتفاف حول المدينة والدخول اليها من
الجنوب • وأمر النبي قادة الارتال بشىء من الصرامة بألا يقتتلوا ولا يسفكوا
دما • وأقيمت للنبي قبة على أرض مرتفعة تطل على المدينة التى كان النبي
قد غادرها قبل ثمانى سنوات فرارا من بطش أهلها تحت جنح الظلام
والتي اختفى منها فى غار ثور القريب منها ثلاثة أيام وهو الغار الذى
يراه الآن من قبته • أما الآن فهناك ثلاثة آلاف محارب يسرون تحت
امرتة لاقتحام مدينته التى نشأ فيها والتى تقف الآن جاثية أمام ارادته •

وبعد استراحة قصيرة ركب النبي ناقته القصواء ودخل المدينة الى
أن جاء البيت قطاف به سبيعا على راحلته ثم وقف على باب الكعبة وأمر

عنك ، فاركب في عجر هذه البفلة حتى آتى بك رسول الله فاستأمنه لك • فركب
أبو سفيان خلفه ورجع صاحبه وجاء به الرسول لم يدخل عمر بن الخطاب قائلا : يا رسول
الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فعنى فلا ضرب عنقه • ورد
العباس • يا رسول الله انى قد أجرته • وجلس العباس الى رسول الله (صلم)
فاخذ برأسه وقال : والله لا يئناجيه الليلة دونى رجل فلما كثر عمر في شأنه قال العباس :
مهلا يا عمر وقال النبي • اذهب به يا عباس الى رحلك فاذا أصبحت فأتنى به • فذهب
به وبات عنده ولما أصبح غدا به الى رسول الله • فلما رأى الرسول قال • ويحك
يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم انه لا اله الا الله ؟ قال : بآبى أنت وأمى ما أحلمك
وما أكرمك وأوصلك والله لقد ظننت انه لو كان مع الله اله غيره لقد اغنى عنى شيئا
بمدن قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم انى رسول الله ؟ قال بآبى أنت وأمى
ما أحلمك وما أكرمك وأوصلك أما هذه والله فان في النفس منها حتى الآن شيئا فقال
له العباس • ويحك اسلم واشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله قبل أن تضرب
عنقك فشهد أبو سفيان شهادة الحق واسلم •

(العرب)

بتطهيرها من الاصنام والقنف بها من أماكنها • ثم أمر مؤذنه بلالا الحبشي بأن يؤذن للصلاة ووقف المسلمون وراء النبي يؤمهم في صلاته ويؤدون الفريضة • وعاد فأمر المنادين بأن ينادوا في الشوارع بتحطيم جميع الاصنام والتماثيل في البيوت •

ولم يخطر ببال محمد المنتصر الفاتح أن يثار أو ينتقم فقد أعلن لأهل مكة •• « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ولم يستثن من هذا العفو العام الا عددا قليلا دون العشرة أمر النبي بقتل أربعة منهم فقط لكثرة ما كان منهم من أذى للمسلمين • وفر عكرمة بن أبي جهل الى اليمن فتشفعت له زوجته عند النبي فعفا عنه وعاد بعد أن ذهبت اليه هذه المرأة الباسلة لتستدعيه وبات عكرمة بعد سنوات قليلة من أبرز قادة المسلمين • وكانت هند زوج أبي سفيان المرأة المتوحشة التي مثلت بجثة حمزة في معركة أحد بين اللائي أهدر الرسول دماهم ثم عاد فعفا عنها •

وكانت الخطوة التالية التي قام بها النبي استدعاء أهل مكة جميعا الى الكعبة لأداء يمين الولاء له • وراح الرجال يمرون بالنبي أولا ، وكل منهم يصفحه ويمسك بيده برقة ودمائة ويبايعه تماما كما بايعه السبعون الاول من الانصار من أهل المدينة في بيعة العقبة قبل ثمانى سنوات • وعندما انتهت بيعة الرجال جئ بالنسوة الى ساحة الكعبة وجاءت هند امرأة أبي سفيان مع النسوة وقد اختمرت لتخفى وجهها عن النبي وبدأ النبي حديثه اليهن بخطبة قصيرة أعلمهن فيها أنه يريد منهن أن يبايعنه ويقسمن على الولاء للإسلام ويشهدن شهادة الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وكان النبي قد اكتفى بطلب البيعة من الرجال فهبت هند والنبي لا يعرفها تقول : « انك تطلب الينا ما لم تطلبه من الرجال » • وعرف النبي على الفور هوية التي قاطعته فسألها أو لست هندا ؟ قالت : بئس من الجراءة • أجل أنا هند • فأكد لها النبي بصوته الهادي الوقور انه قد عفا عنها لان الله غفور رحيم (١) •

وعاد النبي يواصل حديثه اليهن عن عادات الجاهلية وأن يحصن فروعهن ولا يثدن بناتهن • وراحت هند تقاطعه قائلة : « لقد أنشأنا أولادنا وجئت تقتلهم بعد أن شبوا في بدر » ولا ريب في أن هذه المرأة

(١) لم استطع العثور على تأييد لهذه الرواية في كتب السيرة •

(العرب)

كانت من النوع الذى لا يحتمل لعنفوانها وغطرستها • ومن حقنا أن نرثي
لأبى سفيان احتماله العيش معها •

وأمر النبى عمر بن الخطاب بأن يتلقى البيعة من النسوة نيابة عنه
اذ عرف ان النبى لم يلمس فى حياته يد امرأة غريبة عنه • ولا ريب فى
أن هذه الحشمة قد تكون موضع الاستغراب عند الاوربيين نظرا لسماعهم
بأن النبى قد بنى باحدى عشرة زوجة وجارية واحدة. ولكن هذا الاستغراب
يزول اذا عرفت الاسباب التى أدت الى زواج النبى من هذا العدد الكبير
من النسوة، يضاف الى هذا ان هناك ناحية فى الاسلام يصعب على الغرب
فهمها ، فللمسلم اذا شاء أن يتزوج من أربع نسوة ولكن عقاب العلاقات
الجنسية غير المشروعة صارم فى الاسلام كل الصرامة • ويعتز الغرب كل
الاعتزاز بأن نظامه يقوم على الزواج بواحدة ولكن الغربى يلهو بعدد من
العلاقات غير الزوجية • ويظهر هذا الحادث ان نساء المسلمين الاول لم يكن
من النوع الذى يقبع فى الجحور وان العرب لم يعرفوا ظاهرة « الحريم »
التي تلصق خطأ بالعرب وقد عفا النبى عن هند ولكنه لم يعف عن قينة
كانت تنشد الاغاني فى هجاء النبى والمسلمين •

وهكذا تم فتح مكة دون اراقة دماء الى حد كبير • وقد قتل خالد بن
الوليد الحاد المزاج بعض الناس عند باب المدينة الجنوبى وأنبه النبى.
تائيبا حادا على ما فعله (١) • وعلى الرغم من ان النبى كان قد عانى
الاضطهاد فى مكة وعلى الرغم من أن عددا من الد أعدائه كانوا لا يزالون
يعيشون فيها الا أنه اكتسب قلوب الجميع بما أظهره من رحمة وعفو فى
يوم انتصاره. ولا ريب فى أن هذا التسامح أو هذه الفطنة السياسية التى
انصف بها النبى كرجل دولة كانت غريبة على العرب الذين كانت صفة

(١) يحاول المؤلف هنا أن يعطى صورة مشوهة من الحقيقة ليظهر أن خالد بن
الوليد عصي أمر الرسول بقتله بعض الناس وأن النبى أنبه على عصيائه ، أما الحقيقة
التي رواها كتب التاريخ العربى فهي أن بعض مقاتلة قريش اعترضت رتل خالد بن
الوليد عند أسفل مكة ومنهم نفر من بنى بكر والاحابيش وعلى رأسهم عكرمة بن أبى جهل
وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وكانوا قد اتخذوا موضعا على جبل يدعى الخدمة.
ولما اقتربت طلائع رتل خالد وشقوها بوابل من النبال فلم يهلمهم خالد لحظة ، وفي كربة
واحدة شتت شملهم بعد أن قتل منهم اثني عشر رجلا وانهزم الباقون وفيهم زملاء
الحركة ولم يقتل من رتل خالد الا رجلان وقد أسف محمد (ولم يؤنب خالد كما زعم
المؤلف) على ما حدث اذ كان يتمنى لو لم يسفك دم بدخول مكة ولكنها مشيئة الله •

(الغرب)

الانتقام من خصالهم ومزايهم • وقد حقق النصر الكبير بسياسته
ودبلوماسيته أكثر منه بعمله العسكري • ولا ريب في أن عظمته تقوم في
أنه أدرك في عصر يسوده العنف وسفك الدماء ، أن الافكار أقوى من القوة
والعنف •



يذكر القاري أن النبي زار الطائف أبان ذروة الاضطهاد في مكة قبل
الهجرة وهي بلدة تقع على بعد أربعين ميلا إلى الشرق من مكة وأنه قوبل
أبان هذه الزيارة بالازدراء ، وقذفه أهلها بالتراب والحجارة ولكن سقوط
مكة في أيدي المسلمين ملأ قلوب أهل الطائف رعبا وذعرا ، فقرروا أن
يأخذوا زمام المبادرة وأن يبادروا المسلمين في مكة بالهجوم قبل أن تصل
جيوش محمد إليهم ، وكانت قبيلة ثقيف هي التي تقيم في الطائف ولكنها
تحالفت مع هوازن وهي مجموعة من البطون تعيش في الصحراء المجاورة
لمكة وتنتهي مع ثقيف إلى أصل واحد هو قيس عيلان • وأجمعت القبائل
على المسير إلى حرب المسلمين وحشدوا رجالهم استعدادا لمهاجمة مكة •

وعلم النبي الذي كان قد اتقن الآن صناعة الحرب وأدرك أهمية
المخابرات العسكرية بأمر هذا الاستعداد من عين له كان قد أوفده إلى
المنطقة وقدم إليه تقريرا عن تآهب القبائل فخرج إليها للقاءها على رأس
جيش يضم عشرة آلاف محارب انضم إليهم ألف محارب من قريش بعد
أن رأوا من النبي في فتح مكة ما رأوه من رافة ورحمة •

وكانت كثرة المسلمين العددية وثقتهم من النصر سببين - كما يبدو -
في اظهار ما أظهره في هذه المعركة من افتقار إلى الاستعداد والحيلة • فلم
يكد المسلمون يتحركون عند الفجر عبر وادي حنين الضيق حتى باغتتهم
العدو من جميع الجهات بعد أن كمن لهم في شعاب الوادي • وكانت
المباغطة كاملة تمام الكمال ولم يتح لهم الوقت للثبات وتنظيم صفوفهم •
وتراجعت ثلاثهم فزعة لا تلوى على شيء وسرعان ما دب الدغر في الجيش
كله وراح ينهزم محاولا الفرار من الوادي الضيق وقد سادته الفوضى •

وكان النبي في مؤخرة الجيش فلما رأى الناس لا يلون على شيء
انحاز إلى جهة اليمين وثبت عند منحدر الجبل الذي يحد الوادي الضيق
وبحوله النخبة الممتازة من صفوة الرجال أمثال أبي بكر وعمر بن الخطاب
وعلى بن أبي طالب وعمه العباس وأسامة بن زيد نجل قائد مؤتة الشهير،
واخذ يهتف عاليا •• أين أيها الناس ؟ هلموا إلى أنا رسول الله ، أنا محمد

ابن عبد الله ، يا معشر الانصار الذين آووا ونصروا • يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة وراح أبو سفيان العجوز وكان مرافقا للنبي في حملته هذه يهمس في أذن من حوله بمكر قائلا « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر » •

وكان في مقدمة هوازن رجل يتولى مطاردة المسلمين المنهزمين وقد امتطى جملا أحمر اللون يحمل راية سوداء في يده ورمحا طويلا وكان ان أدرك أحد انفارين ، طعنه برمحه في ظهره ثم رفع رمحه لمن وراه فاتبعوه ، وراح علي بن أبي طالب يتبع ذلك الهوزاني صاحب الراية وضرب عرقوبى. الجمل فوق على عجزه ووئب أحد الانصار على الرجل قتلته •

وكان المسلمون قد بدعوا في غضون ذلك يفيقون من ذهول المفاجأة. ويعودون الى الالتفاف حول النبي ومعظمهم من الانصار. وسرعان ما التفت حوله نحو من مائة رجل من المسلمين فعبأهم أمام المشركين يصدون سيلهم الجارف وظل العباس وهو جهير الصوت يصرخ بأمر من النبي • • « يا معشر الانصار يا معشر أصحاب السمرة ! » وتوقف هجوم هوازن ورجع المسلمون. الذين كانوا قد ولوا عن المعركة الى الميدان • ولم يكن في وسع المشركين أن يصمدوا أمام هذا العدد الطاغى من المسلمين وشن بنو سليم وهم قبيلة من البدو اعتنقت الاسلام حديثا ، هجوما كله حماسة ، وبدأت هوازن ترتد على أعقابها ، ثم سرعان ما انقلب ارتدادها الى هزيمة وأخذ المنهزمون ينشدون الملاذ في الجبال المحيطة ، وانسحب أهل الطائف الى مدينتهم وأغلقوا على أنفسهم أبوابها وكان أى بناء من الحجر يؤلف عقبة كداه في طريق أية قوة عربية لا سلاح لها الا السيوف والرماح والنبال ولذا فقد أمر النبي بعد خمسة عشر يوما من الحصار على المدينة برفعه دون فائدة •

وكان انتصار المسلمين في حنين كاملا حتى انهم كسبوا غنائم كثيرة بينها أعداد وفيرة من الابل والغنم كما أسروا عددا ضخما من الاسرى. معظمهم من نساء هوازن وأطفالها وعندما عاد النبي عن الطائف دون أن يتمكن من فتحها شرع يقسم الغنائم والاسلاب بين رجاله • ووصل اليه وفد من هوازن المهزومة على أمرها يرجوه اطلاق سراح النسوة والأطفال من الاسرى ، وسرعان ما لبى النبي الطلب بماعرف عنه من دماء وتسامح ، فلقد كان يشهد من جديد في ذروة انتصاره أن يكسب الناس أكثر من نشدائه عقابهم وقصاصهم • وحدث أن كانت قبيلة بني سعد التي حضنت الرسول في طفولته ، اذ رضيع من حليمة وهي إحدى نساها ، بين القبائل المهزومة في صفين وساقوا الى النبي الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى •

أخت الرسول في الرضاعة فعنفوا عليها في السياق فقالت للمسلمين : تعلموا والله أنى لأخت صاحبكم في الرضاعة ، فلم يصدقوها حتى أتوا بها الى الرسول قالت : يا رسول الله • انى أختك في الرضاعة قال : وما علامة ذلك ، قالت عضه عضضتها في ظهري وأنا متوركتك «جاملتك على وركي» وبنتلك الروح الديموقراطية السمحاء التي عرفت عنه والتي اكتسب بها قلوب الناس نشر النبي عبادته على الارض وأجلسها الى جانبه متحدثا اليها عن الايام القديمة الطيبة وراح يرداها الى قومها بعد أن أنعم عليها بالهدايا والهبات •

وبينما كان النبي يرد سبايا حنين الى أهلها من هوازن كان أتباعه ينتظرون تقسيم الغنائم بفارغ الصبر وعندما رأوه يقصد خيمته أتبعه الناس يقولون • يا رسول الله أقسم علينا فيتنا من الابل والغنم ، حتى الجئوه الى شجرة فاختطفت عنه رداءه فقال : وردوا على ردائي أيها الناس فوالله ان لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ومثل هذا المنظر يعتبر شيئا ممتعا لكل من عرف قبائل البدو في يومنا هذا فهو يجسد لنا رغبة أهل القبائل في غنائم الغزو ممزوجة بموقفهم الذي ينطوى على الاجلال والحب والاعجاب والانطلاق مع القائد القريب الى قلوبهم • ان أوضاع الصحراء على حالها لم تتبدل برغم انقضاء هذه القرون الطويلة •

وعندما شرع في تقسيم الاسلاب والغنائم أخذ منها الخمس لنفسه كما تنص الشريعة الاسلامية ولكنه لم يحتفظ بشيء من حصته وانما وزعها على المكين الذين اعتنقوا الاسلام مؤخرا وعلى شيوخ قبائل البدو ليكسب قلوبهم وعلى الرغم من أن النبي كان ينظر الى نفسه كرسول وكمصلح ديني أولا وأخيرا الا انه كان يلجأ الى الاساليب العلمانية أيضا ليفوز بقلوب الناس ، ويفرض نفوذه عليهم • وكان يؤكد للمسلمين المؤمنين ان لهم النعمى في الدارين الاولى والاخرة ، ولم يكن يطلب من الاثرياء الثمن ان يبيعوا كل ما يملكونه وأن يتبعوه • وقد تلقى أبو سفيان وولده يزيد ومعاوية هدايا ممتازة •

وليس ثمة من مشقة أبلغ وأشد من توزيع الاسلاب على البدو الكثيري الضجيج والعجيج اذ اننى جربت ذلك بنفسى وان كانت تجربتى على نطاق أضيق ، ولا ريب في ان محمدا كان يظهر أقصى ما يمكن من الكياسة والاناة والصبر والدماثة حتى ينال كل رجل نصيبه • فقد أعاد لمالك بن عوف شيخ هوزاف والرجل الذى قاد قبيلته لحرب المسلمين كل ما كان

له من ماشية وإبل مقابل اعتناق الاسلام(١) . وسرعان ما طبق مالك بن عوف سنة البدو المعروفة ، بالانقلاب من جانب الى آخر بسهولة وأخذ على عاتقه محاربة حلفائه السابقين من ثقيف فشرع يغير على مالاهل الطائف من ماشية ويهاجم من يخرج منهم من المدينة(٢) واستخلف النبي أخيرا رجلا على مكة وعاد الى المدينة(٣) .

لكن النبي لم ينج على أية حال من النقد على الطريقة التي وزع فيها غنائم حنين ، فليس كلمة من شك في أنه لجأ الى اغراء الهدايا والاموال الدنيوية لاكتساب الاعداء وتحويل المشركين الى الاسلام(٤) . وكان يكتفى دائما من الاعراب بقول الشهادتين دون أن يتحقق من صدق اسلامهم ولكن أهم ما وجه اليه من نقد هو أنه في تقسيمه للغنائم لم يبذل أية محاولة لمكافحة أنصاره الصادقين المؤمنين ، بل استخدم الشطر الأعظم من الغنائم

(١) تقول كتب السيرة ان رسول الله (صلم) سأل من مالك بن عوف قليل له انه بالطائف مع ثقيف . فقال : أخبروا مالكا انه ان اتاني مسلما دددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل . وقد فعل مالك ما اراده الرسول وحسن اسلامه .

(٢) تظهر رغبة المؤلف في الانتقام من شأن الاسلام والمسلمين في كل عبارة يقولها وليس ادل على ذلك من حديثه عن مالك بن عوف زعيم هوازن وتصويره اياه بصورة الانتهازي القلب متخذا منه مثلا على قلب البدو متاثرين بالاغراء المادي . اما بالنسبة الى مالك فقد ذكر المؤرخون العرب انه أسلم وحسن اسلامه ولعل التفسير الصحيح لموقفه هو انه شأنه في ذلك شأن غيره من الكثيرين من حرب الجاهلية لم يكن قوى الايمان بالاولئان والاصنام ، فلما أسلم متأثرا بأوصاعه بعد هزيمة حنين تفتح قلبه للايمان وراى في الاسلام دين الحق والحقيقة فأصبح مسلما صادقا ابلى في الدفاع عن حياضه احسن البلاء واذا كان المؤلف يأخذ على البدو ثقلهم وتأثرهم بعوامل الاغراء متخذا من بعض الحوادث التي مرت به - ابان الدور الذي اداه معهم في خدمة امبراطوريته الاستعمارية، دليلا يدفعه تفرضه الى جملة وسيلة لمثل هذه القادمة العامة الخارجة من الموضوعية التي يطلقها فلماذا لا يأخذ على الانتهازيين من أفراد او دول في عالمه الغربى ثقلهم وهم كثر مع العلم انهم لا يقارنون بالبدو الجيلة في مجالات العلم . ان الانتهازية غريزة عند الكثيرين وهي توجد عند بدو الصحراء كما توجد عند أرفع الناس في كل مكان وفي مقدمتها بلادهم .

(٣) استخلف النبي على مكة حناب بن أسيد ومعه معاذ بن جبل يفقه الناس في دينهم ويعلمهم القرآن .

(٤) تعريض آخر بالرسول الكريم (صلم) ولكن المؤلف نسي الموضوعية في اتهامه هذا بل وفي كل اتهاماته . فلقد بات النبي في هذه المرحلة وجعل دولة وقائد أمة بالإضافة الى رسالته الدينية السامية ولا يستغرب من جعل الدولة والقائد ان يستخدم بعض الوسائل الدنيوية في تثبيت الحكم وتوطيد أركانه . لكنه الهوى من المؤلف .

(العرب)

محاولا تبرضية أعدائه • فلم يتلق الانصار من أهل المدينة الذين كانوا أول من استجاب لنداء الرسول بعد نكسة حنين في بادئ الامر أى شطر من الغنيمة • وعندما أعرب بعضهم ومؤكدا لهم ان اعتماده على صدق أيمانهم هو الذى دفعه الى أن يفعل ما فعل ، ثم قال : « ألا ترضون يامعشر الانصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار » ثم رفع النبي يده الى السماء وهتف قائلا : اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار وابناء أبناء الانصار • هذه صورة من صور شخصيته المغناطيسية اذ أنه ما كاد يقول قولته حتى بكى القوم واخضلت لحاهم وقالوا رضيينا برسول الله قسما وحظا •

وأصبح محمد الآن • وفي نظر الجميع صاحب أضخم قوة في الجزيرة العربية كلها • وأخذت الوفود تصل باستمرار حاملة اليه ولاء جميع القبائل من أطراف الجزيرة القاصية والدانية وذلك رغبة منها في تجنب الوقوف موقف العداء من المسلمين •

وفي سبتمبر (ايلول) عام ٦٣٠ تولى النبي بنفسه قيادة قوة قوامها عدة ألوف من المحاربين سار بها في اتجاه الشمال الى حدود الروم • والعطس في هذا الشهر من السنة في الحجاز شديد الحرارة • وتكون الصحراء أشبه بالأتون اللاهب • وأظهر بعض المسلمين ميلا الى عدم الاشتراك في الحملة حتى تكون حدة الحر قد انتهت (١) • ولكن سرعان ما جاء التنزيل على النبي يقول ... في سورة التوبة « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم

(١) يظهر المؤلف بقوله هذا ان المسلمين جميعا ترددوا بالاشتراك في غزوة تبوك مع أن المناققين ودعاة البريئة هم وحدهم الذين وقفوا هذا الموقف ، وكان هذا هو السبب في الموقف الصريح الحازم الذى وقفه النبي منهم اذ طلب الى زعيمهم عبد الله ابن أبى ، البقاء مع رجاله في المدينة لعدم ثقته به وبجيشه ، كما بعث الى دار سويلم اليهودى التى كان تجمع الانهزاميين فيها لتدبير المؤامرات وتهويل أمر الحملة في نفوس المسلمين فأحرقها ، مما أجبر المتأمرين على القرار وعدم المسودة الى مثلها • وأخطأ المؤلف هنا خطأ ثانيا فقد ذكر أن جيش المسلمين كان يد بضعة ألوف في حين تجمع كتب التاريخ الاسلامى أن الجيش زاد على الثلاثين ألفا وهو رقم لم يشهد العرب له مثيلا من قبل •

(المغرب)

وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون . »

وعندما وصل النبى بجيشه الى تبوك بعث فى طلب يوحنا أمير ايلة المسيحي وعندما جاءه هذا صالح الرسول على عهد بدفع الجزية وجاءته وفود من أهل جرباء وأذرح - والآخرى كانت فيما مضى معسكرا للرومان - فتصالح معها على أن تدفع جزية سنوية على الرغم من أن هذه الاماكن كلها كانت من المحميات الرومانية . وبعث وهو فى تبوك بخالد بن الوليد الى الاكيدر الحاكم المسيحي لدومة الجندل وهو الاسم القديم لبلدة الجوف الحالية . وقد عقد معه النبى الصلح أيضا على دفع الجزية وعاد الجيش الاسلامى بعد أن قضى عشرة أيام فى تبوك الى المدينة دون قتال (١) .

ولا ريب فى أن الهدف من هذه الحملة كان رفع الراية الاسلامية على حدود الروم ولم يكن النبى قد نسى معركة مؤته ولذا فقد عزم على الثأر لها وفى ديسمبر (كانون الاول) من عام ٦٣٠ ميلادية جاءه وفد من ثقيف يباعه ويعان له استسلام الطائف .

وحل موسم الحج فى مارس (اذار) عام ٦٣١ . وكانت المرة الأولى التى يحل فيها هذا الموسم بعد أن غدت مكة فى حيازة المسلمين وبعث النبى بصاحبه أبى بكر اميرا على الحج لاداء الفريضة على رأس المسلمين ونزلت أبان ذلك براءة تحرم على المشركين زيارة البيت وأداء الفريضة . وجددير بنا أن نذكر هنا أن طقوس الحج كانت حتى ذلك التاريخ طقوسا جاهلية لا اسلامية . أما الآن وقد تطهر البيت من الاصنام والأوثان فلم يعد من حق المشركين أن يدخلوه ووجه انذارا فى

(١) يحاول المؤلف جريا على عادته تشويه الحقائق المتعلقة بالفتوحات الاسلامية اذ لم يشرح الاسباب التى أدت الى عودة الحملة الاسلامية دون قتال ولم يذكر أن الروم وقد علموا بوصول النبى صلى الله عليه وسلم الى تبوك ، آثروا الانسحاب الى داخلية البلاد مفضلين قتال المسلمين قريبا من قواعدهم بدلا من حرب الصحراء التى يقررون يتفوق العرب فيها . فلما رأى النبى انسحابهم اكتفى بفرض سلطانه على امراء المناطق المجاورة الذين ما كانوا يدفعون الجزية وهم فى حماية الرومان لولا ثقتهم من ضعف حمايتهم امام المسلمين .

(الحرب)

الوقت نفسه الى جميع القبائل العربية يعطيها مهلة أربعة أشهر تقبل في غضونهما الاسلام أو تتأهب لحرب المسلمين(١) .

وظلت الوفود تصل الى النبي طيلة عام ٦٣١ من جميع أرجاء الجزيرة العربية بما فيها الأماكن النائية كالبحرين وعمان وحضرموت واليمن وكان بين الوافدين وائل بن حجر الحضرمي أمير حضرموت واليمن . الذي تلقاه محمد بكثير من التجلة والاکرام . واختار النبي معاوية بن أبي سفيان وكان قد جعله من أمناء سره اكراما لا يبه ليقوم بدور المضيف لوائل وان ينزله في دار له في واحة قريبة ليتولى اكرام مثواه . وكانت الهاجرة في كبد السماء ترسل اشعتها المحرقة عندما قصد الرجلان الى الواحة وقد امتطي وائل بعيره مخلعا مضيفه يسير على قدميه وطلب معاوية من ضيفه أن يردفه على ظهر بعيره فأبى عليه ذلك . وقال معاوية أخيرا ... اذن فأعزني نعلك أقي به قدمي حر التراب فرد وائل بشيء من الكبرياء قائلا ... وماذا يقول الناس عنى اذا سمحت لمثلك من عامة الناس باحتذاء نعلى . وقد وصف النبي عندما سمع هذا الحادثة بأنه من مخلفات الجاهلية ولم يكن وائل ليتصور آنذاك ان هذا الشاب الذى يركض الى جانب بعيره سيصبح في يوم قريب أعظم حاكم في العالم المعروف .

وغدا النبي فى السنتين الأخيرتين حاكما ذا سلطان عظيم وكان يصرف سحابة نهاره وشطرا من ليله فى استقبال الوفود وإملاء الرسائل وفض المنازعات وتصريف الشئون العامة دون أن يكون الى جانبه موظفون مدربون ، ودون أن تتوافر له وهو الذى لا يعرف القراءة

(١) تقول كتب التاريخ الاسلامى ان النبي (صلم) دعا على بن أبى طالب وكان أبو بكر على رأس الحجيج في مكة فقال له ... اخرج بهذه القصة من صدر براءة واذن في الناس يوم النحر اذا اجتمعوا عنى ، انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله (صلم) عهد فهو له الى مدته لا فخرج على الى مكة على ناقة النبي المضيء حتى أدرك أبا بكر في الطريق فقال له ... امير ام مأمور ؟ فقال : بل مأمور ثم مضى فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب الى ذلك في تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها في الجاهلية حتى اذا كان يوم النحر قام على فاذن بالناس وقال : ايها الناس انه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له الى مدته وأجل الناس أربعة أشهر من يوم اذن فيهم ليرجع كل قوم الى ما منهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة الا لاحد كان له عند الرسول عهد الى مدة فهو الى مدته فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان .

(العرب)

والكتابة التسهيلات التي تتوافر للحكام. وكثيرا ما وجه النقاد الغربيون الى النبي صفة الاصطناع عن طريق مقارنة حياته الأولى في مكة وقد تلقى الرسالة وما كان فيها من بساطة وتأمل ، بحياته الثانية في المدينة. حيث أصبح سياسيا دنيويا أكثر منه انسانا روحيا ، وقد أقر بأن البون شاسع ، ولكنني أرى من الظلم القول بأنه أثر في القسم الأخير من حياته أمور الدنيا على القيم الروحية (١) .

ولا أستطيع أن أنكر أن النبي تزوج إحدى عشرة امرأة مما يشير الى اهتمامه بالنسب (٢) ولكنني أقول انه لم يهتم بالمال قط في حياته

(١) اتهام ظالم ومغرض كل الغرض للنبي . فقد ظل عليه الصلاة والسلام الى آخر يوم من حياته الكريمة مثال الرجل السمع الكريم الخلق الجم التواضع الذي لم تصرفه شئون الحكم من رسالته الروحية المسامية لكن الاسلام عقيدة دين ودنيا ، ومن واجب القائد الموجه أن يهتم بشئون مجتمعه الدنيوية بقدر اهتمامه بالتوجيه الروحي ومن هنا كان القول المأثور .. اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . (العرب)

(٢) هذه حجة طالما استخدمها أعداء الاسلام للظن في النبي سلم الله عليه وسلم فلقد بلغت أخلاقه الشخصية من الكمال حدا جعله موضع رضي ربه الذي أدبه فأحسن تأديبه إذ خاطبه تعالى قائلا «وانك لملى خلق عظيم» . وكانت خلافه سببا في اجتذابه النفوس والقلوب مما الآن له من شكيمة. قومه بعد الإباء وجعلهم يدخلون في دين الله أفواجا متاصررين مؤاندين .

أما قصة الزواج هذه فإن من الثابت أن النبي كان يرى في أن يجمع نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف للشائهن وحملها على الانقياد حول النبي للقد كان الصهر عند العرب بابا من أبواب التقرب بين البطون المختلفة وقد كان زواجه بخديجة وهو بمكة أكبر مساعد له ومبعدا عنه أذى الكثيرين من أعدائه ، فلما كان بالمدينة باهر أكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب . ولعل لظرة واحدة الى نساء النبي ونسبهن تثبت هذه الحقيقة التي يرفض النقاد الغربيون الاعتراف بها وهن رضي الله عنهن ... (١) خديجة بنت خويلد من بنى أسد (٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق (٣) سودة بنت زمعة من بنى عامر (٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب (٥) أم سلمة هند بنت أبي أمية من بنى مخزوم (٦) زينب بنت جحش من بنى أسد بن خزيمه (٧) أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب (٨) جويرة بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة (٩) صفية بنت حيى بن أخطب من يهود خيبر (١٠) ميمونة بنت الحارث من بنى عامر بن صعصعة (١١) زينب بنت خزيمه من بنى عامر بن صعصعة . وهاتك الثنتان تروجهما ولم يدخل بهما وهما أسماء بنت التيمان من بنى كندة وعمره بنت يزيد من بنى كلاب .

ومن مجرد ذكر هذه الأسماء يتبين لكل متصف أن معظم حالات الزواج عند النبي كانت لأسباب سياسية وليس لشيء آخر .. ومن هنا يتبين سخف ادعاء المؤلفين الغربيين .

(العرب)

حتى عندما أصبح وفي قدرته أن يجمع أكبر الثروات . فقد توفي وهو
معدم تقريبا كما أن طعامه البسيط لم يتغير لحظة واحدة وعاش حتى
اللحظة الأخيرة في بيت عادي بسيط لا يصلح أن يكون بيتا لحاكم عادي

ومن المحتمل ألا يكون النبي نفسه قد توقع في البداية هذا
التحول من طبيعة التأمل الى طبيعة النشاط السياسي البالغ الحدود .
ومن المحتمل أن يكون هذا التحول قد جاء بصورة طبيعية عندما هاجر
من مكة الى المدينة حيث وجد نفسه يقود مجتمعا جديدا بعض أفراد
من المعدمين الذين هاجروا وباتوا لا يملكون شيئا وقد حز في نفوس
بعض أهل المدينة ممن لم يكن الإسلام قد تأصل في نفوسهم أن يؤووا
هؤلاء المهاجرين وأن يشاركوهم أرزاقهم مما حملهم على التآمر عليهم .
وعال المهاجرون الى الغزو كوسيلة من وسائل العيش . وكطريقة
للانتقام من قريش التي أخرجتهم من ديارهم . وسرعان ما وجد النبي
نفسه وسط جو من الحروب والدسائس فحملته قيادته لمجتمعه على
أن ينأى عن حياة التأمل التي تفترض الوحدة . ويعبر القرآن نفسه
عن هذا التحول . فالسور المكية تحمل طابعا روحيا أعمق من السور
المدينة التي أخذت تعنى بصورة متزايدة بالشئون الدنيوية من سياسة
وحرب وتشريع .

ولا ريب في أن تحول محمد من صورة النبي التي تغلب على أنبياء
العهد القديم الى صورة السياسي الحاكم والمرجع الاجتماعي قد أثر
تأثيرا عميقا على تطور الإسلام حتى يومنا هذا . وقد سار جميع خلفائه
بصورة آلية رتيبة على سنته ومنواله وطبعوا حكمهم بصورة المزيج
بين الدين والسياسة ولم يعرف الإسلام قط ذلك التناقض الذي قام
بين البابوات والباطرة والذي خلق حالة من الاضطراب في أوربة القرون
الوسطى . أما الدولة العلمانية الإسلامية التي تكون فيها الحكومة الزمانية
مستقلة عن الحكم الديني ، فبدعة عرفها المسلمون في القرن العشرين
مقلدين فيها أوربا .

وحرى بنا أن نذكر دائما أن محمدا قد تأثر بالكثير من المؤثرات
المسيحية واليهودية (١) . فلقد كان عدد اليهود في المدينة لا يقل عن

(١) تستمد هذه النظرة الى الإسلام جذورها من عدم إيمان المؤلف أو الكتاب
الفريرين برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) ولذا فهم يرون أن مرد التشابه بين
الإسلام من ناحية واليهودية والنصرانية من ناحية أخرى الى تأثر النبي بهاتين الديانتين
مع العلم أن هذه النظرة خاطئة لان الإسلام دين الله جاء به محمد بعد اليهودية =

عدد العرب ، ولم تكن هناك جالية مسيحية في مكة أو في المدينة وان وجد عدد من الأفراد المسيحيين هنا أو هناك . يضاف الى هذا أن المرحلة العامة للتطور التي وصل اليها عرب الصحراء قبيل الاسلام في القرن السابع لم تكن لتبعد كثيرا عن الحالة التي كان فيها يهود العهد القديم . ومن الممكن أن نقارن بين ما قاله النبي عن النضال والجهاد بعدد من أقوال العهد القديم ولا سيما في الكتب الخمسة الأولى . وهناك كثيرون من الغربيين يقولون ان محمدا لو ظهر بين موسى وعيسى . لاعتبر بحق من أكثر المصلحين الدينيين في العالم (١) .

وتنهيا النبي في شهر فبراير (شباط) (٢) عام ٦٣٢ لاداء فريضة الحج على رأس جمع كبير من المسلمين . وقد راقب المسلمون كل عمل قام به الرسول ابان ادائه للفريضة هذا العام واعتبروها طقسا من طقوس الحج . وقد ألقى النبي في الحجيج خطبة ذلك العام وانهاها متطلعا الى السماء وهو يقول . . « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت هليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » وبعد ان أتم مناسك الحج عاد بأصحابه الى المدينة وتفرق الحجيج الى بلادهم آمنين مطمئنين .

وكان بعض مدعى النبوة قد ظهوروا في الايام الاخيرة من حياة النبي في نواح عدة من الجزيرة العربية ولكن نشاطهم لم يكن كبيرا بحيث يؤلف خطرا كافيا يثير القلق في المدينة ولم يقدر لهذه الدعوات ان تبرز أهميتها الا بعد وفاة النبي . ويبدو ان كل مقاومة عسكرية للنبي كانت قد توقفت في الجزيرة العربية في هذه الآونة ولكن النبي أصدر أمره في مستهل عام ٦٣٢ للقيام بحملة على حدود الروم وأراد أن يؤكد رغبته في الثار لشهداء مؤتة فأسند قيادها الى أسامة بن زيد نجل قائد حملة مؤتة وان لم يكن الشاب قد جاوز العشرين من عمره . وقد اثار هذا الاختيار بعض الامتعاض عند من هم أكثر من أسامة دراية وخبرة

= والنمرانية ولذا فان التشابه يقوم في أن مصدر الاديان السماوية واحد . وهو الله .

(١) طبعا نحن نختلف مع المؤلف في قوله هذا لان الاسلام هو دين الكمال وقد جاء مكملا للرسالات السماوية التي سبقته ولكن المؤلف كان حكيما بعض الحكمة عندما نسب قوله هذا الى غيره .

(٢) تجمع كتب التاريخ العربي على أن حجة الوداع كانت في مارس (آذار) من ذلك العام . (العرب)

في القيادة العسكرية • وجدير بي أن أذكر أن هذه الفكرة من الثأر العائلي ما زالت تتكرر في بلاد العرب منذ أقدم العهود حتى اليوم (١) •

ولم تمض أيام حتى كان النبي ذات صباح يشكو من بعض الصداع والحمى وذلك في شهر يونيو من عام ٦٣٢ ولكنه أفاق في اليوم التالي وقد خف ألمه فخرج من بيته ليسلم الراية الى أسامة بن زيد على رأس الحملة ولكن الحمى ما لبثت أن عاودته وعاد اليه الصداع وإن ظل يومين أو ثلاثة أيام يقالب المرض ليؤدي أعماله اليومية كالمعتاد • وأخيرا اشتد عليه المرض فأوى الى فراشه يشكو من الحمى في غرفة عائشة زوجة الامين وابنة أقرب الناس اليه أبي بكر الصديق • ويروى ان امرأة بدوية قالت للرسول انه مصاب بذات الجنب فانكر عليها ذلك مؤكدا ان مرضه ناشئ عن محاولة يهود خيبر تسميمه قبل أربع سنوات • ومن المحتمل أن يكون النبي أراد أن يظهر للناس انه من الشهداء وأن الكفرة هم الذين قتلوه (٢) لكن الظواهر التي رواها المؤرخون تشير الى أن الوفاة نجمت عن الإصابة بذات الرئة •

(١) كان أول ما فكر فيه النبي بعد عودته من حجة الوداع استئناف الحركات العسكرية على حدود الروم لتوطيد نفوذ الاسلام بين القبائل العربية القاطنة هناك • وقد جهز النبي الحملة واشترك فيها المهاجرون الأول أمثال أبي بكر وعمر ثم أناط قيادتها بمولاه أسامة بن زيد بن حارثة وهو دون الثامنة عشرة فأثار هذا التعيين دهشة واستغرابا في نفوس المسلمين وقال بعضهم أمر غلاما حدثا على حملة المهاجرين والانصار وبطاطا البعض بالفعل في الخروج الى مكان اجتماع الجيش في الجرن فبلغ ذلك محمدا وهو مريض فخرج الى المسجد وخطب المسلمين قائلا : أيها الناس انقلدوا بعت أسامة فلم يمرئ ثمن قتلتم في امارته لقد قتلتم في اماره أبيه من قبله وانه لخليق للامارة وإن كان أبوه لخليقا بها • (العرب)

(٢) رأى في منتهى السخف من المؤلف إذ لم يكن النبي الذي آمن الناس برسائله والذي عظمت « الشهادة » في نظرهم من أقواله بحاجة الى التظاهر بأنه من الشهداء ، ولكنها محاولة أخرى من المؤلف لتشويه التاريخ الاسلامي ، أما القصة الحقيقية كما تروىها كتب السيرة وفي مقدمتها سيرة ابن هشام فهي على النحو التالي :

اجتمع الى النبي عدد من نساء ونساء من المسلمات ومنده عنده العباس فأجمعوا ان يلدوه (يجعلوا الدواء في شق فمه) ، وقال العباس لالدته فلدوه فلما أفاق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال من صنع هذا بي قالوا : يا رسول الله عمك ، قال هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض وأشار نحو أرض الحبشة قال ولم فعلتم ذلك ؟ فقال عمه العباس خشيئا يارسول الله أن يكون بك ذات الجنب فقال : ان ذلك لداء ما كان الله عز وجل ليقلدني به لا يبق في البيت أحد الا لد الأعمى ، ولقد لدت سيمونة وانها لصائبة عقوبة لهم بما صنعوا به • (العرب)

واشتدت وطأة الحمى على النبي ولما انقضى اسبوع على مرضه وأدرك أن حالته الصحية آخذة في السوء قرر أن يخطب الناس فطلب أن يصبوا عليه الماء البارد لتهدئ الحمى المحرقة التي كان يشكو منها ثم خرج من بيته متكئا على صاحبيه وتحلث إلى الناس مدافعا عن تعيينه اسامة أميرا على الجيش . ولكن الجهد الذي عاناه من الاستحمام بالماء البارد ومن القاء الخطاب زاد من حالته سوءا وعجز في اليوم التالي عن القيام من فراشه . وراح يصدر أمره بصوت خافت إلى أبي بكر ليؤم الناس في الصلاة . وكان أبو بكر غائيا ذات يوم فلم يدر بن الخطاب الناس في الصلاة فلما سمع صوته وتميزه اذ كانت غرفة عائشة تطل على المسجد هتف النبي قائلا ماين أبو بكر ؟ يأتي الله ذلك والمسلمون» (١)

وساعت حال النبي الصحية كل السوء في اليوم العاشر من مرضه . وكان كثيرا ما يفيب عن الوعي وتضعفه الحمى التي كانت تلهبه . وفي صباح اليوم التالي وكانت أبو بكر يؤم الناس في صلاة الفجر خرج النبي إلى باب غرفة عائشة ووجهه مشرق . ومشى وتيدا إلى الامام متكئا إلى رجلين إلى أن وصل إلى جانب أبي بكر فجلس واشترك في الصلاة وانفض الجمع فرحين وقد ظنوا أن النبي قد ابل من مرضه . وعاد وتيدا الخطي إلى حجرة عائشة .

لكن هنا الجهد الاخير الذي بذله كان نتيجة الصعوبة التي تسبق

(١) تقول الرواية التي أوردها كتب السيرة أن الجميع اشتد بالرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال هريقوا على سبع قريب من آبال حتى يخرج إلى الناس فأهد اليهم فاقعدوه في مخضب لحفصة بنت عمر ثم صبوا عليه الماء حتى طلق يقول : حسبكم حسبكم .

• وخرج الرسول يمشي بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس والانيهما على بن أبي طالب .

• أما قصة صر قهروها كتب السيرة على النحو التالي : أمر النبي بأن يصلى أبو بكر بالناس فقالت له عائشة زوجة وابنة أبي بكر : يا نبي الله ان أبا بكر رجله رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن . قال : مروه فليصل بالناس فكررت ما قالته فقال : اتكن صواحبي يوسف قهروه فليصل بالناس .

وروى عبد الله بن زمة انه كان عند النبي في نفر من المسلمين فأتى بلال إلى الصلاة فقال مروا من يصلى بالناس فخرجت فإذا صر في الناس وكان أبو بكر غالباً فقلت قم يا عمر فصل بالناس فقام فلما كبر سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صوته وكان عمر رجلاً سحيراً ، فقال : أين أبو بكر يأتي الله ذلك والمسلمون يأتي الله ذلك والمسلمون . (التاريخ)

«لوفاة لا الشفاء من العلة وتمادى الى فراشه متعبا فاستلقى عليه وقد أصبح عاجزا عن الحركة واستجمع قواه فجأة وطلب بعض الماء ليبلل وجهه به ثم هتف قائلا « . بل الرفيق الأعلى فى الجنة » .

لاحظت عائشة فجأة أن رأس الرسول قد ثقل فى حجرها فذهبت تنظر فى وجهه فإذا بصره قد شخص . لقد مضى نبي العرب الى الرفيق الأعلى .

تواريخ بارزة

فبراير (شباط) ٦٢٧	حصار المدينة
فبراير (شباط) ٦٢٨	صلح الحديبية
صيف عام ٦٢٨	عقد الصلح بين الروم والفرس
فبراير (شباط) ٦٢٩	حج المسلمين الى مكة
سبتمبر (ايلول) ٦٢٩	معركة مؤتة
يناير (كانون الثاني) ٦٣٠	فتح مكة
ربيع عام ٦٣٠	موقعة حنين
سبتمبر (ايلول) ٦٣٠	غزوة تبوك
يونيو ٦٣٢	وفاة النبي

شخصيات بارزة

صهر النبي	عثمان بن عفان
الصحابي الثاني بعد أبي بكر	عمر بن الخطاب
ولدا على وفاطمة وحفيدا النبي	الحسن والحسين
من قادة قريش العسكريين الذين تحولوا الى الاسلام	خالد بن الوليد
من أمناء سر النبي بعد فتح مكة	عمرو بن العاص
عم السبي	معاوية بن أبي سفيان
	عباس بن عبد المطلب

الردة

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم »

القرآن الكريم - سورة المائدة

« ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

القرآن الكريم - سورة البقرة

عندما ظهر النبي صبيحة يوم وفاته مبتسما مشرق الوجه وقت أداء صلاة الفجر اعتقد أبو بكر أنه قد ابل من سقامه وطلب منه أن يسمح له بقضاء يومه ذاك في واحة بعيدة . وهكذا كان عمر بن الخطاب أول صحابي بارز وصل الى جانب فراش النبي فرفع الغطاء عن وجهه وتطلع الى وجه نبيه . وكان عمر قد قضى سنوات طويلة وهو يكاد يحب محمدا الى درجة العبادة . ولذا فقد عجز تفكيره للوهلة الاولى عن تقبل فكرة وفاته وراح يسرع بالخروج من حجرة عائشة الى باحة المسجد حيث اجتمع القوم ليعلم لهم بصوته الجمهوري أن محمدا لم يميت . وراح يقول . . . أو لم يقض موسى أربعين يوما في الصحراء مع ربه على الجبل بينما ظن بنو اسرائيل أنه قد مات . وعاد يؤكد أن محمدا سيعود فيقطع أيدي من قالوا بموته وأرجلهم . وظل عمر وهو متأثر بالصدمة التي أصابته يردد هذه الاقوال المتحمسة باستمرار .

ووصل أبو بكر وهذا المنظر المحموم في عنفوانه وبضى يعبر فناء المسجد حيث كان عمر يخطب الناس متجها الى غرفة عائشة وركع الى جوار نبيه المتوفى ورفع الغطاء عن وجهه النبيل وقبله . وعندما تأكد من أن النبي قد انتقل الى الرفيق الاعلى أعاد الغطاء الى وجهه وخرج الى الفناء المكتظ بالناس . ولما رأى ان عمر يرفض أن يصمت ، مضى أبو بكر الى ناحية من الفناء وأخذ يخطب في بعض الناس قائلا : أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ، ثم راح يتلو الآية الكريمة . . . وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين . . . وأعادت كلمات أبي بكر الهادفة الرصينة عن الى صوابه ونفذت الحقيقة المؤلمة الى تفكيره أول مرة فأغرق في صمت عميق .

ولم يكد هذا المنظر العنيف ينتهي حتى جاء رجل الى أبي بكر سراعا يقول له ان الانصار من أهل المدينة قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة وانهم يفكرون في اختيار سعد بن عبادة زعيم الخزرج خليفة للنبي ولم تكن قد انقضت ساعة على وفاة النبي حتى كاد الصراع على السلطان يهدد بشيطار المسلمين الى فثات وشيع . وأسرع أبو بكر الهادى وعمر

الحاد المزاج الى السقيفة ليواجهها التحدى الجديد . ورافقهما أبو عبيده بن الجراح الرقيق الطبع والواسع الحكمة ، وهو من الصحابة الاوائل الذين سنسمع عنهم كثيرا فيما بعد .

وكان الانصار قبل نحو من عشر سنوات قد رحبوا بالنبي الذي اضطهده قومه في مدينتهم وقدموا له النصره التي حمته من عشيرته ولكنه ما لبث ان تقوى سلطانه واتسعت شهرته واخذ اعتماده على صحابته من قريش يزداد يوما بعد آخر . ووجد الانصار انهم بعد أن كانوا حماة الاسلام والمسلمين قد انقلبوا فجأة الى مركز ثانوى في مدينتهم ولكنهم لم يجهروا بأى نقد فى حياة النبي فلما سمعوا بوفاته قرر الاوس والخزرج أن يخلعوا عنهم سلطان قريش قائلين : « منا أمير ومنهم أمير ولن نرضى بدون هذا » (١) ورأى أبو بكر الرجل الوديع الهادى الذى

.. في الرواية بمعنى التحريف .. فقد ذكرت كتب التاريخ الاسلامى .. ان الانصار اجتمعوا في سقيفة بنى ساعدة وكان نظرم متوجها الى اختيار سعد بن هبادة وقام سعد لخطب فيهم مبينا ما للانصار من الفضل والسبق الى حماية رسول الله واله لا ينبغي أن ينزعهم في هذا الامر احد فأجابوه أصبت ووقفت ثم تراءوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فان أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأوليائه لماذا تقول لهم فقال له آخر تقول منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لا سمعها ... هذا أول الوهم .

ونقل السيوطى في كتابه تاريخ الخلفاء عن عمر بن الخطاب قوله .. اجتمع المهاجرون الى أبى بكر فقلت له .. يا أبا بكر انطلق بنا الى اخواننا من الانصار فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلا من اخواننا من الانصار فقال : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قلت نريد اخواننا من الانصار فقال : عليكم الا تقرّبوهم واقفوا أمركم يا معشر المهاجرين ؟ قلت : والله لنأتينهم فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بنى ساعدة فإذا هم مجتمعون وإذا بين ظهرانيهم رجل مؤمل فقلت : من هذا ؟ قالوا سعد ابن هبادة فقلت : ماله ؟ قالوا : وجع فلما جلسنا قام خطيبهم فأتى على الله بما هو أهله وقال : أما بعد فنحن انصار الله وكتيبة الاسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دلت دافة منكم تريدون أن تختزلونا من أصلنا وتحضنونا من الامر . فلما سكوت أردت ان أتكلم وقد كنت زووت مقالة أمجيتنى أردت أن أقولها بين يدي أبى بكر وقد كنت أدارى منه بعض الحد وهو كان أحلم منى وأوفر فقال أبو بكر : على رسلك فكرحت أن أفصحه وكان أعلم منى والله ما ترك من كلمة أمجيتنى في تزويرى الا قال في يدهته مثلها وأفضل حتى سكوت فقال : أما بعد لما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهله ولم تصرف العرب هذا الامر الا لهذا الحى من قريش هم أوسط العرب نسباً وداراً وقد وضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيما شئتم فأخذ يسدى ويبدى أبى عبيدة ابن الجراح .

٢٠٠٢

أثقلت سنواته الستون ظهره انه يواجه أزمة من أخطر الازمات تهدد المجتمع الاسلامي بالفوضى وقد واجهها بمنتهى الهدوء والوقار فقال : « يا معشر الانصار أما بعد فما ذكرتم فيكم من خير فانتم أهله ولم تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحى من قريش » .

وارتفع صوت يقول : « لا • لا • لا • هذا لا يجوز منا أمير ومنكم أمير •• » وساد السقيفة هرج ومرج وأصبحت القضية معلقة في كفة القدر وازدادت الفوضى •

ورد أبو بكر قائلاً •• بكل تصميم : « لا • لا • نحن أوسط العرب نسباً وداراً •• نحن الامراء وانتم الوزراء وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم وأشار الى رفيقيه عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح •

وقال عمر : « لا والله لا نتولى هذا الامر عليك • يا معشر الانصار الستم تعلمون أن رسول الله قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس فأياكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر •• لا والله انك أفضل المهاجرين وثاني اثنين اذ هما في الغار • أبسط يدك لتبايعك ومد عمر يده اليه فبايعه •

وبينما كان هذا الاجتماع الصاخب قائماً كان هناك نفر آخر من المسلمين وبينهم بعض المكيين قد انضموا الى الاجتماع وقد سارعوا بعد سماع كلام عمر الى السير على منواله ، وليس ثمة من ريب في أن أبا بكر بما عرف عنه من ولاء للنبي ومن بساطة في طبيعته كان موضع الثقة من الجميع ، وسرعان ما تحولت عواطف المجتمعين كلهم الى جسانبه وهب الانصار أنفسهم يبايعونه • وهكذا انتهت الازمة ولكنها كانت أزمة خطيرة حقاً • ولم يحضر على بن أبى طالب أقرب الناس الى النبي وصهره وابن عمه هذا الاجتماع ، اذ تخلف في حجرة عائشة يعد جثمان النبي لدفنه • ويزعم بعض مؤرخى العرب ان علياً لم يرض عن استخلاف أبى بكر اذ انه كان يبغى الخلافة لنفسه • وقد تأخر عن البيعة ستة أشهر ومعه بعض بنى هاشم • ولم يكن أبو بكر ينتمى الى أى من البيتين المتنافسين من قريش وهما بنو هاشم وبنو أمية وانما ألى بطن آخر أقل أهمية من بطون قريش •

وثار خلاف حول المكان الذى يدفن فيه الرسول الى أن أصدر أبو بكر أمره بدفنه فى المكان الذى توفى فيه أى فى حجرة عائشة •

م ١١ و ١٢ الفتوحات العربية الكبرى

وكان محمد قد غدا في السنتين الاخيرتين أو السنوات الثلاث الاخيرة من حياته أبرز رجل في شبه الجزيرة العربية كلها ولكنه ظل بعيدا عن أن يصبح حاكما بالمعنى الصحيح للكلمة فلقد ظل ولاء الفرد العربى لعشيرته وقبيلته قبل ولاءه لأى شىء آخر . ولم تكن الجزيرة العربية ولا الحجاز أيضا قد عرفت بعد نظام الحكومة التى تقوم فوق القبائل بعد . وقد ترغم قبيلة من القبائل على الطاعة اسما لجار قوى لمدة سنة أو سنتين ولكن القبائل العربية لم تكن لترغب فى أن تتخلى عن سيادتها لهذا النظام الجديد : وحرى بنا أن نذكر هنا ان المسلمين ظلوا يواصلون الاغارة على القبائل العربية طيلة حياة النبى . وقد قاد الرسول نفسه فى غزوة تبوك عدة ألوف من المحاربين ولم يكن فى وسع أية قبيلة بدوية الفت حياة التنقل فى الصحراء بحثا عن المرعى أن تحشد بصورة عملية مثل هذا العدد الضخم من المحاربين للقتال . والبدوى عملى فى دبلوماسيته وهو يعرف ما يتحتم عليه أن يعمل به وما لا يتحتم . وكان من الاسهل على القبائل البدوية فى مثل هذه الظروف التى وجدت نفسها فيها أن توفد بعوثها الى المدينة للوصول الى تفاهم مع المسلمين . ولم تكن الشروط التى يفرضها النبى ثقيلة أو صارمة فعلى العربى أولا أن ينطق بالشهادتين . وكان معظم القبائل يدين بالوثنية وكان البعض منها يدين اسما بالنصرانية ويبدو أنهم لم يكونوا ينظرون الى النصرانية نظرة جدية اذ انها كما يبدو لم تفلح فى تغيير عاداتهم التى نشئوا عليها منذ أقدم عصور التاريخ وفى مقدمتها الغزو والنهب والشعر والثار . ولم يكن مثل هؤلاء الناس ليجدوا أية مشقة فى تكرار الشهادتين ، لكن الصعوبة الحقيقية مثلت امامهم فى الضريبة التى فرضها عليهم النبى وهى الزكاة . فالقبائل شديدة التعلق باستقلالها والزكاة لا تعنى بالنسبة الى البدوى مجرد عبء مالى بل تعنى أيضا الخضوع وهو ما يحس البدوى بمرارته ، فليس للبدوى من هدف فى حياته الا الامجاد التى لا تتحقق له الا فى الغزو والنهب والا أعمال الجود والكرم الخيالية وكلها يخلدها البدوى فى شعره . ولقد كان عصر الجاهلية أشبه ما يكون بعصر هوميروس فى شعره وفى تفاخره . وكان فى وسع أبى بكر أن يزهو بأن قريشا هى « أوسط العرب حسبا ونسبا » ولكن البدوى لم يكن ليرى فى قريش الا جماعة من سكان المدن أى من التجار .

وإذا ما استثنينا فرض الشهادتين ودفع الزكاة فإن النبى لم يكن فى الواقع قد استطاع أن يحكم العرب حكما دينويا فعليا . فلم تكن لديه حكومة أو موظفون أو شرطة أو سجلات . وكان اذا ما أراد القيام

بغزوة أو غارة • دعا المسلمين الى القتال • وكان جزاء المحارب حصة في اقتسام الغنائم • وهكذا كان شيوخ القبائل يعودون من زياراتهم الى المدينة دون أن يفقدوا شيئاً من استقلالهم ومع ذلك فقد كان بدو الحجاز ونجد قد باتوا الى حد كبير تحت تأثير المسلمين • أما في المناطق النائية في عمان وحضرموت واليمن فان النبي لم يمارس أية سلطة دنيوية فعلية أو مارس مجرد سلطة ضئيلة •

ولم يكد نبأ وفاة النبي ينتشر في أطراف الجزيرة العربية حتى كانت غالبية القبائل قد حزمت أمرها على وقف دفع الزكاة • وقد عرفت هذه الحركة في التاريخ الاسلامي بعهد الردة • لكن الواقع على أي حال ان من المشكوك فيه أن تكون نسبة من اعتنق الاسلام من أهل الجزيرة العربية كبيرة ، فلقد فرضت شخصية محمد على العرب الاعجاب والاحلال والمهابة • أما وقد انتقل محمد الى الرفيق الاعلى فقد خيل للقبائل ان هذا الحدث قد انتهى وان في وسعها أن تعود الى حياتها في الجاهلية (١) •

وسبق لنا أن ذكرنا ان جيش أسامة بن زيد ابن النبي بالتبني كان قد تاهب للخروج الى حدود الروم للثأر من مؤتة • وكان وضع أهل الردة من الخطورة كبيراً بحيث حمل حتى عمر صاحب المزاج المتحمس على أن يوجه النصيح الى أبي بكر بالعدول عن إفساد جيش أسامة ، وأن يحشد قوات المسلمين في المدينة لمواجهة جميع التطورات • ولكن هذا الانسان الهادئ الوداع ظهر الآن فجأة بمظهر صاحب العزيمة الصادقة والتصميم المطلق اذ رد على عمر قائلاً : « عذمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله (صلعم) وتأمرني أن أنزعه » وخرج أسامة من المدينة بجيشه فخلت من المحاربين وأحاطتها القبائل المهادية من كل جانب • وخرج أبو بكر نفسه الى ظاهر المدينة الى المكان الذي يربط فيه جيش أسامة على بُعد عدة أميال منها لوداع الجيش وسار الى جانب أسامة يتحدث اليه • وهتف القائد الشاب بالخليفة : « أما أن تركب أو أنزل الى جانبك » فرد الخليفة المهيب باصرار قائلاً : « لا • لن أركب • فسأسير في طاعة الله » ثم أوصى جيش أسامة وودعه وعاد الى المدينة (٢) •

(١) يؤكد المؤرخون العرب أن كثيرين من أمراء البادية في نجد واليمن لم يكونوا قد تألوا بعد بالاسلام • ولم ترك نفوسهم الزكاة المطلوبة • وقد بين الكتاب ذلك بقوله في سورة الحجرات • • « قالت الامراء آمننا فل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولا يدخل الايمان في قلوبكم • »

(٢) تجاهل المؤلف وصية أبي بكر لجيش أسامة مع انها تضع القواعد التي =

وفى غضون ذلك أخذ خطر جديد يبرز مائلا يهدد المدينة فقد استفز ما وصل اليه محمد من سلطان عن طريق النبوة ، عددا من الاعراب على ادعاء النبوة ، وقام طلحة شيخ قبيلة بنى أسد الوافرة العدد والمرابطة فيما يسمى اليوم بجبل شمر في شمال نجد بادعائها . وقد تحول اسم طلحة في التاريخ الاسلامى الى طليحة استصغارا لشأنه لأنه ادعى النبوة لنفسه . والى الشرق من ذلك المكان قام دعى آخر للنبوة اسمه مسلمة . أطلق عليه المسلمون أيضا اسم مسيلمه تصغيرا له . وجاءت الانباء فى الوقت نفسه من كل مكان من أطراف الجزيرة العربية تقول ان الموت على أيدي الاعراب كان مصير معظم جباة الزكاة الذين كان النبي قد أوفدهم قبل وفاته للجباية وان بعضهم نجا من هذا المصير بأعجوبة .

وقد اكتفت القبائل البعيدة عن المدينة بطرد الجباة أما القبائل القريبة منها فقد خافت هجوم المسلمين ، اذ لم تبادر هي الى مهاجمتهم . ويبدو ان قبيلتي عبس وذبيان وكانتا تقيمان الى الشمال من المدينة كانتا أول من سارع الى العمل اذ حشدتا رجالهما فى مكان يدعى ذى القصة ويقع على بعد ثلاثين ميلا الى الشرق من المدينة (١) . وبعثتا بالرسول الى أبى بكر يعرضون الدخول فى الاسلام شريطة الغاء الزكاة . ولو كان أبو بكر من الساسة الماكرين لقبل العرض أملا فى كسب الوقت حتى يعود جيش أسامة من حملته فى الشمال ولكن أبا بكر أعاد الرسل قائلا : والله لو منعوني عقالا أو عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله عليه الصلاة والسلام لقاتلتهم على منعها .

ولم تمض أيام ثلاثة حتى كان بعض البدو يفرون على مشارف المدينة ولكن القلة من محاربى المسلمين الباقين فى المدينة تمكنت من

« اتبعها المسلمون في حربهم وهي قواعد تمثل النبل والتسامي اللذين ود المؤلف الا يطلع قراءه من الغربيين عليهما ليبقى على الصورة المشوهة التي ارادها وهذا نص الوسية : لا تخونوا ولا تفلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تقتلوا سفيرا ولا تأكلوا من ثمره ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لما كلكه وسوف تمررون بأقوام فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم ياتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فلاذكروا اسم الله عليها ، وللقوم اقواما فحسبوا أوساط دوسهم وتركوا حولها مثل المصائب فاختفواهم بالسيف خفا يدلفها باسم الله . (١) اسم المكان الريدة والابرق . وقد أقام لهما أبو بكر أياما بعد أن جلب مبسا وذبيان .

(العرب)

سدهم وتشيتيت شملهم • وبدا ان الخليفة الهادي الوديع قد انقلب الى
أسد مزير • فقد سارع يحشد كل رجل يمكن له أن يحشده ويستطيع
أن يحمل السلاح وخرج بقوته في ظلمة الليل من المدينة ليدهم بها
معسكر الاعداء في ذى القصة عند الفجر ، وعلى الرغم من أن البدو كانوا
يقضون حياتهم في الحروب المستمرة الا انهم كانوا يفتقرون الى النظام
العسكري أو الى الحيوية اللذين يفرضان عليهم أن يضربوا الحرس
والارصاد خارج مخيماتهم • وهكذا كان الهجوم مباغتاً لهم كل البغته
وسرعان ما ساد الاضطراب صفوف البدو ففروا لا يلوون على شيء من
موقعهم ليضيعوا في بطن الصحراء ، وبدا ان عنصراً جديداً قد أدخل
على مألوف العرب في الحرب وهو عنصر الحيوية والاندفاع الصارم •

وعاد أسامة على رأس حملته في سبتمبر (ايلول) عام ٦٣٢ بعسده
غياب شهرين عن المدينة يسسوق قطعانا من الابل والاغنام التي غنمها
المسلمون وان كانت التفاصيل التي وصلت الينا عن العمليات الحربية
التي قام بها قليلة للغاية (١) ويبدو أنه اغار على قبائل البدو لا على قوات
الروم • ولم يكده الخليفة الذي لا يكل ولا يمل برغم بلوغه الستين من
عمره يشعر بالاطمئنان على المدينة حتى راح يقود قواته متجاوزاً بها ذى
القصة ليهاجم عبسا وذبيان من جديد ، وقد رابطتا على بعد ثلاثين ميلا
الى الشرق منزلا بهما هزيمة جديدة • وبرهن أبو بكر الهادي الوديع
بصورة غير متوقعة على أنه قائد لا يقل اندفاعاً عن النبي • ومما يذكر
ان عندا كبراً من المسلمين اتوا أبا بكر ينادونه ألا يعرض نفسه
قائلي : « انك ان تصب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو
فابعث رجلاً فان أصيب بعثت بآخر » فقال : « والله لا أفعل ولا واسينكم
بنفسى » •

ويقول المؤرخون العرب ان أبا بكر حشد بعد رجوع جيش أسامة
احدى عشرة سرية تعمل كل منها وفي الوقت نفسه في جهة من الجهات
لكفاح المرتدين لكن اذا صح ما قيل وان هذه الفكرة قد جالت في خاطر

(١) يقول السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » نقلاً عن ابن هزيمة ان جند
أسامة لقوا الروم فهزمهم وتخلوهم ورجعوا سالمين ، ويقول الخضرى ان أسامة شن
الغارة على بلاد قضاة في شمال الجزيرة وكانت محببة للروم وأخافهم وغنم منهم
واستمر في بعثته أربعين يوماً ثم عاد وكان هذا البعث مفيداً للمسلمين لان أعداءهم لم
تساموا به قالوا لو لم يكن للروم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد منهم من
القبائل القوية • (العرب)



الخليفة فانه لم يتم بتنفيذها على أى حال فقد اتبع الخليفة الطريق المعقول الصحيح وتمكن من اخضاع القبائل الثائرة واحدة بعد أخرى . وكان المنهزمون من عبس وذبيان قد تراجعوا شرقا فى غضون ذلك وانضموا الى طليحة النبی الکذاب فى جماعته من بنى أسد وحشد أبو بكر كل ما أمكنه جمعه من محاربى المسلمين وأقام لهم معسكرا فى ذى القصة . ووجه أبو بكر فى غضون ذلك رسالة الى المرتدين والعصاة قال فيها بعد أن بدأها باسم الله وذكر الرسالة والوفاة وبعد أن ذكر قوله تعالى : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه افنتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا » راح يقول وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه ، أقر بالاسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره واجابة للشيطان ثم قال انه قد بعث اليهم بجيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بأحسن وأنه قد أمره بالآيقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوهم الى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى فقد أمره أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم شر قتلة ، وان يسبى النساء والذراري ولا يقبل من أحد الا الاسلام .

وكل أبو بكر أمر القيادة العامة الى خالد بن الوليد أكثر محاربى المسلمين دراية بشئون الحرب والذي حقق لقريش نصرها فى أحد وحقق للمسلمين انسحابهم الناجح فى مؤتة وهنا لا بد من أن نبين المفارقة بين أسلوب أبى بكر وأسلوب النبى فى الحرب فقد عهد النبى قبيل وفاته بقيادة الحملة الى الشمال الى أسامة بن زيد الذى لم يتجاوز العشرين من عمره رغبة منه فى أن يثار الولد لأبيه الذى استشهد فى مؤتة والذي كان النبى قد رباه . ومن هذا يبدو لنا ان اختيار النبى لقيادة هذه العملية الحربية استند الى أسباب عاطفية مجردة ، وهى الرغبة فى الثار وتعلقه بذكرى ربيبه لا لأسباب عسكرية عملية تتعلق بالكفاية . ومن الصحيح أن يقال ان الجانب العاطفى من شخصية الرسول قد مكنه من أن يجمع قلوب أتباعه حوله ولكن الحرب فى حد ذاتها مهنة عملية صارمة لا شأن للعاطفة فيها . وكان خالد بن الوليد قد اشترك فى جيش أسامة كجندي عادى فى صفوف المحاربين ولكنه ما كاد يعود ، ويصبح أبو بكر حرا فى اتخاذ قراراته ، حتى عهد الى أكثر قادته العسكريين تجربة ودراية بتولى قيادة قواته الرئيسية .

وسار خالد من ذى القصة على رأس جيش قوامه نحو من أربعة آلاف جندي الى نجد ، بعد أن وافق أبو بكر أخيرا على العودة الى المدينة

وتقدم خالد يطلب محاربة طليحة وقومه من بنى أسد الذين احتشدوا في بزاعة ، وهو ماء لقبيلة طيء بأرض نجد . وكانت قبيلة طيء قد انضمت الى طليحة في عصيانه ، فلما علمت بمسيرة خالد اليها جاءت مستسلمة - وهذه القبيلة هي التي اشتهر أمرها في الجاهلية بكرم شيخها حاتم الذي أصبح مضرب الامثال . وعسير علينا في هذه الايام أن نكتشف المواهب التي جعلت من طليحة رجلا يستطيع ادعاء النبوة فتلفت حوله قبائل عدة وذلك لان مؤرخي العرب أضفوا على اسمه صورة ناطقة بالهزم والسخرية ولعلنا نستطيع الحصول على الصورة الصادقة عنه من عينيه شيخ غطفان ، الذي انضم اليه برجاله ، وقال قبيل المعركة يرد على بعض من عاب عليه هذا الانضمام . . « انه نبى منا ونبى منا خير من نبى من قريش ناهيك عن ان محمدا قد مات وان طليحة حي يرزق » (١)

ولم ينقل اليينا مؤرخو المسلمين صورة عن معركة بزاعة (٢)

(١) دوى البلاذرى في كتابه فتوح البلدان أن عيينة بن حصن بن حذيفة كان مع طليحة على رأس سبعمائة من بنى فزارة من غطفان ، فلما رأى سيوف المسلمين قد استلحمت المشركين في بزاعة أتاه فقال له : اما ترى ما يصنع جيش أبى الفضل ؟ لعل جامله جبريل بشيء ؟ قال : نعم . جاءنى فقال ان لك رجا كرحاء ويوما لا تنساه فقال عيينة ارى ان لك يوما لا تنساه ، يا بنى فزارة هذا كذاب ، وولى من مسكره فانهم الناس . ومن هنا يظهر أن انقلاب عيينة لم يكن عن انتهاز كما حاول المؤلف ان يقول وإنما كان من ظهور الحقيقة له وظهور كذب طليحة وشتان بين الانتهاز والرجوع الى الحق .

(٢) لقد تحدث مؤرخو العرب كثيرا عن معركة بزاعة خلافا لما يقوله المؤلف فقد دوى السيوطى في تاريخ الخلفاء ان ابا بكر بعث خالدا وأمره ان يقاتل الناس على خمس ، من ترك واحدة منها قتله كما يقاتل من ترك الخمس جميعا ، وهي شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله واقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت . ودوى البلاذرى في كتابه فتوح البلدان ان ابا بكر عقد وهو بلى القصة لخالد بن أوليد على الناس وجعل على الانتصار ثابت بن قيس وهو احد من استشهد يوم اليمامة الا انه كان من تحت يد خالد وأمر خالدا أن يصعد لطليحة الاسدى وكان قد ادى النبوة وهو يومئذ ببزاعة ، فسار اليه خالد وقدم أمامه عكاشة بن محصن وثابت بن ارقم فلقبهما حبال بن خويلد فقتلاه ، وخرج طليحة وسلمة اخوه وقد بلغهما الخبر ، فلقيا عكاشة وثابتا فقتلتهما ثم التقى المسلمون وعدوهم واقتتلوا قتالا شديدا ، ثم وقعت حادثة عيينة (رويتها قبل قليل) وانهم طليحة وظهر المسلمون وأسر عيينة بن حصن فقدم به المدينة فحقن أبو بكر دمه وخلق سبيله ، أما طليحة فقد فر واثى خالد بن رمان وابانين ، وهناك قتل بزاعة فلم يقاتلوه وباعوه لابی بكر ، وبعت بهشام ابن العاص الى بنى عامر بن صعصعة فلم يقاتلوه وظهروا الاسلام والاذان فانصرف عنهم . ثم قصد خالد إلى النمر وهناك جماعة من بنى أسد وغطفان وغيرهم وعليهم خازجة بن حصن فقاتلوا المسلمين وقتل منهم جماعة وانهمزوا بالقون . (العرب)

ويكفي أن نقول انه لما بلغت بوادر الهزيمة على بني أسد انسحب عيينة برجاله من غطفان من المعركة فانهارت مقاومة بني أسد وفروا وهرب طليحة مع أسرته الى سوريا (١) ثم عفا عنه الخليفة أخيرا بعد أن أسلم وحسن اسلامه وأبلى بلاء حسنا في حرب الفرس . ويبدو أن الرجل كان كغيره من البدو خفيف الظل حاضر النكتة . فقد حدث أن مر بالمدينة في خلافة عمر بن الخطاب وقال له الخليفة مؤنبا اياه على قتل أحد شهداء المسلمين ابان حروب الردة . . . اقتلت العبد الصالح عكاشه بن محصن ؟ فرد طليحة بهسوء : « ان عكاشة بن محصن سعد بن وشقيت به وأنا أستغفر الله » (٢) وقال عمر : « انت الكاذب على الله حين زعمت انه أنزل عليك ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أديباركم شيئا فاذكروا الله أعفة قياما فان الرغوة فوق الضريح » فقال : يا امير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذي هدمه الاسلام كله فلا تعنيف على ببعضه فأسكت عمر .

وبعد أن تمكن طليحة من الفرار استسلمت بنو أسد فترك استسلامهم وانتصار المسلمين أثرا معنويا ضخما في القبائل فسارع بنو سليم وهوازن الى الاستسلام ودفع الجزية . وقد عفا الخليفة عن غالبية العصاة الا من عرف بأنه قتل مسلما ابان الردة فقد أنزل الخليفة به العقاب على أساس العين بالعين والسن بالسن . وقد أحرق بعض هؤلاء وهم أحياء ، ورجم بعضهم بالحجارة أو قذف به في هوة أو صرع بالنبال .

وكانت تعيش الى الجنوب الشرقي من أسد وغطفان قبيلتا تميم وبني حنيفة وما زال بنو تميم يعيشون في هذه المنطقة ويعدون خلقا كبيرا في واحاتها حتى يومنا هذا وإن كان بعضهم قد ارتحل الى العراق حيث أقام الى الغرب من بغداد أما بنو حنيفة فكانوا أنصار مستيمنة الكذاب الذي ادعى النبوة وسارعت بطون عدة من بني تميم الى خالد بن الوليد تعلن اذعانها له الا بنو يربوع الذين كان على رأسهم مالك بن نويرة فقد أبوا ورفضوا الاستسلام .

(١) يقول البلاذري ان طليحة بن خويلد فر بعد معركة براخة فدخل خباء له فافتسل وخرج فركب فرسه وأهل بعمرة ثم مضى الى مكة ثم الى المدينة مسلمة وقيل بل الى الشام فآخذه المسلمون ممن كان غازيا وبثوا به الى أبي بكر بالمدينة فأسلم وأبلى بعد في فتح العراق ونهاوند .

(٢) يبنى أسعدت عكاشة بقتلى اياه . اذ استشهد ومضى الى الجنة اما أنا فقد شقيت لان مصرى الى النار .

(المغرب)

وكان مالك من أبرز زعماء القبائل اذ اشتهر بالشجاعة والكرم وقول الشعر وهي صفات ثلاث كان العرب يعجبون بها أشد الإعجاب . ويبدو أن مالكا صعب عليه أن يذعن لخالد لأن في اذعانه انتقاصا من قدره فأمر رجاله من بنى يربوع بأن يتفرقوا وسار مع عائلته في الصحراء ينهب أرضها نهباً . وكان أبو بكر قد أصدر أوامره الى خالد بأن يختبر المرتدين بأن يطلب اليهم أداء الشهاداتين وأن يرقب سلوكهم عندما يدعو المؤذن الى الصلاة . ولهذا لم يكن هناك خطر كبير يهدد مالكا اذا رفض الاذعان لخالد شخصيا اذ لو أمسك به المسلمون فإن وسعته أن يتسلو الشهاداتين وأن يلبي نداء المؤذن الى الصلاة . ولكن خالدا أثر اتباع وسائل أكثر عنفا كما يبدو وبث سراياه مغيرة على القوم لجمع الهاربين وأخذ الغنائم منهم ، وجاءته احدى هذه السرايا بمالك بن نويرة وأهله على الرغم من ادعائهم الاسلام . واحتج بعض المسلمين على خالد لقسوته مع مالك وأهله ، ولكن احتجاجهم لم يجد فتىلا اذ أمر بحبسهم ، ثم أمر بقتلهم في الليل ، ولم تنقض أربع وعشرون ساعة على قتل مالك حتى كان خالد قد تزوج من امرأته .

ولم يكن ثمة أى خطأ في الزواج من أرملة عدو قاتل في المعركة وقتل . فلقد فعل النبي ذلك في خيبر بعد قتل كنانة زعيم اليهود اذ تزوج من امرأته صفية في نفس الليلة التي قتل فيها زوجها . ولكن كنانة لم يكن مسلما بينما قتل مالك بن نويرة وهو يدعى الاسلام ، ولا ريب في أن عمل خالد بزواجه فورا من امرأته الجميلة ليلى قد أثار الشكوك في أن مالكا قد قتل ليخلو الجوى للقائد الظافر (١) .

(١) كان هذا الحادث مثار القيل والقال منذ ذلك اليوم وكان معظم الذين حملوا على خالد من المؤرخين من أصل غير عربى للظن في خالد وتشويه سمعته . ولو كان خلؤه كما يحاول المؤلف ان يصوره من النوع الذى لا يشترط لما تسامح معه أبو بكر وهو الخليفة المؤمن الصادق في اسلامه . وقبل مناقشة المؤلف مناقشة كاملة اود ان اورد الحقائق كما جاءت في كتب التاريخ العربى . كان النبي قد أمر على بطون تميم امراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة ، فلما توفي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد الله عليه فأرسل الزكاة الى أبى بكر ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد في الامر . وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض وبينما هم على ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت الحارث . وكانت قد ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصارى ثعلب فهبطت بهم تريد غزو أبى بكر فلما قربت من ديار بنى تميم ، أرسلت الى مالك ابن نويرة سيد بنى يربوع ودعته الى المادعة فوادمها وثناها عن غزو أبى بكر وحملها على أن تغزو بعض الاحياء من تميم وهم الذين يخالفونه ، ثم أرسلت الى وكيع بن مالك .

وقد ثار أهل المدينة الذين كانوا قد اعترضوا فيما مضى على أعمال خالد الصارمة القاسية لقتل مالك ، وسارع أبو قتادة وهو من صحابة النبي الاوائل الى المدينة يشكو خالدا الى أبي بكر الذي استدعى خالدا ليرد على الاتهام (١) وألح عمر بن الخطاب الذي كان يجمع بين صرامة خالد وقسوته وبين بساطة أبي بكر وتعلقه بالدين الحنيف على الخليفة ليسرح خالدا من قيادته . وقد أنكر خالد عند مجيئه الى المدينة انه قد أمر بإعدام مالك . وأكد ان الحراس قد أساموا فهم أوامره . ومهما كان رأى أبي بكر - المتناهى في حكمته - في سلوك قائده فانه كان على ثقة من

«سيد بنى مالك بن حنظلة تدموه الى مثل مادعت ابن نورية فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأى تميم يدمون فسجعت لهم سجاح قائلة : أعدوا الركاب واستعدوا للنهب ثم أقمروا على الرباب فليس دونهم حجاب . فكانت بذلك خطوب في بطون تميم وبينما هم على ذلك اذ سمعوا بقدوم خالد بن الوليد في جيوشه فتفرقت جموعهم ومادت الى الجزيرة . وحينذاك ندم مالك بن نورية على ما فعل وتحر في أمره . وكذلك من فعل فعله معه من رؤساء تميم غير ان من عداه ندموا ندما ظاهرا وأخرجوا الزكاة وأرسلوها الى خالد . وأما مالك فوقف وأمر بنى يربوع أن يتفرقوا فلما ورد خالد البطح لم يجد أحدا فبث سراياه مشرة على القوم فجاءته بمالك في نفر من بنى يربوع فأمر بهم فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه . ولما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر ان في سيف خالد رهقا فان لم يكن هذا حقا حق عليه ان تقيده والحف عليه في ذلك . فقال أبو بكر هبه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك من خالد فبودى مالك وخدلان بنى يربوع عادت تميم كلها الى الاسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها الى أبي بكر .

من هذا التاريخ يمكن أن توجه الى مالك التهم التالية : (١) خيانة الامانة التي وكلت اليه وهي الولاية من رسول الله وخليفته من بعده (٢) مخالفة ركن أساسي من أركان الاسلام الخمسة وهي الزكاة لا بالنسبة الى نفسه فقط بل وبالنسبة الى كل من هم تحت أمره (٣) العصيان على الدولة ورفض الخضوع الى سلطانها (٤) الاعتراف بسجاح وهي نبية كاذبة والتعاون معها والانضمام اليها وفي ذلك ما فيه من مروق على الدين (٥) استخدام جيوش سجاح لمحاربة من ظل على صادق عهده مع المسلمين (٦) اتباع وسيلة العصيان المدني مع جيش خالد والهروب من أمامه عن طريق الاختفاء (٧) التظاهر بالاسلام من جديد .

كل هذه التهم لا تدفع وأقل عقاب لها من الناحيتين الدينية والدنيوية القتل ولقد اعتبر خالد مالكا من المشركين بل هو أشد جريمة من المشركين لانه مرء ولا عدة لمشرك أو كافر على زوجته ، ومن هنا جاز له أن يتزوج من امراته ليلة قتله . ولعله فعل ذلك لسبب سياسي كما ان رد أبي بكر وهو الحصيف الراى خير تبرئة له .

(العرب)

(١) سبق أن بينت في هامش سابق أن أبا بكر لم يأخذ بالاتهامات التي وجهت الى خالد ولذا فقد أبقاه على قيادته ولم يستدعه الى المدينة كما يقول المؤلف .

(العرب)

براعته في فنون القتال حتى انه قال لمنتقديه لن أشييم سيفاً سله الله على الكفار ، وقد قبل الخليفة مبررات خالد الذي تبسادل قبل خروجه من المدينة عائدا الى قيادته بعض العبارات الحادة مع عمر بن الخطاب وهي عبارات قدر لها أن تترك نتائج سيئة في السنوات التالية •

وكان الخليفة قد خول خالدًا في غضون ذلك أن يواصل تقدمه لمحاربة مسيلمة ورجاله من بني حنيفة الذين كانوا لا يزالون يشقون عصا الطاعة ويمتشقون الحسام • وكانت هذه القبيلة بطنا من بطون بكر بن وائل التي تعيش حياة الرعي في الصحارى الممتدة بين كئبان الدهناء الرملية وبين أدنى الفرات • وكان بعض بني بكر نصارى اسما على الاقل بينما كان البعض الآخر من عبدة الاوثان • أما الآن فقد وقف بطن بني حنيفة من قبيلة بكر الى جانب نبيهم مسيلمة وقفة صامدة وهو رجل ادعى النبوة حتى في حياة النبي ، ثم ما لبث ان ادعى بعد وفاة النبي ان محمداً قد رأى فيه سيماء النبوة •

وتقول الروايات ان مسيلمة كان قد كتب الى النبي في حياته يعرض عليه اقتسام العالم فيما بينهما اذ قال في رسالته : « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله • أما بعد فان لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قریشنا لا ينصفون والسلام عايك » ويقال ان النبي رد عليه قائلا : « من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين والسلام على من اتبع الهدى • »

وكان أبو بكر قد بعث في غضون ذلك النجدات من مكة والمدينة الى خالد الذي تقدم الى الامام زاحفا على العدو • والتقى الجيشان في منبطح رملي يدعى « عقربة » في اليمامة الى الجنوب الشرقي من نجد • وكان بنو حنيفة البادئين بالقتال فشنوا هجوما ضاريا في منتهى العنف على المسلمين حتى ان المسلمين انزاحوا عن مواقعهم • وتمكن البدو المتحمسون من اجتياح هذه المواقع وبينها خيمة خالد نفسه • ولكن المسلمين ما لبثوا ان تجمعوا ونظموا صفوفهم وكان زيد بن الخطاب أخو عمر يحمل راية المهاجرين ويتقدم صفوفهم الى أن استشهد بسيوف البدو وتقدم ثابت بن قيس ، يحمل راية الانصار على رأس رجاله الى أن استقبل الموت وسط صفوف الاعداء • وظلت المعركة سجالا بين أخذ ورد سلاحها السيوف • وزاد من حدتها هبوب رياح جنوبية تحمل الرمال فتسفع وجوه المسلمين وأخذ الانحلال يدب في صفوف بني حنيفة بعدة عدة ساعات من القتال ، ويبدو أن المعركة قد دارت في إحدى الواحات

الصغيرة والكثيرة في المنطقة اذ أن المنهزمين من بنى حنيقة ما لبثوا أن لجئوا الى حديقة نخيل مسورة واغلقوا على أنفسهم أبوابها . وأخيرا تمكن البراء ابن مالك وهو أحد المسلمين الأوائل من الانصار الذين بايعوا النبي تحت الشجرة وأبو دجانة وهو الذي حارب بسيف النبي في أحد من الصعود الى السور عند الباب على ظهور رفاقهم . وقفز الفارسان وسط صفوف العدو وراء السور فمزقت سيوفهم أبادجانة في لحظات . أما البراء فقد تمكن من الوصول الى الباب وفتحه . واقتحم المسلمون الباب كالعاصفة الجائحة . ودارت رحى معركة حامية الوطيس بالسيوف وسط أشجار النخيل التي تكتظ بها الحديقة . وكان بنو حنيقة يحاربون معركة يائسة اذ لم يكن لهم سبيل الى التراجع ولذا فقد قاتلوا وأظهروهم الى الأسوار . وأخيرا غلب المشركون على أمرهم وأبيدوا عن آخرهم .

وكان عدد الضحايا من المسلمين في هذه المعركة أيضا أكبر منه في أية معركة سابقة ولو حكمنا على المعركة على ضوء المقاييس الحديثة لتبين لنا أنها أول معركة جدية حقا اشتبك فيها المسلمون حتى ذلك التاريخ وانها أول مذاقه المسلمون من طعم الحروب التي قدر لهم أن يواجهوها . فلقد خسرت قريش في موقعة بدر تسعة وأربعين قتيلًا من مجموع ألف محارب وخسر المسلمون في موقعة أحد أربعة وسبعين شهيدا من مجموع سبعمئة مقاتل . أما في هذه المعركة التي سُميت بحديقة الموت فلقد قتل ان المسلمين خسروا نحو ألف ومائتي شهيد (١) . ولو افترضنا ان خالدا كان يقود خمسة آلاف رجل فان هذا العدد من الاصابات كبير للغاية لانه يشير الى عدد القتل ليس الا . ومن المحتمل أن يكون عدد الجرحى قد عادل هذا الرقم أيضا وبذلك تكون الاصابات خمسة آلاف ، وعلينا أن نعترف على أية حال بأن الأرقام التي يعدها المؤرخون العرب عامضة كل الغموض بحيث لا نستطيع الاعتماد عليها .

وقد قتل مسيلمة الكذاب نفسه في المعركة وكان وحشى قاتل حمزة عم النبي في معركة أحد هو الذي قتله . وكان وحشى قد تحول الى الاسلام كما تحول الكثيرون ممن يفوقونه منزلة ومكانة ، ولكن لم يكن

(١) اختلف مؤرخو العرب حقا في عدد من استشهد في المعركة فبينما يقول السيوطي ان عددهم كان لا يعدو السبعين . ذكر الطبري ان عدد القتلى من الفريقين بلغ عشرة آلاف وقال الواقدي ان عدد شهداء المسلمين بلغ ألفا ومائتين بينما قال غيره ان العدد بلغ ألفا وسبعمئة .

فى استطاعة وحشى هذا أن يدعى ان اسلامه قد حسن اذ انه ظل سكريرا
مدمنا حتى نهاية حياته • وتقول الروايات ان وحشيا عندما طعن فى
السن كان يعرض سهما على زائريه ويهتف قائلا بهذا قتل خير الناس
وشر الناس •

وكانت حراجة الوضع فى نجد قبل معركة اليمامة أو حديقة الموت
قد دفعت أبا بكر الى أن يبعث بامدادات قوية من المدينة الى خالد وكان
فى هذه الامدادات عدد كبير من المهاجرين والانصار الذين خاضوا غمرة
القتال مما أدى الى اصابة ومقتل عدد كبير من صحابة النبى ولقد كان بين
القتلى عدد كبير من حفظة القرآن ، وآياته حتى تلك اللحظة محفوظة فى
ذاكرات الصحابة أو فى كتف مكتوبة هنا أو هناك دونها بعض من يحسنون
القراءة والكتابة من العرب •

وكان بين شهداء المعركة زيد بن الخطاب شقيق عمر • ويقال انه
عندما أتاه ولده عبد الله الى المدينة بعد انتهاء المعركة راح يعنفه على بقائه
حيا بعد عمه زيد ويقال ان عبد الله رد على أبيه بأن عمه طلب الشهادة
فاستجاب الله له وانه هو أى عبد الله - طلبها ولكن الله لم يستجب
لطلبه •

وسار خالد بعد المعركة بجيشه الى الهجر عاصمة مسيلمة وأوفد
اليها أسيرا عنده من شيوخ بنى حنيفة ليطلب من أهلها التسليم ، وقد وعد
خالد بأن يوفر على الحنيفيين أرواحهم شريطة أن يأخذ كل ما يملكونه
وعاد الرسول ينقل الى خالد رد المدافعين مدعيا انهم يرون فى الشروط
قسوة لا يستطيعون قبولها وانهم قرروا تبعاً لذلك المضى فى القتال •
ورأى خالد فى الوقت نفسه حشودا من المسلحين تقوم على حراسة
الاسوار • وكان الرسول فى الواقع هو الذى رتب الامر فجمع الشيوخ
والنساء والاطفال وألبسهم الدروع والخوذ وطلب اليهم أن يصعدوا الى
الاسوار ليظهروا عليها • وخدع خالد بما رآه ووافق على أن يقبل
تسليمهم مقابل الحصول على سلاحهم وذهبهم وفضتهم ليس الا • وبيع
عدة ألوف من الاسرى كارقاء وبنى خالد بابنة شيخ بنى حنيفة مما أثار
عليه غضب الخليفة الذى أعرب عن عجبه من تفكير خالد فى الزواج ودماء
شهداء المسلمين لم تحف بعد (١)

(١) يقول البلاذرى ... وكانت الحرب قد نهكت المسلمين وبلغت منهم فقسال
مجماعة بن مرارة وهو أسير عند خالد من شيوخ بنى حنيفة لخالد : ان أكثر أهل اليمامة =

وأنهت معركة اليمامة التي دارت في ديسمبر (كانون الأول) عام ٦٣٢ ويناير (كانون الثاني) عام ٦٣٣ كل مقاومة في نجد ومن القبائل الحليفة لبني حنيفة ، وجاءت الوفود من كل مكان تعرض استسلام القبائل العاصية لخالد . وكان أبو بكر قد بعث برسالة الى خالد في غضون ذلك يأمره بقتل جميع الذكور البالغين من أبناء القبائل الثائرة . ومن حسن حظ هذه القبائل ان الهدنة كانت قد وقعت عندما وصلت الرسالة الى خالد ، وقد قدر لبني حنيفة أن يحاربوا بعد هذا التاريخ دفاعا عن الاسلام وأن يبلوا بلاء حسنا ولو قتل الألوف منهم تنفيذاً لأمر الخليفة بعد هزيمتهم لكان هذا العمل خاطئاً وخالياً من الرحمة .

ومن العسير علينا هنا أن نحلل الدوافع التي حملت أبا بكر الوادع الهادئ على أن يبعث بمثل هذا الأمر الخالي من الشفقة ولكن أكثر إيضاح قريب للعقل هو أن أبا بكر كان مخلصاً كل الإخلاص للنبي . ولقد سبق لنا أن رأينا كيف أصر على إيفاد أسامة بن زيد في حملته على الحدود البيزنطية بعد وفاة النبي على الرغم من أن الجزيرة العربية كلها كانت ثائرة عليه ، وكان الوضع قد تغير الآن عما كان عليه عندما أصدر النبي أمره بإعداد هذه الحملة ولكن أبا بكر رفض رفضاً قاطعاً الفناء الأوامر التي سبق للنبي أن أصدرها أو تعديلها . ولكن عندما كان ينشأ أي وضع جديد لا تعليمات سابقة للنبي فيه فإن أبا بكر كان يستخدم فكره الخاص به ويتخذ إزاءه موقفاً حاسماً .

وكان من الظواهر البارزة في سياسة النبي انه كان متسامحاً مع

= لم يخرجوا لقتالكم وانما قتلتم منهم القليل وقد بلغوا منكم ما ارى وانا صالحك عنهم . فصالحه على نصف السبي ونصف الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع . ثم ان خالداً توثق منه وبعثه اليهم فلما دخل اليمامة أمر الصبيان والنساء ومن باليمامة من المشايخ أن يلبسوا السلاح ويقوموا على الحصون ففعلوا ذلك . فلم يشك خالد والمسلمون حين نظروا اليهم انهم مقاتلة فقالوا لقد صدقنا مجاعة ثم ان مجاعة خرج حتى اتى عسكر المسلمين فقال : ان القوم لم يقبلوا ما صالحك عليه منهم واستمدوا لحربك وهذه حصون المرص مملوءة رجالاً ولم ازل بهم حتى رضوا بأن يصلحوا على ربع السبي ونصف الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع . واستقر الصلح على ذلك ورضي خالد به وامضاه وادخل مجاعة خالداً اليمامة فلما رأى من بقى بها قال خدمتي يا مجاعة واسلم اهل اليمامة فاخذت منهم الصدقة .

أما قصة زواج خالد الجديد وفضب الخليفة فلم اشر عليها في كتب التاريخ

العربي .

« العرب »

الكفرة والمشركين وصاروا لا يرحم مع المرتدين ولقد كان في مكنة المشرک حتى ولو وقع أسيرا وهو يحمل السلاح ضد المسلمين أن يشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله وأن ينقذ بذلك حياته . وكثيرا ما شكك المؤمنون الى النبي في حياته من حالات أعلن فيها بعض الناس اسلامهم دون أن يكونوا مخلصين في اعلانهم هذا ، وكثيرا ما طارد المسلمون مشركا وقد فر من المعركة وكانوا على وشك تقطيعه بسيوفهم أو قتله برماحهم عندما يروح عدو الله هذا ينادي الا اله الا الله وان محمدا رسول الله فيجدون أنفسهم مضطرين الى اغماص سيوفهم وينجو المشرک من القتل وكثيرا ما كانوا يسألون النبي هل يمكن قبول هذا الشكل من الاسلام وحرمان المسلمين من الغنيمة ، لكن النبي كان يصر على أن مثل هؤلاء الناس يجب أن يعتبروا من المسلمين .

أما اذا عاد هؤلاء فارتدوا عن الاسلام بعد أداء الشهادة فإن النبي كان يوقع بهم أشد العقوبة وهي عقوبة الموت وهكذا اذا اعتبر بنو حنيفة وانصارهم من المرتدين فإن حكم النبي فيهم وفي أمثالهم قد صدر من قبل وهو الموت . وهكذا فأننا رأينا خليفته أبا بكر غزوا عن استعمال صلاحياته في موضوعهم أو الحكم عليهم حكما مخالفا وهذا عنى ان الخليفة كان يريد عقابهم بالموت دون تردد . ولكن من حسن حظهم ان النبي كان قد أمر بالوفاء بالعهد بعد صدوره وان على المسلمين الحفاظ على عهودهم ومن هنا كان لابد لأبي بكر أن يقبل عهد خالد وأن يقر شروط الهدنة التي عقدها مع بنى حنيفة ، ولذا فإن الخليفة استقبل وفود هذه القبائل المرتدة المهزومة التي بعث بها خالد استقبالا طيبا عندما جاءته وأعادها الى ديارها سليمة معافاة .

وحرى بنا هنا أن نقول ان الملك ابن سعود أصدر أمره عندما ثارت قبيلة المطير على الحكم الوهابي في عشرينات هذا القرن باعدام جميع الذكور من أفراد القبيلة المذكورة ، فلقد كان ابن السعود يعتبر العصيان السياسي نوعا من الردة (١) .

(١) مقارنة سخيقة كل السفف من جانب المؤلف بين حكم النبي من ناحية وحكم الملك ابن سعود من الناحية الثانية وبين المسلمين الاوائل والوهابين المحدثين فلقد كانت ردة القبائل العربية بعد وفاة النبي ردة على الاسلام نفسه وخروجها على حكم اسلامي صحيح اما الثورة على السموديين فتورة وطنية شعبية على حكم دنيوى لا يعمل بأوامر الاسلام ونواحيه . ومن هنا لا يكون ثمة مجال للمقارنة بين ردة بنى حنيفة في صدر الاسلام وبين اية ثورة حديثة على الحكم السمودي

ويجد هذا الموقف جذوره في الحقيقة الواقعة وهي أن محمدا كان انزعيم الديني والحاكم السياسي لشعبه وإن انحكومة أصبحت مرتبطة العرى بالقيادة السياسية في الدول الإسلامية منذ عهد الرسول حتى القرن العشرين على الأقل . وكان هذا الربط بين الدين وبين الحكم السياسي سببا جوهريا في سوء الفهم من جانب الأوروبيين للبلاد الإسلامية . ويعمل غير المسلمين إلى نقد تدخل القيادات الدينية الإسلامية في شئون السياسة وهم يتسبؤون عن الأسباب التي تحول بينهم وبين حصر أنفسهم في حقل التعليم الديني . تاركين السياسة لأربابها لكن هذا الفصل بين الدين والسياسة وجهة نظر مسيحية . ولقد كان الدين والسياسة بالنسبة إلى المسلم القديم لا بالنسبة إلى القومي العربي الحديث أمرين لا ينفصلان . ومن هنا كان لابد أن تعتبر الثورة السياسية ردة دينية .



كانت الصحارى الرملية الفسيحة في النصف الجنوبي من الجزيرة العربية والمسماة بالربع الخالي دائما حدا يفصل بين مناطق عمان وحضرموت الساحلية وبين عرب نجد والأراضي الشمالية الخصبة في سوريا والعراق وكانت هذه المناطق الواقعة على المحيط الهندي تتأثر كما تتأثر الآن بعوامل كثيرة تصل إليها من أماكن نائية في فارس وبلوخستان والهند والملايو وأفريقيا الشرقية . وكان وجود الصحارى الرملية وراء هذه المناطق سببا في تطلعها دائما إلى ما وراء البحار إلى العالم الخارجي ، ومن هنا لم تلعب أي دور بارز في تاريخ العرب إلى الشمال . وقد تمكن خالد بانتصاراته في أواسط الجزيرة من إخضاع أقوى القبائل المحاربة لحكم المدينة ولهذا فإن فتوحات المناطق الواقعة وراء هذه الصحارى لم تكن أكثر من مجرد عمليات ثانوية فرعية إذا ما قورنت بالتيار الرئيسي للتوسع العربي .

لكن إخضاع بني حنيفة في اليمامة لم يعن إلا إخضاع شطرنج من مجموعة القبائل الكبيرة المسماة ببني بكر بن وائل بن ربيعة وهي المجموعة التي تنتمي إليها قبيلة عنزة البدوية الحديثة الكبيرة . وكانت قبائل بكر تنتشر في منطقة واسعة تمتد من الحيرة وأدنى الفرات إلى السسواحل الجنوبية للخليج العربي وكانت بكر تؤلف الجزء الأكبر من رعايا اللخمين من ملوك الحيرة في أوج سلطنتهم . ولكن يذكر القاريء ولا شك أن النزاع كان قد نشب بين أمراء اللخمين وبين أكاسرة الفرس في عام ٦٠٥ مما أدى إلى انتداب أحد العمال الفرس لتولي حكم حوض الفرات الأدنى مباشرة . وظل بنو بكر منذ ذلك التاريخ في ثورة دائمة على الفرس وحققوا في عام

٦٠٦ تقريبا أول نصر عربى على قوات الفرس عرف فى التاريخ العربى
باسم يوم ذى قار .

وأدت هزيمة بنى حنيفة الفرع الى أن تجد قبيلة بنى بكر الام نفسها
بين شقى رحى أى بين قوتين سياسيتين عظيمتين . وكانت هذه القبيلة
تخوض منذ سنوات عدة حرب عصابات ضد الفرس ولكنها كانت تحس
بالاطمئنان الى مؤخرتها اذ كانت قبائل نجد التى تعيش فى هذه المؤخرة
مشغولة بمشاجعاتها الدموية المألوفة . لكن ظهور خالد بن الوليد الآن
على رأس قوة ضخمة تعد بالوف المحاربين الفائزين فى جناحها الجنوبى
وضعها فجأة بين نارين .

وكانت قبيلة بنى بكر شأنها فى ذلك شأن القبائل العربية الأخرى
مجزأة ومنقسمة على نفسها وكان المثنى بن حارثة زعيم بنى شسيبان من
أبطال معركة ذى قار هو العامل فى اتخاذ القرار بتجربة حظهم مع المسلمين .
ويحاول مؤرخو العرب القدامى وهم من أبناء المدن الذين عاشوا فى تاريخ
متأخر عن هذه الايام أن يعزوا كل عمل جرى فى هذه الآونة الى دوافع
دينية . ومن المحتمل كل الاحتمال أن يكون قرار بنى بكر فى هذه الآونة
صادرا عن دوافع سياسية أكثر منها دوافع دينية . فلقد كانت القبيلة
فى نزاع دائم مع الفرس . وفجأة رأت أمامها قوة ضخمة تتألف معظمها
من البدو القبليين الذين لا يختلفون عن رجالها . ترى هل من الأفضل
لبكر أن تقاوم هذه القوة العربية الجديدة وأن تدخل معها فى صراع يؤدى
الى دمارها معا ، أو أن تضمن تأييدها لشن حملات جديدة على الفرس ؟
ولا ريب فى أن تأثير المثنى بن حارثة هو الذى أقنع بنى بكر بالانضمام الى
المسلمين (١) والحصول على عونهم فى محاربة الفرس . ولهذا سارع رئيس

(١) انا اختلف مع المؤلف فى رايه هذا تمام الاختلاف . اذ لو صح ما قاله من
أن بنى بكر قد انضموا الى الاسلام لدوافع سياسية وهى رغبتهم فى محاربة الفرس
فماذا يفسر يا ترى انضمام بقية القبائل العربية فى الجزيرة وهى ليست فى حالة نزاع
مع الفرس . ان التفسير الصحيح هو أن النبى بدعته الاسلامية قد أيقظ الوعى القومى
عند العرب بعد أن أضى على هذا الوعى عقيدة وحدوية جديدة وهى الدعوة الاسلامية
التي جاء بها وهذه الدعوة وهى التي وحدت العرب تحت ظل قيادته . واذا كانت بعض
القبائل قد ارتدت بعد وفاة النبى فان التفسير الصحيح لردتها هو أن الوعى لم يكن
قد اكتمل ونضج بعد ، نظرا لقصر المدة . فلما عاد أبو بكر ووجد العرب ، كان الوعى
قد اكتمل هذه المرة وادى اكتماله الى الفتوحات الاسلامية العظيمة التى شملت العالم
المعروف بأسره وهى فتوحات ما كانت لتتم لو أن انضمام القبائل العربية الى الاسلام
كان من انتهائية كما يحاول المؤلف أن يقول لتشويه تاريخنا العربى .

(العرب)

القبيلة الى المدينة حيث استقبله الخليفة أبو بكر استقبالا حارا .

وقبل الشروع على أية حال فى الحديث عن الحرب مع الفرس أرى من الجدير بى أن أتحدث عن بعض العمليات الصغيرة التى وقعت قبل ان تنتهى حروب الردة نهاية كاملة .

واجه المسلمون بعض المقاومة فى البحرين بعد انتهاء معركة اليمامة ولكن الحرب ما لبثت أن انتقلت الى عمان وكانت بعض الجيوب الاسلامية ذات النفوذ قد ظلت فى المنطقة على الرغم من الردة التى شملت معظم أنحاء الجزيرة العربية . وقد توجه عكرمة بن أبى جهل على رأس قوة من المسلمين ما لبث أن انضم اليها حذيفة وعرفجة وهما من شيوخ القبائل . وتمت هزيمة العدو فى معركة واحدة واحتلت جيوش المسلمين المنطقة بكاملها .

ويذكر القارىء ان أبا جهل كان عم النبى (١) . وانه كان من أشد أعدائه وقد قتل فى معركة بدر ، لكن الوضع الآن آبدل كل التبدل وبدلا من أن ينظر زعماء مكة بعين الغيرة والحسد ، الى ما يقوم به قريبهم محمد الفقير من نشاط . أخذوا يدركون الآن أن الاسلام أخذ فى تحويلهم بسرعة الى طبقة ارسنقراطية حاكمة (٢) . ولقد بات عكرمة بن أبى جهل الآن قائدا من قادة المسلمين كما أن أبا سفيان وأسرتة أخذوا يحتلون الآن مكانة أعلى من مكانتهم السابقة .

وقد اختار الخليفة أبا حذيفة وهو من شيوخ قبائل المنطقة عاملا له فى عمان . ومن المحتمل أن يكون اختياره هذا دليلا على عدم اهتمام

(١) يمود المؤلف الى خطئه فيزعم ان أبا جهل كان عم النبى ولقد سبق لى ان وضحت في هامش سابق خطأ هذا الزعم .

(٢) تشويه متعمد للتاريخ العربى لقريش لم تصبح في أى وقت من الاوقات طبقة ارسنقراطية حاكمة كما يزعم المؤلف متخلدا من اختيار الخليفة من قريش ذريعة لدمم ادعائه ولقد اشترك العرب كلهم في تكوين الطبقة الحاكمة سواء في عهد الخلفاء الراشدين أو الامويين أو صدر العصر العباسي . الى أن جاء الفرس وغيرهم من الاقوام الاسلامية فاشتركوا في الحكم مع العرب . وتحول الحكم الى اسلامى بدلا من أن يظل عربيا ولعل أبرز دليل على ذلك أن معظم القادة العسكريين والعمال (الولاة) لم يكونوا من قريش بل كانوا من القبائل العربية الاخرى ، ومن هؤلاء المنى بن حارثة الشيباني وحذيفة عامل عمان وموسى بن نصير ومحمد بن القاسم وطارق بن زياد وغيرهم كثير . ناهيك عن ان الاسلام كدين لم يفرق بين شخص وآخر الا بالتقوى .

المدينة بالمنطقة أو على عجز الخليفة عن إرسال قوة عسكرية ضخمة الى هذه المنطقة النائية (١) وكان عكرمة في غضن ذلك يزحف عبر منطقة المهرة (٢) ويقال انه لاشيء يحقق النجاح كالتجّاح نفسه ولا سيما عند القبائل المفتقرة الى الانضباط فقد أدت الانتصارات التي حققها خالد في نجد وعودة الحكم الاسلامي الى الاستقرار في عمان . الى انضمام وحدات كبيرة من القبائل الى عكرمة بن أبي جهل في زحفه نحو الجنوب .

وبعد أن تم اخضاع عمان والمهرة واجه المسلمون العصيان في اليمن فلقد ظهر هناك في حياة النبي مدع آخر من ادعياء النبوة يسمى الاسود العنسي ولكنه ما لبث أن قتل حتى قبل وفاة الرسول . وقد انهارت حركته بعد موته وان تركت نجران واليمن في حالة كاملة من الفوضى والاضطراب ولما كانت قبائل اليمن وروعسها قد لعبت فيما بعد دورا كبيرا في الفتوحات العربية . فأننى أرى من المناسب أن أشير اليها هنا اشارة عابرة .

كان نصارى نجران قد عقدوا مع النبي . وقد جددوها الآن خليفته أبو بكر . أما أبرز القبائل التي ثارت الآن فقبيلة زبيد بزعامه عمرو بن معد يكرب الذي سنسمع عنه فيما بعد وقبيلة كندة بزعامه الاشعث بن قيس . وكان شيعه آخر من شيوخ اليمن ويدعى قيس بن هبيرة المكشوح قد استولى على صنعاء (٣) .

(١) ما افقه هذا الفصل الذي يعتمد التشويه . ان اختيار حليفة لهذا المنصب دليل على أن الاسلام لم يعد يفرق بين مربي وآخر ولم يكن اختياره عاملا في ضمان الانجاح من صدق اسلامه ومكاته في قومه ، وقنوه على ادارة المنطقة ادارة ناجحة .

(٢) ورد الاسم في كتاب التاريخ العربي على أنه النجر وليس المهرة كما يذكر المؤلف .

(العرب)

(٣) يبدو أن المؤلف لم يفهم تمام الفهم حقيقة ما وقع في اليمن كما انه اخطأ بين الاسماء فخلط بين قيس بن هبيرة المكشوح . وهو من المسلمين الذين ادوا دورا في اليمن . وبين قيس بن عبد يثوث وكان من قادة المصاة وأرى أن أنقل هنا رواية البلاذري اذ قال :

« كان الاسود بن كعب العنسي قد تكهن وادعى النبوة فاقبمه بنو عيس وغيرهم فبعث اليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في السنة التي توفي فيها جرير بن عبد الله اللجلى يمدوه الى الاسلام ، فلم يجبه . واتى الاسود صنعاء وأخرج عنها عامل النبي ويدعى خالد بن سعد بن العاص وكان الاسود متجبرا فاستلذ الابناء وهم اولاد أهل فارس اللذين وجههم كسرى الى اليمن مع سيف بن ذى يزن واستخدمهم فأضر بهم ولزوج =

وأعلن جرير بن عبد الله • شيخ بنى بجيلة فى غضون ذلك خلاصه للاسلام • على أية حال لم تكن أية قبيلة من القبائل الكبيرة لتتبنى بجميع بطونها أية قضية من القضايا اذ تنفرد بعض البطون التى تعيش فى الجبال برأيها المستقل وتشغل نفسها بالغزو والسلب من جاراتها ، وكانت هذه هى الحالة التى وصل اليها الجنب العربى الذى كان مزدهرا ومتحضرا فى وقت من الاوقات • ويذكر القارىء أن الفرس كانوا قد استولوا على أرض اليمن فى عام ٥٧٤ وعينوا عليها مرزباناً ينوب عن كسرى فى حكمها • ولكن انهيار الامبراطورية الفارسية بعد مصرع كسرى ابرويز • أدى الى انقطاع المواصلات مع فارس وإلى وقف النجيدات عن المجيء الى اليمن وهكذا وجد الأبناء (أبناء المرزبان) ونسل الحاميات الفارسية أنفسهم مضطرين الى الدفاع عن أنفسهم فألفوا حزبا خاصا بهم شرع فى التحالف مع بعض

المرزبانة، امرأة ملكهم باذام فوجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قيس بن هيرة المكشوح لقتاله وأمره باستمالة الإبناء وبعث معه فروة بن مسيك المرادى فلما صاروا الى اليمن يلتقيهما وفاة الرسول فظاهر قيس للأسود انه على رأيه حتى خلى بينه وبين دخول صنعاء. فدخلها فى جماعة من مدحج وعمدان وغيرهما ثم استمال فيروز بن الديلمى أحد الإبناء وكان فيروز قد أسلم ثم أتيا باذام رأس الإبناء أو داؤويه على قول بعض الروايات فأسلم داؤويه. ولقى قيس لباب بن ذى الجرة الحميرى فاستماله وبث داؤويه دعائه فى الإبناء فأسلموا فتطابق هؤلاء جميعا على قتل الأسود واغتياه • ودسوا الى المرزبانة امرأته من أطعها الذى هم عليه وكانت شائئة له • فدلتهم على جدول يدخل اليه منه فدخلوا وقت السحر ويقال بل تقبوا جدار بيته بالخل نقبا ثم دخلوا عليه فى السحر • وهو سكران نائم فدبجه قيس ذبحا فجعل يخود خوار الثور حتى ألزع ذلك حرسه • فقالوا ما شأن رحمن اليمن فبدت امرأته فقالت انه الوحى فقال الله أكبر فسكنوا وأمسكوا واحتز قيس رأسه • ثم علا سور المدينة حين أصبح فقال الله أكبر الله أكبر أشهد الا اله الا الله وأشهد أن محمد رسول الله وأن الأسود كذاب عدو الله فاجتمع أصحاب الأسود فألقى اليهم رأسه فتفرقوا اليه قليلا وخرج أصحاب قيس ففتحو الباب ووضعوا فى بقية أصحاب العنسي السيف فلم ينج الا من أسلم منهم وذكر بعض الرواة ان الذى قتل الأسود العنسي فيروز بن الأعمى وان قيسا أجهز عليه واحتز رأسه وذكر بعضهم ان قتل الأسود كان قبل وفاة النبی (صلم) بخمسة أيام فقال فى مرضه : قد قتل الله الأسود العنسي قتله الرجل الصالح فيروز بن الأعمى وورد على أبى بكر بعد ما استخلف بعشر ليال وقال الرواة أيضا ان قيسا اتهم بعد ذلك بقتل داؤويه وبلغ أبى بكر انه على وشك جلاء الإبناء من صنعاء فأغضبه ذلك وكتب الى المهاجر بن أبى أمية حين دخل صنعاء وهو عامله عليها يأمره بحمل قيس اليه فلما وفد عليه أحلفه أبو بكر خمسين يميناً عند قبر النبی أنه ما قتل داؤويه فحلف فخلى سبيله ووجهه الى الشام مع المسلمين لفرو الروم •

(العرب)

القبائل لمحاربة بعضها البعض الآخر مما أدى الى مضاعفة الفوضى التي ضربت أطنابها في البلاد بدلا من تقليلها .

وكان أبو بكر يفتقر الى المحاربين عندما وصلتته أنباء الاضطراب في اليمن اذ كان قد أوفد كل ما توافر لديه من المحاربين مع خالد بن الوليد لقتال مسيلمة الكذاب . لكن عزيمة أبي بكر لا تقل ، ولذا فقد أوفد المهاجر بن أبي أمية شقيق أم سلمة زوج النبي الى اليمن دون أية قوات تناصره . لإعادة الامن الى نصابه في ربوعه وعهد اليه بأن يجند من يستطيع تجنيدهم من أبناء القبائل المسلمة المخلصة بين اليمن وصنعاء . وأوفد الخليفة في غضون ذلك الى عكرمة بن أبي جهل، وكان في عمان بأن يسارع بقواته عبر المهرة وأن ينزل من الساحل الى عدن لنصرة المهاجر .

وكانت القبائل الثائرة لحسن حظ المسلمين جريا على عاداتها البدوية في حالة نزاع مستمر بين بعضها وبعض وان اتفقت في ثورتها على الاسلام، ولذا فقد تعذر عليها الوصول الى خطة تشترك في تنفيذها وادرك عمرو ابن معديكرب أخيرا ان قواته من زبيد لا تستطيع الصمود أمام قوات المسلمين التي تفوقها عددا بعد ان وصل المهاجر على رأس قواته من المجندين المسلمين الى اليمن . وبعد أن وصل عكرمة بن أبي جهل على رأس قواته من عمان . ولما كان عمرو هذا من الغزاة المرحين الذين لا يحملون في حياتهم هموما فقد شرع يفكر فورا في طريقة تمكنه من عقد الصلح مع المسلمين ، وجالت في خاطره فكرة وهي أن يختطف زميله في الثورة قيس بن المكشوح (الصحیح قيس بن عبد يغوث) ونفذ عمرو خطته واقتاد الى المهاجر قيسا زميله في الردة يرسف في اغلاله ليصالح المسلمين مظهرا بعمله هذا اخلاصه للمسلمين (١) لكن مهاجرا لم يخدع بمناورة عمرو بن معد يكرب فقيده بدوره وبعت به مع صاحبه قيس الى أبي بكر في المدينة . ولكن الخليفة عفا عنهما وبعد أن أخذ منهما قسما بالولاء والاخلاص اعادهما الى قبيلتهما .

وبعد أن تم اخضاع كبار الثائرين في اليمن جمع المهاجر وعكرمة قواتهما عند مأرب وراحا في ربيع عام ٦٣٣ يتجهان معا شرقا لقتال قبيلة كندة وشينخها الاشعث بن قيس ، وكان هذا الشيخ قد مضى الى المدينة قبل عامين ومعه زعيم آخر من زعماء كندة هو وائل بن حجر صاحب القصة

(١) لم يذكر الطبري في تاريخه هذه الرواية .

الشهيرة التي سبق لي أن رويتها مع معاوية . وكان الأشعث قد كرس
إخلاصه للإسلام في هذه الزيارة بخطوبته إلى أخت أبي بكر . لكنه لم
يستطع بعد وفاة النبي مقاومة الأغراء بالردة والاستقلال عن المدينة .

وحاصره مهاجر وعكرمة في قلعته في النجير . وقاتلت كندة
قتالا بأسلا وخرجت من الحصن مرات عدة تحاول اقتحام صفوف المسلمين
ولكنها فشلت وأخذت مؤونتها تنقص بصورة تدريجية ، وشرع الأشعث

الداهية يفاوض عكرمة على الصلح ووافق على تسليم القلعة شريطة أن يعطى
المسلمون الأمان لعشرة رجال ، وافر قائدا المسلمين الشروط وفتحت
أبواب الحصن وخرج الأشعث إلى المسلمين بالرجال العشرة الذين أعطوا
الأمان وأمر مهاجر بعدم التعرض لهؤلاء العشرة . أما من تبقى من الرجال
فقد أمر بقتلهم وأمر بالنساء والأطفال فبيعوا على أنهم من السبي .

واكتشف مهاجر أخيرا أن الأشعث لم يضع اسمه بين العشرة وكلهم
من أسرته وأقاربه فأصدر أمره بقتل الأشعث ، ولكنه ما لبث أن أقنع
بتعديل الأمر وبايفاد زعيم المرتدة إلى الخليفة مقيدا بالسلاسل ولم يكتف
أبو بكر بالعفو عن الأشعث وإنما سمح له باتمام زواجه من شقيقته التي
كان قد خطبها . (١)

(١) تختلف رواية المؤرخ عن الروايات العربية بعض الاختلاف . فقد روى
البلاذري في فتوح البلدان أن أبا بكر الصديق ولي زياد بن لبيد أمر كندة وكان
هذا رجلا حازما صلبا فانتفضت عليه كندة كلها وقتلت عددا من المسلمين ووقعت ممرقا.
بين زياد وبين كندة بقيادة الأشعث فأصيب ناس من المسلمين وأرسل زياد إلى الخليفة
يستمده فكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أمية يأمره بأنجاهه . ولقى المهاجر وزياد
الأشعث بن قيس ففضا جمعه وأوقعا بأصحابه وقتل منهم مقتلة عظيمة ولجأ الأشعث
إلى النجير وهو حصن لهم فحصرهم المسلمون حتى جهدوا لطلب الأشعث الأمان لمدة
منهم وأخرج نفسه من المدة وذلك أن معدان بن الأسود أخذ بحقوقه وقال : اجعلنى من
المدة فأدخله وأخرج نفسه ونزل إلى زياد والمهاجر فبعثا به إلى أبي بكر فمن عليه
وزوجه اخته أم قروة بنت أبي قعافة ، فولدت له محمدا وإسحاق وقرية وجبابة
وجعدة .

ولما تروجها نزل إلى السوق فلم ير بها جزورا «صغرا لابل» إلا كشف عرقبيها وأعطى
ثمنها وأطعمها الناس وأقام بالمدينة ثم سار إلى الشام والعراق غازيا ومات بالكوفة
وصلى عليه الحسن بن علي بن أبي طالب .

(العرب)

وباخضاع حضرموت ثم اخضاع الجزيرة العربية كلها للإسلام ثانية ولا ريب في أن خضوعها هذه المرة كان أقوى من سابقه ففي المرة الأولى تم الخضوع عن طريق وصول الوفود إلى المدينة معلنين إسلام قبائلهم ، دون أن تكون هناك تجربة للقوة ، أما الآن فقد جربت القوى بعضها وهزم العصاة في كل طرف من أطراف الجزيرة واضطروا إلى الاستسلام .

واستغرقت حروب الردة سنة واحدة بعد وفاة رسول الله وأصبحت الجزيرة العربية بعد انقضاء هذه السنة متحدة في ظل حكم قوى واحد ، وراح المسلمون وقد انتشوا بحماسة الإيمان الديني اللاهب وبالتطلع إلى المفاخر والأمجاد والاسلاب يتطلعون إلى ميادين جديدة تبعد عن بلادهم يأملون في احتلالها والسيطرة عليها .

تواريخ مشهورة

وفاة النبي واختيار أبي بكر خليفة له	يونيو (حزيران) ٦٣٢
حملة اسامة	من يوليو (تموز) إلى سبتمبر (ايلول) ٦٣٢
أبو بكر يشتت شمل القبائل المرتدة في ذي القصة	أغسطس (آب) ٦٣٢
موقعة بزاخة وهزيمة طليحة	أكتوبر (تشرين الأول) ونوفمبر (تشرين الثاني) ٦٣٢
معركة اليمامة وهزيمة مسيلمة	ديسمبر (كانون الأول) أو يناير (كانون الثاني) ٦٣٣
اخضاع عمان	فبراير (شباط) أو مارس (آذار) ٦٣٣
اخضاع اليمن وانتهاء حروب الردة	مايو (ايار) - يونيو (حزيران) ٦٣٣

شخصيات مشهورة

أبو بكر	خليفة المسلمين
علي بن ابي طالب عمر بن الخطاب أبو عبيدة الجراح	كبار أعوان الخليفة
طلحة مسيلة	من مدعى النبوة
خالد بن الوليد المثنى بن حارثة عكرمة بن ابي جهل عمرو بن معد يكرب	كبير قادة المسلمين شيخ بنى شيبان من قادة المسلمين شيخ بنى زبيد فى اليمن - ارتد ثم عاد فأصبح من قادة المسلمين شيخ بنى بجيلة فى اليمن ظل على ولائه للمسلمين ثم أصبح من قادة جيوشهم
جرير بن عبد الله	

سوقية القرصان

« .. كانوا دائما من الشعوب المحاربة ، لا يكادون يهدأون الى الصلح مع بعضهم البعض او مع جيرانهم .
وقد تفوقوا في قيادة الخيول واستخدام النبال والسيوف والرماح . كل ما يعرفونه هو الشعر . ففيه مجال عبقريتهم .

- او كلي - تاريخ العرب

« يعيش البدو حياة فرينة . فلا اسوار تقيهم .
ومن هنا يكون اعتمادهم على انفسهم في حماية ارواحهم .
هم دائما مسلحون ، وعلى أهبة ، حريصون من الخطر ،
واثقون من شجاعتهم وقوتهم . ولقد باتت الشجاعة
من أهم مزاياهم . لما الجراة فميزتهم الثانية» .
- شارل عيساوى في كتابه فلسفة العرب
للتاريخ - مقتبسة من تاريخ ابن خلدون .

« والشيء الثابت المؤكد هو ان من يسيطر على
البحر ، يكون مطلق الحرية فهو الذى يقرر ، هل يخوض
حربا كبيرة او صغيرة طبقا لمشيئته ؟ »
فرنسيس بيكون

أسفرت النهاية الناجحة للعمليات الحربية في اليمن وحضرموت عن نهاية ما سمي بحروب الردة . فقد تم اخضاع الجزيرة العربية الى الجنوب من حدود الروم وفارس اخضاعا كاملا . ومن الطريف أن نلاحظ هنا أن الجزء الأكبر من هذه المنطقة كلها . كان قد خضع لسلطان محمد في حياته ، دون أن يضطر هو الى استخدام القوة وبالطبع لم تكن الحملات الصغيرة التي شنّها المسلمون في حياة النبي ، والتي لم تكن مؤثرة في غالبيتها هي التي دفعت القبائل العربية الى الاذعان والخضوع . فالشيء الذي لا ريب فيه ولا جدال هو أن قبول معظم هذه القبائل ، دفع الجزيرة الى المسلمين دون اكراه ، راجع الى شخصية محمد ، التي لا مثيل لها . وقد يكون صحيحا القول بأن خضوع هذه القبائل كان في بعض الحالات أو في كثير منها ، اسميا ، وقد تم عن طريق وصول شيوخها الى النبي في المدينة على رأس وفود من هذه القبائل ولكن تأثير النبي على هؤلاء الشيوخ الذين كانوا يعترفون باستقلالهم وزعاماتهم ، كان كبيرا ولا ريب . ولكن لما كان معظم هؤلاء قد تكثروا بعهودهم فور سماعهم بوفاة النبي فإن هذه الحقيقة تقيم الدليل على أن الاسلام لم يعن لهم أكثر من محمد . وقد يكون من الأكاديميه كل الأكاديميه ، أن يتساءل المرء عما كان سيحدث حقا لو أن النبي قدر له أن يعيش عشر سنوات أخرى . فهل كان في وسعه أن يحافظ على سيطرته على هؤلاء العرب وأن يوطد دعائمها بنفس الوسائل السلمية التي طبقتها آنذاك ونفس ما تميز به من سمو شخصي ؟ فمن المظاهر البارزة في الطبيعة العربية اليوم كما في الامس كرههم للسلطان وميلهم الدائم الى الجيوش والاضطراب ، ولذا فهم لا يرضون دائما عن أية حكومة تحكمهم . ومن هنا يكون استعدادهم الدائم تقريبا للترحيب بقلبها ، لتجربة نظام جديد على الأقل . ويجعل هذا الاضطراب المستمر والرغبة عن التبعية ، من البلاد العربية مناطق سهلة على الفتح والغزو ، ولا سيما اذا حصل القاتح على التعاون من جانب الساخطين من أهل البلاد . ولكن لا يكاد القاتح يصبح حاكما ، حتى تعود الروح التي سهلت له اجتياح البلاد واغتصاب السلطان الى العمل ثانية ولكن ضده هذه المرة فلقد أصبح هو الحكومة الآن .

وسرعان ما يميل العرب من حكمه ويشرعون في البحث عن بديل جديد (١) .

ولقد كان محمد طيلة القسم الأكبر من عهد رسالته يكافح في سبيل البقاء ولم يتوج النصر جهوده التي بذلها الا في السنوات الاربع الاخيرة من نبوته ، ولم تصل وفود القبائل من كل مكان لبيعته الا في السنتين الأخيرتين من حياته . وليس من المعقول أن تغدو جميع القبائل في هذه الفترة القصيرة صادقة في اسلامها . ومن هنا يستطيع المرء أن يقول ان ما ابدته هذه القبائل من اذعان لم يكن مصحوبا بمشاعر دينية بليغة . ولذا فان الردة كانت متوقعة فور انتهاء أمر تلك الجدة التي أدت الى تلك الثورة .

ومن المعروف عن العرب أنهم قوم شديدو الملل . ولكن فيهم أيضا مزية أخرى لا يعرفها عنهم الناس الا قليلا . فعلى الرغم من جيشانهم العاطفي وعدم اذعانهم بسهولة الا أنهم قادرون في كل حين على تقدير كل مشاعر الحب والولاء للزعيم الذي يحترمونه ، ولكن هذا الحب والولاء ، لا يمكن أن يكرسا في الجزيرة العربية الا للشخص الذي يلقيه الناس فعلا . ولا ريب في أن النفوذ الضخم الذي حققه محمد عند العرب هو من هذا النوع ، ولذا فقد ظل الحب والولاء الشديدان مقتصرين على الاشخاص الذين اجتمع بهم وتحدث اليهم ولم يكن في امكان هذا النفوذ أن يؤثر طويلا على القبائل النائية من أمثال بني بكر أو قبائل عمان وحضرموت . ولو قدر للنبي أن يعيش عشر سنوات أخرى فان جاذبيته الشخصية كانت كافية لاكتساب عدد أكبر من الانصار من أولئك الذين قدر لهم أن يعرفوه،

(١) يحاول المؤلف في هذه الصورة التي يرسمها للعرب ان يظهرهم بمظهر القلب الذين لا يستقرون على حال ، والذين يرغبون في تغيير حاكمهم دائما . وهذه النظرة مستمدة من واقعين ، الواقع الاول هو ايمان المؤلف بالمنصرية اذ ليس هناك من مزايا أو طبائع لشعب دون آخر ، وكل ما يقال في هذا الموضوع انما هو عنصرى الطبيعة والنزعة . وثانيهما تصوير المؤلف لانطباعاته الشخصية بالنسبة الى الظروف التي عاش هو بين العرب فيها ، كممثل لنظام استعماري بغيض ، يعمل دأبا على تقوية هذه الروح عند من يتصل بهم من العرب ليستغلها في تحقيق اهدافه والحفاظ على مصالح دولته الاستعمارية . ولعل خير مايدحض هذه الصورة الزائفة التي رسمها المؤلف ، عن العرب المعاصرين ، هو التغاف العرب الاحرار في جميع أرجاء الوطن العربى حول مثل الرئيس عبد الناصر واهدافه ، لما يرون فيها من تطابق مع اسمى ما يؤمنون به من مثل واهداف .

(العرب)

لكن اللجوء الى القوة كان أمرا لا مناص منه فى المناطق الغائية حيث كان لا بد من اجراءات تادييبية فى فترات غير منظمة وفى مناطق مختلفة . ولو عاش النبى هذه المدة الأطول . لما ثارت الجزيرة العربية كلها فى وقت واحد . كما وقع فعلا إبان الردة بعد وفاة محمد ، ولما وقعت الردة على ذلك النحو العام الذى وقعت فيه . وبالنظر الى تمكن خالد من هزيمة المرتدين بعد أن أعمل فيهم القتل والذبح فان سلطة المدينة على الجزيرة العربية أصبحت الآن أقوى مما كانت عليه فى أيام النبى .

لكن الخليفة واجه عددا من المشكلات . سواء أكان قد توقعها أم لم يتوقعها . فلقد كانت لقبائل البدو طريقتها الخاصة بالحياة التى عاشتها مئات السنين بل ألوفها . ولقد كانت الحرب القبلية التى لا تنتهى القاعدة فى وجود أفرادها انماطى . ولم تكن الحسائر فى أية معركة ، كبيرة . ولكن لما كانت العمليات الحربية لا تتوقف مطلقا فان مجموع الحسائر فى الرجال يصبح عظيما . وعلى الرغم من أنهم كانوا جميعا من الفقراء فقرا هائلا . وذلك بالنسبة الى مقاييسنا على الأقل فلقد كان الهدف من حروبهم التى لا تنتهى وخصوماتهم ، الحفاظ على الشرف أكثر من الحصول على الكسب . وكانت حياة المرعى فى هذه الصحارى الشاسعة رتيبة الى حد كبير . وكان ما فى الغزوة من حماسة ثائرة ومن مجد ، منفذا عاطفيا يعوض على أهل الصحراء جمود حياتهم الصحراوية ، تماما كما تعمل الافلام السينمائية والقصص البوليسية ومجالس الشراب ، والتدخين ، على التخفيف من رتابة الحياة فى المدن الصناعية الحديثة أما الدين فلم يكن بالشئ الذى يكثر البدو من الاهتمام به وكان بعضهم فى القرن السابع الميلادى من النصارى ، ولكن نصرانياتهم لم تحل بينهم وبين متابعة الحروب . وعلى الرغم من أن الاسلام فرض على أتباعه محاربة الكفرة ، الا أنه فى الوقت نفسه حظر الحروب بين المسلمين حظرا كاملا . وهكذا كان على القبائل العربية بعد اعتناقها الاسلام أن تتوقف عن محاربة بعضها بعضا .

ولا ريب فى أن مثل هذا الوضع ، كان يفرض على أى سياسى أو فاتح عظيم أن يتبنى فكرة جريئة وهى توحيد العرب ليهاجم بهم العالم غير العربى وليغنىم من هذا العالم الاسلاب والغنائم . لكن أبا بكر لم يكن من رجال السياسة الافذاذ . ولا من الذين تتجه طبائعهم الى الفتح ، بل كان رجلا بسيطا متواضعا ، كرس نفسه لذكرى نبيه ، ولخدمة دينه ، ومن هنا حق لنا أن نستنتج أن الفتوحات العربية الكبرى ، لم تكن ثمرة تخطيط

وتصميم • وقد حدثت هذه الفتوحات تلقائيا من نفسها نتيجة الظروف
العارضة (١) •

وهكذا كانت الروح القتالية المحاربة عند العرب • التي وجدت
نفسها الآن أسيرة أوامر الدين التي تحظر على المسلمين قتال بعضهم
البعض والتي جندت السلطة الكافية المطلقة لانفاذها ، هي العامل الاول
في التوسع الاسلامي • أما العامل الثاني : فكان مجرد صدفة عارضة حقا •

(١) يحاول المؤلف في قوله هذا «محاولة فاضحة» : تشويه التاريخ الاسلامي فهو
ينكر على أبى بكر رضي الله عنه صفة السياسة وصفة القيادة ، مع أن الامال العظيمة
التي قام بها في عهد خلافته القصير هيم الدليل على ما تمثل به أبو بكر من صفات
اهلته لان يكون الخليفة الاول للنبي العظيم • وإذا كان أبو بكر قد ظهر بمظهر الانسان
الرفيق ذى الوجدان التقى والمطافة الحبية ، فإنه ظهر في الوقت نفسه بمظهر الانسان
الصادق المزيمة الذى يبحث في الامر على قدر ما يتجهى له من طرق البحث ويستعين
بأوامر غيره ان كان سوريا فإذا افضح له السبيل حرم ، ومتى حرم لا يشبه فيه مما حرم
عليه حتى اذا رأى الجبال أمامه تريد صده ، حاول أن يفتح له منها طريقا • وهاتان
الصفتان لا تكونان فعلا الا في السياسي العظيم والقائد الكبير ، وهذا شأن أبى بكر الذى
اظهر اول ما اظهر من صدق المزيمة في بحث جيش أسامة على الرغم من الالباء التي
بلغته من ردة العرب ، وعلى الرغم من نصائح بعض مشيريه بتأخير هذا البحث ولو تردد
أبو بكر في الامر ، وأخر البحث لشرع للناس لأول مرة مخالفة أوامر النبي • ولو أنهم
لخالف عمر ، باستبدال أسامة بقائد آخر أكثر منه خبرة بشئون القتال ، لسن سنة
بمخالفة ما جاء به نبيه • وفي موقفه هذا ، ومواقفه البطولية في حروب الردة ، وإفاده
الجيش لفزو امبراطوريتى الروم والفرس الدليل الكافي على عظمة أبى بكر وقائد
ولزميم ، كما أن في وصيته لجيش أسامة « وقد سبق لى أن أوردتها في هامش سابق »
الدليل القاطع على فراسته السياسية وعظمته كسياسي •

لما وقد هدنا هذا التشويه المقصور الذى حاوله المؤلف لتاريخ الخليفة الاول
ولشخصيته • فإن في وسعنا القول بأن استنتاجه الخاطئ بأن الفتوحات الاسلامية
كانت ثمرة مصادفة عارضة • هو استنتاج واهم أو تشويه آخر متعمد لتاريخنا
العربي •

فالواضح كل الواضح أن الحروب التي شنها العرب على الامبراطوريتين انما
كانت حرب تحرير قصد منها تحرير المناطق العربية التي تقع على تخوم هاتين الدولتين
والتي يحكمها أمراء الفساسة واللعنمين اتباع الروم والفرس وعملاتهم • ومن البديهي
أن تحول حروب التحرير هذه - بعد أن تبين للمتصربين العرب في مستهل الحملات ،
ضعف الامبراطوريتين الكبيرتين - الى حرب عامة شاملة ، تهدف الى نشر الدعوة
الاسلامية ، وإلى جميع الاهداف الاخرى التي اتصلت بالحروب منذ أقدم المصور
حتى يومنا هذا •

(العرب)

وهو ان امبراطوريتى الروم والفرس كانتا قد ألفتا قبيل هذه الفترة الملكتين العربيتين الصغيرتين اللتين تقومان فى اكناهما ، وحاولتا أن تحكما مباشرة مناطق الحدود التى تؤلف أراضى هاتين الملكتين . وأسفر هذا الوضع عن تحول عرب الحدود من حماة لمدخل هاتين الامبراطوريتين كما ظلوا قرونا طويلة ، الى أعداء لحكامهم السابقين . ولقد سبق لنا ان رأينا قبيلة بنى بكر ، وقد اشتبكت فى معارك متدبرة مع الفرس . كما رأيناها تنتصر على جيش الفرس فى معركة ذى قار .

وكان الامبراطور انرومانى هرقل ، فى غضون ذلك ، وبعد معركة مؤتة قد أوقف بصورة مفاجئة دفع الجعول والمعونات المالية التى كان يدفعها هو واسلافه من قبل لشيوخ القبائل العربية المرابطة على الحدود . ويبدو ان عمله هذا لم يكن ناجما عن عدم رضاه عن سلوك هذه القبائل . وانما كان ضرورة اقتضتها الاجراءات الاقتصادية التى تتخذ بعد الحروب الطويلة عادة لاصلاح ما أفسدته الحرب . وقد يكون من السهل على المرء أن يعرف الحكمة والصواب بعد حدوث أى حادث ولكن فى وسع المرء أن يقول أن عمل امبراطور الروم ، كان من أكثر الاعمال - التى يرتكبها أى انسان - حماقة . وهكذا غدت بعض القبائل العربية ، فى المنطقة ، المقيمة فى غزة ومواب (الكرك الحديثة) ودومة الجندل واية (العقبة) معادية للامبراطورية ولقد سبق لنا ان رأينا النبى يعقد اتفاقات ودية مع امراء ايلة ودومة الجندل ، وهم بعض من أوقف الامبراطور دفع معوناته المالية اليهم(١) .

ولم تكتف امبراطوريتا الروم والفرس باثارة عدااء أتباعهم من

(١) جانب التوليق المؤلف فى هذه الصورة الزائفة التى حاول تصويرها . فهو يريد أن يقول ان القبائل العربية المقيمة على حدود امبراطوريتى الروم والفرس ، قد انقلبت على هاتين الامبراطوريتين لاسباب مادية ليس الا أى بعد وقف الروم مساعداتهم المالية لهذه القبائل . ولو صحت فرضية المؤلف الخاطئة ، لما انقلبت هذه القبائل الى الصف الاسلامى ، بعد ان فرض عليهم المسلمون الجزية اثر غزوة تبوك كما سبق لنا ورأينا من قبل ، وهو ما اعترف به المؤلف نفسه . اذ ليس من المعقول لو كانت الدوافع مادية ليس الا أن تنضم هذه القبائل الى صف من فرضوا عليهم الجزية لمحاربة من قطعوا المعونة ، دون أن يفرضوا اية جزية . ولكن هوى المؤلف جملة يتجاهل حقيقة الوجود القومى ، والدوافع القومية لينسب كل شيء الى الدوافع المادية .

(الحرب)

م ١٣ و ١٤ - الفتوحات العربية

العرب فحسب بل ان الحروب التي استمرت بينهما طيلة ستة وعشرين عاما والتي انتهت في عام ٦٢٨ قد انهكت قواهما ، وأتعبتهما . وكانت بيزنطة ، وهي التي انتصرت في النهاية ، قد وصلت الى مرتبة الافلاس . وأخذت تعاني مما نسميه اليوم بالركود الاقتصادي الذي يخلف الحروب . ونحن نعرف في أيامنا هذه صادق المعرفة ما تخلفه الحروب الطويلة في نهايتها من ردود فعل تحمل طابع الانهيار الروحي والعقلي ، أما فارس المهزومة فكانت في حالة ثورة وفوضى كاملين .

ومن هنا لم يعرف التاريخ احداثا عارضة تشبه في بروزها تلك التي تمثلت في اجهاد امبراطوريتي بيزنطة وفارس وفي ظهور الاسلام الفجائي والتي أثمرت الاندفاع الهائل من القبائل العربية نحو الخارج ، طلبا للفتح بعد أن حظر الاسلام الحروب القبلية بين العرب أنفسهم (١) .



قدر للاحداث الاولى في الفتوحات العربية أن تقع في الجبهة الفارسية ولقد سبق لنا ان رأينا بنى بكر يشتبكون في حروب العصابات مع الفرس في حوض الفرات الادنى منذ وقعت الحروب بين كسرى وبين أمراء اللخمين في الحيرة ابتداء من عام ٦٠٥ . وظهر المسلمون بعد معركة اليمامة في مؤخرة بنى بكر الذين وجدوا أنفسهم الآن بين نارين . ترى هل يصالحون المسلمين على حرب الفرس ؟ ولم يكن الجيش الفارسي يملك الآن أية قوة من الهجاة ، أو من المحاربين في الصحراء بعد الغاء مملكة الحيرة . وقد يكون من المفروض أن يستطيع الفرس الدفاع عن المناطق المأهولة في جنوب العراق ضد ساكني الصحراء . ولكنهم أعجز من أن يستطيعوا الدفاع عن مراعي بنى بكر في الصحراء ضد المسلمين . وعندما اشتد أمر الحملة الوهابية في عشرينات القرن الحالى في نجد ، وجدت قبائل العراق الصحراوية نفسها في عين الموقف الذي كان عليه بنو بكر في عام ٦٣٣ . ولم يكن حال حكومة العراق في القرن الحالى احسن من حال فارس قبل ألف وثلثمائة عام ، اذ لم يكن لديها قوات تستطيع العمل في الصحراء . وأدى هذا الوضع الى اضطراب جميع قبائل البدو غربى الفرات وجنوبيه الى التفاهم والتهادن مع الوهابيين .

(١) اختلف مع المؤلف في ان هذه الاحداث التي يسميها بالمعارضة لم يكن لها مثل في التاريخ ، فالتاريخ طافح بالشواهد الماثلة . ولعل مثل الرومان وغزو قبائل التيونون للامبراطورية خير شاهد على ما اقول .

وهكذا وجدت غالبية بنى بكر نفسها مرغمة على التحالف مع المسلمين وان كان بعضهم قد تحالف ، كما تقول الروايات مع الفرس ، ولا سيما فى بداية القتال ، وكان المثنى بن حارثة الشيباني هو الذى دبر هذا التحالف مع المسلمين وهو شسيخ من شيوخ شيبان وهى بطن من يطون بكر ، وقد روى المؤرخون المسلمون انها اعتنقت الاسلام . وكانت غالبية رجال خالد ، قد عادوا بعد استقرار الوضع فى نجد الى مساكنهم فى الحجاز ، وخلفوه فى المنطقة على رأس قوة لا تزيد على التسعمائة محارب . وكانت صفة الخزى قد لحقت بالمرتدين الى الحد الذى دعا ابا بكر الى اتخاذ قراره بالا يسمح لأى من القبائل المرتدة بالحرب الى جانب المسلمين . ويكون ولاء البدو لقبائلهم ، ولذا فهم لا يرون سبة أو عارا فى التحول من جهة الى أخرى ، اذا كان هذا التحول أمرا اقتضته مصلحة القبيلة العليا ومن هنا كان لا بد لكثيرين من أفراد القبائل الذين هزمهم خالد فى حروب الردة من أن يتحولوا الى جانب خالد فى غزوه لاراضى الفرس ، لو كان يقبل تحولهم ، وهكذا كانت بطون بكر التى لم تسلم من قبل أو التى لم ترتد بعد اسلامها ، هى الوحيدة الصالحة لمخالفة خالد .

ولو حكمنا على ضوء ما تستطيع قبائل المنطقة تقديمه من رجال فى يومنا هذا ، لقلنا ان المثنى بن حارثة كان قادرا على تجنيد ألفى رجل أو ثلاثة آلاف لمساندة خالد . ومن هنا لابد وأن تكون قوات خالد والمثنى المشتركة لا تعدو حدود ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل . وقد عهد الى هذه القوة الصغيرة بالهجوم على الحدود الفارسية .

وليست لدينا صورة واضحة كل الوضوح عن حملات خالد فى العراق . فلقد روى الرواة أن المسلمين اجتمعوا فى مارس عام ٦٣٣ ميلادية فى الحفير وهى مكان يقع فى الصحراء الى الجنوب الغربى من الفرات (١) . وانضمت الى القوة الاسلامية هنا جماعة من طيىء . ولا ريب فى ان آبار الحفير الحديثة هى مكان مثالى يمكن لقوة من هجانة البدو أن تجتمع فيها قبل غزو العراق . كما أن هذه الآبار موقع مثالى يمكن أن يصلح كنقطة التقاء مع قبيلة طيىء التى كانت تعيش فى المكان الذى يعرف اليوم بجبل شمر .

وتقدم العرب من الحفير ليخوضوا معركتهم الاولى مع جيوش الفرس

(١) يقول الخضرى ان الحفير ماء بالقرب من البصرة . ولكننى اعتقد أن رواية جلوب هى الاصح وانها تقع فى شمالى نجد الى الشرق من التويت الحالية .
(العرب)

فى كاظمة التى يغلب على الظن انها تقع فى أرض الكويت الحديثة • أو فى الاراضى الواقعة بين الكويت والبصرة • وقد غلب جيش الفرس الذى كان مؤلفا من وحدات من القبائل العربية ووحدة من القوات النظامية الفارسية على أمره • ولما كان من الصعب على الفرس أن يحاربوا فى الصحراء فان هذه المعركة قد وقعت فى الغالب على مسيرة يومين من القصر الذى بنيت مدينة البصرة فيما بعد على أنقاضه ، أو على مقربة من خليج الكويت انحالى •

وتقع بلدة الابله وميناؤها على مكان لقاء نهري دجلة والفرات المعروف اليوم بشط العرب • وكانت هذه البلدة محور تجارة الفرس البحرية مع الهند والقاعدة البرية لاسطولهم • وزحف خالد بجيشه على الابله • ولكن سكان البلدة لم يمكنوه من الهجوم عليهم اذ صالحوه على دفع الجزية (١) وتشجع العرب بعد ذلك فعبروا نهر الفرات وقاتلوا الفرس فى الوجة التى يعتقد بانها كانت تقوم فى مكان بلدة الشطرة الحديثة ، ولكن عندما سمع خالد بأن العدو يجمع جنوده للقائه • عاد فعبى الفرات بسرعة هائلة متجها الى الصحراء •

وكانت العنصر الرئيسى فى جميع العمليات المبكرة فى فارس وسوريا على حد سواء هو أن الفرس والروم كانوا عاجزين عن الحركة فى الصحراء ، نظرا لاستخدامهم الجياد بدلا من الابل فى حربهم • وكان المسلمون أشبه ما يكونون بالقوة البحرية التى تمخر عباب البحر الى الشاطئ بسفنها ، بينما كان الروم والفرس مضطرين الى اتخاذ مواقعهم على الساحل أى فى المناطق المأهولة ، نظرا لعجزهم عن الهجوم فى البحر أى فى الصحراء العربية • وكان العرب فى البداية كقرصان النورمان أو الدانمركيين الذين هاجموا سواحل انجلترا يخشون من التوغل فى الداخل ، بعيدا عن سفنهم • أى صحرائهم ، وكانوا يكتفون بالاغارة على سواحل الصحراء ليعودوا بسرعة الى صحرائهم ، عندما يرون الخطر يهددهم • وهكذا نرى خالدا وقد سمع بتجمع العدو ، يعود فيعبى الفرات

(١) تختلف رواية مؤرخى العرب من رواية المؤلف • اذ يقول البلاذرى ان أهل الابله بعد أن طلبوا الصلح سمعوا بأن خالدا قد غادر منطقة البصرة متجها الى الحيرة فنكثوا بهدم فامر خالد بالحملة عليهم قائلا احملوا عليهم انى ارى هيئة قوم اتقى الله فى قلوبهم الرعب ، فحملوا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم بشرا وغرق طائفة منهم فى دجلة •

قاصدا أطراف الصحراء • حيث تلقى كما يبدو نجدات من وحدات من
تميم • وعلى رأسهم زعيمهم القعقاع بن عمرو الذى سنسمع عنه كثيرا
فيما بعد • ونشبت معركة أخرى فى اليس التى يبدو انها كانت تقع فى
الضفة الغربية من الفرات فى ضواحي بلدة السماوة الحالية • ويبدو ان
قوة الفرس كانت تتألف هذه المرة أيضا من القبائل العربية ، يقودها
فارسي ، ويبدو ان المعركة كانت عنيفة للغاية وان المسلمين قد انتصروا
فيها فى النهاية • وقد أصدر خالد أمره بقطع رؤوس جميع الأسرى •
ويروى المؤرخون العرب ان المذابح ظلت مستمرة ثلاثة أيام • وان عدد
القتلى كان بالآلاف وقد عرفت المعركة عند العرب فيما بعد بنهر الدم •
لكن العرب لم يتدخلوا فى شئون الفلاحين الذين يزرعون الارض ، فقد
طلب اليهم أن يدفعوا الجزية ليس الا على أن تضمن سلامتهم • وكان
خالد يبعث الفداء وهو خمس الغنائم بعد كل نصر الى الخليفة فى المدينة
طبقا للشريعة التى جاء بها النبى ، أما ما تبقى من الغنائم فيوزع على الجند
الذين لا يتقاضون أية رواتب •

واستهوى النصر المسلمين فزحفوا على الحيرة ، عاصمة اللخمين ،
الذين كان كسرى قد قضى على ملكهم قبل نحو من ربع قرن • ولو كان
هؤلاء الامراء اللخميون لا يزالون فى اوج سلطانهم وملكهم لاختلقت نتيجة
المعركة ، لان قبيلة بكر كانت موالية أشد الولاء لهذه الاسرة • لكن
ما حدث الآن هو ان حاكم الحيرة الفارسي فر الى المدائن عند سماعه
بوصول خالد (١) •

(١) تختلف روايات المؤرخين العرب كثيرا من رواية المؤلف اذ يقول البلاذرى
ان خالدا وصل الى مجتمع الانهار (ملتقى فرعى الفرات) فلقبه اذابة عامل
كسرى على الكوفة فقاتله خالد حتى هزمه - أى ان السامل الفارسي لم يفر
الى المدائن •

اما الاختلاف الثانى فهو ان القسم الاكبر من قبيلة بكر بن وائل كان مع الفرس.
فشد العرب وصاروا حربا على المسلمين. ولعل اصدق دليل على ذلك ان الرجال الثلاثة
الذين صالحوا خالدا على الحيرة هم من بكر فأولهم عبد المسيح عمرو بن تيس وهو
من الازد ، وثانيهم هو هانيء بن قبيصة بن مسعود الشيباني وهو من شيبان ، وثالثهم
هو اياس بن قبيصة الطائي وهو من طيء • ومن هنا يطل استنتاج المؤلف الذى أراد
منه الحط من أهمية فتح خالد السكري للمراق • والذى قال فيه ان كسرى لو لم
يقض على هرض اللخمين في الحيرة قبل ربع قرن لتغير تاريخ الفتح الاسلامى • انه
الاستنتاج الخاطيء الناشئ من الهوى والفرس •

(العرب)

وكانت الحيرة محاطة بالاسوار التي يعجز البدو عن اقتحامها ولكن معظم أهلها كانوا من العرب . وكانت القبائل العربية المحيطة بها قد خافت بطش خالد بعد نصره العظيم في أليس . ولقد سبق لنا أن رأينا كيف عجزت مكة عن الصمود أمام محمد بعد أن أذعن له القبائل المحيطة بها . ورأينا كيف ان الطائف قد استسلمت أيضا بعد أن انضمت قبيلة هوازن المجاورة الى المسلمين . وعلى الرغم من ان أهل المدن كانوا أكثر ثباتا من البدو في المعارك الثابتة الا ان قدرة البدو على التحرك السريع كانت من الضخامة بحيث تعجز مدن الصحراء عن المقاومة دون مساعدة القبائل البدوية .

وقد نشأ الوضع نفسه في الحيرة . فقد حوَّصر أهلها داخل أسوارهم ولم يجدوا عوناً من القبائل مما دعاهم الى محاولة التفاهم مع المسلمين ، لا سيما وان المبلغ الذي طلبه هؤلاء ، لم يكن كبيراً بالنسبة الى ثروة الحيرة ، وان كان ضخماً بالنسبة الى البدو . وقد تعهد المسلمون مقابل هذه الجزية بحماية المدينة التي رفض أهلها رغم كونهم من العرب التخلي عن نصرانيتهم واعتناق الاسلام . ومن المعتقد ان هذا الاتفاق قد وقع في مايو (ايار) عام ٦٣٣ أي عندما كانت جيوش المسلمين تقضي على آخر المرتدة في اليمن .

وقد يتساءل المرء الآن كيف سمح كسرى لقوة من البداة باحتلال مدينة مهمة كالحيرة . لا تبعد عن عاصمة ملكه المدائن أكثر من مائة ميل . واذا ما أراد المرء معرفة السبب نحتم عليه أن ينظر نظرة قصيرة الى الاحداث في فارس . ولقد سبق لنا أن بينا كيف أن الامبراطور لروماني هرقل كان قد أطاح بعرش كسرى ابرويز في عامي ٦٢٧ ، ٦٢٨ . ولقد قام ولده شيرويه بقتله مع ثمانية عشر ولداً من أولاده ، ثم اغتصب العرش ، لكن هذه الجرائم التي اقترفها لم تجده فتيلاً ، اذ اغتيل شيرويه قليلاً الى البحث عن كل ذكر من سلالة كسرى انو شروان ليقتله ، هادماً من وراء ذلك الى عدم الابقاء على أي فرد من الاسرة المالكة يستطيع منازعته العرش ، لكن هذه الجرائم التي اقترفها لم تجده فتيلاً ، اذ اغتيل شيرويه نفسه بعد أن تبوأ الحكم بثمانية أشهر ليس الا (١) وسرعان ما سادت الفوضى والاضطرابات فارس بسبب المنازعات التي نشأت بين الاحزاب

(١) يقول مؤرخو العرب ان شيرويه حكم سنة وتسعة أشهر .

(العرب)

المتنافسة • ولم يكن من السهل العثور على وريث شرعى للعرش اذ أن القتل كان نصيب معظم أفراد الاسرة المالكة من الذكور وتبوأ العرش فى غضون السنوات الاربع التالية نحو من تسعة أشخاص كان بعضهم يخلع بعد أيام من ولايته ، وبينهم عدد من الاميرات نظرا لعدم وجود ذكور من الاسرة المالكة •

ولما كانت هذه الفوضى قد ضربت أطنابها فى البلاد ، فإن جل ماكان فى وسع الجيش الفارسى أن يفعله ضد العرب ، هو أن يتخذ له موقعا دفاعيا الى الجنوب من المدائن لحماية العاصمة بينما تحتاج جيوش خالد أرض السواد الخصبة ، جامعة الجزية ، وسابية أهل البلاد لبيعاعوا كرقيق •

وعشر أخيرا فى صيف عام ٦٣٢ أى بعد وفاة النبی محمد فى المدينة البعيدة ، على غلام من البيت المالك ، ظل مختفيا طيلة المذابح التى وقعت • ولقد كان يزدجرد فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره عندما ولى الملك • ولم يستطع تبعا لذلك تولى قيادة الجيوش وان أعلن ملكا على البلاد • وهكذا كانت مملكة فارس القوية قد تحولت بعد ستة وعشرين عاما من الحروب مع بيزنطة وبعد أربع سنوات من الفوضى والحروب الاهلية الى أرض يسودها الاعياء والدمار •

واستغل العرب ضعف الفرس وشللهم ، فاجتاحوا المناطق الزراعية الغنية الواقعة الى الشرق من الفرات • وسلبوا الفنائم منها وفرضوا الجزية على أهلها الذين يظهرون الرغبة فى الصلح والتفاهم • فكانوا يحصلون على عهود مكتوبة من العرب يشترطون فيها دفع الجزية مع الوعد بالحماية والامن • وكانوا يحصلون على ايصالات من العرب عندما يدفعون الجزية • وعلى الرغم من اننا نرى فى معاملة العرب لمن يقاومونهم بعض الغلظة الا اننا لا نستطيع الا أن نعترف بانهم كانوا دائما يفون بعهودهم تمام الوفاء •

وعلى الرغم من ان الفرس كانوا عاجزين عن العمل الحربى فى الصحراء الا ان البدو من نصارى العرب المقيمين فى أعالي الفرات كانوا قادرين على الحرب فيها • وكان فى مكنة التغالبة وبطون بكر المتحالفة مع الفرس أن تهدد قوات المسلمين فى الصحراء وأن تغير على مواصلاتهم مع المدينة • وكانت خطة العرب السوقية تركز الى الحقيقة الواقعة • وهى انهم يشنعون بالامن والسلامة فى الصحراء وان فى وسعهم أن يغيروا •

على المناطق المأهولة ، على النحو الذى يريدونه • ولكن القبائل العربية المعادية لهم ، تستطيع الحرب فى الصحراء أيضا ، وفى سعيها أن تفسد عليهم خططهم السوقية ، ولهذا فهم لا يتسامحون مطلقا مع أفرادها المعادين لهم • ولم يكن فى وسع خالد فى مثل هذا الوضع أن يجلس كما قال هو عن نفسه ، عاطلا عن العمل فى قصور الحيرة ، ممثلا دور المرأة • وسرعان ما أعد خطته الجديدة على أساس شن عمليات متحركة من جديد •

ولعل من الطريف أن نلاحظ عدم الاكتراث النسبى الذى أظهره زعماء قریش فى المدينة تجاه العمليات العسكرية فى العراق فى هذه الآونة • فلقد كان كل اهتمامهم كما سنرى بعد قليل ، مركزا على سوريا • إذ انها المنطقة التى يعرفونها والتى كان النبی قد بعث اليها بقوات حملتى مؤتة واسامة بن زيد • وكان معظم الصحابة الذين حاربوا مع خالد فى معركته مع مسيلمة الكذاب ، قد عادوا الى المدينة وهكذا نرى أن معظم قادة جيش خالد ، لم يكونوا من أهل مكة أو المدينة بل من البدو • ولقد رأينا يولى المثنى بن حارثة الشيباني من بنى بكر قيادة القوة التى خلفها لمواجهة جيش الفرس الى الجنوب من المدائن • كما رأينا يولى القعقاع بن عمرو ، شيخ تميم الذى انضم مؤخرا الى المسلمين الامر فى مدينة الحيرة بعد احتلالها •

وراح خالد بعد ذلك يتجه شمالا محاذيا الضفة الغربية لنهر الفرات ، الى أن وصل الى المكان الذى تقوم فيه بلدة الفالوجة الحالية • حيث عبر النهر ليحاصر مدينة الانبار • وينتهى سواد العراق ، أو التربة الغرينية السوداء التى تؤلفها دلتا دجلة والفرات عند خط يمتد من الشرق الى الغرب مارا بمدينة الانبار • ويسكن الى الجنوب من هذا الخط فى الوديان الخصيبين اللذين يسير فيهما نهر دجلة والفرات ، شعب كادح عامل من المزارعين ينتمون الى جذور عراقية مختلفة اذ ان منهم ذراري السومريين القدماء والبابليين وبعض الاعجام • وبينهم بعض العرب الذين يعيشون على نهر الفرات • وكانت الارض السوداء الخصبة فى هذه المناطق مأهولة بالسكان ، وتقطعها أقنية الري • ولذا فانها عسيرة على العمليات العسكرية لقوة من محاربي الصحراء الذين يمتطون الجياد أو الابل •

أما الى الشمال من هذا الخط الذى يجتاز الانبار ، فتقوم مناطق من الصخور الرملية يمر فيها الرافدان يشقان طريقهما عبرها • وتجتاز الصحراء السورية فى هذه المنطقة نهرى الفرات ودجلة حتى تصل الى

سفوح جبال فارس • وكانت القبائل العربية من تغلب ونمير وإياد المهاجرة من الصحراء العربية قد تسلمت عبر نهر الفرات لترايط في منطقة الجزيرة الواقعة بين النهرين • وهكذا ترى الصحراء تحيط بمدينة الأنبار الواقعة على الفرات من ناحيتي الغرب والشمال • وكان العرب قد أقاموا أو استولوا على هذه المدينة منذ نحو من أربعة قرون ، وكانت لاتزال مأهولة بالعرب تماما كالحيرة وإن تولت القوات الفارسية أعمال الحراسة فيها • وقد أحاطت الأسوار بالمدينة وأمام الأسوار خندق يحيط بها من جميع جهاتها ، وقد أمر خالد بذبح كل ما لديه من ضعيف الإبل ، ليملا الخندق بجثتها وعاد فاقترح المدينة عنوة (١) •

ولم يكن خالد مجبرا في احتلاله الأنبار على التوغل في المنطقة الخصبة المأهولة بالسكان ، وكان لا يزال يسير على المبدأ البدوي القديم بالطواف حول أطراف الصحراء مهاجما المدن الساحلية ، والقرى والتأهب دائما للاختفاء في الصحراء بعيدا عن المطاردة في حالة ظهور جيش نظامي كبير للإعداد أمامه • وطبقا لهذا الأسلوب في القتال فقد عاد خالد بعد احتلال الأنبار يتجه غربا إلى الصحراء ، زاحفا على عيني التمر • التي كانت تقع في المنطقة التي تقوم فيها واحة شتاتا الحالية • وقد قاومه هنا بعض العرب من تغلب وغيرهم ولكنه تمكن من تبديد شملهم • واستولى خالد على الواحة التي يسكنها النصارى من العرب في حماية قوة فارسية • وقد أمر خالد في سورة من سوراته غضبه بقتل جميع أفراد الحامية ووزع النساء والأطفال كسبائيا على المسلمين • وقد أعدم في البلدة أحد كبار شيوخ تغلب (٢) • وأسر المسلمون في أحد

(١) تختلف رواية المؤلف هنا عن روايات مؤرخي العرب فقد ذكر الشعبي أن خالد حاصر الأنبار وحرق بعض نواحيها • فلما رأى أهلها ما نزل بهم ، صالحوا خالدا على شيء رضي به فآخروهم ، ويقول البلاذري أن لاهل الأنبار عهدا وعقدا • ويقول الخضرى أن قائد جند الأنبار طلب الصلح من خالد على أن يخليه ويلحقه بأمنه في جزيرة ليس معهم من المتاع والأموال شيء • فأجابته إلى ذلك وسلم الأنبار وصالح من حولها •

(العرب)

(٢) تجاهل المؤلف كعادته في تشويه التاريخ العربي ، ذكر الأسباب التي دعت خالدا إلى القسوة مع أهل عين التمر • فلقد ذكر المؤرخون العرب أن خالدا قصد عين التمر وبها مهران بن بهرام في جمع عظيم من الفرس ، وعقده بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب من قبائل نمير وتغلب وإياد ، ومن لف لفهم وقد لزم مهران عين التمر وخرج عقة يريد مقابلة خالد في الطريق ، والتقى واقتتل الجند وأسر خالد عقة ثم =

أديرة عين التمر النسطورية ، أربعين شاباً عربياً ادعوا انهم من طلاب علم
اللاهوت المسيحي . وقد وفر خالد عليهم أرواحهم طمعاً في الافادة من
علومهم ومعارفهم . وبعث بهم الى المدينة ليعملوا فيها عبيداً أو كتبة .
وكان نصير واحداً من هؤلاء . وقد خلف في المدينة غلاماً هو موسى بن
نصير الذي قدر له بعد سنوات طويلة أن يصبح فاتح الاندلس .

وأرى أن نترك خالداً الآن في عين التمر في خريف عام ٦٣٣ لننتجه
بأنظارنا الى احداث سوريا في تلك الآونة .

رأينا في السابق ان أبا بكر لم يوفد خالداً في البداية لغزو فارس
وانما أوفده للقضاء على الردة في الجزيرة العربية عن طريق هزم النبين
الدينين طليحة ومسلمة ، وهناك اتصل عرضاً بالثنى بن حارثة ، ورجاله
من بني بكر ، الذين اقترحوا عليه القيام ببعض الغارات على حدود
الفرس . وقصد الثنى الى المدينة حيث حصل على موافقة الخليفة . ولما
كان الخليفة قد تسلم خمس الفىء من الغنائم والسبايا ، فانه لم يعترض
على هذه الغارات التي لم تكن في مخططة . والتي تكللت بالنجاح نتيجة
الفوضى الضاربة أطنابها في مملكة الفرس (١) .

== انهم جنده ولما وصل خبر الهزيمة الى مهران هرب في جنده تاركاً الحصن الذي
امتصت به فلول عقة ، حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون أمان وقتل
معظمهم ووجد بينهم أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل ، منهم نصير أبو موسى بن
نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين فقسّمهم خالد في الناس ، وكان من مقبهم
علماء أجلاء .

(العرب)

(١) محاولة اخرى من محاولات التشويه . فالمؤلف يريد أن يظهر أن غزو العرب
لفارس كان أمراً عرضياً . مع أن جميع الدلائل التاريخية تؤكد أن هذا الغزو وقع
طبقاً لخطة منظمة فلقد ذكر الخضرى أن أبا بكر انتدب أعظم قواده خالد بن الوليد
بعد أن انتهى من حروب الردة ليفزو بلاد الفرس وأمره بأن يبدأ بفتح الأبله . وانتدبه
عياض بن غنم ليفزو الفرس في الشمال أى من شمال العراق . وأمرهما أن يستنفرا
من قاتل أهل الردة والا يستعينا بمرند . وقد وصل لغالد كتاب التميمين وهو
باليمامة ، لكتب الى هرمز عامل الفرس في الأبله يقول : أما بعد اسلم ، تسلم ،
أو اعتقد لنفسك وقومك اللمة وأقر بالجرية . والا فلا تلومن الا نفسك ، فقد جئتكم
بقوم يحبون الموت ، كما تحبون الحياة .

وقال البلاذرى قدم الثنى بن حارثة على أبى بكر . فقال له : ياخليفة رسول
الله . استعملنى على من أسلم من قومي . أقاتل هذه الاعاجم من أهل فارس . =

وكان الحكام الجدد في المدينة • في واقع الامر أكثر اهتماما بحدود الروم منهم بحدود الفرس • ولقد كانت قريش وهي القبيلة التي مورث المجتمع الاسلامي الجديد بجميع زعمائه وقادته العسكريين ، تعرف سوريا وفلسطين معرفة وثيقة منذ أيام عملها في التجارة • وكانت معركة مؤتة وحملة أسامة الثأرية ، هما استهلال هذه الحركات الحربية ، كما كانت غزوة تبوك التي قادها النبي بنفسه قد أسفرت عن اخضاع جميع قبائل الحدود ، والزمامهم بدفع الجزية ، ولقد رأينا من قبل أن أمير دومة الجندل العربي النصراني ، قد أعلن اسلامه ، ولكن اسلامه كما يبدو لم يكن صحيحا • اذ ماكادت أنباء وفاة النبي تصل اليه ، حتى كان قد سحب اعترافه وولاه ، وتوقف عن دفع الزكاة •

أما من الناحية الاخرى • فلم تكذب أنباء هزيمة مدعى النبوة في نجد تصل الى مسامع المدينة حتى كان الخليفة يقرر استئناف العمليات الحربية على حدود الروم ، وكتب الى أهل مكة والطائف واليمن والقبائل المحيطة بنجد والحجاز ، يستفزهم الى القتال ويستحثهم على ارسال المحاربين • واختار ثلاثة من القادة العسكريين لتولى القيادة • عقد لكل منهم لواء على السنة التي استنها الرسول (١) وكان هؤلاء القادة هم عمرو بن العاص وشرجيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان ، أما والد الاخير ، قائد قريش في أحد وعدو النبي السابق ، فقد ركنه الى الرف بتعيينه عاملا له في اليمن ، ولم يوضح لنا مؤرخو العرب السبب في شطط الجيش الذي

— فكتب أبو بكر في ذلك هذا ، فسار حتى نزل خفان ودعا قومه الى الاسلام فاسلموا. ثم ان أبا بكر رضي الله عنه كتب الى خالد بن الوليد يأمره بالسير الى العراق • وكتب أبو بكر الى المنى بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة له وتلقيه • وكان مدعو ابن عدي المجلى قد كتب الى أبي بكر يعلمه حاله وحال قومه • ويسأله توليته قتال الفرس • فكتب اليه يأمره بأن ينضم الى خالد ، فيقيم معه اذا أقام • ويشخص اذا شخص •

يتبين من كل هذا ان الحرب مع الفرس لم تات عفوية عسرية كما يحاول جلوب ان يقول ، وغبة منه في تشويه الصورة العربية للفتوحات الاسلامية • بل كانت طبقا لخطة مقررّة وعلى أساس تفكير سليم في نشر الدعوة الاسلامية •

(العرب)

(١) على الرغم من أن بعض مؤرخي العرب ذكروا أن أبا بكر عهد بالقيادة الى الثلاثة الذين ذكرهم المؤلف إلا أن الكثرة الغالبة من المؤرخين يقولون أن الجيش قسم الى أربعة ألوية • لكل منها قائد ، أما القائد الرابع فهو أبو مبيدة عامر بن الجراح الذي عاد عمر بن الخطاب فولاه اثر توليه الخلافة القيادة العامة •

« العرب »

توافر للخليفة الى ثلاثة جحافل . ولعل افتقار الطريق الصحراوي الى الماء وللنقاط التي يتوافر فيها قد حتم على الخليفة أن يبعث قواته على ثلاث دفعات . ولعل افتقار هذه الطريق أيضا الى المؤن نظرا ، لعدم وجود نظام للتموين هو السبب . أو لعل ما يحس به القادة من حسد لبعضهم البعض ورغبة الواحد منهم عن العمل تحت قيادة سواء ، كان السبب الصحيح (١) . ومن المنطق كل المنطق أن يرى الانسان في تقسيم أبي بكر دليلا على ان تفكيره لم يكن متجها الى الفتح والاجتياح . وانما اتجه الى الغزو والاغارة . لكن أساليب القتال عند العرب ، كانت من النسوع العفوى العارض في هذه الآونة ، بحيث لا يستطيع المرء الوصول الى مثل هذا الاستنتاج واعتماده بثقة وطمأنينة (٢) .

ويقال ان أبا بكر أصدر أمره الى عمرو بن العاص بالاتجاه الى ايلة (العقبة) . للعبور منها الى جنوب فلسطين باتجاه غزة التي تعرفها قريش من أيام قوافلها وتجارتها خير معرفة أما الرتل الثاني ، بقيادة يزيد بن أبي سفيان ، فقد صدرت اليه الاوامر بالاتجاه شمالا عن طريق تبوك ، ليعود فيميل نحو الغرب باتجاه الساحل الشرقي للبحر الميت . بينما صدرت الاوامر للرتل الثالث بقيادة شرحبيل بالاتجاه نحو الشمال الشرقي للمسير على دمشق وبصرى . وكانت أوامره صريحة بأن تتجه الارتال كلها

(١) هذا تشويه آخر متعمد للتاريخ الاسلامي . فالفترة لم تكن معروفة عند القادة من صحابة رسول الله . والشواهد على ذلك كثيرة . أبرزها حملة أسامة بن زيد القائد الشاب الذي لم يتجاوز العشرين ربيعا . وكان النبي قد أمر أبا بكر وعمرو وهما كبيرا صحابته بالتوجه معه كجنديين عاديين . وكذلك عزل خالد من القيادة ابان معركة اليموك وتولية أبي عبيدة على أن يظل خالد وهو القائد الكبير جنديا تحت امرته . وكذلك ما سبق قوله من كتاب أبي بكر للمثنى بن حارثة شيخ بني شيبان بأن يكون تابعا لخالد ، عند استهلال الحملة على القرس ، بالإضافة الى امثلة اخرى لا عد لها ولا حصر ، تدحض ادعاء المؤلف .

(العرب)

(٢) يجمع المؤرخون العرب على أن الخليفة عقد اللوام لكل قائد من القادة الاربعة على ثلاثة آلاف جندي في بدء الحملة . لم واصل ارباعهم بالامداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة رجل . ولا يمكن أن يكون القصد من مثل هذا العدد الكبير من الرجال مجرد الاغارة والغزو كما يحاول المؤلف أن يقول . . يضاف الى هذا أن توجيه كل قائد من طريق الى هدف معين كفلسطين لعمرو بن العاص ودمشق ليزيد وحمص لابي عبيدة والاردن لشرحبيل ، يدل على أن غاية أبي بكر من هذا التقسيم كانت توزيع قوات العدو وانزال الارتباك فيها، لتتمكن جيوش المسلمين من تحقيق غايتها في الفتح لا في الغزو كما يحاول المؤلف أن يقول . .

لنجدة أى منها يلقي فى طريقه مقاومة عنيدة ، على أن يتولى القيادة العامة القائد الذى تدور العملية فى منطقته • وما كاد المحاربون يتوافدون على المدينة منتصرين من حروب الردة فى نجد وعمان واليمن ، حتى كان الخليفة يحشددهم فى قوات يبعث بها كنجندات لتعزيز القوات الزاحفة على سوريا •

واشتبك رتل عمرو بن العاص مع الروم فى دائن على الطريق بين ايلة وغزة ، فهزمهم كما أرغم يزيد بن أبى سفيان سيرجيوس بطريق قيصرية على التراجع بعد معركة فى وادى عربية وطارد يزيد الجيش الرومانى المنسحب ، فلحق به وبدد شمله وقتل قائده سيرجيوس (١) وسرعان ما انتشرت قوات العرب فى جميع أنحاء السهل الساحلى الجنوبى فى فلسطين حتى بلغت على الغالب اللد ويافا •

وعندما وجد أبو بكر ان قواته تشتبك فى سوريا وفلسطين مع الروم فى عمليات حربية ضخمة ، كتب الى خالد بن الوليد يأمره بالتوجه من العراق ، لتعزيز المسلمين على حدود الروم • ويقول بعض المؤرخين ان خالدا جاء من عين التمر الى دومة الجندل ليحتلها بعد أن ارتد صاحبها ، كما سبق لنا أن ذكرنا ، وكان الخليفة قد أوفد اليها قوة لاعادة سيطرة المسلمين عليها • ولكن هذه القوة عجزت عن التغلب على مقاومتها ويقول مؤرخون آخرون ان خالدا استدعى لتعزيز قوات المسلمين فى سوريا وأنه فى طريقه اليها أنهى أمر دومة الجندل المرتدة على الاسلام • ومهما كان دافع خالد ، فان من الواضح انه تحرك من عين التمر فى العراق فى مطلع عام ٦٣٤ وتمكن من اقتحام الدومة فى سرعة هائلة بما عرف عنه من جرأة وحيوية • فانزل القتل بأهلها وصلب أحد قادتها وذبح كل من وقع فى الاسر من رجالها وبعد أن انتدب أحد رجاله حاكما عليها ، وبعث بالنساء والاطفال والغنائم الى المدينة سار خالد

(١) تختلف رواية المؤلف من الروايات العربية بعض الاختلاف . فهو يقول ان دائن يحتمل أن تكون دوقان ، التى ورد ذكرها فى التوراة على أنها المكان الذى كان اخوة يوسف يرمون اغنامهم فيها ، وان كان يستبعد ذلك لان دوقان قرية من حيفا ولكن الطبرى والبلاذرى يؤكدان ان دائن من قرى غزة ، وهذا هو الصحيح لان جيوش العرب لم تكن قد وصلت بعد الى شمال فلسطين • أما من موقعة العربية • فيقول أبو مخنف ان ستة من قواد الروم نزلوا العربية فى ثلاثة آلاف فصار اليهم أبو امامة - (من رجال يزيد) فى كثف من المسلمين فهزمهم وقتل أحد قوادهم ، نصاروا الى الدابية فهزمهم وغنم المسلمون قنما حسنا •

باتجاه الشمال الغربى نحو وادى «بطن السير» الذى يعرف اليوم باسم وادى السرحان . وأصبح بعمله هذا على بعد خمسة أيام أو ستة من القوات الاسلامية العاملة فى شرق الاردن ، وبات قادرا على اللحاق بها . ولكن خالدا لم يفعل ذلك لأن هذه القوات كانت عاجزة عن الحركة شمالا . اذ يواجهها جيش من الروم يربط فى مواقع دفاعية فى شعب ضيق على مقربة من بلدة درعا الحديثة ، وكان جيشا يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة قد التقيا هنا لمواجهة هذا الجيش المعادى ولكنهما لم يستطيعا ارغامه على التخلي عن مواقعه ، وهكذا وقف الجيشان يقابل أحدهما الآخر فى شبه حالة تجمد (١) .

وقرر خالد بموافقة القادة الآخرين أن يقوم بحركة التفاف واسعة حول جناح العدو (٢) وبعد أن روى جيشه بالماء من بئر قراقر ، الذى لا يزال قائما ومعروفا بهذا الاسم حتى اليوم ، قام بحركة التفاف واسعة باتجاه الشمال عبر الصحراء قاطعا نحو من مائتى ميل فى أرض لا ماء فيها ، عبر أرض صحراوية مسطحة تعرف اليوم بصحراء الحمى وليس فى هذه المنطقة أية آبار دائمة ، وإن كانت مياه الامطار تختزن عادة فى بعض شعابها . ولو كانت مسيرة خالد قد وقعت كما هو الغالب فى مارس (آذار) عام ٦٣٤ فإنه ما كان ليجد فيها ماء ، لو أن المطر كان شحيحا فى شتاء تلك السنة . ووصل جيش خالد أخيرا الى مكان يطلق عليه المؤرخون العرب اسم « سوى » ولعله المكان الذى نسميه الآن « بالسبع ابيار » . وقد اتبع خالد قبل مغادرته قراقر طريقة مازال البدو يلجأون إليها حتى يومنا هذا . فلقد جمع عددا من الابل ، ومنع عنها الماء عدة أيام لتصبح غطشى كل العطش . وعاد فأرواها كل الرى . وتختزن الابل فى مثل هذه الحالة الماء فى مثاناتها لعدة أيام . ثم تعود

(١) سبق لنا أن قلنا ان خالدا تلقى وهو فى عين التمر امر أبى بكر باللاحاق بالمسلمين فى الشام لنجدتهم ، فخلف المثنى بن حارثة على قيادة الجيش وسار بثمانمائة رجل ويقال فى فى ستمائة الى صندوداء وبها قوم من كندة وايداء والمعجم لقاتله أهلها فظفر ، وخلف بها سعد بن حرام الانصارى فولده اليوم بها ، وبلغ خالدا أن جمعا لبنى تغلب بالمسيح والحصيد مرتدين وعليهم ربيعة بن بجير ، فأتاهم ، فقاتلوه وهزمهم وسبى وغنم ويث بالسبى الى أبى بكر . ثم أغار على قراقر . واتى على دومة الجندل ففتحها حنوة .

(٢) اختلف مع المؤلف فى قوله بأن خالدا قام بحركة التفاف واسعة حول جناح العدو بموافقة القادة الآخرين . اذ ان الاتصال بهم لم يكن متيسرا له . (المعرب)

فتستهلكه بصورة متدرجة . وكان ينهر هذه الرواحل بعد أن بدأ سيره يوما بعد آخر ، ليشرب وأصحابه الماء من بطنها . ولعل الصعوبة التي واجهها خالد لم تكن تأمين الماء لرجاله ، وإنما تأمينه لحيله أيضا .

ونضب كل ما لدى خالد من الماء بعد مسيرة خمسة أيام . كما أتى على آخر راحلة من الرواحل التي اكتنز الماء في بطونها . وبدأ الاعياء يصيب خيله ورجله وكان الدليل وهو عربي من طييء ويدعى رافع بن عمير ، على ثقة من ان الماء بات قريبا . ولكن الضعف كان قد أصابه بدوره مما جعله عاجزا عن البحث عن البشر ، ويقال انه أصيب بالرمد فبات عاجزا عن الرؤية . وكان كل ما استطاع قوله ، ان هناك غسلوجا من البشوك عند البشر وان على الرجال أن يبحثوا عن هذا الغسلوج . ولا ريب في ان من السهل رؤية مثل هذه الشجيرة من بعد عدة أميال اذ ان الصحراء في هذه المنطقة خالية من كل نبات . وتعرض الجيش كله للخطر ساعات طويلة . وتعرف روايات البدو الكثير من الكوارث التي تعرضت لها جماعات من الغزاة بسبب افتقارها الى الماء في مثل تلك الحرارة اللاهبة وسط الصحراء المحرقة لكن الجنود الظماء تمكنوا أخيرا من العثور على الغسلوج . فأخذوا يحفرون وسرعان ما عثروا على الماء . ونجا الرجال وخيلهم من الموت . واتجه خالد بعد ذلك الى تدمير فهاجمها واستولى عليها ثم استدار غربا نحو القريتين .

كان خالد في سيره شمالا من قراقر الى سوى ، قد أصبح مقطوعا عن منطقة حوران المأهولة بسلسلة من الجبال البركانية التي تسمى بجبل الدروز . ولهذا فان وصوله الى تدمير كان مفاجأة مذهلة للعدو . ولكن مع اتجاهه جنوبا نحو دمشق أخذت أنبأؤه تصل الى الروم واشتبك مع العدو في معركة مرج راهط التي تبعد نحو من خمسة عشر ميلا الى الشرق من دمشق . وذلك يوم عيد الفصح من عام ٦٣٤ . وعاد فاتجه جنوبا ملتفا حول سفوح جبل حوران . (جبل الدروز) حيث اتصل بجيوش المسلمين عند درعا . ويقال ان عدة جيش خالد كانت تسعة آلاف مقاتل (١) .

(١) يقول المؤرخون العرب ان خالدا أتى بعد دومة الجندل الى قاصم . فصالحه بنو مشجمة من قضاة وكتب لهم امانا . ثم أتى تدمير فامتنع أهلها وتحصنوا . ثم طلبوا الامان فامتنع على ان يكونوا ذمة . وعلى أن يقرأوا للمسلمين ويرضخوا لهم ، ثم أتى القريتين فقاتله أهلها وظهر وغنم ، ثم أتى حواريين من سنير فأغار على مواشي أهلها فقاتلوه . وقد جاءهم مدد أهل بعلبك وأهل بصرى وهى مدينة حوران فظفر بهم فسبى وقتل . ثم أتى مرج راهط فأغار على فسان في يوم فصحهم وهم نصارى فسبى وقتل =

ويعصف المؤرخون العرب مسيرة خالد بالنصر العظيم ويؤكدون انه انتصر في مرج راهط نصرا ضخما لكنني أرى أن هذا الادعاء يفتقر الى الاثبات والدليل . ولعل التفسير المعقول للعملية كلها هو ان خالدا قام بحركة التفافه هذه ليهسد دمشق ويرغم جيش الروم على ترك مواقعه الدفاعية في درعا . ولو كان خالد قد انتصر في مرج راهط لحتم عليه الموقف العسكري أن يقترب من دمشق . فبرغم الروم على التراجع عن درعا ، ولا ريب في ان اتجاهه جنوبا بعد مرج راهط وتخليه عن خطته الاولى يشير الى انه أصيب بنكسة في مرج راهط (١) .

وفي التاريخ العسكري المعاصر حادث مواز لهذا الحادث . فلقد قام الجيش البريطاني في مايو (أيار) عام ١٩٤١ ، ومع قوات فرنسا الحرة بغزو سوريا التي كانت تسيطر عليها قوات حكومة فيشي . وتقدمت القوات من شرق الاردن . واتجه رتل بريطاني الى الشمال عبر درعا ولكن المواقع الفرنسية الدفاعية الى الجنوب من دمشق تمكنت من وقفه . ورغبة في اجبار الفرنسيين على اخلاء هذه المواقع . تقدم رتل بريطاني آخر تصحبه قوات الجيش الاردني فعبر بادية الشام ليهاجم تدمر ويحتلها

= ثم وجه خالد يسر بن أبي أرطاة العامري من قریش وحبيب بن مسلمة الفهري الى غوطة دمشق، فلما راى على قرى من قراها . وصار خالد الى الثنية التي تعرف بثنية العقاب بدمشق فوقف عليها ناضرا راجعاً ، وهي راية كانت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) سوداء ، فسميت ثنية العقاب يومئذ . ونزل خالد بالبواب الشرقي من دمشق ويقال بل نزل ببواب الجابية . فأخرج اليه اسقف دمشق نزلا وخدمة . فقال : احفظ لي هذا العهد . فعهده بذلك . ثم سار خالد حتى انتهى الى المسلمين وهم بقناة بصرى .
(العرب)

(١) اذا كان جلوب يعتبر في كتابه «الجيش العربي الاردني» مسيرة قوات البادية التابعة للجيش والذي كان يتولى قيادته عبر صحراء الشام الى الرطبة في مايو عام ١٩٤١ لمحاربة الجيش العراقي أثناء ثورة رشيد عالي الزويني نصرا وهي في سياراتها المدرعة ، ألا يعتبر قطع خالد للصحراء برجاله نصرا ، في وقت لم تكن الطرق فيه مرصوفة ، ولا القوات الالية معروفة . لقد كان خالد اول قائد في العالم قطع هذه الصحراء اذا كان معاربه الشرق والغرب في التاريخ القديم ينتقلون من العراق الى سوريا او بالعكس من طريق الشمال أي بين الفرات وحلب والمسافة الصحراوية فيها قصيرة أما ان يقطع الصحراء من وسطها كما قطعها خالد . فتصير كبير لا ينكره الا مكابر أو جاحد . أما قول جلوب بأن خالداً سعى بنكسة في مرج راهط فقول مغلل لا يستند الى دليل تاريخي كما يخالف أقوال المؤرخين العرب الذين أجمعوا على انتصار خالد في الموقعة .

(العرب)

ويؤتجه غربا منها الى حمص . واضطر الفرنسيون خوفا من قطع خط رجعتهم الى اخلاء دمشق والانسحاب شمالا . وقد احتل الجيش الاردني ابان هذه الحملة السبع ابيار حيث كاد جنود خالد يموتون عطشا . وحيث أقام الفرنسيون مركزا عسكريا . ولا ريب في أن هذه العملية صورة طبق الاصل من عملية خالد الالتفافية . لكنها تختلف عنها في أنها نجحت بينما فشلت عملية خالد ، لكن القوات البريطانية وقوات الجيش العربي كانت آلية ، بينما كان جنود خالد من الهجانة (١) .

(١) يريد جلوب في هذه المقارنة السخيفة ان يشبه نفسه ضمنا ، وان لم يكن صراحة بخالد بن الوليد . وان ينسب لنفسه النصر بينما ينسب لخالد الفشل . فلقد ذكر هو في كتابه « قصة الجيش العربي الاردني » انه تولى قيادة الرتل الذي زحف عبر الصحراء ليهاجم تدمر لكن السخف يبدو واضحا من مقارنته بالاضافة الى التفضيل في النتيجة التي توصل اليها . لجيش خالد كان يهاجم اعظم امبراطورية في العالم آنذاك ، وهي امبراطورية الروم ، وكانت المواصلات بين المناطق التي هاجمها خالد ومركز هذه الامبراطورية سليمة لا يهددها خطر بينما كان جيش جلوب وبريطانيوه يهاجمون لولا لفرنسية ، وجدت نفسها في سوريا معزولة عن قاعدتها في فيشي (ق فرنسا) اذ قطع الاسطول البريطاني في البحر المتوسط طريقها وليس لديها من المددات والمؤن ما يكفيها مدة طويلة . وكان خالد قد جاء من العراق قاطعا الصحراء كلها بينما استند جلوب ورجاله الى القواعد البريطانية في الفسرق والجفور والرزقاء وهي قرية من منطقة القتال، وكان خالد يعتمد على الابل والخيل في حركته بينما اعتمد جلوب على المدرعات والدبابات والسيارات السريعة بالاضافة الى الطائرات . ومن هذه النقط وحدها نتميز مقومات المقارنة اما القول بالنجاح والفشل فتفضيل ما بعده تفضيل اذ لا يعقل ان يكون خالد وهو القائد المبقرى ، قد فكر مطلقا ، بأن يهاجم ، بقواته التي لا تعدو المئات حتى ولو كانت بضعة الوف كما يرهب بعض المؤرخين أن يقولوا ، وهو الرقم الذي يبناء جلوب في هذا المكان بالذات ، رغم ميله في أماكن أخرى الى تكذيب الأرقام العربية وذلك ليديم مقارنته الخاطئة ويوصل الى النتيجة المضللة التي توصل اليها ، مدينة كدمشق فيها قواتها الضخمة . ومع اتصالها بقواعد تموينها ، وأمامها جيش معاد يعد كما قال المؤرخون (٢٤٠) ألفا . ومن هنا يكون استنتاج جلوب في تقرير الفشل خاطئا من أساسه . اذ لم يضع خالد خطة لاحتلال دمشق ليكون تراجعها عنها نكسة او فشلا . ومن هنا يكون خالد قد قام بحركته هذه ، لبث الرعب والدمر في مؤخرة جيش العدو الرابط على الرموك لاضعاف معنويته . وليقوم ببعض العمليات التي تعتبر في هرب الحرب العصرية عمليات مؤخرة لأرباك صفوف المقدمة وهي خطة لا شك في أن خالد قد نجح فيها نجاحا كبيرا كما يثبت من سياق الاحداث التالية .

(المررب)

تواريخ مشهورة

٦٢٨ - ٦٣٢	فترة من الفتن والفوضى في فارس
٦٣٢ أو ٦٣٣	يزدجرد يرتقى العرش
مايو (أيار) ٦٣٣	خضوع الحيرة
خريف ٦٣٣	الاستيلاء على الانبار وعين التمر
شتاء ٦٣٣ - ٦٣٤	ثلاثة أرتال عربية تغزو فلسطين والاردن
من يناير (كانون الثاني)	خالد بن الوليد يجتاز البادية من العراق
الى مارس (آذار) ٦٣٤	الى سوريا عن طريق دومة الجندل
ابريل (نيسان) ٦٣٤	اشتباكات لخالد مع الروم في مرج راهط خارج دمشق
مايو (أيار) ٦٣٤	ايقاف الارتال العربية عند اليرموك

شخصيات بارزة

قائد العرب في العراق	خالد بن الوليد
كسرى الفرس الشاب الجديد	يزدجرد
قادة الارتال العربية في فلسطين والاردن وثلاثتهم من قريش	عمرو بن العاص شرحبيل بن حسنة يزيد بن أبي سفيان
قادة العرب في العراق وكلهم من رجالات القبائل البدوية	المثنى بن حارثة - زعيم بني بكر القعقاع بن عمرو - زعيم بني تميم جرير بن عبد الله - زعيم بني بجيلة

بِداية الانتصارات

« كان مجلس الشيوخ يستهدف في أيام انتصارات الجمهورية الرومانية أن تحارب الجيوش الرومانية عددا واحدا في وقت واحد . وان تقضى على هذا العدد قضاء مبرما قبل أن تشتبك في أية معارك مع عدد ثان ، وقد استهان الخلفاء العرب بما عرف عنهم من حماس ومن عظمة بهذه القواعد المنطوية على الخوف ، والجبن . وقد تمكنوا بعين الدرجة من البأس والنجاح من غزو خلفاء القيصرة والاكاسرة واصبحت الامبراطوريتان المتنافستان في وقت واحد فريستين سهلتين لعلو كانتا قد الفتا منذ عهد طويل الاستهانة به واخذوا » ٠٠٠ - جيبون - انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها -

« وتلفتس جميع الشعوب الذين ينفهم اليك الرب الهك . فلا تشفق عيناك عليهم ، ولا تعبد آلهتهم فان ذلك وهق لك . » فان قلت في نفسك هؤلاء الامم اكثر مني ، فكيف استطيع ان اطردهم فلا تخفهم » . - سفر تثنية الاشتراع - الفصل السابع - ١٦ -

لم تكن المهمة سهلة أمام قادة المسلمين الذين قرروا الدخول في حرب مع البيزنطيين . فلقد كانت الامبراطورية الرومانية تقوم وتصان منذ أربعة قرون على أكتاف المشاة الرومانيين الذين اعتبرت وياقهم المشهورة ، المثل الأعلى للانضباط العسكري . لكن جيش بيزنطة في القرن السابق ، لم يكن يشبه بحال من الاحوال تلك الفيالق . فلقد بدأ التحول بعد معركة ادرنة المشهورة في عام ٣٣٨ ميلادية عندما تمكن فرسان القوط من اكتساح الجيش الروماني وابادته ، بعد أن كان نموذج الجيوش في العالم . وتبعت هذه المعركة ثورة شاملة في الشئون العسكرية ، اذ بقدر للخيلة أن يسيطروا على ميادين المعارك للألف سنة التالية . وكان السيف والمزراق سلاح الجندي الروماني من المشاة . أما سلاحه الدفاعي ، الفخوذ والدرع والزرذ وهو سلاح غير كاف لمقاومة أساليب الصاعقة التي يلجأ إليها الفرسان في هجومهم الثقيل .

وكان الرومان أنفسهم قد حلوا فيالق مشاتهم المشهورة بعد معركة ادرنة واختفت باختفائهم قرون طويلة من التقاليد والامجاد وأصبح الفرسان السلاح الاول في جيوشهم (١) . ولما كان السيف والخربة لم يعودا كافيين لمقاومة أى هجوم ثقيل يقوم به الفرسان فقد لجأوا الى القوس والنبال وسرعان ما تحولت كتائب الفرسان الى ثقيلة وخفيفة . أما الكتائب الخفيفة فسلحها السهام والقوس ، وفي وسعها أن تطلق نبالها وهي في حالة الركض والخبب في جميع الاتجاهات ، أما الكتائب الثقيلة فسلحها الرماح وتستعمل في عمليات الصاعقة . وقد تمكن الامبراطور يوستينيان بجيش من هذا النوع من استعادة الامبراطورية الرومانية لسابق عهدها بين عامي ٥٣٣ و ٥٦٥ . أما انجلترا فظلت عدة قرون متخلفة عن هذا التبدل الجذري في السلاح من المشاة الى الفرسان

(١) عاد سلاح المشاة الى أهميته « كسيد الحرب » بعد ظهور البارود والأسلحة النارية . أما في يومنا هذا فقد أدى اكتشاف سلاح الفرسان المدرع الاالى الى اضعاف قوة المشاة من جديد . وهي ثورة جديدة في عالم الحرب تشبه ثورة معركة ادرنة في عام ٣٣٨ .

والرماسة ، وكان الانجليز لا يزالون يقاتلون في معركة هيستينجز (١٠٦٦ ميلادية) بسلاح المشاة ، بينما استخدم النورمان اعدائهم الفرسان المدرعين والرماسة . وكانت الكتيبة هي الوحدة في الجيش الروماني وتضم نحو من أربعمئة جندي ويتألف اللواء من ثلاث كتائب أو أكثر بينما تتألف الفرقة من ثلاثة ألوية . وكان لكل كتيبة اشارتها الخاصة بها ، واللون الخاص بملابس رجالها (١) وكان البيزنطيون على خلاف العرب ، قد نظموا الخدمات الادارية والتنظيمية في جيشهم على احسن منوال . فلقد كان لكل فصيل من المشاة مؤلف من ستة عشر رجلا عربية خاصة بالفصيل تحمل لجنوده القنوس والمجارف لأعمال الحفر ومطحنة لطحن القمح ، وغير ذلك من الادوات والمعدات . وتسير مع الجيش وحدة اسعاف تضم الاطباء والجراحين وحملة ناقلات الجرحى . وكان التدريب التعبوي والعسكري ينفذ بدقة ونظام ومثابرة . كما توافرت لطلبة العلوم العسكرية كتب عدة لدراسة الفنون الحربية .

وامام هذا الجيش النظامي الرفيع التدريب . يقف العرب في جماعات من أبناء القبائل غير المدربين . فهم لا يعرفون شيئا عن التعبئة وفنون الحرب ، ولا عن النظام أو الكتب العسكرية . وليست لديهم ادارة ، أو رواتب أو أطباء . وكان سلاحهم أقل شأنا وأهمية من سلاح عدوهم ومع ذلك فانهم بعد مؤتة لم يخسروا أية معركة في حربهم مع الروم ، ومن المحتمل أن يكون شظف العيش الذي القوه واحتمالهم للمشاق واقتقارهم لاي تدريب منظم قد جعل منهم قوة أسرع على الحركة من عدوهم . لكن الفضل الأول والآخر في انتصاراتهم يجب أن يعزى الى روحهم المعنوية العالية . فهم ناروي المزاج محاربون بطبيعتهم . وأدى تطلّعهم الى الشهادة طمعا في فراديس الجنان التي وعدوا بها ، الى أن يقاتلوا بحمية تفوق تماما ما كان لدى أعدائهم من الروم من تفوق في السلاح والانضباط .



والصور التي نقلها الرواة لنا عن الحرب بين العرب وجيوش الروم في سوريا متناقضة تمام التناقض . فنحن نعتمد في مصادرنا على المؤرخين العرب . الذين كتبوا تاريخ هذه الحرب بعد أكثر من قرن من وقوعها . والذين على الرغم من تدوينهم لآحداثها ، كانوا - كما هو واضح - يجهلون

(١) ادمان - فن الحرب في العصور الوسطى .

ولا يبالون بها وبما دار فيها من عمليات حربية ولكنني تمكنت عن طريق الصدفة العارضة من اكتشاف ما يبدو لي اليوم بأنه مفتاح التفهم لحملة العرب على سوريا . وهو المضيق الضيق القائم بين نهر اليرموك وبين جبل الدروز عند بلدة درعا . وقد عثرت على هذا الاكتشاف على النحو التالي :

احتلت القوات البريطانية في يوليو (تموز) عام ١٩٤١ كلا من سوريا والعراق ، وكانت القيادة البريطانية تخشى أن يقوم الجيش الألماني الذي احتل البلقان باجتياح تركيا للزحف منها جنوبا عبر سوريا وفلسطين الى مصر التي كان الجيش الألماني يهاجمها من ناحية الغرب من ليبيا . ولم تكن هناك تقريبا أية قوات في سوريا وفلسطين . كما لم تكن هناك أية دبابات وأسلحة مضادة للدبابات وكان من الصعب وقف الألمان لو اجتاحتهم تركيا بوحدهم الصاعقة المدرعة ولهذا كان من المهم العثور على جميع المضائق الضيقة الموجودة حيث يمكن لقوات الدفاع أن تصمد أمام القوات الآلية المدرعة وأن توقف زحف الارتال الألمانية ، وقد عهد الى تحقيقا لهذه الغاية - بالتحري في المنطقة المحيطة بدرعا (١) .

يعتبر نهر اليرموك المسيل المائي الذي يصرف مياه منطقة حوران . وقد قام هذا النهر مع ممر ألوف السنين بحفر أخدود عميق يسيل فيه ليصب في وادي الاردن الذي ينخفض نحواً من ثلاثة آلاف قدم عن سهل حوران . ويبدأ هذا الأخدود عند بلدة درعا . وتقوم الى الشرق والشمال الشرقي من هذه البلدة سلسلة ضخمة من الجبال التي ولدتها البراكين الخامدة والتي تكتظ سفوحها بكتل ضخمة من السوائل البركانية المنصهرة . وتصعب الحركة في بعض الجهات في هذه المنطقة حتى على المشاة بينما يتعذر السير فيها على الجياد أو الأبل أو العربات مهما كان نوعها . وتهبط هذه النتوءات البركانية نحو السهل تدريجاً الى أن تصل تقريبا الى نقطة يصبح فيها نهر اليرموك ضيقاً لا يصلح للمرور مطلقاً .

(١) اعتراف واضح وصريح من جلوب . بأنه كان وهو يقود جيش الاردن الدولة المستقلة اسماً - ينفذ لبريطانيا اهدافها وغاياتها العسكرية في المنطقة . وقد فصح جلوب باعتباره هذا نفسه . كما فصح استقلال الاردن الزائف . واثبت أن الكيان الاردني لم يتم الا لتنفيذ مخططات بريطانيا الاستعمارية وللحفاظ على مصالحها وخططها السوقية . ولعل هذا الاعتراف نفسه يصلح دليلاً على اثبات تهمة الخيانة في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . إذ أن جلوب هذا كان قائد الجيش الاردني في تلك الحرب . كما كان رئيس أركان القائد الأعلى للجيش العربية كلها وهو الملك عبد الله .

(العرب)

وعلى الرغم من ان الفجوة الصغيرة بين الارض البركانية وبين اليرموك كانت تعتبر فى عام ٦٣٤ ، وما زالت تعتبر حتى يومنا هذا ، الطريق الرئيسى بين دمشق وبين فلسطين وعمان وايلة (العقبة) . وقد أطلقنا فى عام ١٩٢٥ على هذا المضيق اسم «فجوة درعا» وقررنا أن نحفر فيها خنادق لمقاومة الدبابات وأن نقيم عليها مراكز محصنة للواء من المشاة لاغلاق الفجوة .

ويشكو جميع المؤرخين الاوربيين للفتح الاسلامى لسوريا من غموض الروايات العربية وافتقارها الى الدقة فهذه الروايات تذكر المرة تلو المرة ان جيشى العرب والروم كانا متقابلين على نهر اليرموك ثم تعود هذه الروايات وتذكر انهما تفرقا عن المكان دون الوصول الى نتيجة ، فهل وقعت معارك عدة على هذا النهر ؟ ولماذا يتكرر ظهور هذا الاسم - اليرموك - فى الروايات ؟ ان الصورة الصحيحة لم تتضح أمامى الا فجأة وبعد أن قمت باستطلاع هذه المنطقة لاغراض عسكرية . ولقد أدركت ان هذا المضيق على ما هو عليه من نفع فى صد أى هجوم المائى من الشمال ، صالح صلاحا أكبر وأكثر أهمية لصد أى هجوم قادم من الجنوب أيضا ، وفى وسعى أن أقول أن « فجوة درعا » تقوم أمام أى غزو من الجزيرة العربية مقام مضيق ترموبولى فى اليونان .

ولقد كان الألمان فى عام ١٩٤١ لا يقهرون فى أية حرب آلية صاعقة فهم يزجون فى الحرب بتيهور ضخم من المدرعات والسيارات المدرعة وغير المدرعة والمدافع الذاتية الدفع والتوجيه وفى وسع هذا التيهور أن يجتاح المناطق السهلة مكتسحا أمامه كل مقاومة . وكانت الطريقة الوحيدة فى مقاومة هذا التيهور الآلى الهائل الصمود أمامه فى منطقة ضيقة فى الجبال والمضايق والفجوات الضيقة حيث لا تستطيع القوات الآلية المرور الافرادى .

وكان المسلمون سريعى الحركة الى درجة هائلة وكان أسلوبهم المعنوى يتركز فى هجوم عنيف شرس وفى حركات تقدم وتراجع والتفاف تنم بسرعة مع قطع طرق المواصلات والتموين . ولم يكن فى وسع القوات البيزنطية الثقيلة والبطيئة الحركة أن تصمد أمام هذه السرعة فى التحرك فى أراض فسيحة منبسطة ، لكن العرب لم يكونوا قادرين على خوض أية معركة للمشاة متقاربة الصفوف ، يدور فيها القتال بالحراب . فلم يكن جنود المسلمين يملكون أسلحة دفاعية كافية أو دروعا وقائية ولم يكونوا ذوى خبرة فى حروب الصفوف المتقاربة والحسنة الانضباط . يضاف الى هذا افتقارهم الى أسلحة الاسناد الثقيلة . وكانت سحب النبال هى

فيران التغطية الوحيدة لديهم . ولعل هذا الوضع يفسر لنا اجتياحهم السهل لصحارى شرق الاردن وجنوب فلسطين وسهولها وخشيتهم من القتال عند الجبال والمضائق . وقد فزع البيزنطيون من حرب العرب الصاعقة فأقام جيشهم فى عام ٦٣٤ د كما أقام الجيش البيزنطى فى عام ١٩٤١ ، معسكرا دفاعيا منيعا على مقربة من درعا فى الثغرة الواقعة بين اليرموك والاراضى البركانية فكان العرب يقدمون على الاشتباك مع الروم أمام هذه المواقع الدفاعية ليعودوا ، فينسحبوا ، ولكن افتقارهم الى العلم العسكري جعل من الصعب عليهم اقتحام هذه المواقع . ومن هنا يتبين ان عمليات خالد حول تدمر وقرب دمشق التى وصفها فى الفصل السابق كانت تهدف الى اقناع الروم بالانسحاب من درعا لحماية مؤخرتهم وهو هدف لم يتحقق على أى حال .

وكان أبو بكر قد أوفد فى غضون ذلك الى سوريا أبا عبيدة بن الجراح أحد الصحابة الكبار . ولا يتحدث المؤرخون المسلمون عن مراكز القادة المسلمين المتعددين أو سلطاتهم . ولكن المفروض ان أبا بكر انتدب أبا عبيدة قائدا عاما على عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل ابن حسنة . ولقد كان أبو عبيدة فى أواسط العمر رجلا هادى الطباع مؤمنا واعيا شديدا الايمان وكان قاضيا عدلا ومديرا منظما ولكنه لم يكن عسكريا عبقريا ولذا عندما وصل خالد الى المسرح لم يعترض أبو عبيدة على توليه المسؤولية والقيادة العامة (١) .

(١) تختلف روايات المؤرخين المسلمين عن رواية المؤلف تمام الاختلاف فابو عبيدة لم يأت متأخرا كما قال المؤلف وانما كان موجودا على رأس جيشه فى المنطقة ، ولم يمينه أبو بكر قائدا عاما وانما كان قائدا على جيشه مثل القادة الثلاثة الاخر . وادى هنا أن انقل للقارئ رواية المؤرخين العرب كما ذكرها الطبرى ...

لما علم الروم بمسير المسلمين اليهم اهتم هرقل بالامر وكان فى حمص وعلم بتفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فأراد أن يقاتلهم متفرقين لأن العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمير بأضعاف ما معه. ولما علم بذلك الرؤساء الأربعة تكاثبوا وكان من رأى عمرو بن العاص أن يجتمعوا إذ ان اجتماع المسلمين يمكنهم من القول وقال « أما اذا تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد بقرن منه لاحد ممن استقبلنا واستحسن القادة الثلاثة رأيه فتوأمدا على اللقاء فى اليرموك ، وكتبوا الى أبى بكر فجاءهم كتابه بمثل رأى عمرو وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين وأن كل رجل بأصحابه . وبلغ هرقل ذلك فكتب الى قواده ان اجتمعوا فاجتمعوا ونزلوا منزلا واسع العطل ، واسع الطرد ، ضيق المنرب وكان ذلك فى الواقوسة وهو واد فى حوران على شفة اليرموك وجعلوا من الوادى خندقا لهم وقد اقمهم الجنود الاسلامية الى هناك فنزلوا بحداثهم على طريقهم وليس للروم طريق الا عليهم فصاروا وكانهم محصورون . وظلوا على هذا الحال طيلة أشهر

ولم يكن خالد من طراز القادة الذين يخلدون الى السكينة والى محاصرة موقع الروم على نهر اليرموك ، ولذا فسرعان ما تحولت العملية الى حركة هجومية دائمة . وكان أول عمل قام به احتلال مدينة نصرى وهى احدى المدن الاغريقية العشر التى بناها الاسكندر المقدونى قبل نحو من عشر سنوات . وقد صالح أهل المدينة العرب على دفع الجزية .

وكان عمرو بن العاص لا يزال يواصل غزو سهول فلسطين الجنوبية وجمع الغنائم منها ، من القاعدة التى أقامها لنفسه فى وادى عربة . وكان راغبا عن المغامرة واقتحام جبال السامرة واليهودية والكرمل اذ أن العرب كما سبق لنا ان قلنا بارعون فى حروب الصحراء ليس الا .

وكان هرقل امبراطور بيزنطة مقيما فى حمص ويشغل نفسه باعداد جيش جديد يبعث به الى جنوب فلسطين ويبدو من فكرة ارسال هذا الجيش ان هرقل كان على ثقة من جمود تحصينات اليرموك فى وجه العرب والا لما كان يغامر بارسال جيش الى ذلك المكان النائى . وقد استعاد بعمله هذا زمام المبادرة وأرغم العرب على تعديل خططهم لمواجهة خطته .

= صفر ودبيع لا يتقدرون من الروم على شيء والواقوسة وراهمم والغنشدق امامهم وكان المسلمون قد استمدوا ابا بكر فى شهر صفر فكتب الى خالد ليلحق بهم . وصادف قدوم خالد ان قدم مدد عظيم على الروم وبلغت عدتهم ٢٤٠ ألفا وجاء خالد فوجد المسلمين يتقاتلون متساندين أى أن كل امير يحرك جنوده مستقلا عن غيره وقد علم أن الروم قد هزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى فجمع الامراء وخطب فيهم قائلا ان هذا اليوم من ايام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغى اخلصوا جهادكم وأريدوا الله بمحكم فان هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوما على نظام وعبية ، وانتم على مساند وانتشار ، فان ذلك لا يحل ولا ينبغي وان من ورائكم لو يعلم علمكم لحال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون انه الرأى ، قالوا فهات فما الرأى قال : ان ابا بكر لم يبعثنا الا وهو يرى اننا سنتسائر ولو علم الذى كان ويكون لكان قد جمعكم ، ان الذى انتم فيه اشد على المسلمين مما قد فشيهم وأنفع للمشركون من امدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد افرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه ان دان لاحد من امراء الجنود ولا يريده عليه ان دانوا له . ان تأمر بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله املوا فان هؤلاء قد هبوا وهذا يوم له ما بعده ان رددناهم الى خنادقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها فعملوا للتمناود الامارة فليكن عليها بعضنا اليوم والاخر غدا والاخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوى اليكم اليوم فأمرهم .

(العرب)

ونقد سبق لى فى الفصل الثالث من هذا الكتاب أن تحدثت عن حملات هرقل العسكرية ضد الفرس وسبق لى أن بينت أن هرقل وجد فى نفسه الشجاعة . وكان كسرى ابرويز يحاصر عاصمته القسطنطينية ليفادر العاصمة عن طريق البحر الاسود لينزل قواته على بعد خمسمائة ميل الى الشرق ، ويزحف بها على أرمينيا . وانتصر هرقل على الفرس فى نينوى ثم أصبح فى وضع مكنه من الزحف على المدائن مرغما كسرى على رفع الحصار عن القسطنطينية والجلاء عن أراضى الروم . ومن الواضح والحانة هذه ان خطة الصمود أمام العدو فى خط تقدمه الرئيسى ثم ارغامه على الانسحاب بحركة التفافية واسعة تسهلها سيطرته على البحر كانت عملية سوقية يعرفها الامبراطور خير معرفة وقد شرع الآن فى تنفيذها من جديد .

اعتمد هرقل على تحصينات اليرموك لوقف الزحف العربى على دمشق ولاحظ أن عمرو بن العاص وحيد فى منطقة بئر السبع وراح يبعث بجيشه الرئيسى الى الجنوب نحو فلسطين من طريق طبريا فالناصره قيسارية التى يستطيع ان يستعملها بعد الآن قاعدة أمامية . وكان البيزنطيون يسيطرون على البحر وفى وسعهم تموين جيوشهم فى فلسطين من ميناء قيسارية أو من مينائى يافا وغزة فيما بعد وكان الهدف من العملية كلها الانتصار على عمرو بن العاص فى منطقة بئر السبع فى الوقت الذى تنشغل فيه قوات المسلمين الرئيسية فى اليرموك . واعتقد هرقل انه اذا حقق هذه الغاية فانه يصبح قادرا على الزحف الى ايلة (العقبة) ليهدد منها طريق مواصلات المسلمين مع مكة والمدينة مرغما بذلك قواتهم الرئيسية على التراجع عن اليرموك

وينظر معظم المؤرخين - على ضوء هزيمة الروم النهائية - الى هرقل على انه انسان احمق ضعيف يثير الدهشة لا سيما وقد اظهر جراءة وبسالة ضد الفرس فى الماضى . . . وعجزا فاضحا أمام العرب فيما بعد . ولكن اذا صح تقديرى العسكرية للوضع فاننى أرى أن الامبراطور أراد أن يستعمل فى سوريا وفلسطين نفس الاساليب السوقية الجزئية التى مكنته من الانتصار على كسرى . وكان مفتاح الخطة كما هو واضح تحطيم جيش عمرو بن العاص عند بئر السبع قبل أن تصله النجيدات من جيش المسلمين الرئيسى عند اليرموك .

وكان لابد لانباء زحف جيش الروم فى سوريا الى فلسطين من أن تصل الى قادة العرب عند اليرموك . ووجد القادة أنفسهم فى وضع

غريب و حرج كل الحرج ، فلقد افترقت هذه الجيوش الاسلامية في بداية زحفها عن الرتل المتجه الى بئر السبع في الصحراء المحيطة بايلة . و راحت هذه الجيوش تزحف ، مدفوعة بغريزتها في الميل الى القتال في المناطق الصحراوية التي تألفها ، نحو الشمال ، الى بصرى ودرعا مخلفة وراءها جبال موآب والبلقاء دون أن تمسها ، لتصبح الى الغرب من خط زحفها ولم تكن هذه الجبال صحراوية بل كانت اراضى مزروعة تنتشر فيها المدن والقرى وتؤلف حاجزا يفصل بين قوات عمرو بن العاص في بئر السبع وقوات خالد وأبي عبيدة عند اليرموك وعندما وصلت الى مسامع القادة العرب انباء زحف الجيش البيزنطى جنوبا عبر طبرية وقيسارية كان الوقت قد فات على تمكينهم من الوصول الى عمرو بن العاص في الوقت المناسب عن طريق ايلة ولكنهم آمنوا انهم اذا لم يصلوا اليه بسرعة فان قواته ستنهار وتتحطم .

وتؤلف جبال شرق الاردن - وهى سلاسل عجلون والبلقاء والكرك حاجزا من الصخور لا يمكن اجتيازه . وليس فى هذه السلاسل الا ممر واحد يؤدى الى بئر السبع ويقع الى الجنوب من البحر الميت وتمر هذه الطريق عبر جبال الكرك (موآب) ثم تلتف حول السواحل الجنوبية للبحر الميت لتعود فترتفع عن طريق عين الحصب لتصل الى بئر السبع . أما الى الشمال من هذا الممر فان جبال شرق الاردن تنحدر تماما وبصورة مفاجئة عميقة الى البحر الميت . وإلى الجنوب من هذا الممر تعود الجبال الى الارتفاع العمودى بحيث يضطر الفرسان اوراقبو الابل الى الترجل عن جيادهم أو رواحلهم ليتجنبوا خطر الهاويات العميقة ولم يكن فى وسع العرب ان يعبروا نهر الاردن الى الشمال من البحر الميت اذ ان الروم كانوا لا يزالون يحتلون القدس وجبالها (جبال اليهودية) .

ولم يكن ثمة وقت يضاع قبل نجدة عمرو بن العاص وانتقاذه . واختفى العرب فجأة من موقع اليرموك وراحوا يسرون ليلا ونهارا باتجاه الممر المشار اليه ووجد أهل الكرك (موآب) انفسهم فجأة يواجهون عاصفة قوية من راكبي الابل فراحوا يعقدون الصالح معهم ويفتحون لهم طريق المضيق . وكان يقيم فى بلدة الكرك وقرىها أقوام هم من انصاف العرب يدينون بالمسيحية للنسطورية . وعلى عدااء مستحكم مع الكنيستين الارثوذكسية والرومية الكاثوليكية . وتدفق المسلمون عبر المضيق وعبر وادى عربية ليعودوا فيرتقوا صعدا الى سهل بئر السبع شسبه الصحراوى فى الوقت نفسه الذى كان جيش الروم

فيه يزحف جنوبا من قيسارية . وهكذا كسب البدو السريعو الحركة على ابلهم بتعودهم على شتظف العيش والرحيل ليلا ونهارا معتمدين فى غذائهم على قصعة من الخبز ، السباق مع الجيش الرومانى البليد المترهل الذى يثقل سيره بما يحمله من معدات الحضارة وأدواتها . ووقعت معركة عظيمة فى شهر يوليو (تموز) من عام ٦٣٤ فى اجنادين التى تقع بين الرملة وبين بيت جبرين ومنى الروم بهزيمة كاملة . وكان خالد بن الوليد قائد هذه المعركة التى استشهد فيها عكرمة بن أبى جهل قائد المسلمين فى حروب الردة فى عمان وحضرموت .

وهكذا طاش سهم هرقل فى معركة اجنادين وتحطمت خطته السوقية لشن الهجوم المضاد وعادت قوات المسلمين الرئيسية الى اليرموك حيث كانت حصون الروم للدفاعية تقف سدا امام الزحف العربى على دمشق . وترك العرب مؤقتا المناطق الجبلية فى شمال فلسطين وشرقها دون ان يمسوها جريا على ما الفوه من اثار الحرب فى الصحراء أو فى السهول المكشوفة على الاقل ، يضاف الى هذا ان جيش الروم على اليرموك كان القوة المعادية الوحيدة التى مازالت فى الميدان . ولو تمكن العرب من هزم هذا الجيش فان المدن المحصنة ذات الاسوار يمكن ان تصفى على مهل . وعادت القوات العربية مرة ثانية فى شهر أغسطس (آب) عام ٦٣٤ الى مواجهة حصون البيزنطيين عند ثغرة درعا .



أرى لزاما علينا على أى حال أن نترك الجبهة السورية بعض الوقت لندرس ما وقع من تطورات فى العراق . ولعلنا نذكر أن خالدا عبر بادية الشام فى ديسمبر (كانون الاول) عام ٦٣٣ أو فى يناير (كانون الثانى) عام ٦٣٤ على رأس نصف الجيش الاسلامى من العراق لنجدة قوات المسلمين فى الشام وكان المثني بن حارثة شيخ بنى شيبان قد تولى قيادة المسلمين بعد رحيل خالد عن العراق ويبدو ان المسلمين فى المدينة لم يكونوا يعلقون كبير أهمية على جبهة الفرس وهذا يظهر من صدور الأمر بسير نصف قواتهم فيها الى سوريا ، ويعهد بقيادة من تبقى الى شيخ بدوى . فلقد كانت قریش مصرّة حتى ذلك التاريخ على احتكار الساطة كلها وحصر القيادات العليا فى رجالاتها . وحتى فى حالة تعيين احد المهاجرين أو الانصار لهذه القيادات فان هذا المعين يكون حضريا من أهل مكة أو المدينة ولا ريب فى أن العصبية التى

تفصل، اليوم بين البدو والحضر كانت موجودة وقوية قبل ألف وثلاثمائة عام . ولم يكن المثنى قرشياً أو حضرياً بل كان بدوياً من بنى بكر ومن هنا كان لابد وان يكون المنصب الذى سمح له بالاحتفاظ به منصباً ثانوياً لا أهمية له (١) .

ومهما كان الأصل الذى ينتمى اليه هذا القائد فلقد كان رجلاً. فذ الشجاعة ، شديد الاخلاص ، والولاء ، على استعداد لمقابلة الشاهنشاه. وجهها لوجه بحفنة من رجاله البدو . ولم يكن قد انقضى على تبوء الملك الفتى (يزجرد) عرش الاكاسرة الا فترة قصيرة وراح يعد العدة ليمجد ارتقاه العرش باخراج هؤلاء الغزاة من ابناء الصحراء . وقرر المثنى. ان يخوض المعركة عند خرائب بابل القديمة حيث وقف مع رجاله ينتظرون هجوم الفرس الذين يقودهم أحد القبيلة . ولم يكن العرب. قد الفوا بعد طريقة معالجة هذا الطراز المبكر من هجمات « الدبابات ». وسرعان ما أوقع الفيل بعض الاضطراب فى البداية فى صفوف العرب . وكانت عادة العرب فى هذه المعارك الاولى ان ينشد قائدهم المجد لنفسه. بتولى زمام المبادرة فى البراز وتحدى قائد الاعداء الى مبارزة فردية. ليضرب مثلاً فى البسالة لرجاله . وراح المثنى يصحبه بعض رجاله يهاجم الفيل فأوقعه أرضاً وعندما فقد الفرص عون فيلهم انهزموا. وانتصر العرب فى المعركة .

ولا يمكن تفسير ما تميزت به حركات الفرس من بطء وتذبذب فى وجه هذه القوة الصغيرة من البدو التى يقودها المثنى الا بالفوضى التى كانت قد ضربت اطنابها فى امبراطوريتهم فى غضون السنوات الخمس الأخيرة .

وهكذا احتفظ المثنى ورجاله بعد معركة بابل (٢) بمدينة الحيرة. وبكلتا ضفتي الفرات من الانبار حتى رأس خليج البصرة وأحس المثنى.

(١) سبق لى ان بينت في هامش سابق خطأ هذا الراى الذى جاء به المؤلف وقلت ان الاسلام لم يفرق بين شخص وآخر الا بالتقوى ، اما اذا كانت القيادات في مطلع العهد الاسلامى من نصيب قريش او الانتصار فان السبب في ذلك راجع الى ان الخليفة كان لا يزال يعتمد على رجاله من صحابة رسول الله ، لاسيما وان حروب الردة اثبتت انه لا يمكن الركون الى القبائل البعيدة .

(العرب)

(١) يطلق العرب على المعركة اسم موقعة الجسر .

(العرب)

بالقلق فقد أدرك أن الفرس لابد وأن يبعثوا اليه بقوة كبيرة اذ أن حروبهم الأهلية كانت قد انتهت ، فصحيح أن (يزدجرد) كان لايزال فتيا الا أنه لم يلق معارضة في حكمه وكان الامراء والقادة يبذلون كل ما لديهم من جهود لاعادة تنظيم الدولة والجيش .

ولا ريب في أن المثني بوصفه رئيسا من رؤساء بكر كان على علم تام بأوضاع الحكومة الفارسية يضاف الى هذا أن المدائن عاصمة الأكاسرة لم تكن لتبعد الا ثمانين ميلا عن مقر قيادته في الحيرة . ومن المفروض أنه كان على علم بأن الفرس لن يكملوا استعداداتهم لحربه قبل انقضاء بضعة أسابيع ولذا فقد حزم أمره على انتهاز فرصة الهدوء الذي سيسود الجبهة في هذه الفترة ، وأسرع الى المدينة ليقابل الخليفة شخصيا محتجا اليه على ما يبديه من عدم اكترات بجبهة الفرس . وقرر أن يلج على الخليفة بوجوب ارسال قوات كافية لنجدة قواته .



كان أبو بكر يصغر النبي بثلاث سنوات . ولذا كان في التاسعة والخمسين أو الستين من عمره عندما ولى الخلافة . وقد انقضى العام الأول من خلافته في حروب الردة واخلاد العصيان في الجزيرة العربية . ولقد رأينا فيما سلف كيف أن الخليفة نفسه قاد أهل المدينة لمحاربة القبائل الثائرة في ذى القصة . أما في السنة الثانية من خلافته فقد اجتاح تيار الحرب فارس وسوريا . وتمكن أبو بكر من قيادة موسم الحج بنفسه . وتذكر أبو بكر أن صديقه ونبيه محمدا كان قد قاد موسم الحج قبل عامين فكانت حجة الوداع ودمعت عينا أبي بكر الوفي وجلس الخليفة في صحن الكعبة كما جرت العادة منذ أيام الجاهلية حتى اليوم . وراح يسأل الحجاج عما اذا كان لدى أحدهم مظلمة يود أن يرفعها اليه ليعيد اليه حقه . وتؤكد الروايات : أن أيا من الحجاج لم يتقدم بمظلمة .

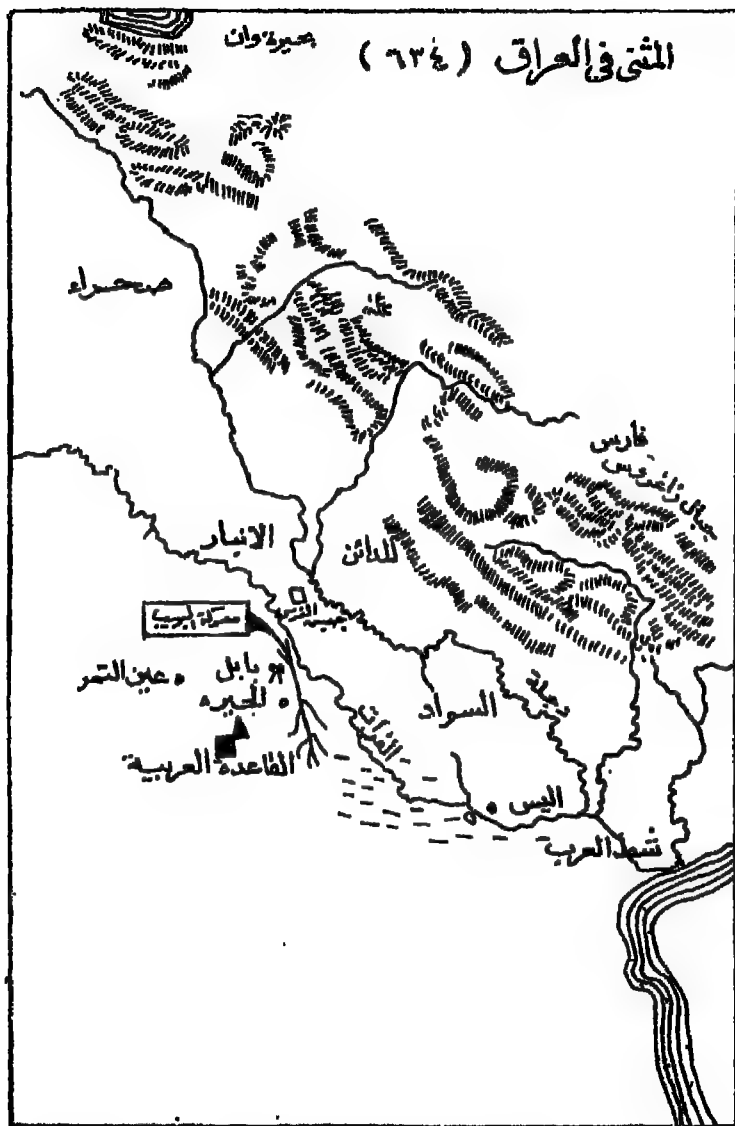
وعاد الخليفة الى المدينة وأخذ يصرف وقته بارسال النجيدات الى سوريا حيث كان الجيش الاسلامي عاجزا عن تخطي حصون الروم في اليرموك . وأصيب الخليفة بالحمى في شهر أغسطس (آب) عام ٦٣٤ بعد أن استحم في يوم قر وأخذت حرارته في الارتفاع مما أرغمه على ابقاء عمر بن الخطاب ليصلي بالمسلمين نيابة عنه ووصلت اليه وهو في مرضه أنباء انتصار العرب في معركة أجنادين مما يشير الى أن المعركة وقعت في يولية (تموز) عام ٦٣٤ .

وظل الضعف يشتد يوما بعد يوم بالخليفة الى أن أدرك بعد انقضاء عشرة أيام أو اثني عشر يوما اقتراب أجله ، وعادت به الذاكرة الى الفوضى التي كادت تضرب أطنابها بعد وفاة النبي فقرر أن يختار للمسلمين خليفة ، وراح يدعو عبد الرحمن بن عوف أولا ليتبعه بعثمان بن عفان فطلحة بن عبيد الله فغيرهم من المهاجرين والانصار وكلهم من صحابة رسول الله ليستشيرهم في خليفته . ولما وجد أن غالبية الصحابة تؤيد اختيار عمر بن الخطاب مع خشية بعضهم من شدته وحدة مزاجه راح يعمل على عثمان بن عفان أمره باستخلاف عمر ، وأوعز بعد ذلك بأن يقرأ أمره على المسلمين المجتمعين في المسجد ، اذ كان أبو بكر يقيم في منزل صغير كمنزل النبي يطل على صحن المسجد ثم أشرف على الناس تمسكه زوجته وراح يقول بصوت جمع فيه كل ما تبقى من قوة . . انه اختار عمر بن الخطاب لخلافته لانه يراه أجدر الناس بها وطلب اليهم أن يسمعوا اليه ويطيعوا فرد الناس بصوت واحد « سمعنا وأطعنا » .

وعندما شعر أبو بكر بنهيته قال : أى يوم هذا ؟ قالوا يوم الاثنين وهو اليوم الذى توفى فيه النبي فقال : فان مت من ليلتي فلا تنتظروا بى لغد ، فان أحب الأيام والليالي الى أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد وصل المثنى بن حارثة الى المدينة وقابل أبا بكر وهو يحضر يسأله ارسال النجدات الى جبهة الفرس وراح الخليفة المحضر يأمر عمر ابن الخطاب باندباب الناس لنجدة المثنى وقواته فى العراق ثم راح يوصيه بالتخفيف من شدته وحدته . وان يعتمد الاقتناع واللين سبيلا له . وسرعان ما انتقل الى الرفيق الأعلى ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو يتم بصلاته الأخيرة وكان ذلك فى الثالث والعشرين من أغسطس (آب) عام ٦٣٤ .

ولقد قيل ان حياة أبى بكر وسلوكه كانا من أقوى الأدلة على صدق دعوة النبي واخلاصه فلقد كان أبو بكر من أوائل الصحابة وكان رفيق النبي فى هجرته من مكة وأقرب الصحابة الى قلبه ولقد كان الخليفة الاول رجلا بسيط الشخصية عميق الايمان والاخلاص . وقد سار على سنة النبي ولم تؤثر على سبيله فى الحياة الانتصارات العظيمة التي تحققت فى عهده ولا الثروات الطائلة التي تدفقت على المسلمين من جراء هذه الانتصارات . ولقد ظل يعيش فى بيت بسيط قريب الى ما نسميه نحن بالكوخ مبنى من الطين المجفف واللين وتغطى سقفه غصون الاشجار ولقد



ظل رغم أنه الحاكم في امبراطورية آخذة في الاتساع السريع يرتدى ملابس بسيطة قوامها قميص من القطن وعباءة خشنة هي عين ما كان يرتديه قبل خمسة عشر عاما عند ما كان مواطنا عاديا في مكة ، وكان يواصل حلب الشياح لاسرته الصغيرة حتى عندما كانت جيوشه تجتاح فيالق القيصرية . وجيوش الاكاسرة .

ولقد ظلت الانظمة المالية للامبراطورية الجديدة في عهده هي انبساطه بعينها . فلقد كان خمس الغنائم يصل الى المدينة من جبهات القتال حيث يقوم الخليفة بتوزيعه فور وصوله ، وكان يلجا في بعض الأحيان الى ابتياح السلاح والخيول والدروع لجنوده من بعض هذا الفء أما ما يتبقى فيوزعه على المحتاجين من المسلمين ولم تكن هناك حسابات منظمة ، أما ما يصيب بيت المال من فراغ فيعالج فورا بما يصل اليه من غنائم جديدة حققتها الانتصارات الباهرة .

ولقد جرت سنة رسول الله على عدم الاحتفاظ بشيء من متاع الدنيا لاستعماله الخاص . وعلى الرغم من تدفق مبالغ كبيرة من المال الى يديه على شكل الفء أو خمس الغنائم - فان هذا الفء كان يوزع على الفقراء والمحتاجين وأرامل الشهداء . ولقد سار أبو بكر في كل هذه الأمور كما في غيرها على سنة الرسول مطبقا اياها بجميع حذايرها وتفصيلها .



ولا ريب في أن أنباء معركة أجنادين وصلت الى جبهة اليرموك فرفعت من معنويات العرب فيها بينما أصابت الروم بما يشبه الدهول ، ومهما كان السبب فان القتال ما لبث أن اشتد في ثغرة درعا وتمكن المسلمون أخيرا في نهاية شهر أغسطس (آب) عام ٦٣٤ من احتلال المواقع وإرغام جيش الروم على الانسحاب منها . وهكذا بات باب سوريا مفتوحا على مصراعيه أمام جيوش المسلمين وكان خالد بن الوليد هو القائد العام في هذه العمليات كلها . وتلقى أبو عبيدة ، والمركة في ذروتها ، اذ أنها استمرت عدة أيام ، رسالة من المدينة تنبئه بوفاة أبي بكر وبتولى عمر ابن الخطاب الخلافة بعده وحمل نفس الرسول رسالة أخرى من عمر ثقيل . خالدا من قيادة الجيش وتعين أبا عبيدة مكانه ، ولكن لما كانت المعركة في أوجها ، فقد أثر أبو عبيدة اخفاء الرسالة الى أن أكمل خالد النصر العظيم الذي كان قد بدأه .

فلقد كان هناك شيء من النفور الشخصي يقوم منذ أمد بعيد بين

الخليفة الجديد وبين خالد بن الوليد ، ولا ريب في أن القاريء يذكر ان عمر كان قد نصح أبا بكر بعزل خالد من القيادة اثر قتله مالك بن نويرة في حروب الردة . ولكن أبا بكر رفض مشورة عمر وقبل من خالد تبريره لذلك العمل . وقد أدى هذا الحادث وبعض الحوادث المسائلة الى زيادة النفور بين الرجلين مما حمل الخليفة الجديد على أن يكون عزل خالد وهو أكثر القادة نجاحا من قيادته من أول الاعمال التي قام بها . ومن السهل على من يقرأ هذا أن يتهم الخليفة الجديد بالحقْد الشخصي المجرد ، ولكن سلوكه طيلة السنوات العشر التي قضاها في الخلافة دلل تمام التدليل على أنه كان رجلا شديد الايمان والورع جم التواضع عميق الصدق والاخلاص ، ولقد كان خالد قائدا عظيما وذا كفاية وجراة قادرا على تسلم زمام المبادرة في كل حين ، وعلى احتمال المسؤولية ، ولكن قيل عنه ان الاسلام لم يكن عميقا في نفسه ، ويقال انه حصل من النبي قبل وفاته على خصلة من شعره وضعها في غطاء رأسه ، وكان يعزو نجاته من جميع المعارك التي خاضها الى هذه الرقية . وقد يكون هذا العمل منه ايمانا بالخرافات أكثر منه بالدين ولكنه يظهر على أي حال ايمانا عميقا ومخلصا للرسول .

وعلى أن نذكر على أي حال ان النبي وأقرب صحابته اليه كانوا يعتمدون في الوصول الى النصر على المعونة الالهية أكثر من اعتمادهم على البراعة البشرية ، ومن المحتمل أن يكون الخليفة بايمانه البسيط غير المعقد قد اعتقد بأن النصر أكثر ضمانا على يد قائد مثل أبي عبيدة ، وان لم تكن كفايته العسكرية بارزة ، منه على يد عسكري بارز كخالد بن الوليد يفتقر الى التقى والورع مما لا يجعله موضع عناية الله ورعايته (١) .

(١) لا أدري كيف يسمح مؤلف لنفسه بأن يهبط الى هذا المستوى من الموضوعية كمؤلفنا جلوب . فلقد ركز كل تفكيره على محاولة النيل من خالد ومن صدق اسلامه وطمع ايمانه دون أي مبرر أو سند تاريخي . سوى تأخره في الاسلام وحادثته مع مالك ابن نويرة . وقد سبق لنا ان بينا ان لخالد عدوه حتى من الناحية الدينية في قتل مالك لانه مرءد ولانه نقض عهد الله ورسوله وعصى وهو الحاكم المعين من النبي ، أمر خليفته كما أن التأخر في الاسلام لا يمكن ان يكون مبررا للطمع في ايمانه ، فلقد تأخر عمر ابن الخطاب نفسه من الاسلام ولكنه كان من أصدق صحابة الرسول بعد اسلامه وتأخر غيره كثيرون ثم صدقوا اسلامهم وابلوا في سبيل الله بلادا حسنا كأبي محجن الثقفي وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما من أبطال الحرب الذين قدموا ارواحهم في خدمة الاسلام وهذا هو مثال التضحية .

يضاف الى هذا ان النبي أسمى خالدا بسيف الله ولم يكن ليطلق عليه هذا الاسم لولا ثقته بايمانه . وعندما عزل خالد من قيادة الجيش قال : الحمد لله الذي =

والغيرة الشخصية نقيصة من أشد النقائص وأقواها في الخلق العربي (١) وكان من المنتظر من شخص عنيد وصلب كخالد أن ينسحب حاقدا مغيظا من الجيش والحياة العامة لهذا العزل الذي كوفىء به على انتصاراته العظيمة الرائعة ، لكن شيئا من هذا لم يحدث مطلقا فلقد أسلم خالد القيادة عن رضى الى أبى عبيدة الدعث التقى ، وقنع بالعمل تحت لوائه ويبدو أن هذين الرجلين قد توصلا على الرغم مما بينهما من خلاف فى الشخصية الى شيء من التفاهم الشخصى الوثيق . ولا يتحدث المؤرخون عن وقوع أى احتكاك نابع عن الغيرة بينهما . وليس ثمة من ريب فى أن أبا عبيدة المتواضع السمع كان على استعداد لتقبل نصيحة مساعده الجبار القوى فى كافة الشؤون العسكرية ، كما ان الانتصارات المذهلة التى حققها خالد للقضية العربية لا بد وأن تكون قد كسبت له اجماع المسلمين على احترامه وإجلاله حتى ولو لم يعد قائدهم العسكرى بصورة رسمية .

= قفى على أبى بكر بالموت وكان أحب الى من عمر ، والحمد لله الذى ولى عمر وكان ابغض الى من أبى بكر ثم الزمنى حبه ، وفي هذا القول مثل سام من أمثلة الايمان والارتفاع من الانتهاز والحزازات والاحقاد . وقد أثبت خالد ايمانه فعلا فظل يحارب طيلة فتوح سوريا تحت امرة أبى عبيدة كجندى بسيط من جنود المسلمين ويبلى في كل معركة بلاه حسنا متفانيا في ايمانه الى أن توفاه الله فى حمص وقال قبل وفاته قوله المشهورة التى تشر الى الايمان العميق وحسب الاستشهاد في سبيل الله .

ويبدو أن المؤلف لم يستطع أن يفهم أو لم يرد أن يفهم ان ما كان بين عمر وخالد لم يكن خلافا شخصيا نابها من حزازات أو احقاد وانما كان خلافا بين عظيمين ومؤمنين صادقين في الرأى سواء في الخطة العسكرية أو في معاملة المشركين بعد اخضاعهم، لكن المؤلف سار في محاولته استغلال حادث عزل خالد على غرار ما فعله بعض المؤرخين الشعوبيين من المسلمين الذين رأوا فى الحادث وسيلة للنيل من عمر وخالد فى وقت واحد .

(١) جعل المؤلف من نفسه هنا محللا نفسيا يطلق الاحكام العامة على أمة بأسرها ولا ريب فى أن السنوات التى قضاها مع العرب فى خدمة امبراطوريته واستعمارها فى الوطن العربى ، قد أضفت عليه صفة القروى المطلق التى حملته على اصدار مثل هذا الحكم العام دون أن يقيم الأدلة عليه ، أو يثبت صحته .

والقول بأن هذا الشعب يتصف بهذه الصفة العامة أو تلك فكرة عنصرية نابغة من الايمان بالتمييز العنصرى على أساس الطباع والصفات فهى والحالة هذه تتنافى مع العلم المجرد ومع النظر الى الانسان كإنسان دون تمييز يقوم على العنصرية . فالغيرة الشخصية غريزة بشرية تقوى عند بعض الناس كأفراد لا كعشيرة وتتحول الى انتهاز وإثارة وعمل للمصلحة الذاتية وتضعف عند البعض الآخر كأفراد أيضا فتتحول الى إثارة وتضحية وتكرار للذات . ومن هنا كان خطأ المؤلف في تعبيره وجاء سلوك خالد بعد حوله وهو الذى أورده بعد حكمه مناقضا لرأيه تمام المناقضة .

(العرب)

تواريخ مشهورة

معركة بابل في العراق	ربيع عام ٦٣٤
معركة اجنادين في فلسطين	يوليو (تموز) عام ٦٣٤
وفاة أبي بكر	٢٣ أغسطس (آب) عام ٦٣٤
معركة اليرموك الاولى	نهاية أغسطس أو أوائل سبتمبر (ايلول) ٦٣٤

شخصيات مشهورة

أبو عبيدة	القائد العام الجديد في سوريا
عمر بن الخطاب	ال خليفة الثاني للمسلمين
المنى بن حارثة	قائد المسلمين في العراق
عمرو بن العاص	} قادة انجيوش الاسلامية في فلسطين وسوريا
يزيد بن أبي صفيان	
شرحبيل بن حسنه	
خالد بن الوليد	عزله عمر عن القيادة العامة
يزدجرد	كسرى الفرس الجديد



المعركة تتأرجح

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا
شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر
لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

القرآن الكريم – سورة البقرة

« قد لا يكون من المهم من يتولى قيادتنا العامة ، إذا
كان الله هو قائدنا »

أوليفر كروويل

بدا الخليفة الجديد مختلفا فى نواح عدة ، اختلافا كبيرا عن سلفه
فلقد كان أبو بكر رجلا نحيل ، ضعيف البنية ؛ شاحب الوجه فى شيخوخته
وذا مزاج وادع ومتسامح . أما عمر فكان طويل القامة ، فارح العود ، حتى
انه كان كما يقول كاتب عربى يرتفع بهامته فوق الناس وكأنه يمتطى
جوادا . وكان ذا مزاج حاد ، ميلا الى الاغراق فى الحديث والعنف والاحتدام
فيه ، وأكثر تعلقا بالصرامة منه باللين . ومع ذلك كان فى وسع أبى بكر
الوداع الدمث ، أن يعرض وقت الازمات صلابة وحيوية دينامية دافقة .
كما كان عمر الحاد المزاج . يعرض فى بعض الحالات وبنفس الطريقة لينا
يفوق لينا أبى بكر الهادى الوديع . وكان الرجلان متفقين فى خصلة واحدة
على الأقل . وهى تصميمهما المطلق على اتباع سنة الرسول فى كل تفصيل
من تفاصيلها . وقد حملهما هذا التصميم على التواضع . اذ انهما لم يكونا
يبحثان عن نفعهما الخاص أو عن أمجادهما الخاصة . وأظهر الرجلان تلك
البساطة الشفافة التى تميز دائما الرجال المخلصين لدينهم . ولقد روى
عن النبى انه قال عن عمر « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » .

وعلى الرغم من أن الخليفتين الاولين كانا يحتلان سلطانا لا يقل عن
سلطان الإباطرة الا أنهما ظلا فقيرين ، يلبسان ثيابا بسيطة عادية
ويميشان فى بيتهما حياة الفلاحين الفقراء . ويروى عن عمر نفسه انه لم
يسمح لنفسه الا بارتداء لباسين أحدهما للشتاء والآخر للصيف . ولا يأخذ
من المال الا ما يمكنه من اداء فريضة الحج . وكان طعامه وطعام أسرته
لا يعدو أن يكون طعام أى رجل عادى من قريش ليس من أغناهم ولا من
أفقرهم . وكان يتوقع من مساعديه أن يسيروا على منواله فى خشونة العيش
وشظفه . وكان عندما يعين حاكما لمقاطعة تم احتلالها ، يحرس أشد
الحرص على تحذيره من عدم الركون الى رغد العيش ولينه فى المآكل أو
فى الملابس ومن اغلاق بابيه فى وجه الفقراء والمساكين . وعد بعض الشهرة
عدد الرقع فى ملابس الخليفة ويقولون انه لم يكن يصطحب خيما معه عندما
يعتزم القيام بأى سفر ، بل كان يكتفى بالقاء عباءته على شجيرة صغيرة
لينام فى ظلها . ومازال البدو يفعلون ذلك حتى يومنا هذا . وكثيرا
ما عملت الشىء نفسه وأنا ارتحل فى صحبتهم .

سبق لى أن رويت فى الفصل السابق ، ان المسلمين كانوا فى مطلع سبتمبر (أيلول) عام ٦٣٤ قد اجتاحوا حصون الروم فى اليرموك . وتقدموا الى منطقة حوران التى لم يسبق لعملياتهم الحربية أن وصلت اليها والواقعة الى الجنوب من دمشق .

وعندما زحف جيش الروم الى سهول فلسطين الجنوبية ، ليمنى بأشنع هزيمة فى تاريخه فى أجنادين كان قد سلك فى زحفه الطريق من بعلبك الى طبريا عابرا التلال المنخفضة المطلة على بحيرة الحولة . والتى ألقى عليها السيد المسيح موعظة انجيل المعروفة .

ومن المحتمل أن يكون جيش الروم قد شرع فى ارتقاء الطريق الصاعد من طبريا الى الناصرة عن طريق كفركنه ، حيث أحال المسيح الماء الى خمر ، ومن الناصرة الى قيسارية عن طريق مرج ابن عامر . وكان هذا الطريق محميا من أى خطر عربى ، لاسيما وقد عرفنا ان العرب كانوا يرابطون عند درعا فى قلعتى فحل وبيسان . وكانت مدينة طبريا نفسها من المدن المحصنة . أما فحل فكانت مركزا من المراكز المهمة كل الاهمية اذ كانت احدى المدن العشر التى بناها الاسكندر المقدونى والتى يقع عدد منها فى هذه المنطقة بنيتها قدس التى ورد ذكرها فى التوراة وبصرى التى رأينا المسلمين يفرضون الجزية عليها وفيلاذلفيا التى أصبحت الآن عمان . وجيراسة التى أصبح اسمها الآن جرش . وكانت الطرق المهمة تمر فى القرن السابع فى هذه المنطقة . كما كانت تمر بها فى أيام الاسكندر أى قبل نحو من ألف عام . وكان من المهم بالنسبة الى الرومان أن يدافعوا عن هذه الطرق ضد غزاة الصحراء . وكانت الطريق الحربية الرئيسية من الشمال الى فلسطين تمر من دمشق الى درعا فالربض وبيسان . وكانت حصون اليرموك تغلقها فى وجه أى عدو . ومن هنا وجد الدافع فى أن يبعث هرقل بقواته عن طريق طبريا والناصره الى اجنادين .

ويذكر القارىء ان القوات العربية الرئيسية سارعت بالعودة بعد معركة اجنادين الى اليرموك . بينما ظل عمرو بن العاص على رأس قواته فى بئر انسبع . ومن المحتمل أن تكون فاول جيش الروم قد انسحبت بعد هزيمة اجنادين الى القدس وقيسارية حيث ذهب شطر منها الى فحل لتهديد مواصلات الجيش العربى المتحرك الآن باتجاه الشمال الى دمشق . ويبدو أن قادة المسلمين قرروا الاستيلاء على فحل لحماية مواصلاتهم . وتتضمن الروايات العربية بعض الاشارات انغامضة الى الفيضانات التى أحدثها الروم عند فحل لعرقلة الزحف العربى عن طريقها . ويكفى أنه

نقول الآن ان أبا عبيدة زحف في يناير (كانون الثاني) أو فبراير (شباط) من عام ٦٣٥ ، على فحل . فهزم القوة الرومانية في خارجها ، واعتقد أن الهزيمة تمت في وادي الأردن الذي تغمره الفيضانات وفرض الحصار على البلدة نفسها . وطلب أهلها التفاوض على الاستسلام في النهاية ووافقوا على أن يدفعوا الجزية عن رؤسهم والخراج عن أرضهم إلى المسلمين . وأمنهم أبو عبيدة مقابل ذلك على أنفسهم وأموالهم وأمر بالآ تهم مساكنهم وحيطانهم (١) .

ولما تأكد العرب من سلامة طريق مواصلاتهم تقدموا شمالا إلى دمشق وبذل الجيش الروماني آخر محاولة لانقاذ المدينة . فوقف أمام العرب في معركة مرج الصفر التي يعتقد أنها وقعت على بعد عشرين ميلا إلى الجنوب من دمشق .

ولقد خاض فرنسيو فيشي في عام ١٩٤١ ، معركة في المكان نفسه تقريبا كمحاولة منهم لانقاذ دمشق عندما غزا الجيش البريطاني سوريا عبر ثغرة درعا . وفي هذا المكان مواقع استراتيجية تصلح للدفاع (٢) . وقد دارت معركة مرج الصفر في شهر فبراير (شباط) عام ٦٣٥ . وانتصر العرب من جديد ، وانسحب الجيش البيزنطي بعد معركة كلفته الكثير من الخسائر وخاضها الروم ببسالة ، وهكذا وصل (٣) العرب إلى أسوار دمشق في أواسط مارس (آذار) عام ٦٣٥ .

يذكر القاريء أن ارتال المسلمين التي بعث بها أبو بكر إلى سوريا كانت بقيادة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وعندما جاء خالد من العراق تولى القيادة العامة التي أسلمها بعد تولى عمر ابن الخطاب الخلافة إلى أبي عبيدة . وقد احتفظ خالد بقيادة القوة التي جاء بها من العراق . وهكذا أصبحت جيوش العرب في سوريا مقسمة إلى أربعة أرتال متفرقة بقيادة عليا واحدة ، هي قيادة أبي عبيدة .

(١) تقول روايات أخرى ان معركة فحل وقعت بعد احتلال دمشق . ولكن المعتقد ان هذه الرواية هي الصحيحة اذ انها اقرب إلى المنطق .
(٢) يقال ان بولس الرسول . رأى الرؤيا التي مالت به إلى المسيحية على هذا الجبل .

(٣) يقول البلاذري ... ثم اجتمعت الروم جمعا عظيما وامدهم هرقل بمسد فلقبهم المسلمون بمرج الصفر وهم متوجهون إلى دمشق فافتتلوا قتالا شديدا حتى جرت الدماء في الماء وجرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف ثم ولى الكثرة منهزمين مغلوبين لا يلوون على شيء حتى أتوا دمشق .

ورابط خالد بجيشه الذى يعد نحوا من خمسة آلاف عند باب دمشق الشرقى وحل أبو عبيدة عند الطرف الجنوبى الغربى منها • فى حين تقاسم القادة الآخرون أطراف الاسوار كلها •

ولم يكن العرب قد ألفوا حصار المدن الكبيرة • أو تدريبوا عليه أو أعدوا له العدة بما يحتاج اليه من سلاح • ولقد سبق لنا أن رأينا كيف ان النبى أنقذ المدينة من قريش بابتكاره وسيلة حفر الخندق حولها • ولكن على الرغم من أن العرب لم يكونوا قادرين على قصف أسوار المدينة بأى سلاح من أسلحتهم • الا أنهم كانوا ولا شك كبريى الفعالية فى اجتياح المناطق المجاورة وقطع المدينة عن طريق مواصلاتها وتموينها • ويبدو أن حصار دمشق قد بدأ فى النصف الثانى من شهر مارس (آذار) عام ٦٣٥ • ولكن العرب لم يحققوا أى نصر قبل الايام الاخيرة من صيف ذلك العام • فلقد مكن قرب دمشق من الصحراء أهلها من أن يكونوا جد عليمين بطبيعة البدو المتقلبة وكانوا يرجون أن تؤدى اطالة الحصار شهرا أو شهرين الى تثبيط عزيمه البدو وأن يذوب الجيش العربى تماما كما ذاب جيش قريش أمام المدينة •

ويذكر القارىء أن خالد بن الوليد كان قد اشتبك مع الروم خارج مدينة دمشق ابان مسيرته المشهورة من العراق • ويقال بأن اتصلا جرى بين خالد وبين أسقف المدينة النصرانى ابان هذا الاشتباك (١) • ولسنا على ثقة من أن هذا الاتصال قد تم فى المرة السابقة ولكننا نعرف الآن أن مثل هذا الاتصال جرى فى هذه المرة أى فى صيف عام ٦٣٥ ، ولا ريب فى أن هذا الاسقف كان من النساطرة أى معاديا للحكومة البيزنطية والكنيسة الارثوذكسية اليونانية •

وتختلف الروايات فى كيفية فتح دمشق فى بعض تفاصيلها وتقول أكثر الروايات ثقة ، ان الاسقف بعث رسولا الى خالد ليقول له ان المدينة ستحتل فى ليلة حدها ، وان الباب الشرقى سيظل بلا حراسة تقريبا فى تلك الليلة • وكان هناك دير مسيحي خارج الاسوار • ويعتقد أن الدير كان تابعا لسلطان هذا الاسقف • وقد قدم الدير للعرب مسلمين ، وما لبث العرب أن نصبوهما على الاسوار عند الباب الشرقى قبيل الفجر • وتسلىق عدد من العرب يقودهم القعقاع بن عمرو شيخ بنى تميم — الذى كان قد وفد

(١) يقول البلاذرى : ونزل خالد بالباب الشرقى فأخرج اليه أسقف دمشق نولا وخدمة فقال احفظ لى هذا المهد فوعده بذلك • ثم سار خالد حتى انتهى الى المسلمين وهم بقناة بصرى • (العرب)

مع خالد من العراق - الاسوار بهدوء وصمت . وسرعان ما قتلوا حارس الباب ، وفتحوه لجموع المسلمين . وقبيل شروق انشمس كان العرب يقتحمون المدينة ، ويعلون الاسوار وهتافاتهم « الله أكبر » « الله أكبر » ، تملو الى كبد السماء وفي أيديهم السيوف والخنجر (١) .

(١) تتفق الرواية التي أوردها المؤلف مع رواية البلاذري الذي يسرد الكتاب الذي صالح به خالد الاسقف على دخول المدينة وهذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى به خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها أطاعهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدبنتهم . ولا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (صلم) والخلفاء والمؤمنين لا يعرض الا بخير اذا أطوا الجزية » . ولكنها تختلف مع رواية البلاذري في أن هذا يقول أن خالد دخل من الباب الشرقي صلحا وأن أبا عبيدة دخل من باب الجابية عنوة وأنهما التقيا بالقسلاط وهى رواية أكثر منطقاً من رواية المؤلف - اى جلوب - الذي يحاول أن يجمع بين رواية البلاذري هذه وبين الرواية الأخرى التي يوردها الطبري وهى أن خالد كان لا ينام ولا ينام ولا يخفى عنه شيء من أمر العدد وهو معنى بما يليه فاتخذ حبالا كهيئة السلم وادهاقا قبله ذات ليلة أن الناس غافلون في فرح لمظيهم فنهد بمن معه من رؤساء الدين قدم بهم من العراق وفيهم القسقا وقال للجند اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا وانهدوا الباب . فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم ، أخذوا يتسلقون وكان المكان الذي اقتحموا منه أحسن مكان يحيط بدمشق حتى اذا استولوا على السور حذر عامة أصحابه منه . وانحدر معهم وخلف من يحمى ذلك المكان لمن يرتقى . وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على السور فنهد المسلمون الى الباب ومال الى النبل بشر كثير وانتهى خالد الى أول من يليه فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفرح سائر الدين أرادوا الدخول عنوة وخاف أهل دمشق . فذهبوا الى الأبواب الأخرى يطلبون الصلح . فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة . فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضا وأولئك صلحا .

يتضح من هاتين الروايتين ... أن جلوب : -

- ١ - أخذ من الرواية الأولى نصفها أى اتصال خالد بالاسقف لينفى الفضل في افتتاحها من خالد وينسبه الى عون الاسقف ومساعدة أهل الدير .
- ٢ - عاد فأهمل النصف الثاني من الرواية الأولى ليأخذ النصف الثاني من الرواية الثانية ويظهر خالد بمظهر المتكرر لمهده مع الاسقف .

٣ - تجاهل أن خالد نفسه هو الذي قاد الفرسان الذين تسلقوا الاسوار ولو صح أن خالد قد اتصل بالاسقف واعتمد على معلوماته ومساعداته لما اخلف مهده له ولا سيما بعد كتابه له . ولهذا فأننى أرى أن الرواية الأخيرة هى الصحيحة وأن الاتصال الذي جرى بين خالد وبين الاسقف - أن صح وقوعه - لا يبدو أن يكون اتصالاً عادياً . إذ أن الاسقف كان عاجزاً عن حمل الوالى الروماني على قبول شروط خالد

(العرب)

ولم يكده والى المدينة الرومانى يسمع نبأ المعركة حتى بعث برسول على جناح السرعة الى أبى عبيدة . يعرض عليه صلح المدينة وتسليمها . ولم يكن القائد العام قد عرف بأن خالدا قد دخل المدينة عنوة من الباب الشرقى - وهى حقيقة لو صحت لدلت على الافتقار الى شىء من التعاون بين القائدين ومن الممكن من الناحية الاخرى أن يكون أبو عبيدة على علم بأن المسلمين قد دخلوا الى المدينة . ولكنه كان بعيد النظر وكان يتوقع أن تغدو دمشق عاصمة اقليمية للعرب . ولذا حرص على تجنب سفك الدماء فيها وعلى تجنب انزال السلب والنهب بها . ويكفى أن نقول ان الوالى الرومانى فتح باب المدينة الجنوبى الغربى لأبى عبيدة فى حين أن القتال كان لايزال دائرا فى الناحية الشرقية منها .

والتقى القائدان فى سوق النحاسين فى وسط المدينة . وقد أبلغ أبو عبيدة مساعده المتحمس ان القتال يجب أن يتوقف ، اذ أن الصلح قد عقد على تسليم المدينة . ويقال أن خالدا تدمر بادىء ذى بدء مؤكدا أن المدينة قد احتلت عنوة لا صلحا . ولكن أبا عبيدة الوقور - أصر على أى حال على وجوب احترام الصلح الذى وقعه مهما كانت طريقة دخول المدينة ، وهكذا نجت هذه المدينة العظيمة العريقة - التى تعتبر من أقدم المدن فى العالم اذ ورد ذكرها فى سفر الخليقة - من الدمار والنهب وسفك الدماء ، واستسلمت على الغالب فى شهر أغسطس (آب) أو سبتمبر (أيلول) من عام ٦٣٥ .

وهناك رواية عربية أخرى تعكس الدورين اللذين قام بهما القائدان فهذه الرواية تؤكد أن خالدا عقد الصلح مع الوالى الرومانى بينما دخل أبو عبيدة عنوة من باب الجابية ، ولكننى أرى أن الرواية الأولى أقرب الى الصدق والصحة لأنها أكثر اتفاقا مع طبيعة القائدين .

ونصت شروط الصلح على دفع الجزية بواقع دينار وجريب من القمح عن كل رأس . وتقول بعض الروايات ان الصلح نص على تقسيم بيوت المدينة وبيعها وكنائسها مناصفة بين الفاتحين العرب وبين أهلها . وكانت نتيجة ذلك تقسيم كاتدرائية القديس يوحنا الكبيرة بسور عال فى وسطها . فأصبح نصفها مسجدا يؤدى فيه المسلمون صلواتهم الجماعية فى حين ظل النصف الآخر كنيسة تقام فيها الطقوس المسيحية حتى يومنا هذا .

وقد ظلت الجيوش العربية منذ واقعة اجنادين نحوا من عام مركززة على الحملة بين اليرموك ودمشق ولكن مع سقوط دمشق خيل الى العرب ان مقاومة البيزنطيين قد انتهت . ولذا فقد عاد كل رتل من الارتال الى

المنطقة التي كان قد وجه اليها في البداية • أجل عاد عمرو بن العاص الى فلسطين وفرض الحصار على القدس التي لم يستطع • كعادة العرب ، مهاجمتها لاقتحامها عنوة • واتجه شرحبيل بن حسنة الى الاردن حيث استسلمت له طبريا وييسان • وتحرك أبو عبيدة باتجاه الشمال فاستسلمت له بعلبك وحص و حماة • وأقام خالد قيادته في حص ، التي كان هرقل يربط فيها في السابق • ثم اضطر الى الانسحاب منها الى انطاكية • ويذكر القاري ولا شك أننا قلنا أن السلسلة الجبلية المسماة بالبلقاء وعجلون كانت في عهد معركة اجنادين في يد الروم وان كان العرب قد شقوا لهم طريقا فيها عند منطقة الكرك لنجدة عمرو بن العاص في بئر السبع وعاد يزيد ابن أبي سفيان جنوبا الآن لتدارك مافات فاستسلمت له منطقة الكرك كلها وجبال الشراة والبلقاء حتى موقع قرندل الذي أقيمت فيه بعد نحو من ألف وثلاثمائة سنة قلعة للجيش الاردني • ولم تصمد في وجه العرب الا القدس وقيسارية في فلسطين والا مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس الساحلية في الشمال اذ ظلت على ولائها للروم تشجعها في ذلك سيطرة هؤلاء على البحر •

كان هذا هو سيرة الاحداث في الحملة السورية في عام ٦٣٥ ، وهو العام الاول من خلافة عمر بن الخطاب وجدير بنا أن نلتفت الآن الى دراسة الوضع في جبهة الفرس في الفترة ذاتها •



سبق لنا أن رأينا أن آخر ما فعله أبو بكر قبل وفاته ، استقباله المثنى ابن حارثة الشيباني • الذي كان قد طار من العراق الى المدينة ينشد العون من الخليفة ويطلب الاهتمام بالجبهة الفارسية المهمة • وكان أول ما فعله عمر بن الخطاب بعد توليه الخلافة عزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش العامة في سوريا أما الخطوة الثانية فكانت تنفيذ أمر أبي بكر ، قبل وفاته بإرسال جيش جديد الى العراق لنجدة المسلمين فيه ، ورافق البطل سير التطوع في بداية الامر • اذ كانت الفكرة الغالبة على العرب ، أن الفرس أكثر كفاية في القتال من الروم • وهكذا ظل التطوع بطيئا على الرغم من الخطاب الذي ألقاه المثنى في صحن المسجد طالبا النجدة – ومغريا العرب

بكثرة الغنائم التي يحصل عليها من يختار سبيل الله ويحارب عبدة النار (١) .

وكان أول منتدب للسير مواطن من أهل الطائف يسمى أبا عبيد . وعندما تكاثرت عدد المتطوعين اقترح بعضهم على عمر أن يختار قائدا عليهم إما من المهاجرين أو من الانصار أو من صحابة رسول الله لكن عمر ، كان كما يبدو ، مستاء من البطء في تقدم المتطوعين فرد عمر أن فضل الصحابة على غيرهم يقوم في استجابتهم لداعي الجهاد في سبيل الله وقال : ان أسبق الناس اجابة هو أحقهم بالقيادة ، وهكذا وجد أبو عبيدة الثقفي المغمور الاسم حتى ذلك التاريخ نفسه فجأة قائدا على المسلمين .

ولا ريب في أن هذا الحادث الطريف جدير بالاهتمام والتأكيد إذ أنه يبين الاساليب العفوية التي فتح بها العرب هذه الامبراطوريات الواسعة ، يضاف الى هذا أن الحادث لم يكن فريدا في نوعه فلقد سبق لنا أن رأينا كيف اختار النبي نفسه أسامة ابن ربيبة زيد لقيادة الحملة على سوريا واضعا خالد بن الوليد القائد المجرب تحت امرته ، ولقد وجد هناك من يقول ، وهو على حق ، بأن العرب انتصروا لا بفضل قادتهم العسكريين بل رغما عنهم ويمكن القول أنه بالنسبة الى عمر بن الخطاب كان الايمان بالله والاعتماد عليه . . هما اللذان يقرران له كل شيء ولهذا لم يكن للأدوات البشرية - القادة - من شأن كبير لديه شريطة أن يكونوا من المؤمنين الصادقين أما بالنسبة الى العرب عموما فيمكن القول بأن هذا الحادث يظهر أنهم كانوا يؤمنون بأن الشجاعة الكاملة هي التي تنتصر في المعارك وأن القتال لا يحتاج الى خبرة أو مهارة أو تدريب أو تنظيم وهي صفات القادة . ومع هذه التحامات الفكرية عن الحرب ظل العرب هم المنتصرون في كل معركة تقريبا .

(١) تقول كتب التاريخ العربي ان عمر نذب الناس مع المثنى بعد وفاة أبي بكر وكان الناس يحجمون عن الخروج الى فارس لما في انفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة. فخطبهم المثنى وقال : ايها الناس : لا يعظم عليكم هذا الوجه فانا قد تبججنا ريف فارس وقلبناهم على خير سقى السواد . وشاطرناهم وقلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها ، وقال لهم عمر ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى عليه اهله الا بذلك . أين الطراد المهاجرون من موعود الله ، سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب ان يورثكموها فانه قال : ليظهره على الدين كله » والله مظهر دينه وممزن ناصره ومولى اهله مواريث الامم - ابن عباد الله الصالحون (العرب)

ولعل من الغرابة كلى الغرابة أن الشعوب الناطقة بالعربية اليوم (١)، لانزال تحمل الآراء نفسها على الرغم من أن الحرب غدت أكثر تقنية ومن أن جنودهم لم يعودوا من النوع الذى يلهبه الحماس الدينى الدافق ولقد قيض لى فى السنوات الواقعة بين عامى ١٩٤٨ و ١٩٥٦ أن اشترك فى مناسبات عدة فى المحادثات التى أجراها قادتهم فى موضوع العمليات العسكرية ضد اسرائيل . ولقد سمعته المرة تلو المرة يقولون أن بضعة ألوف من الشجعان مسلحين بالبنادق ، قادرون على الخلاص من هذا العدو ولم أسمعههم يشيرون . ولو اشارة عابرة الى التدريب أو التنظيم أو الى وجوب وجود القائد ذى الكفاية تماما كما كان يفعل أسلافهم فى أيام عمر بن الخطاب (٢) .

وهناك ناحية أخرى مهمة فى هذا الاختيار وهى اهمال الخليفة للمثنى ابن حارثة الذى كان يحتل منصب القيادة فى العراق منذ أكثر من عام والذى حقق للعرب نصرهم فى معركة بابل والذى كانت نداءاته للناس وخطبه فى ذلك اليوم بالذات هى التى امنت هذا العدد من المتطوعة الذى شعر الخليفة بحاجته الى من يتولى قيادته . وتكن المثنى بدوى من بنى بكر.. وهى قبيلة تقيم فى الطرف الآخر من الجزيرة العربية . ولن يستسيغ المهاجرون والانصار وصحابة النبی وأهل المدينة ومكة والطائف أن يحاربوا تحت قيادة بدوى مهما علا مركزه ، ولكن كان من المتوقع أن يعترض محاربو بدر واحد أيضا على العمل تحت قيادة شخص مغمور من أهل الطائف.

(١) تعبير جد سخيف للمؤلف يدل على نفسيته المشحونة بالكراهية للعرب . فهو لا يريد أن يعترف بأن العرب شعب واحد . وانما يحاول أن يصور لقرائه ان هناك شعوبا عدة تتكلم بالعربية لا رابطة بينها الا رابطة اللغة وكأنها فى ذلك تشبه الناطقين بالانجليزية كالانجليز والامريكان والكنديين والافريقيين الجنوبيين والاستراليين وحتى الهنود والباكستانيين . انها العقلية الاستعمارية ليس الا . (العرب)

(٢) ادعاء جرىء من المؤلف يثير الشك ولو حصر جلوب قوله هذا فى فترة حرب فلسطين وما تبعها من سنوات قليلة قبيل ثورة ٢٣ يوليو لكان محقا اذ أن المفوية رافقت الاعداد لحرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ كما كانت تبعية الحكام العرب للامبراطورية التى يمتلها جلوب - تجعلهم لا يخرجون عن مثل هذا الموقف المزدى . اما ان يقول بأن هذا الوضع قد استمر حتى عام ١٩٥٦ فمكابرة القصد منها واضح وهو النيل من العرب الاحرار ايضا . لكن مجرد السماح لشخص كجلوب وان كان يمثل عرشا عربيا وجيشا عربيا بالاشتراك فى محادثات العرب العسكرية دليل على تبعية ذلك العرش للاستعمار . وعلى خضوع ذلك الجيش لمشىة الاستعمار . ومن هنا يكون اشتراك الاحرار فى تلك المحادثات اشتراكا سوريا لمدى اقتناعهم بجديتها مع وجود شخص مثل جلوب فيها ' يمثل دولة من دول الجامعة العربية . (العرب)

كأبى عبيد ، ولكن يبدو أن العصبية العامة بين أهل المدبر والوبر كانت أقوى حتى من مشاعر الطموح الشخصي ومن هنا كان تقبلهم لأبى عبيد ورفضهم للمثنى (١) .

وقد أزال الخليفة في غضون ذلك ، بناء على نصيحة المثنى كما يقول المؤرخون العرب إحدى العوائق الرئيسية في طريق الفتح العربى . فالقراء يذكرون ولا شك أن أبا بكر كان قد قضى اثر انتهاء حروب الردة بهزيمة القبائل المرتدة بألا يسمح لأى فرد من هذه القبائل بالاشتراك في الحرب الى جانب المسلمين . وقد حال هذا الحظر بين غالبية قبائل الجزيرة وبين القتال في سبيل قضية العرب . وكانت جيوش العرب قد غزت في غضون ذلك وفي وقت واحد ، أعظم امبراطوريتين عالميتين . وكان النقص البشرى في الجنود قد أصبح مشكلة خطيرة وجاء رفع الحظر الآن فأطلق الطاقات الكامنة عند البدو المحاربين من عقالها لتهدر كالسيل . ومنذ هذا التاريخ أخذت الجيوش العربية لا تتألف من المحاربين المتطوعين كما هي الحالة من قبل بل من قبائل برمتها تهاجر جملة ، وتضم الرجال ونساءهم وأطفالهم وخيامهم وقطبان مواشيهم .

وخرجت النجيدات أخيرا من المدينة . وكان المثنى في قلق على رجاله لطلول غيبته . فتقدم الجيش للحاق بهم ، وراح أبو عبيد يتبعه ببطء على رأس المتطوعين الجدد داعيا في طريقه جميع القبائل التي كانت مرتدة والتي مر بها للانضمام الى لوائه والسير لحرب الفرس .

وكان الفرس في غضون ذلك قد استأنفوا نشاطهم العسكرى الذى كان المثنى قد توقعه — وكان «يزدجرد» قد اختار رستم القائد الذى ساعده في الوصول الى العرش قائدا عاما لجيوشه في منطقة الفرات . وراح القائد الجديد يحرض نبلاء المنطقة وكبار المالكين فيها على وقف الجزية التى كانوا يدفعونها في السابق الى العرب ، وعلى أن يثوروا على سيطرتهم ، وأخذ الفرس يرسلون ارتالا عدة للقيام بعمليات الاستطلاع الهجومية ووراءهم شرعت القسوات في التحرك لاختراج الغزاة العرب من الاراضى التى احتلوها .

كان هذا الوضع الذى وجده المثنى عندما وصل الى العراق عائدا

(١) انشقاق في التهويل من الخلاف بين البدو والحضر رغبة من المؤلف في تمجيد سياسة التقسيم بين العرب لتنفيذ سياسات الاستعمار .

(العرب)

من المدينة وأحس بعجزه عن الصمود أمام هذه الجحافل الفارسية فاضطر الى الجلاء عن الحيرة وعن جميع المنطقة الحصبة المزروعة في الحوض الأدنى من النهرين والانسحاب الى أطراف الصحراء غربي الفرات منتظرا وصول أبي عبيد على رأس النجيدات ، ووصلت الامدادات أخيرا وتسلم أبو عبيد زمام القيادة العامة للحركات كلها . وشرع العرب في التقدم وهزموا ارتال الفرس في عدد من المواقع الثانوية ، لكن رستم لم يخف من هذه التكرسات وحشد كل ماله من قوات في جيش واحد ، بعث به من المدائن الى الحيرة .

وحذا أبو عبيد حذو القائد الفارسي وبعد أن حقق الاتصال بين جيشه الجديد وبين قوات المثنى ، راح يتجه الى الحيرة أيضا . وتقابل الجيشان في شهر أكتوبر (تشرين) الاول من عام ٦٣٤ وجها لوجه عبر نهر الفرات على مسافة قصيرة من الحيرة باتجاه الشمال ، وكان العرب في سوريا قد اقتحموا قبيل هذا التاريخ مواقع الروم في اليرموك وأخذوا يعدون العدة لمهاجمة فعل (١) .

وتقول الروايات ان بهمن قائد الفرس بعث برسول الى أبي عبيد يخبره في أن يعبر هو الفرات لمقابلة الفرس ، أو يعبر الفرس لمقابلة العرب ، ولا ريب في أن نهرا كبيرا ، كالفرات كان يؤلف عقبة كاداء في طريق أي جيش من جيوش القرن السابع للميلاد وإذا كان اتساع النهر يحول بين الجنود وبين اطلاق النبال عبره فان هذا الاتساع يحول حتما دون تمكين الجيش الذي يحاول العبور من تأمين نار التغطية اللازمة له أمام العدو . وهكذا مالم يتفق القائدان على العبور دون قتال أو أذى فان المعركة ماكانت لتنشب قط .

ويروي المؤرخ البريطاني جيبون عرضا مماثلا لعبور نهر ، وقع في ظرف آخر وقدمه أحد قادة الفرس الى قائد روماني ، ويروي أومان في كتابه « فن الحرب في القرون الوسطى » حادثا آخر أكثر غرابة . فلقد اشتبك بيلا الرابع ملك المجر في عام ١٢٦٠ في حرب مع أوتوكار الثاني ملك بوهيميا ، وتقابل الجيشان عبر نهر مارش وطلب أوتوكار بلطف من بيلا أن يقرر أي الجيشين يجب أن يعبر النهر دون أذى حتى تدور المعركة بينهما في الشكل المناسب .

(١) يقول المؤرخون العرب أن المكان الذي احتشد فيه جيش العرب يسمى الروحة وهو تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة .



وقرر أبو عبيد على الرغم من نصيح مساعديه الأكثر خبرة منه في القتال وفي مقدمتهم المثنى الذي انقضت سنوات عدة على قتاله مع الفرس. أن يعبر الفرات وأن يخوض المعركة على ضفته الشرقية مبردا قراره هذا. بقوله ٠٠٠ « أنخشي الموت ولا يخشونه ؟ » وأشار عليه السليط بن قيس، بأن ينتظر على الضفة الغربية ليفيد العرب من أسلوبهم في القتال وقد خلفوا الصحراء وراء أظهرهم ولا ريب في أن المثنى نفسه وهو بدوي قد قدم إليه عين النصيحة .

وعندما وصل العرب إلى الضفة الشرقية وجدوا أنفسهم في أرض محصورة لا تصلح لحركاتهم التعبوية السريعة الحركة . وتقدم الفرس آنذاك وأمامهم الفيلة ، ويقول بعض الرواة أن عددا من الفيلة ، أخذت تدوس جياد المسلمين بأقدامها واستمرت المعركة بضع ساعات حاول فيها المسلمون مهاجمة الفيلة ، وهم على أرجلهم بسيوفهم ، كما حاول البعض قطع الجبال التي تشد الهوادج إلى ظهورها . وهجم أبو عبيد وهو على الرغم من عدم تجربته كقائد ، ومن تهوره ، لا يقل عن أكثر المسلمين شجاعة وبسالة على كبير الفيلة بسيفه . وكان قد سال عن مقتل الفيل فقبل له خرطومه ف ضرب خرطومه بسيفه ولكن الفيل حمل القائد الشجاع بخرطومه وقذف به على الأرض وبرك عليه فتوفي تحته . وعندما رأى المسلمون قائدهم وقد قتل دبت الفوضى إلى صفوفهم وإن كان أخوه الحكم بن مسعود قد حمل الراية وعاد فثبتها في الأرض إلى أن سقط شهيدا بدوره .

وراح رجل من ثقيف وهي القبيلة التي ينتمي إليها القائد أبو عبيد في هذه اللحظة الحرجة إلى الجسر الذي عبر عليه العرب النهر فقطعه طالبا إلى الناس أن يستشهدوا . كما استشهد قائدهم أو يأخذوا بثأره بتحقيق النصر ، ولكن المحاربين كانوا يندفعون الآن نحو الجسر طالبين النجاة . وبدلاً من أن يؤدي عمله إلى إيقاف الحمية في نفوسهم وحملهم على الصمود والاستبسال أحدث أثراً معاكساً إذ عندما رأوا طريق رجعتهم وقد قطع ، دب الذعر في نفوسهم ، وأخذوا يلقون بأنفسهم في النهر يحاولون عبوره سباحة إلى شاطئ الأمان .

وأمسك المثنى بن حارثة بالراية في يده ، وأثار الحمية عند الرجال فالتفوا حوله . وحاول عن طريق الاشتباك في معركة بالأيدي والسيوف. أن يكسب بعض الوقت ليتمكن الآخرون من رجاله من إصلاح الجسر ، هاتفاً بالناس بأنه سيصمد أمام الفرس حتى تتمكن بقية المسلمين الذين انهارت معنوياتهم من عبور الجسر ، وجدير بنا هنا أن نذكر بأن بدوياً نصرانياً من

قبيلة طيء يدعى أبا زبيد كان بين الشجعان القلائل الذين صمدوا الى جانب المثنى فى تغطيته لحركة انسحاب المسلمين الذين سيطر عليهم الذعر ، ولا ريب فى أن حائزه على هذا كُنْ العصبية العربية ، اذ أن بنى جلدته كانوا يحاربون الاجانب الفرس . ولا ريب فى أن الحماس الدينى لم يكن هو حافز المثنى أيضا ، وانما كانت العصبية العربية . اذ أن المثنى لم يكن قد اعتنق الاسلام لا من نحو عام (١) .

وتم اصلاح الجسر مؤقتا فى النهاية . وتمكنت فلول المسلمين من عبوره بعد أن حمى لهم المثنى مؤخرتهم ، واستشهد فى المعركة او غرق فى النهر نحو من أربعة آلاف من العرب . وفر من الجيش نحو من ألفين آخرين عادوا الى قبائلهم فى الجزيرة العربية ولم يبق مع المثنى الذى عاد الآن الى تولي القيادة الا نحو من ثلاثة آلاف رجل من جيش كان يعد نحو من عشرة آلاف قبل المعركة ، وكان هو نفسه قد أصيب إبان حمايته مؤخرة المسلمين بقذيفة رمح من أحد الأعداء ، وهكذا كانت الكارثة كاملة ، ويرجع السبب فيها كما يبدو الى تهور أبى عبيد . ولو قاتل العرب على الضفة الثانية بدلا من عبور النهر لما وقعت هذه الكارثة لأن الاراضى الفسيحة المنبسطة تصلح لاساليبهم القتالية التعبوية ، وكان فى امكانهم فى حالة اصابتهم بنكسة أن ينسحبوا الى الصحراء وهى مكانهم الطبيعى الذى لا يستطيع الفرس بسلاحهم الثقيل أن يطاردوهم فيه . وتسمى هذه المعركة فى التاريخ العربى ، بمعركة قس الناطف أو معركة الجسر ، ويعتقد أنها وقعت فى أكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٣٤ . أى بعد ثلاثة أشهر من وفاة أبى بكر .

وانسحب المثنى عبر الصحراء فى طريق مواز لضفة الفرات الغربية الى اوليس مستنفرا فى الوقت نفسه جميع أنفبال البدوية الغربية وداعيا اياها الى الجهاد . وتمكن الخليفة عمر من اقناع جرير بن عبد الله شريح

(١) تقول كتب التاريخ العربى ان أبا زبيد الطائى وهو شاعر عربى نصرانى كان قد أتى الحيرة فى بعض أمره . قد قاتل مع المسلمين فى هذه المعركة قتالا بطولية حمية منه لعصبية العربية . وبهذا يظهر أن المؤلف كان صادقا فى روايته ولكنه لم يكن صادقا فى استنتاجه ، فليس ثمة من تناقض بين العصبية العربية والحماس الاسلامى . وانما هما صفتان متلاصقتان يضاف الى هذا أن قصر المدة التى قضاه المثنى فى الاسلام لا يمكن أن تكون مغلنا فى حماسه للدين اذ أن المعتنق لاية فكرة حديثا قد يكون أشد ايمانا بها من أناس قضوا مدة طويلة وهم يعتنقونها . (العرب)

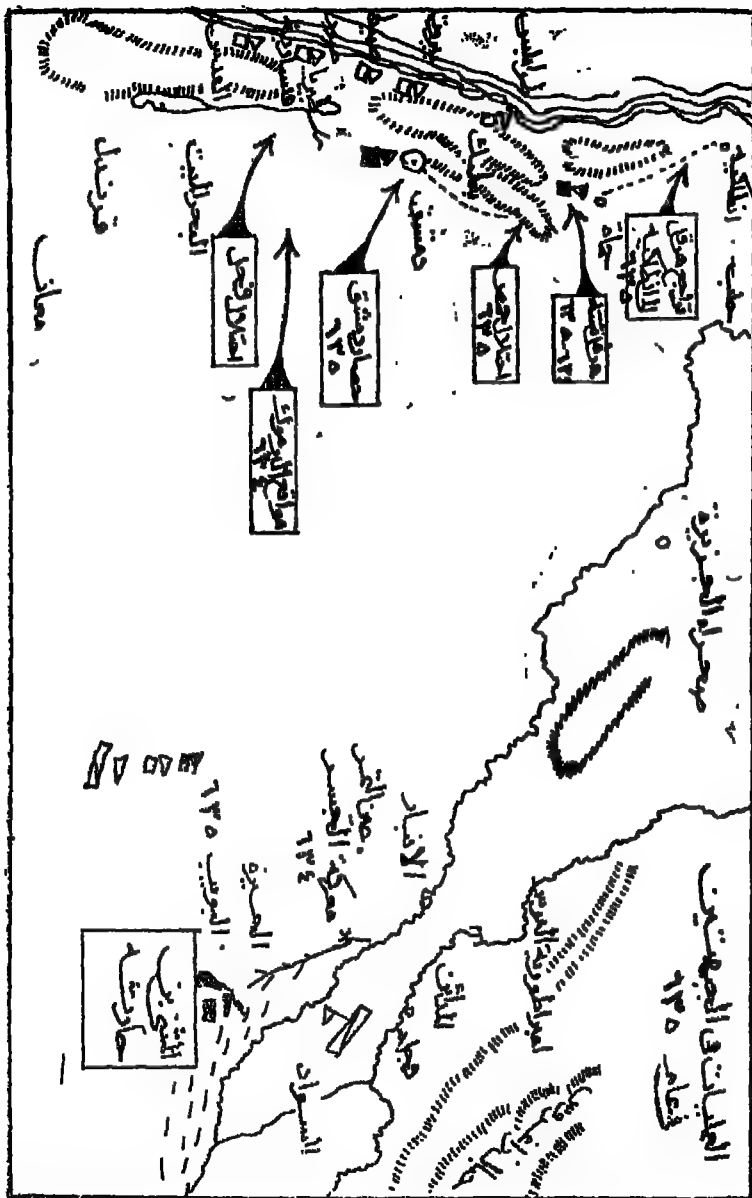
بنى بجيلة • وكان قد وفد الى المدينة على رأس وفد من قبيلته من اليمن ، بالذهاب الى العراق لحرب الفرس ولكن من المهم أن نقول أن عمر اضطر قبل ذهابه الى أن يعده بحصّة اضافية من الغنائم وكان رُح الحظر عن اشتراك قبائل الردة في الحروب قد بدأ يؤتى ثماره الآن • وأخذت الوحدات من مختلف القبائل تصل الى المدينة ، وكان معظمها يؤثر الذهاب الى سوريا ولكن الخليفة ظل يصّر على ذهابها في أقصى سرعة ممكنة الى العراق • إذ أن كل شيء يسير سيرا حسنا في سوريا والعرب يتقدمون من دمشق •

وجاءت نجدة جديدة كان لوصولها موقع حسن من بنى نمير وتغلب في شمال بادية الشام • وكانت هذه القبائل من النصارى يقودها شيخها الانيس بن هلال • الذي يروى أنه قال ٠٠٠ ان عليه وعلى قومه ، وأن لم يكونوا من المسلمين أن يقاتلوا الى جانب أبناء عمومتهم • وهكذا عاد المثنى فاحس بالقوة بعد هذه النجدة التي وصلتته وراح بعد انقضاء عام تقريبا على كارثة الجسر يتحرك ثانية باتجاه الحيرة ، وحشد الفرس قواتهم لمقابلته • وبالطبع لم يقع المثنى في خطأ أبى عبيد • فلم يعبر الجسر هذه المرة واضطر الفرس الى عبور الفرات • والتقى الجيشان وجها لوجه في النصف الاخير من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام ٦٣٥ ، عند البويب الواقعة بين مدينتي النجف والكوفة الحاليتين •

وكان معظم القبائل التي وفدت كنجدة متلاحقة من أواسط الجزيرة العربية قد حملت معها أطفالها ونساءها وقطعان مواشيها وقد خلفت القبائل أهلها ودوابها في مكان يسمى خنان على الضفة اليمنى من الفرات في مكان يبعد خمسة وعشرين ميلا تقريبا الى الجنوب من الحيرة •

وعندما التقى الجمعان وجها لوجه في البويب امتطى المثنى جواده ليطوف على صفوف المسلمين مناشدا اياهم الصمود والثبات في المعركة القادمة وأبصر المثنى رجلا يستنفر من الصف ويستقل رغم اعتراض رفاقه عليه • فسأل عن سبب ذلك ، فقبل له أن الرجل ممن فر يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل ليكفر عن خطيئته بالهجوم وحيدا على جيش الفرس طالبا الشهادة فمشى المثنى وحده صامتا حتى وصل الى الرجل فقرع بالرمح كتفه وقال : « لا ابالك الزم موقفك فاذا اتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل » قال الرجل : « انى بذلك لجدير » ولزم الصف بهدوء ليحارب المعركة ببسالة • ومضى المثنى في طريقه •

وقبل أن يبدأ العرب هجومهم استهل الفرس القتال بالتقدم في



ثلاثة ارتال وضعوا فيلا على رأس كل منها وحول الفيل ثلة من المشاة يتولون حمايته وكانت الفيلة والمشاة تعمل متعاونة تعاوناً تعبويًا رائعاً تماماً كما يفعل المشاة والندابات في المعارك الأوروبية الأخيرة . وكان من المقرر أن تخترق الفيلة صفوف المسلمين تحت حماية المشاة من قذفات الرماح وضربات السيوف وقد رافق تقدم الفرس صخب وضجيج وهتاف وقرع طبل وزمر .

وحمل وطيس القتال ، ووقع عبء المعركة في لحظاتها الحادة الأولى على بنى عجل الذين تحطمت صفوفهم وأخذوا في التراجع بشيء من الفوضى . ورأى القريبون من المثني قائدهم وهو يمر بيده على لحيته . مما يشير إلى عصبية وسرعان ما أوحد رسولا إلى بنى عجل ينقل إليهم تحيات الأمير ، ويطلب إليهم ألا يلحقوا العار بالمسلمين في هذا اليوم ، ولبي بنو عجل نداء قائدهم فعادت صفوفهم إلى الانتظام وصمدوا أمام هجوم العدو . وتطلع الناس إلى المثني وهو على صهوة جواده . فرأوه هادئاً قرير العين تبدو البسمة على شفثيه ، وقد توقفت يده على الإمساك بلحيته .

ومضت المعركة سجلاً يتخللها الصراخ والهرج والمرج ولكن الفرس لم يفلحوا في التقدم شبرا واحداً . وأخيراً قرر المثني ، ويبدو أنه كان قائداً ممتازاً يعرف اللحظة الحاسمة للعمل ، أن يشن هجومه المضاد ووضع نفسه في مقدمة رجال تغلب والنمر من النصاري مهيباً بهم أن يثبتوا عروبتهم ، رغم أنهم ليسوا من المسلمين وقاد الهجوم بنفسه مستهدفاً قلب جيش الفرس . ودار اشتباك رهيب ، ولفت الميدان ، سحب قائمة وكثيفة من النقع ، وقتل فتى نصراني من تغلب ، مهران قائد الفرس (١) وسرعان ما انهار قلب دفاع العدو فتقدم الجيش العربي كله إلى الامام وفي مقدمتهم جرير على رأس بنى بجيلة وعرفجة على رأس الازد ومسعود أخو المثني على رأس بنى بكر .

وبدأ العدو ينهار ، وأخذ رجاله يتجهون إلى الجسر على الفرات القوائم وراء الجبهة ، ولكن المثني الذي نفذ إلى القلب ، وصل إلى الجسر أولاً وحال بين العدو وبين الوصول إليه ، وعندما رأى الفرس أن طريق هربهم قد

(١) يقول البلاذري أن جرير بن عبد الله والنذر بن حسان بن طرار الضبي توليا قتل مهران فقال هذا أنا قتلته وقال هذا : أنا قتلته وتنازما نراعا شديداً فأخذ النذر منقلته وأخذ جرير سائر سلبه ويقال أن الحصن بن معبد بن زوارة بن عدس (التميمي) كان ممن قتله .
(العرب)

سد عليهم استداروا يائسين ليشقوا طريقهم عبر صفوف العرب المتقدمة منهم . وحمل وطيس القتال بين الفريقين وارتفع عدد الضحايا وأصيب مسعود أخو المثنى أصابة قاتلة ، وعندما رأى ان ألوهن لحق أبناء عشيرته من اصابته هتف بهم وهو يعاني سكرات الموت . . . يابنى بكر بن وائل . . . ارفعوا رايتكم . . . وسينصركم الله . . . لا تقنطوا لموتى . وقتل أيضا الانس ابن هلال ، زعيم قبيلة نمر المسيحي وهو يهجم مع المثنى وتحطم جيش الفرس وقد أصابه الهلع والفوضى وظل المسلمون يحتفظون بالجسر وراح الفرس يفرون مذعورين هنا وهناك وبعضهم يقتل بنفسه فى النهر ، وبعضهم يحاول الاختباء تحت الاعشاب النامية على ضفافه ، والبعض الثالث يستدير ليلقى مصرعه على أيدي العرب الظافرين ، وهكذا كانت معركة البويب انتقاما لمعركة الجسر الدامية .

وعندما انتهت المعركة فرش بساط من الشسعر على الارض العارية جلس عليه المثنى ليستريح من عناء القتال . ويريح أعصابه مما لحقها من توتر . وتوافد قادة العرب عليه واحداً اتر آخر يهنئونه بالنصر . ثم جلسوا متحلقين حوله على التراب وأخفوا يستمعيدون احداث المعركة وقال المثنى : لقد حارب العرب الفرس فى أيام جاهليتهم وأيام اسلامهم وكان المائة من الفرس يغلبون فى الجاهلية ألفا من العرب ، أما اليوم والحمد لله والشكر له يهزم المائة من العرب ألفا من الفرس .

وقد لعب نهر الفرات فى هذه المعارك دورا بارزا ، ولم تكن هناك زراعة كثيفة على الضفة النهر الغربية اما على الضفة الشرقية فالزراعة كثيفة والحدائق وارفة الظلال وأقنية الري منتشرة ولهذا كان العرب يودون دائما أن يحاربوا على أكناف الصحراء على الضفة الغربية ، وهذا يعنى أن على الفرس لكى يخوضوا المعركة أن يعبروا النهر دائما واذا ما نزلت الهزيمة بالفرس ، وجدوا النهر فى مؤخرتهم يسد عليهم طريق النجاة ، ولم يكن أى من الفريقين يبذل أى ابتكار فى خططه السنوية ، وكانت المعارك تتكرر وكأنها واحدة فى كل مرة .

وكانت هزيمة الفرس كاملة فى البويب حتى ان العرب تمكنوا من جديد من السيطرة على معظم المنطقة الواقعة بين نهري الفرات ودجلة ودخلوا الى أطراف المدائن عاصمة الفرس وأغاد العرب احتلال الانبار وعين التمر فى الشمال وبات فى امكان المسلمين أن يغيروا على المنطقة الممتدة حتى بغداد ، وكانت آنذاك بلدة صغيرة يقام فيها سوق أسبوعية وحتى على تكرير على نهر دجلة . . . وسبق لنا ان قلنا ان منطقة الدلتا

تنتهي عند خط تقريبي يمتد من الانبار الى بغداد اذ تنتشر الصحراء في الاراضي الواقعة الى الشمال من هذا الخط بين النهرين (١) .

ولم يكن للعرب نظام تموين ثابت ومنظم ، ولهذا فقد كانوا مرغمين على الانتشار في أوسع منطقة ممكنة للحصول على ما يحتاجون اليه من غذاء لانفسهم ومن علف لحيواناتهم ولهذا فقد خلفت الغارات التي وقعت في هذه الاونة مزايا عدة ، منها ايقاع الرعب في صفوف العدو ، والوصول الى معلومات عن حركات الفرس واعداداتهم والحصول على المؤن اللازمة للمسلمين بالاضافة الى الغنائم الاخرى . ويبدو أن منطقة السواد المزروعة كانت مأهولة بغير العرب سواء أكانوا من السومريين والكلدانيين أم من الفرس . اذ على الرغم من أننا نرى القبائل العربية النصرانية المقيمة على الفرات تحارب الى حد ما الى جانب المسلمين فاننا لا نعثر على أى سجل يقول بأن سكان السواد بين النهرين قد حاربوا الى جانبهم وعندما كان العرب ينتصرون . كان هؤلاء العراقيون يدفعون الجزية ويستكينون الى حكمهم . أما عندما كان الفرس يعودون فيؤكدون سلطانهم فان هؤلاء يعودون بولائهم اليهم ، وان لم تظهر منهم أية بوادر تشير الى خياناتهم للفرس كما حدث في سوريا حيث كان النساطرة يؤثرون دائما معونة المسلمين على الولاء للكنيسة الارثوذكسية أو حكومة الروم .

ولم يعمر المثنى بن حارثة طويلا بعد نصره الرائع في البويب اذ لم يكن قد أبل قط من الجراح التي أصيب بها ، وهو يغطي تراجع العرب في معركة الجسر ، ويبدو لي أن هذا الرجل كان يتصف بجميع الصفات التي تلازم القائد العسكري العظيم ، ولا ريب في أن تمكنه بعد كارثة الجسر من جمع جيش جديد وحشده يدل دلالة واضحة على ما في هذا القائد العظيم من كفاية . فالمحاربون الذين تمكن من حشدهم لم يكونوا جنودا منظمين وانما كانوا بدوا لا ضابط لهم ولا زاجر ، وكانوا حتى ثلاث سنوات خلت أو سنتين يشتبكوا في معارك مع المسلمين ابان حروب الردة ، ومن هنا يكون التفسير الصحيح لانضباطهم الآن تحت لواء المثنى هو ما يتمتع به هذا القائد من مزايا ، لا تعلقهم الشديد بالدين ، يضاف

(١) يتبجح المؤلف هنا فيذكر أنه في عمليات عام ١٩٤١ م. أى ابان ثورة رشيد عالي الوطنية عبر الجيش الاردني بقيادته نهر الفرات على بعد بضعة أميال الى الشمال من الانبار وتقدم الى ضواحي تكريت وبغداد . ولا يهمننا من هذا التبجح الا التأكيد بأن جيش الاردن الذي تولى جلوس قيادته كان منفذا ، يامر الاسرة الهاشمية المالكة في الاردن ، لارادة بريطانيا وخططها الاستعمارية . (العرب)

الى هذا اننا رأينا قبيلتين نصرانيتين هما نمير وتغلب نحاربان ببسالة
منقطعة النظير تحت لوائه .

وجددين بالذكر أن جرير بن عبد الله شيخ بجيلة بما عرف هن
الشيوخ البدو من غيرة نموذجية شكا الى الخليفة من أنه لا يستطيع وهو
شيخ قبيلته أن يعمل تحت امره المثنى الذى لا يخرج عن كونه شيخا
مقبليا مثله . ومع ذلك فقد عمل جرير تحت امره المثنى فى معركة البويب
وقاتل ببسالة نادرة ، ويقول البلاذرى ان بنى بجيلة ادعوا بأن جريرا
هو الذى تولى القيادة فى البويب ، بينما يصر بنوبكر على ان القيادة كانت
للمثنى . ولا ريب فى ان غيرة مشايخ البدو من المثنى أتاحت المبرر دائما
لاسناد القيادة العامة الى الحجازيين الذين كانوا يتمتعون دائماً بميزة
صحبة النبى ومع ذلك فقد ارتضى كثيرون من شيوخ البدو ، وبينهم
عرفجة شيخ قبيلة الازد المشهورة العمل تحت لوائه .

ولعل أبرز ما فى الرجل بالاضافة الى شخصيته العسكرية البارزة
وبراعته فى الحروب - اذ ان الحياة البدوية تخلق دائما شخصيات دافقة
بالحيوية والبسالة - هو اخلاصه البعيد عن الاثرة والانانية للقضية التى
يحارب من أجلها ولم نسمع قط بأن المثنى فعل ما فعله خالد العظيم ، من
الزواج بالسبايا العذراى فى ميادين القتال ، ولم تذكر الروايات له شريكة
فى الحياة الا زوجته ولم نسمع قط ، والعرب فى ذروة انتصاراتهم والغنائم
تسيل بين أيديهم من كنوز الفرس ليتقاسمها عرب البادية الجفافة الجهلة
ان هذا القائد قد جمع ثروة لشخصه كما فعل بعض القادة الآخرين ،
وأرى لزاما علينا أن نستخلص من كل هذا ان هذا الشيخ البدوى
البسيط لم يجمع فى شخصه جميع مواهب القادة العسكريين البارزة
فحسب ، وانما جمع الخلق والعقل اللذين يجعلان منه رجلا جديرا
بالشهرة والتكريم عند كل أمة من الامم وفى كل عصر من العصور ولعل
السبب فى أن اسمه لم ينل من الشهرة والدوى ما ناله غيره من القادة
الاول ، هو أن معظم المؤرخين الذين دونوا هذه الأحداث ظهروا بصدد
انقضاء أكثر من قرنين على وقوعها ، وكان معظمهم من غير العرب ، وكانوا
من سكان المدن الذين لا يميلون كغيرهم الى البدو ، أو لا يفهمونهم ،
يضاف الى هذا ان معظم التاريخ قد دون فى العهد العباسى ولم يكن من
مصلح المؤرخين أن ينسبوا البطولات الحارقة الا لبنى العباس أو لابناء
عقريش على العموم أكثر من نسبتها الى أى بدوى .

تواريخ بارزة

٦٣٤	اكتوبر (تشرين الاول)	معركة الجسر في العراق
٦٣٥	يناير (كانون الثاني)	الاستيلاء على فحل في سوريا
٦٣٥	مارس (اذار)	بدء حصار دمشق
٦٣٥	سبتمبر (ايلول)	احتلال دمشق
٦٣٥	نوفمبر (تشرين الثاني)	معركة البويب في العراق

شخصيات بارزة

الخليفة الجديد	عمر بن الخطاب
قائد العرب في جنوب فلسطين	عمرو بن العاص
القائد العام العربي في سوريا	أبو عبيدة بن الجراح
القائد الذي عينه عمر بن الخطاب	أبو عبيد الثقفي
في العراق واستشهد في معركة الجسر	
قائد الفرس العام الجديد	رستم
المنتصر في معركة البسويب وزعيم	المثنى بن حارثة
بني بكر	

السيرمُول

« اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا • سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق • واضربوا منهم كل بنان ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب » •

قرآن كريم - (سورة الانفال)

« اهل الصحراء اسلم عقلا وبدنا من اهل القرى الذين ينعمون بحياة أكثر رخاء ، وبشرتهم أكثر نقاء واجسادهم أكثر صفاء ، وقوامهم أكثر انسجاما ، وجمالا ، واخلاقهم أكثر اعتدالا ، وعقولهم اشد مضاء وتفهما ، واستعدادا لنيل المعارف الجديدة من اهل الريف • ولنقارن بين الغزال والنعام والظباء التى تعيش فى الصحارى ومثيلاتها التى تعيش فى المناطق المأهولة فالأولى أكثر نقاء وبريقا فى فرائها ، وانسجاما فى اعضائها ، ومضياء فى حواسها » •

مترجمة من ابن خلدون الى الانجليزية

« تعظيم الله فى أفواههم وبأيديهم سيف ذو حدين لاجراء الانتقام على الامم والتأديب على الشعوب لايشاق الملوك بالقيود وشرفائهم بقبول من حديد » •

سفر الزمير - الزمور - ١٤٩ ، ٦ - ٨

تركنا العرب في الفصل السابق وقد باتوا يحتلون جميع أنحاء سوريا وفلسطين تقريبا . ولم تبق في حوزة هرقل الا رقعة من الارض في منطقة انطاكية في الشمال الغربي من سوريا . وكانت القدس وقيسارية لا تزالان صامدتين . بينما شجعت سيادة الروم على البحر ، مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس الساحلية على الصمود . وشرع الامبراطور في العمل وأخذ بعد عامين من الهزائم المتلاحقة التي بلغت ذروتها في سقوط دمشق ، يعد جيشا جديدا يأمل بواسطته في استعادة سوريا في صيف عام ٦٣٦ .

ويبدو أن الامبراطور قد جمع معظم جنود هذا الجيش الجديد من اهل ارمينيا التي نطلق عليها اسم القسم الشرقي من آسيا الصغرى ، وهي المنطقة الواقعة الى الشرق من أعلى الفرات . ولم يتشرد الارمن في مشارق الارض ومغاربها الا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، أى بعد اجتياح الاتراك لآسيا الصغرى (١) وظل اسم ارمينيا محصورا في ولاية صغيرة تقع عند السفوح الجنوبية للقفقاس . وفي القرون الستة الطويلة من الحروب بين الفرس والروم التي بلغت ذروتها في الصراع الطويل بين هرقل وكسرى ابرويز ، لعب الارمن دور الدولة الصغرى العازلة بين جارتين قويتين . وكثيرا ما اجتاحت احدى الامبراطوريتين بلاد الارمن . ومع ذلك فقد احتفظوا بكيانهم القومي كما احتفظوا لأسباب عملية باستقلالهم السياسى . وكانت خصالهم الحربية توحى بالتوقير والاجلال ولا سيما عندما يمارسونها في وديان بلادهم الجبلية . وظلت عواطف الارمن حتى القرن الرابع للميلاد مع الفرس دون الروم . ولكن تحولهم الى المسيحية بعد هذا التاريخ أدى الى ابتعادهم عن الفرس عبدة النار . ولكن الروم لم يجنوا فوائد سياسية ضخمة من هذا التبدل ، وذلك لان الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية ظلت تنظر الى أتباع الكنيسة الارمنية كنظرتها الى النساطرة العرب ، على انهم من الهراطقة .

(١) اعتقد انها هفوة تاريخية من المؤلف . اذ ان هجرة الارمن من بلادهم لم تات عند الفتح العثماني للاناضول كما يقول المؤلف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بل نتيجة اضطهاد الاتراك لهم ومدابهم في القرن التاسع عشر عندما اخذوا يسامدون . الروس على الاتراك في حروب الدولتين الكبيرتين . (العرب)

وقد يعنى اضطراب هرقل الى الاعتماد كل الاعتماد على الفصائل الارمنية ، ان الروم أصيبوا بما يشسبه الارهاق والتعب من حروبهم الطويلة ، يضاف الى هذا أن الارمن كانوا بقيادة زعيمهم باتيس (يسميه العرب شنس) . أما القائد العام الرومانى فكان ثيودوروس (يسميه العرب تودز) ، ويبدو أن سلطته على الوحدات الارمنية لم تكن فعليه يعترف بها ، كما ان الارمن بدوا وكأنهم جيش منفصل ضمن الجيش الرومانى الكبير .

وانضم الى جيش الروم أيضا أمراء الفساسنة الذين كانوا يحكمون نيابة عن الروم الاقسام الجنوبية من سوريا وشرق الاردن ، وكانت معهم قوة من أبناء القبائل العربية المسيحية . ويذكر القارىء ولا شك ، ان الروم كانوا قد الغوا فى عام ٥٨١ ميلادية ، ملك الفساسنة فى الشام . يضاف الى هذا ان اضطهاد الكنيسة الارثوذكسية الرومانية لنصارى العرب من النسطرة قد جعل هؤلاء يقفون منها موقف العداء ، ومن هذا يتبين أن ثلثى جيش الامبراطور الجديد ، كانوا اما من الارمن أو من العرب . والفريقان لا يحسان بمشاعر الولاء والاخلاص للامبراطورية . أما الثلث الباقي من الجيش فقد ضم المجندين من فلاحي « ما نسميه » بآسيا الصغرى الغربية ، وهم أقوام عرفوا بفصائلهم العسكرية . ولا ريب لى أن مزايا هذه الأقوام المختلفة لا تخلو من الطرافة حتى يومنا هذا .

ولقد حدث فى التاريخ المرة تلو المرة ، ان وطد شعب فاتح سلطانه على منطقة أخضعها بالقوة . وحملت تلك المنطقة منذ ذلك التاريخ اسم فاتحيها ، وفى عصرنا هذا عندما تسيطر العنصرية سيطرة كبيرة على تفكيرنا نصبح تحت تأثير الانطباع القائل بأن العنصر الفاتح المحتل أصبح منذ ذلك التاريخ يؤلف سكان تلك المنطقة التى فتحها . ولكن الفاتحين كثيرا ما لا يعدون فى الحقيقة أن يكونوا مجرد أقلية ما لبثت أن اختلطت بسرعة مع السكان الأصليين وذابت فيهم . فالفلاحون المصابرون من أهل آسيا الصغرى والذين حاربوا دفاعا عن بيزنطة تحت اسم الاغريق أو الارمن قد أصبحوا يسمون الآن أتراكا . وهم لا يزالون يظهرن المزايا الصلبة نفسها التى كانت لاسلافهم وجدودهم . ومازالت قبائل سوريا وشرق الاردن وجلها من الاصل العربى تملك المزايا الحربية التى كانت لاسلافها ولقد أظهرت شعوب الاقسام الغربية من سوريا وفلسطين دائما اشراقا فكريا ساطعا . ومازالت هذه الشعوب تظهر على صفحات التاريخ الفينة تلو الفينة منذ تلك الايام حتى يومنا هذا . ويبرز

الساعة المتآمرون وخطباء الجماهير والتجار . اما كهسكريين فلم تسجل هذه الشعوب أية انتصارات ضخمة في التاريخ . ولاريب في أن تسميتهم اليوم بالعرب على النحو نفسه الذي يسمى فيه خلفاء جند خالد بن الوليد وأبى عبيدة ، تخلق الكثير من الاضطراب في سياسات يومنا هذا (١) .

كان الجيش الذي جنده هرقل في الاشهر الاولى من عام ٦٣٦ . أضخم جيش حارب في سوريا حتى ذلك اليوم (٢) . ولم يكده هذا الجيش ينزل الى الميدان اما في شهر مارس (اذار) أو ابريل (نيسان) حتى كان العرب يجلبون عن معظم المناطق التي فتحوها في غضون الاثني عشر شهرا الاخيرة . فلقد جلا خالد عن حمص وانسحب أبو عبيدة من دمشق . ورابطت قسوات المسلمين من جديد وراء نهر اليرموك . ولحق بهم الروم وأعادوا احتلال فجوة درعا . وهي بوابة سوريا التي كانوا قد طردوا منها في سبتمبر (أيلول) عام ٦٣٤ . أي قبل ثمانية عشر شهرا (٣) . وكان

(١) هذه محاولة سخيفة مفسوحة من المؤلف اللطمن في هروية أهل الساحل السوري والفلسطيني . وبعت التفرقة بين حرب الساحل وحرب الداخل . ويبدو أن مركبا من مركبات الكراهية قد تولد لدى المؤلف لدى حرب فلسطين . الذين صوهم في كتبه السابقة أنهم كانوا السبب في الاضطراب السياسي الذي عم الاردن بعد ضم الضفة الغربية الى شرق الاردن . وهي عين الصورة التي يحاول ابرازها الآن . فهو يؤكد في كتبه السابقة ان الهدية كان يتم شرق الاردن الى أن ضمت الضفة الغربية اليه . فاشهد الاضطراب السياسي في البلاد . وهو يعني بالاضطراب طبعا ثورات شعب الاردن المتعاقبة للخلاص من الاستعمار البريطاني ممثلا في حكم عمالته من حكام الاردن ، وفي سيطرة جلوب الاداة المنفذة لذلك الاستعمار . اما حرب الساحل فلا يختلفون عن حرب الداخل في شيء لا في أصولهم ولا في تقاليدهم ومزايهم وإذا كان ثمة من اختلاف نسبي فهو من النوع الذي يقوم في كل بلد من بلدان العالم . وفي كل شعب من الشعوب بين أهل السهول والصحارى وأهل الجبال والسواحل ، أو ذاك الذي يقوم بين أهل المدن وأهل البوادي أو الأرياف . (العرب)

(٢) ينقل المؤلف هنا عن الاستاذ بيكر في كتابه : تاريخ القرون الوسطى لجامعة كامبردج ان هذا الجيش الروماني كان الوحيد من الجيوش التي فاق فيها عدد الروم عدد العرب ، ولا حاجة بنا الى القول ان هذا الزعم كاذب . إذ أن عدد الروم كان دائما متفوقا على عدد العرب في جميع المعارك التي خاضها الفريقان وهذا ما أجمع عليه كافة المؤرخين العرب .

(٣) يختلف المؤرخون العرب في أمر هذه الموقعة فبعضهم يقول انها وقعت في هرج الروم على مقربة من حمص . وبعضهم يقول انها وقعت في اليرموك للمرة الثانية ولكن حتى هؤلاء لا يذهبون المذهب الذي رآه المؤلف هنا إذ يؤكدون ان العرب لم ينسحبوا كما زعم المؤلف من المدن التي سبق لهم أن فتحوها وفي مقدمتها دمشق . ولقد روى البلاذري مثلا عن سعيد بن عبد العزيز قوله : لما جمع هرقل للمسلمين الجموع . وبلغ المسلمين =

-جبله بن الايهم أمين الغساسنة يقود مقدمة الزحف الرومى ، ومعها الوحدات العربية ، وشكل الجنود العرب ، بسرعة حركتهم ونشاطهم ، وخيولهم المظهمة غطاء رائعا من الفرسان للجيش الرومانى ، تماما كما فعل الجيش العربى الاردنى مع الجيش البريطانى فى عام ١٩٤١ ، متعاوننا معه فى عمليات سوريا والعراق العسكرية اذ شكل له حرس المقدمة والجانبين (١) .

وهذه الحقائق ثابتة ، كل الثبوت ومع ذلك فانا لا أستطيع تجنب الانطباع بان المؤرخين لم يؤكدوا الدوافع الماثلة وراء هذه الحركات العسكرية كما أن بعضهم ينسب الى العرب ، غزهم على الاحتفاظ بحصون اليرموك . لكن الحقيقة هى ان العرب نشدوا الآن كما فى أية معركة سابقة أخرى ، أن يقاتلوا فى الصحراء أو فى السهول المنبسطة . وان يجعلوا الصحراء المكشوفة دائما وراء أظهرهم ليجدوا فيها النجاة اذا اقتضاهم الامر ، وكان العرب والحالة هذه يؤثرون أن يجرؤا قدم الجيش الرومانى الى القتال فى الصحراء الى الجنوب من اليرموك بدلا من أن يخوضوا معه معركة ثابتة عند فتحة درعا . ولكن لم يكد العرب يعمرون من الفتحة مخلفينها وراءهم باتجاه الجنوب ، حتى كان الروم يعيدون احتلال هذه الحصون الدفاعية القديمة ويفلقون أبواب سوريا فى ظهر العرب المتراجعين . وتركزت سياسة هرقل الآن على الاحتفاظ بالخط الدفاعى - فطالما ان خط ماجينو اليرموك صامد فى وجه العرب فان سوريا ستظل فى نجوة من غزوهم ولن يكون فى وسع العرب بما عرف عنهم من خوف من حرب الجبال والمناطق المغلقة ، أن يغامروا بغزو سوريا عبر طبريا ، وصحيح ان خالدا كان فى ربيع عام ٦٣٤ أى قبل عامين قد مهدد حمص وحماة ودمشق من ناحية الشرق أى من الصحراء ، ولكن قوته فى ذلك الوقت كانت صغيرة ، ومع ذلك فقد كادت تفنى طما فى لهيب

= اقبالهم اليهم لوقمة اليرموك ... ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوه من الخراج وقالوا : فقلنا من نصرتمكم والدفع منكم على أمركم . فقال أهل حمص لولايتكم ومدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغش ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع ماملكم ونهض اليهود قتلوا : والتوراة لا يدخل مامل هرقل حمص الا أن نطلب ونجهد . واغلقوا الأبواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود . واعتقد أن رواية البلاذرى هى الصحيحة .

(١) اعتراف جديد من المؤلف بأن الجيش الاردنى ادى للاستعمار البريطانى الدور الذى أداه الغساسنة للاستعمار الرومانى ، وأن عبد الله بن الحسين ، ادى لهذا الاستعمار نفس الدور الذى أداه جبله بن الايهم .
(العرب)

الصحراء • ولم يكن في الامكان القيام بغزو جدى عن ذلك الطريق حتى ولو كان العرب هم القائمون به • ولا ريب في أن هرقل قد تنفس الصعداء عندما سمع بأن جيشه قد عاد الى احتلال فتحة درعا ، وان العرب قد أخرجوا منها الى الصحراء جنوبا • وقد خيل اليه ان سوريا قد غدت في نجوة من الخطر •

ولا يوضح المؤرخون العرب لنا ، من تولى قيادة العرب في هذه الازمة ، وفي وسعنا أن نخمن بأن أباعبيده كان لا يزال القائد العام الأعلى ولكنه في المواضع العسكرية البحتة ، كان يطلق يد خالد بن الوليد اطلاقا كاملا ، ليعالج الوضع بما يراه •

واستمرت فترة الركود الثانية في فتحة درعا زهاء أربعة أشهر رفض الروم ابانها بأن ينصاعوا لاغراء العرب بالخروج من حصونهم التي كان العرب عاجزين أو غير راغبين في اقتحامها • لكن المعارك لا تكسب عن طريق الدفاع السلبي ليس الا ، وكان العرب أكثر قدرة على الحركة وأظهروا ميلا أشد الى المبادرة من أعدائهم •

وتؤلف مضائق اليرموك ووادي الرقاد في الجانب الغربي من الفتحة عقبات كداء في طريق أية حركات عسكرية • اذ أن جوانبها تكون في كثير من المواضع عمودية تقريبا • أما الى الشرق فلي الرغم من ان الصخور البركانية تغطي سطح السهل الا أن المرور فيها ليس متعذرا على الفرسان والهجانة بله المشاة • وقد يكون من المتعذر خوض معركة في القرن السابع للميلاد وسط الصخور البركانية ولكن هذه الصخور لا تحول بين جماعات من المحاربين العرب وبين التسلسل حول الجناح الشرقي للروم للوصول الى سهل حوران • وفي وسعنا أن نخمن بأن هذه هي الاساليب التعبوية التي تبناها العرب قبل انقضاء عهد طويل • فقد شنقوا طريقهم حول الجناح الشرقي لمواقع الروم ، وبات في وسعهم أن يقطعوا طريق تموين العدو أو يهددوه تهديدا خطيرا ، ويبعدو أن الطريق الرئيسي لمواصلات الروم كان يتجه الى الجولان ومنها عبر المنطقة التي يقوم عليها اليوم جسر بنات يعقوب ثم يتجه شمالا الى بعلبك ، بدلا من الطريق الرئيسي الممتد بين دمشق ودرعا •

ولكن الحياة في صفوف الروم ، كانت أكبر أثرا على جيشهم من عمليات العرب كما يبدو • والمعتقد ان قائد الروم تيودر وروس (تودز) كان ميلا في البداية الى تبني أساليب الدفاع المتصفة بالنشاط والحركة • إذ أن المؤرخين العرب يتحدثون عن عدد من العمليات الثانوية التي ذكروا

ان الروم قد غلبوا فيها كلها . وكان أجدر بتودز وأحكم لو انه خاض مع العرب معركة حاسمة عندما التقى الجيشان ، اذ ان عدد جنده كان يتفوق على جند العرب تفوقا هائلا ، لكن فترة الراحة التي انقضت مكنت العرب من أن يستغيثوا بالخليفة في المدينة ليعتد اليهم بالنجدة الجديدة . ولا ريب أيضا في ان اطالة المكوث في حصون البرموك الدفاعية قد أثرت على معنويات جند الروم ولا سيما أن الأرمن منهم كانوا متعودين على أجواء أكثر برودة وعلى مناخ جبلي ، كما انهم كانوا من المرتزقة الذين لا يدافعون مباشرة عن بيوتهم ومساكنهم . وبينما كان سكان السواحل السورية حوالين للامبراطورية الرومانية ، كان سكان حوران معادين لها أو غير آبهين بها على الأقل وهو عامل لا بد وأن يكون قد أثر على معنويات الجنود .

وظهر احتكاك خطير بين الاغريق والارمن ، حتى أن شطرا من الجيش قد انتخب «شنس» القائد الارمني قائدا عاما . خلفا لتودز ويبدو أيضا ان شيئا من الاتصال قد جرى بين خالد بن الوليد وبين شنس هذا ، كما يبدو أن هذا الاتصال قد جرى عن طريق الجنود العرب في جيش الروم . الذين لم يقوموا إلا بدور صغير في القتال بعد أن تحول الى معركة ثابتة . وقد أدت هذه المنافسات المستمرة بين الوحدات المختلفة في الجيش الروماني ، وما نجم عنها من تدهور في الانضباط ، بالإضافة الى الاسابيع الطويلة من الجمود داخل الحصون ، الى استكمال الانحطاط المعنوي في الجيش الروماني . وكان العرب قد تلقوا تعزيزات قوية من الجزيرة العربية ، وأخذوا يتحولون يوما بعد آخر الى الهجوم . وأصبحوا يحيطون قريبا بمواقع الروم أو انهم قطعوا مواصلاتهم من ثلاث جهات على الأقل .

وهبت ريح قاتلة عابثة من الصحراء من الناحية الجنوبية الغربية في العشرين من شهر أغسطس (آب) عام ٦٣٦ . وأخذت سحب الرمال والتراب تلمطم وجوه الجنود الروم . ولا اعتقد ان هناك ما هو أسوأ من عاصفة رملية قاتلة حقا في الصحراء اذ انها تقتلع عادة الحياض ، وتطيح بعدد الطبخ ، ويمتلئ الطعام والماء بالتراب . بينما تلسنح ذرات الرمل الوجوه وتطمس الاعين ولا تزيد الرؤية في مثل هذه الحالات على بضخ ياردات ، ومن المتعذر على المرء أن يواجه مثل هذه الريح . وكل ما يستطيع فعله هو الاقواء على الارض ، والانتظار حتى تنتهي العاصفة من نفسها . وقد تستمر الريح يومين أو ثلاثة أيام ، ومن المحتمل أن يكون بدء هبوبها هذه المرة قد وقع مساء التاسع عشر من أغسطس مما مكن القادة العرب من وضع الخطة للقيام بهجوم عام شامل في الصباح التالي .

وعلى الرغم من ان البدو لا يستسيغون هذه الزواجع الرملية الا أنها كانت شيئا عاديا طالما ألفوه . يضاف الى هذا أن اتجاه الريح كان قى . أقفيتهم وفى وجوه أعدائهم ، وعلى الرغم من أن مدى الرؤية أمامهم كان مغلقا ، الا ان الريح وهى تهب وراء ظهورهم كانت تمكنهم من أن يظلوا مفتوحى الاعين لاتعرقل سبيلهم كثيرا . ولا ريب فى أن مثل هذه الظروف تجعل من المعركة ، فردية أكثر منها جماعية . فالجيش المتعود على الحرب فى صفوف منتظمة تلبية لأوامر قادته يصبح فى وضع يائس فى مثل هذه الاوضاع . أما العرب فهم فرديون فى طبيعتهم ، وكل جندى منهم صورة مجسدة للجراة والنشاط والحيوية وهو على استعداد وتلف للمقاتلة وحيدا . والجنود العرب عاجزون عن خوض معركة نظامية ضاربة فى صفوف متسلسلة . ولكنهم يكونون فى أحسن حالاتهم فى أى هجوم عنيف يشنه كل واحد منهم على انفراد . ولكن المعركة سارت كما يبدو وفق خطة رسمها العرب اذ ان فصيلا من جنودهم احتل الجسر القائم على وادى الرقاد وراء جيش الروم . وهو الجسر الذى يمر عليه طريق مواصلات الروم الرئيسى . وسرعان ما وثبت جماعات من العرب الصائحين . وكانهم العقبان الكواسر يسرون وكانهم الاشباح عبر الرمال المندفعة ، متدفقين على مواقع الروم . ولو كانت العاصفة الرملية فى ذلك اليوم كثيفة كما أعرفها لما تمكن جيش الروم من أن يخوض معركة مهما كان شكلها فى ذلك اليوم . ولما كان العرب قد قطعوا خط رجعة الروم باحتلالهم الجسر ، فقد وقعت مذبحة هائلة قتل فيها تودز (تيودوروس) نفسه . ولم يحل صباح اليوم التالى حتى كان جيش الروم الذى قضى هرقل أكثر من عام يصرف الجهد ، ويبدل كل ما فى وسعه لأعداده قد زال من الوجود . فلم يكن هناك انسحاب أو عمليات تغطية خلفية أو نواة لناجين من القتال . . لم يكن هناك شيء على الاطلاق ، ولم يبق من الروم انسان .

ويقال ان عددا من نساء العرب قد اشتركن فى معركة اليرموك . هذه ، ينشدن ويهتفن بالرجال مشجعات محمسات . وكان أبو سفيان . عدو النبی الكبير فى يوم ما قد أتى الى سوريا زائرا حيث كان ولده يزيد ومعاوية يحتلان مراكز قيادية مهمة فى جيش المسلمين وقد رافقته . فى هذه الزيارة زوجته العجوز ، هند بنت عتبة التى كانت قبل اثنى عشر عاما تشجع محاربى قريش فى غزوة أحد ، منشدة بتمجيد العزى . وهبل ومتممة مفامرتها الحربية بالتمثيل بجثة حمزة عم النبی واقتطاع كبده ، التى مضغتها . ويبدو أن نيران الحماسة والميل الى المناجزة

والحرب ، لم تكن قد خبت بعد في صدرها الذي أضعفته السنون اذ أنها تقدمت يوم اليرموك صفوف المسلمين وأخذت تهيب بالمسلمين بأن يقطعوا للمشركين بسيوفهم ولا يذكر المؤرخون ان زوجها أبا سفيان قد اشترك في القتال فلقد شهد المعركة ولكنه كان في الثالثة والسبعين من عمره . وكان قد خسر عينا واحدة في حصار الطائف . وقد انقضت أيامه الصالحة للقتال وان قدر له أن يعيش خمس عشرة سنة أخرى ليموت وهو في الثامنة والثمانين . ولعل من سخرية الاقدار أن هذين الزوجين العجوزين اللذين كانا في يوم من الايام من أشد أعداء الاسلام قد أنجبا للشعب العربي أسرة مالكة من الابطارة .



وعندما سمع هرقل الهرم وكان في انطاكية بأن جيشه قد أبيد عن آخره أدرك تمام الادراك بأن القرار أصبح حاسما وراح يودع البلاد المقدسة التي حارب طويلا لاسترجاعها من الفرس ليعود فيخسرها للعرب بقوله : « سلام عليك يا سنوريا سلاما لالقاء بعده » . وراح يمتطي جواده ليعبر جبال طوروس متجها الى الغرب .

وكان الامبراطور جوستينيان قد قضى نجه في القسطنطينية قبل نحو من سبعين عاما بعد أن حقق هدفه في إعادة توحيد الامبراطورية الرومانية . وكان قائداه اللامعان بليزاريوس ونارسيس قد استعدا له افريقية واسبانية وايطاليا ولكن جوستينيان كان يحمل الرأي نفسه الذي حمله فيما بعد لويس الرابع عشر عندما قال : بعدى يكون الطوفان . فلقد استنزفت موارد الامبراطورية كلها وخوت خزائنها . ولم يكن في وسع خلفاء الامبراطور العظيم جوستينيان من أمثال جوستين وطيبريوس وموريس أن يحافظوا على هذا الصرح الضخم العالي . وفي عام ٦٠٣ . خلع موريس عن العرش ليحل محله «فوقا» صاحب السلوك المشين المعيب . وفي عام ٦١٠ أبحر هرقل الشاب من أفريقيا الى القسطنطينية ليتوج امبراطورا فيها في اليوم الثاني من وصوله بين هتافات الجماهير الحماسية . ولكن كسرى ابرويز كان قد وصل الى أبواب المدينة . وقد رعى هرقل أن يقضى ثمانية عشر عاما في جهود عسكرية لا تكاد تصدق قبل أن ينتصر نهائيا على الجيش الفارسي ولا ريب في أنه كان يأمل في أنه بعد هذه السنوات الطويلة الشاقة وبعد هذا القلق العظيم سيقضى سنواته الأخيرة في أمن وكرامة ، ولكن فرصة راحته كانت قصيرة ، اذ لم تمض ثاربع سنوات على عقد الصلح مع فارس حتى كان العرب يصلون الى

سوريا • وبعد ثلاث سنوات أخرى من الجهد المتواصل ، فقد الامبراطور الشيخ الامال البراقة التي حارب ثمانية عشر عاما لاستخلاصها من كسرى وقدر له أن يعيش خمس سنوات أخرى ، ولكنها سنوات المزيد من الازلال والفشل •

ولم يتردد المؤرخون في أن يوجهوا اللوم في ذلك الى ما أسموه بجبن هرقل ، في فشله في اخراج العرب من سوريا • لكنني أرى أن ليس لهذا النقد ما يبرره اطلاقا ، ولقد كان من سوء طالع ، ان أقيمت عليه مهمة الحفاظ على امبراطورية كانت مواردها غير كافية لإداء هذه المهمة • ولقد كان رجلا واعيا مدركا وكان تقيا متدينا قضى حياته في جهود ومتاعب متواصلة تكلفت أحيانا بالنصر ولكنها انتهت أخيرا بالفشل والياس • ولا يروى التاريخ سيرةً لأناس كانوا مثل هذا الرجل في حسن نيته وكانوا مثله في الكد والنصب وانتهوا مثله الى النهاية المفجعة التي انتهت اليها •



ولقد انتهت بمعركة اليرموك العمليات الحربية النشيطة التي تمثلت في احتلال العرب لسوريا • فلقد عاد أبو عبيدة الى الزحف شمالا فاستعاد دمشق وحمص وبلعك • وغيرها من المدن التي كان العرب قد جلوا عنها أثناء هجوم الروم ، وقد استقبلت جيوش العرب في أماكن عدة استقبالا حسنا مصحوبا بالرقص والاهازيج ويقول أحد المؤرخين العرب : أن أهل حمص أعربوا عن ايثارهم لعدالة العرب على ظلم الكنيسة الارثوذكسية والامبراطورية الرومانية ، ومن حقنا أن ننظر الى مثل هذه البيانات بتحفظ ، لان مصادرها اسلامية أولا ، ولان السوريين الضعفاء كانوا يرغبون حتما في ارضاء ساداتهم الجدد ، الذين لم يعد هناك من ينافسهم ثانيا •

ومع ذلك فهناك على أي حال أسباب واضحة ، تدعو أهل مشرق سوريا ومشرق الأردن الى الرضا مؤقتا على الأقل عن هذا التبدل • فالشعب البريطاني وهو يعيش في جزيرته يعتبر البحر حده الطبيعي ، واذا ما جاء أفراد هذا الشعب من الغرب ونزلوا في الارض المسماة الآن بלבنيان • فانهم يتوقعون أن يجدوا أنفسهم في الشرق واذا ما توغلوا بعد ذلك في الداخل نحو دمشق وبغداد وطهران فانهم لا يتوقعون أن يجدوا فروقا كبيرة كتلك التي توخوها بين فرنسا وإيطاليا مثلا ، وبين لبنان • فقرنسة وإيطاليا بالنسبة لهم هما الغرب بينما لبنان ودمشق وبغداد هي الشرق •

ولكن هذا التصنيف القاطع مازال مضللا حتى يومنا هذا . ولقد كان أكثر خطأ وتضليلا في القرن السابع ، فلقد كان حوض البحر المتوسط كله يؤلف العالم الروماني الاغريقي ، وكان هذا البحر بالنسبة الى الرومان الطريق الرئيسى الذى يربط بين ممتلكاتهم لا الحد الذى يفصل بينهما . وكان السورى أو المصرى فى تلك الايام لا يجد نفسه غريبا فى اليونان أو ايطاليا أو بلاد الغال ولكنه يجد نفسه غريبا فى العراق أو الحجاز . وكانت حدود رومة كلها أرضية لا بحرية فهم الراين والدانوب وجبال الاطلس والصحراء . وكانت الحدود الثقافية لرومة فى سوريا وفلسطين هي جبال لبنان الشرقية وبحيرة طبريا ونهر الاردن والبحر الميت . وكانت قبائل الصحراء قد تسلمت منذ أقدم عصور التواريخ الى المدن والقرى الواقعة الى الشرق من هذا الخط . وكان معظم سكان هذه المناطق الشرقية من الساميين أو انصاف العرب ويؤثرون السريانية فى حديثهم على اليونانية ويميلون بصورة عامة الى الثقافة الشرقية . وقد فشل الرومان والبيزنطيون فى ادماج هذه المناطق ثقافيا فى بلادهم وظلوا يؤثرون حكمها عن طريق حكام عملاء من اهلها كالانباط وأبناء هيرودس والغساسنة ، اما الى الغرب من الاردن وجبال لبنان الشرقية ، فان شعوب هذه المناطق ينظرون الى الغرب وعلى الرغم من عدم تحررهم تحرا كاملا من النفوذ الشرقى ، الا انهم كانوا أقرب الى الاوربيين منهم الى العرب . ومن هنا يظهر أن الحد الثقافى الطبيعى لبيزنطة كان نهر الاردن .

ولو تحولت سوريا كلها وفلسطين وشرق الاردن الى المسيحية لعقدت رباطا أوثق مع بيزنطية ولكن النتيجة كانت معاكسة فى الحقيقة فلقد اضطهدت كنيسة بيزنطية الارثوذكسية الكنيستين السنورية والمصرية . وعاملتهما على انها من الهراطقة . وجاء الفاتحون العرب فمنحوهما التسامح والاستقلال ، ولم يقم الفاتحون المسلمون بأية محاولة لتحويل المسيحيين الى الاسلام ، وان فرضوا عليهم نظاما مختلفا من الجباية قد يحمل طابع التحيز ووضعهم فى مرتبة أدنى . وهكذا نرى بعض القبائل المسيحية ترفض دفع الضريبة كقبائل نصرانية ولكنها ترغب فى دفعها بل بنسبة أعلى مما يدفعه المسلمون شريطة أن تكون عشرا أو صدقة لاجزية أو خراجا . وهكذا كان دفع الضريبة بالنسبة الى غير المسلمين يحمل فى البداية معنى التبعية . لكن المساس بالكرامة كان طفيفا ولكنه حل محل الاضطهاد البيزنطى كما يذكر القراء . وقد قدر لمركز النصارى أن يتدهور فى السنوات اللاحقة بعد أن كان فى سنوات المسلمين الاول مركزا كريما

لاتشوبه أية شائبة (١) ، ومن هنا لا يكون غريبا أن يظهر أهل الحضر في الاردن وفي داخل سوريا الفرح لما أسموه بانقاذ العرب لهم من حكمهم البيزنطيين السابقين .

وقد اعتنقت معظم القبائل البدوية النصرانية الاسلام دون ضجيج ولقد كانت حروب الفتح الاسلامي بالنسبة الى أبناء هذه القبائل من محاربي الصحراء شيئا تهذا اليه نفوسهم ، وكان في مكنتهم اذا ما اعتنقوا الاسلام أن ينضموا الى قبائل الجزيرة العربية على قدم المساواة في خوض حياة يشملون فيها بأمجاد الحروب وغنائمها .

وكان الوضع مختلفا الى الغرب من سلسلة لبنان الشرقية ونهر الاردن ، فلقد ظل أهل هذه البلاد ينظرون الى اليونان ورومة أجيالا طويلة وكان بعضهم من أصل أوربي فعلى . ولذا فهم ينظرون الى العرب نظرة تحمل معنى الزرابة والكره ولم نسمع عن أهل هذه المناطق انهم استقبلوا الفاتحين العرب بالرقص والاهازيج والموسيقى . وهناك تعقيد آخر يكمن في الخلاف بين أهل المدن وأهل الارياف . ويحتل هذا التمييز مكانة مهمة للغاية في البلاد العربية الشمالية اليوم بحيث يصعب على الأوربيين فهمه . وقد نشأت هذه الخلافات والعقبات بسبب الفروق في العمل تماما كذلك التي قامت بين أهل الوبير والمدن في جميع أطراف الجزيرة العربية ، لكنها تولدت في سوريا وفلسطين على أى حال من جراء الفتوحات العسكرية . فلقد ظلت هذه البلاد عرضة للغزو قرونا عدة من الأششورين والبابليين والمصريين والفرس واليونان والرومان ، وكانت كل دولة أجنبية فاتحة توطد أقدام سلطانها في المدن التي تقوم على حمايتها حاميات من القوات الأجنبية . وسرعان ما يأخذ أفراد هذه الحاميات في التزاوج والاختلاط مع أهل المدن التي يحتلونها لكنهم لم يكونوا يتزوجون أو يختلطون الا على نطاق ضيق للغاية ، مع البداة أو الفلاحين . ومن هنا كان أهل المدن أقرب الى العنصر الروماني الاغريقي من أبناء القبائل أو القرى سواء من الناحية الثقافية أو الناحية العنصرية .

(١) يوحى قول المؤلف هنا أن العرب المسلمين أساموا أيام دولتهم للنصارى العرب وهو قول يحمل طابع التشويه التاريخي إذ أن مركز النصارى العرب ظل محترما طيلة عهد السيطرة العربية على الدولة الإسلامية ، وإذا كان التدهور قد لحق بهذا المركز بعد قرون طويلة عندما سيطر الشوبيون من أبناء الشعوب الإسلامية على الدولة العربية وتدهور نتيجة هذه السيطرة مركز العرب عامة وبينهم النصارى .

(العرب)

وقاومت بلدة قنسرين (١) في شمال سوريا جيوش العرب التي يقودها في هذه المنطقة خالد بن الوليد . وقد أنزل بالمدافعين هزيمة شديدة واحتل المدينة عنوة ، وراح أبو عبيدة يزحف بعد ذلك على انطاكية التي كانوا يسمنونها بملكة الشرق والتي كانت تعتبر مع رومة والاسكندرية وبيزنطية أعظم مدن العالم القديم . وكان الأباطرة العظام أمثال أوغسطس وطايبيريوس وتراجان وانطونيوس بايوس وهديران قد زانوها بما بنوه فيها من معابد ومسارح وحمامات وأقنية لمياه الشرب . ولكن الخراب لحق بنصف المدينة تقريبا أثناء الحروب التي وقعت بين كسرى والروم ونشبت معركة في المنطقة التي تغطيها الغابات خارج الاسوار في غابات مهروبة (الاسم الغربي لها هو دافني) التي اشتهرت في الماضي بجمالها ، وبحفلات العهر والفسوق التي كانت تدور في ربوعها واضطرت حامية المدينة الى اللجوء الى داخل الاسوار ، ثم سرعان ما استسلمت وراح خالد ينسحق شمالا الى أن وصل سفوح جبال مرعش وأورفة وشمشاط ، وتراجع العرب على عاداتهم عند الجبال عن زحفهم وتوقفوا عندها بعد أن أقاموا حدهم الشمالي عليها الذي ظل قائما منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا .

وهكذا لم يحل خريف عام ٦٣٦ حتى كان العرب قد اجتاحوا سوريا بأكملها حتى جبال الاناضول . أما الى الجنوب فكانت قيساريه والقدس لا تزالان صامدتين في وجههم وأقام العرب في غضون ذلك مركزا حرييا لهم في الجابية في الجولان ، وهي مركز متوسط يستطيع الجيش أن يعمل منه بسرعة في جميع الاتجاهات لخمسة ايام فتنة تثور . ويبدو أن فكرة اقامة مثل هذه المراكز المتوسطة التي تحشد فيها القوات العربية والتي لا يتاح فيها المجال للجنود للاتصال بالاهالي المدنيين مدينة في وجودها لعمر بن الخطاب . وسنسمع فيما بعد الكثير عن هذه المعسكرات والقواعد العسكرية .

ولقد كانت فلسطين منذ بداية الحملة على سوريا قبل ثلاث سنوات المنطقة الخاصة بعمر بن العاص . وكان في فترات الازمات ، كمعركة ليرموك مثلا ، يعود فينضم بقواته الى الجيش العربي الرئيسي . ولكن حالما يزول الخطر يعود الى تلك المنطقة ولقد سبق لي أن أوضحت أن أساليب العرب التمهوية التي جعلت منهم جيشا لا يقاوم في المناطق المنبسطة كانت صعبة على التطبيق في المناطق الجبلية أو

(١) قنسرين مدينة قديمة قرب حلب ويطلق على احد ابواب حلب اسم باب قنسرين .
(العرب)

المناطق الضيقة المحصورة ، ولهذا السبب وحده ظل عمرو بن العاص يحصر عملياته طيلة وجود الجيوش البيزنطية في المنطقة في السهل الساحلي الممتد من بشر السبع الى قيسارية . أما الآن فقد انتهت أمر الجيش البيزنطي ، ولم تعد هناك قوات في الميدان ولهذا السبب ارتقى العرب جبال القدس (اليهودية) وفرضوا حصارهم على مدينة القدس نفسها (ايلياء) ولم يبق أى أمل في الانقاذ عند المحاصرين ولا سيما بعد أن انسحب هرقل الى ما وراء جبال طوروس . وشرع صفرونيوس بطريق القدس في أواخر خريف عام ٦٣٧ ، ويقول بعض المؤرخين في خريف العام الذى سبقه يفاوض المسلمين . وسرعان ما اتفق الفريقان على شروط استسلام المدينة . لكن صفرونيوس أصر على تسليم المدينة شخصيا الى عمر بن الخطاب خليفة المسلمين . وبعث أبو عبيدة برسالة بهذا المعنى الى المدينة ، وقرر عمر على الفور أن يزور الجبهة السورية شخصيا .

وخرج عمر من كعادته في ملابسه البسيطة المرقعة ، مع قافلة حملته الى درعا (اذرعات) التى تقع الآن على الحدود السورية الاردنية (ذكرت اذرعات في سفر الملوك في التوراة كمسرح المعركة التى دارت بين داود وأوغ ملك باسان) . واهتن الخليفة المتواضع المتطهر فزعا عندما رأى أهل البلدة يخرجون للقاءه بالأهازيج والسيوف والراقصين بينما تعزف النساء على الرقوق والدفوف ، وقال عمر : « أمنعوهم » ولكن أبا عبيدة رد قائلا : « يا أمير المؤمنين هذه سنتهم وانك ان منعتهم منها يرون أن في نفسك نقضا لعهدهم » . فقال : « دعوهم » وان كان في قوله هذا معبرا عما يحس به من الغيظ والسخط لكن سخطة على قيادة المسلمين كان أشد وأقوى فلقد خرج للقاءه في جنوب البلدة أبو عبيدة ويؤيد بن أبى سفيان وخالد بن الوليد وهم على ظهور خيولهم تحيط بهم الفرسان وعليهم الدباج والحريز . ويقال أن الخليفة نزل عن بعيره وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال غاضبا : « سرعان ما لفتكم عن رأيكم . . . أياى تستقبلون في هذا الزى . . . وانما شبعتم منذ سنتين ما أسرع ما نلت بكم البطنة . والله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم » . وتقول الروايات ان القادة الذين احمرت وجوههم خجلا ردوا قائلين : « يا أمير المؤمنين انها بلامقة - أى في الظاهر - وان علينا السلاح » . وهنا رضى الخليفة بعد امتعاض وتذمر . وقد أظهر المستقبل القريب صدق مخاوفه .

وجاء وفد يمثل بطريق القدس للقاء عمر في التجاية وسرعان ما تم

مقد الصلح وتسليم المدينة ، وشخص الخليفة بعد ذلك ماوا بالطريق التاريخي القديم عبر وادي الاردن عند بيسان الى جبال نابلس (السامرة) التي تغطيها حقول الحنطة وكروم العنب وغابات الزيتون ، ومنها الى القدس حيث استقبله البطريك المدافع الحلو اللسان عن الكنيسة ، ولكن اذا كان البطريك قد أغرق في المجاملة ، وحلو الحديث وهو يرحب بالخليفة الا أنه ظل بعيدا في حشاشة فؤاده عن أن يكون صادق الود ، اذ عندما أخذ الخليفة البدوي ، البسيط اللباس ، العاري القدمين ، يطوف بكنيسة القيامة همس البطريك باليونانية في أذن أحد مساعديه قائلا : « لا ريب في أن هذا هو مقت الخراب الذي تحدث عنه دانيال النبي وهو واقف في المكان المقدس » . . .

وحدث أن حان وقت صلاة الظهر - والخليفة لا يزال يطوف بأنحاء كنيسة القيامة وأراد أحد رجاله أن ينشر الحصر للصلاة على أرض الكنيسة ولكن الخليفة منعه قائلا : ان لن يؤدي صلاته هناك ، ثم أضاف قائلا : لو صليت هنا لأخذ المسلمون الكنيسة من يدي ليحولوها الى مسجد . وخرج عمر من الكنيسة حيث صلى خارج أسوارها . وما زال هناك مسجد صغير يقوم أمام الكنيسة في المكان الذي صلى فيه عمر . وتحتل القدس مكانة مقدسة عند المسلمين ، وكان النبي قد جعل منها أولى القبلتين كما أنه أسرى به من مكان الصخرة الى السماء في ليلة المعراج . ويبدو أن عمر بن الخطاب قد سلك سلوكا فيه الكثير من التواضع والعطف مع أهل المدينة المقدسة (١) .

(١) حاول المؤلف تشويه الصورة الرائعة التي تشير الى عدل العرب وتسامحهم فأجرى بعض التحريف في الرواية واستعمل كلمة «ادعاء» الروايات ، مع أن ما فعله عمر كان مثلا إنسانيا رائعا من أمثلة التسامح الديني ، أما الرواية الصحيحة فهي على النحو التالي كما وردت في كتب التاريخ الاسلامي : حان وقت الصلاة وعمر في الكنيسة فقال للبترك (البطريك) أريد الصلاة فقال البترك صل موضعا فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفردا . فلما قضى صلاته قال للبترك : لو صليت داخل الكنيسة أدخلها المسلمون من يدي وقالوا هنا صلى عمر بن الخطاب . وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرنى موضعا أبني فيه مسجدا فقال : على الصخرة التي كلم الله يعقوب عليها فوجد عليها ردما كثيرا فشرع في إزالته وتساوله بيده يرفعه في ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال لحيته وأمر ببناء المسجد ولا ريبه في أن هذا الموقف الباهر الذي عامل به المسلمون المنتصرون مغلوبهم من أهل القدس يمكن أن يقارن بما أصاب أهل القدس حينما فتحتها الصليبيون في القرون الوسطى من بلاء وما لحق بالمساجد الاسلامية وفي مقدمتها المسجد الاقصي من هوان اذ ربط فيه -

هيأعد الخليفة أثناء هذه الزيارة ترتيباته لإدارة المناطق التي تم احتلالها كما قسمها أيضا إلى عدة مناطق عسكرية ، وفي ربيع عام ٦٣٨ عاد الحاكم العربي للسيط فاستقل جواده متجها إلى الصحراء لتصل به إلى المدينة .

سبق لي أن ذكرت أن جبلة بن الأيهم ملك الفساسنة كان يقود مقدمة الروم في معركة اليرموك الأخيرة والحاسمة ، وكان هذا العربي معتزا بمكانته وإمارته فشق عليه أن يلصق لهؤلاء الغزاة البدو المهلهلي «الثياب» ، ولكنه بعد هزيمة الروم وتدمير جيشهم في اليرموك راح يعقد الصلح مع المسلمين ، ويعتنق الإسلام وراح يقصد المدينة لزيارة الخليفة ، وبينما كان يطوف بالبيت في حشد من الناس داس اعرابي من مزينة على طرف ثوبه ، فلطم جبلة وجهه وأطار عينه ، وشكا الاعرابي إلى عمر بن الخطاب فاستدعى جبلة إلى مجلسه وأمر عمر الاعرابي بالاعتصام منه ، طبقا للشرع الإسلامي الذي يقضى بالقصاص . واستشاط جبلة غيظا ومضى مرتدا بخيله ورجله إلى بلاده حيث لحق يهرقل بعد ذلك وراء جبال طوروس ومعه آلاف من أهله ورجاله . وكان لبنى غسان منزلة مبعولة عند العرب منذ عدة قرون ولذا فقد وجد هناك من انتقد تصرف عمر بن الخطاب وصرامته . وتغلبيت نصيحة المستشارين فأوفد عمر الرسل إلى جبلة لنعوته للعودة إلى المدينة . وهناك رواية أخرى تقول أن جبلة بعد أن مضى إلى بلاد الروم شعر بالحنين إلى وطنه وعشيرته فأوفد الرسل إلى عمر ينشد عفوهم وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية فإن الاتفاق لم يتم ، وحرمت الامبراطورية الإسلامية من اشتراك أسرة ظلت لمدة ثلاثة قرون ونصف القرن تعتبر من أمجد الأسر العربية وأعرقها (١) .

ونقل هنا بعض الأبيات الشعرية التي نسبت إلى جبلة بن الأيهم

« الصليبيون خيولهم ، وكذلك بما أصاب أهل فلسطين بعد الفزو البريطاني لها في الحرب العالمية الأولى إذ سلمها الاستعمار الإنجليزي إلى اليهود بعد أن عملوا على الإجلاء أهلها العرب عنها . »
« العرب »

(١) لم تحرم الأمة العربية من شيء بفرار جبلة وثومه وارتدادهم إذ أن ودهم هذه كانت خيانة قومية قبل أن تكون ردة دينية . ولعل الأمة العربية بخلاصها من هؤلاء قد طهرت صفوها من الخيانة استعدادا للمبارك المنتظرة ، وهو كسب للقضية العربية لا خسارة كما يحاول المؤلف أن يقول ...

(العرب)

وقد قالها وهو في ديار الفسرية في بلاد الروم يعلن فيها حنينه الى بلاده ...

تنصرت الاشراف من عار لطمه وماكان فيها لو صبرت لها ضرر
تكتفى فيها لجاج ونخوة وضعت بها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت امى لم تلدى وليتنى رجعت الى القول الذى قاله عمر
وباليتنى أرعى المخاض بدمنة وكنت اثيرا فى ربيعة او مضر
وباليتنى بالشام او فى معيشه اجالس قومي ذاهب السمع والبصر(١)

ولقد وقعت معركة اليرموك الكبرى والحاسمة فى يوليو (تموز) عام ٦٣٦ ، ومن واجب القارىء ألا يخلط بينها وبين استيلاء العرب على مواقع اليرموك الدفاعية قبل نحو من عام أى فى سبتمبر عام ٦٣٤ بعد معركة أجنادين ، ولأريب فى أن هذا الخلط بين العمليتين الحربيتين على نهر اليرموك هو الذى حال بين الكثيرين من المؤرخين الاوربيين وبين فهم الفتوحات العربية . وفى وسعنا ، وهذا هو الافضل ، أن نطلق على العملية الاولى فى عام ٦٣٤ اسم معركة اليرموك الاولى وعلى الثانية فى عام ٦٣٦ اسم معركة اليرموك الثانية .

واحتسملت القدس فى شتاء ٦٣٧ - ٦٣٨ . ولم تصمد الا قيسارية فى مقاومتها بمينائها ومدينتها متلقية المؤن من الاسطول البيزنطى مما جعلها قادرة على المقاومة حتى عام ٦٤٠ . وفى هذه السنة بالذات تم 'احتلال' سوريا وفلسطين بكاملهما وأصبح احتلالا ثابتا لا يتعرض لأية هزة .

(١) اشارة الى حسان بن ثابت الشاعر الانصارى المعروف وكان جبلة قد سأل بعض قادميه منه ف قيل له انه ذاهب السمع والبصر . (العرب)

تواريخ بارزة

معركة اليرموك ٢٠ من أغسطس ٦٣٦
البطريق صفرونيوس يعرض
استسلام القدس للخليفة .
سبتمبر (أيلول) ٦٣٧
عمر بن الخطاب يزور القدس يناير ٦٣٨ (كانون الثاني)

شخصيات مشهورة

ثيودوروس (تودز) القائد الاعلى للروم قتل في معركة اليرموك
شنس قائد الارمن في جيش تودز
صفرونيوس البطريق اليوناني في القدس
جبله بن الابهيم آخر ملوك الفساسنة .

القادسية والمدائن

« يا أيها الذين آمنوا ، إذا لقيتم الذين كفروا
زحفا فلا تولوهم الأديار » ومن يولهم يومئذ دبره ،
ولا متحرقا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب
من الله وماواه جهنم وبئس المصير » .

القرآن الكريم - سورة الأنفال

« ان اجتماع العصبة القبلية الى الحافر
اللدني جعل الحماس طافيا »

مترجمة الى الانجليزية عن ابن خلدون .

« وتطلبون أعداءكم فيسقطون أمامكم بالسيف
تفترد الخمسة منكم مئة والمئة منكم تفترد ربوة
ونسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف » .

سفر الأخبار - الفصل ٢٦ - ٧

تركنا المسلمين عند نهاية الفصل الثامن أى فى نوفمبر (٢ تشرين الثانى) عام ٦٣٥ وقد عادوا الى السيطرة المطلقة على الحوض الأسفل للفرات اثر انتصار المثنى الرائع فى معركة ألبويب ١٠٠ وقد استعادوا الحيرة وأخذوا يغيرون على المنطقة التى بين دجلة والفرات حتى ارباض المدائن عاصمة الفرس ، ولكن المثنى كان يحتضر الآن متأثرا من جراحه ، وكانت الجيوش العربية فى حاجة الى قائد يسوس أمورها .

ولم يشعر رستم القائد العام عند يزدجرد باليأس ولم يدب القنوط الى قواده ٥ ومن المحتمل أن تكون القوة التى اشتبك العرب معها فى البويب طليعة قذف بها الى الامام على حين كان يجرى جمع الجيش الرئيسى وتنظيمه ، وبدأت النجندات تترى على المدائن ، والتف النبلاء حول راية ملكهم وعادت الحماسة فديبت فى صدورهم ، وسرعان ما عادت قوات الفرس الى التقدم واضطر العرب الى الخروج ثانية من سهول السواد الخصبة وعبور الفرات عائدين الى الصحراء متخليين من الحيرة والانباز وفتوحهم الاخرى .

وبعث المثنى وهو على فراش الموت بكتابه الى عمر يناشده فيه الغوث والمدد . ولم يتوان الخليفة عن تلبية النداء ومواجهة المسألة الطارئة ، فكتب الى عمال العرب على الكور والقبائل يستحثهم على ارسال النجندات الى المدينة ، وسرعان ما كان جيش جديد فى طريق التشكيل فى العاصمة ، وأعلن الخليفة وسط الجموع الحاشدة اعترافه بقيادة الجيش بنفسه . ولكنه سرعان ما سمح لكبار مستشاريه بأن يقتنوه بالعدول (١) بعد أن أوصوا بقيادة الجيش لسعد بن أبى وقاص،

(١) هناك تحريف من المؤلف للرواية العربية : روى الطبرى انه لما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدمى صراد فسكر به ولا يدمى الناس مايريد : ايسر أم يقيم ؟ وكانوا اذا ارادوا أن يسألوه من شيء رموه بمشمان أو عبد الرحمن بن هوف وكان عثمان يدمى في امانة عمر رديفا ، ونادى عمر الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس عليه فاخبرهم الخبر وانتظر ما يقولونه فلالت العامة سر وسر بنا ملك ، فدخل معهم في رأيهم وكره أن يلهمهم حتى يخرجهم في وقتي فقال ١٠٠ استعدوا وأعدوا فأتى سائر الا أن يجرى رأى امثل مع هذا لم يمت الى اهل الراى فاجتمع اليه وجوه الصحابة واعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعا على ان يبعث رجلا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرميه بالجنود . فان كان مايرجو من الفتح ، =

وكان عمر هو الذى اختار وحده أبا عبيد السعوى الطالع لقيادة الجيش السابق ، أما الآن فقد سمح لمستشاريه بأن يتولوا هم الاختيار . وكان سعد من أقارب النبی ومن أوائل صحابته والمؤمنين به . وقد ذاع صيته في شبابه بأنه خير من يرمى القوس ٥ كما اشتهر بأنه أول من سفك دما في سبيل الدعوة الإسلامية ، وكان قصير القامة بدينها ، ذا رأس ضخم ، وشعر جعد . وقد عرف بأنه بطل من أبطال الحرب والقراع . وكان قد بلغ الأربعين من عمره عندما اختير قائدا عاما لجبهة الفرس ، ولم يكن في وسع أى من شيوخ القبائل ورؤسائها أن يحتج على قيادته نظرا لقربته من رسول الله ولأنه من محاربى بدر الأوائل ، ومع ذلك فقد حذره عمر - كما قيل - من الغرور ، إذ أن قريشا كانت قد تحولت بسرعة الى منزلة الطبقة الأرستقراطية المتكبرة في الامبراطورية الجديدة ٥ وراح يقول لسعد : ان الله ينظر الى الناس بأعمالهم لا بأحسابهم وأنهم جميعا عيال الله ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

وخرج سعد من المدينة في الايام الاخيرة من خريف عام ٦٣٦ على رأس نحو من أربعة آلاف رجل ثلاثة آلاف منهم من أهل اليمن ، وقد اصطحب كثيرون من أبناء القبائل نساءهم وأطفالهم ومواشيهم . وظل عمر يوالى ارسال كل من يفد اليه من المتطوعين وراهم وهى عملية كانت تتطلب منه الكثير من النقاش والاقناع ، إذ أن الغالبية كانت لاتزال تنصر على الذهاب الى سورية لا الى العراق .

وضرب سعد خيامه في شتاء عام ٦٣٦ - ٦٣٧ عند بئر في نجد يسمى الثعلبية لتتوافد اليه جموع القبائل المحلية ، وتنضم الى جيشه وكان دفع الحظر عن القبائل المرتدة والسماح لها بالقتال مع المسلمين قد

= والا ماد رجلا ، وندب جندا آخر ، فنادى عمر الصلاة جامعة ، وبعث الى على ، وكان قد خلفه على المدينة ، والى طلحة ، وكان على مقدمته ، ولما تكامل جمعهم ، قال : ان الله قد جمع على الاسلام اهله ، فالف بين القلوب ، وجعلهم فيه اخوانا ، والمسلمون خيما بينهم ، لا يغلو منه شيء ، اصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين أن يكون امرهم شورى بينهم ، وبين ذوى الراى منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ، ما اجتمعوا عليه ، ورضوا به لزم الناس ، وكانوا فيه تبعاً لهم . ايها الناس ، انى انما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوى الراى منكم من الخروج ، فقد رأيت أن اقيم ، وابتعث رجلا . وقد لحضرت هذا الامر من قدمت ومن خلفت (يريد عليا وطلحة) . ثم اجال معهم الراى فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم وافق الراى أخيراً على تولية القائد العظيم ، سعد بن أبى وقاص الزهري القرشي . (المرب)

ادى الى زيادة ضخمة في عدد المتطوعين . وسرعان ما انضم اليه نحو من أربعة آلاف رجل من بنى تميم . حتى طليحة مدعى النبوة فتح الآن صفحة جديدة في تاريخه ، وسارع الى الانضمام الى جيوش المسلمين على رأس ثلاثة آلاف رجل من قبيلته بنى أسد .

ولحق بالجيش زعيم آخر من زعماء الردة هو الأشعث بن قيس شيخ كندة وصهر أبى بكر على رأس جيش لجب من محاربى حضرموت ، وقدم الى المدينة عمر بن معد يكرب على رأس جماعته من زبيد في اليمن واستقبله الخليفة استقبالا حسنا ومنحه مع غيره من شيوخ القبائل من ذوى الاهمية ، مبلغ ألفى درهم . ولم يكن من السهل ارضاء عمرو هذا فقد ذاع صيته ، بأنه أكل نهم ، فضرب على جنب بطنه الأيمن وقال بصوت عال : « ألف هنا » ثم عاد فضرب جنبه الأيسر وقال : « ألف هنا » ثم أشار الى أوسط بطنه يقول : « وماذا يبقى هنا » فضحك الخليفة وأعطاه خمسمائة أخرى .

وما زالت عادة الهبات النقدية والكساوى لرؤساء القبائل متبعة في المملكة العربية السعودية حتى يومنا هذا وقد اضطرت ابان عملى مع البدو الى مراعاتها ، ولما كنت أعرف أننى مهما دفعت ، فان الشيخ الذى أقدم اليه الهدية سيطلب المزيد ، كنت أقدم اليه أولا ثلثي المبلغ الذى جدته له . وكان البدو يطلقون على الدفعة الإضافية الاخيرة اسم اللحيقة ، «تصغير اللحيقة» :

وسار سعد من الثعلبية فلقية مع بن حارثة ، شقيق المثنى عند العديب ، وكان أخوه قد توفى . (١) وكان يحمل راية المثنى وآخر رسالة من القائد المتوفى الى القائد الجديد ، ينصحه فيها بأن يحارب العدو في الصحراء ، لأنه سينتصر فيها ، أما اذا قدر له أن يهزم فسيجد الصحراء الودودة المعروفة لديه وراء ظهره ، وشيعجز الفرس عن اللحاق به فيها فينظم جيشه ويعاود الكرة ثانية . هذه هى خلاصة الخطط السوقية العربية في العراق وسورية وهى الخطط التى أهملها أبو عبيد اهمالا مفعجا فى معركة الجسر .

(١) يقول البلاذرى : وسار سعد الى العراق فأقام بالثعلبية ثلاثة أشهر حتى تلاحق به الناس . ثم قدم العديب في سنة خمس عشرة . وكان المثنى بن حارثة مريضا فأشار عليه بأن يحارب العدو بين القادسية والعديب . ثم اشتد بوجه فحمل الى قومه فمات فيهم ، وتزوج سعد امراته .

وكان سعد مصمما على ألا يزج بجيشه قبل الأوان في معركة قد تكون حاسمة ، وظلّت القوات والقبائل العاملة تحت امرته موزعة أكثر من ثلاثة أشهر على منطقة فسيحة في الصحراء ، تبلغ مساحتها نحواً من مائتي ميل مربع . ولما كان الكثيرون منهم معهم عائلاتهم وقطعان مواشيهم كان من الصعب حشدهم في منطقة أضيق . يضاف إلى هذا أن تعذر الحصول على العلف لمثل هذا العدد الكبير من الحيوانات جعل من الأفضل ضمان ثلاثة أشهر من المرعى الصحراوي الهادئ . لتقوية الجياد والأبل . وجعلها قادرة على خوض المعركة المنتظرة .

ولما كان الطقس شتاء كان الماء متوافراً في الصحراء للجميع . وكان نحو من ثمانين ميلاً تفصل بين الأطراف الشمالية للمنطقة التي عسكر فيها جيش سعد وبين الفرات ، وهي أرض صحراوية خالية من الماء تؤلف مواقع (شرف وسلمان وشدهل) قوساً أمامية لها . وهكذا كان من الصعب على الفرس أن يقطعوا هذه المسافة الطويلة فوق جيادهم لمواجهة العرب في أراضي تدريبهم .

وهكذا توافر الوقت الكافي لسعد لتنظيم جيشه دون أن يخشى التدخل من العدو . وعلى سبيل المائلة ، تمكنت بريطانيا والولايات المتحدة من تدريب جيوشهما في إنجلترا لعملية الغزو ، معتمدين على حماية القناة الإنجليزية (المانش) . وهكذا نجد مرة ثانية المقارنة مائلة أمامنا بين الصحراء والقوات البحرية .

والمؤرخون الذين ندين لهم بكل ما يبقى من قصة الفتوح العربية إنما هم من أبناء المدن البعيدين عن حياة البدو والصحاري والمعارك . ولهذا لم يحاول أي منهم أن يصف لنا طريقة تدريب العرب أو أساليب التعبئة التي اتبعتها هذه الجيوش الفاتحة . ولكنهم ذكروا لنا ولأول مرة أن سعد ابن أبي وقاص . . . كان مشغولاً في هذه الفترة من الراحة بتنظيم القوات العربية . ويقال أنه قسمها إلى جماعات في عشرات ، على كل عشرة منها خراف أو عريف . وكانت قد انقضت على العرب - وقتذاك - ست سنوات ، وهم في حالة حرب مستمرة مع الجنود المدربين من جيوش الروم والفرس . ومن المعقول كل المعقل ، أن نفترض أنهم اكتسبوا بعض الآراء . . عن الفن الحربي . . التي تعتبر مقدمة بالنسبة إلى ما كان يعرفه الجفافة من أهل البادية .

ويبدو أن جميع الجيوش في العالم في تلك الآونة كانت تقسم إلى

مقدمات ومجنبات وساقية ، والى طلائع ورجل وركبان ، وقد اقتبس العرب هذا التنظيم وطبقوه فى جيوشهم • وكانت القوات التى يعهد اليها والى قياداتها القيام بهذه الواجبات تحتفظ عادة بالمراكز التى تنتدب لها طيلة الحملة كلها • ويبدو أن سعدا قد عين نائباً له ؛ ثم عين أمراء الثعلبية على المقدمة والأجنحة والمؤخرة ؛ وغيرها من الوحدات بالإضافة الى أمراء الرايات وأمراء الأعشار ثم القواد من رموس القبائل • وليس نمة من ذكر خاص لتعيينات بين أمراء الوحدات وأمراء الأعشار الا اذا اعتبرنا أصحاب الرايات فى الواقع من أمراء السرايا أو الافواج •

ويبدو أن حجم السرية فى الجيش العربى كان مطاطاً مرناً للغاية ، إذ أن هذه الوحدات ظلت تحتفظ بطابعها القبلى • فالوحدة تؤلف من القبيلة الواحدة ، ولما كنا قد ألفنا فى القرنين الماضيين سماع ماتنزل وحدات نظامية من الجيوش الحديثة من هزائم بالقوات القبلية البدائية ، فاننا نميل الى اعتبار التنظيم القبلى مفتقراً الى الكفاية من وجهة النظر العسكرية ولكننى أرى أن الافتقار الى الأسلحة الحديثة عند هذه القبائل ، هو السبب فى الهزائم المذكورة ، لا التنظيم القبلى • أما عندما كان الرمح والسيف والقوس هى الأسلحة الرئيسية الموجودة فقد كان فى وسع القبائل أن تتسلح بها تماماً كالجيوش النظامية يضاف الى هذا أن القبيلة تمتاز بدافع الفريزة « بروح الجماعة » التى تحاول الجيوش الحديثة كل ما وسعها الجهد خلقها فى جنودها • وطالما كان النظام القبلى قائماً فان أبناء القبائل كانوا يحاربون حتماً مع أبناء عموماتهم بشكل أفضل مما تحارب به الجماعات المختلطة ، المؤلفة من رجال يمتون الى قبائل أخرى تعتبر بعضها البعض غريبة عنها •

ويقوم الدليل على وجود هذه المزايا عند جميع القبائل ، لا العربيه وحدها ، من الحقيقة الواقعة ، وهى أن جيوشاً صغيرة من القوط والفاندال وغيرهما •• من البرابرة •• كانت كافية للأطاحة بالامبراطورية الرومانية • (١) وكان الافتقار الى الانضباط عند القبائل العربية سبباً

(١) يقال ان عدد القوط الشرقيين الذين احتلوا ايطاليا في القرن الخامس للميلاد لم يزد على العشرين ألفاً من المحاربين في حين كان سكان ايطاليا يدون بين خمسة وستة ملايين ، وكان عدد القوط الغربيين الذين اجتاحتها اسبانيا ، وكانت ولاية رومانية ، لم يزد على هذا الرقم ، واستولى جنيسريك ملك الفاندال على افريقية الشمالية بجيش لا يزيد على الخمسة عشر ألفاً وكلها أرقام تتشابه مع أرقام الجيوش العربية • راجع كتاب محمد وشارلمان لهنرى بيرين • (المؤلف)

دائماً من أسباب ضعفها الحربى • ولكن الدين الاسلامى الحديث كان...
فى الفترة التى نكتب تاريخها الآن ••• قد سسد هذا النقص وأمن
الانضباط فى جيوش المسلمين ؛ حيث جعل طاعة أولى الأمر واجباً
دينياً •

ومن المحتمل أن يكون سعد تحرك الى الشمال من أشرف باتجاه
العذيب القريب من الفرات • والثى تبعد بضعة أميال عن خان الرهبة
فى ديسمبر (كانون الأول) عام ٦٣٦ م أو يناير (كانون الثانى) عام ٦٣٧ م
وأصدر أمره الى جميع القبائل وبينها بالطبع تلك التى كانت تقاتل تحت
أمره المثنى ، على أن تحتشد فى المنطقة نفسها •

وكان جيش المثنى فى معركة البويب يعد نحواً من اثنى عشر ألفاً
نصفهم من قبيلته بنى بكر • ويعتقد أن سعد بن أبى وقاص حشد
العدد نفسه تقريباً عندما تحرك من الثعلبية الى شراف ؛ وإذا ما جمعنا اليه
الوحدات التى ظلت تصل باستمرار تبين لنا أن الجيش العربى الذى
احتشد فى العذيب كان يعد نحواً من ثلاثين ألف مقاتل ، وإذا ما قدرنا هذا
الجيش بجيش المثنى المؤلف من البدو فقط ، تبين لنا أنه - أى جيش
سعد - كان يضم نحواً من ١٤٠٠ من صحابة الرسول وبينهم تسعة
وتسعون من محاربى بدر •

وكان العرب قد حققوا نصرهم الضخم فى معركة اليرموك فى سورية
فى شهر أغسطس عام ٦٤٦ • ولم تكد أنباء النصر تصل الى الخليفة حتى
أصدر أمره الى أبى عبيدة بأن يعيد الى العراق القوة التى كان خالد قد
سار بها قبل نحو من عامين من جبهة الفرس الى سورية • ولكن خالد لم
يرافق قوته فى طريق العودة ؛ وإنما قادها وهى تضم نحواً من ستة آلاف
جندي ••• قيس بن المكشوح أحد قادة الردة السابقين فى اليمن ؛ ومعه
القعقاع المتهور الذى تسلق مع خالد أسوار مدينة دمشق يوم فتحها ؛
لكن هذه القوة لم تكن قد وصلت بعد من سورية عندما وصل سعد
على رأس جيشه الى العذيب •



ولم يكن الفرس فى غضون ذلك مخلصين الى الراحة والكسل ؛
وكانوا - تلبية لأمر يزيدجرد وحته وحيوته - قد حشدوا جيشاً ضخماً
بقيادة رستم القائد المتمرس الذى خبر الحرب فى عدة حملات وقد حمل
الفرس لهذه المعركة راية الاسرة الساسانية المألوفة للتدليل على أهميتها ؛

وألف نحو من ثلاثة وثلاثين فيلا « الفيلق المدرع الذى تفرر أن يقود الهجوم » وقدر المؤرخون العرب جيش الفرس هذا بما يتردد بين الستين ألفا والمائة والعشرين ألفا وربما لا يقبل المرء هذه الأرقام وإن كان من المحتمل أن يكون جيش رستم أكثر عددا من جيش سعد (١) .

ومن المحتمل أن يكون رستم قد تحرك فى ديسمبر (كانون الاول) عام ٦٣٦ من المدائن باتجاه الجنوب ليرابط فى ضواحي بابل . وكانت خطط القائد العجوز تختلف اختلافا بينا وجنوبا عن خطط الملك الشاب . فلقد كان رستم حريصا على تجنب الدخول فى معركة فاصلة وكانت امبراطورية الفرس فى تلك الايام تمتد بعيدا الى السند فى دولة الباكستان الحديثة ، وتضم كل مانسميه بأفغانستان . ولم يكن العرب قد خدشوا من هذه الامبراطورية الواسعة الا طرفا صغيرا منها ، وكانوا قد جلوا الآن — كل الجلاء — عما خدشوه منها وعادوا الى صحرائهم . وكان يرى أنه اذا ظل الجيش الذى أعده والمسمى باسمه قائما وغير مغلوب فإن العرب لن يستطيعوا عبور الفرات الا فى غزوات صغيرة بقصد الاغارة ، الا اذا أصبحوا على أهبة لحوض معركة أكبر فى المنطقة المزروعة . وهى معركة لابد أن تكون نتيجتها فى مصلحة الفرس .

يضاف الى هذا أن القائد العجوز الماكر ، اعتقد أن الحماس العربى سيفتر يوما ما وإن الخلافات الداخلية قد تفتت وحدتهم . وهكذا تركزت خطة رستم على البقاء على الضفة الشرقية للفرات ، وترقب مايقع من أحداث .

أما يزدجرد الشاب ، فكان يرى رأيا معاكسا تماما لرأى قائده وراح يبحث قائده بشئ من الغرور ونفاد الصبر ، على أن يحرف بجيشه هذه « النفايات » الصحراوية ، من حدود ممتلكاته ، وإن يطاردها الى عقر دارها وسط الصحراء ، ليقتنص منها على جرأتها فى ايداء رعايا ملك الملوك . لكن رستم أصر اصرارا عجيبا على رأيه ، ويقال : انه حاول المظل ، ففضى زهاء أربعة شهور فى زحفه من المدائن حتى الحيرة ، أى فى مسافة لا تعدو السبعين ميلا .

وكان الخليفة فى غضون ذلك ، قد أمر سعبدا بأن يبعث بالرسول

(١) محاولة جديدة من المؤلف للتشكيك فى التاريخ العربى ومن ثم للتشكيك فى أهمية النصر الرائع الذى حققه العرب فى معركة القادسية المنظمة .

الى يزدرجرد ليطلبوا منه اسلامه . وهكذا سافر الى المدائن وقد يضم نحوا من عشرين فارسا عربيا من الذين اشتهروا بالشجاعة والفروسية وقصاحة القول ، بينهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، والأشعث بن قيس ، وكلاهما من زعماء الردة السابقين . وعندما مر رجال الوفد بالقاعة الكبرى في طريقهم الى كسرى ، لم تستطع الجموع أن تكبت ضحكاتها الساخرة منهم لرؤيتها ملابسهم الخشنه وأسلحتهم البسيطة ، ومظهرهم المفتقر الى الهندام لكن السلوك الاستقلالي الجريء الأنوف الذي سلكه هؤلاء العرب الاحرار من أبناء الصحراء أثر تأثيرا عميقا على أفراد بطانة يزدرجرد المترفين الناعمين .

واختار الوفد عند مثوله أمام كسرى . . . النعمان بق مقرر . . . ليكون الناطق باسمه ، وهو من صحابة الرسول من الانصار . وراح النعمان يحدث كسرى بتاريخ ارسال النبي صلى الله عليه وسلم الى العرب لانقاذهم من جاهليتهم ثم دعاه الى الاسلام هو وقومه ، فان أبى فالجزية مع التبعية لحماية المسلمين . أما اذا رفض كلا الأمرين فخسارة العرش أمر حتمي (١) .

ويبدو أن كسرى ثار غضبا من هذه الاقوال ، وله الحق في ذلك ، ورد بأن العرب قوم فقراء ، جفاة ، أنصاف جائعين من الصحراء . وقد ردوا عليه بأنهم كانوا حقا فقراء والفقير لا يعيب صاحبه ، ولكن الله وعدهم بالثراء والوفرة . ولكن الملك الشاب ، استشاط غضبا من هذا الرد ، وصرخ بهم قائلا انه لو لم يكن من العار قتل السفراء ، لقتلهم على بكرة أبيهم وطلب بعد ذلك وقرا من تراب ليحمله رئيس الوفد ، مشيرا بذلك الى زرايته بهم ومضى الوفد الاسلامي يحمل كيس التراب ، ليقدّموه الى سعد بن أبى وقاص متفائلين به ومستبشرين وقائلين لقائدهم : «أبشرفقه أعطانا كسرى تراب بلاده» (٢) .

(١) و (٢) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف الذي اقتضاه التلخيص من رواية المؤرخين المسلمين . وهانذا أنقل للقارئ الكريم الرواية كاملة :

اختر سعد تنفيذا لأمر عمر دعاه بعث بهم الى ملك الفرس عليهم نجار ، ولهم آراء ، ولهم منظر ، وعليهم مهابة . وجاءوا الى المدائن واستأذنوا بالدخول على الملك فاذن لهم ، ومع يزدرجرد وزدائه ووجوه أرضه . فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه : سلهم ما جاء بهم ، وما دعاهم الى ههنا والولوع ببلادنا ، أمن أجل أنه حينئذكم وتشاغلنا عنكم اجترام علينا ، فرد النعمان بن مقرر وكان رئيس الوفد ، فذكر تاريخ ارسال الرسول ، وما كان من شأن العرب منه ودخلهم في دينه وقال بعد ذلك : لم أمرنا أن نبدا بمن يلبسنا من الامم فنقدمهم الى الانصاف ، فنحن نقدمكم الى ديننا =

ولقد وقع حادث طريف مماثل لهذا فى يوليو سنة ١٧٩٩ ، عندما

== وهو دين سن الحسنى ، وقبح القبيح كله ، فان أبيتم ، فامر من الشر هو اهورن من آخر شر منه الجزاء ، فان أبيتم فالناجزة ، فان أجبت الى ديننا ، خلفنا فيكم كتاب الله ، واقمنا لكم عليه على ان تحكموا باحكامه . ونرجع عنكم . وشأنكم وبلادكم ، وان انقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ، ومنعناكم ، والا قتلناكم ، فقال يردجورد : انى لأعلم في الارض امة كانت احدى ولا اقل عددا ولا اسوا ذات بين منكم . قد كنا نوكل بكم قرى المشواحي فيكفوننا اياكم . لافزوكم فارس لتطمعون ان تقوموا لهم . فان كان مسدد لحق فلا يفرنكم منا ، وان كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتا الى خصبكم ، واكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكننا عليكم ملكا يرفق بكم ، فسكت القوم فقام الغيرة بن لدارة الاسيدى فقال :

ايها الملك ، ان هؤلاء رموس العرب وجوهمهم ، وهم اشراف وانما يكرم الاشراف
الاشراف ، وليس كل ما ارسلوا به جمعه لك ، ولا كل ما تكلمت به اجابوك عليه ،
وقد احسنوا ولا يحسن يمثلهم الا ذلك ، فجوابنى لكون الذى ابلفك ويشهدوا على
ذلك : اما ما ذكرت من سوء الحال فما كان اسوا حالا منا ، واما جوعنا فلم يكن يشبه
الجوع ، كنا ناكل الخنافس والجعلان والمقارب والحيات ، فترى ذلك طعامنا ، واما
المنازل فانما هى ظهر الارض ، ولا نلبس الا ما غزلنا من اوبار الابل واشعار الفم ،
ديننا ان يقتل بعضنا بعضا ، ويغير بعضنا على بعض . وان كان احدا ليدفن ابنته
حية كراهية ان تاكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك . فبعت الله الينا
رجلا معروفا ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فارضه خير من ارضنا ، وحسبه خير من
احسابنا ، وبنته اعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرا في الحال التى
كان فيها ، اصدقنا واحلمنا ، فدعانا الى امر فلم يجبه احد ، اول من ترب كان له وكان
الخليفة من بعده ، فقال ، وقتنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئا
الا كان ، فهدف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ،
فما قال لنا فهو قول الله ، وما امرنا فهو امر الله . فقال لنا ان ربكم يقول انى انا الله
وحدى لا شريك له . كنت اذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك الا وجهى ، وانا خلقت كل
شيء ، والى يصير كل شيء ، وان رحمتى ادركنكم ، فبعثت اليكم هذا الرجل لادلكم على
السبيل التى بها انجيكم بعد الموت من عذابى ، ولا حللكم دارى ، دار السلام ، فشهد عليه
انه جاء بالحق من عند الله وقال من تابكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم ، ومن ابى
فامرضوا عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعون منه انفسكم ، ومن ابى فقاتلوه ، فانا الحكم
بينكم ، فمن قبل ادخلته جنتى ، ومن بقى منكم اعقبته النصر على من ناواه ، فاختر.
ان شئت الجزية عن يد وانت صاهر ، وان شئت فالسيف او تسلم فتنبجى نفسك ،
فقال كسرى :

استقبلنى بمثل هذا ، فقال : ما استقبلت الا من كلمنى ، ولو كلمنى غيرك
لم استقبلك به ، فقال : لولا ان الرسل لا تقتل ، لقتلتكم ، لا شيء لكم هدى ، ثم قال
ايتونى بقر من تراب ، فاحملوه على اشراف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ،
ارجعوا الى صاحبكم فاعلموه انى مرسل اليه رستم ، حتى يدفنكم ، ويدفنه في خندق ==

استقبل والى بغداد التركي مبعوثا من سعود بن سعود الوهابى . وكان
الوالى قد أمر ضباطه وجنوده ورجال حرسه بأن يردوا بزاتهم العسكرية
للتأثير على الوفد الوهابى ، الذى أثبت بدوره أنه من البداية الجفاة الغلاظ
ولم يتأثر السفير البدوى بأبهة بلاط الوالى ، وجلس على الارض أمام الوالى
موجها اليه خطابا مشحونا بالتحدى والزراية والتعالى (راجع لونكريج -
أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) .

وكان العرب قد شرعوا فى غضون ذلك فى الاغارة على المناطق
الزراعية على ضفاف الفرات ، وكانت غايتهم من هذه الغارات الحصول
على المطعم لانفسهم وحيواناتهم . وقد تمكن الخليفة من أن يبعث اليهم ببعض
المواشى ، ليؤمن لهم ولو جزئيا شيئا من اللحم اللازم لهم . لكن هذه
المواشى وصلت نحيلة ، لآخر فيها ، لانها ارتحلت مسافة بعيدة فى قلب
الصحراء ، ولكنه كان عاجزا عن توينهم بالقمح لحبزههم أو العلف لحيواناتهم .
وكان الفرس الذين يقعون ضحايا هذه الغارات ، يتوجهون صارخين
بالشكوى الى الملك طالبين الحماية لممتلكاتهم ، وهكذا ظلت معنويات العرب
الذين يواصلون هجماتهم فى ارتفاع فى حين هبطت معنويات الفرس الذين
يشهدون بأعينهم الخراب والدمار يلحقان ببلادهم ، وأصدر يزدجرد
الشاب أخيرا أوامره الى قائده المتأنى بأن يخوض المعركة فورا مع
المسلمين . ولما عجز رستم عن التسوية أو الماطلة ، تقدم بجيشه ورابط
به على ضفاف الفرات فى مواجهة العرب . ويبدو أنه كان لا يزال يأمل فى
تأخير المعركة الحاسمة أو تجنبها فأوفد الى سعد بن أبى وقاص رسولا
يطلب اليه توجيه بعض أصحابه اليه .

وقرر سعد - بعد التشاور مع كبار رجاله - ان ايفاد الوفد يعتبر
دليلا على شيء من الاحترام الذى لا يرغب فيه ، ولذا فقد أرسل اليه
شخصا واحدا ، كان بدويا عجوزا . وعندما وصل البدوى وجد «رستم»
يجلس على سرير كالعرش ، وقد أحاط به قاداته ورجال حرسه ؛ وأمامه
تمتد بسط فاخرة من السجاد العجمى النادر . وظل الرسول العربى
يتقدم على متن فرسه الصغيرة المهزولة فوق البسط والسجاد ؛ حتى ترحل

= القادسية وينكل بكم وبه من بعد ، ثم أوردكم بلادكم ، حتى اضلكم فى انفسكم بأشد
مما نالكم . ثم قال : من اشرككم ، فقال حاصم بن عمرو : انا . فحملوه وقر التراب على
عنقه ، فحمله ... حتى أتى راحلته فحمله عليه ، ثم ساروا به ، فأثوا بالتراب سعدا
وبشروه بالظفر متفائلين .

(العرب)

عنها أمام رستم ثم خطا على قدميه قاصدا سريره ليجلس معه عليه ؛
 فمنعته الأساورة من حرس رستم وأمسكوا بيديه ليحولوا بينه وبين
 السرير وهتف البدوي قائلا : « أنا لم آتكم الى هنا لينزع سلاحى منى ؛
 ولكنكم دعوتمنى اليوم فلم أرغب فى المجيء أما اذا كنتم ترغبون فى أخذ
 سلاحى ، فسأعود الى قومي » وأمر رستم رجال حرسه بالتراجع عن
 الرجل ؛ وخطا البدوي العجوز الذى كان يبدو فى حالة من الانشراح
 الكامل ، يتكى على رمح ؛ وفى كل تكأة خرق يحدثه برأس رمح فى السجاد
 الثمين ، وعندما وصل أمام القائد أعمل رمح ثانية فى سجادة أخرى نادرة ،
 فخرقها ؛ ثم أوقعها على الأرض وقال فى معرض الرد على أسئلة رستم : انه
 يدعوه الى عبادة الله وحده ، والايمان بنبيه والا فالجزية عن يد صاغرة ؛ والا
 فالسيف هو الحكم « بيننا وبينكم » . وطلب رستم مهلة لدرس هذه
 الاقتراحات ونقلها الى كسرى ، ولكن البدوي العجوز رد عليه بأن رسول
 الله حدد دائما مثل هذه المهلة بالمهادنة لثلاثة أيام فقط . وأوفد سعد
 فى اليومين التاليين رسلا منفردين كانوا على ما كان عليه البدوي من
 كبرياء وتحذ وغايتهم كما يبدو اضعاف الروح المعنوية عند الفرس .
 وكان المغيرة بن شعبه وهو من صحابة النبی من أهل الطائف ،
 آخر هؤلاء الرسل . فراح يجلس الى جانب رستم على سريره ، مما أثار
 الرعب فى نفوس أفراد البطانة والقادة .

وأدرك رستم فى النهاية أنه فى وسعه أن يكسب وقتا آخر وعاد الجدل
 القديم الى الظهور . لاقرار من سيعبر النهر ، العرب أم الفرس . وكان
 الفرس يودون لو أن العرب هم العابرون ليحاربوا فى المنطقة المزروعة ،
 لحي حين كان العرب يرغبون فى أن يجرؤا الفرس الى الضفة الغربية
 ليقاتلوا فى الصحراء وكان من الحتمى أن يباد أى جيش يعبر النهر عن
 آخره ، اذا شاء له حظه أن يخسر المعركة ، وهى تجربة تكررت مرتين ،
 أولاهما فى معركة الجسر والاخرى فى معركة البويب .

وكان سعد قد رتب جيشه فى سهل القادسية الذى يقوم على الغالب
 بين بلدتي النجف وأبى صخير الحديثين . وكانت ميمنته تركز الى
 المستنقع الذى يمتد الى الفرات . أما الصحراء فتقوم فى مؤخرته والنهر
 أمامه . ووجد رستم نفسه أخيرا مرغما على اطاعة أمر كسرى ؛ وتخوض
 المعركة مع العرب . وبدأ الجيش الفارسى فى عبور النهر ؛ (يسمى
 العرب العتيق) .

وكان الفرات يتفرع فى تلك الايام ، كما يتفرع اليوم الى عدة

نهرات متفرقة ، وكان العرب يطلقون على النهر الذى يفصل بين الجيشين اسم الفرات العتيق ، ولعله كان قناة فرعية ، لان المجرى الرئيسى للنهر كان قد شق له طريقا جديدة الى الشرق ويبدو أن مجرى النهر لم يكن عميقا هنا ، اذ يقول المؤرخون العرب ، ان رستم لم يعبر بجنوده الجسر ، وانما بنى سدا عبروا عليه ؛ وعبا رستم جيشه بعد عبوره فى مواجهة العرب .

وكان سعد بن أبى وقاص قد عثر على مقربة من ميدان المعركة على قلعة صغيرة أو بناء . . جعل منه مسكنا له . وعندما اصطف المسلمون للقتال ، لم يكن سعد معهم ، اذ كان مريضا يشكو من بثور أو من عرق النسا ، فكان مقيما بأعلى البناء ويشرف على الناس من أريكة يستلقى عليها موجها القتال . ويبدو أنه كان فى وسعه - من هذا المكان المرتفع - أن يشهد كل ما يحيط بالميدان ، وأن يوجه حركات جيشه ؛ ولكن غيابه عن المعركة والاشتراك فيها شخصا أثار موجة من الاستياء عند جنوده ، ولقد سبق لنا أن رأينا أن العرب فى الحرب ؛ كانوا يتوقعون من قائدهم قيادة الهجوم بنفسه ؛ وتحدى خصمه قائد جيش الأعداء للمبارزة وحمل راية الجيش بيديه . ومن المعروف ان سعدا كان من شجعان العرب وفرسانهم وقد خاض معارك عدة سابقة ، ولذا فلا يمكن أن يعزى تغيبه عن القتال الى الجبن . لكن بعض الناس أخذوا يتغامزون ويقال : انه كان قد بنى فى أشهر الانتظار الطويلة ، بأرملة المثنى بن حارثة . ويقال : ان هذه السيدة ، أخذت تهتف فى أثناء المعركة بقولها : « وامثنياء ولا مثنى للخيل » ، فلطمها سعد على وجهها ، فقالت : « يا سعد أغيرة وجبنا ؟ » .

ولم نسمع أيا من المؤرخين العرب ، يقول : « ان سعدا أقام عامدا متعمدا على أعلى البناء ، وراء جبهة القتال ، لتكون فرصة أفضل فى الاشراف على المعركة والسيطرة عليها . ويبدو أن هؤلاء المؤرخين كانوا يعتقدون ، شأنهم فى ذلك شأن جنود المسلمين ابان المعركة ، ان واجب القائد محصور فى قيادة الهجوم بنفسه والاندفاع فى صفوف العدو . ولو صح ما قاله المؤرخون من أن سعدا كان مريضا حقا فما الذى دعا زوجته سلمى ، وهى أرملة المثنى ، الى تعيينه بالجبن بالنسبة الى زوجها الاول ؟ ولقد روى لنا المؤرخون أيضا ، ان سعدا كان يرمى بالرقاع من مكانه المرتفع وفيها أوامره ونواهيهِ الى مساعديه من قادة الجيش . ومن هذا أرى أن هناك ما يدفعنى الى النظر اليه ، نظرتى الى قائد عسكري جدى ، يقاتل ليفوز ، ولا تثنيه عن هدفه هذا أفكار خيالية رومانطيقية تزين له

المبارزة الفنية لإبراز شجاعته • ولا يفكر المدافعون عنه بإيجاد المبرر الصحيح لسلوكه الذى بدأ شاذاً لقومه آن ذاك ولقد قال الشاعر العربى •

وقاتلت حتى أنزل الله نصره وسعد بباب القادسية معصم
فرحنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس منهن أيم

وعندما انتشر الفرس فى السهل أمام العرب أمر سعد بتلاوة سورة الانفال من القرآن الكريم على جميع الفصائل البدوية ، وهى السورة التى رددت انتصار المسلمين فى بدر ؛ والعبر المستخلصة من هذا النصر ، اذ جاء فيها :

« يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » •

ووقف المسلمون خاشعين وهم يستمعون الى هذه الآيات المثيرة تتلى عليهم ؛ فانتعشت نفوسهم وأشرقت وجوههم بنور الايمان • وعندما استشارت هذه الآيات حماستهم وشجاعتهم ، أدركوا أن بلاءهم الحسن سيوصلهم الى الشهادة فى سبيل الله ؛ مما يفتح أمامهم أبواب الفردوس على الفور بكل ما فيها من متع ومباهج • ولكن المسلمين جميعا ؛ ولاسيما البدو منهم ، لم يكونوا يحاربون لدوافع دينية محضة فحسب ؛ اذ أن بعضهم أخذ يهتف هتافات الجاهلية ؛ ويتفاخر بأسماء أسلافه وبطولاتهم ، منشدا ما قيل فيهم من قصيد الحماسة والحرب •

ويبدو أن القتال بدأ بتقدم الفرس الى الامام ، فخرج اليهم بعض أبطال المسلمين يطلبون البراز • وما لبث وطيس القتال أن اشتد وحشى ، وخرجت الفيلة من صفوف الفرس ، تهز خراطيمها الهائلة أمامها ، وقد امتلأت الهوادج على ظهورها بالمحاربين وبالرايات يحملونها ويلوحون بها • وكاد بنو بجيلة أن يؤكلوا عندما فرت عنهم خيولهم نفارا هلعا من الفيلة ، فأعانهم سعد بنى أسد ، وعلى رأسهم طليحة الأسدى ، أحد أذعياء النبوة فى عهد الردة فصمدوا وصمدت معهم بجيلة وان منيت أسد بخسائر فادحة • وركز عاصم شنيخ بنى تميم ، هجومه - مع نفر اختارهم من رجاله - على الفيلة • وأخذ رماة الفيل يرمون ركبان الفيلة بسهامهم فى حين حاول الفرسان الوصول الى بطونها لقطع حبال الهوادج عنها ، واسقاطها على الأرض ، وعندما تعرضت الفيلة من ركبائها عادت الى مواقعها • وتمكن العرب من اعادة تنظيم صفوفهم وصمد كل ما قام به العدو من هجمات فى ذلك اليوم • ولم يزل القتال مستمرا الى أن جن الدجى ، ومضى جزء من

الليل . ولم يحقق المسلمون في هذا اليوم أكثر من مجرد الاحتفاظ بمواقعهم ، ولذا فقد منوا بخيبة أمل مرة من نتائج ذلك اليوم . ولعل من سوء الحظ ، أن سعد بن أبي وقاص كان غائبا عن الميدان في ذلك اليوم لان القيادة الشخصية الباسلة ، توحى ولا شك بالعزم والثبات للجنود .

وقضى الفريقان المتحاربان صبيحة اليوم الثاني من المعركة في نقل القتلى والجرحى من الميدان ، وعادا فالتحما عند الظهر . وكان وضع العرب في هذا اليوم أحسن من وضعهم في سابقه ، وذلك لعدم ظهور الفيلة في خطوط الفرس ولعل غيابها يعود الى ما لحق بقادتها وبمعداتها من ويل في اليوم الاول .

ولعل القارىء يذكر أن عمر بن الخطاب ، كان قد بعث بأمره الى سورية بعد معركة اليرموك ، بأن يتوجه الى جبهة الفرس ، الجيش الذى كان خالد قد قاده منها الى الشام لحرب الروم قبل عامين . وقد ظهرت طلائع هذا الجيش عند القادسية بعد ظهر اليوم الثانى من المعركة . ويبدو أن الرسل كانت قد قابلتهم فى الطريق واستعجلت وصولهم الى ميدان المعركة الكبرى . وكان القعقاع بن عمرو ، الفارس المغوار على رأس هذه الطلائع . ويقال انه بالرغم مما لحق به من أعياء فى سيره السريع ضمن الصحراء تمكن من أن يكر ثلاثين كرة على العدو فى اليوم الذى وصل فيه . وراح أحد الفرسان من بنى تميم ، ممن طلبوا الشهادة فى ذلك اليوم ، يهاجم جيش الفرس بمفرده ، مستهدفاً قاتله رستم . وبالرغم من تمكنه من التوغل مسافة بعيدة فى صفوف العدو . فانه سقط أخيراً مضرجاً بدمائه من الجراح الكثيرة التى أصيب بها قبل الوصول الى رستم . وكان بعض العرب قد جاءوا بالابل فى ذلك اليوم وجللوهما وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب ، أثار الرعب فى نفوس فرسان العدو ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً الى أن انقضى من الليل شطر كبير . ولكنهما ما لبثا أن توقفا عنه فى النهاية . وكانت نتيجة اليوم الثانى فى مصلحة العرب أكثر منها فى مصلحة الفرس ؛ وان كان هؤلاء قد ظلوا يقاتلون باصرار وعناد . وهكذا لم تكن المعركة حاسمة فى يومها الثانى وقضى العرب ما تبقى من ليلتهم فى أهازيج ورقص وغناء ينشدون اشعار الحماسة ؛ ويستعيدون ذكر أمجاد أسلافهم وبطولاتهم .

ومن الطريف أن نذكر هنا هذه الخصيصة العربية التى تختلف كل الاختلاف عن سلوك الجنود البريطانيين فى الظروف المماثلة . فالجنود

العرب لا يخلدون - قبل المعركة ، أو في فترات الاستراحة - الى الراحة ، وانما يستثيرون حماسهم بالشعر والغناء ، وتكون حماستهم هائلة الى الحد الذي لا يستطيعون الاكل فيه ، كما أنهم يعتمدون عند الازمات الطارئة على أعصابهم وعواطفهم ، أما الجنسود البريطانيون ، فيحتسون الشاي في مثل هذه الاوقات ثم يستلقون على أسرتهم يسبون ويشتمون . ناشدين النوم والراحة . ولكن الفريقين على اختلاف أساليبهما ، يكونان مستعدين كل الاستعداد لخوض القتال في الصباح التالي .

وانقضى الصباح الثالث في اخلاء الميدان من القتلى والجرحى واشتغلت السيدات العربيات وراء خط القتال في دفن الموتى بسرعة ، وفي تخفيف الآلام عن المصابين والمجروحين . وعندما أوشكت المعركة أن تبتدى ، ظهرت في الميدان القوة الرئيسية القادمة من سورية وانضمت الى المعركة . وبالرغم مما لحق بالعرب من انشراح وسرور لوصول هذه النجدة العظيمة ، فانهم سرعان ما اشتد قلقهم من عودة فيلة الفرس الى الظهور ، وصدر أمر سعد الى القعقاع الباسل لتبدير أمره معها ولجأ هذا الى أسلوب جديد في حرب الفيلة ، يتلخص في استخدام جنود رجال مسلحين بالرماح والحراش . وذلك لان الجياد كانت تأبى الاقتراب منها . وظل القعقاع وزميل آخر له من أهل النجدة من بنى تميم يرقبان أكبر الفيلة متطلعين الى فرصة ينتهزانها ؛ في حين أن أتباعه أخذوا يشتبكون مع حماة الفيل ؛ وهما يزعجانه بالقتال الذي يثيرانه حوله . وبضربة سريعة مفاجئة وضع القعقاع رمحه في عين الفيل ففقاها وان زعم بعضهم أن الفيل أمسك به في خرطومه ساعتها وقذف به أرضا . وتمكن العرب برماحهم من أن يفقنوا عيني فيل آخر بالطريقة نفسها فنفض الفيل المصاب رأسه وطرح سائسه ؛ وأخذ يدور الحلبة هلعا جزوعا ، مما أثار الفزع في نفوس بقية الفيلة فولت أدبارها ، مهرولة صارخة . تدوس كل من في طريقها من أصدقاء وأعداء . واستمرت بعد ذلك المعركة بين الجنود قوية صارمة عنيفة ، اذ صمد الفريقان ولم ينفصلا حتى جن الليل . وتوقف القتال .

أجل توقف القتال عندما خيم الظلام على أرض المعركة ، ولكن بعض العرب قرروا استئنافه وشغل العدو طيلة الليل بعد وقفه بلحظات . وأدى هذا الهجوم اللامتوقع الى اشتباك عام ساد الجبهة كلها في الظلام .

حيث تعذر على سعد أورشتم السيطرة على القتال وتوجيهه (١) وقد اعتمد العرب آن ذاك كما يعتمدون الآن على قدرتهم على الحرب في الظلام . وهم كثيرا ما يودون تشبيه أنفسهم بالذئاب التي تنام في النهار وتعتسى في الليل . ولا ريب في أن الناس الذين يعيشون نصف حياتهم تحت النجوم ونصفها الآخر في الحيام الممزقة ، لا يمكن الا أن يكونوا قد ألفوا الليل كما يالفون النهار . وعندما ينتقل الناس الى الحياة تحت السقوف ويفلقون على أنفسهم أبواب دورهم ، فإن الليل يغدو غريبا عليهم ، عدوا لهم ، يثير رعبهم وفزعهم . ويبدو ان جيش الفرس كان يتألف من رجال ألف معظمهم الحياة داخل الدور والبيوت .

ونحن لا نشك في أن جيش كسرى كان أحسن تدريباً من جند العرب . فالمعركة الليلية بالنسبة الى الجنود النظاميين الذين ألفوا القتال في صفوف منظمة متقاربة ، وعلى ضوء ما يتلقونه من أوامر مستمرة من قادتهم ، شيء دقيق متعب ؛ اذ أن الأفراد من الجنود ، يقصدون الاتصال بزملائهم ، وتصبح الوحدات معزولة عن قياداتها . ويصبح كل انسان مسئولاً عن نفسه في مثل هذه الظروف . وتعدو جماعة من المتحمسين «اللامنضبطين» ؛ يصرخون ويضربون بسيوفهم ، ويندفعون برماحهم أقدر على القتال من رجال مترددين ينتظرون الاوامر من قادتهم . ومن هنا لابد أن نقول ان الهجوم الليلي في القادسية ساعد العرب بالقدر الذي ساعدتهم فيه العاصفة الرملية الهوجاء في معركة اليرموك ، وأنا أعرف للبدوى صفة خاصة به لا توجد في غيره وهي استعدادة للمبادرة حتى في أضيق

(١) تختلف رواية المؤلف هنا من الرواية العربية بعض الاختلاف ، وأعتقد ان الاختلاف مقصود ، لظهور العرضية في انتصار العرب ، فلقد روى المؤرخون العرب ان الفريقين لم ينفصلا عندما جاء الليل ، حيث خشعت أصوات الناس ، فلم يكن يسمع الا صليل السيوف وهدير الفرسان ، وراى العرب والمجم أمرا لم يروا مثله ، وما زال القتال مشتدا ، حتى أصبحوا والناس حصرى لم يغمضوا عيونهم ، فسار القمعاق في الناس يقول لهم : « ان الدبرة بعد ساعة لن صبرها ، فاصبروا ساعة . فما قام قائم الظهيرة ، حتى انهزم جناح الفرس ، وانفجر القلب ، وكانت همة أصحاب النجدة ، موجهة الى مرادق رستم .

يشين الفرق بين روايتي التاريخ العربي والمؤلف . وتظهر الاولى ان القمعاق وهو من قادة العرب ، أدرك أن الفرصة أصبحت مواتية لكسب المعركة اذا استمر القتال لبعض الوقت ، فطلب من رجاله أن يواصلوا القتال . في حين تظهر رواية المؤلف ، ان النصر جاء بطريق المصادفة المارضة للعرب ، وهو تضليل مقصود .

(العرب)

الزوايا ، غير آبه بأية جهة في الحياة ، ومن الملاحظ أن الهجوم الليلي في القادسية كان من عمل البدو وابتكارهم وأن لا شأن به لسعد بن أبي وقاص ، وأن العرب لم يلجئوا الى الهجمات الليلية في المعارك الاخرى وان كانوا قد لجئوا الى الاغارات الليلية . وتتضح هذه الحقائق اذا قلنا أن قادة المعارك العربية الكبرى . . . من قريش ، وهم من أهل المدن ؛ ولم يألف هؤلاء حركات الليل (١) .

هكذا جرت الاحداث « ليلة الهسدير » وهو الاسم الذي أطلق على المرحلة النهائية من المعركة . وعندما أطل الفجر بنوره ، كانت رحي المعركة لا تزال دائرة على أشدها ، اذ تحولت الى معركة سحق ، ينتصر فيها الفريق الذي يتمكن من الثبات مدة أطول ، مستجمعا كل ما لديه من عزيمة وشجاعة ، اذ أن الجهد أصاب الفريقين المتحاربين . ولقد تمكن العرب من التفوق في الهجوم في صبيحة اليوم الرابع ويقال ان القمعاق لا سعدا ، هو الذي أوحى للعرب بالحافز في ذلك اليوم ، وضرب لهم المثل في الاستبسال ، وذلك لانه من البدو وهم وحدهم في صلابتهم وقوة احتمالهم ، القادرون على تطبيق ما علمتهم اياه حياة الصحارى ، من تعود

(١) تشويه فاضح للتاريخ العربي يقصد منه اظهار امرين : اولهما أن نصر العرب في القادسية كان وليد المصادفة العارضة ، لا الخطة العسكرية الباهرة ، وان لا فضل للبطل الكبير سعد بن أبي وقاص فيه ، والاخر الاصرار على التمييز بين أهل المدن وأهل الوب ، أو بين قريش والبدو . لكن الرد على المؤلف واضح ويتلخص في النقاط التالية :

(أ) ان اقتراح المخي في القتال صدر من القمعاق . كما تجمع كتب التاريخ العربي ، ولم يكن القمعاق مجرد جندي عادي بل كان قائد الجيش الذي جاء من سورية ، ولا ريب في أنه تولى قيادة الميدان الفعلية منذ وصوله في اليوم الثالث للمعركة حتى لو سلمنا جدلا بأن الهجوم الليلي وقع دون إذن من سعد القائد العام . . لوجوده في البناء وراء خط القتال فان هذا لا يعنى بحال مجرد المصادفة العارضة كما يحاول المؤلف أن يقول . وانما يعنى تصرفا من قائد الميدان أوحى به ظروف المعركة . وقد رأينا في تاريخ المارك الحديثة امثلة عدة لهذا التصرف ، بل هو شرط من شروط الفن العسكري .

(ب) ليس ثمة كبير فرق بين قريش وقبائل الصحراء . ولا تدو قريش أهل واحدة من الواحات في الصحراء وهم على اتصال كبير ودائم بالبدو الذين يحيطون بهم ، ومن هنا لا يكون كبير فرق بينهم وبين البدو ، ويتحطم منطق المؤلف المصطنع في انكار مزية الهجوم الليلي في القادسية .
(العرب)

على الجوع وشظف العيش • وحمل العرب حملة صادقة أخرى ، وبدأ
الفرس في الانهيار اذ تخاذل القلب وأخنت صفوفه في التراجع وهبت
ريح عاتية في غضون ذلك وأخنت الرمال في الانتشار مبشرة بحلول
ظروف تشابه تلك التي وقعت في اليرموك •

واخترق العرب قلب جيش الفرس واتجهت همه فرسانهم الى رستم
قائد الفرس العام ، الذي عثروا عليه فوق سريريه ، فأمسكوا به وقتلوه (١)
وسرعان ما انهار جيش الفرس • وتمكنت تشكيلتان عسكريتان فارسيتان
من الوصول الى السد الذي سبق للجيش أن عبر عليه قبل المعركة الى
الضفة الغربية • وانسحبنا عن طريقه دون أن يلحق بهما كبير أذى ، أما
غالبية جند الفرس ، فقد تفرقوا شذروا في كل حذب وصوب ففرق
بعضهم في النهر وقتل البعض الآخر وهم يحاولون الفرار عبر سهل
القادسية ، لكن ثلاثين كتيبة فارسية صمدت بعد أن رفضت الهزيمة ؛ الى
أن أبيدت عن آخرها ، ولم يكد نفع المعركة ينجلي حتى انتشرت نساء البدو
وأطفالهن في الميدان يحملون الهراوات والسلال بيد وقرب الماء باليد
الأخرى يروون بها ظمأ الجرحى من المسلمين المشرفين على الموت ، ويبعثون
بالأحياء من الفرس الى الجحيم • ويقول الطبري : ان العرب خسروا في
هذه المعركة نحو من ألفين وخمسمائة شهيد في الايام الثلاثة الاولى من
القتال ، ونحو من ستة آلاف في ليلة الهدير • واذا صح ما قيل من أن
جيش سعد كان يعد في الاصل نحو من ثلاثين ألفا ، أضيف اليهم ستة
آلاف جاءوا مع القعقاع من الشام فان مصرع هذا العدد ، دون ذكر عدد

(١) تختلف رواية المؤلف هنا أيضا من روايات التاريخ العربي ، اذ تجاهل
المؤلف محاولة رستم الفرار من الميدان في حين اختلق رواية صمود الكتائب الثلاثين
من جيش الفرس • فقد روى العرب أن جناح الفرس أصيبا بالهزيمة ، وانفجر
القلب • وكانت همه اصحاب النجدة موجهة الى سراق رستم • فلما رأى ذلك أراد
الهرب فقبضه هلال بن علقمة حتى قبض عليه وقتله ، وصعد على سريريه ، ثم نادى :
قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام .
وتتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية واسمها « درفش كاپيان » ثم تتبصروا بقية
المنهزمين حتى أجلوهم الى ما وراء القنطرة ، وقد وصف فارسي يدعى أبا رجاء ، معركة
القادسية نقلا من جده فقال : حضرت وقعة القادسية وأنا مجوسي فلما رمتنا السرب
بالنبل ، جعلنا نقول : دوك ، دوك ، دوك ، معني مغازل ، فما زالت بنا تلك المغازل حتى ازالنا
امرنا لقد كان الرجل منا يرمى من قوسه • فلما يزيد سهمها على أن يتعلق بثوب أحدهم ،
ولقد كانت النبلة من نبالهم تهتك الدروع الحصينة والجوشن المضاعف مما علينا •
(العرب)

الجرحي يشير الى نسبة تبلغ خمسا وعشرين في المائة وهي جد عالية حتى في معايير المعارك الحديثة الضارية (١)

وغنم العرب في المعركة كميات ضخمة من النقود والمجوهرات والاسلحة بالإضافة الى الراية الكبرى للملوك الساسانيين . وكانت معركة القادسية مميتة بالنسبة للحكم الفارسي في العراق ، تماما كما كانت معركة اليرموك مميتة للحكم البيزنطي في سورية . وتمكن الجفافة من أبناء القبائل العربية ، الصلاب العود من تحطيم الجيش الفارسي ، - الذي كان لعشر سنوات خلت يقرع أبواب القسطنطينية - تحطيمًا لن تقوم له قائمة بعده ، وأدى مصرع رستم ، الى زيادة اليأس والاضطراب . ولم يكن في مكنة الملك الشاب يزدجرد الذي كان قد بلغ الآن الحادية والعشرين من عمره أن يدبر أمر مثل هذه الأزمة الخطيرة وحيدا ؛ لافتقاره الى التجربة اللازمة .

يضاف الى هذا أن البلاد كانت قد ألغت التطلع الى رستم - الذيكتاتور العجوز ؛ والسياسي المختفى وراء العرش - والنظر اليه على أنه دعامه العرش . أما وقد أضحى الآن في عداد الموتى ؛ فلم يبق هناك رجل يحوز من الكفاية ما يمكنه من السيطرة على العاصفة العاتية .

وسارعت القبائل الشمالية العربية النصرانية الى اعلان خضوعها للمسلمين . وتحول بعضها الى الاسلام ، الذي رفع من شأن أخواتها من القبائل العربية ، وحقق لها كل هذه الامجاد والثروات التي لا يكاد يصدقها عقل (٢) وقد أعلن النصارى من أهل الحضر خضوعهم ودفعهم للجزية المقررة . وبنت هنا مشكلة في طريق الظهور ، فلقد صنف النبي اليهود والنصارى على أنهم من أهل الكتاب ، وان من حقهم أن يظلوا على دينهم اذا شاءوا ذلك بشرط أن يدفعوا الجزية . أما المشركون من عبدة الأوثان ، فلا خيار لهم : فاما الاسلام واما الموت . وكان الفرس من أتباع زرادشت ؛ أي من عبدة النار ، ولم يكن من حقهم أن ينالوا من التسامح ماناله اليهود أو النصارى ولكن لم يكن في مكنة المسلمين قتلهم جميعا . وهكذا فرضت الظروف على المسلمين أن يعاملوهم كأهل الكتاب ، وقبلت الجزية منهم .

(١) لم يشأ المؤلف أن يذكر عدد قتلى الفرس في المعركة ، وان كان المؤرخون العرب قد قدرتهم بثلاثين الفا .

(٢) لم تتحول قبيلة تغلب النصرانية الى الاسلام الا بعد امد طويل .

(العرب)

وكان سعد بن أبي وقاص على اتصال دائم بالمدينة ، أى بالخليفة فيها ، ولهذا كان عمر ، على علم بأن معركة أسامية ضارية ستنشعب عما قريب • وتقول الروايات : ان عمر كان يخرج فى كل صباح الى ظاهر المدينة ، مترقبا وصول رسول من العراق • وفى ذات يوم رأى ، أخيرا ؛ رجلا وحيدا على هجينه الذى أنهكه طول المسير ، يقترب من المدينة قادما من بطن الصحراء • وراح الخليفة يسأله عن الانباء • فرد هذا البدوى دون أن يعرف الخليفة الحافى القدمين بعباءته المرقعة ، بأن الفرس قد انهزموا • واضطر عمر الى الجرى وراء هجين الرجل ليتابع سسؤاله عن تفاصيل المعركة ، حتى دخلا الى المدينة • وسرعان ما علت الدهشة وجه الرجل ، عندما رأى الناس يسلمون على صاحبه بامارة المؤمنين ويهنئون •

وتروى قصص لاعد لها ولا حصر ، شبيهة بهذه عن عمر بن الخطاب وبعضها صحيح والبعض الآخر غير صحيح (١) ولكنها كلها تؤكد بصورة لا يتطرق اليها الشك ما كان عليه هذا الرجل العظيم والقائد الكبير من تواضع وبساطة •

وبالرغم من أن جيش الفرس قد منى بهزيمة ساحقة ، فان الاعياء كان قد أخذ من العرب كل مأخذ ، بحيث تعذر عليهم أن يطاردوا فلول المنهزمين • وأقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس • ولا ريب أيضا فى أن من الاسباب التى أدت الى بقاءه ، حاجته الى أن يظل الى جانب هذا العدد الضخم من الجرحى الذين لم يكن فى وسعه أن يتخلى عنهم ، أو أن يحملهم مع جيشه • ولا ريب فى أن فترة الشهرين كانت كافية ليسترد فيها المعافون صحتهم من اثر الجراح ، وليعودوا الى صفوف الجيش • وللصلاة على أرواح أولئك الذين اختار لهم الله الشهادة •

من الصعب علينا أن نحدد بالضبط تاريخ معركة القادسية • فالتباين القسام بين المؤرخين ، يصل الى حدود عامين • واذا افترضنا أن معركة اليرموك قد دارت فى يوليو عام ٦٣٦ ، فان معركة القادسية لابد أن تكون قد وقعت بعد هذا التاريخ ، ذلك لأن النجيدات التى كان فى الامكان ايقادها من سورية بعد نصر اليرموك قد وصلت فى الوقت المناسب لتشارك فى

(١) لا ادرى سبب هذا التشكيك فى بعض القصص • واذا كان المؤلف يتعرف - كما يظهر - بتواضع عمر وبساطته فلا حاجة به والحالة هذه الى تشكيكه بصحة أى من هذه القصص التى تجمع عليها كتب التاريخ العربى •
(العرب)

معركة القادسية • ويبعد اليرموك نحواً من ستمائة ميل عن المدينة ، كما
يبعد هذه المسافة نفسها تقريباً عن القادسية ، ومن هذا يتضح أن ابلاغ
أبى عبيدة نبأ النصر فى اليرموك الى الخليفة فى المدينة وتلقيه أوامره بارسال
النجادات الى العراق ، لا بد أن يكونا قد استغرقا شهراً واحداً على الأقل ،
ان لم نقل شهرين ، بالنظر الى افتقار التنظيم الحكومى حتى ذلك التاريخ -
الى التدريب والنظام • ونصل بذلك الى شهر سبتمبر عام ٦٣٦ • على أية
حال كان من المتعذر على النجادات أن تقطع بادية الشام قبل شهر أكتوبر
(تشرين الاول) من عام ٦٣٦ • فلقد انقضت على هذه القوات وهى فى
سورية نحو من عامين ، ولا ريب فى أن الجنود ، كانت تصحبهم نساؤهم
وأطفالهم • يضاف الى هذا أن الصحراء السورية خالية من الماء بصورة
خاصة •

وهكذا اذا افترضنا أن النجادات قد غادرت سورية فى شتاء عام
٦٣٦ - ٦٣٧ ، فانها لا بد أن تكون قد وصلت الى القادسية فى وقت ما بين
فبراير (شباط) وأبريل (نيسان) عام ٦٣٧ ، وهذا يتوقف على موعد
سفرها من أرض الشام ، وهل كان فى أكتوبر (تشرين الاول) أو نوفمبر
(تشرين الثانى) أو ديسمبر (كانون الاول) (١) •

وبعد انقضاء فترة الشهرين ، عاد سعد فى أبريل (نيسان) أو مايو
(ايار) أو يونيو (حزيران) من عام ٦٣٧ ، فاسترجع الحيرة - هذا اذا
صح تسلسلنا التاريخى - وضاعف الجزية على أهلها بحجة أنهم نقضوا
عهدهم للمسلمين قبل القادسية ، وتقدموا بولاهم للفرس ؛ وزحف سعد
بعد ذلك شمالاً وأقام معسكره على خرائب بابل القديمة ، حيث شرع
الغرب منها فى الاغارة على المنطقة التى بين النهرين حتى وصلوا الى
أسوار المدائن ، عاصمة امبراطورية الفرس (٢) •

والمدائن جمع مدينة ، اسم أطلقه العرب على عاصمة الفرس وكانت

(١) يروى الطبرى من ابن اسحق أن اليرموك وقعت فى تاريخ ، اذا قورن بالتاريخ
الرومى ، ثبت انه فى سبتمبر (ايلول) عام ٦٣٦ وان القادسية وقعت فى فبراير (شباط)
عام ٦٣٧ •

(٢) لم يذكر المؤرخون العرب شيئاً عن استرجاع الحيرة • ويبدو أنها كانت لا تزال
فى أيديهم وكل ما ذكره أن سعداً ارتحل من القادسية الى «برس» حيث هزم الهرمزان،
ومنها الى بابل حيث هزم الفرس فى أسرع وقت • « العرب »

تتألف فى الواقع من مدينتين ، سلوقية ويسمىها العرب المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربى (١) وكتسيفون ويسمىها العرب المدائن القصوى على الضفة الشرقية . وكان سلوقيوس نيكيتو ، أحد الحكام اليونانيين الذين ورثوا أجزاء من امبراطورية الاسكندر المقدونى ، قد بنى سلوقية فى عام ٣١٢ قبل الميلاد . وكانت بابل حتى ذلك التاريخ هى العاصمة . وكانت سلوقية فى الأصل مأهولة باليونانيين . وكانت لعدة قرون تعتبر من أعظم المدن السياسية والتجارية فى العالم المعروف آن ذاك وبنيت المدائن القصوى بعد مائتى عام من سابقتها ، على الضفة المقابلة لها على نهر دجلة وغدت عاصمة الساسانيين فى القرن الثانى بعد الميلاد . وكان بلاط الاكاسرة وقصورهم ودوائر الحكومة فى المدائن القصوى ، فى الوقت الذى بدأ فيه العرب فتوحهم ، ولهذا فقد حزم العرب أمرهم على فتح سلوقية فى البداية ، أى المدينة التى على الضفة الغربية، وتقدم منها سعد بن أبى وقاص قادما من بابل ففرض حصاره على المدينة التى تحيط بها الأسوار .

وكان العرب كعادتهم عاجزين عن مهاجمة حصونها الهائلة مهاجمة فعالة . وإن استطاعوا بمعونة من انضم اليهم من الفرس الحصول على عشرين منجنيقا استخدموها كمدافع لضرب الحصون . ولا ريب فى أن هذه الآلات كانت تقذف حجارة أضعف بكثير من أن تحطم الأسوار وتذكرها . ولهذا فقد فرض المسلمون على البلدة حصارا طويلا ، لم يكن معروفا هل سيثمر أو لا يثمر ، إذ أن الجانب الذى يقوم من المدينة على ضفة نهر دجلة كان مفتوحا لوصول النجيدات والمؤن من المدائن القصوى ، على الضفة الأخرى من النهر ، وكان العرب فى غصون ذلك قد أغاروا على جميع المنطقة الغربية التى على جانب دجلة وأخضعوها ، لعدم وجود جيش يقف فى الميدان مواجهها لهم .

وعرض يزدجرد فى النهاية الصلح على العرب . وقد اقترح أن يجلو عن المدائن الدنيا التى على ضفة دجلة الغربية ، وإن ينسحب من كل مكان على هذه الضفة ، تاركا المنطقة كلها للعرب . على شرط أن يقرروا بالنهر حدا فاصلا بينهم وبينه ، وأن يتركوه حرا وشأنه فى الضفة الشرقية . ورفض سعد هذا العرض فورا وإن كان قد رأى فيه ما يشجعه نظرا لادراكه

(١) كان الاسم القديم الفارسي للمدائن الدنيا (بهرسير) وقد استعمل المؤرخون العرب هذا الاسم كثيرا فى كتبهم التاريخية .

ضعف العدو • ولاحظ المسلمون بعد بضعة أيام أن الاسوار خالية من مقاتلة العدو ، اذ كان الفرس قد انسحبوا من المدائن الدنيا الى الضفة الشرقية بهوء ناقلين معهم جميع القوارب والعبارات (المعديات) ودخل العرب المدينة دون مقاومة ، ووجد البدو الجفاة العتاة أنفسهم فجأة - وقد علت أساريهم الدهشة - مسيطرين على المدينة انتى ظلت حاضرة للتجار والثروة والحضارة والرفاهية أكثر من ألف عام •

واعترض نهر دجلة سبيل العرب ، وأوقف تقدمهم عدة أسابيع • ولكن معنوية الفرس كانت قد هبطت الى الحضيض ، بحيث باتوا عاجزين عن اقامة خط جدى للدفاع وراء النهر • وكان يزددرد قد بعث بعياله الى حلوان • وهى مدينة محصنة فى آخر سواد العراق عند سفوح جبال زاغروس الايرانية ، وسرعان ما لحق بأهله فيها مخلفا فى المدائن للدفاع عنها قائده مهران الذى هزمه العرب يوم البويب • وجاء رجل من فارس الى سعد بن أبى وقاص يبلغه وجود مخاضة فى نهر دجلة يستطيع هو ورجاله العبور منها • ومن الصعب علينا أن نتثبت من التسلسل الزمني لهذه الاحداث • واذا صح افتراضنا السابق فى أن معركة القادسية قد وقعت فى فبراير (شباط) أو مارس (آذار) ، أو ابريل (نيسان) من عام ٦٣٧ بات من الطبيعى أن نفترض أن الحصار قد فرض على المدائن الدنيا أى سلوقية ، فى أواخر صيف عام ٦٣٧ وأن الفرس جلوا عنها فى شتاء عام ٦٣٧ - ٦٣٨ •

ويقول البلاذرى : ان العرب قضوا تسعة أشهر عند المدائن الدنيا أى على الضفة الغربية من نهر دجلة ، وهو رقم يتفق مع التواريخ التى قورناها ، ولكنه لا يلبث أن يقول : ان بعض الرواة يؤكدون أن العرب قضوا هناك ثمانية عشر شهرا وأنهم أكلوا الرطب مرتين • ويقول البلاذرى أيضا : ان الشك ساور المسلمين عندما دلهم بعض الفرس على المخاضة التى يمكن عبورها • اذ أن فيضان النهر كان فى بدايته (١) ويفيض نهر

(١) يبدو لى ان المؤلف قد اساء فهم ما قاله البلاذرى ولذا اخطأ فى ترجمته • اما قول البلاذرى فهذا نصه : من ابان بن صالح قال : لما انهزمت الفرس من القادسية قدمت فلولهم المدائن ، فانتهى المسلمون الى دجلة وهى مطفح بماء لم ير مثله قط • واذا الفرس قد رفعوا السفن والمخابر الى الضفة الشرقية وحرقتوا الجسر • فاقفتم سعد والمسلمون اذ لم يجدوا للعبور سبيلا ، فانتدب رجل من المسلمين قسبح فرسه وعبر • قسبح المسلمون ، ثم أمروا اصحاب السفن فعبروا الاثقال فقالت الفرس : والله لاقتلوننا جنا ، فانهزموا •

(العرب)

حجلة عادة في الربيع عندما تأخذ الثلوج في النوبان في جبال أرمنية .
ونتيجة لهذا نستطيع القول بأن عبور دجلة قد وقع في مارس (آذار) .
أو أبريل (نيسان) عام ٦٣٨ أما اذا صحت الرواية بأن العرب قضوا ثمانية
عشر شهرا على الضفة الغربية فان العبور يكون قد تم في أبريل (نيسان)
عام ٦٣٩ .

وأكد سلمان الفارسي - الذي سبق لنا أن سمعنا باسمه عندما
اقترح على النبي حفر الخندق حول المدينة للمسلمين - وجود المخاضة ،
واقامت بالمحاولة جماعة من الفرسان ، وقد تمكنت من الوصول الى الضفة
النهر الشرقية بالرغم من النبال التي تساقطت اليها من ثلة من المدافعين
الفرس ، ولم تفقد جنديا واحدا منها . ولم يكذ المسلمين يرون رفاقهم يصلون
بأمن وسلام الى الضفة الاخرى حتى سارع قمرسانهم يجوزون المخاضة
متدافعين الى الجانب الشرقي من النهر ولم يتضح لنا من الروايات : هل
الفرسان قد خاضوا الماء أو عبروه سباحة (١) . وقد يدهش الكثيرون -
ولا سيما من الذين يجهلون البدو - ان قلت لهم ان البدو الذين ألفوا
العيش في صحراء لا ماء فيها ، من أقدر الناس على السباحة . ولكنني
أشهد بأنني رأيت رجلا من بدو الجزيرة العربية يسبحون في نهر
الفرات .

ويبدو أن حامية المدائن قد ذهلت من هذه العملية الجريئة المباشرة
وفتر من رجالها من استطاع الفرار قاصدا الشرق الى الجبال . أما من بقي
فقد استسلم دون مقاومة ، وارتضى دفع الجزية طلبا للحماية . وسرعان
ما رأى العرب أن خيرات سلوقية (المدائن الدنيا) لم تكن الا الطعام التافه
لخيرات بلاط كسرى في المدائن . وما زال الطوق الهائل لقصر كسرى يرتفع
عاليا حتى اليوم مشرفا على ما يحيط به من سهول . ومعظما لناظره صورة
تقريبية على الاقل عما كان عليه ذلك القصر من مجد وعظمة .

وأصبح العرب ذوى ثراء هائل ، اذ قسمت الغنائم جريا على
المالوف السابق في الفارات ، على رجال الجيش فورا . بعد أن اقتطع منها
الخمس ليرسل الى الخليفة في المدينة ، ووجد الخليفة التقى الورع ذو العبادة
المركة عمر بن الخطاب نفسه فجأة وفي حيازته ثياب كسرى وحليه وصيفه ،
ومعها بساط هائل لقاعة الطعام فيه فصوص من الماس والياقوت واللآلئ

(١) يقول موير (Muir) نقلا عن شيرنى Chesney : ان جيش تيمور لذك
عبّر نهر دجلة سباحة في عام ١٣٩٢ ميلادية .

وفيها خيوط من الذهب والفضة (١) . وحل سعد بن أبي وقاص في قصر كسرى وأحال قاعة الطعام الفسيحة الى مسجد يصلى فيه المسلمون ، ونعم البدو بما خلفه نبلاء فارس من رياش وفراش وغير .

ولم يكن يزددجرد قد آخذ في غضون ذلك الى الراحة ، اذ شرع في مقره الجديد في حلوان يجند الرجال من جميع أطراف بلاده ، القاصية منها والدانية ، وقد حزم أمره على حشد جيش جديد . وظل العمل في بناء هذا الجيش مستمرا . وأخذت معنويات الفرس في الارتفاع وشرعوا يندفعون غربا الى أن تمكنت قوة كبيرة منهم بقيادة مهران من احتلال جلولا (٢) التي تقع عند النقطة التي يخرج منها نهر ديبالى من الجبال عند جبل حميرين، مندفعاً الى سهول العراق الفسيحة (٣) وبعث سعد الى الخليفة فى المدينة يبلغه تجمع الفرس . ويبدو أن الخليفة الكثير الحذر كان قد أمر سعدا بعدم التقدم مسافة أخرى ؛ فاضطر هذا الى الرجوع اليه لاستطلاع رأيه فيما يفعله الآن ؛ وعندما جاء الأمر من عمر ؛ بالتقدم لمواجهة الفرس ، راح سعد يبعث بابن عمه هاشم على رأس اثني عشر ألف رجل لمهاجمة هذه الحامية الفارسية الامامية . ونشبت حرب هائلة اضطر معها سعد الى ارسال نجدات أخرى من المدائن ؛ وأخيرا انهزم الفرس بعد معركة يوم رهيب فى جلولا ؛ وطارد العرب فلولهم المنهزمة حتى سفوح الجبال عند خانقين . ولما بلغت أنباء الهزيمة يزددجرد وهو فى حلوان انسحب منها الى الرى فى شمالى فارس ؛ واحتلها العرب دون مقاومة . وبعث سعد فى

(١) يوحى المؤلف بصورة لا مباشرة هنا ، بأن عمر بن الخطاب استولى لنفسه على الفداء من هذه الثنائى العظيمة ، من ملابس كسرى وحليه ، مع انه - كما تؤكد جميع كتب التاريخ العربى - قسمه بكامله على مستحقه ثم قال لهم وهو يشير الى بساط بعث به سعد طوله ستون ذراعا فيه طوق كالصور ولصوص كالانهار . وفي حافله كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قصبان من الذهب والفضة : « اشيروا على فى هذا القطف » ، فاجمع ملؤهم على ان قالوا : قد جعلوا ذلك لك ، الا على ابن أبى طالب فقد قال : يا امير المؤمنين الامر كما قالوا ، ولم يبق الا التروية . انك ان تقبله على هذا اليوم ، لم تعد فى غد من يستحق به ما ليس له ، فقطعه عمر بينهم . (العرب)

(٢) يؤكد البلاذرى ان خرزاد اخا رستم كان قائدا للفرس فى جلولا لا مهران كما يقول المؤلف .

(٣) يقول المؤلف انه خدم فى عام ١٩٢٠ عدة شهور مع فوج من الجيش الهندى فى ذلك الموقع .

(العرب)

غضون ذلك برتل آخر سار مع النهر شمالا ؛ فاحتل تكريت حيث انضمت اليه القبائل العربية في الجزيرة ؛ ومضى مع رجالها في زحفه الى الموصل . وهكذا لم ينته عام ٦٣٨ للميلاد حتى كان العرب قد أخضعوا - بصورة تامة ونهائية - المنطقة الحصبة الغنية التي تقع في أدنى دجلة والفرات ، وأصبحت هذه المنطقة كلها امانة خاضعة للامبراطورية العربية الجديدة .

تواريخ بلوذة

معركة القادسية	فبراير (شباط) أو مارس (آذار) ٦٣٧ أو أبريل (نيسان)
احتلال المدائن	أبريل (نيسان) ٦٣٧
احتلال جلولا	ديسمبر (كانون الاول) ٦٣٨

شخصيات مشهورة

وهتم	قائد الفرس العام قتل في معركة القادسية
سعد بن أبي وقاص	قائد العرب العام في العراق
عمرو بن معد يكرب	من المرتدين السابقين ومن الأبطال المسلمين
المغيرة بن شعبة	من صحابة النبي كان مع الوفد الى رستم
القعقاع بن عمرو	رئيس بني تميم، ومن قادة المسلمين البارزين
النعمان بن مقرن	رئيس الوفد العربى الى يزيدجرد

تثبيت الأقدام

(١)

« رأى أول خط لنفسه لأنه هناك في نصيب
المشترع مطمئن • أتى راسا للشعب وأجرى عند الرب
وأحكامه »

سفر تثنية الاشتراع - الفصل ٣٣ - ٢١

« أنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ، لتحكم بين الناس
بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما • واستغفر الله
إن الله كان غفورا رحيما »

القرآن الكريم - سورة النساء

« الحكم بلا عدالة فرصة ولصوصية »

القديس اغسطين

كان زحف الجيوش العربية في سورية والعراق في أعقاب الجيوش البيزنطية والفارسية المتقهقرة . وكان خط الانسحاب والتقدم في الغرب من دمشق الى حمص فأنطاكية فسفوح جبال طوروس . أما في الشرق فكان من الحيرة الى المدائن وظلت منطقة فسيحة بين هذين الحطين من خطوط الزحف في نجوة من كل أذى .

ويبدو أن القبائل العربية المسيحية في هذه المنطقة كانت لاتزال تناشد البيزنطيين الحماية بالرغم من أن هؤلاء كانوا قد عبروا جبال طوروس . ويبدو على أية حال أن الروم قد وعدوا هذه القبائل بمساعدتها عن طريق انزال قواتهم من البحر على الساحل . وهكذا نرى أن القبائل حشدت قواتها باتجاه حمص في مطلع عام ٦٣٨ ونزل الروم في الوقت نفسه من البحر . وأعادوا احتلال أنطاكية ووجد أبو عبيدة نفسه بين نارين فجاءه ! نار قبائل بادية الشام التي أخذت تهدد حمص من الشرق ، ونار الروم في أنطاكية ومدن الساحل وهم يتأهبون - كما يبدو - لغزو البلاد من الغرب .

ولا ريب في أن العرب فزعوا فزعاً شديداً من هذا الهجوم المضاد المفاجيء . وبعث أبو عبيدة برسالة الى الخليفة تنطق بالحيرة وتثير البلبله مما دعا الخليفة الى اصدار أمره الى سعد بن أبي وقاص بأن يرسل وتلا يصعد مع الفرات فوراً لمهاجمة مؤخرة القبائل النصرانية التي تهدد حمص وعاد أبو عبيدة فبعث بمياض بن غنم لاستعادة أنطاكية (١) وقد استبد القلق بعمر بن الخطاب ، حتى أنه قرر المضي بنفسه الى سورية لقيادته العمليات الحربية الجديدة وأرسل سعد من العراق ، القعقاع بن عمرو على رأس اربعة آلاف مقاتل على جناح السرعة صعدا مع الفرات . وأرادت (هيث) الصمود فأغلقت على نفسها الابواب ولكن الرتل تجاهلها ماراً بها مندفعاً الى الشمال ادراكاً من قائده لإحاجة الى السرعة . وراح القعقاع يسابق الزمن فاحتل قرقيسياً التي تقع عند ملتقى الخابور

(١) يقول البلاذري ... نقض أهل انطاكية العهد فوجه اليهم أبو عبيدة مياض ابن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحها على الصلح الاول ويقال بل نقضوا بعد رجوعه الى فلسطين فوجه اليها عمرو بن العاص من ايلياء ففتحها .

والفرات • ولما كان هذا الرتل يسير بحذاء النهر • لم تكن هناك مشكلة
افتقار الى الماء ولذا فقد ركب الفرسان البغال وأراحوا الجمال والخياد
لتكون جاهزة مستعدة ليوم القتال •

وكان عياض بن غنم قد استعاد انطاكية في غضون ذلك • ولم
نعد نسمع شيئا عن البيزنطيين الذين يبدو أنهم قد عادوا فركبوا البحر
عائدين الى بلادهم ، وقبل أن يصل الخليفة الى قطاع الجابية كان أبو عبيدة
قد خرج بقواته الى حمص وشنت شمل القبائل الثائرة • وانتهت الأزمة
بسلام (١) وعاد رتل القمعاق الى الجنوب في العراق بعد أن احتل
قرقيسيا •

وصدر الأمر الى عياض بن غنم بأن يسير على رأس جيش الى الجزيرة
لاحتلالها وتثبيت اقدام المسلمين فيها ويبدو أنه قصد أول ماقصد الى
الركة ففتحها بعد حصار قصير • وأخذ يرسل منها البعث والسرايا
لجمع المؤن والاتيان بالأسرى • ويقول المؤرخون العرب : ان احتلال الركة
تم في وقت الحصاد ، ولعل ذلك كان في أواسط صيف عام ٦٣٨ ، وان
فتحها تم بعد حصار دام خمسة أيام أو ستة ، وبعد أن استسلم أهلها
وفقا للشروط المألوفة وكانت شروط الصلح في جميع هذه الحالات المماثلة
قد أصبحت واحدة في سورية وتتألف من البنود التالية :

(١) هناك خلاف واضح بين رواية المؤلف ودوايات المؤرخين العرب • فهو يقول :
ان عمر بن الخطاب وصل الى الجابية - وهي كما سلف وقلنا - مكان في الجولان شمال
اليرموك في حين ان المؤرخين العرب يؤكدون ان عمر وصل مع جيش من المهاجرين والانصار
وبينهم أبو عبيدة بن الجراح فأخبره بانتشار الطامون في الشام • فدعا عمر المهاجرين
الأوليين لاستشارتهم فاختلفوا : فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده
ولا نرى ان يصلك عنه بلاء عرض لك ، ومنهم القائل انه لبلاء وفناء ما نرى أن نقوم
عليه • فلما اختلفوا عليه قال قوموا عني ثم استدعى مهاجرة الانصار فاستشارهم
فسلكوا طريق المهاجرين ثم نجاهم واستدعى مهاجرة الفتح من قريش • فاستشارهم
ولم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا : ارجع بالناس فانه بلاء وفناء ، وقرر عمر العودة
فقال أبو عبيدة أفرادا من قدر الله ؟ فرد عمر : أفرادا من قدر الله الى قدر الله • •
وجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا أمير المؤمنين سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا
فأراد منه • وانصرف عمر بالناس عائدا الى المدينة • وقد مات بهذا الطامون المعروف
في التاريخ الاسلامي بطامون «عمواس» خلق كثير من بينهم أبو عبيدة وهو أمير بالناس
ومعاذ بن جبل ويبريد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحبة
ابن سهيل •

(العرب)

أولاً :- على كل من لا يعتنق الاسلام من أهل المدن المفتوحة أن يدفع الجزية بمعدل دينار واحد للسنة وجريب من الحنطة وكميات مختلفة من الزيت والخل والعسل . وبالطبع كان النظام الذي يتبعه العرب في التمويل من أكثر الأنظمة بدائية . وذلك لضمان الحصص الكافية من الغذاء لجنودهم . ولهذا كانت الجزية العينية التي يفرضونها تستهدف مساعدة القوات على ضمان المؤن اللازمة لها . أما بالنسبة الى الجزية النقدية فالدينار هو الاسم المستعمل الآن في البلاد العربية لما يعادل قيمة الجنية الاسترليني ، ولن يفيدنا مطلقاً أن نحاول تقويم الدينار بالنسبة الى قيمته الفعلية في القرن السابع الميلادي على ضوء تكاليف الحياة اليوم اذ أن احتياجات الناس اليومية في القرن السابع كانت مختلفة تماماً عن احتياجاتهم اليوم وكل ما يمكن قوله هو أن الدينار ، كان العملة الذهبية المعروفة في تلك الأيام .

ثانياً : كان العرب يسمحون ببقاء الكنائس على حالها لممارسة الطقوس الدينية النصرانية بشرط عدم السماح ببناء كنائس أو بيع جديدة وعدم استخدام الأجراس في دعوة الناس الى الصلاة (١) أو سير المواكب التي يحمل فيها الصليب في الشوارع العامة .

ثالثاً : واذا ما راعى السكان هذه الشروط مراعاة صحيحة فان المسلمين يتولون حمايتهم وتصبح أرواحهم وممتلكاتهم آمنة لا تتعرض لأي خطر .

وسار عياض من الرقة الى الرها (الاسم الحديث لها أورفة) وتحدث الى حماتها وهم على أسوارهم ، متطياً جواده الكमित فصالحوه على الشروط الآتية الذكر . وزحف بعد ذلك الى سميساط (شمشاط) وحران ، فصالحه أهلها على الشروط نفسها ، وسار بعد ذلك الى رأس العين وماردين ونصيبين وديار بكر (اسمها القديم آمد) وسنجار ، فاحتلها كلها . وخضعت له الجزيرة بكاملها ويبدو أن هذه العمليات قد تمت في المدة التي قبل سنة ٦٤٠ أو ٦٤١ واختار الخليفة عياضاً ليكون والياً له في الجزيرة ، ولكنه عاد الى حمص فتوفي فيها سنة ٦٤٢ (٢) .

(١) هذا ليس بصحيح ، فعمر بن العاص مثلاً في مصر لم يحرم استخدام فرج الأجراس في الكنائس .

(العرب)

(٢) يقول الواقدي ... ان أبا هبيرة مات في طامون «عماس» سنة ثمانى عشرة واستخلف عياضاً فورد عليه كتاب عمر بتوليته حمص وقنسرين والجزيرة .

ومن الطريف أن نلاحظ هنا ملاحظة عابرة فنقول : ان غنم هو الاسم العربي لصنم من أصنام الجاهلية . وان والد عياض كان يدعى عبد غنم وعندما اعتنق عياض الاسلام رغب عن الاحتفاظ باسم والده على النحو الذي كان فيه . والذي يشير الى أنه كان من عبدة الأوثان ولذا فقد أسقط كلمة (عبد) من اسمه واصبح يسمى نفسه بعياض بن غنم وكان والده يدعى غنما : ولكن زملاءه من العرب كانوا يعرفون ان غنما اسم من أسماء الأوثان لكن هذه الرغبة كانت تستهدف كما يبدو اخفاء الحقيقة عن اليهود والنصارى (١) . وأهمية هذا الحديث تنحصر في اظهار السرعة الفائقة التي تم فيها التحول من الوثنية الى الاسلام ولم يكن قد انقضى على هجرة الرسول من مكة الى المدينة مع المسلمين الذين لم يكن عددهم يتجاوز آن ذاك المائة ٠٠٠ أكثر من ست عشرة سنة ، عندما تمكن المسلمون في عام ٦٣٨ من الانتهاء من هزم أعظم امبراطوريتين في العالم ، وهما امبراطورية الروم وامبراطورية الفرس . وهكذا كان معظم هؤلاء الفاتحين العتاة المتحمسين من الذين نشئوا على عبادة الأوثان . وكان كثيرون منهم قد ارتدوا عن الاسلام قبل أربع سنوات ، ولما كانت نسبة من يحسن القراءة والكتابة فيهم ضئيلة للغاية فان معظمهم ولاشك كان جاهلا بتفاصيل الديانة الاسلامية ودقائقها (٢) لكن هذا لا ينكر الحقيقة الواقعة وهي أن الدين كان الحافز الاصيل لحماستهم . فلقد عودتنا حركات البعث الدينية العاطفية أن تنتشر بسرعة ، وأن تخلق حماسة منقطعة النظير وألا تكون كثيرة العناية بالتزمت العقائدي الفكري . ولا ريب في أن الايمان بوجود اله روحى عظيم ، يدين له الكون بأسره . ويعنى بشئون عبده ، قد حول نظرهم الى الحياة وجهة أخرى ولا ريب أيضا في أن الايمان بأن الاستشهاد في ميادين الوغى ، سيضمن للشهداء دخول فراديس النعيم فورا ، قد شدد من عزائمهم وقوى من شجاعتهم على الحرب .

(١) تحليل سخيف لا أستطيع قبوله . واذا كان المؤلف يعترف بأن العرب « وهم أصحاب عياض » الذين يمتد برايمهم ، كانوا يعرفون أن غنما اسم صنم ، فأنى لا أرى ان عياضا كان يهيمه الا يعرف النصارى أن اليهود أن آباء كاهن من عبدة الأوثان ، واعتقد ان استاطه لكلمة «عبد» كان بدافع التقوى الاصيل لا الظاهر الزائف .

(العرب)

(٢) لم يكن القرآن الكريم قد كتب بعد ، أو الحديث النبوى الشريف قد دون حتى يكون جهل العرب بالقراءة والكتابة سببا في عدم معرفتهم دقائق الاسلام كما يقول المؤلف .

سبق لنا أن رأينا القائد العظيم خالد بن الوليد يعزل من قيادته بأمر الخليفة ، ولكنه يواصل العمل تحت إمرة أبي عبيدة ، ولقد كانت خدماته الحربية في معركتي اليرموك وقنسرين مذهلة حتى انها دفعت عمر بن الخطاب الى اعلان ندمه على عزله اذ قال عندما بلغت مسامحه أعمال خالد . . . « أمر خالد نفسه . يرحم الله أبا بكر ، فقد كان أعلم بالناس مني » . وقد اختاره الخليفة بعد ذلك أميراً على قنسرين .

وعندما خرج عياض بن غنم لفتح الجزيرة خرج خالد بن الوليد معه ويقال : انه بعد احتلال ديار بكر استحم في حوض من النبيذ (١) وعندما عاد من الحملة الى مقر امارته في قنسرين زاره فيها الاشعث بن قيس الذي اشترك في القادسية . ولقد سبق لي أن ذكرت أن عادة العرب جرت على أن يقدم الكبير الذي يزوره أحد شيوخ القبائل لضيافته هدية من المال واللباس . ولذا . . عندما اعتزم الاشعث الرحيل عن خالد قدم اليه هذا ألف قطعة ذهبية هدية منه . ووصل النبا الى عمر في المدينة وقد انطوى على شيء من الاتهام لخالد بسوء التصرف في أموال المسلمين فكتب الى أبي عبيدة يأمره باعتقال القائد العظيم ومحاكمته وهكذا شهر بخالد علناً وأقيل من منصبه ثم صدر اليه الامر بالتوجه الى المدينة حيث جدد عمر اتهامه له ، وقد رد خالد : بأن المال الذي أهده الى الاشعث ؛ ماله ، ولا شأن لمال المسلمين فيه . وليس ثمة من شك في أن خالد كان قد أفرى من حصته من الغنائم التي فاز بها نتيجة انتصاراته العظيمة التي حققها ، ولا ريب في أنه كان أحق بكثير من الصحابة في الأموال التي جنوها من حصصهم في الغنائم ، وهم في المدينة لم يغادروها سعياً وراء الاشتراك في القتال .

(١) روى الواقدي أن خالد بن الوليد كان على مسيرة عياض بن غنم عند سيره لفتح الجزيرة لكن معظم المؤرخين العرب يؤكدون أن صفوان بن العطل السلمي كان على مسيرة عياض وأن خالد لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة ولزم حمص حتى توفي بها سنة إحدى وعشرين وأوصى بما يملكه الى الخليفة عمر بن الخطاب . ولا ريب في أن هذه القصة التي يذكرها المؤلف مستقاة من أحد كتب التاريخ الشعبية التي حشاها المؤرخون من أصل شموي بالريف والاكاذيب للحط من شأن أبطال العرب من أمثال خالد بن الوليد وعبدة من هؤلاء الشعبيين في النار لدولهم التي قضى عليها العرب . وقد بلغ من قحة هؤلاء أن زيفوا أحاديث على لسان النبي ظهر بطلانها . ومن المؤسف أن يلجأ المؤلف الى مثل هذه القصص الكاذبة لكن نياته في تشويه التاريخ الاسلامي لا تخرج من نيات الشعبيين .

(العرب)

وفى المحتمل ألا يكون خالد رجلا متدينا ومن المحتمل أن يكون قد بات صاحب ثراء ، وبني بعدد من الزوجات واقتنى عددا من الجوارى ، وقد تكون رواية حوض النبيذ صحيحة ، ولكن هذا لا يضره في شيء (١) فاليه يرجع الفضل الأكبر في اخراج الروم من سورية خروجا لا عودة بعده . ولم يكن خالد قائدا عظيما فحسب ، أو عسكريا عبقريا فذا فقط . وانما كان أيضا رجلا شجاعا كل الشجاعة في القتال . ويبدو أن شهرته أصبحت ضخمة الى حد خطر ، فعندما أراد عمر أن يبرر معاملته السيئة لخالد . قال : « انى لم أعزله عن ريبة ولكن الناس عظموه فخشيت أن يوكلوا اليه » . وقد استخدم الاسلوب نفسه في الدفاع عن معاملته للمثنى ابن حارثة الشيباني . ولقد سبق لنا أن قلنا : ان عمر بن الخطاب كان رجلا ورعا كل الورع عميق الشعور ، أفيجوز لنا على هذا الأساس أن نفترض أن عمر أحس بالغيرة في عقله الباطن من شهرة خالد والمثنى وتعلق الناس بهما تعلقا يفوق تعلقهم به وكل مانعرفه أن خالدا عاد بعد هذا الحادث الى سورية حيث توفي وفاة عادية بعد يومين .

وجد العرب أنفسهم - في الوقت الذي كانوا فيه يشبكون أقدامهم في منطقة الجزيرة - في حاجة الى حملة عسكرية فرعية أخرى لتثبيت الانتصارات الأخرى التي حققوها فبعد أن استقر الأمر لهم في العراق ، وفى المدائن بالذات أخذوا يلاحقون كسرى يزددجرد فى تراجعته نحو الجبال الشمالية الشرقية من المدائن . ولم تكن قد دارت هناك معارك رئيسية فى الحوض الأدنى لنهرى الفرات ودجلة . حيث ان الفرس لا يزالون مسيطرين على الضفة الشرقية من شط العرب وهو ملتقى النهرين ليسيرا معا نحو البحر .

وكان خالد بن الوليد قد تمكن قبل أربع سنوات - أى بعد هزم مسيلمة الكذاب فى اليمامة - من الزحف شمالا نحو شط العرب حيث عقد صلحا مع أهل الأبله ، وهى ميناء العرب الجنوبي فى تلك الايام ؛ ولكنه زحف من الأبله نحو الشمال بدلا من أن يتجه الى الشرق وسار معه المثنى ابن حارثة الى منطقة الحيرة بعد أن استخلف على الأبله شيخا من شيوخ بكرى يواصل غاراته الفردية على الفرس عبر شط العرب .

(١) بنى المؤلف استنتاجه الصحيح على فرضيات خاطئة اعتمد فيها على روايات مقرضة كان قصد بعض المؤرخين الشعبيين منها تشويه التاريخ الاسلامى .
(العرب)

وعين الخليفة بعد معركة البويب في نوفمبر (تشرين الثاني) عام ٦٣٥ ، صحابيا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعى عتبة ابن غزوان ليتولى قيادة العمليات العسكرية في شط العرب وعندما وصلت الى عمر أنباء الاستعدادات العسكرية التي يقوم بها القائد الفارسي رستم أمام القادسية أصدر أوامره الى عتبة بن غزوان بأن يهجم على الاهواز ليحول أنظار الفرس الى تلك المنطقة فيجذب بعض الجنود اليها ويحول دون ارسال النجدة ، الى ميدان القادسية . وقد اشتركت في هذه العمليات جماعات من بكر وتميم القبيلتين المقيمتين في الصحراء الى الغرب من شط العرب ، وأقام عتبة قاعدته في آكواخ بناها وخيام نصبها على بقعة من الارض التي ينتشر فيها الحصى الى الجنوب الغربي من شط العرب وتسمى البصرة ، وعاد فاحتل الابله ، وهي الميناء الذي تبحر منه البواخر الى البحرين وعمان والهند . وبعد أن وطد أقدامه في هذه القاعدة القوية الثابتة مضى يخضع أرض الدلتا الفسيحة المنبسطة ويندفع بفارغته عبر شط العرب الى خوزستان (الأهواز) .

وطلب عتبة الاذن له بأداء فريضة الحج في السنة التي سبقت القادسية والتي قضها سعد بن أبي وقاص في اعداد جيشه وتدريبه في شرافات وزيارة المدينة . وعندما سار قاصدا المدينة خلف أحد البدو أميرا على البصرة في غيابه . والطرافة في هذه النقطة أن الخليفة لم يوافق عتبة على الترتيبات التي أجراها عندما رواها له في المدينة بعد وصوله اليها مستغربا أن يعين بدويا أميرا على أهل الحضر (١) ، وسرعان ما عين الخليفة المغيرة بن شعبه من صحابة الرسول ، ومن الذين بايعوه عند الشجرة قائدا في البصرة ، ولم يعيش عتبة طويلا بعد ذلك فثبتت الخليفة عامله الجديد « المغيرة » في مركزه كقائد للعرب في الاهواز .

(١) لم أتمر على تأكيد لهذه القصة في التواريخ العربية الموثوق بها ولمس المؤلف قد عثر عليها في بعض الروايات الشعبية فأدجها هنا ليحقق غرضه في ابرال الفرة بين العرب . أما الرواية الصحيحة فهي على النحو التالي : كانت البصرة قد عصرت فيما بين يوم النخلة ويوم القادسية ، وقد مصرها عتبة بن غزوان ثم استأذن للحج وخلف المغيرة بن شعبه لكتب اليه عمر بعده فلم يلبث أن عرف بما عرف به فعلى ابا موسى البصرة وأشخص المغيرة الى المدينة ثم ان عمر رده ومن شهد طيه الى البصرة فلما حضر يوم القادسية كتب عمر الى ابي موسى يأمره بامداد سعد فأمده بالمثيرة في ثمانمائة ، ويقال : في اربعمائة ، لشهدا ثم شخص الى المدينة .

(العرب)

وكان الرسول قد أمر عندما وجهت تهمة الافك الى زوجه عائشة بجلد من يقذف أعراض الناس زورا وكذبا ، ويتيقن بطلان قذفه . وأفضى ثلاثة من الشهود بشهاداتهم أمام عمر بن الخطاب . ولم يبق الا رابعهم . زياد ، وعندما استدعى زياد الى الخليفة هتف به قائلا : انه ليرى في وجه هذا الرجل الأمل بنجاة أحد صحابة رسول الله من الرجم حتى الموت ، ونجاة سمعته من المساس . وقد وجد زياد بعد هذه الإشارة الواضحة أن من الخير له أن يعدل عن شهادته وأن يظهر عدم تحققه من التهمة وشكه فيها .

وهكذا أعلن الخليفة براءة عامله من التهمة مما عرض الشهود الثلاثة الأول الى عقوبة الجلد لأنهم طعنوا في سمعة رجل برىء ، لكن المفيرة فقد مركزه على أية حال . اذ بعث الخليفة بأبى موسى الأشعري الى البصرة ليكون عاملا له فيها وذلك في نهاية عام ٦٣٨ تقريبا (١) .

وزحف أبو موسى الأشعري بجيشه على الفرس فحاصر مدينة السوس وفتحها ، وكان يزدجرد قد بعث الى المنطقة بأحد كبار الفرس من رجاله للدفاع عنها فلما رأى هذا القائد الفارسي ظهور الاسلام ، وعزأه أرسل الى أبى موسى يفاوضه على الانحياز برجاله من الفرس الى

(١) يابى المؤلف الا ان يثبت مسموم حقه وكرامته في كل ما يكتبه فهو اولا يورد حادث اتهام المغيرة بن شعبة دون ان يكون لها مكان في كتابه الذى يتحدث عن الفتوح العربية ثم يحاول بصورة لا مباشرة ان يوحى لقرائه بأن التهمة صحيحة ، ولكن الخليفة اواد بميرة المغيرة لانه من صحابة رسول الله وبذلك يحقق غايته في تشويه سمعة المغيرة من ناحية والطمع في عدل عمر بن الخطاب مع انه من اعداء من عرفته الدنيا كلها . حتى ان عدائته حملته على ايقاع الحد كما تجمع كتب التاريخ العربى ، على ولده ، عندما ثبتت عليه تهمة احتساء الخمر ، وأمر بجلده برغم شقاعة بعض كبار المقرئين اليه من صحابته ، فجلد أمام ناظره ، ومات والحد يوقع عليه ، دون أن تأخذ عمر في الحق شفقة أو حنان الأبوة ، ودون أن يسمح له حتى بشرب الماء في أثناء الحد وقبل أن يموت ، فلا يمكن لرجل كهذا أن يتحيز للمغيرة وأن يحاييه ، وأن يطلب ولو بصورة غير مباشرة من زياد تعديل شهادته .

ولا ريب في أن التهمة التى الصقت بالمغيرة كاذبة ، اختلقها موظفوه الأربعة ، الحقد لهم عليه لأمر ما ، وهى حالة كثيرا ما تحدث في كل زمان وكل مكان . وعندما تبين الحقيقة لعمر ، برأه من التهمة ، وأوقع العقاب بالمفتريين . ولو كان عمر يريد محاباته ما استعمل تلك اللهجة الحادة في رسالته اليه . أما أقالته من منصبه ، فقد تكون ناجمة عن اعتقاد الخليفة بأن مقتضيات الحكم ، تتطلب إبعاد المغيرة عن منصبه بعد هذه التهمة ، حتى ولو برئت ساحته منها .

(المرب)

جانب المسلمين ، ولعل مما يثير الغرابة أن رسالة قائد الفرس الى القائد العربي كانت على النحو التالي :

« انا قد أحببنا الدخول معكم في دينكم على أن نقاتل عدوكم من العجم معكم . وعلى انه ان وقع بينكم اختلاف لم نقاتل بعضكم مع بعض ، وعلى انه ان قاتلنا العرب منعمونا منهم وأعنتمونا عليهم ، وعلى أن ننزل بحيث شئنا من البلدان ونكون فيمن شئنا منكم ، وعلى أن نلحق بشرف العطاء ويعقد لنا بذلك الامير الذي بعثكم » .

وجه الغرابة في هذه الرسالة وبالنسبة الى ما قدر له أن يقع في المستقبل أن الأجانب توقعوا منذ ذلك التاريخ نشوب حروب أهلية بين العرب حتى في ذلك الوقت الذي كانت فيه الاخوة والحماسة الاسلاميتان في ذروتها . وقد تحالف الفرس مع بنى تميم . وروى المؤرخون أن جماعات أخرى من مقاتلة الفرس في المنطقة قد انحازوا الى المسلمين . وبينهم جنود المشاة وبعض الهنود . وقد تحالفت كل جماعة من هذه الجماعات مع احدى القبائل العربية .

وبعد أن استسلمت السوس ورامهرمز واصل أبو موسى تقدمه الى تستر حيث اجتمع نفر كبير من جنود الفرس وعلى رأسهم الهرمزان ، واضطر أبو موسى الى الاستغاثة بالخليفة ليرسل اليه بعض النجادات فأنجده بجريز بن عبد الله البجلي بطل معركتي البويب والقادسية ، على رأس قوة من جيش سعد بن أبي وقاص ، ودارت معركة بعد ذلك مع الهرمزان انهزم فيها ، واضطر الى الدخول الى تستر حيث أغلق على نفسه أبوابها . وقاد أحد الاعاجم مائتين وأربعين من العرب الى المدينة في دجى الليل عن طريق منفذ سرى . وقتل المسلمون الحراس على الاسوار . ثم كبروا عليها وفتحوا الابواب لرفاقهم وأسر الهرمزان فبعث به أبو موسى الى المدينة .

وعندما استدعى النبيل الفارسي للمثول أمام عمر لم يكن له كبير أمل في النجاة من الموت وتظاهر الرجل بالعطش وطلب شربة ماء ، وعندما قدم له الماء في قدح ليشربه أخذ يتطلع قلقا حوله وكأنه يخشى أن يضرب أحدهم رأسه بالسيف وهو يشرب الماء ويمسك بالقدح بين يديه . ورأى الخليفة ذلك فأكد له أن أحدا لن يمسه بسوء قبل أن يشرب الماء وسرعان ما صبب الهرمزان الماء على الأرض . وطلب أعرابي رأى الحيلة التي لجأ اليها الفارسي الداهية من الخليفة أن يسمح له بقطع رأسه .

«ولكن عمر رفض السماح له بذلك مؤكدا ضرورة الحفاظ على العهد .

وهكذا نجا الهرمزان من الموت ، وعاش بعد ذلك في مكة كأحد المسلمين حيث لقي حتفه بصورة مفاجئة كما سنرى فيما بعد . ويقسم هؤلاء الفرس المثل الاول على غير المسلمين الذين تحولوا الى الاسلام ثم اندمجوا في العنصر العربي.(١) .

وأدت العمليات الحربية التي جرت في الأهواز ، الى اعتقال عدد كبير من الأسرى ظلوا رهن الأسر حتى جاء أمر عمر بإطلاق سراحهم وقد تضمن أمره الحظ على الإبقاء على الزراعة ، حفاظا على رخاء البلاد وازدهارها بعد الفتح الاسلامي لها . وقد منع عمر اخراج الزارعين من أراضيهم في كل من منطقتي السواد والاهواز ، بشرط أن يدفعوا الخراج والجزية .

وسرعان ما وجهت الاتهامات الى الموظفين الذين اختارهم الامير لتقدير الضرائب في الأهواز ، باستغلال نفوذهم ، مما حمل الخليفة على اصدار أمره بمصادرة نصف ثروتهم وهي طريقة سهلة ولكنها قاسية ، وكانت الطريقة الوحيدة المتيسرة لرجل وجد نفسه فجأة مثقلا بأعباء ادارة امبراطورية واسعة عن طريق جماعة من الاعوان يجهلون القراءة والكتابة .

أما وقد أضحي كسرى يزدرجرد وراء جبال زاغروس وأضحت الأهواز كلها في أيدي أبى موسى الأشعري الذي أخضعها من قاعدته في البصرة . فقد بات في وسعنا أن نعود لمتابعة سير الأحداث في أماكن أخرى .



تعرض الجزيرة العربية منذ أقدم عصور التاريخ بين الفينة والفينة

(١) تختلف رواية المؤلف من روايات المؤرخين العرب فقد ذكر أنس بن مالك . قال :

«حاصرنا تستر فنزل الهرمزان فكانت الذي ابنت به الى عمر . فقال له عمر : تكلم ، فقال : « كلام حى أم كلام ميت ؟ فقال عمر تكلم لا بأس ، فقال الهرمزان : كنا معشر النجم ما خلق الله بيننا وبينكم لتقصيكم ونقتلكم فلما كان الله معكم لم يكن لنا يكمن يدان » . فقال عمر : ما تقول يا أنس ؟ قلت : تركت خلفي شوكة شديدة وعدوا كلبا . فان قتلته يشس القوم من الحياة فكان أشد لشوكتهم وان استحبيته طمع القوم في الحياة فقال عمر : يا أنس ، سبحان الله قال أخيك البراء ومجسرة بن ثود . قلت « فليس لك الى قتله سبيل ، قال : « ولم اعطاكم أصبت منه » ؟ قلت : « لا ولكنك قلت له : لا بأس » فقال « متى ؟ لتجيش معك بمن شهد والا بدأت بمقومتك قال أنس : « فخرجت من عنده فاذا الزبير بن العوام قد حفظ الذي حفظت فشهد بي فخلقى عمر سبيل الهرمزان فأسلم وفرش له عمر . (المعرب)

الى موسم من مواسم الجفاف عندما تقل الامطار في أية سنة ، فلا ينبت الكلال ولا تظهر الاشواك عند حلول الربيع . وتظل البيداء كلها مجسدة: قاحلة لا حياة فيها ، وتموت أعداد وافرة من الماشية والابل في مثل هذه المواسم . وتعاني الفئات الفقيرة من بدو وحضر شظف العيش ومتاعبه . كما تقاسى أبلغ الجهد في بحثها عن الغذاء ولقد كان عام ٦٣٩ من هذا النوع في الجزيرة العربية . واتخذ الخليفة من الاجراءات أكثرها حزمًا وصرامة لتخفيف الضائقة ومتاعب الحياة . وأمر عماله من أمراء الأمصار في سورية وفلسطين والعراق بأن يبعثوا الى الجزيرة بقوافل كبيرة محملة بالغذاء والقمح وضرب عمر المثل للمسلمين فعاش طيلة هذه الفترة على الطوى لايمسك رقبه الا بما يناله أكثر المسلمين فاقة وعوزا .

وانتشر الطاعون السمل في عام ٦٣٩ في سورية وفلسطين بالإضافة الى تلك المجاعة القاتلة ، ومات الكثيرون من العرب واضطر العدد الكبير من الاحياء الى النجاة بأرواحهم من المدن الموبوءة هائمين في الصحراء وقد أصيب القائد العام أبو عبيدة بالطاعون قبل أن تكتمل الهجرة ، فانتقل الى جوار ربه ودفن جثمانه في وادي الاردن حيث لا يزال ضريحه قائما حتى الآن . وقد أعيد بناؤه في عام ١٩٤٠ وكان يزيد بن أبي سفيان القائد الذي قام بدور كبير في الحملة السورية من ضحايا الطاعون أيضا .

وحزم الخليفة الذي لا يقعه جهد أمره على زيارة سورية من جديد. لاعادة تنظيم الادارة فيها . بعد أن فقد المسلمون هذا العدد الكبير من قادتهم ، ويبدو أن الطاعون كان قتالا الى الحد الذي قيل فيه ان العرب فقدوا نحوًا من خمسة وعشرين ألفًا من رجالهم من جرائه . مما دعا الى انتشار القلق من أن يهتبل الروم الفرصة فيعودوا الى مهاجمة سورية واحتلالها .

واختار الخليفة معاوية بن أبي سفيان ليكون أميرًا على سورية خلفًا لأبي عبيدة وأخيه يزيد بن سفيان ، ولقد سبق لنا أن مررنا على ذكر معاوية وهو يعمل كاتما للسر عند النبي في المدينة ورأيانه يهرول حافي القدمين الى جانب الهجين الذي يستقله الضيف البدوي شيخ القبيلة المتعجرف القادم من جنوبى الجزيرة ، وأصبح معاوية بعد وفاة أخيه يزيد أكبر أبناء أبي سفيان ، وكان من أكثر الناس طموحا وتطلعًا الى المجد . قد امتاز بالقدرة على التواضع واللين عندما تقتضيهما المواقف وعلى الصبر انتهازا للفرص ، فبرهن على أنه سياسى بعيد النظر من الدرجة الأولى ، وأثبت أنه حاكم لا يشق له غبار فى كفايته وطاقاته ، وقد قدر

لهذا الرجل أن يحول الحكم الاسلامى الدينى الممثل فى الخلفاء المخلصين
الاتقياء المتواضعين الى حكم امبراطورى ورائى قوى الدعائم زاهرالقسمات

وفى وسعنا الآن بعد أن رأينا ما لحق بامبراطوريتى الروم والفرس
من هوان واذلال وما حققه العرب من سيطرة على سورية والعراق وتثبيت
لاقدامهم فيهما أن نعود فنلتفت الى الزواء لحظة واحدة نستعرض فيها
نشئون هذه الامبراطورية الجديدة الداخلية بعد أن رأيناها تنمو هذا النمو
المذهل فى غمضة عين وانتباهتها . فلقد أحس الخليفة عمر بن الخطاب
بالحاجة الماسة لمواجهة هذا الوضع الجديد باتخاذ بعض القرارات الرئيسية
الحاسمة .

ولم تكن الشعوب المقيمة فى فلسطين وسورية تمت الى اصل واحد،
ففى المنطقة الساحلية على شطآن البحر المتوسط تقيم اقوام تمت الى جذور
مختلفة وممتزجة . فلقد كان الفلسطينيون والكنعانيون والحثيون
والعبرانيون والفينيقيون هم أول من أقام فى هذه المنطقة ليعودوا فينصهروا
قبل نحو من ألف عام من تاريخنا الحالى مع المهاجرين من الاغريق والاقوام
اللاتينية . وغلب النصر الاغريقى على معظم مدن الساحل الكبيرة ، أما
فى المناطق الشرقية من سورية وفلسطين فكانت دولة الفساسنة (١) التابعة
للاوروم نصف عربية أو أكثر من نصف عربية . وكانت اللغة السريانية هى
الغالبية على معظم أرجاء هذه المنطقة التى يدين أهلها بالنصرانية . ولقد
جاء اليها أيام الفتح الاسلامى الوف من أبناء القبائل العربية استصحب
الكثيرون منهم نساءهم وأطفالهم ، وعلى الرغم من أن الطاعون كان قد
قضى على الكثيرين من العرب فإن أعدادا كبيرة منهم نجت منه وظلت تعيش
فى سورية . وعندما انتهى أمر القتال فيها لم يعد أمام هؤلاء ما يعملونه،
يضاف الى هذا أن انتهاء القتال كان يعنى بالنسبة اليهم انتهاء عهد الاسلاب
والغنائم .

وبرزت مشكلة أمام الخليفة : ترى هل يسمح لهؤلاء العرب القادمين
من الجزيرة العربية بالاختلاط بأهل سورية وفلسطين ؟ أو هل يفرض
عليهم عزلة مقصودة ؟ وكان يرى أنه لو سمح لهم بالاختلاط فانهم لن
يلبثوا فى غضون جيلين أو ثلاثة أجيال أن يندوبوا فى المجتمع المحلى المقيم

(١) الفساسنة عرب اصلاء .

في المنطقة • وليست هناك بالطبع أية احصاءات موثوقة عن السكان في سورية وفلسطين في القرن السابع ، ولكن الشيء الثابت أن هذين البلدين كانا مزدهرين كل الازدهار كامارتين رومانيتين طيلة القرون الستة الماضية. وليس ثمة من شك في أن عدد سكان المنطقة كان يقل في عام ١٩٦٠ عن عشرة ملايين بقليل ، أما في أيام البيزنطيين فعلى الرغم من أن البلاد كانت في حالة ازدهار تفوق أحوال اليوم فإن ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال وعجز الناس عن منع الأوبئة من الانتشار ، كان لا بد أن يؤثر على عدد السكان وأن يبقيا على نسبة خفيفة فيه • وقد نغامر فنقول على سبيل الحدس والفرس أن عدد سكان سورية وفلسطين في عام ٦٤٨ لم يكن يزيد على ثلاثة ملايين وإن كان هذا التقدير يقل عن الحقيقة بعض الشيء • ولم يزد عدد جنود الجيش العربي الذي اشترك في المعارك الضارية التي جرت في تلك الايام ، عندما كانت القيادة الاسلامية في حاجة الى كل جندي ليخوض المعركة في سورية على الخمسة والعشرين ألفا • وكان بعضهم تصحبهم نساؤهم وأطفالهم •

وعلى هذا الاساس يمكننا أن نفترض أن عدد المسلمين مع أفراد عائلاتهم في سورية في تلك الايام لم يكن يربو على مائة ألف • وعلى هذا لم يكن عرب الجزيرة المقيمون في سورية يربون في تلك الايام على أكثر من واحد من ثلاثين من عدد السكان، ولذا كان مجرد السماح لهم بالاختلاط مع أهل البلاد يعني ذوبانهم في هذا المحيط الشامل الواسع وإذا ما استثنينا أبناء القبائل البدوية المرابطة في بادية الشام فإن أهل سورية لم يظهروا أية خصائص قتالية بارزة ، ومن هنا يكون الامتزاج سبيلا الى اضاعة العرب لمزاياهم وفضائلهم •

وأخيرا كان عمر بن الخطاب الورع المتطهر يتظر بشيء من الفزع والهلع الى ما يمتاز به السوريون من ميل الى الرقص والموسيقى والثرثارة والنعمة المترفة والخمر وعلى ضوء هذا قرر الخليفة عزل المسلمين العرب عن أهل البلاد وأن يجعل منهم طبقة عسكرية حاكمة مهمتها الحكم وخوض القتال • وتحقيقا لهذا الهدف أمر أن يظل معسكر الجابية الحربي المقر الدائم للعنصر الحاكم والمنطقة المعزولة لاقامتهم •

ولقد رأينا أن العرب في العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص احتلوا قصور الأكاسرة والدهاقين في المدائن بجزأيا ، وليس ثمة من شك في أن عمر كان يحس بأشد القلق والخوف من اجتماع افساد المسلمين عن طريق الانغماس في الترف ، وكان الجنود يشكون من سوء أحوالهم الصحية في

العراق ومن انتشار البعوض وهجماته . وبالإضافة الى هذه الاعتبارات كلها كان الخليفة يخاف خوفاً نفسانياً قويا من السماح لجنوده بأن يصبحوا مقطوعين على الضفة الأخرى من النهر ، اذ أن ذكريات معركة الجسر المفجعة سببت له كابوساً دائماً مرعباً .

ولهذه الأسباب جميعها كتب عمر الى سعد بن أبي وقاص يأمره باختيار مكان مناسب يصلح قاعدة عسكرية رئيسية شريطة أن يكون على أكتاف الصحراء وعلى الضفة الغربية من الفرات ، وقد نتج أمره هذا عن رغبته في أن تكون الصحراء هي الفاصل الوحيد بينه وبين رجاله ، وفي مثل هذه الحالة يكون على ثقة من أن اتصاله بهم لن ينقطع .

واختار سعد بن أبي وقاص بعد أن تحرى مناطق عدة موقعاً له قريبا من الحيرة . وقد حشدت قوات العرب الرئيسية هنا في هذا الموقع في عام ٦٣٩ فسكنت في يادى الأمر في الخيام وفي الأكواخ المبنية من القصب . وأمر سعد ببناء مسجد في المكان ثم بنى منزلا له . وعمران ما أخذت الابنية في الانتشار فتم بذلك بناء الكوفة التي غدت بصورة تدريجية مدينة قدر لها أن تؤدي دورا هاما وأحيانا دورا سيئا في التاريخ العربي .

وقد سبق لنا أن ذكرنا ان القوات العربية كانت قد عسكرت عند رأس الخليج على مساحة من الأرض التي ينتشر فيها الحصى تسمى البصرة . وأدى امتداد العمليات العسكرية الى الأهواز بعد القادسية الى إرسال نجدات اضافية الى هذه المنطقة مما أسفر عن تحول البصرة الى ما غدت عليه الكوفة أى الى قاعدة عسكرية سريعة ما تطورت الى مدينة حديثة .

وهكذا تبرز لنا صورة جديدة تظهر فيها الجيوش العربية القادمة من الجزيرة العربية وقد وطلت أقدامها في الامارات المحتلة وان لم يجر تسريحها ولقد حيل بينها وبين الامتزاج مع السكان أو بينها وبين امتلاك الاراضى والاقبال على فلاحتها . فلقد صدرت اليهم الأوامر بالبقاء منفصلين منعزلين يمثلون عنصرا حاكما وجنودا يحتشدون في القواعد العسكرية الكبيرة كالجابية في سورية والكوفة والبصرة في العراق .

ولكن لم يكن في الامكان الحيلولة دون وقوع الاندماج في ناحية واحدة على الأقل . فلقد آذن الاسلام لمعتنقيه بالزواج بأربع من النساء . أما قبل الاسلام فلم تكن ثمة حدود أو قيود على تعدد الزوجات وكان في مكنة الرجل الزواج بأى عدد من النساء وان كانت النسبة الطبيعية بين عدد الذكور والاناث لم تكن لتسمح بصورة آلية رتيبة للرجل بالزواج بعدد

كبير منهم ، وكان الاسلام قد صمم للمسلم باقتناء الجوارى من أسيرات الحرب أو الاماء ، لكن النطاق المحدود للحروب في عهد النبي والفقر العام الذي كان يعيش فيه العرب . كانا قد منعا اساءة استعمال هذا الحق . أما الآن ، وبعد هذه الفتوح السريعة المذهلة لمناطق سورية والعراق الغنية والخصبة والمتحضرة ، فقد بات في وسع المحاربين العرب أن يحصلوا على عدد غير محدود من الاسيرات ، وان تتوافر لهم الامكانيات المادية لعولهن وأدى هذا الوضع الى ولادة عدد ضخم جدا من الاطفال في القواعد العسكرية لابائهم العرب ، وكانوا يعتبرون عربا وان كانت معظم أمهاتهم من الجوارى أو الاسيرات أو الاماء . ولم يمض أكثر من جيل واحد حتى كانت الطبيعة العنصرية للعرب الذين احتلوا سورية والعراق تختلف بعض الاختلاف عن طبيعة أبناء الجزيرة العربية .

وأدى تركيز الفاتحين العرب في المناطق العسكرية المحظورة الى ضرورة دفع الرواتب اليهم نظرا لمنعهم من العمل في الزراعة أو التجارة ، وكان تنظيم دفع الرواتب الى جيش ضخم كهذا الجيش عملية منهكة لحاكم لا يعرف من القراءة أو الكتابة من رعاياه الا النفر القليل . وفي سنوات الفتح بين عامي ٦٣٣ و ٦٣٨ كانت أربعة أخماس الغنائم توزع فورا على الجنود . وهي عملية جعلت الرواتب أمرا لا ضرورة له ، اذ جعلت من كل محارب من محاربي المسلمين رجلا واسع الثراء . ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب ، عزف عن المضي في الفتح ، رغبة منه في أن يثبت العرب أقدامهم في المناطق الواسعة التي فتحوها، لكن توقف العمليات الحربية عنى بالنسبة اليه وقف الغنائم ومن ثم الحاجة الى دفع رواتب الجنود .

وكان النبي قد رفض طيلة حياته جمع المال أو المواد الغذائية في بيته . وتذكر الروايات الكثيرة أنه كان يأبى أبقاء شيء منها ليلة واحدة في داره . فأنه جلت قدرته يوغر الرزق لعبيده من يوم الى يوم . ولم يخرج الاسلام في هذا عن تقاليد النصرانية فلقد روت القديسة تريزا أن رهبان الكرملين كانوا يرفضون عند انشاء رهبنتهم اختزان الطعام لأكثر من يوم واحد . وكان النبي يرى أن اختزان المال أو الاغذية دليل على الافتقار الى الايمان . بالله . وعلى ضوء هذه السنة كانت ثروات الامبراطوريات التي تتدفق على المدينة في سنوات الفتح بين عامي ٦٣٣ و ٦٣٨ كفيء يشمل خمس الغنائم . توزع فور وصولها على المستحقين ، ويظل بيت مال المسلمين خاويا . وكثيرا ما رد عمر بن الخطاب على ناصحيه بالابقاء على جزء من المال كوفر احتياطي . في بيت المال ، بأن اقتراحهم هذا نابع عن الشيطان ، ويضيف الى ذلك .

قوله : انه يؤمن بالله ورسوله وهذا هو الوفر الاحتياطي الذي ينشده .
فقضية الاسلام هي قضية الله ، ولا بد أن يؤمن الله لقضيته كل ما تحتاج
اليه . وهكذا وجد عمر خزينته عند ما واجه ضرورة دفع الرواتب للجنود
خاوية من كل مال .

ومن الصحيح بالطبع ان أى خفض فى كمية الغنائم قد يعوض من
جاء الحقيقة الواقعة وهي أن المناطق المحتلة كانت مرغمة على دفع الجزية
والخراج . وعلى الرغم من احتمال العثور على المال بهذه الطريقة فان صعوبة
العمل قد تضاعفت اذ من الواجب ايجاد توازن بين الدخل وبين الانفاق .
وبالطبع لم يكن العرب قادرين على أن يؤمنوا جهازا كافيا للخدمة المدنية .
ولا يتكو أن الموظفين القدامى فى سورية والعراق ظلوا فى مراكزهم بعد
الفتح العربى ، وظلت الحسابات فى سورية تعد من قبل الموظفين البيزنطيين
باللغة الاغريقية ، كما ظلت الحسابات فى العراق تعد بالفارسية من قبل
الموظفين السابقين عند الاكاسرة .

وبالطبع لم تتوافر الامكانيات لعمر بن الخطاب لاصدار عملة عربية
جديدة ، ولذا فقد ظل النقد البيزنطى متداولاً فى سورية وفلسطين على
حين ظل النقد الفارسى المتداول فى العراق . ومهما كانت القواعد التى
سنها المسلمون بالنسبة الى الضرائب والجزية والخراج والعشر وما شابه
ذلك ، فان العمل الحقيقى فى التقدير والجباية من سكان المناطق المحتلة ،
ظل بأيدي الموظفين السابقين عند الدول السابقة الزائلة .

وظهرت متاعب أخرى فى الشؤون القضائية : فلم يكن لدى المسلمين
قانون مدنى ، وانما كانوا يعتمدون على القرآن والسنة والحديث فى ايجاد
الحلول المناسبة لجميع المشاكل التى يواجهونها . وكان من الطبيعى ألا
يقبل النصارى واليهود والمجوس (أتباع زرادشت) مثل هذا النظام ، اذ
انهم لا يؤمنون بأن القرآن من التنزيل . ومع ذلك ، فلم يحاول المسلمون
ارغام هؤلاء الناس على اعتناق الاسلام ، اذ أن الاسلام نص على أن لا اكراه
فى الدين . ولهذا كان الحل الوحيد والمعقول ، هو السماح للنصارى
واليهود باستخدام قوانينهم الخاصة بأحوالهم الشخصية . وأن يقوم
قضائهم بتطبيقها ، وقد ظل هذا الاجراء متبعاً فى البلاد الاسلامية حتى
يومنا هذا ، اذ ورثه الاتراك العثمانيون عن العرب فى القرن السادس
عشر . وكانت الكنائس المسيحية والجاليات اليهودية تؤلف فى ظل الحكم
العثمانى مناطق شبه مستقلة ضمن اطار الدولة .

ولما كانت الدولة الاسلامية الاولى دولة دينية ثيوقراطية ، تعتمد فى قوانينها على شرائع الله فان الدين لا العنصر أو القومية كان العامل الذى يفرق بين الناس ويميز الواحد منهم عن الآخر . ولو سئل أى رجل يعيش فى الشرق الاوسط طيلة ألف وثلاثمائة عام عن نفسه لرد بأنه «مسلم» و«الحمد لله» أو «مسيحي» أو «يهودى» ولا يرد بأنه «عربى» أو «مصرى» . وكان هذا الرد نتيجة حتمية للحكم الدينى . لكن تمثلت النتيجة الفورية لفتوح القرن السابع ، وهذا أمر يثير الغرابة ، فى نشوء شكل من أشكال القومية العربية لفترة مؤقتة على الأقل ، فلقد كان العنصر العربى هو الذى أطاح بدولتى الفرس والروم . وكان الجيل العربى الذى قام بهذه المهمة من الرجال الذين تحولوا الى الاسلام فى أوسط العمر ، بعد أن نشئوا فى ظل الجاهلية على عبادة الاوثان وتعشق أساطير البطولة العربية والحب والحرب . وليس غريبا والحالة هذه أن تكون ثمرة الفتوح العربية نشوء عنصر عربى سيد يشعر بالاعتزاز والغطرسة لما حققه من أمجاد . ولكن العناصر اللامربية ، ظلت طيلة القرن الاول للإسلام ، تشق طريقها ببطء متسللة الى مراكز السلطة . وأدى هذا التسلسل بالتدريج أيضا الى اختفاء غطرسة العنصر العربى ليحل محلها شعور بالتفوق الدينى الاسلامى ظل قائما ثم يطرأ عليه أى تعديل حتى القرن العشرين . ولم يضعف أمر الحكم الدينى أو يختلف الا فى الأربعين سنة الاخيرة ، من جراء تحول الدولة فى البلاد الاسلامية من الدين الى العلمانية . ولقد بنيت الدول العلمانية الحديثة على الاسس المتبعة فى أوروبا الغربية لا على أسس التقاليد الاسلامية .

وهكذا قدر للقرارات العاجلة التى اتخذها النبى وخليفته الأولان ، عندما واجهتهم مشكلة ادارة الامبراطورية الجديدة أن تقرر شكل الحياة وطرأتها فى الشرق الاوسط لمدة تزيد على ألف عام .

واذا كانت جباية الضرائب من البلاد المحتلة ، قد ظلت فى بادىء الامر فى أيدي الاروام والفرس ، فان صرف الرواتب الى الجنود العرب كان لابد وأن يحصر فى أيد عربية . واضطر عمر تحقيقا لهذه الغاية الى القيام بعمل ضخم على نطاق مذهل . يكاد يشبه القيام بإحصاء عام للعرب المعروف أن القبائل كانت تحل فى الجيوش العربية محل الوحدات فى الجيوش الاخرى . وكانت كل قبيلة منها تحارب تحت علمها وبقيادة رئيسها . ومن هنا نشأت الحاجة الى دفع الضرائب على أسس قبلية .

وكانت ثمة اعتبارات ثلاثة تقرر المبلغ الذى يدفع لكل فرد من الافراد ، اولها الاسبقية فى التحول الى الاسلام وثانيها القرابة من رسول الله وثالثها البلاء فى سبيل الله . وهكذا كان نصيب عائشة أم المؤمنين اثني عشر ألف درهم بينما كان نصيب كل من زوجات النبي الاخريات عشرة آلاف درهم . وكان الدرهم هو العملة الفضية المستعملة فى تلك الايام . وكان نصيب كل فرد من آل الرسول خمسة آلاف درهم وهو عين ما يتقاضاه الصحابيون من الذين اشتركوا فى معركة بدر . وكان نصيب من شهدوا بيعة الشجرة فى الحديبية أربعة آلاف درهم ، بينما يتقاضى الذين أسهموا فى حروب الردة ثلاثة آلاف درهم ويتقاضى المحارب الذى اشترك فى فتح دمشق أو فى معركة القادسية ألفى درهم فى العام . وأصبح الجندي العادي يتقاضى فيما بعد خمسمائة درهم فى العام أما الذين يبلون بلاء حسنا ويمتازون ببطولات بارزة فيتقاضون خمسمائة درهم اضافية . أخرى كما يتقاضون أية رواتب أخرى بموجب المؤهلات الاخرى التى يمتازون بها . وكان الحد الأدنى للرواتب مائتى درهم ، ويدفع للمجندين الذين انضموا مؤخرا الى الجيش العربى . وتلقى أرامل الشهداء بدر خمسمائة درهم . أما أرامل الشهداء المسلمين الآخرين فى المعارك الاخرى . فيتقاضين رواتب متفاوتة . ولعل مما يثير الدهشة أن تستطيع هذه الادارة غير المتعلمة السير فى مثل هذا النظام المعقد بنجاح . ويبدو أن التوزيع كان يجرى على الطريقة القبلية أى أن الرواتب تدفع الى رؤساء القبائل . الذين يسلمونها الى الموثوقين من الشيوخ فينقلها هؤلاء بدورهم الى الافراد .

وكانت الاسلحة التى يستخدمها العرب هى الاسنة بالنسبة الى الفرسان وذلك لان السنان كان السلاح الاثير عند العرب . وكانت النبالة والاقواس مع المقاليع التى تقذف الحجارة ، تؤمن نيران التغطية للجنود . أما الحراب التى تقذف فكانت من الاسلحة المألوفة لدى حراس مكة وهم جماعات استخدمتهم قريش فى أيام الجاهلية كجنود مرتزقة ، وقد شهدناهم يحاربون فى معركة أحد . ويستخدم المشاة والفرسان على حد سواء السيوف فى حربهم ، أما الاسلحة الدفاعية فتشتمل على الدروع والخوذ الفولاذية . ولا ريب فى أن الدروع كانت نادرة فى الايام الاولى ولكن العرب ما لبثوا أن غنموا من الروم والفرس كميات ضخمة جداً من السلاح والعتاد والدروع والجياد .

وكان العرب قد ألفوا منذ عهد بعيد ، ولا سيما البدو منهم مبادئ السوقية (الاستراتيجية) الاساسية التى تقوم على السرعة والمباغتة

وحشد القوى في المراكز الحساسة الحاسمة . وكانوا في أيام الجاهلية يفتقرون الى النظام والانضباط ولكن السنوات الست المتعاقبة من الصراع المستمر مع جيوش الفرس والروم ، علمتهم ولا ريب الكثير من الدروس ، التي لم تسجل لسوء الحظ لنفيدها منها نحن . لكن في وسعنا الافتراض بصورة عامة بشيء من الثقة انهم كانوا لا يزالون حتى عام ٦٣٨ أقل من أعدائهم خبرة بدقائق التنظيم والتجهيز الحربي . ولقد كان في الامكان حل مشكلة الانضباط بصورة مؤقتة ابان الفترة التي استمر فيها الحماس الديني على أشده اذ أن الانضباط شيء صعب على العرب دائما . ففي تلك الفترة كانوا يحاربون في سبيل الله ، لا في سبيل شخص أو انسان . ولهذا الغاية كان قائد الجيش دائما هو الذي يؤم الجنود في صلواتهم ويخطبهم أيام جمعهم ، ومن هنا نستطيع القول ، على أي حال بأن انتصاراتهم المذهلة لم تتحقق بفضل تفوق في علومهم العسكرية ، وإنما يرجع الفضل الاول في هذه الانتصارات التي حققها الفاتحون العرب الى روحهم الحماسية ومعنوياتهم العالية . ولا سيما وقد تقوت هذه المعنويات عن طريق الايمان بأنهم انما يقاتلون في سبيل الله ، وان من يستشهدون منهم يمشون قدما وسراعا الى فراديس النعيم المقيم . أما السبب الثاني في هذه الانتصارات فهو انهم ألفوا شظف العيش وخشونته الوف السنين على اكناف الصحراء وفي أوضاع حياتية تقرب من المجاعة مما جعل منهم شعبا صلبا لا يلين . أما السبب الثالث فهو قدرتهم على السرعة الهائلة في الحركة ولا سيما في الصحراء حيث يعجز أعداؤهم عن الحركة تماما . ولقد رأينا فيما سلف كيف انهم في جميع معاركهم باستثناء معركة الجسر ، قد استغلوا هذا العامل الى أقصى حدود الاستغلال وظلوا يجرون أعداءهم الى قتالهم على اكناف الصحراء .

ولم يكن النبي قد تحول الى حاكم دنيوى بالاضضافة الى سلطاته الروحية الا في السنتين الاخيرتين من حياته . ولم تطل خلافة أبي بكر أكثر من عامين آخرين، أما عمر بن الخطاب فقد دامت خلافته عشرين سنة من عام ٦٣٣ حتى عام ٦٤٣ ، وتحققت في أيامه معظم الفتوحات الاسلامية الضخمة . وهكذا تمكن عمر من أن يخلف للاجيال القادمة أثرا لا يمحي في تاريخهم .

وكان بين القرارات الهامة التي اتخذها فأصبحت قواعد متبعة عدم

السماح لغير المسلمين بالعيش في الجزيرة العربية (١) ومما يجدر ذكره.. ان النبي كان قد عقد معاهدة ودية مع نصارى نجران ولكن عمر بن الخطاب عاد فأخرجهم من بلدهم، فهاجر القسم الاعظم منهم الى ضفاف الفرات. وكان النبي قد استولى على خيبر وأخضع يهودها، ولكنه تركهم في أرضهم شريطة أن يدفعوا الجزية، فلما جاء عمر حملهم على أن يهاجروا منها الى الشمال. وتقول الروايات ان عمر استند في اجراءاته الصارمة هذه الى حديث للنبي على فراش الموت يأمر فيه بأن يكون الدين الاسلامي هو الدين الوحيد المهيمن على الجزيرة العربية ولو صح ان النبي قد أصدر مثل هذا الامر حقا، فان مما يثير الاستغراب ألا يحاول خليفته الاول أبو بكر انفاذه وتطبيقه، ولقد سبق لنا ان رأينا أبا بكر حريصا كل الحرص على انفاذ كل ماعمله رسول الله، وأوصى به في حياته بكل دقة وتفصيل. ولا ريب في أن عمر قد وضع في عمله هذا أسس الحياة للأجيال القادمة. فعلى الرغم من بقاء اقلية مسيحية ويهودية ضخمة في البلاد المحتلة كسوريا ومصر والعراق ما زالت باقية حتى يومنا هذا، الا أن هذه الاقلية اختفت باستثناء يهود اليمن من جنوب الجزيرة العربية ووسطها. وقد سبق لي ان اشرت الى جمع القرآن لأول مرة، وان هذا العمل قد بدأ بعد معركة اليمامة نتيجة استشهاد عدد كبير من الصحابة من حفظة القرآن وقد اختار الخليفة لجنة من الصحابة برئاسة زيد بن ثابت كاتب النبي الخاص. ولم يكمل عمل اللجنة ويتم جمع القرآن الا في عهد عمر. ابن الخطاب وقد سلمت نسخة منه الى حفصة أم المؤمنين وابنة عمر، لتكون وديعة لديها (٢).

(١) لأدري من أين جاء المؤلف بهذه الرواية. إذ لو صحت، لما ظل اليهود يقيمون في اليمن ثلاثة عشر قرنا، الا اذا كان المؤلف لا يعتبر اليمن جزءا من الجزيرة العربية وهو تقدير خاطيء يضاف الى هذا انه لو صح وجود مثل هذا الامر وتلك الرواية لما سمح للمسيحيين بالعيش في كثير من بلاد الجزيرة العربية كجدة والظهران والكويت وقطر وغيرها في أيامنا هذه، إذ لا تجرؤ حكومة عربية على مخالفة أوامر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بهذا الشكل الواضح. وكل ما في الامر ان الحظر لا يشمل الا الاماكن المقدسة في مكة المكرمة. ولكن قصد المؤلف واضح وهو الطعن في عمر من ناحية، و اظهار الاسلام بمظهر التعصب من الناحية الاخرى. (العرب)

(٢) تختلف رواية المؤلف عن روايات المؤرخين العرب فقد اخرج البخاري عن زيد بن ثابت انه قال: أرسل الى أبو بكر عند مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال: أبو بكر: ان عمر اتاني فقال: ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، والى لاخشي. ان يستحر. القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن الا أن يجمعه والى لأدري.

وكان أبو بكر قد تسمى بالخلافة بعد مبايعته اثر وفاة النبي . وكان
عمر عند توليه الامر قد احتج تواضعاً بأنه ليس بخليفة رسول الله وانما
هو خليفة خليفته . ويبدو أن استخدام هذا اللقب كان شاقاً على
الاستعمال وفجأة خاطبه أحد المسلمين بعبارة أمير المؤمنين . وقد ظل
اللقب مستعملاً بالنسبة الى الخلفاء طيلة ثلاثة عشر قرناً .

ان يجمع القرآن قال أبو بكر فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى
عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله
لذلك صدرى ، فرأيت الذي رأى عمر . قال زيد ، وعمر عنده جالس لا يتكلم - فقال
أبو بكر : انك شاب عاقل ، ولا تهملك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله عليه الصلاة
والسلام ، فتتبع القرآن فأجمعه ، فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل
على مما أمرني به من جمع القرآن فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي عليه
الصلاة والسلام ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجع حتى شرح الله
صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والاكشاف
والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم
أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى آخرها .
فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله . ثم عند
عمر حتى توفاه الله . ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها .
وأخرج أبو يعلى عن علي قال : أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر . ان
أبا بكر أول من جمع القرآن بين اللوحين . (المغرب)

تواريخ مشهورة

٦٣٨	ربيع عام	حشود القبائل النصرانية واسترجاع الروم لانتطاكية
٦٣٨	ابريل (نيسان)	احتلال المدائن في العراق
٦٣٨ - ٦٤٠		فتح الاهواز
٦٣٩ - ٦٤٠		الطاعون الدملي في سوريا
		المجاعة في الحجاز
٦٣٩		تمصير الكوفة

شخصيات بارزة

أمير البصرة	المغيرة بن شعبة
فاتح الاهواز وأمير البصرة	أبو موسى الاشعري
القائد العام في سوريا- توفي بالطاعون	أبو عبيدة
خلف أبا عبيدة في امارة سوريا	معاوية بن أبي سفيان
كأثم سر أمير البصرة	زياد

بَابُ الْعَظِيمَةِ

•• آمن عمر الكريم بربه وبسيفه الذى هز به عروش
الأكاسرة والقياصرة ولكنه عندما قادن بين قسوة
المسلمين الضئيلة وبين عظمة المشروع الذى أقدم عليه
نلم على تسرعه • وكان كل من يقرأ القرآن يعرف بما
كان عليه فرعون من عظمة وكبرياء •• وكانت مدن
مصر أهلة بالسكان ، وواثرة العدد ، وكانت أبنيتهما
قسوة وثابتة الاركان وكان لا بد وأن تدافع قوات
الرومان دفاعا عنيدا عن أهراء رومة (١) •

— جيبون — انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها —

« سقطت ، سقطت بابل العظيمة • الويل ، الويل ،
أيتها المدينة العظيمة ، بابل المدينة القوية ، فان دينوتك
قد نزلت فى ساعة واحدة • الويل الويل أيتها المدينة
العظيمة ، التى استغنى فيها جميع الدين لهم سفن فى
البحر من نفاثتها ! فانها قد تلفت فى ساعة » •

رؤيا القديس يوحنا — الفصل الثامن عشر

(١) أهراء رومة ، اسم أطلقه الرومان على سهول حوران في سوريا وعلى

كنوز مصر •

احتل الفرس مصر عام ٦١٧ في أثناء الحرب الطويلة التي استمر
أوارها بين كسرى أبريز وبيزنطة . ولم يجعل عنها الفرس الا في
عام ٦٢٧ ، نتيجة قيام هرقل بغزو فارس نفسها . وتقدمه باتجاه المدائن
من الموصل ولا ريب في ان سلطان بيزنطة كان قد اختفى ابان هذه الفترة
تمام الاختفاء . وكان الفرس في غضونهما قد ارتكبوا آثاما كثيرة ورهيبة .
وان لم يعرضوا لاضطهادهم اتباع الديانة القبطية ، وعقد الصلح بين
الروم والفرس في عام ٦٢٨ وما لبث أن وصل الى مصر في ذلك العام أو
في العام الذي تلاه جيش بيزنطي ، قادم عن طريق البحر من القسطنطينية
ليتولى حماية البلاد .

وكان هرقل في هذه الآونة في ذروة مجده وانتصاراته . فلقد
أنقذ الامبراطورية من الدمار واسترجع من المجوس عبدة النار ، الصليب
المقدس ، وظل الامبراطور الظافر يتطلع في ساعة نصره هذه الى هدف
عظيم واحد وهو توحيد الكنائس المسيحية التي كانت قد انقسمت منذ
أمد بعيد الى أرثوذكسية ويعقوبية (قبطية) ونسطورية . وكانت هزيمة
المجوس الفرس واستعادة الصليب المقدس قد أيقظتا في صدور المسيحيين
جميعا شغلة الحماس ، وقد باتت الفرصة مواتية الآن لاعادة الالتحام الى بناء
المسيحية المتجزية ، وعهد الامبراطور تحقيقا لهذه الغاية الى لجنة من ثلاثة
مطارنة بوضع بيان لاهوتي جديد عرف في التاريخ باسم «مذهب الطبيعة
الواحدة» . ويبدو أن هذا البيان كان محاولة للتوفيق بين المذهبين
الأرثوذكسي واليعقوبي .

وأراد هرقل اقناع نصارى مصر بقبول العقيدة الجديدة فاختار
سيروس مطران فاسنيس في القفقاس ويسميه العرب المقوقس لتنفيذ هذه
الغاية وانتدبه في الوقت نفسه بطريقا لالاسكندرية وحاكما له في مصر .
ولكن تعيين المقوقس لهذا المنصب أثار ردا معاكسا فبدلا من أن يوحى
بالثقة ، دفع بنيامين بطريق الاقباط الى الفرار من قصر البطريركية واللجوء
الى الصحراء للاختفاء فيها اذ كان الصراع بين الكنيستين الأرثوذكسية
واليعقوبية من القوة والجنود التاريخية بحيث استحال على مرسوم
امبراطوري أن يحله في غمضة عين . ولقد رفض اليعاقبة المذهب الجديد
الذي وضعه الامبراطور دون أن يدرسوه أو يتفهموه على الغالب . وكان

فى امكانهم مع مرور الزمن أن يكسبوا نتيجة الصراع، لو استجابوا لدعوة الامبراطور ، اذ ان الكثيرين من الناس رأوا فى المذهب الجديد تسليما الى حد كبير بمذهب اليعاقبة القائم على وحدة الطبيعة بين الاب والابن . لكن الاقباط لم يكونوا على استعداد للاصغاء والتفاهم ، وكان المقوقس فى الوقت نفسه على أهبة لاستخدام القوة . وبدلا من أن يترىث ويرقب آثار المذهب الجديد وخلص الناس من صدمة المفاجأة شرع يضطهد جميع الذين يخالفونه اضطهادا شديدا ، واتخذ فى عام ٦٣٢ ، وهو العام الذى انتقل فيه النبى الى الرفيق الاعلى فى المدينة اجراءات عنيفة صارمة مع جميع الهرطقة والمخالفين فى مصر . فقد ألقى القبض على ميناس شقيق بنيامين بطريق الاقباط ، وراح يشعل النار بالمشاعل فى أنحاء متفرقة من جسمه أمام الناس بعد أن اقتلع أسنانه ، وأمر بوضعه بعد ذلك فى كيس مليء بالرمل وأن يقذف بالكيس فى البحر وكان قد عرض عليه النجاة من الموت ثلاث مرات اذا أقر بالمذهب الارثوذكسى ، فلما رفض فى المرات الثلاث الاستجابة الى العرض أمر بقذفه فى البحر .

وأوفد المقوقس جماعات من الجند الى اديرة الاقباط وكنائسهم ليطلبوا من القسس والرهبان تواجيعهم على الولاء للمذهب الارثوذكسى وليجلبوا بالسياط ثم يحبسوا كل من يرفض التوقيع منهم . وقد أذعن الكثيرون للبطش ولكن عددا كبيرا من الرهبان رفض الاذعان وفر من الاديرة بينما واصل البعض الثالث عبادته على الطريقة اليعقوبية سرا تهربا من الاضطهاد . وجدير بنا أن نقول ان عمليات الاضطهاد هذه أدت ككل عمليات مشابهة لها الى تعزيز الكنيسة القبطية وتقويتها ، كما أدت الى قطع آخر خيط من خيوط الولاء السياسى والخب عند مسيحي مصر لدولة الروم فى بيزنطة .

تذكر الروايات أن عمر بن الخطاب ، بحث مع عمرو بن العاص ، عند مجيئه الى القدس لتسلم المدينة ، امكان المقيام بغزو مصر . وكان عمرو بن العاص قد مضى الى قيسارية وهى المدينة الوحيدة فى فلسطين التى ما فتئت صامدة أمام العرب لحصارها . ويرجع السبب فى صمود قيسارية هذه المدة الطويلة ومقاومتها الى وجود القوات البيزنطية فى مصر اذ أن الاسكندرية كانت القاعدة البحرية الوحيدة التى كان فى وسع الروم أن يستخدموها لتموين المحاصرين فى قيسارية بطريق البحر . وقد تم انزال الروم فى انطاكية أيضا واعادة احتلالها لدعم ثورة القبائل النصرانية

في الجزيرة بقوات برية وبحرية جاءت من الاسكندرية . وكان عمرو بن العاص يرى وهو محق في رأيه أن سواحل سورية وفلسطين ، لن تكون في مأمن أبدا مادام الاسطول البيزنطي معتمدا على قواعده في مصر .

وقد سبق لنا ان رأينا الخليفة دائم الميل الى الحذر والتروى ، وكان أشد ما يخشاه هو أن يمضى أحد جيوشه في القتال بعيدا بحيث يتعرض لخطر الانقطاع . وكان قد حال بين سعد بن أبي وقاص وبين اجتياز جبال زاغروس ، وأصر على أن تكون قاعدته العسكرية الرئيسية في الكوفة على أكتاف الصحراء ، وقد ازداد حدة عندما قام عامله في البحرين بدون إذن منه بالإبحار عبر الخليج والنزول بقواته في إمارة فارس في جنوب إيران . وقد انعزلت القوات عن المراكب التي حملتها وكادت تمنى بكارثة لولا أن جاءت النجدة عن طريق رتل برى أرسل الى البصرة على جناح السرعة . وكانت نتيجة هذه الغزوة ان عمر بن الخطاب تردد طويلا في قبول القيام بحملة جديدة على مصر (١) .

كانت المشكلة التي واجهها عمر اليوم من المشاكل التي طالما واجهتها عبر التاريخ جميع الدول المتوسعة الجديدة . فعندما تحتل دولة تنشأ

(١) تختلف رواية المؤلف بمضى الاختلاف من روايات المؤرخين العرب ، إذ تقول هذه ان العلاء بن الحضرمي كان أميرا على البحرين لسمر ، وكان العلاء يبارى سعد بن أبي وقاص ، فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفصل ، فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاسرة وأخذ حدود ما يلي السوداء ، سر العلاء أن يصنع شيئا في الأعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لسعد ، فشدب أهل البحرين الى فارس فتمسروا الى ذلك وفرقهم أجنادا فحملهم في البحر بغير إذن عمر . وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازيا . غير هؤلاء الجنود البحر فخرجوا في اصطخر ، وبأزالهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقالوا أهل فارس مقاتلة المستमित فظفروا ، ثم ساروا يريدون البصرة لانه قد حيل بينهم وبين الرجوع الى البحرين فوجدوا شهرک الفارسي . قد أخذ عليهم الطرق فتمسكوا في موقعهم وامتنعوا .

وبلغ خبر ذلك عمر ، فاشتد غضبه على العلاء وأرسل اليه يمزله وأمره بالقتل الأثيأ عليه وهو تأمر سعد عليه وقال له : الحق بسعد فبمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد . وكتب عمر الى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسر جندا لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسر فأجابه جمع من أهل النجدة فخرجوا في اثني عشر ألفا وعليهم أبو هبرة بن أبي رهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد في طريقه حتى وافوا شهرک وهو أخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه وخلصوا أخوانهم وهذه هي الغزوة التي شرفت بها ثابتة البصرة ثم اكتشفوا بما أصابوه وذهب أهل البحرين حائدين الى بلادهم من طريق البصرة .

— العرب —

التوسع في بلاد جديدة يهب قادتها العسكريون فينادون بأن سلامة البلاد المحتلة تظل مهددة من البلاد الأخرى التي تقوم ورامها ويتردد الساسة في القيام بالتزامات جديدة . وتقوم آن ذاك البلاد المجاورة بنوع غير مجد من الأعمال الهجومية وتغدو حركة الزحف إلى الامام من الدولة الاستعمارية أمراً حتمياً . ولو عدنا سبعمائة سنة إلى الوراء لرأينا زحف الجمهورية الرومانية على سورية ومصر ثم بالطريقة المترددة نفسها .

وما زلنا في جهل بالترتيب النهائي الذي تم بين الخليفة وبين عمرو بن العاص . ويقول بعض المؤرخين : انهما بعد اجتماعهما في القدس عادا إلى الاجتماع ثانية في الجابية فأعلن الخليفة موافقته لقائده على خطته .

وتقول بعض الروايات الأخرى : ان الخليفة عاد إلى المدينة حيث استشار كبار الصحابة أمثال علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ، وان الزبير أيد فكرة الهجوم على مصر تأييداً شديداً ، مما أدى إلى إرسال كتاب إلى عمرو بن العاص يأمره فيه الخليفة بالشخص إلى مصر والقيام بالعملية . ويقول البلاذري من الناحية الأخرى ، أن عمراً مضى إلى مصر من تلقاء نفسه ودون إذن من الخليفة فغضب عمر لذلك ، ولكنه يضيف إلى ذلك ما جرت عليه عادة المؤرخين العرب عندما تواجههم مشكلة من هذا النوع لا يستطيعون البت فيها «قيل والله أعلم» (١) .

ومهما كانت تفاصيل هذه الاتصالات فان الحقائق الأساسية تبدو واضحة كل الوضوح . وأول هذه الحقائق أن عمرو بن العاص كان في لهفة زائدة للحصول على أمر عمر بغزو مصر . على حين كان الخليفة عمر ابن الخطاب كثير التردد في القيام بهذا المشروع وكان عازفاً عن توفير عدد كاف من الرجال للقيام بالحملة مخافة أن يحاول الروم استرجاع سورية .

(١) كتب البلاذري يقول : وكان عمرو بن العاص قد حاصر قيسارية بعد انصراف الناس من حرب اليموك ، ثم استخلف عليها ابنه حين ولى يزيد بن أبي سفيان ومضي إلى مصر من تلقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمسمائة فغضب عمر لذلك وكتب إليه يوبخه وينتفه على اغتياله عليه براه وأمره بالرجوع إلى موضعه ان وافاه كتابه دون مصر . فورد الكتاب عليه وهو بالمرش .

وقيل أيضاً : ان عمر كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بالشخص إلى مصر فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية وكان الذي أتاه شريك بن عبد الله فأنطاه ألف دينار فأبى شريك قبولها فسأله ان يستتر ذلك ولا يخبر به عمر . - العرب -

كما كان يخشى فشل المشروع ، اذا مضى عمرو بن العاص على رأس قوة غير كافية .

ومشى عمرو مع الساحل على رأس قوة قوامها ٣٥٠٠ رجل ، فمر في السهل الساحلى عند غزة . ثم وصل الى رفح حيث تلقى رستالة عاجله بعث بها اليه الخليفة من المدينة . وتقول الروايات : ان عمرا شك في مضمون الرسالة فلم يشأ أن يفتحها حتى اليوم التالى أى بعد أن وصل الى العريش وعندما فضاها وجد ان الخليفة يأمره بالعدول عن العملية اذا تسلم رسالته قبل الوصول الى مصر . أما اذا تسلمها بعد وصوله فعليه أن يمضى قدما فى طريقه . وراح عمرو يسأل صاحبه بكل براعة وبساطة أفلا يزال فى فلسطين . أو أنه دخل أرض مصر ؟ وعندما رد عليه الرفاق بأنه أصبح فى مصر أمرهم بمواصلة الزحف . وفى وسعنا أن نفترض انه اذا صحت هذه الرواية فإن عمرا ولا شك قد علم بمحتوياتها من قبل أو أن الرسول الذى حملها ، قد نقل اليه محتوياتها شفويا .

وتشاه المصادفة الطبيعية السعيدة أن تيسر لنا سبيل الحصول على الموعد الدقيق الذى عبر فيه عمرو الحدود المصرية . فلقد روى لنا المؤرخون أن القوة العربية احتفلت بعيد الاضحى فى العاشر من ذى الحجة سنة ثمانى عشرة هجرية وهو تاريخ يطابق الثانى عشر من ديسمبر (كانون الأول) عام ٦٣٩ فى بلدة العريش .

وتابع عمرو من العريش سيره على رأس قوته الصغيرة على الطريق القديمة التى تمر عليها القوافل منذ أقدم عصور التاريخ من فلسطين الى مصر والتى تسير بحداتها الآن السكة الحديدية بين البلدين . وهى تنحرف من العريش مسافة قصيرة نحو الداخل ولكنها لا تلبث أن تسير فى خط مواز لساحل البحر حتى مدينة «بيلوسيوم» التى يسميها العرب الفرها، وحيث تمتد قناة الفرماوية من النيل لتصل الى البحر المتوسط . وليس ثمة من شك فى أن ابراهيم الخليل قد سار على هذه الطريق نفسها عندما ارتحل الى مصر كما سار عليها أيضا التجار العرب الذين حملوا معهم يوسف الفتى الى مصر ، وقد سجلت هذه الطريق مرور جيوش عدد ضخم من الفراعنة وهى تسير فى طريقها الى الشمال للقيام بحملاتها الحربية كما سار عليها ملوك بابل وآشور وقمبيز ملك الفرس ، والاسكندر المقدونى وبومبي الرومانى لفتح مصر . وكانت جيوش كسرى أبرويز قد طرقتها قبل سنوات قليلة فى زحفها على وادى النيل . ولكن جميع هذه الجيوش التى مرت على الطريق منذ القدم والتى قادها كبار الملوك

والفاتحين كانت ضخمة عظيمة اذا ما قورنت بهذه القوة الصغيرة التي يقودها عمرو بن العاص . والتي تضم ثلاثة آلاف وخمسمائة من البدو الحفاة العراة على جيادهم العجفاء وجسماتهم الهزيلة . ولا ريب في أنهم كانوا يستحقون اللقب الذي أطلق عليهم وهو جرذان الصحراء (١) .

وكانت الفرما مدينة محصنة منيعة . وتسيطر على الطريق الرئيسي الممتد الى مصر . وقرر عمرو ضرورة الاستيلاء على المدينة رغبة منه ولاريد في الابقاء على مواصلاته مفتوحة مع الجزيرة العربية التي يأمل في وصول النجيدات منها . وكان الفرس قد استولوا عليها قبل بضع سنوات دون حشقة وعناء ، ولكن العرب نظرا لافتقارهم المعهود للفن في حرب الحصار ، وللمعدات الثقيلة اللازمة لها عجزوا عن احتلالها . وقد ظلوا يحاصرون المدينة أكثر من شهر واحد الى أن تمكنوا ذات يوم اثر اندفاع فاشل قامت به حامية المدينة من دخول المدينة من أحد الابواب مع الجنود المتراجعين من حمايتها . وقد أشعلت النيران في البواخر الراسية في الميناء كما هدمت الكنائس وجردت المواقع الدفاعية من جميع وسائل الدفاع .

ويبدو أن عمرو بن العاص ، وقد وجد نفسه مفتقرا الى الجنود ليتولوا حماية المدينة بعد خروجه منها زاحفا الى داخل مصر خشى أن يعود الروم الى احتلالها . فأراد أن يحرمهم الانتفاع منها كقلعة حصينة . واستأنف العرب زحفهم منها في يناير (كانون الثاني) عام ٦٤٠ . وأتبع العرب خطتهم السوقية المعهودة فساروا على أكتاف الصحراء باتجاه الجنوب الغربي ومشوا على الحد الفاصل بين الاراضي الصحراوية والاراضي المروية . ولم تكن قناة السويس بالطبع موجودة في تلك الأيام ولذا كانت الصحراء تمتد عبر منطقة القناة الحالية حتى تصل أرض الدلتا التي تزويها مياه النيل . وهر العرب على مقربة من المكان الذي تقوم عليه الآن بلدة التل الكبير فوصلوا الى بلبيس حيث اشتبكوا في معركة ناجحة مع

(١) اذا كان القصد من هذا الاسم الذي يستخدمه المؤلف الاستهانة بالقوات العربية فهو قول سخيف إذ لا يمكن أن يطلق على أولئك الذين دوخوا العالم بانتصاراتهم المدهلة والذين تمكنوا في سنوات قصيرة من القضاء على أعظم امبراطوريتين في العالم في تلك الأيام . اما اذا كانت نية المؤلف حسنة وهو استخدام هذا التشبيه للتعبير عن جلدتهم على المكاره واحتمالهم لمشقات الصحراء كما يستدل على ذلك من الاسم الذي أطلقه الانجليز على جيش مونتجومري « جرذان الصحراء » في الحرب الكونية الثانية . فإن هذا التشبيه يصبح مستساغا معنى ، وان لم يستخ لفظا .

قوة من الروم يقودها ارطيون ، الذى كان فيمسا سلف حاكما عسكريه لمدينة القدس . ولكن الزحف تعطل شهرا آخر قضاه العرب فى احتلال بلبيس . وكان المقوقس بطريق مصر الروماني وحاكمها قد وصل الى ميدان القتال مستصحباً معه تيودور القائد العام للقوات البيزنطية فى مصر حيث تحصنا فى قلعة بابل أو حصن بابليون أو ما يسميها العرب باب اليونة .

وقد يكون من المدهش أن نعث على اسم بابل فى مصر . ويزعم بعض المؤرخين أن نبوخذ نصر ملك الكلدانيين الذى غزا مصر فى عام ٥٦٧ قبل الميلاد ، هو الذى أطلق على القلعة هذا الاسم . ويقول ديودوروس صيقلوس (١) : أن بعض الاسرى من البابلين الذين حملهم الى مصر سيزوستريس (٢) صاحب الانتصارات الاسطورية هم الذين أطلقوا اسم موطنهم الاصلى ، على المكان الذى عاشوا فيه حياة النفي والاغتراب .

أما جوزيفوس (٣) فقد ذكر أن «قمبيز» ملك الفرس الذى احتل مصر فى عام ٥٢٥ قبل الميلاد ، هو الذى بنى هذه القلعة . والمعتقد أن الامبراطور الروماني تراجان هو الذى بنى الحصن الذى كان قائما فى عام ٦٤٠ ميلادية أى عند الفتح العربى وذلك فى عام مائة بعد الميلاد . ولعل الحقيقة هى أن كل فاتح من الفاتحين الذين غزوا مصر ، قد أقام فى هذا الموقع السوقى الهام قلعة وحصنا . وضع فيهما حامية ترابط لحماية البلاد .

وأدى وجود اسم بابل فى مصر الى وقوع المؤرخين العرب فى خطأ غريب : فكلمة باب فى العربية تعنى « البوابة » ومن هنا كانت بابليون تعنى

(١) ديودوروس صيقلوس Giodorus Siculus مؤرخ اغريقى ولد فى صقلية وعاش فى أيام قيصر واسطس اى فى القرن الاول قبل الميلاد وقد وضع نصب عينيه أن يكتب تاريخا لام العالم كلها منذ أقدم عصور التاريخ حتى العهد الذى عاش فيه . ويتألف كتابه من اوبمين مجلدا فى ثلاثة اقسام يتناول الاول منها الايام التى سبقت حروب طروادة وينتهى الثانى بموت الاسكندر المقدونى والثالث بحروب قيصر فى بلاد البغال ولا يعتبر كتابه حجة تاريخية لأنه ملئ بالأخطاء .

(٢) الاسم الاغريقى لثلاثة من الفرائنة يحملون اسم سنوسرت ، ويتتمون الى أسرة أمنمحات ، من أسر طيبة المالكة . وقد عاشوا فى القرنين الخامس والعشرين والرابع والعشرين قبل الميلاد . ويرجع الفضل الى الثالث منهم فى حفر قناة بين البحر الاحمر ونهر النيل كان لها فائدة كبيرة فى نقل الحاصلات الزراعية والتجارية .

(٣) جوزيفوس فلافيوس (من ٣٧ الى ١٠٠ بعد الميلاد) مؤرخ عبرانى مشهور وقائد عسكري عمل نائبا للامبراطور نيرون فى فلسطين ثم منحه الرومية الرومانية وحمل اسم فلافيوس . أهم كتبه تاريخ الحروب فى فلسطين .

— العرب —

عندهم « باب اليون » أو باب اليونة وعندما يقرأ المرء أن العرب هاجموا باب اليونة يقع تحت الانطباع بأنهم هاجموا باب مدينة أو قلعة تدعى اليونة ومن هنا أطلق العرب على بابل المصرية اسم اليونة .

وتستمد بابل أهميتها من أوضاع مناسخ الجغرافية : فالأمطار في البلاد نادرة ولا تكاد تذكر ومن هنا فإن المنطقة كلها تغدو صحراوية ، لكن النيل العظيم الذي يحمل كميات ضخمة من الماء والغرين من أواسط إفريقيا شق له قناة عبر هذه الصحراء ليصل منها إلى البحر المتوسط . وتكون القناة التي شقها النهر في القسم الأكبر من مسيره أي في الوجه القبلي أخدودا ضيقا وسط الصحراء ، ولكنه عندما يصل إلى هذه النقطة ينقسم إلى عدة فروع تتسلسل فوق المنطقة المنبسطة لتصل إلى البحر . ويكون مثلث الدلتا الناشئ عن هذه الحقيقة متساوي الاضلاع طول ضلعه تقريبا ١٢٠ ميلا . وتفيض مياه النيل في كل عام فتغمر الأرض التي يضمها هذا المثلث عدة شهور . وعندما تنحسر مياه الفيضان تظل المنطقة كلها صعبة العبور حتى على المشاة نظرا لوجود عدة فروع من النيل تقطعها طولاً وعرضا بالإضافة إلى ما لا عد له من اقنية الري وترعه .

لكن أطراف الصحراء تصل في الوقت نفسه إلى حدود المنطقة الزراعية للزجة . ولا ينتقل المرء هنا بصورة متدرجة من الأراضي الزراعية إلى الأراضي الصحراوية كما هو المألوف عادة عبر أراضي المرامي المملوءة بالأعشاب والشجيرات الشوكية : فهناك خط واضح يفصل بين الصحراء والمنطقة المزروعة بحيث يستطيع المرء أن ينتقل بوثبة واحدة من الصحراء الرملية الجافة إلى الأرض الغرينية الناعمة المنبتة .

وبابل على نهر النيل عند رأس المثلث وتستطيع الجيوش أن تمضي منها على الأرض الصحراوية الصلبة إلى الاسكندرية أو إلى الفرما بأقصى سرعة ممكنة ودون أن تجد في طريقها ما يعوقها من اقنية الري ومياه الفيضان .

وقد أطلق اسم «بابل» على القلعة التي تؤوي الحامية المكلفة بالدفاع عن هذه المنطقة السوقية الهامة . وكانت مدينة ممفيس القديمة تقوم منذ القدم إلى الشمال من هذه القلعة على الضفة النيل الغربية . وكانت هذه المدينة لاتزال قائمة في عام ٦٤٠ ، وإن ضاقت مساحتها وتهدمت معظم أبنيتها . أما إلى الضفة الشرقية وعلى مقربة من حصن بابليون

فتقوم مدينة مصر الحديثة وتضم القاهرة المعاصرة الآن جميع هذه المواقع القديمة .

وكان من المحال أن يتمكن عمرو بن العاص بقوته الصغيرة ، وبافتقاره إلى معدات حروب الحصار من محاصرة حصن بابلليون والاستيلاء عليه ، ويبدو أنه ظل يشتبك في خارج القلعة مع الروم عدة أسابيع دون أن يحقق أى نجاح ، ولكن يبدو أنه استطاع أخيرا أن يحتل مركزا أماميا إلى الشمال من الحصن يسمى أم دنيان وكان يؤلف ميناء مدينة مصر على النيل .

وأصبح عمرو الآن في وضع شاق عسير ، وكان قد بعث إلى الخليفة في المدينة يطلب إليه سرعة انجاده ولكنه لم يتلق ردا ، وكانت روح رجاله المعنوية التواقين إلى المغامرة والغنائم في خطر من الهبوط والانحيار إذا ظل جامدا لا يقوم بأى عمل ، ولكنه لا يجد أمامه هدفا صالحا في متناول يديه يستطيع أن يهاجمه وأن يحقق النجاح في مهاجمته .

ومنطقة الفيوم الخصبة على بعد خمسين ميلا إلى الجنوب من جابل وعلى بعد قريب من ضفة النيل الغربية ؛ وكان عمرو عند استيلائه على أم دنيان قد وضع يده على بعض السفن والزوارق ، وبادر فحمل رجاله على ظهرها ومضى صاعدا مع النيل فمر بخرائب ممفيس القديمة متجها إلى الجنوب ، وكانت هذه المفامرة من الناحية السوقية خطرة بعض الخطورة ، إذ لو وصلت النجدات من الحجاز فأنها ستكون على ضفة النيل الشرقية على حين تكون قوة عمرو على الضفة الغربية وبينهما حامية الروم في حصن بابلليون ، ولو بادر القائد الروماني تيودور إلى الهجوم فانه يستطيع أن ينتصر على كل من القوتين العربيتين على انفراد ، لكن العرب كانوا من الناحية الأخرى ، في وضع قوى طبعاً إذ أن في وسعهم أن ينسحبوا إلى الصحراء وأن يتجنبوا خوض معركة حاسمة مع الروم . ومع ذلك فلقد أخطأ عمرو في أن يجعل النيل بينه وبين الجزيرة العربية إذ أنه لم يكن على أية حال واثقا من أن يستطيع ثانية العثور على زوارق يستطيع بها عبور النهر من جديد .

على أية حال سار عمرو جنوبا ، ولكنه وجد الفيوم قوية الحصون منيعة الدفاع وتمكن من سوق عدد من قطعان الماشية أمامه ، ولعل نقص المواد الغذائية في جيشه ، كان من أهم أسباب هذه الغارة التي قام بها . واحتل العرب على أية حال بلدة صغيرة في منطقة الفيوم عنوة وذبحوا

كل من فيها من السكان (١) وخرج يوحنا قائد جيش الروم في الفيوم في غضون ذلك على رأس خمسين من رجاله للقيام بعملية استطلاع شخصية لقوات العرب . وتلقى عمرو نبأ وجوده فاستدار اليه على عجل وأفلح في تطويقه مع رجاله وقضى عليهم جميعا . وسرعان ما وصلت اليه الانباء بأن نجدات الخليفة قد وصلت . فاستدار شمالا وبسرعة عظيمة ليلتقي بها وكان ذلك في مطلع يونيو (حزيران) عام ٦٤٠ .

وكان عمر بن الخطاب قد بعث بقوة قوامها اثنا عشر ألف رجل لنجدة غزاة مصر ، وقد وصلت هذه القوة الى موقع هليوبوليس (مصر الجديدة) في السادس من يونيو عام ٦٤٠ بقيادة الزبير بن العوام أحد كبار صحابة الرسول وزعماء قريش . وكان الزبير أحد أفراد الحلقة الداخلية من المستشارين الذين عملوا بعد وفاة النبي مع أبي بكر وعمر . أما أفراد بقية رجال هذه الحلقة فهم على بن ابي طالب صهر النبي وابن عمه وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وقد قدر لهم أن يؤديوا أدوار بارزة وبعضها مشثوم في التاريخ العربي .

ونشأ الآن وضع هو ماتوقعه عمرو بن العاص ، عندما عبر نهر النيل ، فلقد تمكن تيودور من تحشد جيش ضخم في حصن بابليون والى الشمال من هذا الحصن ، وقف الزبير بن العوام على رأس اثني عشر ألفا من العرب . وعلى الضفة الاخرى من النهر ، وقف عمرو بن العاص . وكانت الفرصة ذهبية أمام تيودور لتحطيم جيش الزبير قبل أن ينضم اليه عمرو . ولكن هذا القائد الروماني ظل دون حراك قابعا في قلعته الى أن تمكن عمرو من عبور النهر والانضمام الى الزبير في هليوبوليس .

وعندما حل العرب بهذه المدينة القديمة المشهورة بمدينة الشمس كانت عظمتها التليدة قد اختفت في زوايا النسيان . وكانت تقوم على أرض مرتفعة بعض الارتفاع ويفصلها عن قلعة بابل سهل مفتوح عرضه ستة أميال أو سبعة يقوم على ضفة النيل الشرقية . وعندما وقف العرب في هليوبوليس يواجهون جيش الروم في حصن بابليون كانوا يضعون الصحراء المفتوحة وراء أظهرهم فيحسون بالاطمئنان . لأن الصحراء كانت دائما صديقتهم الوفية .

وبلغ تعداد جيش المسلمين الآن نحو من خمسة عشر ألفا بينهم

(١) لم أجد أى تأكيد لهذه الرواية التى جاء بها المؤلف في أى من كتب التاريخ العربى المشهورة .
(العربية)

حدد من صحابة الرسول ، وفدوا من المدينة في جيش الزبير للاسهام في مثل هذه الحرب الجيدة المقدسة ومعهم عبد الله الولد الاكبر للخليفة عمر ، وكانت القوة الاساسية التي جاءت مع عمرو لغزو مصر منذ البداية من فلسطين مؤلفة من البدو على الغالب . ومعظم رجالها من القبائل المقيمة فيما يسمى الآن بسيناء وجنوبى الاردن .

ومن العسير علينا أن نعرف على وجه الدقة عدد جيش الروم ولكن الغالب على الاعتقاد أنه كان أوفر عددا من جيش العرب . لكن روح الروم المعنوية كانت في الحضيض على أية حال ، اذ حطمتها الانباء التي وصلتهم عن بسالة العرب الذين هزموا جيوش امبراطوريتى بيزنطة وفارس .

وفي منتصف يوليو عام ٦٤٠ قرر تيودور الذى فاتته فرصة مهاجمة جيش العرب كل على حدة أن يهاجمهما الآن بعد أن توحدتا . والتأم شملهما وسرعان ماخرج من قلعتيه وجازا السهل ليهاجم هليوبوليس . وكان عمرو بن العاص في غضون ذلك قد رتب صفوفه وأمددها للقتال بعد أن بعث بفصيلتين تحت جنح الدجى تمكن من أولاهما من احتلال موقع بصورة خفية يقوم محل قلعة القاهرة الراهنة ، وتمكنت الأخرى من احتلال موقع مماثل عند الازبكية الحالية ، وفي الصباح الباكر خرج جيش الروم من البساتين والحدائق التى الى الشمال الشرقى من الحصن ، وأخذ يزحف عبر الصحراء المكشوفة ، وخرج العرب فى الوقت نفسه من هليوبوليس للقاء عدوهم على حين كانت فصيلتا عمرو ، قد رابطتا خفية في مراكزهما الجناحية دون أن يحس الروم بهما .

والتقى الجيشان وسرعان ماوقع تلاحم عنيف بالأيدي ، وفجأة ظهر الكمين الشرقى العربى وهاجم أفراد مؤخرة الروم ، ووجد هؤلاء أنفسهم وقد هاجمهم المدسة والمؤخرة فدبت الفوضى في صفوفهم ، واخذوا يتجهون نحو العرب ليشكلوا جبهة جديدة ضد القوتين المهاجمتين وسرعان ما ظهر الكمين الغربى وتدفق رجاله فى هجوم عنيف على الجناح البيزنطى الأيسر ، وهنا دب الذعر فى صفوف جيش الروم كله ، وانتشرت الفوضى وراح البعض ينشد الامان فى قلب القلعة فرارا من القتل الذى كان نصيب الكثيرين منهم على أيدي المسلمين المنتشرين بنشوة النصر ، وتمكن تيودور نفسه من الإفلات والنجاة بجلده .

وانسحبت فلول جيش الروم الى داخل الحصن واغلقت أبوابه عليها وان كانت مدينة مصر قد استسلمت للعرب دون قيد أو شرط ،

ولما كان الميدان قد خلا الآن من أى جيش معاد فقد تمكن المسلمون من أن يحرقوا الأرض وأن يجمعوا المؤن ويكسوا الغنائم . وقد تخلت القوات الرومانية التى كانت قد دافعت بنجاح عن الفيوم قبل مدة قصيرة أمام قوات عمرو بن العاص عن المنطقة كلها ، وأستقلت المراكب النيلية فمرت بحصن بابليون ولجأت الى بلدة نيكويه (زواية راسين) التى على بعد خمسة وأربعين ميلا الى الشمال من القلعة . وبعث عمرو على الفور بقوة احتلت الفيوم عنوة وقتلت أهلها وهكذا خضعت المنطقة بكاملها للعرب دون مقاومة .

والى الشمال احتل العرب مدينتى منوف وتيس اللتين على بعد خمسة وثلاثين ميلا الى الشمال من بابل . وواصل عمرو السير فى سياسة الغلظة والشدّة مع أهل مصر اما استجابة لطبيعته الشخصية الشرسة والمتفطرة أو تطبيقا لسياسة اختطها لنفسه ، وهى أن يزيد من العنف لينشر الدرع فى قلوب الناس ويحول دون أية مقاومة جديدة (١) وهكذا بعد أن تم للعرب اخضاع مقاطعة مصر التى فى رأس الدلتا بالإضافة الى مقاطعة الفيوم غدوا الآن فى مركز قوى أمن لهم ماهم فى حاجة اليه من المؤن عن طريق هاتين المقاطعتين الفنيتين . لكن شهر أغسطس (آب) قد حل الآن وأخذ النيل فى الارتفاع معرضا جزءا كبيرا من الدلتا لخطر الفيضان مما يؤدى الى انتشار المياه والحيلولة دون أية عمليات عسكرية وقرر عمرو أن يحتل قلعة بابل قبل المضى فى فتوحه الى مناطق جديدة .



تتألف هذه القلعة العظيمة من أسوار رباعية الاضلاع غير منتظمة ، سمكها نحو من ثمانى أقدام وارتفاعها نحو من ستين قدما مبنية من طبقات متتالية من الحجر والحجارة . وهناك برجان عاليان يرتفعان فوق الاسوار . ويبلغ طول البرج نحو من ألف قدم وعرضه خمسمائة عند أحد طرفيه ليضيق الى ثلثمائة قدم عند الطرف الآخر . وتصطفق مياه النيل مع أحد جوانب هذا السور . ويقوم الى جانب الباب الجنوبى ميناء صغير للقوارب النهرية عند أسفل السور ويحيط بالقلعة كلها خندق تفره مياه النيل . وأمام القلعة الرئيسية جزيرة الروضة فى وسط النهر وفى هذه الجزيرة تحصينات دفاعية وحامية قوية من الروم . وكان

(١) لم يسلك عمرو مسلك الشدة مع الاقباط او المصريين بل انه كان على النقيض
 من الذين امانوه ، وساعدوه على الفتح كرها منهم للرومان . - العرب -

فى وسع هاتين القلعتين أن تحتفظا بخطوط المواصلات النهرية بينهما -
 وكان احتلال مثل هذه القلعة أمرا شاقا على المسلمين الذين عانوا
 مشقة كبيرة حتى فى احتلال بلدة لا حصون فيها كالفرما . ووجد المقوقس
 حاكم مصر ، الذى يعرفه الغربيون باسم البطريق سيروس ، نفسه محاصرا
 فى القلعة . وكانت الحامية تضم نحو من خمسة آلاف أو ستة آلاف
 جندى على حين تضم القلعة كميات كبيرة من المؤن ومخازن السلاح .
 ويبدو أن الحصار قد بدأ فى مطلع شهر سبتمبر (ايلول) عام ٦٤٠ .

ولارىب فى أن المقوقس نفسه كان مسئولاً عن ضعف مصر وعجزها
 عن مواجهة الغزو العربى : فلقد سبق لنا أن بينا أن غالبية أهل مصر كانوا
 ينتمون الى الكنيسة القبطية وكانوا لنحو من عشر سنوات ضحايا
 الاضطهاد الدينى الذى لا يعرف الرحمة ، وهكذا عندما حلت الساعة
 الحرجة وجد الاغريق البيزنطيون وعدد قليل نسبيا من المصريين الذين
 يدينون بالارثوذكسية أنفسهم المدافعين الوحيديين الاوفياء عن البلاد ،
 اما الاقباط فكانوا يؤلفون مجتمعا تابعا لامفاصل بارزة فيه . ومن
 الصحيح ان يقال ان صمودهم أمام اضطهاد المقوقس كان يحتم عليهم
 ان يتمسكوا بدينهم تمسكا جديا ، ويعنى هذا التمسك عدم ترحيبهم
 بالمسلمين ، ولكنهم لم يكونوا يداقعون دفعا جديا مستتبلا عن بلادهم .
 فلقد راوا انهم كانوا حتى ذلك التاريخ ضحايا اضطهاد البيزنطيين .
 واذا قدر للعرب ان يكسبوا فانهم سيصبحون اتباعا للمسلمين ، ومن هنا
 تقوم الحقيقة الواقعة وهى أنهم سيظلون عبيدا تابعين مهما كانت نتيجة
 المعركة . ومن المحتمل ان يكونوا قد عرفوا على أية حال أن العرب فى
 سورية أباحوا للمسيحيين حرية العبادة وان كانوا يرغمونهم على دفع
 الجزية ، ومن هنا كانوا يرون فى المسلمين وضعاً أفضل من وضعهم فى
 ظل المقوقس .

وكان فى مكنة حصن بابليون أن يصمد شهورا عدة ، ولكن المقوقس
 كما يبدو كان يدرك ما يحس به أهل البلاد من كراهية لحكمه ونظامه (١)
 ومن المحتمل أنه كان يدرك أيضا أن لا أمل له فى نجدة من بيزنطة . وهكذا
 فاننا نرى المقوقس ينتقل فى مستهل أكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٤٠ م.
 بعد انقضاء شهر على الحصار ، عن طريق النهر الى جزيرة الروضة ،
 حيث أوفد منها بعثة للتفاوض مع عمرو بن العاص . وقد جرت

(١) هكذا تأكيد لما قلناه من قبل .

المفاوضات في الجزيرة بطريقة سرية ويبدو أن الغاية من اخفائها كانت
«الابقاء على الروح المعنوية عند حامية القلعة» .

ووصل رسل المقوقس الى عمرو بن العاص ونقلوا رسالتهم .
وبعد ان اعترف الرسل بأن العرب قد حققوا بعض الانتصارات أخذوا
يؤكدون لعمرو ان ليس في وسعه ان يصمد طويلا أمام سلطان الروم ،
واقترحوا عليه الانسحاب من أراضى مصر مقابل مبلغ من المال
يدفع اليه فورا ، فرد عمرو بأن عرض عليهم اختيار أحد السبل الثلاث
التي استنها العرب بالنسبة الى البلاد التي يحتلونها وهي : اما قبول
الاسلام والمساواة في الوضع مع الفاتحين ، او دفع الجزية وقبول مركز
التبعية ، او المضي في القتال حتى الوصول الى نتيجة حاسمة .

وعلى الرغم من أن المقوقس لم يكن على استعداد لقبول أى من
هذه الشروط الثلاثة فانه وجد من الافضل له المضي في المفاوضات
ومتابعها ، فعرض على عمرو أن يبعث اليه بوفد من لدنه الى الروضة .
ولعل من الجدير بنا أن نذكر هنا ان الوفد الاسلامي الذي وصل الى
الروضة وكان بزعامة عبد يدعى عبادة بن الصامت أخذ يوجه حديثه الى
المقوقس قائلا له : ان المسلمين لا يحاربون الا في سبيل الله وفي سبيل
تحقيق مشيئته وانهم لا يابھون بالمال قيد شعرة مؤكدا له ان الحياة
الدنيا زائلة وان البقاء لله .

ويبدو أن المقوقس لم يتأثر مطلقا بحماسة المسلمين وجددهم في
حديثهم ولا باستهانتهم بالدنيا الفانية واستعدادهم للاستشهاد للوصول
مبكرين الى فراديس النعيم ، فراح يهمس في أذن أحد أصحابه قائلا :
كل ما أخشاه هو ان يكون الله قد بعث بهؤلاء الناس لدمار العالم ! ورد
المقوقس على قول عبادة فاعترف بأن فشل الروم ناتج عن كثرة تعلقهم
بشئون الحياة الدنيا ، ولكنهم يجمعون الآن جموعهم ويحشدون جيوشهم
لمحاربة الغزاة العرب ولعل من الخير للعرب قبل أن تعد هذه الجيوش
الجرارة أن يقبلوا مبلغا كبيرا من المال كجزاء نقدي وأن ينسحبوا من
البلاد .

ورد العرب بأنهم لا يابھون بالعدد مهما كان كبيرا وأن كل ما ياملونه
هو الشهادة في سبيل الله لا العودة سالمين غانمين الى نسائهم وأطفالهم .
وأضافوا أن قلة عددهم بالنسبة الى عدوهم لا ترهبهم اذ أن الله تعالى
أكد لهم ان النصر سيكون في جانبهم بقوله : « كم من فئة قليلة غلبت فئة
كثيرة باذن الله » . ورفض أعضاء الوفد أن يستمعوا الى أى عرض آخر

سوى العروض الثلاثة التى سبق لعمر بن العاص أن قدمها الى الروم: وهى اما الاسلام أو الجزية أو الحرب .

وبدا المقوقس ميالا بعض الميل لقبول دفع الجزية ولكن عددا من ضباطه أبى عليه ذلك . ويبدو أن هؤلاء كانوا من أهل مصر ، أما المقوقس نفسه فكان كما رأينا سابقا من الروم وكان يشغل منصب المطران فى القفقاس . وطلب الروم أخيرا مهلة للتفكير فى الموضوع ولكن عمرا رفض أن يمهلهم أكثر من ثلاثة أيام ، ولم تكد هذه المدة تنقضى حتى كان الروم ينزلون أحد المعابر على النهر فيجتازونه عليه ويهاجمون العرب بفتة ، ولكن هذا الهجوم منى بالفشل فى النهاية بعد اشتباك عنيف دام ، واضطرت الحامية من جديد الى اللجوء الى حصنها وقد أدت هذه النكسة الى اضعاف مركز المنادين بالمقاومة والى تقوية مركز المقوقس المطالب بالصلح والخضوع للعرب .

واستؤنفت المفاوضات من جديد وأسفرت عن عقد صلح بالطريقة المعهودة تعهد فيها الروم بدفع الجزية مقابل تمتع المسيحيين بحرية العبادة وضمان حماية المسلمين لهم ، وأضيف الى معاهدة الصلح بند يشترط موافقة الامبراطور عليها وينص على ارسالها اليه فوراً لاقرارها بشرط أن يظل الوضع العسكرى على حاله فى هذه الفترة من الترقب والانتظار .

وتسلح المقوقس بهذا الاتفاق فابحر فى النيل الى الاسكندرية حيث بعث برسالة عاجلة الى هرقل فى القسطنطينية شارحا الاسباب التى دعت الى الاذعان للغزاة ومتوسلا اليه أن يقر اتفاق الصلح ، وكان هرقل قد بات الآن رجلا عجوزا محطمأ أوهنته العلل وأضنته الهزائم ، ومع ذلك فلم يستطع استساعة هذه الانهزامية التى أبداهها المقوقس ، وراح يبعث برسالة عاجلة الى الاسكندرية يطلب فيها من المقوقس الاتجاه فوراً الى القسطنطينية .

وقد استقبل الامبراطور ممثله فى مصر بحملة جارحة من اللوم والتعنيف - لها ولا شك - كل مايررها ، غلقد كان المقوقس هو الذى ألـب ببطشه وشدته ووحشيته واضطهاده الدينى غالبية المصريين ، وهاهو ذا عندما جاء العرب كان أول من دب اليأس الى قواده ، فاستخذى واستسلم وطالب بالاذعان وراح يدافع عن نفسه أمام الامبراطور ، فأكد أن العرب قوم لايفلبون أبدا وانهم لا يأبهون بالمال أو الراحة وانهم يطمعون فى الاستشهاد فى ميدان القتال لأن الشهادة تسرع بهم الى الفردوس.

ولكن بلاغته في الدفاع عن نفسه لم تجده فتيلاً وأتهم بخيانة الامبراطورية لمصلحة العدو ، وبعد أن تعرض الى الكثير من اللوم والاذلال طرده الامبراطور من وظيفته وأبعده الى حياة المنفى .

واستؤنفت المعارك بعد أن ذاع نبأ رفض الامبراطور ابرام المعاهدة وأعد كل من المهاجمين والمدافعين عن بابل (اليونة) أنفسهم لمعركة فاصلة . وأخذ نفر من المصريين من الاقباط الذين عانوا من اضطهاد الروم يساعدون العرب في هذه المرحلة ، لكن الحامية ظلت تواصل الاندفاعات من الحصن بين آونة وأخرى منزلة بالمهاجمين بعض الخسائر .

وأخذت أيام الشتاء تجر ذبولها ثقيلة متباطئة ، وبدأت مياه الفيضان في الانحسار وأخذ الماء في الخندق يهبط تدريجياً . ولم يحقق العرب نجاحاً مع أسوار الحصن وان كانوا أنزلوا بعض الخسائر والمدافعين عن طريق النبال التي يطلقونها . ووصلت الانباء ذات يوم في آخريات الشتاء الى عمرو بن العاص بأن الروم يحشدون قواتهم في الدلتا فخلفه على القلعة قوة صغيرة تمضي في حصارها واتجه سراً الى الشمال ليدهم العدو ويشتت شمله . ولكن العرب وجدوا أنفسهم فجأة محصورين بين قنوات الري وترعه وعانوا مشقات كبيرة واضطروا الى العودة .

ووصلت الانباء في شهر مارس (آذار) عام ٦٤١ عن موت الامبراطور هرقل في القسطنطينية ودب اليأس في قلوب أفراد الحامية على حين عم الفرح معسكر العرب ، ويبدو أن هذه الحقيقة تبدد النظرية القائلة بأن هرقل غدا ضعيفاً وفي منتهى الجبن في آخريات أيامه ، وكتب المؤرخ العربي جلال الدين السيوطي عن هذا الحادث يقول : « كسر الله شوكة الروم بموت هرقل » .

وتشجع المسلمون بموت هرقل فأعدوا العدة للهجوم على بابل وتمكنوا من اجتياز الخندق في بعض النقاط فأقاموا السلال على الاسوار وراح الزبير بن العوام صحابي رسول الله يصعد السلم مجرداً من سيفه ومعلناً عزمه على الاستشهاد وهو يقود الهجوم ، وتبع الزبير في جنح الدجى نفر من أهل النجدة ، وصب العرب وابلاً من النبال على الحواجز لارغام الروم على ابقاء رموسهم خفيضة حتى لا يروا المهاجمين ، وسرعان ما ارتفع هتاف المسلمين « الله أكبر الله أكبر » ، فوق الاسوار لكن الفئة التي ركزت أقدامها فوق الاسوار لم تكن كبيرة . وكان في مكتة الروم أن يقوموا بهجوم مضاد ، وأن يقدفوا بهذه الحفنة الصغيرة في الخنادق ولكن الحصار كان قد طال اذ انقضت عليه حتى الآن سبعة أشهر أى منذ

سبتمبر (ايلول) عام ٦٤٠ حتى ابريل (نيسان) عام ٦٤١ . وكانت الحامية قد ملت القتال والحصار ، وعندما أخذ الفجر يطل أطلالته ، ببطء ، كان قائد الحامية قد عرض التفاوض على المسلمين وقبل عمرو العرض فوراً . ووضع نص اتفاق لتسليم الحصن وتقرر أن تنسحب الحامية بعد ثلاثة أيام وأن يمضى أفرادها في المراكب في النيل تاركين القلعة سليمة بكل ما فيها من مستودعات ووسائل دفاعية . وهكذا انسحبت الحامية في التاسع من ابريل (نيسان) عام ٦٤١ واحتل المنتصرون العرب قلعة بابل .

تواريخ بارزة

٦٣٩	عمرو بن العاص يجتاز حدود مصر	١٢ من ديسمبر (كانون الاول)
	عند العريش	
٦٤٠	احتلال الفرما	نهاية يناير (كانون الثاني)
٦٤٠	وصول النجيدات من الجزيرة العربية	٦ من يونيو (حزيران)
٦٤٠	معركة هليوبوليس	يوليو (تموز)
٦٤٠	بدء حصار بابل (اليونة)	سبتمبر (ايلول)
٦٤١	موت هرقل	١١ من فبراير (شباط)
٦٤١	احتلال بابل	١٩ من ابريل (نيسان)

شخصيات مشهورة

خليفة المسلمين	عمر بن الخطاب
القائد العام في مصر	عمرو بن العاص
قائد النجيدات العربية وقائد القوة	الزبير بن العوام
التي اكتسحت اسوار حصن بابليون	
حاكم مصر وبطريق الارثوذكس	المقوقس
القائد العام لجيش الروم في مصر	تيودور

إستسلام مصر

« قد علمت أن الرب أعطاكم الأرض ، وقد حل
رعبكم علينا ، وجميع سكان الأرض قد انحلوا أمامكم .
سببنا قذابت قلوبنا ولم يبق في أحد روح أمامكم »
سفر يشوع - الفصل الثاني - ٩

« كوش ومصر قوتها ، ولا نهاية لها وفوط ولوييم
في نصرتك . فهي أيضا ذهبت الى الجلاء مسببة ،
وأطفالها أيضا حطموا رأس كل شارع وعلى كرامها
القوا القرع . وجميع عظمائها أوثقوا بالقيود . وأنت
أيضا تسكرين وتختبين وأنت أيضا تطلبين ملجأ من
العدو . جميع حصونك أشجار تين ببواكيرها أن
انهزت تسقط في فم الأكل . ها أن شعبك في داخلك .
نساء وأبواب أرضك تفتح فتحا لأعدائك ، والنار
تاكل مزاليبك » .

نبوءة نحوم - الفصل الثالث

« جاءوا الى القتال يتوقعون الهزيمة ، لذا فقد
تحققت لهم . فلقد كانوا نصف مهزومين قبل أن توجه
اليهم ضربة واحدة » .

أومان - الحرب في المعصور الوسطى

أدى استسلام حصن بابل (اليونة) في ابريل (نيسان) عام ٦٤١ الى استقرار الوضع نهائيا وبصورة رتيبة في مقاطعة مصر القائمة في رأس الدلتا وفي مقاطعة الفيوم الواقعة على بعد خمسين ميلا الى الجنوب باتجاه أعالي النيل . وكان وضع حصن بابل يون ممتازا من وجهة النظر العربية اذ أنه واقع على الضفة الشرقية لنهر النيل حيث تمتد الصحراء منها بلا انقطاع حتى الجزيرة العربية ، يضاف الى هذا أن هذه القلعة كانت تسيطر على الدلتا كلها ولم يكن العرب ميالين الى العمل داخل منطقة القنوات والاراضي الزراعية المروية ولعلهم كانوا عاجزين عن العمل فيها . لكن مقاومة الروم أصبحت متركزة الآن في الاسكندرية ، ولا يمكن الوصول الى تلك المدينة الا بالزحف شمالا في الجانب الغربي من الدلتا على أكتاف الصحراء ، وكان الفرس قد اتبعوا الطريق ذاتها قبل خمسة وعشرين عاما عندما استولوا على مصر ، فلقد زحفوا من الغرباء الى مصر على رأس الدلتا ومنها ساروا بحذاء الفرع الغربي من نهر النيل الى الاسكندرية .

ويقال بأن عمرا أقام الولاثم يومين متعاقبين لاقباط مصر قبل أن يمضى لفتح الاسكندرية . وكان قرى الاقباط وبعض العرب في اليوم الاول للوليمة لحم الابل مسلوقا في الماء المالح . وقد أكل العرب حتى سبّعوا أما الاقباط الذين لم يالفوا هذا الطعام فلم يستسيغوه . وأعدت للجميع في اليوم التالي أطيب الطعام مطهية على الطريقة المصرية المتقنة . وألقى عمرو في ذلك اليوم خطابا أوضح فيه المعنى المقصود من هذا الاجراء الذي قام به فقال انه قد لا يكون من الحكمة في شيء أن يمتحن المصريون فقر العرب واقتغارهم الى ترف العيش ورخائه ، وأضاف ان في وسع المسلمين أن يتعودوا على أطيب هذه الدنيا ومفائنها ، ولكن خشونة عيشهم مكنتهم من احتمال ما لا حد له ولا حصر من المتاعب والشقاء التي لا يستطيع الناعمون من المصريين هضمها . ولا ريب في أن هذا الاحتمال على المكاره هو الذي مكنهم من التغلب على جيوش الروم والفرس .

ويقال بأن عددا غير محدود من الاقباط قد تحول في هذه الآونة الى الاسلام وقد اغرتهم الفرصة المتاحة لهم بأن يصبحوا أتادا من

الناحيتين الاجتماعية والمالية لفتح بلادهم المبجلين . ويقال ايضا بأن جيش عمرو بن العاص كان يضم عددا من اروام سورية الذين تحولوا الى الاسلام وعددا من الأعاجم من الأبناء فى اليمن من بقايا ذلك الجيش الذى كان كسرى قد بعث به الى اليمن لخراج الاحباش منها واحتلالها فى عام ٥٧٤ هـ ، وهكذا نرى أن عملية افساد العنصر العربى النقى القادم من الجزيرة العربية قد بدأت فى هذا الوقت المبكر .

وعندما أراد الجنود تفويض خيمة قائدهم عمرو بن العاص . استعدادا لبدء السير باتجاه الاسكندرية ، عثروا على يمامة عشتت فى طرف الخيمة بعد أن وضعت بيضها ، وقد أمر عمرو بالإبقاء على الخيمة فى مكانها وعدم تفويضها مخافة ازعاج الطائر الوديع قائلا ، ان اليمامة قد التجأت الى حماه وان عليه أن يجيرها . ومما يجدر ذكره ان الخيمة كانت ولا تزال فى عرف النظام الاجتماعى العربى ملجأ الامان فى تقاليد الصحراء ، وفى وسع كل من يشعر بالخطر سواء آكان رجلا أم امرأة ، أن يلجأ الى خيمة انسان يحتم عليه العرب أن يحمى المستجير به حتى ولو كلفه ذلك حياته . ولقد تحدثت فى مكان آخر عن البدوى الذى اجار ذئبا جريحا ، وقتل أحد أبناء عشيرته دفعا عنه . وقد يبدو من الغريب لنا كل الغرابة أن يقدم جندى عرف بالصرامة والقسوة كابن العاص على التخلّى عن خيمته ضنا على يمامة من الازعاج .

وعبر العرب نهر النيل من بابل (اليوننة) الى الجزيرة ، وقد استخفهم المرح والطرب ليمضوا قدما فى طريق صحراوية جافة بحثا عن أماكن جديدة يفتحونها . ولا ريب فى أن البقاء أمدا طويلا بلا حراك وعلى ارض رطبة حول القلعة المحاصرة ولا سيما فى ايام الفيضان كان مر المذاق بالنسبة اليهم .

وقع اشتباك فى طرانة الواقعة على بعد أربعين ميلا الى الشمال من بابل اضطر فيه الروم الى الانسحاب بعد قتال ضار ، وبعد عشرة اميال الى الشمال ، وجد العرب انفسهم يواجهون مدينة نيكبو (زاوية راسين) وقلعتها القائمتين على الضفة الشرقية من النهر واضطر العرب ازاء ذلك الى عبور النهر لمهاجمة المدينة . ولو كان هناك قائد متميز بالنشاط والجرأة فى المدينة لخرج منها واعترض سبيل العرب وهم يعبرون النهر أو لباغتهم بعد أن عبر نصفهم ، ليلحق بهم الهزيمة . ولكن الدمر كما يبدو كان مسيطرا على رجال الحامية الذين شرموا يجفلون عن المدينة فى اضطراب وفوضى ليستقلوا القوارب أملا بالنجاة

عن طريق النهر بالسير نحو مصبه . وسارع العرب الى الهجوم فافنوا عددا ضخما من جنود الروم وهم اما على الساحل او بعد نزولهم الى الماء . وعلى الرغم من احاطة المدينة بالتحصينات ، فانها لم تدافع عن نفسها ، فاقترحها العرب واعملوا السيف في رقاب أهلها . وقد وقع هذا الحادث في الثالث عشر من مايو (ايار) عام ٦٤١ . وأخذوا يغيرون بعد ذلك على القرى المجاورة يقتلون فيها وينهبون ما يشاءون . ومن المعقول ان تكون هذه الاجراءات جزءا من سياسة مرسومة . فالعرب كما سبق لنا ان بينا أكثر من مرة كانوا من الناحية التعبوية (التكتيكية) في وضع سيئ في المناطق المروية الضيقة وكانوا تبعا لذلك تواقين الى تجنب أية عمليات عسكرية في منطقة الدلتا التي كان اتساعها هنا يبلغ خمسين ميلا . ثم يأخذ هذا الاتساع في الارتفاع كلما اتجهوا شمالا الى أن يبلغ المائتين . وكان في وسعهم أن يحتلوا عدة أماكن على حدود المنطقة المزروعة . وكانوا يلجأون في هذه الأماكن الى أساليب العنف الصارمة رغبة منهم في القاء العرب في نفوس السكان الجبناء في بقية أنحاء الدلتا ليضمّنوا خضوعهم لهم دون عمليات حربية أو قتال . ولهذا السبب وحده كان الزمن أقصر من أن يضاع ، فلقد احتل العرب نيكيو (زاوية راسين) في شهر مايو عام ٦٤١ وكان موعد الفيضان شهر أغسطس من ذلك العام ، عندما تصبح العمليات العسكرية متعذرة بل مستحيلة ، وقدر العرب أنهم سيكونون في مثل ذلك الشهر محاصرين للاسكندرية وستعرض مواصلاتهم للخطر مع حصن بابليون اذا ثارت الدلتا عليهم . وجددير بنا أن نلاحظ الاتجاه الذي اتجهته أعمال العنف هذه فقد استهدفت الاقباط أو سكان مصر . ولقد كان الروم أو أتباع الكنيسة الارثوذكسية هم العدو في احتلال الفرما أو بابل أو في معركة هليوبوليس (١) . أما نيكيو وأرباضها فكانت مأهولة بالاقباط الذين كانوا من قبل ضحايا الاضطهاد البيزنطي .

وعاد عمرو بن العاص بعد قضاء بضعة أيام في نيكيو (زاوية راسين) الى عبور نهر النيل واستئناف الزحف باتجاه الاسكندرية

(١) لم أجد في كتب التاريخ العربي ما يؤيد هذه الروايات المزعومة التي جاء بها المؤلف وكل ما في وسع المرء أن يتأكد منه أن العرب كانوا عندما يصلون الى بلدة من البلاد يعرضون على أهلها اما الاسلام أو الجزية أو الحرب . فان رفضت الا الحرب كان من حقها أن تلحق ويلاتها وأن تحتمل نتيجة قرارها . اما معاملة المسلمين للاقباط فكانت رائعة كمل تجمع كتب التاريخ كلها . .
(العرب)

• اشتبكت طلائع العرب المتقدمة مع قوة بيزنطية ضخمة فلقيت منها هولا كبيرا واضطرت الى اللجوء الى ارض مرتفعة حيث اطبق عليها الروم الحصار من كل ناحية ولكن عمرا ما لبث أن وصل بقواته الكبيرة فطرد الأعداء ورفع الحصار المضروب على طلائعه ، وقد أطلق العرب على التل الذى صمدت فيه الطلائع العربية اسم « كوم شريك » نسبة الى قائد الطليعة شريك بن الحارث وظهر أن القوة الرومانية التى اشتبكت معها ، هى كل ما تبقى لدى الروم من جيش عامل فى الميدان بقيادة تيودور القائد الذى هزمه ابن العاص قبل عام فى معركة هليوبوليس .

• ووقع اشتباك آخر على بعد عدة أميال الى الشمال من دمنهور دارت ابانه رحى معركة عنيفة ضارية انتهت بانسحاب الروم من جديد . ويبدو أن نجدات جديدة كانت قد وصلت الى جيش الروم من القسطنطينية اذ بات هذا الجيش فى مظهر جديد طيب . ويبدو أيضا أن عمرا تلقى نجدات أخرى من الجزيرة العربية وان لم نجد أثرا يدل عليها فى كتب التاريخ العربى •

واتخذ تيودور مراكز دفاعية جديدة له فى الكريون حيث نشبت معركة ضارية ، ومن الملاحظ أن المؤرخ البلاذرى يذكر بصدد المعركة أن الروم والقبط تجمعوا عند الكريون لمقاومة الزحف العربى • ومن هذا يبدو أن القبط بدأوا يدركون أنه على الرغم من مرارة اضطهاد الروم لهم فإن ما أنزله العرب بهم من تقتيل (١) ، يدل على أنهم لن يكونوا أحسن حالا اذا ما تغير حكامهم وقد دامت معركة الكريون كثيرها من الانتصارات العربية العظيمة عدة أيام مما يدل على أن العرب بدأوا يلجئون فى حروبهم الى معارك السحق الطويلة بدلا من حروب الصاعقة السريعة وان هذا الاسلوب الجديد أكثر صلاحا لهم من سابقه وحرى بنا أن نقول ان الافادة الناجحة من الهجمات الكبيرة تعتمد على التدريب والانضباط وهما صفتان مازال العرب فيهما أقل مستوى من أعدائهم لكن العرب يتفوقون على أى حال تفوقا هائلا على أعدائهم فى روحهم المعنوية واقبالهم على المبادرة وفى وسعنا أن نستنتج من هذا أن العرب باتوا يشتبكون مع العدو فى كل مكان فى عمليات استطلاعية يسبرون فيها أغواره حتى اذا وجدوا نقطة الضعف فيه سارعوا الى استغلالها • واذا ما تحقق لهم النجاح الأولى فى أية عملية

(١) لم يذكر التاريخ أن العرب اعملوا التقتيل فى المصريين بل ان الذين اقدموا على ذلك هم الرومان وقد فعلوا ذلك بصورة بشعة عند انسحابهم من حصن بابليون ليلة عيد الفصح •

— العرب —

من هذا النوع فانهم يستغلون هذا النجاح بكل جرأة واندفاع وبما عرف عن رجالهم من اقدام على المبادرة مدفوعين بحميتهم ودون انتظار أوامر من قادتهم . واذا ما شئنا مقارنة البدو بأى من الجيوش الحديثة أمكننا القول بأن الاستراليين يشبهونهم الى حد كبير ويبدو أن هذا التشابه نجم عن اشتراكهم فى أوضاع حياتية متماثلة ، وهى الكفاح ضد الطبيعة لضمان البقاء فى أراض فسيحة قاحلة غير مستثمرة . أما قوات الصاعقة فتكون عادة ثمرة الحضارات المدنية فى حين يكون استغلال الانتصارات المحلية من المقاتلين الفرادى الأسلوب الصالح لشعوب الرواد الأحرار الذين لايربطهم نظام أو انضباط .

وقد دامت معركة الكريون عشرة أيام وانتهت كما يبدو فى يوليو (تموز) عام ٦٤١ بانسحاب ثيودور انسحابا منظما الى خطوطه الدفاعية فى مدينة الاسكندرية (١) .



وتابع عمرو مطاردة الجيش المتراجع فشن هجوما سريعا مرتجلا مفتقرا الى التنظيم على أسوار المدينة كانت عاقبته نكسة شديدة . واضطر العرب الى الانسحاب بعيدا عن الأسوار للنجاة من خطر القذائف التى ترسلها المجانيق المقامة على الاسوار وأقاموا معسكرهم الى الناحية الشرقية من المدينة .

وكانت الاسكندرية فى هذا العهد الذى نؤرخه الآن من أعظم مدن العالم وقد أنشئت مدينة الاسكندرية قبل نحو من ألف عام ، وبناها الاسكندر المقدونى وكانت تضم نحو من مليون انسان ، وكانت مصر فى ذلك الحين بلدا غنيا كل الغنى ، وكانت الاسكندرية عاصمتها منذ أمد طويل وكانت دلتا النيل تلعب دور اهرام الجيوب لرومة الامبراطورية ، ثم ما لبثت أن أدت الدور نفسه فى اقتصاد بيزنطة . وكانت الاسكندرية

(١) تختلف رواية المؤلف من الروايات العربية المتعلقة بهذه المعركة ، فقد ذكر البلاذرى أن من بالاسكندرية من الروم والقيط قد تجمعوا لعمرو بن العاص وقالوا نغزوهم بالفسطاط (بابل) قبل أن يبلنا ويروم الاسكندرية فلقيهم بالكريون فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وكان فيهم من أهل سخا وبلهيت والخيس وسلطيس وفيرهم قوم رفدوهم وامانهم ، لم سار عمرو حتى انتهى الى الاسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله . ومن هذه الرواية يظهر أن الجيش الذى قابل العرب فى الكريون هو غير جيش الاسكندرية وان مصر هذا الجيش كان الغناء تقريبا لا الانسحاب المنظم كما يقول المؤلف .

(العرب)

• هي ميناؤها التجارى وتعتبر مناراتها احدى معجزات العالم السبع • ولم يكن ثمة مايفوق كنائس المدينة وقصورها وتماثيلها أو يضاهيها حتى كنائس القسطنطينية وقصورها وتماثيلها وكانت المدينة الواسعة محاطة بأسوار ضخمة تعلوها الأبراج والحصون التى لاتنفع معها القذائف التى يملكها العرب • ولم تكن هذه هى العوامل الوحيدة فى مناعة المدينة بل بالإضافة الى أن البحر يحمى جانباً من المدينة فان جزءاً كبيراً من الجانب البرى منها تحميه بحيرة المريوطية وعدد من الاقنية بحيث بات المكان الوحيد الذى يمكن منه الهجوم على المدينة فسحة ضيقة نسبياً تقع فى الطرف الشرقى ويبدو أن عمرو بن العاص أدرك بعد فشل فى الاندفاع الأول المتعجل على الأسوار الذى قام به بعد معركة الكريون أنه عاجز عن اقتحام هذه القلعة الضخمة عنوة لاسيما وأن الروم يسيطرون سيطرة كاملة على البحر الذى لا يوجد للعرب فيه مركب واحد • وكان فى مكانة مدينة كهذه أن تصمد سنوات طويلة • ولقد سبق لنا أن رأينا القسطنطينية تصمد بنجاح أمام هجوم الجيش الفارسى الذى كان أكثر استعداداً وأوفر تمويناً بمعدات حروب الحصار من الجيش العربى ، وأن هذا الصمود استمر سنوات طويلة • وطالما أن السيطرة على البحر هى فى يد الروم فان موقف الاسكندرية كان أفضل من الناحية الطبيعية من وضع القسطنطينية • ولم يبق الآن على موعد ارتفاع مياه النيل الا بضعة أسابيع • وقرر عمرو أن يخلف على الاسكندرية قوة صغيرة للملاحظة ترابط الى الجنوب الشرقى من المدينة وتكون كافية لمنع الروم من الخروج من الأسوار لاعادة فرض سيطرتهم على الدلتا • وأراد أن يستغل انخفاض النيل وان يزحف عبر الدلتا عائداً الى الفسطاط • وهكذا خرج عمرو من دمنهور باتجاه الشرق الى دسوق ومنها الى طوخ فدمياط وكانت الأسوار تحيط بهذه المدن الثلاث فأغلق أهلها على أنفسهم الابواب عندما اقترب العرب منهم • ووجد العرب أنفسهم كالعادة عاجزين عن معالجة المدن المحصنة فاضطروا الى المرور بها دون فتحها • وغنم العرب كل ما فى الأرياف والقرى المجاورة من محاصيل ، وقد غدت الآن ناضجة للحصاد وأحرقوا ما لم يتمكنوا من نقله معهم • وأخيراً وصل عمرو الى الفسطاط بعد هذه المحاولة غير الناجحة لالقاء العرب فى قلوب أهل الدلتا وذلك قبل أن يبدأ فيضان النيل فى ذلك العام •

وتقيم هذه العملية الفاشلة دليلاً جديداً على الحقيقة التى سنبحث لى أن اكتملتها وهى أن نجاح العرب كان كاملاً فى السهول المكشوفة دائماً • ولعل من الطريف أن يفكر المرء عما كان فى وسع الروم أن يفعلوه فى

مصر • فالحروب لا تكسب عادة الا بالهجوم ، وكان من الحتمى عليهم فى المدى الطويل أن يشتبكوا فى معركة مع العرب ليهزموهم اذا أرادوا النصر •

أما اذا رفض العرب أن يحاربوا الا فى الصحراء فان من الحتمى على الروم أن يحاربوهم فيها أيضا • أما فى المرحلة التى وصلنا اليها الآن فيبدو لى أن الروم قد آثروا البقاء فى موقف الدفاع ولم يكن فى وسع العرب أن يحاربوا فى الدلتا كما كان الروم عاجزين عن الحرب فى الصحراء ومن هنا تنبثق الضرورة فى أن يظل الروم داخل الدلتا وحدها للدفاع عنها ، وأن يحتفظوا بمواقعهم فى المنطقة المروية المزروعة ، وكان عليهم أن يشرعوا فورا فى تحصين المدن والقرى ابتداء بتلك القريبة من حدود الصحراء • وكان عليهم أن يسلحوا ويدربوا سكان مدن الدلتا الواقعة على أطراف الصحراء وان يحثوهم على الدفاع عن أنفسهم بمساعدة جماعات صغيرة من الجنود النظاميين ترابط هنا وهناك ، وكان عليهم أن يحشدوا أرتالا متحركة من قواتهم البيزنطية الى الوراى فى المناطق الوسطى حتى اذا ما شن العرب أية غارات كان فى مكنتها أن تنتقل الى المنطقة المهددة لصدد الهجوم • وكان فى مكنتهم أن يقولوا لسكان المناطق الامامية أن عليهم أن يصمدوا بعض الوقت اثنتى عشرة ساعة على أكثر تقدير عندما يتعرضون للهجوم حتى تصل اليهم النجادات •

ويجب العرب التنقل فى الصحراء والقتال فيها ، ولكنها خالية من أى طعام • وعليهم أن يعتمدوا على المناطق المزروعة فى الحصول على طعامهم وهكذا كان الدفاع عن المناطق المزروعة أكثر جذية وفعالية كلما كانت الصعوبة التى يواجهها العرب فى الحصول على مؤنهم أقوى وأشد • وكان فى وسع البيزنطيين عن طريق مثل هذا الدفاع النابض بالحياة أن يكسبوا وقتا يعدون فيه جيوشا جديدة لحوض القتال استعدادا للمعركة الحاسمة •

ولقد سبق لنا أن رأينا العرب يتعبون أشد التعب من القتال فى جبال فلسطين وسوريا ولكن دلتا النيل كانت أكثر مشقة عليهم من الاراضى الجبلية • ولكن من الأسهل علينا بالنسبة الى المعلومات المتوافرة لدينا الآن أن نظهر من الحكمة والتعقل ما لم يتيسر للعرب آنذاك • وقد تكون الفكرة واضحة اذا ما فكر فيها المرء ، ولكن الى أن يتحقق ذلك فان أكثر العقول فطنة وذكاء تؤثر استعمال الاساليب المألوفة قرنا بعد قرن •

ولا ريب فى أن فكرة البيزنطيين عن الحرب كانت مبنية على أساس

المعارك المتلاحمة بين الجيوش وليس في وسعنا أن نلومهم الآن لانهم لم يفكروا بأساليب أخرى . وفكرة المقاومة الشعبية المنظمة كطريقة مشروعة من طرق الدفاع ، فكرة مألوفة لنا اليوم أكثر مما كان يالفها البيزنطيون في أيامهم . ولا ريب في أن الصعوبة الرئيسية التي كانت تقوم أمام محاولة من هذا النوع هي ما يحس به الأهلون من مقت للبيزنطيين لما اقترفوه من اضطهاد ديني في عهد المقوقس . ولو كان المصريون على ولاه للامبراطورية الرومانية لاختلف الوضع تمام الاختلاف .



ولنترك عمرو بن العاص يرابط ثانية في حصن بابلليون في أغسطس عام ٦٤١ ، ولنتلفت بأنظارنا الى ماكان يدور في القسطنطينية في تلك الآونة .

سبق لنا أن ذكرنا كيف غادر هرقل سوريا بعد كارثة اليرموك في عام ٦٣٦ ، ويبدو أن الامبراطور لم يعد فورا الى عاصمته بل أقام بعض الوقت في كيليكية ، حيث كان يعاني كما يبدو بعض الانحطاط العقلي وفي وسعنا أن نطلق على الحالة التي أصابته اسم الانهيار العصبي ، ويبدو أنه ابل أخيرا من مرضه واستأنف تصريفه لشئون دولته . لكن المصائب مالبثت أن توالى على جيوش الامبراطورية . اذ استسلمت القدس وتبعتها انطاكية فقيسارية ولحق بها وصول العرب الى مصر .

ويظهر أن المصائب لاحقته حتى في صميم أسرته . وهو في سن شيخوخته بعد أن كان لسنوات خلت بطل عصره . فعندما توفيت زوجته الأولى يودوكيا قبل بضع سنوات راح يتحدى قوانين الكنيسة ومعارضة بطريق القسطنطينية ويتزوج من ابنة أخته ، مارتينا ، وعندما بلغ سن الشيخوخة ، أخذ ضميره يعذبه على هذا الزواج الخطيء الذي اقترفه . وكان ولده قسطنطين ، الابن الأكبر للامبراطورة يودوكيا قد تسمى بلقب أوغسطس وبلغ الآن التاسعة والعشرين من عمره . وأصبح في سن تمكنه من تولي مسئولية الشئون العامة . لو لم يصب بمرض عضال ، يعتقد أنه السبل . واغتنمت مارتينا فرصة مرض قسطنطين فأخذت تلحف على زوجها بإشراك ولدها منه هيراقليوناس في ولاية العهد .

واستدعى مجلس الشيوخ الى الانعقاد في الرابع من يوليو (تموز) عام ٦٣٨ ، ليصدق في القصر الامبراطوري على الشراكة المتساوية في العرش بين قسطنطين ابن يودوكيا ولدها هيراقليوناس الذي لايتجاوز الثلاثة عشر ربيعا .

وتوفي الامبراطور الشيخ هرقل كما ذكرنا سابقا في الحادى عشر من فبراير (شباط) عام ٦٤١ ، وهو فى السادسة والستين من عمره ، فى الوقت الذى كان فيه عمرو بن العاص مازال فارضا حصناره على حصن بابلينون فى مصر ، وحاولت مارتينا فى بادئ الامر أن تفتصب السلطة لنفسها . ولكنها اضطرت تحت وطأة المعارضة الشعبية الى الانسحاب من مسرح الأحداث العلنى ، الى الاقتناع بتأييد ادعاءات ولدها هيراقليوناس عن طريق الدسائس والمؤامرات ، ولم يقدر لقسطنطين على أى حال أن يظل الى أمد طويل عقبة فى طريق تحقيق مطامحها . فقد مات بعد حكم لم يطل أكثر من مائة وثلاثة أيام فى الخامس والعشرين من مايو (آيار) عام ٦٤١ متأثرا من نوبة سعال أدت الى نزيف داخلى الى تقيؤه الدم . وكان قبل موته قد استدعى المقوقس من منفاه ونيودور من الاسكندرية ليشاورهما فى وضع مصر .

ولم تكد تعلن وفاة قسطنطين حتى تمكنت مارتينا من اعلان ولدها هيراقليوناس البالغ من العمر خمسة عشر عاما ، امبراطورا أوحد للامبراطورية . ولكن قسطنطين كان قد خلف ولدين أكبرهما يدعى كونسطنس ، وكان قد بلغ الثانية عشرة من عمره . وكانت مارتينا الامبراطورة الحاطة ، مكروهة من شعب بيزنطة ، الذى ثار عليها . وزحف فالتتاين قائد جيوش الروم فى الأناضول على العاصمة وتوج بالقوة كونسطنس شريكا فى الحكم الامبراطورى لهيراقليوناس .

وأعيد المقوقس فى غضون ذلك الى مصر . ويبدو أن مارتينا ، وقد انهكت فى الدسائس لتنصيب ولدها امبراطورا ، كانت راغبة فى انهاء الحرب مع العرب وتسليمهم مصر . ومن المعقول أن يكون المقوقس نفسه قد أقنع مارتينا وهيراقليوناس الشباب بضرورة تسليم مصر اذ أن الحماسة التى أبدوها فى تنفيذ هذه الخطة ، تشير بوضوح الى أنه كان أكثر من مجرد منفذ للتعليمات الرسمية .

ولقد سبق لنا أن رأينا ، أن مثل هذا التسليم لم يكن أمرا حتميا . فلقد كان فى وسع الاسكندرية أن تصمد سنين طويلة ، وكان هرقل قبل موته قد أشرف على اعداد نجدات جديدة كان قد أعلن عزمه على قيادتها بنفسه لاستعادة مصر من العرب . ولكن الخلافات فى بلاط القسطنطينية انتقلت الى الاسكندرية ، اذ انقسمت النجدات التى أرسلت اليها بين مؤيد لمارتينا ومؤيد لاولاد قسطنطين . وسرعان ما بدأت الاصطدامات فى شوارع

الاسكندرية بين مؤيدى الفريقين المتنافسين على السلطان في القسطنطينية .

ونزل المقوقس في الاسكندرية في الرابع عشر من سبتمبر (أيلول) عام ٦٤١ بعد أن أعيد تعيينه حاكما لمصر وبطريقا لها . وقد استقبل عند وصوله استقبالا شعبيا حماسيا . ولما كان في السنوات العشر السابقة من حكمه لمصر قد كرس نفسه لاضطهاد الاقباط فان في وسع المرء أن يفترض من هذا الاستقبال الحماسي أن غالبية أهل الاسكندرية كانت تمت الى الكنيسة الارثوذكسية التي يتولى هو رياستها وبوصفه بطريق الاسكندرية . ومثل هذا الوضع متوقع ولا شك إذ أن الاسكندرية كانت بوصفها عاصمة مصر ، مكتظة ولا ريب بالاغريق الذين كانوا يملأون قيسارية والقدس في فلسطين . وتوقع الناس نظرا لوجود المسلمين خارج الأسوار وانتشار المصادمات الحزبية في شوارع المدينة أن يؤدي مثل هذا الحاكم القوى في وسطهم الى تحسن في أوضاع الأمن وإلى ثقة الجمهور بالحكم . ولو صح مثل هذا الافتراض ، فانه يقوم ولا ريب على تفكير خاطئ إذ انهم لم يكونوا يدرون أن المقوقس لم يعد اليهم ليدافع عنهم ، بل ليسلمهم الى العرب .

وكانت الاسكندرية والحق يقال مدينة دولية تفتقر الى روح الانسجام بين أهلها ولقد كانت كغيرها من العواصم ، مستقرا للأغراب منذ أكثر من ألف عام . فاليهود فيها يؤلفون جالية كبيرة العدد وافرة الثراء . وفي شوارعها يختلط الاغريق بالايطاليين واليهود والاقباط والزنوج الافريقيين . ولم تكن بذور الخلاف التي تفصل بين الكنيستين الارثوذكسية والقبطية هي المصدر الوحيد للفرقة والفتنة . وكان الحزبان الازرق والاخضر الموجودان في القسطنطينية متساويين في القوة في الاسكندرية وبالنظر الى غياب تيودور القائد العام في القسطنطينية فقد اقتسم القائدان العسكريان المتنافسان دوميتيان ومينوس ، ولاء الجنود الزرق والخضر ، وأخذ الفريقان يشتبكان في الشوارع وينهمكان في أعمال النهب والسلب .

ولم يمض على وصول المقوقس أكثر من شهر الى الاسكندرية حتى كان يغادرها في النصف الثاني من شهر اكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٤١ قاصدا حصن بابليون لمقابلة عمرو بن الصاص وهو يعتزم تسليم الاسكندرية اليه ، ومعها بقية ارجاء مصر . ويبدو أنه كتم نيته عن كل من في الاسكندرية ، إذ ظل الناس فيها يعتقدون أنه انما جاء لانقاذهم وكان قد

تلقى تخويل الامبراطور له بتسليم الاسكندرية . . ولكن ترى من
الامبراطور ؟ أهو هيراقليوناس البالغ من العمر خمسة عشر عاما
أو كونستانس البالغ الثانية عشرة من عمره ، أو مارتينا الامبراطورة
الحاطة بالمقرمة بالدسائس ؟

وكان عمرو بن العاص قد عاد الى حصن بابليون بعد زحفه غير
الموفق نسبيا الى شمال الدلتا . وبدأ أن مادان له من مصر لم يعد نصفها
ولو قدر لهرقل العجوز أن يعيش مدة أخرى وان ينفذ مشروعه بالنزول
شخصيا في الاسكندرية على رأس جيشه الذي أعده ، لطال أمد المقاومة
الى أجل غير مسمى على الغالب . ولكن المقوقس جاء موفدا لغاية أخرى .
وقد رحب عمرو بالمقوقس ترحيبا حارا . وكان قد انقضى نحو عام
تقريبا منذ فاضحه على عقد معاهدة الصلح الاولى التي كان هرقل قد رفضها
ساخطا ومزقها . ويقال ان المقوقس بادر قائد المسلمين هذه المرة بقوله :
« يبدو أن الله قد منحكم هذه البلاد » .

وتم في الثامن من نوفمبر (تشرين الثاني) عام ٦٤١ ، التوقيع على
معاهدة بين عمرو بن العاص والمقوقس . وقد نصت المعاهدة على أن يدفع
أهل مصر الجزية أسوة بأهل سوريا وفلسطين والعراق . ويبدو أنه فرض
على كل رجل أن يدفع دينارين بالإضافة الى الضرائب العينية من قمح
وزيت وملابس لجنود المسلمين . وتقرر أن تعقد هدنة لمدة أحد عشر شهرا
تنتهي بنهاية سبتمبر (أيلول) عام ٦٤٢ ، على ألا يهاجم العرب الاسكندرية
في غضون هذا ، وأن يجلو الروم ابانها بطريق البحر حاملين معهم ما يملكونه
واشترطت المعاهدة ألا يعود الروم الى مصر ، وألا يحاولوا العودة اليها
والأ يضع المسلمون أيديهم على أية كنائس جديدة وألا يتدخلوا في حرية
العبادة بالنسبة الى المسيحيين . وقررت المعاهدة أن يظل اليهود في
الاسكندرية . وان يصبح أهل مصر ، بدفعهم الجزية للمسلمين ، تحت
حماية جيوشهم (١) .

(١) تختلف روايات المؤرخين العرب تمام الاختلاف من رواية المؤلف ، فهي لا تتحدث
من سفر المقوقس الى القسطنطينية ، ولا عن رجوع عمرو بن العاص الى البوثة (بابل)
ولتنقل هنا ما قاله البلاذري : « سار عمرو حتى انتهى الى الاسكندرية ، فوجد أهلها
مدينين لقتاله ، الا أن القبط يحبون الموادة ، فأرسل اليه المقوقس يسأله الصلح
والمهادنة الى مدة . فأبى عمرو ذلك فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة
مقلبات وجوههن الى داخله . وأقام الرجال في السلاح مقبلين بوجوههم الى المسلمين
ليرهبهم بذلك . فأرسل اليه عمرو : انا قد رأينا ما صنعت . وما بالكثرة غلبنا من =

ويضيف الطبرى الى المعاهدة بندا طريفا آخر ، فقد ذكر انه نص على
 ألا يسمح للنوبيين ، والمقصود بهم السودانيين على الغالب ، بغزو البلاد
 وهناك من ذكر أيضا بأن المعاهدة تضمنت بندا آخر يشترط عدم زيادة
 الجزية أو الخراج فى المستقبل .

وأوفد عمرو بن العاص بعد انتهاء المفاوضات رسولا الى الخليفة فى
 المدينة ينقل اليه النبأ . وتقول الروايات ان الرسول طلب من عمرو كتابا
 يحمله الى الخليفة فرد هذا قائلا : وما شأنى بالكتاب ؟ أو لست عريضا
 يستطيع أن ينقل شفاها كل مارآه بعينيه ؟ كانت هذه هى الاساليب
 البعيدة عن الرسميات ، التى استعملها الخلفاء الاول وقادتهم الصنكريون
 فى اقامة امبراطوريتهم العظيمة . ووصل الرسول الى المدينة بعد ظهر
 ذات يوم ، فأنافح ببعيره أمام المسجد الذى يطل باب الخليفة على باحته
 . وخرجت فتاة صدفة من البيت فرأت وعشاء السفرة على الرسول وبعيره
 . فسألته عن أمره ، ورد الرجل بأنه رسول من عمرو بن العاص . وعادت
 الفتاة مهرولة الى الدار ، ولم تمض ثوان حتى كانت تخرج ثانية لتستدعى
 الرسول الى مقابلة الخليفة ، واستعلم عمر بن الخطاب من الرسول عن
 كل شيء . . . فرد هذا . . . أنباء طيبة يا أمير المؤمنين . . . لقد فتح الله لنا
 الاسكندرية .

وأسرع الخليفة البسيط المتواضع الى فناء المسجد . وطلب الى
 المؤذن أن يؤذن بالناس داعيا اياهم الى الصلاة . وبعد أن روى الأنباء
 السارة للمسلمين ، أقيمت الصلاة ، وعاد عمر الى بيته المتواضع ، حيث
 دعا الرسول الذى يعلوه غبار السفر الى تناول الطعام معه وهو مؤلف من
 الخبز والزيت والتمر . وبمثل هذه الطريقة البسيطة نقلت مثل هذه الأنباء
 العظيمة ، واستقبلت فى العاصمة .

== غلبنا . فقد قينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان . فقال القوقس لاصحابه : قد
 صدق هؤلاء القوم . أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية . فنحن
 اولى بالادمان . فأنفلطوا له القول ، وأبوا الا المحاربة ، فقاتلهم المسلمون قتلا شديدا
 وحاصروهم ثلاثة اشهر ، ثم ان عمرا فتحها بالسيف وغنم ما فيها ، واستبقى أهلها
 ولم يسب وجعلهم ذمة كاهل اليونة ، كتب الى عمر بالفتح مع معاوية بن جندع
 الكندى ، وبعث اليه معه بالخمس ، ويقال ان القوقس صالح عمرا على ثلاثة عشر ألف
 دينار على أن يخرج من الاسكندرية من اراد الخروج ، ويقيم بها من أحب المقام وعلى
 أن يقرض على كل حال من القبط دينارين . فكتب لهم بذلك كتابا .

(الحرب)

وكان المقوقس قد عاد في غضون ذلك الى الاسكندرية • وعلى الرغم من أن ثيودور كان قد عاد الى المدينة ، الا أنه لم يرافق البطريق في رحلته الى بابل ، وكان ثيودور قد خسر كل معركة خاضها مع العرب ، الا أن مما يستحق الذكر بأنه في هذه المرة ، وبعد موت هرقل ، كان يلحف بوجوب استمرار المقاومة في مصر • ومن هنا تتبلج الحقيقة في أنه لم يكن موثوقا لدى المقوقس الذي أخفى عنه ولا ريب أنه ذاهب الى بابل للتوقيع على صلح مع العرب • وعندما عاد البطريق أفلع كما يبدو في اقناع ثيودور باستحالة المقاومة أمداً آخر ، مؤكداً له ولا ريب ، بأن تعليماته التي حملها من الامبراطور تأمره بالتوقيع على الاستسلام •

وعندما نعى خبر الاستسلام الى أهل الاسكندرية استبدت بهم موجة عارمة من السخط وهاجت الجماهير وماجت وهرعت تذرع الشوارع الى القصر ، معتزلة الاقتصاص من البطريق ، الذي استقبلته قبل شهرين استقبال الفاتحين معتبرة إياه منقلبا من العرب • وظلت حياة المقوقس معرضة للخطر بعض الوقت • ولكنه مالبت وبصورة متدرجة ، أن أفلع في اقناع معارضيه بحتمية الاستسلام • وقال لهم ان العرب قوم لا يقاومون وان الله قد شاء أن يمنحهم أرض مصر ، مكررا ما قاله في هذا الصدد نفسه لعمر بن العاص • وسالت الدموع على وجنتيه • وهو يؤكد لهم أنه فعل لهم كل ما في وسعه • وان غاية المحاولات التي بذلها انقاذهم وانقاذ أولادهم وكنائسهم من الموت والدمار • وتمكن بهذا الأسلوب الخادع من تهدئة الجماهير التعسة الحظ التي خانها وخدعها بمكر ودهاء (١) •

وليس في امكاننا حتى الآن • التمسك من الدوافع التي حملت المقوقس على هذا السلوك • فهناك من يقول بأنه كان رجلا ضعيفا عجوزا مسكينا • ولكن من الصعب علينا أن نصدق هذا القول ، على ضوء ما رأيناه منه من تصميم وقسوة في اضطهاد الاقباط فيما مضى • وهناك من تصور بأن المقوقس كان يعتقد نفسه صديقا شخصيا لعمر بن العاص وكان يأمل في أن يظل في منصبه كبطريق لمصر في ظل الحكم الاسلامي ، ولكن اذا كانت مثل هذه المطامح قد ساورته فعلا ، فإنه ولا ريب لم يحقق منها شيئا فقد مات في الواحد والعشرين من مارس (آذار) عام ٦٤٢ أي قبل أن يحتل العرب المدينة •

(١) يبدو المؤلف هنا على حقيقته بعيدا من الموضوعية وكارها للعرب والمسلمين • بنفت • موم حقه بمثل هذه اللغة السافرة التي استعمالها • (العرب)

وأقر هيراقليوناس فى القسطنطينية معاهدة الصلح هذه فى غضون ذلك وكان إقراره من آخر الأعمال التى قام بها ، اذ خلخ عن العرش فى نوفمبر (تشرين الثانى) عام ٦٤١ نتيجة انقلاب عسكري قام به أنصار كوستانس ، وقام الانقلابيون بقطع لسان مارتينا وجدع أنف هيراقليوناس ثم أبعد وهما عن العاصمة الى المنفى بين لعنات رعاياهما السابقين (١) .

وكان عمرو بن العاص فى فترة ترقب استسلام الاسكندرية . قد دأب على انشاء مدينة عسكرية لقواته خارج اسوار بابل ، فقد رأى أن الاسكندرية بوصفها ميناء على البحر الذى يسيطر عليه اسطول الروم ، لم تكن صالحة كعاصمة عربية . وحرى بنا أن نذكر مدى اصرار عمرو بن الخطاب دائما على أن تظل أظهر الجيوش العربية فى البلاد المحتلة مرتكزة الى الصحراء ولم يكن عمر ليقبل أبدا أن تفصل دلتا النيل بين الحامية العربية فى مصر وبين الجزيرة العربية . أما بالنسبة الى بابل (اليمونة) فلم تكن هناك جبال أو مياه تفصل بينها من ناحية وبين الصحارى العربية

(١) يختلف رواية المؤلف من جديد عن الروايات العربية . اذ تقول ان عمرو بن العاص استخلف على الاسكندرية بعد فتحها عبد الله بن حذافة فى رابطة من المسلمين ثم انصرف الى القسطنطين . وكتب الروم الى قسطنطين بن هرقل ، وكان الملك يومئذ ، يخبرونه بقتل عدد المسلمين عندهم . وبما هم فيه من الدلة وأداء الجزية ، فبعث رجلا من أصحابه يقال له منويل فى ثلاثة مركب مشحونة بالقاتلة . فدخل الاسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين الا من لطف للهرب فنجوا ، وذلك فى سنة خمس وعشرين . وبلغ عمرا الخبر لفساد اليهم فى خمسة عشر ألفا ، فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يمشون طيها الى الاسكندرية من قرى مصر فسادا فلقبهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة والمسلمون مترسون . ثم صدقوهم الحملة ، فالتحمت بينهم الحرب ، فاقبلوا قتالا شديدا . ثم ان أولئك الاروام ولوا منهزمين . فلم يكن لهم ناهية ولا مرجة دون الاسكندرية . فتحصنوا بها ونصبوا العرادات ، فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال : ونصب المجانيق فأخرب جدرانها ، والى بالحرب حتى دخلها بالسيف منوة فقتل المقاتلة وسبى الدرية . وهرب بعض رومها الى الروم ، وقتل عدو الله منويل وهزم عمرو والمسلمون جدار الاسكندرية وكان عمرو نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك .

ويقول البلاذرى : ووضع عمرو على أرض الاسكندرية الخراج ، وعلى أهلها الجزية ، وروى أن المقوقس اعتزل أهل الاسكندرية حين نقضوا ، فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الاول . وروى أيضا أنه كان قد مات قبل هذه الفزوة .

هذه روايات التاريخ العربى . ويبدو أن المؤلف أثر أن يتجاهل قصة النقض مفتح الاسكندرية منوة للمرة الثانية لأنها تهدم له كل نظريته المضللة التى أقامها واتى حاول أن يظهر فيها أن الاسكندرية قد سقطت فى ايدى العرب نتيجة ما سماه بخيانة المقوقس لا نتيجة انتصار عسكري حققه العرب بشجاعتهم . وهذا هو عين التضليل .

(المعرب)

المضيافة للعرب • واطلق اسم الفسطاط على المدينة العسكرية العربية الجديدة ، وتقوم مدينة القاهرة الحالية وضواحيها الآن على آثار مدينة ممفيس القديمة • ومدينة مصر التي بنيت في القرن السابع ، والفسطاط وقلعة بابل وميدان معركة هليوبوليس •

ويقوم الدليل على أن انهزامية المقوقس لم يكن لها ما يبررها ، هذا إذا شئنا ألا نسميها خيائته المرسومة (١) من الحقيقة الواقعة ، وهي أن بعض مدن الدلتا رفضت أن تفتح أبوابها للمسلمين صلحا ، حتى بعد إبرام هيراقليوناس وعمر بن الخطاب لمعاهدة الصلح • ولقد كانت مقاومتها صلبة رغم وضعها اليائس الذي نتج عن تخلي البيزنطيين عنها ، حتى أن اخضاع شمال الدلتا استغرق من العرب عدة أشهر بين نوفمبر (تشرين الثاني) عام ٦٤١ ويوليو (تموز) عام ٦٤٢ • فلقد كانت المنطقة بما ينتشر فيها من أقنية الري التي لاتعد ولا تحصى شاقة على عرب الصحراء • وعلى الرغم من كل هذا فمن الجري بنا أن نذكر ، أن الاقباط حاربوا بكثير من العناد والصلابة حتى في ظروفهم تلك التي لم تكن تحمل لهم أى أمل بالنجاح •

وفي وسعنا أن نستخلص من هذه العوامل كلها ، دروسا عدة ، ذات علاقة ماسة بأحداث عصرنا • أول هذه العوامل أن المصريين كمحاربين لم يهزموا الا بسبب افتقار قادتهم الى الكفاية (٢) واذا ما قارناهم بالعرب

(١) يصر المؤلف من جديد على نظريته التي تتعارض مع كل أحداث التاريخ العربى ومع روايات المؤرخين • لغاية في نفس يمتوب ، ستظهر واضحة في الفقرة التالية وهي وغبته في الفصل بين العرب والمصريين من ناحية والخط من شأن شجاعة العرب من ناحية اخرى • (العرب)

(٢) يحاول المؤلف هنا أن يضل قراءه ، وأن يصور لهم أن العرب كانت في مصر بين العرب من ناحية والمصريين من ناحية اخرى • مع أن الحقيقة التاريخية التي لا تقبل النقض ولا الجدل هي أن الحرب كانت بين العرب والروم ، لا بين العرب والمصريين أى الاقباط ، ولعل من ناقلة القول أن يؤكد هنا أن الروم كانوا مستعمرين لمصر • لا من اهلها ، وأن الاقباط كانوا يكرهونهم أشد الكره • لما اتبعوه من سياسات الاضطهاد الدينى التي اعترف بها المؤلف • ولهذا فإن المصريين أى الاقبساط وقفوا موقفنا سلبيا من الروم عند غزو العرب للبلاد ، وهو ما يؤكد جميع مؤرخى العرب • أما القول بأن القادة المصريين كانوا يفتقرون دوما الى الكفاية ، فتضليل وتشويه لكل حقائق التاريخ • إذ أن الجيوش المصرية في جميع الميود المصرية منها وقبل العربية • قامت بفتوحات عسكرية عظيمة دللت على كفاية قيادتها ، وحسن بلاتها • لكن المؤلف يريد أن ينفث سموم حقد الاسود على المصريين • ومن هنا نراه لا يتورع حتى عن اختلاق الاكاذيب ، وقلب الحقائق التاريخية • (العرب)

وجدنا أنهم كانوا بطيء الحركة مفتقرين الى المبادرة . أما اذا كان المصريون مرابطين في قواعد عسكرية منيعة ، فانهم يظهرون شجاعة فائقة واصراراً كبيراً على الدفاع . وهم يرفضون التسليم حتى وان يأتوا في وضع يائس . وهناك مفارقة عجيبة بين العرب والمصريين في هذه النواحي فالجنود العرب يقظون ، سريعو الحركة ، على استعداد للحسم في المواقف وتولى زمام المبادرة ، وهم يكرهون الجمود والبقاء في مركز ثابت ، وهذه الفروق واضحة اليوم كما كانت واضحة في القرن السابع . مما يؤكد الاختلاف العنصرى بين الفريقين نظرا لاختلاف خصائصهما ومن هنا يكون الميل العنصرى الى اطلاق صفة العروبة المشتركة عليهما مجرد تضليل (١) .

وتميل حقيقة اعداد السكان الى تأكيد هذه النتائج التى توصلت اليها . فهناك اليوم في حوض النيل الصغير عدد من السكان أكثر بكثير من عددهم في الجزيرة العربية الفسيحة الأرجاء . لا ريب في أن عدد سكان مصر في القرن السابع كان يربو على عدد سكان الجزيرة كلها . ومع ذلك فلقد كان هؤلاء السكان القلة يشتبكون في حروب في وقت واحد في مصر وفارس والعراق وسوريا وفلسطين . وسرعان ما قدر لهم أن ينتشروا في شمال افريقيا أيضا ، وفي الاندلس وفرنسا ، وهكذا فان عدد سكان الجزيرة العربية أيام الفتوحات الاسلامية ما كان ليترك هذا الأثر الكبير في سكان بلد كمصر . يضاف الى هذا أن العرب الذين هاجروا في تلك

(١) ليس هناك من هو أكثر تضليلا من المؤلف نفسه . لقد وضع نصب عينيه لغايات استعمارية تدل عليها طبيعة العمل الذى قام به ثلاثين عاما في الوطن العربى ، وحققه الاستعمارى الدفين على مصر ورائد العروبة جمال عبد الناصر ، أن يفصل بين العرب وبين المصريين « قلب الحقائق التاريخية وشوهم ليصل منها الى استنتاجات خاطئة يحاول أن يدعمها بأدلة أكثر منها خطأ . فهو يجسم ما يسميه بالفروق بين خصائص العرب وخصائص المصريين ويهول فيها « ناسيا أن مثل هذه الفروق ، موجودة بين أهل لندن مثلاً وأهل مانشستر . أو بين أهل كنت وأهل ويلز في بلاده ، أو بين أهل بافاريا وأهل روسيا في ألمانيا ، ولو جانب المؤلف سبيل الهوى والغرض لحظة واحدة ، لادرك أن العوامل الجغرافية وعوامل البيئة ، والطبيعة تلعب دورها في خلق مثل هذه الفروق بين أبناء الشعب الواحد . فاهل اليمن مثلا يختلفون بعض الاختلاف عن أهل الحجاز . وهؤلاء يختلفون من أهل نجد . مع أنهم جميعا من أصل عربى واحد ، لا يستطيع المؤلف ، حتى ولو أوى من القدرة على التضليل وقلب الحقائق ، طاقات فلة أن ينكره . . . لكن هذا القول الذى جاء به المؤلف نفية استعمارية ممجوجة كثيرا ما رأيناها في كتب غيره من المؤلفين الغربيين وفي صحافة الغرب ووسائل اعلامه .

(العرب)

الايام كانوا جميعا من البدو ، الذين لا يستسيغون هذه التربة الغرينية العميقة الموجودة في مصر ، ولا يستطيعون قنواتها المائية التي لاتعد ولا تحصى أو حرارتها المحرقة المشبعة بالرطوبة . وقد اتجهت هذه القبائل في حالات معينة الى الجنوب نحو الصحراء باتجاه السودان ، أو عبرت النيل لتهاجر غربا عبر الصحراء الى ليبيا ، وقد يكون من المتعذر اليوم على بدوى الجزيرة العربية أن يفهم لهجة أهل الدلتا . ولكنه يرى في لهجة أهل ليبيا وشمال السودان كثيرا من التعابير الشائعة عند أهل قبيلته في الجزيرة العربية (١) .

وليس من شك في أن المبع الرئيسى لاختلاط الدم العربى في مصر بعد الفتح انما نشأ عن حامية الفسطاط . وكان في استطاعة الجنود العرب جريا على مألوف تلك الايام أن يتزوجوا أكثر من واحدة من المصريات . وأن يقتنوا مالا عد له من الجوارى . وليس ثمة من شك في أن الذرية الناجمة عن هذه الاوضاع تدعى الاصل العربى لانتماؤها الى آباء عرب وتعود هذه الذرية فتبنى بزوجات من المصريات ، ولا تمضى عدة أجيال حتى يكون نسل الصحابة قد أصبح مصريا صميما .

ويؤكد المؤرخون بالاضافة الى كل هذا أن عددا من الاقباط قرر عند ابرام صلح الاسكندرية التحول الى الاسلام ، رغبة منهم في التخلص من الجزية والضرائب الثقيلة أولا والوصول الى مركز المساواة مع الفساحين المنتصرين في الميدان الاجتماعى ، وقد مال المؤرخون الى اعتبار هؤلاء من العرب ، وهو خلط فكرى بين العنصر والدين .

وفتحت الاسكندرية في سبتمبر عام ٦٤٢ أبوابها للعرب طبقا للاتفاق . وانتهت الى الأبد سيطرة البيزنطيين على مصر .

وكان من النتائج البارزة لفتح مصر على يد عمرو بن العاص وصول رسالة من الخليفة الى القائد الظافر ، يقول فيها أن الانباء التي وصلت الى

(١) استنتاجات خاطئة تقوم على فرضيات سخيفة ، والا متى كانت الاختلافات في اللهجات دليلا على خلاف في المنصر . لقد كانت لكل قبيلة من القبائل العربية ومازالت لهجتها الخاصة بها ، كما أن سكان كل مدينة يختلفون في لهجتهم عن سكان مدينة مجاورة في وطن واحد . ولعل المؤلف لا ينسى وان تناسي ، أن هذا الاختلاف في اللهجات موجود في بلاده انجلترا ، بين مقاطعة وأخرى ، بل وبين مدينة ومدينة .
(العرب)

المدينة تفيد أنه ، أى القائد أصبح ثريا يملك المتاع والرقيق والآنية والحيوان مما لم يكن له عندما ولى مصر . ورد عليه عمرو قائلا : ان أرضنا أرض مزروع ومتجر ، فنحن نصيب فضلا عما نحتاج اليه لنفقتنا ، فكتب اليه الخليفة الصلب يقول : انى قد خبرت من عمال السوء ماكفى وكتابك الى كتاب من قد أقلقه الأخذ بالحق ، وقد سؤت بك ظنا . وقد وجهت اليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فاطلعه طلعة ، وأخرج اليه مايطالبك واعفه من الغلظة عليك ، فانه برج الحفاء . وهكذا نرى الخليفة يصادر تقسما كبيرا من ثروة القائد الظافر وهو فى أوج انتصاراته وليس ثمة فى التاريخ احداث كثيرة تماثل هذا الحادث البارز .

وعندما جاء محاسب الخليفة محمد بن مسلمة . ليقاسم عمرا ثروته ، قال عمرو كما تذكر الروايات . ان زمانا عاملنا فيه ابن حنمة هذه المعاملة - يعنى عمر بن الخطاب - لزمان سيوء . لقد كان العاص يلبس الحز بكفاف الديباج . فقال محاسب الخليفة : « مه لولا زمان ابن حنمة هذا الذى تكبره . الفيت معتقلا عنزا بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوؤك بكاؤها » فقال عمرو . « أنشدك الله ألا تخبر عمر بقولى ، فان المجالس بالامانة » . فرد محمد بن مسلمة قائلا : « لاأذكر شيئا مما جرى بينكما » . وعمر حى . ولا ريب فى أن هذا الحوار الممتع القصير الذى دار قبل نحو من ألف وثلاثمائة عام . يعتبر نموذجا للنكتة العربية الساخرة . ولا ريب فى أن ماينطوى عليه من وضوح يقنعنا كل القناعة بصدقه .

ويميل كل عصر من العصور الى أن ينسب الى العهود التاريخية الاخرى العقلية الخاصة به . فلقد نسب اسلافنا من ذوى التفكير الدينى ، الفتوحات العربية الى الحماس الدينى الاسلامى . أما فى عصرنا المادى الحاضر ، فقد أصبح من المألوف أن تنسب مثل هذه التفجرات للطاقة ، الى الدوافع الاقتصادية ، والى ضغط المجاعة فى الجزيرة العربية . ولكن هذا الحادث وحده يعتبر كافيا لنفى مثل هذا الافتراض . فلو قبلنا بالنظرية القائلة بتعلقات خالد بن الوليد وعمرو بن العاص الدينيوية ، لما الذى يدفع مثل هذين القائدين الظافرين ، وهما على رأس جيشهما الى تسليم ما يملكانه من ثراء دون أى تأفف أو تدمر ، الى رسول فرد أعزل مؤفده الخليفة العازى القدمين الرابض بعباته المرقعة فى المدينة ؟ ليس ثمة من خلاف فى أن هناك ردا واحدا على هذا السؤال . انها المعنويات العظيمة التى سبادت المجتمع كله آنذاك ، هى التى مكنت عمر بن الخطاب من سلوك مثل هذا السلوك الصارم مع قادته العسكريين وولاته . وعندنا

نقارن هذا الوضع بما كان عليه بلاط القسطنطينية من تنابد وأنانفة وتقسف إلى أحزاب ودسـائس تحاك وراء الكوالفس فتفن لنا الحقفقة الناصعة ، فف أسباب انتصارات العرب العظفمة •

تواففخ بارزة

١٣ من مأف (أفار) ٦٤١	احتلال نففكو (زاوفة راسفن)
٢٥ من مأف (أفار) ٦٤١	موت الامبراطور قسطنفن أكبرا بناء هرقل
	فف بفزنطة
فوففو (تموز) ٦٤١	انسحاب الروم إلى الاسكندرفة
١٤ من سبتمبر (أفلول) ٦٤١	عودة المقوقس بطرفق الاسكندرفة
٨ من نوفمبر (تشرفن الثاني) ٦٤١	اجتماع المقوقس بفمرو بن العاص فف بابل
	وتوقفع اتفاق التسلفم
نوفمبر (تشرفن الثاني) ٦٤١	نفى مارتفنا وهفراقلفوناس
٢١ من مارس (آذار) ٦٤٢	موت المقوقس
سبتمبر (أفلول) ٦٤٢	العرب ففحتلون الاسكندرفة •

شففصفاف مشهورة

القائء العام فف مصر	عمرو بن العاص
القائء العام للروم	ففودور

خلفاء هرقل

ابن هرقل	الامبراطور قسطنفن
	الامبراطورة مارتفنا وولدها هفراقلفوناس
نجل قسطنفن	الامبراطور كونستانس

فتح الفتوح

« يطرد الرب جميع هؤلاء الامم من امام وجوهكم
فتراثون امما اكثر واعظم منكم .. »

لا يقف انسان في وجوهكم ، فإن الرب الهكم يلقي
ذعركم ، ودهبتكم على كل الارض التي تطاونها كما
وعدكم » *

= سفر تثنية الاشتراع = الفصل الحادى عشر = ٢٣

« كانت الدعوة الى ميدان القتال بالنسبة الى العرب
الاول اشبه ما تكون بالدعوة الى وليمة عرس ، وكان
هؤلاء الرجال مع شراستهم فى القتال شديدى السمالة
بعد النصر فلقد حفظوا عهودهم تمام الحفظ ، ولم نسمع
عن مجازر لا تميز فيها قد ارتكبوها ، ولم يكن مما يشين
جيوش رومة وفارس ان ينتصر عليها مثل هؤلاء
الناس » *

قريمان = تاريخ العرب

« يتميز العرب بالعنف اذ صباغت طبيعة الحياة
العشنة التى عاشوها خصالهم ، الى ان اصبح العنف
طبيعة ثانية لهم . وهم ، والحق يقال ، ينعمون بالحياة
القاسية اذ انها تمكنهم من تحطيم نير السلطة عن رقابهم
وانخلاص من السيطرة السياسية عليهم ، ومثل هذه
الطبيعة تتعارض مع انتشار الحضارة . واخيرا يعتبر
كل عربى نفسه أهلا للحكم ولذا يندر ان تجد منهم من
يلعن طواغية لسيطرة الآخرين » *

مترجمة عن الانجليزية . مقتبسه من ابن خلدون

فتح الفتوح

تابعنا في الفصل التاسع من هذا الكتاب هزيمة يزديجرد ثانية في جلولا عام ٦٣٨ ميلادية ، ورأينا أبا موسى الاشعري يوالى انتصاراته في الاهواز حيث احتل رامهرمز والسوس وتستر ، لكن الخليفة كان قد أصدر أمره الى سعد بن أبي وقاص بعدم تجاوز جبال زاغروس ، مما أدى الى توقف القتال بين العرب والفرس ، مدة ثلاث سنوات بعد معركة جلولا .

ولكن ملك الفرس الفتى لم يكن قد قرر بعد الاعتراف بالهزيمة . ولذا راح يوفد رسله الى حكام الامارات التي لم يكن العرب قد احتلوها بعد يأمرهم بأن يجندوا أكبر عدد من الرجال . وأن يرسلوهم للانضواء تحت راية الملك . وهكذا تم في عامي ٦٤٠ و ٦٤١ بناء جيش جديد في فارس ووصلت أنباء هذه الحشود الى سعد بن أبي وقاص ، وهو في قيادته في الكوفة ، فراح يبعث بها الى الخليفة في المدينة مناشدا اياه الاسراع في ارسال النجادات .

وكان عمر ، بما عرف عنه من حيوية ، عند حسن ظن قائده . وراح يستصرخ القبائل ارسال الرجال من أبنائها ، معلنا عزمه على قيادة الجيش الجديد بنفسه الى فارس وعاد فسمح لصحابته بأن يحولوا بينه وبين السفر بنفسه (١) . وأرسل القوات الى العراق منتدبا لقيادتها النعمان بن مقرن ، أحد الانصار من أهل المدينة ، وكان يتولى آنذاك رتلا في الاهواز . ومخولا اياه الاشعثباك بجيشه الجديد مع جيش يزديجرد . وصدرت الأوامر في الوقت نفسه الى الجيش العامل في الاهواز بأن يرسل فصيلا لتعزيز جيش النعمان بن مقرن وبأن يواصل التقدم هو في الاهواز ، ليحول اتجاه النجادات الفارسية اليه .

وتحرك النعمان بن مقرن باتجاه حلوان ، حيث وردت اليه الانباء بأن الفرس قد اجتمعوا في نهاوند الواقعة وسط السهل القائم على الطرف الآخر من جبال زاغروس ، وقيل ان جيش المسلمين كان يعد ثلاثين ألفا . وان جيش الفرس ، كان يعد أكثر من ذلك بكثير لكنني أشك في صحة

(١) شجرة مفصلة من جديد ، من جانب المؤلف ، يظهر عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه بمظهر المروء من السير بنفسه الى الحرب . (العرب)

هذه الأرقام من الجانبين ، واعتقد ان الجيشين كانا أقل من ذلك بكثير (١) .
ولا ريب في ان الصورة التي وصلت الينا عن معركة نهاوند لا تقل
غموضا عن الصور السابقة ، التي وصلتنا عن المعارك الأخرى ، ولكن
يبدو لنا ان الفرس كانوا يحتلون موقعا خصبا يرفضون الخروج منه
للقتال . وكانوا قد نشروا على الأرض القسائم أمام خطوطهم الدفاعية
مسامير من الحديد تثقب حوافر الجياد . بحيث يتعذر على الفرسان أن
يقتربوا من هذه الخطوط . وذهل العرب من هذا الأسلوب الجديد ، الذي
يعتبر أول تطبيق لنظرية زرع الألغام . وعقدوا مجلسا حربيا يتداولون
فيه الرأي . وشهد عدد من قادة العرب ومحاربهم البارزين . وكان
عبد الله بن عمر يتولى قيادة المهاجرين والانصار من أهل المدينة ، وكان مع
الجيش أيضا جرير بن عبد الله شيخ بنى بجيلة ، وابو موسى الأشعري
عامل البصرة على رأس قوة من أهلها ، وطلحة الأسدي أحد أنبياء الردة
الكاذبين . وكان طلحة قد أبلى بلاء حسنا في معركة القادسية . فتقدم
الآن الى المجتمعين برأى ، أشار فيه بأن يتظاهر جزء من جيش المسلمين
بالهجوم على مواقع الفرس ، ثم يدعى الهزيمة والذعر ، فاذا ماولى هذا
القسم هاربا . فان الفرس قد تستهويهم الحماسة ، فيخرجون من مواقعهم
لمطاردته وأنداك يهاجم بالجزء الأكبر من جيش المسلمين ويشتبك معهم في
القتال في الأرض العراء (٢) .

وأقر النعمان خطة طليحة . وعهد الى القعقاع البطل ، بمهاجمة
مواقع العدو على رأس رجاله من بنى تميم . وأدار العرب ظهورهم بعد
معركة صورية متظاهرين بالهزيمة والفوضى واستخف النصر بالفرس ،
الذين ثملوا بنشوة الظفر أخيرا ، فخرجوا من حصونهم ومعاقلهم .
يتقدمهم الرجال ، يلتقطون المسامير من حقول الضامهم . ليطاردوا فلولا

(١) يشكك المؤلف في صحة أرقام المؤرخين المسلمين دون أن يورد سببا أو مبررا
لنشكيكه مع أن المؤرخين يؤكدون أن جيش الفرس كان يبلغ ستين ألفا أو مائة ألف .
(٢) يبدو أن العرب كلنوا قد ألفوا مناورة استغفال العدو الى القتال ، منذ
أيام الجاهلية . وابعوها في المارك التي خاضها النبي . وقد جاء ذكرها في القرآن
الكريم اذ قال تعالى في سورة الانفال . . « يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا
وحفا فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيرا الى فئة ،
فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهنم ، وبئس المصير » .
ويقول المؤلف ان وليام الفاتح ، قد استخدم الأسلوب نفسه في معركة
هيستنجر ليخرج قوات الانجلز والسكسون من حصونها لتخوض معه المعركة التي أدت
الى فتح بريطانيا .
(المغرب)

العرب المنهزمة وفجأة رأى الفرس أنفسهم يواجهون الجيش العربى الذى كان مختفيا عن النواظر . وفاتت فرصة التراجع ورتب الفرس صفوفهم للمعركة على أفضل شكل ممكن .

وعندما أمر النعمان رجاله بالهجوم ، هتف العرب بصوت واحد . . « اللهم انصر الاسلام وثبت كلمة المسلمين » واندفعوا كرجل واحد على أعدائهم . وكان النعمان يقف فى طليعتهم ، حاملا راية القيادة بيده ويتقدم صفوف المهاجرين ، فأصابه سهم نفذ من خاصرته ، وسقط عن ظهر جواده . واختطف حذيفة بن اليمان الراية من يده ، وكان الخليفة قد أمر بأن يتولى القيادة فى حالة استشهاد النعمان ، فتولاها فعلا ، واشتد وطيس القتال ، وكثر عدد الضحايا وأخذت الجياد تتعثر بجثث القتلى وتخوض فى بحر من الدماء وعندما حل المغيب كانت صفوف الفرس قد انهارت وركنوا الى الهزيمة . حتى ان بعضهم اضطر الى الهرب عن طريق الحقول الملأى بالمسامير التى زرعوها هم بأنفسهم وتحطم الجيش الفارسى بكامله أثناء عملية المطاردة ، وقتل القائد الفارسى ابان هربه .

وفرض العرب حصارهم على مدينة نهاوند القريبة ، فاستسلمت للعرب الظافرين صلحا . وجمع العرب كثيرا من الغنائم بينها صندوقان مليئان بالذهب والحجارة الكريمة فبعثوا بهما الى الخليفة فى المدينة . وروى الرسول الذى حمل الانباء والمجسورات الى الخليفة انه جاء الى المدينة فوجد الخليفة وقد راث عنه الخبر ، وهو يتطوف المدينة . ويسأل ، فلما رأى قال : ويلك ما وراءك ! فحدثته بحديث الواقعة . فقال ما فعل النعمان ؟ قلت : قتل ، قال انا لله وانا اليه راجعون . ثم بكى ، فقلت : قتل والله ، فى آخرين لا أعلمهم ، قال : ولكن الله يعلمهم .

وعندما حدثه الرسول عن الصندوقين أمر الخليفة بوضعهما فى بيت مال المسلمين ولكن وجود هذه الثروة الطائلة أثقل على ضمير الخليفة . فلما أصبح الصباح استدعى الرسول وقال له : اذهب بهما فبعهما . ثم اقسام ثمنهما بين المسلمين وهكذا بعد أن تخلص فى رأيه ، من هذه الثروة التى تعود الى الحكومة بمثل هذه الطريقة الناجحة عاد الرجل الشيخ الطيب ، الى أعماله اليومية مرتاح البال مطمئن الضمير دون أن يخشى حسابا من أحد .

ولعل هذا الحادث ، اذا صحت روايته يعتبر مهما وطريفا . اذ يظهر تمام الظهور بساطة الاجراءات الادارية فى الامبراطورية الجديدة ، حتى بعد تسع سنوات من انتصاراتها الدائمة الأمتداد . فلقد كانت موارد

الدولة المالية لا تزال تسلم شخصا الى الخليفة فى بيته المتواضع المبني من الطين والقائم بجوار المسجد . ويبدو انه كان يشعر ببعض الاضطراب فى فكره وضميره من جراء التمييز بين ما يملكه ، وما تملكه الدولة . وكان يحس بالآلم من رؤيته هذه الكنوز الضخمة فى حوزته . ولعل من الطريف ان يلاحظ المرء هنا ، انه امر الرسول بحمل هذه الجواهر بعيدا دون ان يفكر فى اخذ ايصال منه ، أو بتسجيلها فى حساب . وليس غريبا أن بعض القواد العسكريين العرب وبعض أمراء المقاطعات قد غدوا أنرياء . ولعل من الجدير بنا أن نلاحظ أيضا ان الرسول عاد يحمل هذا الكنز فيقطع الجزيرة العربية كلها عرضا . وهى ملأى بالقبائل التى اشتهرت من قبل ومن بعد بميلها الى السلب ، دون أن يذكر المؤرخون ان الرسول كان مصحوبا بحرس أو متخذًا أية احتياطات أخرى(١) .

(١) هذا هو التشويه بعينه ، بل هذا هو التضليل . فالمؤلف يريد أن يطمئن في القادة المسلمين الاول وفي أمراء الامصار ، وأن يشوه سمعتهم متهمًا اياهم بالثراء على حساب بيت مال المسلمين ، كما يمتضي في تشويهه وتضليله قبطن القبائل العربية كلها بتهمة الميل الى السلب .

والرد على المؤلف بسيط ، فالمعروف أن الخلفاء كانوا يولون قيادة الجيوش وامارة الامصار الى الصحابة الاول . وهم معروفون بتقاهم وتسكهم بالاسلام الذى يحول بينهم وبين ابتزاز مال المسلمين ، يضاف الى هذا أن الخليفة كان دقيقا وشديدا في محاسبته لعماله حتى ضرب المثل بشدته وكان يأخذ منهم أموالهم الخاصة التى كسبوها بجهودهم وجهادهم لجرد الاختباء . والامثلة على ذلك أكثر من أن تعد وتحصى أما اذا كان بعضهم قد اغتنى قولا فان ثروته لم تجمع من ابتزاز اموال المسلمين وإنما من حصتهم في غنائم الحروب ، ومن اتجارهم بالاموال التى جمعوها (٢)

أما بالنسبة الى القبائل العربية ، فقد يكون رأى المؤلف فيها صادقا بالنسبة الى ايام الجاهلية أو الى الايام الاخيرة . بعد أن ضعف احساس أفرادها بالاسلام أما في تلك الايام ، أى في صدر الاسلام ، فلم يكن هناك نهب أو سلب مطلقا . لحوامل عدة منها قوة الاسلام في نفوس العرب ، وهى القوة التى ثبت وجودها بالفتوحات العظيمة التى حققوها ، ومنها قوة الحكم الاسلامى الذى يمنع السلب والنهب .

ولعل خير ما تكمل به هذا التعليق أن نذكر ان الرسول الذى حمل المجوهرات كان يمدى السائب بن الاقرع ، وهو من الانصار ومن صحابة رسول الله فهو مؤمن عند النعمان بن مقرن الذى حمله الصندوقيين ومؤمن عند الخليفة الذى اعاده بالصندوقين ليتولى بيدهما وتوزيع ثمنهما على المسلمين . وهذا الائتمان نفسه هو بمثابة ائصال أو حساب ، ولا ريب في أن معرفة العرب بأنه رسول الخليفة حماية له أقوى من حماية الحرس والجند وقد عاد بالصندوقين كما يؤكد المؤرخون العرب الى الكوفة فباعهما الى شلب من قريش يقال له عمرو بن حريث اشتراهما بأطية اللرية ، والمثاقلة . ثم انطلق بأحدهما الى الحيرة فباعه بما اشترى به الصندوقيين وفضل الاخر لديه فكان ذلك أول لهوة مال اتخذها .

(المعرب)

وعاد الرسول بالمجوهرات الى الكوفة ، فباعها الى شاب من قريش وعاد الشاب فبّاع أحد الصندوقين في الحيرة بالثمن الذي دفعه هو للصندوقين محتفظا بالآخر ليبيع محتوياته جوهرة جوهرة . وقد مكنته الصفة من أن يضع حجر الزاوية لثروة طائلة جمعها ، ويبدو من هذا ان ضمائر المسلمين جميعا ، لم تكن كضمير الخليفة بالنسبة الى موضوع الثروات الدنيوية (١) .

واحتل العرب مدينة همدان بعد معركة نهاوند ، وهي المدينة التي اشتهرت باسم «اكباتانا» في التاريخ القديم ، ولم يستطع الفرس بعد نهاوند أن يجمعوا جيشا يدفعون به الى الميدان لحوض معركة أساسية . وتبدو أهمية هذا النصر النهائي ، من الحقيقة الواقعة وهي ان العرب أطلقوا على معركة نهاوند اسم «فتح الفتوح» . ولقد كان من سوء طالع يزدجرد ، انه ارتقى وهو لا يزال غلاما عرش امبراطورية كانت تسير في طريق الهزيمة والانحلال . وقد لجأ الملك الى مدينة الري بعد موقعة نهاوند . وهي مدينة لا تبعد كثيرا عن طهران الحالية من ناحية الجنوب . وكان داريوس الثالث قبل نحو من ألف عام قد سار على نفس هذا الدرب عندما كان فارا أمام جيوش الاسكندر الذي لا يقهر .

وكان عمر بن الخطاب قد بكى لموت النعمان بن مقرن ، واختار أخاه نعيما لتولى قيادة جيش نهاوند جريا على ما ألفه العرب من أن يقوم قريب القتل بأخذ الثأر لقريبه .

ولعل من الاضواء الكشافة البارزة التي يمكن تسليطها على روحية العرب في هذه الايام الاولى من الفتح ، هي الطريقة العرضية المرتجلة التي كان الخليفة يتبعها في موضوع الاقدمية بين قادة الجيش . فلقد سبق لنا ان رأينا كيف أقال عمر بن الخطاب خالد بن الوليد ، الذي كان قد بلغ من الشهرة ما لم يبلغه أى قائد آخر في عصره ، ومع ذلك فقد ظل خالد يعمل تحت أمرة أبى عبيدة بل وتحت أمرة عياض بن غنم وهو قائد كان مغمورا حتى ذلك الحين . وإذا صحت الروايات التاريخية فان النعمان بن مقرن كان حتى وقت قصير يعمل في الاهواز تحت أمرة أبى موسى

(١) كيف يسمح مؤلف مثل هذا يدمى الموضوعية لنفسه ان يجعل من حادث فرد واحد وسيلة لاصدار حكم عام على ضمائر العرب كلهم . ان مثل هذا القول لا يعبد المؤلف من الموضوعية التي يدعيها لنفسه لحسب ، بل يحكم عليه حكما قاطعا بالهرى والغرض والتحامل على العرب ومحاولة تشويه تاريخهم القديم بعد ان شوه تاريخهم الحديث .
(المعرب)

الاشعري . وذلك قبل توليته القيادة العامة للجيش الذي خاض معركة نهاوند . وعلى الرغم من هذه الحقيقة فان الخليفة أمر قسوة من الاهواز بالتوجه الى نهاوند لنصرة النعمان وكان على رأسها أبو موسى الذي غدا الآن مروسا للنعمان . بعد أن كان قبل فترة قصيرة رئيسا له .

ولعل أهمية هذه الحوادث تتركز في الحقيقة الواقعة وهي ان الغيرة الشخصية تعتبر من أهم مظاهر الضعف في الشخصية العربية . وحتى في يومنا هذا فان المنافسات وعوامل الغيرة والحسد بين القادة المختلفين في الجيوش العربية النظامية تولد مصدرا دائما للقلق عند حكوماتها . وقد قدر لهذه العوامل أن تتفجر ثانية قبل انقضاء سنوات طويلة على وفاة عمر بن الخطاب ، وهو تطور يساعدنا على تأكيد ما تميزت به أيام الفتح الاولى من حماسة مثالية ، وإخلاص لا مثيل له . ولقد كانت هذه الروح العامة قوية في تلك الايام الى الحد الذي مكن الخليفة لا من حرمان القادة الظافرين من الثروات التي جمعوها فحسب ، بل ومن اهمال أقدمياتهم وخدماتهم السابقة عند حملهم على اطاعة بعضهم البعض .

كان عمر بن الخطاب قد أمر سعد بن أبي وقاص بعد معركة المدائن بعدم القيام بأية محاولة لاجتياز جبال زاغروس . وقد بين في رسالته له ان سهول العراق الخصبة كافية للعرب ، وان الجبال تؤلف حدا صالحا بينهم وبين الفرس ، كما تؤلف اليوم بالفعل . ولكن يزددرد ، كما ظهر لنا ، لم يكن راضيا عن قبول مثل هذا الحل الوسط . فعندما أخذ يجند الجيوش راح سعد ينقل الى الخليفة نيات كسرى في استعادة العراق . وهكذا رأينا العرب يضطرون الى ايفاد جيش جديد قابل جيش كسرى وهزمه في نهاوند . وهكذا وجد العرب أنفسهم أيضا سنوء أشاء الخليفة ام لم يشأ ، وراء جبال زاغروس . وكان من المحال أن يقفوا عند هذا الوضع ، أو ان عمر لم يرغب بدوره في وقفهم الآن . بعد أن أدرك أن آخر جيش فارسي قد تحطم ولذا عاد يرسل تعاليمه الجديدة الى قادته في فارس ، أمرا اياهم بمطاردة العدو بلا هوادة ولا اشفاق الى أي مكان يفر اليه .

وقد تراجع يزددرد الشاب الى الري ، يتبعه نعيم بن مقرن . بينما عاد أبو موسى الاشعري الى الاهواز وإلى متابعة غزوه لامارة فارس . وكان اسفنديار شقيق القائد رستم الذي قتل في القادسية منصرفا الآن عند سواحل بحر الخزر (قزوين) الجنوبية الى جمع قوات جديدة تحارب دفاعا

عن الملك • ويسارع نعيم بن مقرن الى ملاقاته حيث نشبت معركة جديدة الى الجنوب من الرى فى عام ٦٤٣ هزم فيها اسفنديار وأخذ أسيرا بعد أن تفرق جيشه بددا • وأحس القائد الفارسى اسفنديار باليأس من نجاح الفرس ، فتحول الى جانب العرب • وأخذ منذ ذلك الحين يعينهم فى عملياتهم • واتجه يزدجرد بعد ذلك نحو الجنوب ولجأ الى مقاطعة اصبهان (أصفهان) وصدرت الاوامر فى غضون ذلك الى حديفة بن اليمان ، الذى تولى القيادة فى نهاوند بعد مقتل النعمان بالتوجه لغزو اذربيجان •

مازال اسم الرومان ، الذى كان البيزنطيون لا يزالون يستعملونه حتى تلك الايام مرتبطا فى أذهاننا بما فى الحكم الجمهورى من فضائل بينما نتصور ملوك فارس القديمة طغاة شرقيين يدفعون الى المعارك للقتال نيابة عنهم عشرات الألوف من العبيد الارقاء الذين لا حول لهم ولا طول • لكن سير الفتوحات العربية لا يؤيد صحة هذا الاغراق فى تبسيط الامور فما كادت جيوش الروم تهزم حتى كان سكان سوريا وفلسطين ومصر يحنون رموسهم خضوعا للنير العربى • ويبدو أن الحكم فى الامبراطورية الرومانية كان متمركزا فى القسطنطينية • فاذا ما توقف الامبراطور عن المقاومة أضحت الامارات مشلولة عاجزة • ولم نشهد جماعات تنبض بالحياة تقاوم مقاومة محلية احتمال فقدها استقلالها • أما فى فارس ، فكان الوضع مختلفا تمام الاختلاف ، اذ على الرغم من ان الشاهنشاه هو الرئيس الاعلى من الناحية الرسمية ، الا ان نظام الحكم كان الى حد ما اقطاعيا • وكان النبلاء المحليون يملكون من السلطات فى اماراتهم • مامكنهم فى حالات كثيرة من اطالة المقاومة ، حتى بعد أن غدا الشاه لاجئا طريدا •

وهناك بالتأكيد عوامل أخرى أسهمت أيضا فى استمرار الصراع فى فارس مدة طويلة بعد الاعتراف بالحكم العربى اعترافا كاملا فى مقاطعات شرق البحر المتوسط • وأول هذه العوامل كما اعتقد وجود الجبال فى فارس وهى عقبات توقف فى كل مكان أو تعرقل على الاقل سير الزحف العربى • وثانى هذه العوامل أن تسلل العرب القديم العهد من الجزيرة العربية الى سوريا وفلسطين والعراق ، قد أمن للفاتحين العرب أعداء ليسوا صلابا فى عدااتهم • ان لم نقل بحلفاء من رجال الطابور الخامس ، أما الفرس المقيمون الى الشرق من جبال زاغروس ، فلم تكن لهم أية صنلات عنصرية على الاطلاق لا مع العرب ولا حتى مع مجسوعة الشعوب التى نسميها أحيانا بالمتوسطية ، ومن هنا كان اخضاع الفرس أكثر مشقة وعناء على العرب من اخضاع غيرهم • كما كانوا من أوائل الشعوب التى ثارت على سيطرة العنصر العربى •

ولكن على الرغم من أن القدر شاء أن تستمر المقاومة الفارسية المحلية، بضع سنوات أخرى إلا أن الشاه لم يستطع ثانية تجهيز جيش قوى لخوض القتال ، واتخذت عمليات العرب في فارس بعد معركة نهاوند شكل عمليات ضغط بطيئة ومستمرة في عدة مناطق متفرقة واسعة ولكن دون أية معارك حاسمة أو حملات دراماتية من النوع الذى يستأثر باهتمام المؤرخ أو يلهب حماس الشاعر أو الانسان الوطنى . وكان العرب يتقدمون فى كل سنة عدة أميال الى الامام وتسقط فى أيديهم عدة مدن بعد حصارها أو بعد ثورتها . كما كان عدد من الزعماء المحليين يتحول الى جانب العرب فى كل عام . ويكفى أن نقول هنا ان العرب استولوا على اصبهان فى عام ٦٤٣ بعد أن وافق أهلها على دفع الجزية والخراج .

وكانت خطوط مواصلات العرب قبل معركة القادسية تمر كلها على الرغم من طولها الذى يبلغ ستمائة ميل عبر الصحارى العربية نفسها أما الآن فقد بات طولها يبلغ ألفا أو ألفا ومائتين من الاميال عبر أراض معادية ، وانهار عظمة وسلاسل جبلية شاهقة ، وعبر مرات تغطىها الثلوج معظم أيام السنة . وإذا ما نظرنا الى اتفاقات الصلح التى عقدت فى هذه الآونة ، وجدنا انها تضمنت بنودا تنص على أن يقدم الفرس الى القوات العربية التى تمر بهم المأوى والغذاء . وكان كل من يهاجم عربيا يتعرض لعقوبة الموت . وكان الفرس الذين عقدوا اتفاقات مع العرب ، قد حصلوا على موثيق تؤمن لهم حقوقهم أما اذا ثبتت عليهم تهمة الاعتداء على المسلمين فانهم يعرضون أنفسهم لعقوبة اخماد ثورتهم بالقوة . وإلى الغاء الاتفاق الذى سبق لهم ان عقده مع العرب ، وإلى التعرض لوضع الاستعباد بلا قيد أو شرط وقد ضمن العرب بهذه الاجراءات سلامة مواصلاتهم دون الحاجة الى وحدات عسكرية ينشرونها هنا وهناك لحماية هذه المواصلات .

وكان يزدجرد قد انسحب قبل سقوط اصبهان الى مدينة اصطخر التى يسميها الغربيون بـرسوبوليس ، والتى كان أبو موسى الاشعري الزاحف من الاهواز يحاول عبثا احتلالها . وكان حظ حديفة بن اليمان أسعد طالعا كما يبدو على سواحل بحر الخزر الغربية فعندما غزا اذربيجان الفارسية واجه مقاومة من القوات المحلية التى قادها الزعيم الاقطاعى فى المقاطعة ويسمى المرزبان . ولكنه ما لبث ان تغلب عليها فى المعركة واحتل عاصمتها اردبيل . وهنا مال المرزبان الى التصالح مع العرب ورافق على دفع الجزية والخراج ، وهناك رواية أخرى تنسب هذا الفتح

الى المغيرة بن شعبه الذي كان قد غدا أميرا للكوفة كما سنرى بعد قليل . وهاتان الروايتان على أى حال متفقتان وغير متناقضتين اذ أن جيش حذيفة كان تابعا للكوفة . ولهذا فان تبعيته كانت ولا شك لأمير الكوفة . لكن احتلال المنطقة الاول كان غير كامل كما يبدو . اذ سرعان ما ثارت اذريبيجان فى عام ٦٤٥ ، وتطلبت ثورتها اعادة احتلالها ثانية .

وبينما كانت الجيوش العربية تنتشر على هذا النحو كالمروحة فى جميع أنحاء فارس لم تكن الامور سائرة سيرا طبيعيا فى قاعدة العرب الانسانية فى الكوفة . ولقد رأينا فيما مضى كيف أن عمر بن الخطاب اتخذ قرارا سياسيا كبير الاهمية ، عندما وجد أن العرب باتوا بصورة غير متوقعة حكام سوريا والعراق . فلقد قضى بأن يظل الفلاحون فى كل بلاد محتلة شاغلين لأراضيهم على أن يستمروا فى فلاحتها وان يدفعوا الضريبة عنها ، وكان من رأيه ألا يستوطن العرب الارض ويفلحوها بل أن يظلوا عنصرا عسكريا مسيطرا مرتكزا على قواعده العسكرية وقادرا فى كل لحظة على محاربة المشركين والكفار . وأدت هذه السياسة الى انشاء القواعد العسكرية فى الكوفة والبصرة فى العراق والجابية الى الجنوب الغربى من دمشق ، والفسطاط فى موقع مدينة القاهرة الحالية .

ولكن حياة القواعد العسكرية مساوئها ، وهذا ما اكتشفته الدول الاستعمارية الاخرى فالجنود فيها يظلون فى معزل عن أهل البلاد . ويؤدى عالم المسكرات الضيق الى المناقسات والى التحيزات الضيقة المحصورة . وقد ساعد على هبوط الروح المعنوية فى المسكرات العربية ، ما عرف من البدر من طبيعة انطلاقية تأبى الانضباط وتعشق الصخب ، وما أدى اليه ازدياد ثرائهم من استرخاء وخمول . وقد تحطم ما عرف عن عرب الصحراء من قسوة على العيش واحتمال للمكاره ، من جراء اغراقهم الآن فى حياة الجنس مع الجوارى من الأسيرات اللاتى لاعد لهن ولا حصر ومن جراء حياة البطالة التى دأبوا الآن على عيشها فى عصر لم يكن التدريب العسكرى فيه معروفا أو معتبرا من الضرورات .

وكانت الكوفة أكثر القواعد العسكرية العربية اضطرابا وشغبا . وهى القاعدة التى أنشأها سعد بن أبى وقاص بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب فعندما احتل سعد المدائن بعث الى الخليفة يشكو له من البعوض فيها ، ومن تأذى الناس به فكتب اليه عمر يقول : « ان العرب بمنزلة الابل لا يصلحها الا ما يصلح الابل ، فارتد لهم موضعا عدنا ، ولا تجعل بينى

وبينهم بحرا • وتم اختيار موقع للكوفة لاقامة دار الهجرة فيها على ضوء هذه التعليمات • وكان الجانب الشرقي من البلدة الجديدة ، وهو أفضل الجانبين من نصيب أهل اليمن ، بينما كان الجانب الغربي من نصيب قبائل الشمال • وقد روى المؤرخون العرب أن أهل اليمن كانوا يعدون اثني عشر ألفا وان أبناء الشمال كانوا يعدون ثمانية آلاف •

وبينما كانت الجيوش العربية التي تستخدم الكوفة قاعدة لها منتشرة في أرجاء فارس في صحار وجبال تتولى فتحها ، كانت الدساسس تحاك بين الجنود في القاعدة نفسها • وتقول الروايات أن بعض المخبرين من أهل الكوفة مضوا الى المدينة يسعون بسعد بن أبي وقاص ويشكون منه وهو قائدهم العام وحاكمهم • وكان سعد قد ابتنى له دارا يسميها العرب قصرا • وقد جعلها في وسط القاعدة التي اختطها • ولكن القاعدة تحولت الآن الى مدينة • وأصبح ضجيج الناس في طرقاتها يضايق الامير كما يضايقه كثرة الوافدين من الزائرين وأصحاب الحاجات ، والمتطفلين الذين لا هم لهم الا ولوج البيت والخروج منه • وكان سعد يتأفف من عجزه عن بحث المسائل العامة مع ضباطه ورجاله ، بسبب هذه الضجة والفوضى • ولذا فقد أقام على بيته سياجا من القصب يحيط بالفناء ويفصل بين واجهة البيت وبين الجماهير في الشارع • ولكن الوشاة سرعان ما سعوا به الى الخليفة في المدينة ، زاعمين أن الامير قد أقام السياج ليعزل نفسه عن الرعية ، دليلا على تعجرفه وتعلقه بالدنيا • وزعم البعض الآخر للخليفة ان سعدا لا يحسن اقامة الصلاة بالناس على الطريقة الاسلامية الصحيحة فأوفد الخليفة رجلا يدعى محمد بن مسلمة ليحقق في شكاوى الناس وهو غني الرجل الذي كان عمر قد أوفده لمصادرة أموال عمرو بن العاص في مصر ، فقام محمد بإحراق السياج المحيط بالفناء وسلم الى سعد رسالة من الخليفة يقول له فيها بأنه قد سمع بأنه بنى لنفسه قصرا أسماه قصر سعد وأقام عليه بابا يحول بينه وبين الرعية ، لكن هذا القصر ليس الا قصر الجنون وطلب اليه أن يخرج منه وان يخلقه وألا يجعل بينه وبين الناس بابا • وألا يحول بينهم وبين حقوقهم ، أو يمنعهم عن الوصول اليه الا اذا خرج هو اليهم •

واذا ما استثنينا موضوع السياج والباب • فان محمد بن مسلمة لم يجد أي أساس للوشايات التي نقلت الى الخليفة عن سعد بن أبي وقاص وان كانت تهمة البقاء في القصر ابان معركة القادسية وعدم الاشتراك فيها قد عادت الى الظهور • وعلى الرغم من عدم ثبوت أية جديّة على سعد ، فان الخليفة أمر بعزله عن امارته في عام ٦٤٢ وولى مكانه رجلا يدعى عمار

• ابن ياسر • ويقول أحد المؤرخين العرب أن عمر سئل ذات يوم عن أسباب نجاحه في حكم العرب فرد بأن نجاحه يعزى الى تغييره لعماله وقادة جيوشه ويبدو لي أن عمر كان يخشى من أن تزداد قوة أى قائد عسكري ناجح • ولذا كان يقبل على عزل قادته العسكريين الاكفاء بعد أن يحققوا انتصاراتهم الضخمة (١) •

ولكن اذا كان عزل سعد كبير الاهمية فان تعيين عمار بن ياسر يمكن ان يعتبر شيئاً مضحكا • ولعل القارئ يذكر انه عندما شرع النبي في نشر دعوته في مكة حاولت قريش مقاومته باللجوء الى اساليب العنف • وكانت المشاعر القبلية من القوة بحيث تحول بينهم وبين

(١) استنتج خاطيء كل الخطأ ولعل القول بأن عمر بن الخطاب لم يعزل سعدا عن امارته الا بعد انقضاء اكثر من أربع سنوات على انتصاره في القادسية وهى معركة الكبرى دليل على خلل الاستنتاج الذى توصل اليه المؤلف • يضاف الى هذا حقيقة أخرى وهى ان عمر كان من أقوى العرب شخصية • ولم يكن من الخلفاء الضعفاء الشخصية الذين قد يخشون ظهور قائد ناجح يعمل تحت أمرتهم • ولعل قوة شخصيته كانت تبرز بوضوح في ان أوامره بعزل قائد أو أمير أو محاسبه أو مصادرة امواله لم تكن تنفذ في مظاهرات عسكرية تقوم بها جيوش أو وحدات بل بمجرد رسالة من الخليفة يحملها رسول أمر •

ولقد سبق لنا أن علقنا على عزل خالد لما عزل سعد فجاء نتيجة الوسايات الكثيرة التى نقلت الى الخليفة عنه ، وعلى الرغم من ثبوت كذبها للخليفة كما سأروى بعد قليل ، فانه رأى من الحكمة عزل سعد ، بعد أن لحقت الشبهات بأمارته نظرا لانهذا أضعفت من مركزه أمام الرعية •

روى جابر بن سمره أن أهل الكوفة سموا بسعد بن أبى وقاص الى عمر وقالوا انه لا يحسن الصلاة فقال سعد • • أما أنا فكنت أصلى بهم صلاة رسول الله (صلىم) ولا أخرم منها ، أؤكد في الاوليين وأحذف الآخرين ، فقال عمر : ذاك الظن بك ياأبا اسحق فأرسل عمر رجلا يسألون عنه بالكوفة ، فجعلوا لايتأون مسجدا من مساجدها • الا قالوا خيرا واثنوا مرفقا ، حتى أتوا مسجدا من مساجد بنى عبس فقال رجل منهم يقال له أبو سعده • « أما اذا سألتمونا عنه فانه كان لايقسم بالسوية ولايمدل في القضية » • قال : فقال سعد : « اللهم ان كان كاذباً فاطل عمره وأدم فقره وأهم بصره ، ومرضه للفن » ، قال عبد الملك فانا رأيت يتعرض للإمام في السكك فاذا قيل له : كيف انت ياأبا سعده • قال كبير مفتون أصابتنى دعوة سعد •

وروى الشعبى ان عمرو بن معد يكرب الزبيدى وفد على عمر بن الخطاب فسأله عن سعد ومن وضاع الناس عنه ، فقال تركته يجمع لهم جمع الدرة ويشفق عليهم شفقة الام البرة ، اعرأى في تمرته تبطن في جبايته ، يقسم بالسوية ويمدل في القضية وينفذ بالسرية ، فقال عمر : كانتكما تقارضتما الشناء • وقد كتب سعد كتب يثنى على عمر وقال : يا أمير المؤمنين ولكنى أثبتت مما أعلم • (العرب)

اضطهاد اخوانهم من ابناء بيوتات قريش ، حتى ولو تحولوا الى الاسلام ، ولكنهم كانوا ينفثون سسوم حقدهم وغضبهم على الارقاء وعلى الذين لا عصبية قبلية لهم . وكان عمار بن ياسر من العبيد الارقاء . وكان من اوائل الذين آمنوا بدعوة النبی ومن الذين عانوا من اضطهاد قريش ، اشد العناء . وقد انقذه منهم ابوبكر الثرى بماله ، فابتاعه ثم اعتقه ، ليعيش بعد ذلك فى حياة من التقوى والورع والتزمت حتى كان قد طعن سنه وشاخ . ولقد اهلته تقواه ومكانته كأحد المسلمين الاوائل عند الخليفة على الاقل ، لمنصب اماره الكوفة . . ولكن اهل الكوفة الذين تخلصوا من سعد بن أبى وقاص المعروف ببأسه وعزمه ، لم يجدوا صعوبة فى الخلاص من ياسر هذا المعجوز الضعيف الذى لم يكن قد خبر الحكم او المسئولية بأية صورة من الصور . وسرعان ما كانت وفود اهل الكوفة تشكو الى الخليفة متهمة اياه بالضعف والجهل بالسياسة فعزله وقال : من عذيرى من اهل الكوفة ، أن استعملت عليهم القوى فجروه وان وليت عليهم الضعيف حقروه ؟

ويذكر القارئ ولا شك أن المغيرة بن شعبة كان أميرا فى البصرة . وكان الخليفة قد عزله عنها لتهمة وجهت اليه وان لم تثبت عليه . وكان المغيرة متميزا بالصلابة والشدة بدين الجسم مترهلة ، أمور العين قاس لا يرحم . وقال له الخليفة . . . ان وليتك الكوفة اعود الى شيء مما قررت به . فقال « لا » فولاه عمر الكوفة ونجح فى البقاء بمنصبه عامين حتى توفى عمر ، وعاد اهل المدينة الى اظهار طبيعتهم المشاغبة .

وقد عانى امراء المقاطعات وحكام الامصار الكثير فى خلافة عمر . اذ كان الخليفة على استعداد لفتح اذنيه والاستماع الى الوشاة والمخبرين الذين كانوا يهرعون دائما الى المدينة للنيل من مركز كل ذي سلطان ونفوذ فى مقاطعاتهم وقد بدرت هذه الاساليب بدور الخلاف التى لم يقدر لها ان تنمو الا بعد وفاة عمر وكادت تعصف بالامبراطورية العربية الناشئة .

ظلت سوريا وفلسطين هادئتين فى عامى ٦٤٢ و ٦٤٣ وكانت بعض الاشتباكات الفردية تقع بين آونة وأخرى على حدود أرمينيا وفى جبال طوروس . وقد قدر لها أن تستمر بضع سنوات . ولكن توسع العرب باتجاه الشمال الغربى كان قد بلغ فى الواقع اقصى منتهاه . وكان سكان سوريا وفلسطين قد اخذوا الى السكنينة فى ظل الحكم العربى تحت امرة حاكمهم الجديد معاوية بن أبى سفيان .

لكن الفتوحات العربية استمرت في افريقيا على اى حال . فبعد أن استقر الأمر للمسلمين فى الاسكندرية تطلع عمرو بن العاص الكثير الحيوية والحركة الى صحراء برقة وكان الشمال الافريقى كله من الاطلسى حتى حدود مصر جزءا من الامبراطورية الرومانية وهى فى اوج سلطانها . ولكن عندما اخذ نجم الامبراطورية الغربية فى الافول فى القرن الرابع للميلاد عبرت قبيلة الفاندال وهى من يرايرة الشمال ، البحر عند مضيق جبل طارق من اوربا الى افريقيا واستولت على قرطاجنة . وقد اقام الفاندال لهم مملكة مستقلة امتدت من ارض الجزائر الحالية الى برقة وتبعت لها جزر ميورقة ومنورقة وكورسيكا وسردينيا . ولكن الامبراطور البيزنطى جوستنتيان عاد فى عام ٥٣٢ للميلاد فبعث بجيش احتل قرطاجنة . وتمكن البيزنطيون بقيادة بيلزاريوس المشهور وأحد القادة القلائل الذين عرفتهم رومة فى عهد انحلالها . من هزم الفاندال واستعادة الشمال الافريقى للممتلكات البيزنطية . وكان أهل هذه البلاد مزيجا من اقوام مختلفة . فبينهم القرطاجيون القدامى ، والرومان والبيزنطيون والفاندال الذين سيطروا على السهول الساحلية وأقاموا فيها . أما جبال الداخل فكانت مأهولة بقبائل البربر ، أصحاب البلاد الاصليين الذين رفضوا ان يذوبوا فى الاقوام المتعاقبة التى احتلت سواحل بلادهم . (١) ومن هذه المنطقة بالذات خرج هرقل فى حملته التى ادت الى الاطاحة بحكم فوكا وتسمنه عرش الامبراطورية البيزنطية .

وقد توغلت جيوش كسرى ابرويز فى عام ٦١٩ بعد احتلال مصر باتجاه الغرب فوصلت الى طرابلس الغرب دون ان تلقى كما يبدو اية مقاومة فعالة . ولقد كانت مصر احدى دعائم الامبراطورية البيزنطية الاساسية تزودها بغدائها وبالكثير من عائدات دخلها . وكانت تقيم الاود لسكان يعدون ستة ملايين أو سبعة ، وفيها عدد من أكثر المدن تحصينا ومناعة . وكانت كثرة اقنية الرى وفروع النيل فيها تجعل العمليات العسكرية شاقة وصعبة . كما كان فى مكتة الاسكندرية نفسها لو تولى الدفاع عنها قوم مصريون على الدفاع ان تتحدى أى جيش من جيوش ذلك العهد عدة سنوات . وهكذا فان احتلال ليبيا بالنسبة الى أى جيش فاتح استطاع ان يحتل مصر ، اشبه بنزهة أو لعبة اطفال . وقد

(١) يبدو أن المؤلف جهل أو تجاهل الحقيقة التى أثبتتها كثير من المؤرخين . وهى أن قبائل البربر فى شمال افريقيا قبائل عربية الاصل أو سامية على الاقل . وانها هيبت ارض المغرب العربى قادمة من الشرق .
(العرب)

اقام عمرو بن العاص الدليل على صحة هذه النظرية ففى ربيع عام ٦٤٣ احتل برقة دون أية مقاومة . بعد أن وافق أهلها على دفع الجزية والخراج ولعل من الغريب كل الغرابة ان الاتفاق الذى عقده العرب مع أهلها تضمن بندا ينص على أن ترسل الضرائب طوعا ودون اكراه الى مصر والا يصل الى برقة أى جاب عربى من جباة الضرائب لجمعها . ولكننا لانتبث أن نرى عمرو بن العاص ، بعد توقيع الاتفاق يبعث الى الخليفة كتابا يعلنه فيه انه قرر جبي العشر ونصف العشر من أرض المسلمين والجزية المألوفة من أهل الذمة ، ومن غير المسلمين . ويشرح لنا ياقوت الحموى هذه الرواية اذ يوضح بصراحة أن معظم أهل برقة اعتنقوا الاسلام بعد فتحها . ولا ريب فى ان هذه النقطة فى منتهى الأهمية ، فالترحاب الظاهر الذى لقيه العرب فى الصحراء الغربية وفى برقة دليل واضح على أن معظم سكان هذه المنطقة كانوا من العرب . وليست هذه الفكرة بعيدة عن التصديق مطلقا . فالصحراء الغربية شبيهة بالصحارى العربية وهى تتباين تباينا كليا مع جو مصر الرطب وتربتها الغرينية الخصبة النابعة من دلتا النيل . ولم نسمع قط عن وصول العرب الى هذه المنطقة من قبل كغزاة وفاتحين ولكن لا يستبعد إطلاقا أن يكونوا قد وصلوا اليها على شكل قبائل هاجرت من الجزيرة العربية وتسللت الى الصحارى الليبية قبل هذا التاريخ . والنتيجة الطبيعية لهذا الافتراض هو أن يكون الفاتحون المسلمون قد تبينوا بعض الدلائل على قرابتهم من الليبيين وان هؤلاء نتيجة هذه القرابة وصلوا الى تفاهم سريع مع أبناء عموماتهم الأبعدين . ويتعزز هذا الاحتمال بما أورده كتاب الرومان والافريق ومؤرخوهم الاقدمون من أمثال ديوروس صقليوس وبطليموس وسترابو وبلينى الذين يذكرون وجود أقوام عربية فى صحارى مصر . ولكن اذا صح أن هؤلاء الاقوام قد نبتوا من أصل عربى فانهم ولاشك كانوا قد فقدوا لغتهم الاصلية وشخصيتهم قبل الفتح الاسلامى .

وكان الوضع فى طرابلس مختلفا على اية حال ، فلقد كانت المدينة محصنة وفيها حامية بيزنطية ، اغلقت على نفسها ابواب المدينة فى وجه العرب . والمدينة مفتوحة من ناحية البحر الذى يسيطر عليه اسطول البيزنطيين . وكان فى مكنتها ان تقاوم عدة سنين لو تعزز دفاعها بوصول نجدات قوية اليها . ولكن الدسائس والمنافسات بين رجال البلاد كانت تمزق القسطنطينية كما رأينا من قبل . وكان من الطبيعى ألا تهتم العاصمة وهى على هذا الحال بأمر الامارات النائية . على أى حال ،

تمكن عمرو بن العاص بعد حصار استطال عدة أسابيع عجز إبانها عن اقتحام الاسوار من ان يجد ثغرة بين التحصينات والبحر نفذ منها الى المدينة في شهر يونيو (حزيران) عام ٦٤٣ وتمكن عدد من أهل النجدة من اقتحام هذه الفجوة والدخول الى المدينة على طول الساحل هاتفين صارخين « الله أكبر الله أكبر » واحتلوها عنوة .

واقترح العرب بلدة أخرى تدعى صبرة . ثم عاد عمرو فاستدار الى برقة . ويقول بعض المؤرخين أن عمرا كان يود أن يواصل زحفه الى قرطاجنة . ولكن الخليفة أمره بالعودة وهو احتمال قريب الى المنطق . اذ اننا رأينا عمر بن الخطاب حريصا دائما على عدم السماح لجيوشه بالمضي بعيدا أو السماح لها بان تنقطع عن المدينة بفعل الجبال أو الأنهار التي تقوم بينهما . وعندما عاد عمرو الى برقة استسلمت له قبيلة من البربر من أهل لواته وقد كتب في شرطه عليها . « ان عليكم ان تبيعوا أبناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية » . ومن الصعب علينا أن نتأكد الان من السبب الذي دعا عمرا الى ادخال مثل هذا الشرط الهام في اتفاقه مع القبيلة البربرية . وكل ما يستطيع المرء افتراضه ان هذه القبيلة عجزت عن دفع الجزية بسبب فقرها المدقع . وأن عمرا رد على اعتراضها بأن عليها ان تبيع نساءها واطفالها لتدفع الجزية .

وقد سبق لنا في حياة الرسول ان لاحظنا حوادث عدة وقع فيها العرب من نساء ورجال أثناء حروبهم القبلية في الاسر، وأن أسريهم كانوا يعتبرونهم رقيقا لهم . لكن هذا الاجراء العرفي منع منعا باتا اiban خلافة عمر بن الخطاب وذلك لان العرب تحولوا في السنوات العشر من حكمة الى شعب فاتح مستعمر ، بل الى طبقة ارسقراطية حاكمة تسيطر على امبراطورية تابعة لها . وقد نما هذا الاحساس الجديد بالكبرياء والعنصرية جنبا الى جنب مع مفهوم آخر يختلف عنه كل الاختلاف هو مفهوم الاخوة الاسلامية . ولقد كان العرب منذ أقدم عصور التاريخ يتعاملون بتجارة الرقيق، ويمتلكون الرقيق ولكنهم منذ أيام عمر بن الخطاب توقفوا عن استرقاق أى عربى . ولا ريب في ان الحقيقة القائلة بان العرب اعترفوا اعترافا شخويا بإمكان استرقاق البربر تشير اشارة واضحة الى انهم لم يعتبروا البربر من العرب .

وعاد عمرو بن العاص من طرابلس الى الاسكندرية مثقلا باحمال الغنائم وبالعبيد وكان قد أوفد في غضون ذلك حملة مع نهر النيل سارت باتجاه السودان بقيادة ابن عمه عقبة بن نافع لكن هذه المغامرة لم تلق كبير نجاح . فلقد اشتهر السودانيون الذين لقبهم العرب

بالنوبيين برمي النبال وقد تلقوا العرب الزاحفين بزخات من النبال فأصابوهم بجراح ثقيلة كان معظمها في عيون الفاتحين . ولقد فقتب عيون عربية كثيرة حتى انهم أطلقوا على النوبيين اسم رماة الحدق . ومن الطريف ان نذكر هنا ما أمتاز به النوبيون من خصال حربية قبل الف وثلثمائة سنة . وهى خصال ظلوا محافظين عليها حتى يومنا هذا . واضطر الرتل العربى الى التراجع على احسن سبيل ممكن الى مصر .

وكان عمر بن الخطاب قد امر عمرو بن العاص باقامة مقر قيادته في الفسطاط وهى القاعدة العسكرية الجديدة المجاورة لحصن بابليون وفي ربيع عام ٦٤٤ القى عمرو بن العاص فاتح مصر خطابا في المسلمين اشتهر امره في التاريخ الاسلامى . وقد استهل خطابه بحمد الله والثناء عليه ثم حث سامعيه على التمسك بشعائر الدين وتوزيع الصدقات والبعد عن الجشع وعن البهرج والنميمة . وقال ان البطالة والطيش هما مصدر كل رذيلة وخطيئة . وعاد فبدل لهجته ، وانتقل الى تقييد الربيع فقال ان مياه الفيضان قد هبطت ، وان اعشاب الربيع قد نمت واصبح الحليب متوفرا للحملان والجديان وامرهم بان يخرجوا حاملين بركات الله . وان ينعموا بارض مصر وخيراتنا ولبسنا وقطعان اغنامها وابقارها . ووصاهم برعاية جيرانهم من القبط ، تلبية لآوامر رسول الله الذى اوصاهم خيرا بالقبط . (١)

وحرى بنا ان ننقل هنا بعض فقرات وردت في التقرير الذى بعث به عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب عن مصر . اذ قال . . «مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها رحلة شهر وعرضها عشرة ايام . يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحاحات . يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له اوان ، تظهر به عيون الارض وينابيعها حتى اذا عجز عجاجه ، وتعاطمت امواجه لم يكن وصول اهل القرى الى بعض الا في خفاف القوارب وصغار المراكب ، فاذا تكامل في زيادته يخرج القوم ليحرقوا بطون اوديته وروابيها يبدرون الحب ويرجون الثمار من الرب » حتى اذا شرق واشرف سقاه من فوقه الندى

(١) روى ابن كسب ان النبى (صلم) قال : اذا افتتحتم مصر ، فاستوصوا بالقبط خيرا ، فان لهم ذمة ورحما . وقال الليث « كانت ام اسماعيل منهم » . وروى الشعبى ان على بن الحسين او الحسين نفسه ، كلم معاوية في جزية اهل قرية ام ابراهيم ابن رسول الله (صلم) بمصر ، فوضعها عنهم . وكان النبى (صلم) يوصي بالقبط خيرا .

وغداه من تحته الثرى . فبينما هى يا أمير المؤمنين درة بيضاء اذا هى
منيرة سوداء واذا هى زبرجدة خضراء » . ويبدو أن عمرو بن العاص
كان شاعرا بالاضافة الى ما تميز به من خصال اخرى .

ومهما كان ظن المصريين فى الفاتحين العرب فانهم على الاقل ، جنوا
فائدة واحدة من فتحهم لبلادهم وهى خلاصهم من الاضطهاد الدينى .
فلقد استدعى عمرو بن العاص بنيامين بطريق القبط من مخبئه فى
الصحراء الذى ظل مختفيا فيه منذ مجيء المقوقس الى مصر قبل اثنى
عشر عاما ، وعهد اليه رسميا بزعامة الكنيسة القبطية وقد اختير بطريق
آخر للروم الارثوذكس ولكن دون موافقة امبراطور القسطنطينية .
وغدا هذا البطريق عاجزا بعد فتح العرب عن اضطهاد اخوانه النصراني

وعلى الرغم من اننا نستطيع القول بان عمرو بن العاص ادى
خدمات جلى لقضية المسلمين الا ان من المفجع ان نراه لا يلقى من
الخليفة الا التائب والزجر . وقد شكوا الخليفة هذه المرة شكوى مرة
من انه لا يتلقى من مصر من الخراج ما كانت تدفعه الى امبراطور
بيزنطة وبعث الى عامله فى مصر فى عام ٦٤٤ يعرب عن دهشته من أن
خراج مصر فى السنة الماضية لم يبلغ نصف ما كانت تقدمه من قبل الى
البرنطين . واضاف انه لن يقبل أقل مما كانت تدفعه مصر . وأكد انه
كان يأمل من عامله أن يؤدى واجبه حق الأداء - وانه تبين الآن أن حكمه
حال دون ذلك وأنهى رسالته قائلا ان لديه من الوسائل بمعونة الله
ما يستطيع ارغام عامله على اطاعة امره .

غريب ان تصدر هذه التهديدات القاسية عن الخليفة الورع الذى
عرفنا تماما انه كان ابعد الناس عن الاهتمام بشئون الدنيا ومالها . وكان
على استعداد دائما لتوزيع الفىء وما يصل الى بيت مال المسلمين على
الرعية . يضاف الى هذا اننا رأينا عددا من كبار المسلمين فى المدينة
ليس بينهم الخليفة على أى حال قد أثروا ثراء كبيرا من الفسائم
التي نقلت الى المدينة من البلاد التي فتحتها جيوش العرب . ترى هل
كان المهتمون بالمال منهم هم الذين دفعوا الخليفة الى كتابة مثل هذه
الرسالة ؟ وترى هل وجد الخليفة أن نظام الرواتب الذى أوجده
والذى حدد بموجبه دفع المرتبات الى كل عربى ، يكلف بيت مال
المسلمين أكثر مما كان قد ضمن عند وضعه ؟ ولكن حتى لو كانت الدولة
فى ضائقة مالية ، فأننى لا أرى ضرورة فى أن يكتب الخليفة الى قائد
جيشه العام فى مصر بمثل هذه اللهجة القاسية المليئة بالتهديد . ولا ريب
فى ان هذه الحقيقة تصبح واجبة عندما ندرك ان خطة فتح مصر كلها

كانت من وضع عمرو بن العاص ، وبناء على اصراره ، رغم معارضة الخليفة لها والذي يأتى الآن فيلوم قائده على التراخي والتهاون ، أو ترى هل كان عمر بن الخطاب يحس بالفيرة الشخصية من كبار قادته العسكريين الناجحين ؟ لا ريب في ان معاماته لخالد بن الوليد ، والمثنى ابن حاثثة ، وسعد بن أبى وقاص وأخيرا لعمر بن العاص ، يمكن أن تعتبر دليلا على صحة هذا الاستنتاج . (١)

وقد رد عمرو على رسالة الخليفة وتهديده ذاكرا بأنه خدم رسول الله ثم خدم خليفته أبا بكر . وكان عند حسن ظنهما به اذ أدى الامانة

(١) غريب أمر المؤلف وغريبة هذه الاستنتاجات السخيفة التي يصل اليها والتي تبعد كثيرا عن الطريقة العلمية في الاستقراء والاستنتاج لكن هذا الاستغراب يزول اذا عرفنا الغاية الرئيسية من الكتاب ، وهي تشويه التاريخ العربى . انه هنا يحار في الاسباب التي حملت الخليفة على أن يبعث بمثل هذه الرسالة الى عامله في مصر . ثم يحاول القول بأن ليس من حق الخليفة أن يحاسب عمرا لانه هو الذى فتح مصر وما دام انه هو الذى فتحها . وهو صاحب الخطأ في فتحها فليس من حق الخليفة أن يحاسبه حتى ولو أخطأ . انه منطق غريب تناقضه حقيقة تاريخية تتصل بأمة المؤلف اذ ألم يخيب الشعب البريطانى أمل تشرشل الذى كسب له الحرب الأخيرة فاسقط حربه في الانتخابات ؟ فلو صحت حجة المؤلف لما كان من حق الشعب البريطانى أن يستق حربه تشرشل .

وهو بعد ذلك يحار في تحليل معاملة عمر لامرائه وقواده . ويحاول أن يصل من حيرته هذه ، الى الطعن في شخصية عمر وانهامه بالفرض الشخصي ، والفيرة ، وهما صفتان لا اجتماعان في شخصية عظيمة كشخصية عمر بن الخطاب الفذة تميزت بالقوة وتفادلت امامها الشخصيات الاخرى . ان الحقيقة التي فالت المؤلف أو التي حاول تجاهلها ان عمر كان من الحاكمين الذين يشتررون رضا الجماهير الشعبية بمصلحة الامراء فالامير في نظره فرد من الرعية . يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس . ومن هنا كانت شدته على عماله ورافته على عامة الناس من رعيته . اذ يشعر بمسؤوليته العظمى من هذه الرعية وكان يقول دائما لو ان جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت ان يسأل الله منه آل الخطاب .

ولعل أصدق صورة له تكذب استنتاجات المؤلف مانقلته كتب العرب عنه من انه خطب مرة فقال . . « أيها الناس انى والله ما ارسل عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى ارسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه الى ، فو الذى نفس عمر بيده لا أقصه عنه . فوب عمرو بن العاص ، فقال : ياأمر المؤمنين أرايتك ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعية . فأدب بعض رعيته . انك لتقصه منه قال أى والذى نفس عمر بيده ، لاقصته عنه ، وكيف لا أقصه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه . الا لا تضربوا المسلمين فتذلهم ولا تجهروهم فتفتنهم ولا تمنعهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضييهم .

(المرب)

خير الاداء . و اضاف ان في وسع الخليفة اذا شاء . ان يقلبه من الامارة التي اضفاها عليه . اذ ان الله قد نجاه من جشع الدنيا وشرها ووضاعتها ، ثم أنهى رسالته معاتباً الخليفة على شدة لهجته اليه مؤكداً أنها لا تقال حتى ليهودي من أهل خيبر وطلب الففران من الله للخليفة وله .

من المحال ان يتمكن على ضوء مالدنيا من معلومات قليلة من تكوين فكرة نهائية حاسمة بصدد موضوع هذا الخلاف فلقد رأينا من قبل ان الخليفة اثم عمرو بن العاص نفسه بالاثراء . ولكن مما يخيب الامل ان نقرأ مثل هذه الكلمات القاسية التي تحمل معنى المطالبة باستخلاص المال ، صادرة من الخليفة الطيب ، الذي يود المرء ان يحتفظ لنفسه عنه بصورة له تمثل البساطة والتواضع مجسمين في خدمة الله . (١)

تواريخ مشهورة

٦٤٢	عزل سعد بن ابي وقاص فاتح العراق
٦٤٢	معركة نهاوند
٦٤٣	احتلال اصبهان
٦٤٣	احتلال الري
٦٤٣	احتلال طرابلس الغرب يونيو (حزيران)

شخصيات مشهورة

النعمان بن مقرن	قائد العرب استشهد في نهاوند
ابو موسى الاشعري	امير البصرة وقائد العرب في فارس
المغيرة بن شعبه	عزله الخليفة عن اماره البصرة ثم عينه اميراً للكوفة
عمرو بن العاص	فاتح مصر
عقبة بن نافع	قريب لعمرو بن العاص . وقائد الحملة على بلاد النوبة والسودان

(١) تنسخ هنا نية المؤلف في كل ماكتبه . وهي المساس بشخصية عمر بن الخطاب وتشويه الصورة الصحيحة منه . فليس في تلك الرسالة في الحقيقة مايمكن أن يعاب به عمر بن الخطاب الا اذا أولت ، كما أولها المؤلف على نحو مفروض . (المغرب)

أبولوؤة

اتمت الفوضى وضع تحفتها الفنية
وفتح أكثر أنواع القتل دنسا
معبد الإله المفسى الذى طهره زيت الرب
متكهننا بلغة مرعبة
عن حرائق شديدة .. واحداث متباعدة
من رواية « مكبت » الشكسبير

انحصر عصر العرب الذهبى فى الاثنى عشر عاما التى
انقضت بين ٦٣٢ و ٦٤٤ والثنى شملت عهد الخليفتين
ابى بكر وعمر . وكانت هذه الفترة عهد وثام داخلى
تام ، وفتح خارجى مستمر . وإذا ما تسامحنا مع
مبدأ الفتح للعموانى فليس ثمة ما ننكره فى سلوك
الفاتحين العرب .

من كتاب فريمان « تاريخ العرب »

قاد عمر بن الخطاب في أكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٤٤ جريا على مالوف عادته منذ ولى الخلافة الناس الى موسم الحج في ذلك العام . وكانت الامبراطورية الجديدة التي أنشأها تنعم ، اذا ما استثنينا بعض الاشتباكات الفردية المتفرقة في الانحاء النائية من امارات فارس البعيدة بالطمانية والاستقرار . وقد انقضت حتى ذلك التاريخ عشر سنوات على تولى عمر شئون المسلمين . وقد بلغ الآن الستين من عمره تقريبا . وفي غضون هذه الفترة التاريخية انهارت الامبراطوريتان العالميتان العظيمتان في وقت واحد وغدا الخليفة الحاكم المطلق في امبراطورية شاسعة واسعة قامت على انقاض الامبراطوريتين اللتين ورثت الحكم عنهما . ولا أعرف عن حاكم أو سلطان في تاريخ العالم كله فتح في مثل هذه المدة مثل هذه المساحات الواسعة التي فتحت في عهد عمر ثم خلفها سليمة متماسكة لتعيش عدة اجيال أخرى .

ولقد سبق لنا أن رأينا الخليفة يعين المغيرة بن شعبة قبل نحو من عامين أميرا على الكوفة على الرغم من التهمة السابقة التي وجهت اليه عندما كان أميرا على البصرة وكان للمغيرة مولى من مواليه عرفه العرب باسم ابي لؤلؤة . وهو فارسي المولد . وقع في أسر الروم صبيًا . فحملوه الى بلادهم حيث نشأ نصرانيا . ثم عاد فوقع في أسر العرب وابتاعه المغيرة ابن شعبة . ويبدو أن العرب كانوا قد ألفوا السماح لمواليهم بالعمل واكتساب الرزق شريطة أن يدفعوا جزءا من مكسبهم الى أصحابهم ، ويبدو أيضا أن المغيرة كان قد خلف مولاة هذا في المدينة وسمح له بالعمل فيها . وكان نجارا حاذقا لا يضاهيه في مهارته في المدينة نجار آخر . فبات في وسعه أن يكسب أجورا طيبة عالية . ويقال أن ابا لؤلؤة بكى واستعبر عندما رأى أسرى الفرس في معركة نهاوند يساقون الى المدينة ويقول بعضهم انه نشأ في مدينة نهاوند التي قضى فيها طفولته .

وتقول الروايات ان هذا الرجل لقي الخليفة ذات يوم في الشارع وهو لقاء يشرح لنا الحياة البسيطة المتواضعة التي كان يحيها عمر بن الخطاب . فهتف به طالبا أن ينصفه من مولاة المغيرة بن شعبة . وزعم له انه يرغمه على دفع درهمين له في كل يوم وهو خراج كثير يتركه خالي الوفاض مما يمسك رمقه به . وكان الخليفة قد علم بأمر حرفته ومهارته

- فيها . فرد عليه بأن هذا الخراج لا يعتبر كبيرا بالنسبة الى نجار حاذق يتقن مهنا أخرى بالاضافة الى مهنته ويكسب أجورا طيبة . وقد رد أبو لؤلؤة ردا قاسيا مشاكسا على الخليفة ثم مضى في طريقه .
- واجتمع الناس للصلاة صباح اليوم التالي بعد شروق الشمس في المسجد الكبير في المدينة لاداء صلاة الصبح . وبينما كانت صفوف المصلين تنتظم لاداء الصلاة انسل أبو لؤلؤة بين جموعهم ، حتى وقف في الصف الامامى . وجاء عمر الى مكانه امام المصلين ليؤمهم وقد أدار ظهره الى صفوفهم . وما كاد عمر يقول « اقيموا صفوفكم » ، ويرفع يديه قائلا : « الله أكبر » حتى كان أبو لؤلؤة . يهاجمه من خلفه ويطعنه بخنجر كان في يده ست طعنات في ستة أماكن مختلفة من جسده . وعندما سقط الخليفة الشيخ على الأرض مضرجا بدمائه اندفع القاتل بين الصفوف يضرب بخنجره كالمجنون ذات اليمين وذات الشمال الى أن طعن نفسه بيده (١) .

(١) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف عن الروايات العربية ، وقد أوقعه اختلافه في بعض الاخطاء منها أن الناس اجتمعوا لصلاة الصبح بعد الشروق ، بينما لا تقام صلاة الصبح الا قبل الشروق وبعد بزوغ الفجر . ومن الاخطاء أيضا أنه طعن عمر رضي الله عنه بعد أن رفع يديه قائلا « الله أكبر » والصحيح أنه طعنه قبيل التكبير وبعد الدعوة الى استقامة الصف . والخطيئة الثالثة أنه طعن نفسه بيده بينما الحقيقة أنه بعد أن طعن اثني عشر رجلا توفي منهم ستة القى عليه رجل من أهل العراق ثوبا ليمنع حركته ويشلها فلما اغتم فيه قتل نفسه . والخطيئة الرابعة أنه أبا لؤلؤة كان مجوسيا على حد قول ابن عباس ولم يكن نصرانيا .

وأرى هنا أن نسرد القصة الحقيقية . لولاءة عمر بن الخطاب ..

روى سعيد بن المسيب لما نفر عمر من منى أثناء الحج . أناخ بالابطح ثم استلقى ووقع يديه الى السماء وقال اللهم كبرت سننى وضعت قوى وانتشرت رميتى فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرد . لما انسلخ ذو الحجة حتى قتل بعد عودته الى المدينة .

وروى أن كعب الأجلج جاء لعمر فقال : أجلك في الثورة تقتل شهيدا . قال عمر . وائى لى بالشهادة وأنا بجواردة العرب . وروى البخارى أن عمر قال : « اللهم ابدقنى شهادة في سبيلك واجعل موتى في بلد رسولك » .

وروى الحاكم أن عمر خطب فقال .. رأيت كأن ديكاً نقرنى نقرة أو نقرتين ، وائى لا أراه الا حضور أجلى .

وقال الزهرى . وكان عمر رضي الله عنه لا يأذن لسبى قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب اليه المغيرة بن شعبه وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده جملة صنائع ويستأذنه في دخول المدينة ، ويقول ان عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس . انه حداد تقاض نجار فأذن له بأن يرسله الى المدينة . وضرب عليه المغيرة مائة درهم في الشهر . فجاء الى عمر يشتكى شدة الخراج فقال ما خراجك بكثير ، فانصرف ساخطا يتدمر . فلبث عمر ليالى ثم دعاه فقال .. ألم أخبر أنك تقول .. لو أشاء لصنعت ربحى طعن =

وحمل الرجل الشيخ الى أهله وكان بيته يطل على فناء المسجد .
 ووضع على فراشه ولم يكن قد فقد وعيه . فطلب عبد الرحمن بن عوف
 وهو من الصحابة الاول وسأله عما اذا كان يوافق لو اختاره خليفة على
 المسلمين بعده . ولكن عبد الرحمن اعتذر عن قبول الخلافة . (١) وعاد
 عمر فاستدعى على بن أبي طالب ابن عم النبي ، وعثمان بن عفان وهو من
 الاوائل الصحابة ، والزبير بن العوام الذي اقتحم برجاله حصن بابلجون
 وسعد بن أبي وقاص فاتح العراق . واختارهم لجنة تتولى انتخاب من
 يخلفه (٢) وسنشرح عما قريب مدار من مداوات بينهم .

وعاد الشيخ المحضر فاستجمع قواه ثانية ، وسأل عمن قتله .
 وعندما قيل له انه أبو لؤلؤة حمد الله وأثنى عليه . ان لم يقتله رجل
 مسجد الله سجدة . مما يجعله في عداد الشهداء الذين يكافون بدخول
 الجنة فوراً . (٣) وشرب بعض الحليب ولكن السائل عاد فخرج من

= بالريح ؟ فالتفت الى عمر عابسا وقال . . لاصنعن لك رحي يتحدث الناس بها . فلما
 ولى قال عمر لاصحابه اوعدني العبد آتفا ثم انصرف عمر الى منزله فلما كان الفد
 جاءه كعب الاحبار فقال يا امير المؤمنين اهد فالك ميت في ثلاثة ايام . قال وما يدريك .
 قال اجده في كتاب الله التوراة . قال عمر . والله ، انك لتجد عمر بن الخطاب في
 التوراة . قال اللهم لا . ولكن اجد صفتك وحليتك . وانه قد فنى أجلك . وعمر
 لا يحس وجعا ولا ألما . فلما كان من الفد . جاءه كعب فقال . . يا امير المؤمنين ذهب
 يوم وبقي يومان . ثم جاءه من الفد فقال . . قد ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهي
 لك الى سبيحتها .

ولو صحت هذه الحكاية . وانه قد انقضي على مقابلة ابي لؤلؤة لعمر ثلاثة
 ايام قبل اقرار الجريفة لثبت ان كعب يدا في مقتل عمر . وان مصرع الخليفة كان
 نتيجة مؤامرة شعبية وان كعبا كان على علم بما تم الاتفاق عليه بين المؤمرين . ولم
 ينقل نياها الى الخليفة الا لينال مركزا عظيما عند المسلمين . وليصدق الناس توراته
 ان ليس في التوراة اى ذكر لما قاله كعب الاحبار هذا .

(١) ليست الرواية الصحيحة كما يقول المؤلف ان عمر بن الخطاب استخلف
 عبد الرحمن بن عوف فاعتذر هذا عن القبول . وانما هي ان عمر عندما أصيب قال :
 اني الناس عبد الرحمن بن عوف ؟ قالوا : نعم هو ذا . قال تقدم فصل بالناس ، وكان
 الموضوع امامة للصلاة في ذلك اليوم لا استخلافا كما فهم المؤلف .
 (٢) تسمى المؤلف اسما سادسا هو طليحة بن عبد الله . وهؤلاء الستة مع
 الباقون من العشرة المبشرين بالجنة ، اذ توفي الاربعة الباقون . وهم ابو بكر وعمر
 وابو عبيدة وشريحيل .

(٣) اخطأ المؤلف هنا خطأ كبيرا . فلم يكن عمر رضي الله عنه بحاجة الى
 الاستشهاد لدخول الجنة . اذ انه من العشرة الاوائل الذين بشرهم النبي بدخول
 الجنة . (العرب)

جرحه النافر دون أن يتبدل وراح يقول .. أوصى الخليفة من بعدى .
بتقوى الله ، وأوصيه بالمهاجرين والانصار ، وأوصيه بأهل الامصار خيرا
وبعد أن غرق في تأملاته بضع دقائق . طلب الى ولده عبد الله أن
يذهب الى عائشة زوجة النبي ، فيستأذنها في أن يدفن مع صاحبيه محمد
وأبى بكر ، في غرفتها وفي صباح الثالث من نوفمبر (تشرين الثاني)
عام ٦٤٤ انتقلت روحه الى جوار ربه بعد أن أدى الشهادتين .

من المحال على المرء أن ينكر على عمر بن الخطاب حقه في العظمة ،
فلقد عرف في شبابه بالميل الى التهور وحدة المزاج . وكان هو الذي حث
النبي بعد معركة بدر على قتل أسرى قريش . ولكن تحمل المسؤولية وكبر
السِّن أحدثا الكثير من التبدل في شخصيته . فأصبح ميالا الى الصبر
والتسامح . ولم يكن يرضى بأى تهاون في خدمة الله ولكنه كان كثير
التسامح واللين فيما يخصه هو شخصيا . ويحس ببالح العطف والاشفاق
على الفقراء . وعلى الرغم من أن مؤرخي السير يحبون أشد الحب التضخيم
في التحدث عن تواضعه وفقره وبره واحسانه الا أنه لا يستطيع انسان
أن يشك لحظة واحدة في أنه كان السيد المطلق الفرد الذي لا ينافسه
انسان في الامبراطورية العظيمة التي نمت نموا مذهشا في عهد خلافته
القصير . ولقد سبق لنا أن رأينا سنة ٦٣٩ عام قحط ومجاعة في الحجاز .
وعلى الرغم من الثروات الطائلة التي جمعها الكثيرون من المسلمين ، الا أن
الغذاء كان مفقودا في البلاد . وظل كذلك حتى وصلت قوافل الغذاء من
سورية والعراق . ويروى لنا المؤرخون كيف كان الخليفة في تلك الاسابيع
الشاقة العسيرة يطوف في شوارع المدينة أثناء الليل لا يرافقه الا خادمه
وكان الرجلان «الخليفة وخادمه» يحملان كيسا من الدقيق وقربة ملأى
بالسمن ليمسكا بما يقدمانه رفق الجياع من المحتاجين والفقراء . وكثيرا
ما يفرغ الكيس أثناء الطواف فيهرع التابع لياتي بكيس آخر . وتحدثنا
الروايات ان الخليفة جلس ذات ليلة الى جانب امرأة عجوز جائعة وأخذ
يعينها في اشعال النار وطهى الطعام لها ولاسرتهما .

وقد قدر للعرب والمسلمين في القرون التالية ان يعانون الامرين
من بعض الخلفاء الكسالى والتافهين والمبلدين أو الخلفاء الماجنين
أو الغلاظ القلوب . وكان من طبيعة الرواة المسلمين في عهود مثل هؤلاء
الخلفاء ان يكتروا من الحديث عن الخليفتين الاولين وان يرووا مع التزويق
أحيانا قصص ما امتازوا به في حياتهما الخاصة من تواضع وبساطة
واحسان رغم انتصاراتهما الرائعة في ميادين الفتوحات وقد تكون

بعض المبالغات قد ادخلت على قصص طواف عمر الليلي لتفقد احوال الرعية وغوث الفقراء والمحتاجين . ولكن الحقيقة الناصعة التي لا يتطرق اليها شك هي انه كان صورة للبساطة والديموقراطية ، وذلك لان هاتين الصفتين كانتا ولا تزالان ذائعتى الانتشار في الجزيرة العربية حتى يومنا هذا . وكان أسرى الحرب من الفرس والروم يصلون الى المدينة ، وهم يتوقعون أن يروا فيها قصورا يسودها البذخ والترف الامبراطورين على النحو الذى ألفوه في المدائن والقسطنطينية . ولكنهم سرعان ما يفاجئون فيرون بدلا من ذلك حفنة من العرب الجالسين على الارض في الباحة الترابية التي تؤلف ميدان المدينة المبنية من الطين . وكان بين هذه الحلقة ، رجل طويل ، نحيل القامة (١) أصلع الرأس ، حافي القدم يرتدى عباءة مرقوعة من الصوف الخشن ، هو الامبراطور الذي لا يدانيه في عظمته وقوته ، أى امبراطور آخر ، في عالم ذلك العصر .

وهناك قصة طريفة أخرى تروى عن عمر ابان احدى زياراته لسورية فقد حدث أن مر بأيلة في جنوب شرق الأردن (العقبة الحالية) وهو في طريقه الى الشمال فحل ضيفا عند مطران البلدة المسيحي لقضاء الليل عنده . وعندما أراد الخليفة النوم ، نزع عنه قميصه فسلمه الى مضيئه مشيرا الى شق في كتفه وطالبا اليه اصلاحه ، ان أمكن قبل طلوع الصباح . وعاد المطران عند الفجر الى ضيفه ، وقسم اليه قميصه القديم بعد أن أصلح ، وغسل وكوى كيا متقنا ، وكان صاحب البيت قد أخفى تحت القميص القديم قميصا جديدا آخر حملة معه الى الخليفة . ووضع المطران الرزمة التي يحملها ، وكان على وشك أن يفادر الغرفة التي يقيم فيها الخليفة عندما رأى هذا القميص الجديد فسأل عنه ، ورد المضيف الطيب قائلا : « ظننا انك قد تحتاج الى قميص آخر في مثل هذه الرحلة الطويلة » ورد الخليفة . . . بأن ثوبه القديم خير له ، وأعاد الثوب الجديد الى صاحبه . . .

ويروى الطبرى ان عمر بن الخطاب قال في احدى خطبه انه لا يبعث بالامراء والعمال ، الى الامصار ليضربوا الناس أو يفتصبوا حاجاتهم ، وانما ليرشدوهم الى أمر دينهم وسنة رسولهم . ويروى

(١) يقول ابن عساکر ، ان عمر بن الخطاب كان رجلا جسيما لا نحيلا كما يقول المؤلف وقد أيد معظم المؤرخين العرب وبينهم الطبرى والمطاردى رواية ابن عساکر .

الطبرى انه قال فى خطاب آخر : انه يود لو استطاع أن يزور الامصار كلها ، قاضيا فى كل مصر شهرين على الاقل ليتأكد من ان كل انسان فى البلاد التى يحكمها العرب كان قادرا على أن يشكو ما يحس به من ظلم الى الخليفة شخصيا . وهناك قصة تروى عن صاحب حق ، جاء يرفع دعواه الى المدينة ، فسأل أحد الناس فيها ، اذا كان يستطيع الحصول على اذن بمقابلة الخليفة ليرفع اليه ظلامته . فرد الرجل بأن ليس ثمة من حجاب بين الخليفة والرعية ، وان فى وسعه أن يرفع اليه ظلامته فى أى يوم عندما يلقاه فى الشارع أو فى المسجد .

وكثيرا ما كان استعدادده الكلى لسماع كل شكوى وكل ظلامة ، ولوضع الحق فى نصابه فورا حتى على حساب عماله ومساعديه ، سببا الى الاخلال بالانضباط فى صفوف جنوده والاضعاف من مكانة عماله وامرائه فى الامصار النائية والدائمة الاضطراب . ولكن النتائج السيئة لهذا الاسلوب فى الحكم لم تظهر الا بعد وفاته .

ولا ريب فى أن قضاء الحاكم لمثل هذه الارزاء الفسيحة ، يومه فى الاستماع الى ما يهمس به الناس فى أسواق المدينة ، وليله فى حل أكياس الدقيق لتوزيعها على الارامل والمحتاجين ، ليس الا دليلا على أوضاع الحكم البدائية التى ظلت قائمة فى الامبراطورية . وقد يحسد الحاكم فى القرن العشرين تلك الايام السعيدة التى كان فيها الرجل قادرا على حكم امبراطورية فسيحة الارزاء ، دون أن يخط بقلمه كلمة واحدة ولكن حتى لو كان الحديث شبيها لعمر بن الخطاب فى بساطته وديموقراطيته ، فانه سيعجز عن قضاء ايامه كلها فى الحديث الى الناس فى الشوارع والطرق . لكن الخلفاء الأوائل كانوا أحرارا فى متابعة المحاسبين وفى نجوة من تقديم التقارير الشهرية ، أو الرد على الاسئلة الدورية فى البرلمان . ولم يكونوا ليجدوا عند مجيئهم الى مكاتبهم فى صبيحة كل يوم مجموعة من الملفات الواردة تتطلب اتخاذ الاجراءات اللازمة . ولقد سبق لنا أن رأينا كيف ان عمرو بن العاص ، اكتفى بعد فتح حصن بابلين فى مصر بارسال رسالة شفوية الى المدينة ليعلم الخليفة بالنصر الذى حققه .

وعلى الرغم مما فى قصص الخلفاء الحفاة من خيال ابداعي (رومانطيقى) الا ان نظام الحكم الذى اتبعوه ، لم يكن خاليا من النتائج السيئة الخطيرة فلقد ظلت ادارة الامصار التى فتحها العرب من الفرس فى أيدي موظفيها السابقين نظرا لافتقار جهاز الحكم الى الموظفين

الأكفاء من العرب المدربين وكانت الحسنات العامة لا تزال تدون باليونانية أو الفارسية ، وهما لغتان لم تكن هناك الا قلة من العرب تعرفهما . ومن المحتمل أن يكون النقص في خراج مصر ، الذي أثار غضب الخليفة على عامله عمرو بن العاص ناجما عن افتقار الموظفين البيزنطيين السابقين الذين كانوا يجبون الخراج والحزبة الى الامانة ، ولكننا نعرف في الوقت نفسه ان عددا من الفاتحين العرب كانوا قد جنوا ثروات طائلة ولم تكن ثمة طريقة للحيلولة دون ذلك بسبب الافتقار الى الجهاز الكافي من الموظفين . ولكن عمر كما رأينا ، كان يعالج هذه المشكلة بطريقة سريعة ولا تخلو من القسوة اذ لا يكاد يسمع من الناس ان أحد عماله أو امرائه قد أئثر حتى يوفد ممثلا له يصادر منه نصف ما يملكه .

ويصل بنا هذا القول الى أهم مزية من مزايا عمر بن الخطاب . فالمؤرخون المسلمون يتحدثون كثيرا ، ولهم كل الحق في ذلك ، عن وريته وتواضعه وتفانيه في اداء واجبه ، ولكننا لا نسمع من أى منهم عن مزاياه القيادية . ولكننا نراه يرسل أكثر من مرة ، رسائل الى قادته الظافرين المنتصرين ، وهم على ربوس جيوشهم في امصار نائية يأمرهم فيها بتسليم قياداتهم الى غيرهم ، والتخلي عن نصف ما يملكونه الى بيت مال المسلمين . ولم نسمع قط أن أيا منهم قد تردد لحظة واحدة في اطاعة الامر وانفاذه ، ولا يمكن أن تعزى هذه الطاعة العمياء الى الدين وحده ، اذ اننا سنرى بعد قليل خليفة عمر ، يواجه بالعصيان المكشوف الذي أدى في النهاية الى الاطاحة به .



كان ابو لؤلؤة ، قاتل عمر ، من الفرس ، وكان الهرمزان ابز من في المدينة من الفرس ، في تلك الايام ، وهو النبيل الذي تمكن من انقاذ حياته بالحيلة التي لجأ اليها وهي صب الماء الذي كان يوشك على شربه على الارض . ولم يكده عمر ينتقل الى جوار ربه ، حتى كان ولده يسارع الى الهرمزان فيقتله ثارا لمصرع أبيه . وكان هذا الولد بوصفه عربيا قد فكر أول ما فكر بالثار لأبيه . ويروى الطبرى أن أحد الناس ذكر أمام ابن الخليفة انه كان قد رأى الخنجر الذي طعن أبو لؤلؤة به عمر بن الخطاب في حيازة الهرمزان . ولكنني أرى من غير المعقول أن يكون الهرمزان قد تأمر على قتل عمر لأن الخليفة كان قد أنقذ حياته وخصص

له جعلاً شهرياً (١) يضاف الى هذا ان الهرمزان كان نبيلاً فارسياً وحيداً يعيش في عاصمة العرب . ولكن عمر قتل قتلاً وحشياً على يد أحد الفرس ، ومن الواجب التكفير عن هذه الجريمة في عرف العرب ، بدم فارسي آخر هو الهرمزان .

لعل من أصعب المشاكل في الحكم الانساني العثور على طريقة سليمة لاختيار من يخلف حاكماً عند موته . ولقد كانت هذه المشكلة من النوع الذي لم يتمكن العالم القديم قط من حله ، وهي ما زالت حتى يومنا هذا من أقوى الحجج ضد نظام حكم الفرد ، وكانت هذه المشكلة أيضاً من القضايا التي لم يترك النبي أية تعليمات محددة واضحة بصدها . وكان النبي قد عين ابان مرضه الأخير أبا بكر ليؤم الناس . ولكن اختيار الخليفة الأول كاد يؤدي كما رأينا من قبل الى نزاع داخلي خطير في الدولة الحديثة .

وكان أبو بكر قد اختار عمر فعلاً لخلافته وكان هذا من القوة بحيث استطاع أن يفرض كلمته دون معارضة ، ومن المحتمل أن يكون عبد الرحمن بن عوف الذي رفض عرض عمر أن يخلفه هو أصلح الناس للخلافة إذ دلل رفضه على تجرده من أية مطامع شخصية أو أطماع أو تعشق للسلطان . على أي حال اجتمعت اللجنة التي اختارها عمر بعد وفاته ، لاختيار الخليفة الجديد ولما كان جميع أعضاء هذه اللجنة قد قدر لهم أن يلعبوا أدواراً بارزة في السنوات التالية ، فأننى أرى من الجدير بنا أن ندرس أوضاعهم ، واحداً واحداً بصورة أكثر دقة .

كان على بن أبى طالب ابن عم النبي وقد نشأ في بيته وفي رعاية

(١) منطق سخيف لا يسنده أى دليل إذ متى كان الاحسان لانسان سبباً في براءة هذا الانسان من الاجرام بحق الحسن اليه . وقديماً قيل ... اتق شر من احسنت اليه . وأنا لا أشك وان كانت الدلائل غير كافية باستثناء دليل تحديد كعب الاحبار في أن قتل عمر كانت أول مؤامرة دبرها الشعوبيون ضد العرب وهي كثيرة في تاريخهم الطويل المشترك . ولعل السبب في افتقار الأدلة هو مصرع أبى لؤلؤة الفوري . إذ لو عاش لتمكن استخلاص الحقيقة منه ومعرفة شركائه ولكن هذه الحقيقة ضاعت مع مقتل أبى لؤلؤة الفوري ونجاة شركائه من خطر الاكتشاف واقتدار العرب في تلك الايام ألى انظمة التحقيق الجنائي . ولعل السبب في القول بوجود التآمر الشعوبى ، هو ضعف السبب الذى عراه المؤرخون لنقمة أبى لؤلؤة على عمر وقلته له .

(العرب)

زوجته خديجة وكانه ولدهما وزوجاه من ابنتهما فاطمة الزهراء وقد لعب دورا بارزا في حروب النبي اذ كان فارسا مغوارا ولا سيما في المبارزة الفردية . وقد اقام في المدينة بعد وفاة النبي ولم يخرج منها اذ ظل يعمل مستشارا لابن بكر وعمر . وكان في هذه الآونة قد أصبح في أوسط العمر ، ميسور الحال ، مهيب الصورة والمنظر .

أما عثمان بن عفان فهو ثاني أعضاء اللجنة وينتمي الى بني أمية التي كانت تضم في الماضي أكثر الناس في قريش ثراء والتي كان يتولى زعامتها أبو سفيان . وكان عثمان قد بنى بابتى رسول الله على التعاقب ، وقد أوفده النبي يوم صلح الحديبية الى مكة لمفاوضة قريش . وهناك رواية تزعم أنه كان بين من ركنوا الى القرار يوم أحد (١) .

وكان الزبير بن العوام العضو الثالث في اللجنة ، وهو أيضا من اقارب الرسول . وكان هذا الصحابي هو الذي قاد جيش النجدة الذي بعد اثني عشر ألف محارب ، والذي بعث به عمر بن الخطاب الى مصر لمساعدة عمرو بن العاص ثم تولى أخيرا الهجوم مرتقيا السلم ليقترحم حصن بابليون .

أما سعد بن أبي وقاص فكان العضو الرابع في اللجنة وهو فاتح العراق الذي طالما سمعنا باسمه . أما الخامس فكان عبد الرحمن بن عوف وقد رأيناه يرفض الخلافة لنفسه ولكنه يشترك في اختيار الخليفة (٢) .

وكان المجلس قد اجتمع . وعمر يصارع سكرات الموت في غرفة مجاورة حيث بدوا مشاوراتهم وسرعان ما علت أصواتهم أثناء النقاش المحتد بينهم حتى ان الخليفة طلب اليهم أن يؤجلوا المناقشات حتى تصعد روحه الى خالقها . ولم يكذ عثمانه يسجى في مرقده الاخير الى جوار صاحبيه ، حتى عادت اللجنة الى الاجتماع . وقد أقيم حارس على مكان الاجتماع تلبية لأمر الخليفة المتوفى ، وقيل للمجتمعين ان الخليفة حدد لهم موعدا أقصاه ثلاثة أيام ، يجب أن ينهوا قبله مشاوراتهم وعليهم أن يختاروا قبل هذا الموعد خليفة للمسلمين . ونص أمر الخليفة في حالة افتقار القرار الى الاجماع أن يؤخذ بالأغلبية على أن يؤخذ رأس

(١) ليس ثمة ما يؤيد هذه الرواية في كتب التأريخ المشهورة .

(٢) أغفل المؤلف ذكر العضو السادس وهو طلحة بن عبيد الله لانه كان غائبا من المدينة ولم يشترك في الانتخاب وكان أمر عمر يقضي بأن يشترك في الانتخاب لو جاء قبل انتهائه .
(العرب)

المخالفين بالسيف ويبدو من هذا ان عمر لم يكن على استعداد لان يتيح لمرشح منهم الفرصة لاغراق البلاد في حرب أهلية . ويظهر هذا النص ان احتمال نشوب الحرب الاهلية كان قد بدأ قى الظهور وهى حقيقة قد تفسر لنا الطريقة التى كان عمر يقبل فيها قواده الظافرين ، فلقد كان يخشى احتمال الثورة العسكرية (١) .

(١) أرى ان أسجل هنا القصة الكاملة لاوامر عمر باختيار الخليفة كما أوردها مؤرخو العرب . فقد ذكروا انه لما طعن عمر واحس بالموت طلب اليه ان يعهد الى خليفة من بعده ، فتردد وقال ان استخلف فقد استخلف من هو خير منى (يريد أبا بكر) وأن اترك فقد ترك من هو خير منى (يريد رسول الله) وقال . لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته فان سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول : « انه أمين هذه الامة » ، ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا استخلفته فان سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول ان سالما شديد الحب لله . فقال له رجل ادلك على عبد الله بن عمر فقال : قاتلك الله ، والله ما أردت له بهذا ، ويحك كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته . لا أرب لنا في أموركم ، ما حمدتها فأرغب فيها لاحد من اهل بيتى . ان كان خيرا فقد أصبنا منه ، وان كان شرا فشرعنا الى الله . حسب آل عمر ان يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل من أمر أمة محمد (صلم) . اما لقد أجهدت نفسي وعسمرت أهلى فان نجوت كفافا لا ولد ولا اجر الى لسعيد .

ثم كرر عليه القول بعد هنيهة ، فقال : كنت أجمعت بعد مقالتي لكم ان انظر قاولى رجلا امركم هو أحراركم ان يحملكم على الحق وأشار الى عبد الرحمن ثم رأيت ألا أحمل البركم حيا وميتا ، عليك هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله (صلم) أنهم من اهل الجنة على وعثمان ابنا عبد مناف ، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير ابن عبيد الله فليختاروا منهم رجلا فاذا ولوا واليا فأحسنوا مؤادرتهم ، وأعينوه ان اتعن أحدا منكم فليؤد أمانته ثم دعا هؤلاء الرهط ، وقال لهم ، انى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الامر الا فيكم وقد قبض رسول الله وهو منكم راض. الى لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكنى أخاف عليكم اختلافتكم فيما بينكم فيختلف الناس ، ثم عين لهم الاجل الذى يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام بعد موته وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتونى في حفرتى فأجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم وقال لصهيب : صل بالناس ثلاثة أيام وأضاف للمقداد وأدخل عليا وعثمان والزبير وسعدا وعبد الرحمن وطلحة ان قدم وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الامر وقم على رءوسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحدا فاضلخ رأسه بالسيف وان اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فأضرب رأسيهما فان رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله ابن عمر ، فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقيين ان وغبوا عما اجتمع عليه الناس .

فلما دفن عمر جمع المقداد اهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وقيل في حجرة عائشة . ولم يكن قد حضر طلحة .

(المغرب)

وسرعان ما ظهر ان الترشيح الجدى انحصر بين رجلين هما عثمان
ابن عفان وعلى بن أبى طالب . فلقد كان كلاهما من اصهار رسول الله .
وكانا من المسلمين الاوائل . وعلى الرغم من ان سعد بن أبى وقاص
والزبير بن العوام كانا من كبار المحاربين الا انهما لم يعتبرا من المنافسين
الخطرين للمرشحين الاولين .

ودار نقاش حاد بين على وعثمان . واحتد وطيس التنافس بينهما
اذ كان كل منهما يصر على حقه فى الخلافة وانقضى يومان دون أن يصل
أصحاب الشورى الى قرار حاسم وعندما طلع صبح اليوم الثالث جاء
قائد الحرس (يعنى المقداد بن الاسود) فقرع الباب على من فى الغرفة
من أهل الشورى وأندرهم بأن قرارهم يجب أن يصدر فى ذلك اليوم .
وألقى العبء الاكبر من المسئولية على عاتق عبد الرحمن بن عوف الذى
اعتبره المسلمون أحق مرشح بالخلافة لو ارتضاها . وراح يعلن صبيحة
اليوم الثالث رسميا استعدادده لسحب ترشيحه شريطة أن يرتبط الاربعة
الآخرون بمن يختاره خليفة للمسلمين^(١) وقد وافق الجميع على طلبه
وان جاءت موافقة على بعد لآى وتردد .

وليس ثمة من شك فى أن عبد الرحمن بن عوف كان قد قضى
اليومين الاخيرين يسبر أغوار الرأى العام فى المدينة ، وراح الآن يجتمع
الى كل من الاربعة على انفراد . وجدير بنا أن نذكر ان المنافسات العائلية
كانت قد ظهرت بين أحفاد قصى بن كلاب الرجل الذى أقام لقريش
سلطانها فى مكة منذ أمد طويل قبل الدعوة الاسلامية . وقد أدب هذه
المنافسات الى اقتسام مظاهر الزعامة وحقوقها بين بطون قريش فاحتفظ

(١) يبدو أن طلحة السادس من رجال الشورى قد وصل الى المدينة قبل انتهاء
المشاورات خلافا لرأى المؤلف الذى يصر على بقائهم خمسة ، فقد روى السيوطى فى كتابه
تاريخ الخلفاء ان الستة اجتمعوا فقال لهم عبد الرحمن بن عوف اجعلوا أمركم الى ثلاثة
منكم فقال الزبير جعلت أمرى الى على ، وقال سعد جعلت أمرى الى عبد الرحمن وقال
طلحة جعلت أمرى الى عثمان ، فخلا الثلاثة وقال عبد الرحمن أنا لا أريدها فأيكما ييرا
من هذا الامر ونجعله اليه لا والله عليه والاسلام لينظرون أفضلهم فى نفسه ، وليجرس على
صلاح الامة فسكت الشيوخان على وعثمان وقال عبد الرحمن اجعلوه الى والله على
لا الوكم من أفضلكم قالا نعم . فخلا بعلى وقال : لك من القدم فى الاسلام والقرابة من
النبي عليه الصلاة والسلام ما قد علمت الله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عليك
لتسمنن وتطيعن قال نعم ثم خلا بعثمان فقال له كذلك فلما أخذ ميثاقهما بايع عثمان ،
وبايعه على بعد احجام .

بنو عبد الدار بشرف حمل الراية فى الحروب والاحتفاظ بمفاتيح الكعبة . وكان نصيبه بنى أمية الحق الوراثى فى قيادة قريش الى الحرب بينما عهد الى بنى هاشم برفادة الحجيج وسقايتهم وبدا وكان المنافسات القبلية بين بطون قريش قد انتهت بهذه التسوية ولم يكن من قبيل الصدفة ان محمدا لقي الحماية من بنى هاشم عندما بدأ يشر بدعوته ، بينما تمثلت المعارضة الرئيسية له فى شخص ابى سفيان زعيم بنى أمية وهكذا ظلت الحزازات القبلية تطل برأسها بين آونة وأخرى .

ولم يكن من قبيل الصدفة المعارضة الآن ايضا أن يكون أحد المرشحين المتنافسين على الخلافة من بنى أمية وأن يكون ثانيهما من بنى هاشم . فلقد مادت الخلافات القبلية بين البطينين من بطون قريش والتي تعود الى أيام الجاهلية ، تنذر بالظهور وكان الجميع الآن ولا ريب من المسلمين الصادقين ولكن برغم هذا الاسلام ، فان المنافسات القبلية كانت لا تزال تثير الولاءات القديمة .

وأخيرا أهل فجر اليوم الرابع وارتج مسجد النبى بأهله ممن توافد اليه من أبناء المدينة انتظارا لمعرفة ما تم اليه قرار أهل الشورى ولكن هؤلاء لم يكونوا قد وصلوا الى قرار بعد . وصعد عبد الرحمن المنبر وهو متردد ، ودعا المجتمعين الى ابداء رأيهم وسرعان ما ارتفعت الهتافات من المجتمعين بعضها يؤيد عليا والبعض الآخر يؤيد عثمان بن عفان وتصايح أنصار الرجلين ، وتبدلت العبارات العنيفة وساد الهرج والمرج . وأصبح الجو مكهربا بحيث توقع العقلاء الا تنقضى لحظات حتى تستل السيوف والخناجر من أعمادها وتسيل دماء المسلمين فى مسجد النبى . حقا انها للحظة دقيقة تتطلب الحسم . وكان التساجيل فى البت أكثر خطورة من اتخاذ أى قرار . وهمس سعد بن أبى وقاص فى أذن عبد الرحمن بن عوف يقول : « يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس » .

واستجمع عبد الرحمن رجولته كلها . وطلب الى المجتمعين الصمت وهتف قائلا : أيها الناس انى قد نظرت وشاورت فلا تجعلنى أيها الرهط على أنفسكم سبيلا . ودعا عليا للمثول أمام الناس وقال له « عليك عهد الله وميثاقه لنعلمن بكتاب الله وسنة رسوله ، وسنة الخليفتين من بعده » فقال على أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى . ثم دعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى فرد هذا بالايجاب . فبايعه عبد الرحمن

بالخلافة ، بعد ان توجه الى الله بدعاء قصير ، وسرعان ما لحق به الناس فبايعوا عثمان بالخلافة دون ضجة . وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين ليلة بقيت من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة فاستقبل بخلافتها عام أربعة وعشرين . وفي هذه الاعوام تغيرت خريطة العالم رأسا على عقب اذ انهزمت الامبراطوريتان العظيمتان ، وظهرت قوة عالمية جديدة احتلت محلها . ولم يسبق أن ظهرت امبراطورية جديدة في تاريخ البشرية بمثل هذه الصورة المفاجئة المبالغية . ولكن في هذه السنة الرابعة والعشرين من مولد الدولة الجديدة كانت يلمور الخلاف في هذه الامبراطورية قد بدأت في الظهور وكانت قريش هي التي بنت تلك الامبراطورية ، وهي التي قدر لها أن تهدمها .

مرت السنة الاولى من خلافة عثمان بهدوء وعلى الرغم من المنافسات العنيفة التي أثارها انتخابه مؤقتا في المدينة إلا أن الامصار استقبلت النبأ بهدوء ودون أى اعتراض .

كان عثمان قد بلغ السبعين من عمره عندما بويع بالخلافة وتقول الروايات : انه كان الرجل الرابع في الاسلام بعد أبى بكر وعلى وزيد بن حارثة ، وكان أحد الذين هاجروا الى الحبشة ؛ ابان فترة الاضطهاد الاولى ثم عاد الى مكة ليهاجر ثانية الى المدينة . كان متوسط الطول جسيم البنية كثير الاناقة وان امتلأ وجهه بآثار الجدري ، وكان شعره المتموج ينسدل الى مادون أذنيه بيتما تملأ وجهه لحية كثنة طويلة ويروى عن النبي انه قال : انا نشبه عثمان بأبينا ابراهيم . وعلى الرغم من أنه كان من بنى أمية الى أن أمه كانت من بنى هاشم ، ومن هنا جاز ان يقال انه كان واسطة العقد بين بطنى قريش المتنافسين واللذين أدت تنافسهما الى تمزيق العالم الاسلامي .

ويقال انه عندما اعتنق الاسلام ، أخذه عمه فآوئقه رباطا وقال : ترغب عن ملة آبائك الى دين محدث ؟ والله لا أدعك أبدا حتى تدع ما انت عليه ولكن عثمان احتمل اضطهاد عمه بصبر عجيب ورد عليه قائلا : والله لا أدعه أبدا ، ولا أفارقه ، فلما رأى عمه صلابته في دينه تركه .

وعندما جهز النبي جيش العسرة في الصيف الى تبوك ، وكان المسلمون في أمس الحاجة الى وسائل النقل ، في ذلك القبط ، جهز عثمان من ماله الخاص ٩٦٠ بعيرا وخمسين جوادا ، وهو تبرع لا شك

في سخائه بالنسبة الى تلك الايام المعسرة . ويقال ان النبي وعده بالجنة بعد تجهيزه لجيش العسرة . وتقول الروايات ايضا ان النبي وعده ذات مرة بان يلقاه في الجنة ، وهو وعد تذكره الخليفة الشيخ بعبارات مؤلة قبيل مصرعه . ولقد كان عثمان السمع الكريم ، الرجل الذي أوفده النبي الى قريش ليفاوضها يوم الحديبية عندما كان الوضع في منتهى الحرج والشدة . ولعل أروع اطراء من الرسول له يتمثل في قوله عنه ان الملائكة تستحيى منه ، وهن شهادة توحى بأن عثمان كان في منتهى الطهر والبراءة ، والبعد عن الزيف والاصطناع وبلوغ حدود السذاجة بالنسبة الى مطامع الانسان الدنيوية .

- وتوحى القصص والروايات التي وصلت إلينا بأن الخليفة الجديد كان انسانا سمحا جيل الوجه والصورة مهيب الطلعة . كثير التقى والورع والتواضع لين الجانب محبوبا الى من يعرفه . وكان في بداية عهده أقرب الى قلوب الناس من عمر المتزمت الصلب . وذلك لما عرف عنه من لين وتسامح ، وأخلاق رضية وحسن معاملة لاصدقائه ورعاياه .

لكن سوء طالعاه شاء أن يكون من بنى أمية البطن من قريش الذي اشتهر بالثروة والنفوذ في الجاهلية . فبالإضافة الى ما تميز به هذا البطن من حق ورائي في قيادة جيش قريش في الحروب ، ضم أكبر تجار مكة الذين ألفوا المال والترف بالنسبة الى ما عرف في الجزيرة العربية في القرن السابع . ويقيم تبرعه السخي لجيش العسرة في حملة تبوك الدليل على أن عثمان كان من الاثرياء في الجاهلية ومن المحتمل أن يكون ثراء بنى أمية ، قد جعل منهم أناسا يتعلقون بالمادة والدنيا . ولقد كانوا تحت قيادة أبي سفيان ألد أعداء الرسول حتى فتح الله مكة لنبيه . وسرعان ما رأينا بنى أمية ينقلبون الى الجانب الآخر . وقال ولدا أبي سفيان مركزين كبيرين . فقد اختير يزيد قائدا لجيش من جيوش المسلمين بينما اختير معاوية الولد الثاني كاتما لأسرار الرسول . وحارب أبو سفيان جنديا متطوعا في جيوش المسلمين وهاجر الى المدينة الكثيرون من بنى أمية ، ليكونوا على مقربة من عاصمة الجاه والنفسوذ في الامبراطورية الجديدة المتوسعة بسرعة هائلة ، اختار عمر يزيد بن أبي سفيان أميرا لسورية بعد وفاة أبي عبيدة . وعندما توفي يزيد خلفه في إمارته أخوه معاوية ولكن على الرغم من هذه المناصب المهمة التي وصل اليها بنو أمية الا أن بنى هاشم ظلوا يحتلون المكانة الأولى لظهور النبي منهم . ويطمح

الامويون الآن ، بعد وصول أحد رجالهم الى منصب الخلافة في استعادة
المكانة التي كانوا يحتلونها قبل ظهور رسول الله .

تواريخ مشهورة

مصرع عمر بن الخطاب ٣ نوفمبر (تشرين الثاني) ٦٤٤

شخصيات بارزة

الخليفة الثاني	عمر بن الخطاب
المجوسي قاتل عمر	أبو لؤلؤة
الخليفة الثالث	عثمان بن عفان

هيئة الشورى

ابن عم النبي	علي بن أبي طالب
الخليفة المنتخب	عثمان بن عفان
بطل حصن بابلينون في مصر	الزبير بن العوام
فاتح العراق	سعد بن أبي وقاص
عرضت عليه الخلافة فاعتذر عن قبولها	عبد الرحمن بن عوف

عشـمات

« هو اول من اقطع القطائع ، واول من حمى الحمى
واول من خفض صوته بالتكبير واول من خلق المسجد ،
واول من امر بالاذان الاول في الجمعة ، واول من رزق
المؤذنين واول من ارتج عليه في الخطبة • واول من قدم
الخطبة في العيد على الصلاة ، واول من فوض الى
الناس اخراج زكاتهم ، واول من ولى الخلافة في حياة
امه ، واول من اتخذ صاحب شرطة ، واول من اتخذ
المقصورة في المسجد خوفا من ان يصيبه ما اصاب
عمر • واول ما وقع في عهده الاختلاف بين الامة فخطا
بعضهم بعضا في زمانه في اشياء نقوموها عليه ، واول من
هاجر الى الله باهله ، واول من جمع الناس على حرف
واحد في القراءة ، واول منكر ظهر بالمدينة في عهده ،
حين فاضت الدنيا ، وانتهى سمن الناس • »

جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء

كان السلام مخيما على كل جزء من أجزاء الامبراطورية العربية الجديدة عندما اغتيل عمر بن الخطاب في عام ٦٤٤ . ولم يكن القتال دائرا الا في فارس على شكل حركة بطيئة من حركات التوسع على عدد من الجبهات المختلفة والبعيدة بعضها عن بعض اذ على الرغم من تحطيم آخر جيش من جيوش يزدجرد في معركة نهاوند فان المقاومة المحلية ظلت مستمرة في عدد من المناطق الجبلية المختلفة ، ويقول السيوطي ان العرب احتلوا مدينة الري في السنة الاولى من خلافة عثمان بن عفان ، ويبدو ان العرب كانوا قد احتلوها بعد معركة نهاوند ثم اضاعوها وعادوا الى احتلالها ثانية .

ويبدو أن المعرات الجبلية عبر طوروس التي أضحت تفصل الآن بين الممتلكات البيزنطية وبين امارة سوريا العربية لم تكن في هذه المرحلة مسرحا لعمليات حربية رئيسية ويبدو ان هرقل وهو يجلو عن سوريا ، كان قد أصدر أوامره باخلاء عدد من مدن المنطقة وتدميرها رغبة منه في اقامة حزام من الارض الحرام بين الامبراطوريتين . لكن قتالا شديدا دار على أي حال في الشمال البعيد في ارمينيا ، حيث نشبت الثورات عند وصول الانباء اليها معلنة وفاة عمر بن الخطاب . وصدرت الاوامر الى معاوية والى الشام بارسال رتل قوامه ستة آلاف جندي وقيل بل ثمانية آلاف رجل الى ارمينيا بقيادة حبيب بن مسلمة ، وصدرت الاوامر أيضا الى أمير الكوفة بأن يرسل قوة أخرى قوامها ستة آلاف من الموصل باتجاه الشمال . وقد التقى الرتلان ، ولكن الاحتكاك وقع بين قائديهما واختلعا على القيادة العامة وعلى اقتسام الغنائم ، وأدى هذا الاختلاف الى افتراق الرتلين ثانية بحيث اتجه القادم من سوريا نحو الشمال أيضا باتجاه حدود جورجيا . وقد تصالحت عدة مدن وقرى مع الغزاة بعد أن وافق أهلها على أداء الجزية والإخراج وفق الشروط المألوفة وتصالحت مدينة تفليس على نفس الشروط المألوفة ، ووجد العرب أنفسهم وجها لوجه أمام حاجز طبيعي تكسوه الثلوج هو جبال القفقاس .

وكان الرتل القادم من العراق ، قد شق طريقه في غضون ذلك الى الشمال نحو الطرف الشرقي من القفقاس ، الى الجنوب من مدينة باكو.

الحالية ، ولكنهم وجدوا أنفسهم في مكان ما في هذه المنطقة وجها لوجه أمام قبائل الخزر . وتمكن الخزر من إبادة القوة الإسلامية التي تبلغ نحو من أربعة آلاف مقاتل . اذ أحاط بهم العدو بقوات هائلة وظلوا يقاتلون حتى استشهد آخرهم ، وهم يهتفون حتى النفس الأخير ، الله أكبر ، لا اله الا الله ، (١) .

وعلى الرغم من مثل هذه النكسات والاحداث المؤسفة فقد تمكن العرب من فرض حد كبير من السيطرة في أعوام ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ على جميع المنطقة الممتدة حتى القفقاس وظلوا يمينون العمال والولاة لارمينيا واذرييجان . لكن وضع الحدود ظل مضطربا ولا سيما بالنسبة الى مناطق الخزر . وكان هؤلاء يؤلفون شعبا من أصل تركي، تمكن في القرن السابع من السيطرة على جميع المنطقة الممتدة من القرم الى بحر قزوين . وكان خانات الخزر قد أعانوا هرقل بجيش قوامه أربعون ألفا من الرجال في حملاته على كسرى أبريز . وعندما وصل العرب الى أرمينيا بعد معركة نهاوند في عام ٦٤٢ ، تعاون الخزر مع الروم في الدفاع عن أرمينيا . وقد قدر للحروب بين العرب والخزر أن تستمر زهاء قرن من الزمن ظل القتال فيها سجالا الى أن أذعن الخاقان في عام ٧٣٧ وأشهر اسلامه وخضعت منذ ذلك التاريخ جميع شعوب القفقاس للامبراطورية العربية الى أن انهارت نهائيا .



وبينما كانت العمليات العسكرية مستمرة في أرمينيا وفارس وقعت أزمة عنيفة في مصر فجأة . ويذكر القاريء ولا شك ان عمر بن الخطاب كان قد وجه اللوم الى عامله في مصر ، عمرو بن العاص ، على تقاعسه عن جباية الخراج والجزية مطالبا اياه بزيادة ما يجبيه . وكان من آخر ما قام به الخليفة من أعمال قبيل مصرعه ايفاده رجلا يدعى عبد الله بن أبي سرح ، ليتولى عملية جمع الخراج ؛ مؤكدا بذلك شكوكه في نزاهة عمرو بن العاص .

(١) يختلف رواية المؤلف هنا عن معظم الروايات الإسلامية . فقد قيل ان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي أوغل في بلاد الخزر حتى وصل بلنجر وهي أكبر مدنها خلف باب الابواب ولكن الترك تجمعوا على العرب هناك وصادموهم بجمعهم الكبير فاصيب عبد الرحمن وانهزم المسلمون ففرقوا فرقتين فرقة عادت فقاتلت سلمان بن ربيعة الذي كان قد أرسل مددا لآخيه فنجحت ، وفرقة أخرى اخذت طريق جيلان وجرجان .

(العرب)

وكان لعبد الله بن سعد بن أبي سرح هذا تاريخ مطعون فيه . فلقد كان اخا لعثمان بن عفان في الرضاعة . وكان من اوائل المسلمين . وهاجر مع النبي الى المدينة فرارا من اضطهاد قريش . ويبدو أنه كان أكثر تعليما من سائر قريش فاختره النبي كاتباً له لتدوين آيات القرآن الكريم . ولكنه ما لبث لأسباب نجهلها أن فر من المدينة الى مكة ، حيث ارتد عن الاسلام واخذ يطعن في النبي ، مثيرا الشكوك في صدق نبوته . ولا ريب في ان هذه الخيانة في شخص كان موضع ثقة الرسول ، أثارت عليه سخطا عنيفا عند المسلمين . وعندما فتح النبي مكة كان ابن أبي سرح احد القلائل الذين لم يشملهم عفو النبي ، فظل مختبئا امدا من الزمن الى أن عفا عنه الرسول تحت تأثير شفاعته أخيه بالرضاعة عثمان ، وان كان النبي قد ذكر بأنه اجل اصدار العفو عنه ، املا في ان يقتله احد المسلمين . هذا هو الرجل الذي اوفده عمر بن الخطاب لجباية الخراج من المصريين . وليس ثمة شك في كفاية الرجل ، وفي براعته في جمع الخراج ، وان كان مطعونا في اسلامه من الزاوية الدينية . ولعل من الغريب كل الغرابة ان يعين عمر بن الخطاب مثل هذا الرجل ، لا سيما وأنه كان قد أقال عددا من كبار القادة العسكريين من مناصبهم لما قيل من تهاونهم في شئون الدين . والمعتقد أن هذا الرجل كان ذا كفاية بالغة في أعمال الادارة ، وهو امر كان نادر الوجود بين المسلمين الأوائل .

ولم تمض على تعيين ابن أبي سرح في هذا المنصب فترة قصيرة حتى كان مصرع عمر بن الخطاب ، مما أدى الى تبدل الاوضاع كل التبدل بالنسبة الى هذا الرجل . فالخليفة الجديد أخوه في الرضاعة . وكان أول ما قام به من أعمال عزله عمرو بن العاص من منصبه ، وتعيينه ابن أبي سرح ، أميرا لمصر ، وقائدا عاما للجيش فيها . وقد وافقت تعيينه أوامر جديدة ، بأن يحصل على المزيد من المال من أعمال الجباية من المصريين ، وقد شرع ينفذ هذه الأوامر بعزيمة مطلقة . وسرعان ما ارتفعت صيحات الاحتجاج من الذين تناولتهم هذه الضرائب . وبعثت جماعة من كبراء الاسكندرية برسالة سرية الى الامبراطور كونستانس في بيزنطة ، يناشدونه فيها إعادة احتلال مصر واتقاذهم من ظلم العرب .

وكان البيزنطيون يسيطرون على البحر ، ولذا كان احتمال غزوهم لمصر شيئا ممكنا . وأخلوا يحشدون أسطولا ضخما في منتهى السرية

لتنفيذ هذه الغاية ولم تكن هناك مراكب عربية تمخر عباب البحر المتوسط ، ولم يصل الى مصر أى اشعار عما يدبر لها بليل من غزو مرتب ، وشاهد أهل الاسكندرية فجأة فجر أحد الايام من خريف عام ٦٤٥ أسطولا يتألف من نحو ثلثمائة سفينة يقترب من الميناء . وسرعان ما هبطت جنود الروم أرض المدينة وأعملوا السيف فى حامية المسلمين التى يريد تعدادها على ألف رجل وحصن البيزنطيون أسوار المدينة ، وعادت الاسكندرية من جديد الى حكم الروم . ولم ينتظر الروم هجوم العرب المضاد المحتوم بل سارعوا بالخروج من المدينة واجتاحوا جزءا كبيرا من أدانى الدلتا . وبعد أن حقق مانويل قائد الروم هدفه الأول على هذا النحو الظافر المنتصر ، بدا وكأنه لم يضع أى مخطط للمرحلة الثانية من استعادة البلاد . ويشير اليه مؤرخو العرب باسم مانويل الخصى ، فهل كان ياترى من بطانة القصر وليس جنديا محترفا ؟ لكننا فى عهد جوستنيان ، رأينا خصيا آخر هو نارسيس يقيم الدليل على انه قائد عسكري عظيم . ومهما كانت طبيعة هذا القائد فقد رأينا جيش الروم ينتشر فى أراضى الدلتا ناهبا سائبا ومصادرا المؤن بدلا من أن يعد العدة للمعركة المنتظرة . ومن المحتمل أن يكون هدف الروم جمع المؤن فى الاسكندرية تمهيدا لحصارها . مع ان تموينها كان عملا فى منتهى السهولة من ناحية البحر .

ولم تكد هذه الأزمة تنشب فى مصر ، حتى كان عثمان يبادر على الفور الى اعادة تعيين عمرو بن العاص ، قائدا عاما للجيش فيها ، فيوفده على جناح السرعة اليها . ولو قدر للروم أن يزحفوا مباشرة الى حصن بابليون والفسطاط عند رأس الدلتا لاحتلوا عاصمة مصر الجديدة، قبل أن يقدر لعمرو بن العاص الوصول اليها . وكان فى امكانهم أيضا أن يقيموا قلعة منيعة فى الاسكندرية وأن يؤمنوا تموينها من البحر ويجعلوها عاصمة على الفتى الى أن تحين الفرصة من جديد لاستعادة مصر كلها .

ولقد سبق لنا أن رأينا العرب فى جميع حملاتهم السابقة ، تواقين دائما الى القتال فى الاراضى المكشوفة . ورأيناهم يبرعون كل البراعة فى اجتذاب أعدائهم واخراجهم من حصونهم ، أو من المناطق الضيقة المحصورة ، ليقاتلوهم ويهزمهم فى الصحراء أو على أطرافها . ولا ريب فى أن عمرو بن العاص كان من أبرع القادة العرب فى استغلال هذا الأسلوب التعبوى . فلو ظل الجيش البيزنطى الذى لم يقهر بعد وراء

الاسكندرية ، لما استطاع العرب إعادة احتلالها أبدا أو حتى يضمّنوا سيادة البحر لانفسهم . وعلى ضوء هذا التفكير أطال عمرو بن العاص مكثه في حصن بابلليون طمعا في جر الروم الى حربه في الجنوب . ولكن عندما وصل نيكيو (زاوية راسين) على بعد مائة ميل الى الجنوب من الاسكندرية ، قابلهم فيها عمرو بن العاص على رأس جيشه الذي يعد خمسة عشر ألف عربى . ونشبت معركة دموية حامية ظل فيها النصر معلقا في كفة القدر مدة طويلة . وأخيرا انهار جيش الروم وشرع في التراجع . وسرعان ما تحول الانسحاب الى هزيمة ، ووصلت فلولهم الى الاسكندرية في حالة فظيعة من الفوضى والاضطراب بعد أن فرت مسافة مائة ميل طاردهم فيها قوات العرب . لكنهم أفلحوا على أى حال فى دخول المدينة واغلاق أبوابها عليهم واضطر عمرو الى المرافطة فى الجانب الشرقى وهو الجانب الوحيد الخالى من البحيرات والقنوات متطلعا بشعور من العجز الى أسوار المدينة وأبراجها .

وما زالت الطريقة التى استعاد فيها العرب الاسكندرية هذه المرة موضع الشك اذ أنها محوطة بالغموض والالتباس . ولعل أصدق الروايات التى نقلت اليها فى هذا الصدد تلك التى تقول . ان أحد القادة من الروم ، وكان مسئولا عن أحد الأبواب اتصل سرا بعمرو بن العاص عارضا عليه أن يفتح أبواب المدينة للعرب . ومن المحتمل أن يكون أحد الاقباط هو الذى قام بهذا العمل ثارا لما أصابه أو أصاب بعض أقاربه من اضطهاد الروم الدينى أثناء الحكم البيزنطى . وسرعان ما تدفق العرب على المدينة التى عملوا فيها القتل والسبى والسلب . وعندما تم تدمير نصف المدينة أصدر عمرو أمره بوقف أعمال الشدة والعنف . وتمكن شطر من جيش الروم من النجاة عن طريق البحر ولكن الكثيرين من جنودهم لقوا حتوفهم وبينهم قائدهم منويل نفسه . وقد وقع احتلال الاسكندرية للمرة الثانية فى صيف عام ٦٤٦ بعد أن استفرقت الحملة زهاء تسعة أشهر (١) .

(١) تختلف رواية المؤلف بمض الاختلاف من روايات المؤرخين المسلمين اذ يقول البلاذرى ان الروم كتبوا الى قسطنطين بن هرقل ، يخبرونه بقلّة من عندهم من المسلمين وبما هم فيه من الدلة واداء الجزية فبعث رجلا من أصحابه يقال له منويل في ثلاثمائة مركب مشحونة بالقتال فدخل الاسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين الا من لطف للهرب فنجوا وذلك في سنة خمس وعشرين وبلغ الخبر عمرو بن العاص فسار اليهم في =

ولما كان العرب قد احتلوا الاسكندرية مرتين اولاهما نتيجة
 المفاوضات مع المقدس والثانية عنوة ، فان البليلة التي أحدثتها هذه
 الحقيقة أربكت المؤرخين ارباكا لا يقل عن ارباك معركتى اليرموك لهم .
 وكانت لتقرير موضوع الفتح وهل كان صلحا أو عنوة ، أهمية كبيرة من
 الناحية القضائية بالنسبة للأجيال اللاحقة ، ففي الحالات التي كانت
 بعض المدن فيها تخضع طوعية كان هناك اتفاقات للصلح تنص على
 شروط التسليم وعلى مبلغ الجزية التي تفرض ، ولا ريب في أن العرب
 احترموا هذه الشروط غاية الاحترام ، ووفوا بها تمام الوفاء أما اذا
 دخلوا بلدة عنوة فليس لاهلها حقوق . وانما هم رقيق للفاتحين . وبعد
 أن مرت قرون طوال ثبتت فيها أقدم الامبراطورية ، لم يكن في الامكان
 التثبت من حقوق أية مدينة أو مقاطعة الا اذا عرف ما اذا كانت قد
 استسلمت طوعية أو عنفا عند فتحها . وكان في الامكان الرد على هذا
 السؤال دائما بسهولة ، ففي أيام الفتح لم تكن عند العرب سجلات .
 ولم يكن التاريخ يهمهم في قليل أو كثير . وكانت أماكن كثيرة قد
 استسلمت صلحا ثم عادت فثارت وأعاد العرب احتلالها عنوة . وشغلت
 الخلافت الناتجة عن هذه الاوضاع فقهاء المسلمين قرونا وأجيالا .
 ويبدو أن الاقباط ظلوا الى حد بعيد أن لم يكن كلية على الحياد
 بان هذا الفتح الثانى للاسكندرية . ويقول المؤرخ بتلر ان بنيامين
 بطريق القبط طلب مقابلة عمرو بن العاص . وبين له أن النصرارى
 الارثوذكس وحدهم هم الذين نصروا مانويل . وأمر عمرو على أى حال
 بهدم أسوار الاسكندرية من ناحية الشرق ليحول بين المدينة وبين الاطلاق
 أبوابها دون العرب من جديد .

ووقع حادث طريف في هذه الآونة ، أراه جديرا بالتسجيل .
 فلقد تقدم أهل عدد من القرى القبطية الى عمرو بن العاص بعد استرجاعه
 للاسكندرية بشكوى يؤكدون فيها عدم اشتراكهم في الثورة ، وانهم

— خمسة عشر ألفا فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يمشون فيما يلى الاسكندرية من قرى مصر
 فلقبهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة والمسلمون متترسون ثم صدقوهم الحملة
 فالتحمت بينهم الحرب فاقتلوا قتلا شديدا . ثم ان أولئك الكفرة ولوا منهزمين فلم يكن
 لهم ناهية ولا عرجة دون الاسكندرية فتحصنوا بها ونصبوا العرادات فقاتلهم عمرو عليها
 أشد قتال ونصب المجانيق فأخرب جدرانها وألح بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة فقتل
 المقاتلة وسبى اللرية ، وهرب بعض رومها الى الروم وقتل عدو الله مانويل ، وهدم عمرو
 جدار الاسكندرية .
 (العرب)

على النقيض من ذلك تعرضوا لنهب جيش الروم الذي صادر كل ما عندهم من غذاء دون أن يسدد لهم أثمانه وأضافوا ان المعاهدة الاصلية التي عقدها مع عمرو عند فتح مصر أول مرة قد فرضت عليهم الجزية ، مقابل تولى العرب حمايتهم ولكن العرب لم يحموهم أبان غزوة مانويل واحتملوا من جراء ذلك خسائر فادحة . وأقر عمرو على الفور بعدالة شكواهم وأمر بدفع التعويض للخسائر التي منوا بها . ومن العدل أن نعترف هنا بأن العرب كانوا في هذه الآونة جد حريصين على الوفاء بالتزاماتهم المتبادلة التي نصت عليها معاهدات الصلح مع الشعوب المحتلة . وكانوا يصرون على أن تدفع هذه الشعوب الجزية كاملة مع الخراج ولكنهم كانوا يقرون في الوقت نفسه بالالتزام المفروض عليهم لحماية هذه الشعوب التي أضحت تحت وصايتهم .

ولعل من الغريب أن نلاحظ هنا ان الخليفة عثمان الذي كان قد أقال عمرو بن العاص فور توليه الخلافة والذي أعاده الى مصر بعد عودة الروم الى غزوها ، عاد فأقاله من جديد بعد أن حقق النصر ومرت الأزمة الخطرة . ومن الحق أن نقول ان الخليفة اقترح على عمرو أولا البقاء قائدا عاما ليس الا على أن يصبح عبد الله بن أبى سرح مسئولاً عن الادارة المالية والضرائب . وقد يبدو هذا التقسيم للعمل مشروعاً بالنسبة الى الأوروبيين المعاصرين ، ولكن حري بنا أن نذكر أن عمرا كان في البداية حاكما عاما مطلقا في مصر وكان هو الذي حدد الضرائب وجباها . وان اللوم وجه اليه على اعتبار أن ما جباه من الناس لم يكن كافيا ، وان عبد الله بن أبى سرح أوفد الى مصر وهدفه المزيد من الجباية ولما كان عمرو قد نال من المكائيل ما ناله بفضل احتلاله مصر مرتين ، فمن الواضح ان الاقباط لو وجدوا أنفسهم مرغمين على زيادة ما يدفعونه من الضرائب على الحد الذي كان عمرو نفسه قد فرضه عليهم ، لما ترددوا لحظة واحدة في الاسراع بالشكوى اليه . وكان لابد والحالة هذه أن ينشأ الاحتكاك بين ابن أبى سرح وبين القائد العام . ومن هنا كان رد عمرو على اقتراح الخليفة بقوله : « أنا كما سكت قرني البقرة ، والامير يحلبها » وعندما تسلم عثمان هذا الرد من عمرو أمر بعزله من جميع مناصبه وعين ابن أبى سرح للمرة الثانية واليا لمصر وقائدا عاما للجيش فيها . وحري بنا أن نذكر هنا ان الامير الجديد كان أخا لعثمان في الرضاع ويبدو أن المؤرخ بتلر قد ضاع في خضم الروايات التي وصلت الينا عن شخصية الامير الجديد . فلقد وصفه المؤرخ العربي النوى بأنه من أنبل رجال قريش وأكثرهم ذكاء . أما الطبري فقد وصفه من الناحية الاخرى بأنه

كان أسوأ عمال عثمان • لكننى لا أرى كبتلر تناقضا فى الوصفين •
فلقد كان ابن أبى سرح ولا ريب رجلا فى منتهى الكفاية وكان فى الوقت
نفسه من قريش ومن بنى أمية ، وشقيق الخليفة الحاكم فى الرضاع
ومثل هذا النسب كفىل بأن يجعله كما قال النووى من أنبل رجال
قريش • ولكن ابتزازه للضرائب الثقيلة من المصريين السيئى الحظ
بأمارته يبرر وصف الطبرى له بأنه أسوأ من اختارهم عثمان لامارة
الامصار فى عهده •

ويذكر القارىء أخيرا أن الخليفة السابق عمر بن الخطاب كان قد
اتهم عمرو بن العاص فى نزاهته ، وأوفد مندوبا له لمصادرة نصف
ما يملكه • ولست أرى فى هذا الاجراء من ايفاد اذارى أكثر علما وخبرة
فى الحساب الا اجراء فى منتهى التعقل والحكمة بعد أن ثارت الشكوك
فى نزاهة القائد العسكرى • ونرى بتلر مع ذلك ينقل عن المؤرخ
الأجنبى سيفيروس قوله أن ابن أبى سرح كان « يتعشق المال ، ويجمع
الثروات لنفسه » وأنا لا أريد أن أبرء القائد أو الادارى من الشك
فى انهما جمعا المال لنفسيهما ، لكننى أقول ان احتلال مصر تم بفضل
مبادرة عمرو بن العاص ، يضاف الى هذا أنه احتل البلاد مرتين وكان معظم
الفضل فى كلتا المرتين لبراعته الشخصية فى القيادة • ولم يكن العرب
قد برعوا حتى ذلك التاريخ فى الاساليب الماكرة التى تلجأ اليها الحكومات
الحديثة للخلاص من موظف لا ترغب فيه عن طريق نقله الى دائرة أخرى
فى مركز أكبر وجعل أضخم ، وأرى أن عزل عمرو بن العاص قد كلف
العرب ثمنا باهظا للغاية •

وأراد أمير مصر الجديد أن يحرز نصرا معادلا لما حققه سلفه المعزول
من الناحية العسكرية فراح يعد فى عام ٦٤٧ حملة لغزو الشمال الافريقى
وبعث له أخوه فى الرضاع الخليفة عثمان من المدينة بجيش قوامه
عشرون ألف جندى بينهم عدد كبير من الاحياء من صحابة الرسول ،
وعدد من المتطوعين من كبار أبناء قريش بينهم عبد الرحمن بن أبى بكر
وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومعبد بن العباس وعبد الله بن الزبير ،
وقد انضم الى هذا الجيش جيش كبير آخر يعد عشرين ألفا من القوات
العامة فى مصر وسار الجيشان بقيادة ابن أبى سرح يجتاح الصحراء
الغربية • ولقد شكك الاغريق والرومان دائما من صعوبة المواصلات
فى صحارى افريقيا الشمالية ، وانتقلت العدوى فيما بعد الى البريطانيين
والالمان والايطاليين ابان الحرب العالمية الثانية ولكن هذه المواصلات لم

- تكن تؤلف مشكلة للعرب مع وجود الجمل حليفهم الطبيعي في الصحراء اذ كانوا في زحفهم في الصحراء يمتطون الجمل ويقودون الجياد من أعنتها الطويلة • وكان في مكنة الجمل أن يحمل بالاضافة الى هجانه ومناعه ، العلف والماء لطعام الجياد وسقايتها .

ويذكر القاريء ولا شك أن عمرو بن العاص دفع جيوشه بعد استسلام الاسكندرية الى شمال افريقيا حيث استسلمت له طرابلس . ولكن يبدو أن المدينة عادت فارتدت بعد رحيله ودانت بالولاء من جديد للبيزنطيين اذ قيل ان ابن أبي سرح عاد ففرض الحصار عليها ابان هذه الحملة من جديد .

- وكانت قرطاجنة القديمة عاصمة الشمال الافريقي وفيها اقام جريجوريوس الحاكم البيزنطي عاصمته وبلاطه • وكانت صلاحياته تمتد فتشمل ولو بصورة نظرية المنطقة الممتدة بين طرابلس وطنجة • وقد حشد هذا الحاكم جيشا تقدم به لنجدة طرابلس • ويقول المؤرخون العرب وهم مبالغون دائما الى المبالغة في ذكر عدد العدو أن جيش جريجوريوس كان يعد مائة وعشرين ألفا ، وأنا أعتقد أن تحريك مثل هذا الجيش وتأمينه بالماء والغذاء في شمال افريقيا وبوسائل النقل المتوافرة في القرن السابع عملية مستحيلة • ولا ريب في أننا نكون أقرب الى الصديق والصواب لو قدرنا جيوش تلك الايام بعدد يتراوح بين العشرين ألفا والثلاثين ليس الا •

ولما كان العرب لم يبرعوا بعد في حروب الحصار ، فانهم سروا ولا شك من احتمال اشتباكهم مع العدو في معركة صحراوية مكشوفة ، اذ أن هذا الشكل من الحروب هو الذي أكسبهم حتى الآن أعظم انتصاراتهم • وكان في قدرة البيزنطيين بوصفهم المسيطرين على البحر أن يحافظوا على أنفسهم في قرطاجنة وطرابلس والمدن الساحلية الاخرى • ولكن العرب كانوا ينتشرون في المناطق السهلية الواقعة الى الجنوب من قرطاجنة • ولا ريب في أن البربر الذين كانوا يؤلفون الجزء الأكبر من أهل الارياض الذين تأثروا من غارات العرب كانوا يصرون على خوض معركة فورية معهم • وقد سبق لنا أن رأينا في فصل سابق العرب على حوض الفرات يستعملون الغارات السريعة بانتظام لارغام عدو يرغب في أن يخوض حربا دفاعية على الخروج من حصونه وقتالهم • ونشبت المعركة في سفتلة التي يسمونها اليوم سبتلة ، وقد

استغرقت بضعة أيام وتروى لنا القصص الرومانطيقية كيف حاول جريجوريوس ايقاد شعلة الحماس في أفئدة الشبان من رجاله فوجد بيد ابنته الجميلة الى الجندي الذي يقتل ابن أبي سرح قائد العرب . وقد يكون من الخطأ أن ننظر الى ابن أبي سرح على أنه مالى ذو كفاية ليس الا ، اذ يقال انه كان من أشجع الفرسان أيضا . ولكن يبدو أنه كان من المؤمنين بسياسة العقل والمنطق أكثر من ايمانه بالخيال ولم يكن يرى أن من واجب القائد العام أن يتولى قيادة الهجوم بنفسه . ويقال بأنه أوى الى خيمته عندما سمع بأن جريجوريوس قد وعد بمثل هذه الجائزة الضخمة ثمنا لرأسه .

ويذكر القارىء ولا شك أن الزبير كان من أولئك المسلمين وكان الرجل الذي قاد هجوم السلالم عند اقتحام حصن بابليون ، كما كان عضوا في هيئة الشورى التي اختارها عمر بن الخطاب لانتخاب خليفته . ويقال بأن عبد الله ولده كان شاهدا في هذه المعركة وأنه احتج على غياب ابن أبي سرح عن القتال وأنه حثه على أن يقلب حملة جريجوريوس رأسا على عقب بأن يعد بيد ابنة الأخير لأى جندي مسلم يقتل القائد الروماني .

ولجأ العرب أخيرا الى خطة سوقية . ولعل مما يستلفت النظر أن المؤرخين العرب كثيرا ما يذكرون أمثال هذه المناورات التي يبدو انها كانت ناجحة دائما . فلقد كان العرب وما زالوا شعبا شديد الذكاء للغاية وحاضر البديهة دائما . يضاف الى هذا أن جيشهم لم يكن عريضا تقيدته التقاليد وتحد من حريته ، وانما كانوا يحاربون على ضوء الطبيعة اما قادة جيوش الروم والفرس ، فكانت لهم آراء جامدة عن الطريقة التي تسير فيها الحروب ، وكانوا ولا شك عاجزين عن تكييف أساليبهم ليواجهوا عدوا جديدا وعلى أرض مختلفة .

وكان قد انقضى على المعركة عدة أيام ، وكان الجيشان المتحاربان يقضيان الاصبحة والامسيات في شكل اشتباكات ومبارزات فردية ومناورات . وعندما تحل الظهيرة وتشتد حرارة الشمس كان الفريقان ينسحبان الى خطوطهما . واتبع الفريقان ذات يوم عند الظهيرة اجراءهما المألوف وانسحب الجيشان الى معسكريهما للراحة ولسقاية الجنود والخيال . وكان الروم كالعادة قد رفعوا الاسرحة عن خيولهم ونزع الفرسان عنهم دروعهم عندما فاجأهم العرب بهجوم مفاجيء وغير متوقع وكانت المباغتة هائلة واحاقت بالاعداء هزيمة شنيعة قتل ابانها

جريجوريوس نفسه . وقيل ان قاتله كان عبد الله بن الزبير . ويبدو أن ابن أبي سرح اقترف خطأ في ايقاده ابن الزبير الى المدينة يحمل اليها . انباء النصر متيحا له المجال لينسب النصر الى نصيحته وليدعى قتل قائد الروم . وتختلف الروايات لسوء الحظ في المصير النهائي الذي حل بابنة جريجوريوس الجميلة .

وعاد ابن أبي سرح ظافرا منتصرا الى مصر مثقلا بالفنائم ومرسلا الى العبودية عدة الوف من الاسرى . لكن الفتح لم تثبت دعائمه بعد كما لم تجر أية محاولة كما يبدو لاقامة ادارة حكومية في مقاطعة طرابلس . لكن الحملة لم تؤد على اى حال الى الرفع من سمعة عثمان بن عفان الخليفة الجديد وانما أدت الى العكس من ذلك تماما . ويذكر القارىء ولا شك أن محمدا نفسه قد قضى بأن يكون خمس الفنائم التى تكسب في الحرب من نصيب الخزانة العامة أو بيت مال المسلمين ، وأن تقسم الأخماس الأربعة الباقية على الجنود . وقد سمح الخليفة الآن لابن أبي سرح بأن يحتفظ لنفسه بخمس الفداء أى بخمس حصص بيت المال ، وأن يبعث ما تبقى منه الى المدينة ، ولم يكشف عثمان بهذا بل انه راح تلبية لنصحاء السوء يسلم ما وصل من الفداء الى المدينة الى ابن عم آخر له يدعى مروان ليتصرف فيه بكامله ، وقد قدر لسوء التصرف هذا أن يلعب دورا مهما في المشاكل اللاحقة .

* * *

ويذكر القارىء ولا شك أن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد عين معاوية بن أبي سفيان أميرا على سوريا وكان معاوية هذا رجلا ذا كفايات نادرة . وقد واجهته مشكلة الدفاع عن سوريا ضد الروم ، فأدرك أن ليس ثمة كبير خطر يخشاه من ناحية البر ، لكن معظم المدن الغنية والمناطق الكثيرة الحصوبة تقع على سواحل البحر المتوسط . يضاف الى هذا أن العنصر العربى لم يتسلل قط بنفوذه الى المناطق الساحلية كما كانت الحالة بالنسبة الى المناطق الواقعة على أكناف الصحراء . وكان البحر المتوسط لعدة قرون الطريق الرئيسية للامبراطورية الرومانية ثم للامبراطورية البيزنطية بعدها . وكانت جميع المقاطعات الرومانية تقوم على شواطئه باستثناء فرنسا الشمالية وبريطانيا . وكان سلطان الرومان يعتمد لمدة ستة قرون على القيادة البحرية في البحر المتوسط . ولم تكن هناك أية مراكب عربية قد ظهرت في وسط البحر . وما دام في وسع الاسطول البيزنطى

أن يمحّر عباب هذا البحر دون أى اعتراض فان سواحل سورية وفلسطين
ومصر لن تكون فى نجوة من الغارات أو من الغزو .

وكان معاوية أول من فهم هذه الحقائق وأدركها فكتب الى عمر
ابن الخطاب يطلب منه الاذن له ببناء أسطول عربى ، وارتعد الخليفة
العجوز، الذى رأيناه يعرب عن اعتقاده بأن كل ما يصلح للجمل يصلح
للعرب ، من هذا الاقتراح الحديث الجريء ، وبعث الى فاتح مصر
عمرو بن العاص يسأله أن يصف له العمليات البحرية وراح عمرو
بما عرف عنه من براعة يصف فى رده المحاربين فى البحر على ظهر
السفينة بأنهم أشبه ما يكونون بمجموعة من الهوام تتعلق بقطعة خشب
تلعب بها الرياح ذات اليمين وذات الشمال . وفزع الخليفة الحذر من
فكرة رؤية المحاربين العرب فى مثل هذا الوضع الشاذ والمزرى وكتب
فورا الى معاوية يمنعه منعا باتا من دفع أى عربى الى الحرب فى
البحر . (١)

فلما كان زمن عثمان بن عفان بعث اليه أخوه فى الرضاع عبد الله
ابن أبى سرح يحثه على بناء أسطول للعرب ، وعاد معاوية وهو أموى
أيضا فكرر الطلب وسرعان ما أذن عثمان له ببناء الاسطول . ويبدو
أن معاوية وابن أبى سرح وهما رجلان معروفان بثاقب بصيرتهما
وعملية تفكيرهما قد تعاونا فى هذه المهمة . وقد صدر اقتراح القيام
للمرة الأولى بعمليات برمائية مشتركة من معاوية فقد كتب الى عثمان
يقول له ان قبرص قريبة جدا من ساحل سوريا حتى ان أهل هذا
الساحل يسمعون نباح الكلاب فيها . وحرى بنا ان نذكر ان عثمان
رفض فى المرة الأولى الاستجابة لطلب معاوية قائلا له انه كان قد شهد
ما رد عليه عمر رحمه الله حين استأذنه فى غزو البحر . وتبين من هذا
الرد أن عمر درج فى الأيام الأخيرة من خلافته على الاحتفاظ بنسخ من
مكاتباته مما يشير الى تقدم عظيم عن الأيام التى كانت الأوامر المتعلقة
بالأحداث العظمى تصدر شفوية . وأخيرا أصدر عثمان اذنه متريدا
محجبا بعد أن قرأ المكاتبات المتبادلة السابقة . وقد جاء هذا الاذن

(١) يقول مؤرخو العرب ان عمر كتب الى عمرو بن العاص يقول له : صف لى
البحر وراكبه فان نفسى تنازعنى اليه فكتب اليه عمرو : انى رأيت خلقا كبيرا يركبه
خلق صغير ، ان ركن خرق القلوب وان تحرك أراغ العقول ، يرداد فيه اليقين لل
والشك كثرة هم فيه كدود على مود ، ان مال غرق وان نجا برق . فلما قرأه
عمر كتب الى معاوية : لا والذى بعث محمدا بالحق ، لا أحمل فيه مسلما ابدا .
(العرب)

مشروطا بالا يحمل معاوية في ركوب البحر الا من يندب نفسه متطوعا لذلك وأن يحمل معاوية معه امراته . والمفروض أن يكون الهدف من هذا الشرط تثبيط همة معاوية عن القيام بمثل هذه المغامرة الخطرة وانضم ابن ابي سرح في عام ٦٤٩ الى الاسطول السوري الضخم بأسطول اعدده في مصر . وكان بحارته من المصريين بينما كان محاربوه من العرب . والمقصود من هذا أن مهمة البحارة اقتصر على التجديف وعلى قيادة المراكب ولم يكن لها شأن في القتال . ولم يكد العرب ينزلون الى البر في الجزيرة ، حتى كان حاكمها الروماني يعرض التسليم قبل أن ينشب أى قتال . وعقدت معاهدة غربية بين الفريقين نصت على أن يدفع أهل الجزيرة الى العرب جزية سنوية قدرها (٧٢,٠٠) دينسار وهو عين ما كانوا يدفعونه الى الروم . وتضمن الاتفاق بندا ترك لأهل قبرص الحق فى مواصلة الدفع الى الحكومة البيزنطية فى الوقت نفسه . وهكذا أصبح أهل قبرص بعد توقيع الاتفاق يدفعون الجزية فى آن واحد الى المدينة والقسطنطينية . وأقرت بنود أخرى بحياد الجزيرة فى حالة نشوب القتال بين العرب والروم ولكنها تركت لأهل قبرص الخيار فى اطلاق العرب على حركات الروم البحرية . ولا ريب فى أن المفاجأة الكاملة التى حققها مانويل فى هجومه على الاسكندرية بينت للقادة العرب ضرورة استخدام المخابرات لمعرفة حركات أسطول العدو .

وأرى لزما على أن أواصل هنا الحديث عن العمليات البحرية حتى ولو خرجت قى الحديث عنها عن نطاق التسلسل الزمنى المتزمت ، ففى عام ٦٥٢ أى بعد ثلاث سنوات من احتلال جزيرة قبرص دفع الروم بأسطول ضخم الى البحر ظهر أمام الاسكندرية مستهدفا كما يبدو احتلال المدينة من جديد ، لكن العرب كانوا قد حصصوا على معلومات مسبقة فى هذه المرة ، وراح ابن ابي سرح يجمع كل ما أمكنه من مراكب فى مصر أو على السواحل الغربية منها فى شمال افريقيا . وخفقت الرياح فى المساء وقضى الاسطولان الليل وهما راسيان بعيدا عن الساحل . ودارت معركة حامية الوطيس فى اليوم التالى . واختلط التحابل بالنابل بين الاسطولين ، وتماسكت المراكب وتشابكت الايدي فى قتال يائس استخدمت فيه السيوف والخنجر . وأخيرا أوقف الروم المعركة ، وولوا الادبار عائدين باتجاه الشمال بعد أن أدركوا عجزهم عن النزول الى الساحل ، لكن الأسطول العربى لم يحاول مطاردتهم على أى حال وان كانت الايام التى كان فيها الاسطول البيزنطى يستطيع

أن يمتلئ عباب البحر وأن ينزل جنوده حيث شاء دون أن يعترض طريقه أحد قد انقضت إلى غير رجعة وقد يكون ابن أبي سرح من الجشعين الطامعين في المال وفي جمع الثروات وفي ابتزاز أكثر ما يمكن من المصريين السيئ الطالع إلا أنه معاً لا شك فيه ولا جدال أنه في معركته مع جريجوريوس في شمال إفريقيا وفي بنائه للأسطول وفي معركته البحرية أمام الإسكندرية قد أقام الدليل على أنه قائد قدير ورجل ذو كفاية عظيمة .

ويذكر القاري ولا شك أنه عند ما احتل معاوية قبرص وقع معاهدة مع أهلها سمحت لهم بالبقاء على الحياد في حالة تجدد الحروب بين العرب والروم . ويبدو أن الاتهام قد وجه إليهم الآن بأنهم ساعدوا الأسطول الروماني في معركته الأخيرة . ولهذا عاد معاوية في عام ٦٥٣ إلى قزو قبرص للمرة الثانية بقوة ضخمة . وعولت البلاد هذه المرة على أنها معادية وقتل عدد كبير من أهلها بينما نقل عدد ضخم آخر منهم إلى حياة الرق والاسر . على أي حال أمر معاوية بعقد هذا العمل التاديبى بإعادة العمل بالاتفاق الأصلي مع بقاء حامية عربية في الجزيرة قوامها اثني عشر ألف رجل .

ووقعت معركة بحرية حاسمة أخرى أسماها العرب ذات الصواري وقد دارت على مقربة من ساحل ليقيا وشنها الإمبراطور الروماني نفسه . وقد تحطم الأسطول الروماني بعد معركة ضارية واضطرت فلوله إلى الانسحاب . وقد أضعاف الرومان في هذه العمليات الحربية التي يرجع الفضل فيها إلى معاوية سيادتهم على البحر وكانت خسارتهم للسيطرة الحربية أكبر ضربة منى بها خلقاء هرقل الضعفاء ولو كان الإمبراطور المعجوز لا يزال على قيد الحياة لما قبل هذه الخسارة على هذا النحو من الضعف والجبن ، فلقد كانت سيطرته على البحر الأسود هي التي مكنته مدة أربع سنوات من الحفاظ على جيشه في أرمينيا بينما كان جيش الفرس يربط فعلاً خارج أسوار القسطنطينية . وكانت استعادة سوريا ومصر وفلسطين قيد الاحتمال طالما أن سيطرتهم قائمة على البحر المتوسط . أما وقد حقق العرب هذا التفوق البحري أيضاً فإن خسارة الروم لآماراتهم السابقة أصبحت نهائية ولا ردة لها وهو ما توقعه معاوية وأدركه الإدراك .

تم فتح بلاد فارس بأكملها في عهد عمر بن الخطاب . ولكن كما

نشبت الثورة العامة في الجزيرة العربية ممثلة في ردة القبائل بعد وفاة النبي فان مقتل عمر بن الخطاب كان بمثابة اطلاق الاشارة للثورة العامة . في جميع ربوع فارس .

وعلى الرغم من أن يزدجرد كان لا يزال على قيد الحياة الا أن حكومته وسلطته كانتا قد زالتا مما قد أدى الى عدم الترابط بين الثورات لعدم وجود سلطة مركزية تنظم أمرها ، ولكن على الرغم من هذا الافتقار الى الترابط والتعاون ، فان الثورات ظلت لسنوات عدة مصدر خطر يهدد السيادة العربية كلها واستمرت الحروب المتشابكة والمختلط حابلها بنابلها تدور محتدمة في أنحاء فارس كلها عدة سنوات بين ارتقاء عثمان الخلافة في عام ٦٤٤ وبين عام ٦٤٩ ولم يحقق العرب فيها كما يبدو كبير نجاح .

وكان أمير الكوفة مسئولاً عن سير العمليات الحربية في شمال فارس من منطقة جرجان حتى أذربيجان بينما كان أمير البصرة مسئولاً عن جنوب فارس وجنوبها الشرقي حتى حدود السند . وكان هناك نحو من عشرة آلاف مقاتل من جيش الكوفة يحاربون في شمال فارس منهم ستة آلاف في أذربيجان وأربعة آلاف في الري . وكان بالكوفة آنذاك أربعون ألف مقاتل يصيب الرجل منهم غزوة في كل أربع سنوات مما أدى الى اشتراكهم في حروب الجبهة بالتناوب بمعدل عشرة آلاف في كل عام . ولا ريب في أن ما عاناه أمراء الكوفة في بدء خلافة عثمان من شروء الدسائس والمؤامرات كان سبباً في تأجيل استقرار الأمور في فارس الى أمد طويل .

ويذكر القاري ولا شك أن عمر بن الخطاب كان قد عين المغيرة بن شعبة - أمير البصرة السابق الذي أقاله عمر لتهمة وجهت اليه - أميراً للكوفة ولكن عثمان عاد في عام ٦٤٥ أي بعد سنة من توليه الخلافة فأقال المغيرة وأعاد للكوفة أميرها السابق سعد بن أبي وقاص فاتح العراق ، وأحد رجال الشورى الذين اختاروا عثمان خليفة للمسلمين . لكن النزاع ما لبث أن قام بعد انقضاء عام بين سعد وبين القائم على أمر الحجاج في الكوفة وهو عبد الله بن مسعود أحد كبار الصحابة الأوائل . ويبدو أن سعداً كان قد اقترض مالا لأجل من بيت المال . فلما حل الأجل لم يتيسر لسعد السداد واشتد الخصام بين الرجلين الى أن تحول الى فضيحة ، فاستدعى الخليفة سعداً من أمارته وولى الكوفة بدلاً منه في عام ٦٤٦ اخاً غير شقيق له يسمى الوليد بن عقبة . وكان عقبة قد وقع في أسر المسلمين في بدر وأمر النبي بقتله . وعندما صرخ الرجل

المحكوم عليه بالموت فزعا ٠٠٠ « ومن للصغار بعد موتى ؟ » « رد النبي ببرود قائلا : نار جهنم » وهكذا كان أمير الكوفة الجديد أحد هؤلاء الصغار الذين بشرهم النبي بنار الجحيم وكان من سوء حظ الوليد أنه مرف بشرب الخمر (١) وكان النقد الموجه إلى عثمان على تعيينه آخذا في التزايد .

فاقد عين أخاه في الرضاع عبد الله بن أبي سرح أميرا على مصر مع أن النبي كان قد أعلن أن جزاءه الموت لردته عن الاسلام ، وكان قد عين أخاه غير الشقيق الوليد أميرا على الكوفة مع أن النبي كان قد تنبأ له بالجحيم . وكان معاوية وهو ابن عم لعثمان أميرا على سوريا وأن كان عمر هو الذي اختاره لهذا المنصب ، وكان جديرا به لما أثبتته من كفاية بالغة . ومع ذلك فقد انتشرت الشائعات تشوبها المرارة بأن ليس في

(١) يختلط على كل من يقرأ تواريخ العرب في موضوع الوليد هذا فمعهم كثيرون لا يثبتون رواية المؤلف من تنبؤ الرسول له بنار جهنم ، وقد تكون هذه الرواية مختلطة وضعها أهداء عثمان ، كما أن المؤرخين يختلفون في تحديد شخصيته وسلوكه فمعهم من يصفه بالطيبة ومنهم من يؤكد فيه صفة الفسق وأرى أن أثبت هنا الرواية التي توصل إليها العلامة المحقق المرحوم الخضرى إذ قال : « ولي عثمان ، الوليد على الكوفة وكان على حرب الجزيرة عاملا لعمر بن الخطاب (لو كان الوليد على هذا النحو من السوء كما يقول المؤلف ولو صح أن النبي كان قد بشره بنار جهنم لما ولاه عمر إمارة في عهده إذ لا تربطه بعمر قرابة أو صلة) . ولما قدم الوليد كان محببا إلى الناس ورفيقا بهم وحدث في زمنه أن شبابا من أهل الكوفة تقبوا على رجل داره وقتلوه وكان له جار قد أشراف على الحادث وراه فاستصرخ الشرط فجاؤا وقبضوا عليهم وفيهم زهير بن جندب الأزدى ومونع بن أبي موزع الأسدي وشبل بن أبي الأزدى فحكموهم وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوه واضطفت آباؤهم لذلك على الوليد وسادوا يتحينون الفرص للإيقاع به وكان سحار يسرون عند أبي زبيد الطائي وهو نصراني أسلم وكان معروفا بشرب الخمر فأبى أن أولئك النفر الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم في الوليد يعاقر أبا زبيد الخبر فأذاعوا ذلك بين الناس حتى شاع على السنتهم فتوجهوا إلى ابن مسعود فأخبروه بذلك ، فقال ابن مسعود من استتر هنا بشيء لم تتبع مودته ولم تهتك ستره فأرسل الوليد إلى ابن مسعود فعابيه في ذلك وقال : أيرغى من مثلك بأن يجيب قوما موثودين بما أجبت أي شيء استتر به ، ألما يقال هذا للقريب فتلاحيا واقترا على غضب ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صمموا على الذهاب إلى المدينة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم من انتدبوهما للشهادة على عثمان ومعهما نفر يرافقهم عثمان ممن قد هزل الوليد من الأعمال فأخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسالهما كيف رأيكما ؟ قالوا كما من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر فقال عثمان ما يقره الخمر إلا شاربها فأرسل عثمان إلى الوليد فأقدمه المدينة وألقى على يوجوب حسده فحدوه حد شارب الخمر ومزله عثمان .

(العرب)

وسمع غير الامويين وغير اقرباء الخليفة ان يطعموا في الوصول الى .
منصب عال .

ويذكر القارىء ولا شك ان ابا موسى الأشعري كان قد قضى امدًا طويلا في اماره البصرة وكان قد نشط كل النشاط في حملاته ضد المقاومة الفارسية في مقاطعة فارس . ولكن ضعف عثمان وتحيزه لاقاربه كانا قد ظهرا بوضوح للعيان بصورة متزايدة وبدأ النظام ينهار في كل مكان . وهدد الجند في البصرة بالعصيان ووافدوا رسلا منهم الى المدينة يطلبون من الخليفة عزل قائدهم العام . ووافق عثمان مستسلما لطلبهم واستدعى ابا موسى من البصرة وعين بدله بعد فترة من التردد والاحجام حاول فيها الجند ان يختاروا قائدا منهم شابا يدعى عبد الله بن عامر . ولم يكن الامير الجديد من بنى أمية او قريبة لعثمان فحسب ، بل وكان أيضا في الخامسة والعشرين من عمره . واضطر الخليفة بعد قليل الى عزل الوليد بن عقبة عن اماره الكوفة لثبوت تهمة احتساء الخمر عليه ، وعين بدلا منه شابا يدعى سعيد بن العاص كان من الامويين أيضا وكان أبوه من قتلى قريش في بدر أثناء حربهم للمسلمين .

وعلى الرغم مما اثاره تعيينات عثمان من سخط فان العرب سرعان ما بدأوا أخيرا في التغلب عن طريق هذه التعيينات على الثورات في فارس . فقد جند الأميران الامويان الشابان عبد الله بن عامر في البصرة وسعيد بن العاص في الكوفة جيشين ضخمين زحفا بهما شرقا . وتمكن عبد الله بن عامر بعد اخضاع مقاطعة فارس من التقدم عبر كرمان الى خراسان واسترجع العرب في عام ٦٥٠ كلا من مدينتي هراة ومرو . ثم عبر نهر المزاب (Oxus) وهزم العصاة المحليين في معركة عظيمة واحتل مدينة بلخ واجتاز بعد ذلك جبال الهندكوش واحتل مدينة كابل بينما تقدمت قوات أخرى عبر مكران حتى وصلت الى ضفاف نهر السند (الاندز) الواقعة في الباكستان الحالية .

وكان سعيد بن العاص في غضون ذلك تواقا الى منافسة ابن أبي عامر فسار على رأس جيشه من رجال الكوفة وأخضع الفتن في طبرستان وجرجان الواقعتين على الطرف الجنوبي من بحر الخزر ، ولم يعد الوضع في الامبراطورية الجديدة الى الاستقرار الا في عام ٦٥٢ أى بعد انقضاء ثمانى سنوات على تولية عثمان الخلافة ، دفعت الحدود ابانها الى الامام في الشرق والشمال بعيدا عن تلك التى كانت قائمة في عهد عمر بن الخطاب .

وكنّا قد ذكرنا من قبل أن كسرى يزدرجرد ، انسحب بعد معركة .
 نهاندا الى مدينة الري وعندما هددت قوات نعيم بن مقرن المدينة في
 عام ٦٤٣ انسحب منها يزدرجرد الى اصفهان ومنها الى اصطخر المدينة
 القديمة التي كانت تسمى برسوبوليس والقائمة في جبال فارس ،
 وعندما هاجم أبو موسى هذه المدينة فر منها يزدرجرد عبر كرمان
 وخراسان الى نهر المرغاب حيث بعث برسالة الى امبراطور الصين
 يستنجد به فيها على حرب العرب واستعادة مملكته . ويقال بأن مرزبان
 خراسان استقبله استقبالا حسنا وأعرب له عن ولائه وإخلاصه ، وجاء
 نيزك طرخان خاقان الترك لزيارته وقدم اليه الهدايا والاموال ولكن
 المصائب لم تخفف من غطسة الملك اللاجيء الفار وكبريائه ، فبعد أن
 اقام الخاقان نحوا من شهر يخلع على الملك ويكرمه خطب منه ابنته ،
 فأحفظ ذلك يزدرجرد وقال اكتبوا اليه انما انت غيب من عبيدي فما
 جراك على أن تخطب الي ؟ واقترف الملك خطا ثانيا خاليا من كل كياسة
 مع المرزبان الذي أحسن استقباله وأكرم ماواه فأمر بمحاسبته وكتب
 المرزبان الى نيزك خاقان الترك يقول : هذا الذي قدم مغفولا طريدا
 قمنت عليه ليرد عليه ملكه ، فكتب اليك بما كتب . وأقبل نيزك الغاضب
 في عام ٦٥٢ على رأس جيشه من الترك لمحاربة يزدرجرد فهزم قواته
 وبدد شملهم ونهب معسكره وفر الملك الى مدينة مرو التي أغلقت في
 وجهه أبوابها ولم تسمح له بدخولها . وفقد الملك اليأس عقله ونزل عن
 دابته ومشى حتى دخل بيت طحان على نهر المرغاب خارج المدينة . وتقول
 بعض الروايات أن الطحان قتل يزدرجرد طمعا في تاجه وخاتمه اللذين
 كانا لا يزال يحملهما معه . وتقول روايات أخرى أن المرزبان الساخط
 عليه ، أرسل بعض رجاله فاغتالوه وتجمع الروايات كلها على أنه عرى
 من ملابسه بعد قتله وقذف بجثته في ماء النهر . والمعتقد أن الترك
 حملوا ولده فيروز معهم وزوجوه بفتاة منهم وعاش حياته معهم .
 وهكذا كانت هذه النهاية المفجعة لآخر ملوك الساسانيين الذين حكموا
 فارس أكثر من أربعمئة عام . وهكذا كان بطن النهر ماوى حفيد كورش
 الفاتح الذي قرعت جيوشه أبواب القسطنطينية ، حيث مات هذه المينة
 المزرية واختفت الديانة الزرادشتية التي ظلت دين الدولة الرسمي
 قرونا طويلة من الوجود باستثناء بعض المجوس الذين يعيشون حتى
 اليوم في مدينة بومباي في الهند . والذين ما زالوا يؤرخون تقويمهم
 اعتبارا من موت يزدرجرد آخر الأباطرة الساسانيين الذين تجسدت
 فيهم أمجاد أورمزد .

وانتهت بموت يزدرجرد في عام ٦٥٢ آخر مقاومة رسمية في فارس

وقدر لهذه البلاد أن تقضى ثمانية قرون قبل أن تتمكن من تنويع
امبراطور خاص بها ففي عام ١٤٩٩ تمكن النشاه اسماعيل من تأكيد
استقلال بلاده وتأسيس أسرة اسفنديارى « الملكية » .

* * *

ويجدر بنا أن نتذكر التوسع المفاجيء للسلطان العربى وشموله
سوريا والعراق وفارس ومصر قد وضع الخليفة عمر بن الخطاب وجهها
لوجه أمام ضرورة اتخاذ قرار سياسى هام وخطر فى قضية أساسية هى
هل يسمح للعرب المنتصرين فى امتلاك الارض فى البلاد المحتلة والتزواج
والاندماج مع الشعوب المحتلة فى العراق وسوريا ومصر او هل يبقى
على العرب معزولين ومنفصلين كشعب سيد تخضع له الشعوب المهزومة
والتابعة ؟ وقد اختار السبيل الثانية فسمح للشعوب المحتلة بأن تظل
مالكة لأراضيها الزراعية شريطة أن تعمل وأن تؤدى الخراج والجزية . وقرر
أن يكرس الشعب العربى النبيل نفسه لمهمة القتال ضد الكفرة تدعيه
الاموال الضخمة التى يجيبها من الشعوب الخاضعة . ولقد سبق لنا
أن رأينا عمر بن الخطاب يلحف بطاب المزيد من جباية مصر قائلا
لعامله ان عليه أن يحاب الناقة التى تدر الخير للمسلمين وذلك فى
تحديد سياسته تجاه الشعوب المحتلة المهزومة .

وكان من المستحيل عنصريا الحفاظ على نقاء الدم العربى . فلقد
سمح الاسلام لاتباعه باقتناء الاسيرات من نساء الكفرة كجوار واماء ،
وهكذا وزع الفاتحون الألوف بعد الألوف من سبايا البلاد المحتلة .
وقد ارتقت الكثيرات منهن الى مرتبة الزوجات لا سيما اذا ولدت
الواحدة منهن غلاما ذكرا لسيدها . فآنذاك تصبح فى مرتبة الزوجة
الحررة . وهكذا لم يمض زهاء جيل على العرب فى سوريا وفارس ومصر
حتى كان الدم العربى قد اختلط بالدم الغريب ، وأصبح عرب تلك
البلاد نصف أعراب . لكنهم ظلوا من الناحية الاجتماعية يؤلفون طبقة
ارستقراطية عسكرية مميزة . تعيش فى مناطقها العسكرية الخاصة
معزولة عن الشعوب التابعة ، وتحيا كما رتب لها عمر بن الخطاب ،
على الرواتب من بيت المال .

وظل هذا العنصر العربى ، يظهر فى حملاته العسكرية ، نفس
الطاقة على احتمال المشاق والصبر على القتال والنجاة النادرة ، التى
مكنت العرب فى نحو من ريع قرن من أن يصبحوا سادة امبراطورية
عظيمة . لكن هذه القواعد العسكرية أخذت تضطرم فى أيام البطالة

بالدسائس والتحريات والاضطراب . ونشأت هذه الخلافات عن ثلاثة عوامل مختلفة . أول هذه العوامل ان عامة العرب المسلمين وأبناء القبائل الأخرى ، أخذت تنقم على قريش غطرسها وكبرياءها . وأخذ هذا الشعور في التزايد ابان خلافة عثمان ، وذلك بسبب تعيينه لاقاربه في جميع المناصب الهامة ، وصحيح ان معظم القادة الكبار كانوا في أيام أبى بكر وعمر من قريش ، الا ان بعض القادة البارزين كانوا أيضا من أبناء القبائل الأخرى .

ويمكن تلخيص العامل الثانى في انقسام قريش نفسها الى حزبين رئيسيين حزب بنى أمية وحزب بنى هاشم ، مع تفرق بطون قريش الأخرى على هذين الحزبين وقد وسعت سياسة عثمان في التشيع لاقاربه وتعيينهم في المناصب الكبرى من شقة هذا الخلاف . وكان الدين نصيرا قويا في هذا الخلاف لبنى هاشم ، اذ انهم آل بيت النبى ، بينما كان بنو أمية أشد خصومه وأعدائه . يضاف الى هذا ان أخلاق الامويين أنفسهم ، اثرت كثيرا في هذا الموضوع . فلقد راينا الوليد أخا الخليفة غير الشقيق يحاول ان يؤم المصلين بعد ان عينه أخوه اميرا على الكوفة ، وهو ثمل .

اما العامل الثالث ، فهو ان ولاء العرب في الجاهلية ، كان يتجه بصورة رئيسية الى القبيلة . وقد انساهم الحماس الدينى فترة من الزمن ولائهم القديمة ولكنها ما لبثت أن عادت الى الظهور ابان حياة البطالة والكسل في القواعد العسكرية . ولم يقتصر الخلاف على القبائل وعلاقتها ببعضها البعض فحسب ، بل تجزا العرب انفسهم الى مجموعتين ، شمالية وجنوبية فعندنا تقابل قحطان ، وتحت كل اسم من هذين الاسمين ، تنطوى مجموعة كبيرة من القبائل .

وعلىنا ان نقر هنا بان سياسة الخليفة السابق عمر بن الخطاب ، بدرت بدور هذا الافتقار المتزايد الى الانضباط . فلقد ضرب المثل بعزله امراء الانصار او قادة الجيوش لمجرد شكاوى تصل اليه من عامة الناس عليهم . ومن الصعب علينا أن نتجنب الانطباع الذى تولد لدينا . بان عمر كان كثير الشكوك في مساعديه ، وكان يغار منهم ولذا كان يرحب بأية شكاوى تصل اليه ، ليتخذ منها مبررا لعزلهم (١) ولكن شخصية عمر كانت من الضخامة ، وكانت تقواه ونزاهته من الوضوح

(١) سبق لى ان رددت في هامش سابق على ادعاء معال للمؤلف ، وأكدت ان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان من قوة الشخصية ، على درجة عظيمة تبعده عنه أى

بحيث استطاع أن يسلك هذا السبيل دون أن يتأثر النظام والانضباط في عهده تأثرا جديا . ومع ذلك فإن اجراء عزل القسادة نتيجة شكاوى الجنود ، سابقه خطرة كل الخطورة ، ورثها عثمان السيء الحظ . ولم يكن عثمان صاحب شخصية قوية ، كما لم تكن دواقعه دائما خالية من الغرض كل الخلو . (١) فبالإضافة الى تشييعه لأقاربه ، كان يعيش حياة رجل ثرى ، ويقال بأنه كان يميل الى قبول الهدايا من عماله في الأمصار (٢) .

وقد قدر لهذه العوامل أن تمزق الحكم الدينى الحماسى الذى أقامه النبى وأن تعرض وجود الامبراطورية العربية نفسها الى الخطر .

تواريخ بارزة

	بدء خلافة عثمان	الثالث من نوفمبر
٦٤٤	(تشرين الثانى)	
٦٤٥	خريف عام	
٦٤٦	صيف عام	
	غزو طرابلس فى افريقيا بقيادة عبد الله بن أبى سرح	
٦٤٧	احتلال قبرص	
٦٤٩	احتلال اصطخر	
٦٥٠	معركة الاسكندرية البحرية	
٦٥٢	موت يزيدجرد الثالث	
٦٥٢	استقرار الوضع فى فارس	
٦٥٢	معاوية يغزو قبرص للمرة الثانية	
٦٥٣		

= تفكير في قلق من أى عامل أو أمير أو قائد ، مهما علت منزلته . ومن هنا يكون استنتاج المؤلف بكامله خاطئا ولا صحة له مطلقا .

(١) اعتقد أن هذه الرواية التى جاء بها المؤلف ، والتى جعل منها ذريعة لاثام عثمان رغبى الله منه بالفرس ومخالفة قواعد النواحة ، روايات مفرضة ، حتى ولو وردت في بعض كتب العرب ، ولا ريب في أن روايتها ، من الذين تحيزوا ضد عثمان . وان كان هذا لا ينفى عنه انه استعمل أقاربه في إمارة الأمصار .

(٢) هذا يتناقى مع ما عرف عن عثمان من ثراء قبل الاسلام ، وقد روى التاريخ انه تنازل من الكثير من ماله للمسلمين في ساعات المعركة .

(العرب)

شخصيات مشهورة

عثمان بن عفان	الخليفة الثالث
أبو موسى الأشعري	قائد العرب في فارس
عبد الله بن أبي سرح	أمير مصر الجديد
مانويل	قائد الروم عند إعادة احتلال الاسكندرية
مروان	ابن عم عثمان ، تلقى خمس الغنائم. من إفريقية
معاوية بن أبي سفيان	أمير سورية
سعيد بن العاص عبد الله بن عامر	أميران شابان من الأمويين أعادا الاستمرار في فارس

النار تحت الرماد

« يالها من سقطة أيها المواطنون ...
شملتنا جميعا ... أنا وانتم ... »

بيئنا كانت الحيانة تتزعزع فوق رموسنا
لقد انتقلت سلطة الحكم الى الوحوش الكاسرة
وفقد الناس عقولهم »

شكسبير - من مسرحية يوليوس قيصر

* * *

« قتل عثمان مظلوما ، ومن قتله كان ظالما ، ومن
خذله كان معلورا » .

جلال الدين السيوطي - في كتابه تاريخ الخلفاء

* * *

« عجز عثمان في شيخوخته الطاعنة في السن ،
وخلقه الضعيف عن احتمال اعباء الامبراطورية الثقيلة
وما فيها من فتوحات ... وكان الخليفة قد فقد
الحارس الوحيد لسببليه وهو احترام المسلمين
ونفقتهم ... وراح الخليفة الوقور الذي تخلى عنه
اولئك الذين استغلوا بساطته ، ينتظر بانسا ...
اقتراب موته » .

جيبون - انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

بلغ عثمان في عام ٦٥٤ الثمانين من عمره . وكان عند توليه الخلافة قبل عشر سنوات . أكثر دنوا الى افئدة الناس من سلفه عمر . ولم يكن هناك من يشك أبدا في ورعه وتقواه الأصيلين ولا في إخلاصه للإسلام، وجهه لنبيه . يضاف الى هذا ، انه أثبت في أكثر من مناسبة وبمختلف السبل والوسائل حماسه لدينه . وكان القرآن الكريم قد دون لأول مرة في خلافة عمر ، ولكن بعض الخلاف ظهر في طريقة جمعه في النسخ المختلفة ، فأصدر عثمان أمره بإعادة جمعه من جديد وعندما تم جمع القرآن ، بذل عثمان من الجهد والصبر والحيوية ما يمكنه من جمع كافة النسخ الأخرى المتداولة واللافها . وتم عن هذا السبيل الاحتفاظ بنسخة واحدة من القرآن حتى يومنا هذا .

وكانت النعمة الشعبية النامية غير موجهة الى عثمان نفسه بقدر ما هي موجهة ضد الأمراء الذين اختارهم لإدارة الامصار ، وعندما اتهم بالمحاباة لأقاربه ، رد على متهميه بأن الله تعالى أوصى بصلة ذى القربى - وان هذا هو ما فعله على وجه التحديد ، ومضى الى أبعد من هذا فوجه النقد الى أبى بكر وعمر ، لانهما أهملتا أهلها إبان خلافتهما ، ولا ريب في أن هذه النقطة مهمة للغاية ، اذ أن هذه المسألة لم تقرر ولم يبت فيها حتى يومنا هذا . فنحن في بريطانيا مثلا نعتبر ولا شك أن الولاء للدولة يجب أن يوجه كل ما يعمل موظفوها حتى ولو حملهم ولاهم هذا على الاضرار بمصالح أقربائهم . وقد يمضى الضابط منا الى الخارج للعمل في خدمة الدولة ، ويقضى عدة سنوات ، مهملا زوجته في الوطن ، وتاركا تعليم أطفاله دون رقابة أو توجيه . أما في الشرق ، فهناك من يدعى ان ولاء الانسان الاول يجب أن يكون لبنيه وأسرته . أولا يدين بالتزامات أكبر لزوجته وأطفاله ، حتى ولأطفال أخوته أو أخواته ، منه لالتزاماته الى منظمة معنوية وبعيدة عنه ؟ وقد تكون هذه النقطة قابلة للحوار والجدل ، ولكن مثل هذه الحجج ، لا يمكن تطبيقها بشيء من الاقناع على النظام الدينى الاسلامى المبكر حيث لم تكن الدولة مجرد منظمة معنوية ، بل كانت نظريا على الاقل الاداة التى اختارها الله . وليس في امكان أية سلطة أن تبرر تفضيل المصالح المادية للأقارب على خدمة الله وطاعته .

وقد أساء افتقار عمال عثمان الواضح الى التقوى ، وكونهم أو كون آبائهم أشد أعداء الرسول في الماضي الى الكثيرين من المسلمين المخلصين في مكة والمدينة وكان عدد الباقين من صحابة الرسول لا يزال كبيرا ، بالإضافة الى محاربى بدر واحد أو الذين بايعوا النبى تحت الشجرة في الحديبية . وقد حل في نفس هؤلاء جميعا أن يروا دولة الاسلام الدينية يحكمها أعداء الرسول اذ ينعمون في هذه الخيرات الدنيوية ، التى هى من حق المؤمنين الصادقين وحدهم .

وكنا قد ذكرنا قبل قليل اسم عبد الله بن مسعود ، وذكرنا انه اشتبك في شجار في الكوفة مع أميرها سعد بن أبى وقاص ، مما أدى الى خلع من منصب الامارة وكان عبد الله بن مسعود هذا الرجل الذى يتولى خدمة رسول الله في المدينة ، وكان تبعا لذلك يفخر دائما بأن في وسعه أن يتلو القرآن الكريم تماما كما سمع النبى يتلو آياته . وقد جاءت الصورة التى جمعت بأمر الخليفة عثمان ، مختلفة بعض الاختلاف في ترتيب السور عن تلك التى يرويها ابن مسعود ، مما أثار حفيظته . ويقال أن عثمان رد على اعتراضاته ردا قاسيا ، مما أكسبه عدوا آخر كبير النفوذ . وفي الوقت نفسه قام هناك من اعترض على اطلاق عثمان للمصاحف السابقة قائلا ان كلام الله لا يجوز احراقه مطلقا .

وتبين لنا قصة أبى ذر الغفارى الشعور الذى أحس به المسلمون المخلصون تجاه عهد عثمان . فلقد كان هذا الرجل من أوائل المسلمين ، وقضى حياته كلها ، ناسكا متقشفا زاهدا في الدنيا . وراح الآن في دمشق أولا وفي المدينة لاحقا يعظ الناس بالابتعاد عن هذه الانحرافات الخلقية التى شرمت في الظهور في البلاد . فلقد أخذ الناس في سورية وفي العراق وفي المدينة أيضا وبينهم عدد من كبار المسلمين يعيشون الآن في قصور من المرمر والرخام تحيط بهم الجوارى والعبيد ويلبسون أغلى الحلل ويأكلون أفخر الاكل . وليس ثمة من ريب أن أبا ذر كان محقا كل الحق في قوله بأن هذا الثراء وذلك الترف قد عملا عملهما في تحطيم الفضائل العربية الصلبة والمتقشفة . ولكن حكام الامبراطورية أخذوا يدعون ان اقواله تحمل معنى تحريض الناس على الثورة ، ولذا أمر عثمان بإبعاده الى واحة نائية في قلب الجزيرة العربية . ولم يمض عليه عامان في منفاه . حتى كان قد توفاه الله في أشد حالات البؤس والفاقة . وظل الناس يقدسون ذكره ، على انه ولى من أولياء الله الصالحين ، وسرعان ما ثار أهله من بنى غفار ، يطلبون الثار له .

ولم يكن عثمان لدينا ضعيفا فحسب ، بل وكان أحيانا عنيدا ولا يحسن مصانعة الناس وعلى الرغم من انه كان على استعداد لعزل أى من أمراء الانصار أو قادة الجيوش ، اذا لم يرض الناس عنه ، الا انه لم يكن ليندعن لأى ضغط مهما اشتد لاقالة الامراء من أقاربه الامويين . ولا ريب فى انه كان محقا فى بعض الحالات فى رفض الطلبات التى توجه اليه ، وكانت الاجراءات التى اتخذها نافعة ومفيدة . وقد كرس شطرا كبيرا من عنايته ومن أموال الدولة لتوسيع الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة وتجميلهما لكن الناس ما عادوا فى أخريات أيامه ليرضوا عن أى عمل يقوم به مهما جل وعظم .

وكان الاضطراب فى غضون ذلك قد اشتد فى الكوفة حيث يذكر القارىء ولا شك أن الخليفة قد عين لها أميرا شابا من الامويين يدعى سعيد بن العاص ، وأخذ الناس يتهمون أميرهم بالفطسة والكبرياء ومحابة القرشيين والتحيز لهم . ويقال ان سعيدا أشار ذات يوم أمام الناس الى أرض السواد فى العراق على أنها « بستان قریش » مما أثار عليه نقمة شديدة من المحاربين الذين ادعوا أنهم ملكوها بسيوفهم . وأدى الاضطراب الذى وقع الى شكوى بعث بها الامير الى الخليفة . الذى أمر بدوره بإبعاد مالك الأشتر زعيم جماعة الفتنة مع تسعة من شركائه الى سوريا . وكانت الفتنة قد اشتدت فى نفس الوقت فى قاعدة الفسطاط فى مصر ، حيث أضحى الأمير عبد الله بن أبى سرح مكروها ممقوتا ، وسرعان ما أخذ الرسل والمحرضون على الفتنة يتنقلون جيئة وذهابا بصورة سرية بين المتآمرين فى العراق ومصر .

ولعل مما يبين ما معاوية من شخصية قوية ، أن كل شيء ظل على حاله من الهدوء والاستقرار فى سوريا فى الوقت الذى كانت فيه مصر والعراق ، وحتى مكة والمدينة تمج بالفتن والاضطرابات . وكان معاوية نفسه من الامويين ، فهو ابن أبى سفيان زعيمهم . وكان ما ينسب الى غيره من الامويين من مساس بشخصياتهم ، بسبب معارضتهم السابقة لرسول الله ، يصح أيضا بالنسبة اليه والى أبيه . لكن العرب على الرغم من فوضيتهم بل ومن ديموقراطيتهم فى جميع الازمنة والاقوات ، كانوا ولايزالون يعجبون بقوة الشخصية فى الحكم . فعندما يعثرون على زعيم يعتبرونه جديرا بقيادتهم ، يقدمون اليه منتهى الولاء ويعملون تحت امرته اصدق العمل . ولعل الصورة الكاملة للشغب المتزايد من العرب ضد حكم عثمان ، هى غين الصورة التى نعرفها فى عهدنا هذا ، وهى صورة

الشائعات الرخيصة ، والفوغائية العنيفة وتسلسل مثيرى الفتنة ، وتشويه كل عمل تقوم به الحكومة سواء أكان عادلا أم ظالما ، حكيما أم طائشا ، الى مادة دعائية ضد السلطات القائمة (١) .

وعندما استبد الفرع بسعيد بن العاص امير الكوفة من تزايد الكراهية لحكمه عند الناس ، راح يهرع في مطلع عام ٦٥٥ الى المدينة لتشاور مع الخليفة . وعاد الى الكوفة في غيابه ، مالك الاشر الذي أفرج عنه ، وسمح له بالعودة من سوريا ، وأخذ يثير غضب الناس على الحكم في الخطب النارية التي يلقيها (٢) ورفع العصاة راية الفتنة وتحلقوا حولها وأقسموا ألا يسمحوا للامير بالعودة . وعندما عاد سعيد خرج الثائرون ويعدون نحو من ألف لمقابلته قبل وصوله فالتقوا به عند القادسية وهددوه بالقتل ان أصر على محاولة دخوله الكوفة .

وقد فرح الامير لانه نجا بجلده . وعاد لفوره الى المدينة . وفرع

(١) يحاول جلوب هنا أن ينعث سموم حمده على الوطنية العربية التي أخرجته من الأردن حيث كان الدعامة الأساسية للحكم القائم فيه . فهو يصف دعوة القومية العربية بالرخص والفوغائية والاراء الفتن والتضليل وما أشبه ذلك من المبالغات التي تنطق بالحد الاسود الدلين من الناحية الشخصية ، وتكشف عن كراهية الاستعمار الذي يمثلته جلوب للوطنية العربية لان هذه الوطنية قضت على نفوذه وما زالت تحاربه في الوطن العربي .

(العرب)

(٢) كتب اشراف اهل الكوفة الى عثمان يطلبون منه اخراج المشافين من الكوفة فأمر بنفيهم وعلى رأسهم الاشر الى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية ، فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمروءة وأكرمهم ، ثم قال لهم ذات يوم « انكم قوم من العرب لكم أسنان ، ولكم السنة ، وقد أدركتم بالاسلام شرفا وفلبتم الامم وحويتم مراتبهم ومواريتهم . وقد بلغنى انكم نقيتم قريشا وأن قريشا لو لم تكن ، هدمتم اذلة كما كنتم . ان ألتكم لكم الى اليوم جنة فلا تسدوا جنتكم ، وان ألتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحملون منكم الثوبة ، والله لئن تهنن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ، ثم لا يحمداكم على الصبر . ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم على الرمية في حياتكم وبعد موتكم » . فردوا عليه ردا دل على تمكن الفتنة في رؤوسهم ، فرد عليهم معاوية ردا شديدا وعلم انهم لا يصلحون . وقال لهم لما ظنوا انفسهم في الكوفة « مه ان هذه ليست بأرض الكوفة والله ان رأى اهل الشام ما تصفون وأنا امامهم ما ملكت ان أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم ، فلمرى ان شيعكم ليشبه بعضه بعضا » وكتب الى عثمان بأنه لم يقدر على استصلاحهم وانه لا يود بقاءهم في الشام فأمر عثمان أن يسيرهم الى حمص عند عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد ، فأدبهم عبد الرحمن تأديبا شديدا ، حتى أظهروا الرجوع والندم ، فأمر عثمان أن يعيدهم الى الكوفة ، فلما عادوا اشتد امرهم في الوقيعة بثمان وعماله .

(العرب)

عثمان - الذى كان قد بلغ الآن الواحدة والثمانين من عمره أو الثانية والثمانين - من الثورة . وقرر على الفور أن يستسلم لارادة الثائرين ، فأقال سعيد بن العاص ، وأعاد الى امارة الكوفة المحارب المخضرم أبا موسى الاشعري الذى كان الخليفة نفسه قد أبعدته محطاً من شأنه عن امارة البصرة . وعهد اليه الآن باخماد الفتنة فى الكوفة . ووصل الى المدينة فى غضون ذلك وفد من جيش مصر ليقدم شكواه الى الخليفة ضد ابن أبى سرح ويقال ان عثمان كتب الى عامله فى رسالة يهدده فيها بالعزل . ويأمره باصلاح نفسه مع الجند . ولكن الامير لم يأبه بانذار الخليفة . وراح على النقيض منه يعتقل أعضاء الوفد الذى مضى يشكوه الى المدينة ، وأمر بقتل رئيسه .

وكان زعماء المسلمين فى المدينة قد أسرفوا فى تقديم النصح الى الخليفة . فبعضهم أوصاه بإزالة ما يشكوه منه الناس ، وبعضهم نصحه باخماد الفتنة النامية بالقوة . اما الآن فبدوا يائسين من هذا الخليفة الشيخ ، الضعيف الشخصية المتردد فى اجراءاته وتركوه يواجه مصيره . ولم يبق أعضاء الحلقة الداخلية الذين انتخبوه للخلافة من أمثال على ابن عم النبى ، والزبير بطل أسوار حصن بابلين ، وطلحة ، وعائشة زوج الرسول بأى عمل لمقاومة الثورة هذا اذا لم يكونوا قد شجعوها وكان عمرو بن العاص الذى فتح مصر مرتين والذى أخرجه عثمان من امارة مصر ، محاباة منه لآخيه فى الرضاع ، مشغولاً الآن فى نشر الكراهية للخليفة فى المدينة (١) .

(١) يعود المؤلف هنا الى محاولته لتشويه التاريخ الاسلامى ، فهو يثير شكوك القارىء فى أن كبار الصحابة وفي مقدمتهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه . قد شجعوا على الثورة على عثمان . مع أن هذا القول تزييف باطل ، لم يقل به أى من المؤرخين النقاة فى التاريخ الاسلامى وكلهم يجمعون على تبرلة كبار الصحابة وفي مقدمتهم على ، من أية تهمة زائلة من هذا النوع . يضاف الى هذا أن المؤلف يحاول التشكيك ايضا فى أن عمرو بن العاص كان أحد الذين أثاروا الفتنة بنشر الشائعات ضد عثمان . مع أن هذه التهمة باطلة وليس أدل على بطلانها من أن عثمان اشرك عمرا فى المؤتمر الذى عقده لعماله فى الامصار فى موسم الحج . ولو صح زعم المؤلف لما اشركه عثمان فى هذا المؤتمر متوخياً النصح منه .

ومما يلتفت النظر ويحسر النقاد عن ميول المؤلف الى اليهود ، تجنبه ذكر أى شيء من بطل الفتنة ورأسها المدبر . عبد الله بن سبأ . اليهودى الذى تظاهر باحترق الاسلام ليشل الناس . وقد أثبت جميع مؤرخى العرب ، أن هذا اليهودى ظهر اول ما ظهر فى البصرة . وصار يقول للناس : عجبتم ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول =

وشهد عثمان موسم الحج في عام ٦٥٥ . واغتنى عثمان هذه الفرصة لاستدعاء جميع عماله للتشاور معهم في تدهور الوضع . وكان في وسع كل انسان آنذاك ، كما حدث مرارا وتكرارا في أيامنا هذه . أن يحس ما هم الناس من السخط والنقمة . وان لم تكن الثورة الفعلية قد نشبت بعد . وان كان المتآمرون لا يزالون يعملون في الخفاء . ونصح ابن أبى سرح الخليفة أثناء المؤتمر ، بأن يستخدم المال المتوافر لديه في بيت مال المسلمين لشراء الناقمين . مؤكدا أن المال يستطيع تحقيق كل شيء . وأعرب معاوية بن أبى سفيان عن رأيه في أن الخط يوقع على حائق ولاية الامصار وأضاف قائلا .. لقد وليتني فوليت قوما لا ياتيكم عنهم الا الخير ، فقال عثمان .. وما الرأي ، قال « حسن الادب » وكان معاوية محقا في ادعائه الذي أزعج الولاة الآخرين . أما عبد الله بن عامر أمير البصرة الشاب ، فبرر تعيينه للامارة بأنه رفع راية الاسلام الطاهرة فوق اقاصى هند وكوش والسند وقال .. « خذ من الناس الذي اعطيتهم الذي لهم فانه خير من أن تدعهم » ، وراح ينصحه بأن يرسل الجيوش للجهاد في سبيل الله ضد الكفرة ويشغلهم بالحرب ، وما تتطلبه من عنائهم بأنفسهم وجيادهم ، عن الفتنة والدسائس . وعندما سأل عمرو بن العاص عن رأيه رد بصراحة قائلا .. لقد أخضعت الناس جميعا لبنى أمية ثم قال .. ارى انك قد لنت للناس وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فارى أن تلزم طريقة صاحبك فتشتد في موضع الشدة ، وتلين في موضع اللين . ان الشدة تنبئ لمن لا يالو الناس شرا . واللين لمن يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتها جميعا . وعندما انتهى المؤتمر ، راح عثمان يحتج الى عمرو قائلا له أنه لم يكن ينتظر منه أن يحدثه بما حدث به . فرد عمرو بمكر قائلا .. « اني لأجلك أعظم الاجلال يا أمير المؤمنين » ثم راح يقول انه كان يعرف ان ما دار سيذاع بين الناس . وانه ود أن يعرف الناس حقيقة رأيه ، وحار

= برجة محمد ، فيقبل منه الناس ذلك . ويقول لهم : عجا لكم ايها المسلمون ، يكون فيكم اهل بيت نبيكم . ثم يقصون عن امرهم .. الى مايمثل هذا الكلام الذي يسهل قبوله . لان فيه تعظيما للنبي . وقد أبعد امير البصرة بعد أن اسمت لفتنته . للذهب الى الكوفة وواصل نشاطه فيها ، فأخرجه أميرها وسار الى مصر حيث أخذ ينفث سمومه ، ويبعث هو ومن التف حوله من دعاة السوء والمتأمرين بالرسائل الى المدينة تنشر الاكاذيب والاضاليل . وقد لعب هذا الرجل وصحبه دورا كبيرا في التحريض على الثورة التي أدت الى مصرع عثمان ولكن المؤلف السياقا مع عواطفه الميالة الى اليهود تحاشي أن يذكر شيئا منه .

(العرب)

ال خليفة الشيخ فيما يفعل . وراح يعلن انه لن يلجأ الى العنف مع المسلمين مؤكداً للثائرين ان ليس ثمة ما يخشونه ثم قال « . وحسبى الله ونعم الوكيل » .

وبينما كان ولاية الامصار يجتمعون في مكة . كان المتآمرون في الفسطاط والكوفة والبصرة قد استكملوا خططهم على اساس من التنسيق والتعاون . وتقرر ان تخرج جماعات من الجند من القواعد الثلاث متواحدة على اللقاء في المدينة وعلى ان تطالب هناك باصرار بازالة كل ما يشكو منه الناس . وقرروا ان يطالبوا باقالة الخليفة وان يلجأوا الى العنف لتحقيق ذلك في حالة اصراره على رفض ما يطلبونه . ويقال ان معاوية علق على أحداث تلك الايام فقال ان العرب قد عادوا الى فوضى أيام الجاهلية .

وبدأت جماعات الثائرين سيرها الى المدينة في مطلع عام ٦٥٦ ولحق الفرع بابن أبي سرح . ففر من مصر ، الى فلسطين ينشد الملجأ الامين في حمى معاوية بن أبي سفيان الذي كانت فلسطين جزءاً من امارته . وعندما وصلت جموع الثائرين الى المدينة من الامصار رابطت كل جماعة منها في جهة خاصة وعلى افراد خارج المدينة . وعندما رأى أهل المدينة ما في عيون القوم من ميل الى العنف . لبسوا دروعهم ورفضوا السماح للعصاة بدخولها . وأحس الواقدون بفشل خططهم . فبعثوا بثلاثة وفود يحملون شكواهم الى ثلاثة من كبار الصحابة . كانوا هم الباقي من أهل الثوري الذين اختاروا عثمان وهم على الزبير وطلحة . وأنب الصحابة الثلاثة العصاة على سلوكهم الثوري . وقام على بزيارة عثمان في نفس الوقت . وطلب اليه ان يقلل ابن أبي سرح من اماره مصر كما بعثت اليه أم المؤمنين عائشة برسالة مماثلة . ووافق الخليفة الشيخ على الطلب ورجا مستشاريه ان يختاروا له أميراً جديداً على مصر .

لعل من المؤسف ان تقول ان محمد بن أبي بكر . كان أحد قادة الفتنة في مصر . ولا ريب في أن الفرق بين هذا الثوري الطموح والعنيف وبين والده الحليم الوادع الصلب في ايمانه ، والصديق الصدوق للرسول ، يوضح ما أصاب أخلاق الجيل الجديد الذي نشأ في الترف والرخاء من انحلال . وطلب ممثلو جيش مصر ان يعين الخليفة هذا الشاب قائداً لهم وأميراً على مصر ، فاستجاب الخليفة لرغبتهم .

ووافقت الجماعات آنذاك على العودة ، ونزع أهل المدينة عنهم

دروعهم وتبين أن الازمة قد انجلت مؤقتا على الأقل (١) . ولم يك
ينقضى اليوم الثالث على مسيرهم في طريق العودة الى أمصارهم حتى
ذكرت جماعة مصر ، أنها ألقت القبض على عبد زنجى يستقل هجينا
ويلدع به الأرض في الطريق الى مصر . وزعمت الجماعة أنها عثرت معه
على رسالة صادرة عن الخليفة وموجهة الى ابن أبى سرح ، الذى لم

(١) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف من روايات المؤرخين المسلمين . فقد
أجمعت هذه الروايات على أن جماعات الثلاثين جاءت الى المدينة مرتين . وفي الأولى
استقبل الخليفة ولودا منها صارحوه بانتقاداتهم لحكمه ، وحكم عماله . فرد عليهم ردودا
مقننة منها قوله لهم « والله انى وليت وأنا أكثر العرب بعرا وشاة » لما لى اليوم
شاة ولا بعير فمير بعيرين لحجى ، كذلك هو « قالوا « اللهم نعم » وقال عثمان « وكان
القرآن كتبنا فتركها الا واحدا الا وان القرآن واحد جاء من عند واحد ، وانما أنا في
ذلك تابع لهؤلاء كذلك هو » قالوا « نعم » ثم دافع عن توليته للشبان من قومه ، ومن
عطاياه لهم مؤكدا أنها من ماله .

وعاد الثائرون الى أمصارهم بعد أن اتفقوا على أن يخرجوا من جديد وكانهم
يطلبون العمرة لتنفيذ ما عزموا عليه . فخرج أهل مصر وعددهم بين الستائة والألف
ومثلهم أهل الكوفة والبصرة . وكانت أهواؤهم مختلفة . فاهل البصرة يريدون طلحة .
وأهل الكوفة يريدون الزبير ، وأهل مصر يريدون عليا . لوجود ابن أبى بكر وهو ربيب
على بينهم . واتفقوا جميعا على أن يقدموا روادا ليدخلوا المدينة . وينظروا هل وصل
المدينة خبرهم . لانهم كانوا يخالون أن يستعد لهم أهل المدينة بحرب . فأرسلوا
لذلك رجلين قابلا عليا وطلحة والزبير . وقالوا انما نأتم هذا البيت . واستعفى هذا
الوالى من بعض عمالتنا ما جئنا الا لذلك . واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم
أبى ذلك عليهم . فرجع الرائدان الى قومهما . وأخبراهم الخبر فاجتمع من أهل
مصر نفر اتوا عليا ، ومن أهل البصرة ، نفر اتوا طلحة ، ومن أهل الكوفة نفر اتوا
الزبير فسلم المصريون على طلحة بالخلافة وعرضوا له بالأمر فرد عليهم ردا شديدا .
وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم انهم راجعون حتى انتهوا الى
مساكنهم ، وهى على ثلاث مراحل كى يفترق أهل المدينة ، ثم يكروا راجعين . فافترق
أهل المدينة لخروجهم . فلما بلغ القوم مساكنهم . كروا بهم فبغثوهم فلم ينجأ أهل
المدينة الا والتكبير في نواحيها فنزلوا مواضع مساكنهم . وأحاطوا بمثمان وقالوا من
كف يده فهو آمن . فلزم الناس بيوتهم . فأتاهم على فكلمهم . وقال ماردمكم بعد ذهابكم
ورجوعكم من رأيكم فقال المصريون أخذنا مع البريد كتابا بقتلنا . وقال الكوفيون
والبصريون جئنا لنصر أخواننا ، كأننا كالوا على ميعاد . فقال لهم على ، كيف علمتم
يا أهل الكوفة والبصرة بما لقي أهل مصر ، وقد سرت مراحل ثم طويتم نحونا هذا والله
أمر أبرم بالمدينة . قالوا فضعوه كيف شئتم ، لا حاجة لنا في هذا الرجل . ليمتزلنا
ثم قالوا لعلى أن الله قد أحل لنا دم هذا الرجل فقم معنا اليه . قال والله لا أقوم
معكم ، الى أن قالوا فكم كتبت اليها . فقال على والله ما كتبت لكم كتابا فنظر بعضهم
الى بعض ثم تركهم على وخرج من المدينة . (العرب)

تكن أنباء فراره الى فلسطين قد وصلت كما يبدو الى المدينة ، يأمره فيها بأن يلقى القبض على محمد بن أبى بكر ورفاقه . وأن يقتلهم عند وصولهم الى مصر وعاد العصاة لتوهم الى المدينة يطلبون ايضاحا من الخليفة . ويبدو أن الصدفة العارضة قد شاءت أن تعود جماعة الكوفة والبصرة الى المدينة في نفس الوقت وأن لم تزعموا وضعهما اليد على أية رسائل مماثلة . وتجمع الروايات على أن على بن أبى طالب ، سأل العائدين عن الطريقة التي عرفوا بها اكتشاف جماعة مصر وهى في طريق عودتها الى القسطنطينية الأمر الرسالة مع أن الجماعتين الاخرين كانا تسيران في طريق مغاير لطريق أهل مصر ، عائدين الى بلاديهما . مما أدى الى عودتهما الى المدينة في نفس الوقت الذى عاد فيه أهل مصر . وهناك رأى آخر يقول : ان الرسالة كانت مزورة وان الجماعات الثلاث كانت قد اتفقت فيما بينها على العودة الى المدينة في غضون ستة أيام . وكانت أنباء وصولها في المرة السابقة قد نمت الى المدينة قبل دنوها منها مما جعلها تواجه أهل المدينة وقد تدرعوا بسلاحهم على أسوارها استعدادا للدفاع . ومن المحتمل أن يكون الثائرون قد فكروا بأن تظاهروهم بالعودة سيحمل أهل المدينة على الاسترخاء وتخفيف الحذر فيباغتونها هذه المرة بصورة مفاجئة . (١)

ودخل على ، وقد مثل في هذه المرحلة دور الوسيط ، على عثمان فحدثه بأمر الرسالة ، وقد نفى الخليفة بشدة وأصرار ، علمه بأى شيء عنها . ووافق على أن يستقبل وفدا عن العصاة الذين دخلوا عليه يهددون ويتوعدون ، ودون أن ينظروا اليه نظرة تحسلة ، وزعموا أن العبد الذى اعتقلوه من عبيد الخليفة ، وأن الرسالة التي كان يحملها موهورة بختم الخليفة . وأقر عثمان السيئ الطالع بهاتين الحقيقتين . ولكنه أقسم للوفد ، قسما عظيما بأنه لم يكتبها ، ولم يأمر بكتابتها ، ولم يبعث بذلك العبد الى مصر مطلقا .

(١) لا ريب في أن الحادثة كلها تشير الى مؤامرة واضحة . رتبها الشيعة من جماعة عبد الله بن سبا . ومن تعاون معهم من الحاقدين على عثمان . وعلى عماله في الامصار ولا ريب في أن النظرية الاخيرة التي أشار اليها المؤلف ، هى الصحيحة . وان لم يحاول هو اثبات صحتها اذ لا يخل أن يصل بنا الرسالة المفتعلة الى جماعة الكوفة والبصرة وبينهما وبين جماعة مصر مسيرة ستة أيام . ولم يكن هناك أى سبيل للاتصال السريع ولا ريب في أن عودة الجماعات الثلاث في وقت واحد الى المدينة يشير الى وجود مؤامرة مدبرة ومن هنا يصعب المرء ميالا الى الاعتقاد بانتمال الرسالة لتكون ذريعة للعودة .

(العرب)

هؤلاء الاربعة لم يتقدم الصفوف ليتولى حسم الموقف وتدبير الامر .
 وطلب الثائرون في غضون ذلك من الخليفة أن يسلمهم مروان الملتجئ
 الى دار الخليفة . ولكن عثمان رفض تسليمه اليهم . أما من تبقى من
 بنى أمية فقد خافوا على ارواحهم من العصاة وتفرقوا اما مختبئين أو
 فارين الى ملاذ معاوية في دمشق .

وحل يوم الجمعة الذي تلا تلك الثورة ، وصعد عثمان المنبر في
 مسجد النبي ليخطب المسلمين . وناشد المواطنين المحترمين ألا
 يجبنوا أمام وعيد الجنود العصاة وراح بعد ذلك يحذر العصاة من شر
 مهاجمة خليفة رسول الله ، وهب بعض الصالحين من أهل المدينة الى نصرة
 الخليفة . فهاجمهم العصاة وأجبروهم على الخروج من المسجد ، وألقيت
 بعض الحجارة ، وأصاب حجر منها الخليفة الشيخ نفسه فسقط على
 الأرض مغشيا عليه ونقله الناس الى داره وهو في غيبوبة .

وسرعان ما فرض العصاة حصاراً منظماً على بيت عثمان . فبات عاجزاً
 عن أن يؤم الناس في الصلاة . وهو عمل من أقدس واجبات الخليفة .
 وعجز خدمه بعد بضعة أيام عن تأمين الماء اللازم للشرب . ويقال ان الخليفة
 الشيخ أطل على الثائرين من سطح داره وقال . . أفياكم على ؟ فقالوا لا . .
 قال أفياكم سعد ؟ قالوا لا . . فسكت ثم قال : الا أحد يبلغ عليا فيسقينا
 ماء ؟ فبلغ ذلك عليا فبعث اليه بثلاث قرب مملوءة ماء ، فوصلت اليه بعد
 أن جرح بسببها عدد من موالى بنى هاشم وبنى أمية .

كان الخليفة أبو بكر من بنى تيم ، وهو بطن من قريش . بعيد عن
 بطن بنى هاشم ، وراح محمد بن أبي بكر يناشد أبناء عشيرته ان ينصروه
 في حصار الخليفة . وهكذا أخذ العرب يعودون الى عصبية الجاهلية
 العمياء . وارتفعت أصوات من قريش في المدينة تحذر قادتها من نتائج
 الوضع وآثاره . وقال هؤلاء ان قريشا كانت تعيش حتى تلك اللحظة في
 أمن ودعة وكرامة . وان العرب جميعا ينظرون اليها بعين التجلة والاحترام
 وهاهي الآن تقف مكتوفة الايدي بينما يتعرض زعيمها للهجوم من جماعات
 من جنود البدو العصاة . وتعرض مكانة قريش كلها تبعاً لذلك الى الدمار
 امام العرب جميعا . ولس هذا التعنيف غواطف على والزبير وطلحة وغيرهم
 من الصحابة . فبعثوا بأولادهم لحماية باب دار عثمان ولسكنهم مع ذلك
 رفضوا أن يخرجوا الى العراء لمقاومة العصاة الذين بدوا وكأنهم لا يريدون
 اغضابهم . وعلى الرغم من حراسة أولادهم لدار عثمان ، ألا أنهم ظلموا
 يشتركون مع الثائرين في المطالبة بتسليم مروان .

- وطارت رسالة سرية عاجلة في غضون ذلك الى دمشق لابلاغ معاوية بتطور الوضع وحثه على ارسال نجدة فورية • وسرعان ما بعث هذا بقوة تسير الليل والنهار من سوريا، كما بعث عبد الله بن عامر أمير البصرة بقوة مماثلة • ووصلت انباء تحرك النجدة الى العصاة ، فأخذوا يضيقون حلقة الحصار على ضحيتهم • ومنع الماء من جديد عن الدار • وعانى الخليفة وأهل بيته أهوال الظما ثانية ، وكان الوقت شهر مايو من عام ٦٥٦ وقد أخذت حرارة الحجاز يخناق الناس ، وحاولت أم المؤمنين أم حبيبة ، امرأة رسول الله ، وقد تذكرت حب زوجها العميق لعثمان أن تسعفه بالماء فاقترادت بغلا يحمله الى باب داره وهكذا عرضت نفسها لاهانة العصاة • وقد أملت في أن تمنعهم مكانتها كزوجة رسول الله من الوقوف في طريقها • ولكن أملها طاش • وحال العصاة بعد أن أساءوا اليها بينها وبين الوصول بالحمل الثمين الى المحصورين • وأخذ عدد متزايد من أهل المدينة من الانصار ومن صحابة النبي يظهر امتعاضه وفرقه من هذا الانفجار الفوضوي البدوي على الرغم من انهم كانوا ينتقدون عثمان على ضعفه وعجزه • ولكن أيا منهم لم يحاول مد يد النصرة اليه • وظل على الزبير وطلحة معزولين في بيوتهم، اما عن خوف أو عن غيرة من عثمان ولا يعرف الحقيقة الا الله •

ودب الفزع في نفوس العصاة من اقتراب جيش النجدة القادم من سوريا، اذ حملت اليهم الانباء انه وصل الى وادي القرى التي لا تبعد أكثر من مائة وعشرين ميلا الى الشمال الشرقي من المدينة • فقرروا أن الضرورة تحتم عليهم الاسراع في النهاية وشددوا هجومهم على الدار • وانهارت النبل على المنزل فأصيب مروان بجراح • وخضب الحسن بن علي بالدماء وهو على الباب • كما خضب محمد بن طلحة بالدماء ايضا •

وخشى محمد بن أبي بكر ، وهو من أعنف الثائرين واشدهم حماسة أن يغضب بنو هاشم لرؤيتهم دم الحسن وأن يتجمعوا لمحاربة العصاة ثارا لدم قريبهم ، اذ كانت العصبية القبلية لاتزال قوية رغم الاسلام • وكان أتباع الخليفة قد ردوا في غضون ذلك على سهام المهاجمين وأصيب أحدهم في مقتل. ثار العصاة لرفيقهم القتيل وحاولوا اقتحام باب الدار ، ولكن محمدا بن أبي بكر تمكن من اقناع رجلين أو ثلاثة بتسليق بناء مجاور ليتسوروا على الخليفة الدار عن طريق الدخول من نافذة مفتوحة الى فناءها وكان أنصار الخليفة قد سارعوا الى الباب الامامي يحمونه من اقتحام العصاة الذين كانوا يوالون مهاجمته • واشتد أوار المعركة ونجمي وطيسها وحجب ضجيجها صوت المتسللين • وظل الخليفة الشيخ وحيدا في غرفته

يتلو القرآن المفتوح على ركبتيه وفجأة رأى امامه محمد بن أبى بكر . وقد نفذ الى الغرفة من مؤخرة المنزل . وكان محمد منتضيا سيفه بيضاء ، فهجم على الشيخ يسب ويشتم وقبض على لحيته وسنك الخليفة فى لحظاته الاخيرة سلوكا كله هدوء واباء يستفز اعجاب الجميع حتى يومنا هذا اذ وجه كلامه الهادى الوقور الى الرجل قائلا : « والله يا ابن أخى لو رآك أبوك لساء مكانك منى » ويبدو أن الشاب المتوحش قد خجل خجلا مؤقتا من موقف الخليفة الشيخ الرصين الوقور ومن اشارته الى أبيه أبى بكر الحبي الصديق . فاسترخت يده عن لحية الخليفة وتراجع الى الورا . لكن شريكه كانا أكثر منه جراءة وأقل احساسا ، فهجما على الخليفة بعد أن مرا بمحمد ، وسيفاهما مشرعان فى يديهما . ونخر عثمان صريعا على الارض وضم فى لحظاته الاخيرة ، صفحات القرآن الذى كان يقرؤه الى صدره . بينما تدفق دمه غزيرا فخضب هذه الصفحات ورأت زوجه نائلة قرينها صريعا فالتقت بنفسها عليه لتدأ عنه بجسدها طعنات أخرى . وقطع القاتلان بعض أصابعها وهما يواصلان ضربه بسييفيهما وصرخت المرأة فلم يسمع صراخها ، لما كان فى الدار من الجلبة والضوضاء وهجم بعض موالى الخليفة على الغرفة فقتلوا أحد الرجلين . وظل صراخ نائلة وعويلها غير مسموعين بسبب ما تحدثه المعركة عند الباب من ضجعة وضوضاء فهرغت الى سقف البيت وصرخت مرة ومرة نائلة : « لقد قتلوه . قتلوا أمير المؤمنين » .

وكان العصاة قد اقتحموا فى تلك الآونة باب المنزل واندفعت الجماهير الشرسة صارخة الى الداخل واندفع بعضهم الى الغرفة التى كان فيها الخليفة الشيخ يلفظ انفاسه الاخيرة فأعملوا فيه سيوفهم . وطمعوه بخناجرهم وداسوا على جثته بأقدامهم وكانوا على وشك اقتطاع رأسه عندما اندفعت نساء البيت معولات باكيات يحمينه بأجسادهن . وانسحب الجنود العتاة الذين لا تعرف الشفقة طريقا الى قلوبهم أخيرا وقد خلفوا جثمان الخليفة يغوص فى بركة من الدماء . وقد صمت صمته الأبدى على أرض الغرفة . وكان مصرعه فى السابع عشر من يونيو (حزيران) عام ٦٥٦ (١) .

وعندما نمت الخبر الى على وطلحه والزبير هرعوا الى دار الخليفة

(١) يجمع المؤرخون العرب على أن مصرع عثمان كان في العشرين من مايو (ايار) عام ٦٥٦ .

يعربون عن أساهم وسخطهم لما حدث . وينحون بالملامة على المدافعين عنه لفشلهم في الحفاظ على حياته . وقد تبدو هذه الكلمات خاوية من كل معنى ، إذا عرفنا أن الحصار الذي فرضه العصاة على دار الخليفة دام أربعين يوما (١) . ظل أبانها القادة الثلاثة ساكنين لا يفعلون شيئا لانتقاذه .

وظلت جثة الخليفة في مكانها داخل الغرفة ثلاثة أيام ، في حين فرض العصاة سيطرتهم على مدينة الرسول . ولم يجرؤ أحد على نقل الجثة لدفنها واندفعت جماعة صغيرة عشية اليوم الثالث من المنزل . وقد حمل أفرادها النعش الذي يضم الجثة على أكتافهم وقد ضمت هذه الجماعة الزبير بن العوام والحسن بن علي وبعض أقارب عثمان ومواليه . ومع ذلك فلم تخلص الجماعة من مراقبة العصاة الذين قدفوا الموكب الصغير بالحجارة . ودفن أمير المؤمنين في قطعة صغيرة من الأرض على مقربة من المقبرة العامة خارج المدينة .

لاريب في أن عثمان كان فاشلا كخليفة للمسلمين ، فلقد برهن على ضعف في سياسة أمور العرب الذين تميزوا بروح العنف والتحزب . ولا سيما في وقت جعلت منهم الانتصارات المتلاحقة قوما لايساسون ولا ينعنون . وكانت مواهبه العقلية محدودة مما أعجزه عن تبين القضايا الهامة ، وجعله خاضعا لسيطرة الجشعين من أقاربه . وقد عاش هو نفسه على العكس من سابقه حياة رعية ، وقبل الهدايا من عماله . وإن كان الترف البدائي الذي عاش فيه لا يقارن مطلقا بترف أسلافه من قياصرة الروم وأكاسرة الفرس . لكن من سبقه في تدبير شئون المسلمين وهم النبي وابو بكر وعمر كانوا يحرقون متاع الدنيا وزخرفها ، يمشون حفاة لا تسترهم الا عباءات خشنة من الصوف ، حتى بعد أن حصاوا على السلطان السياسي الضخم . وبدا عثمان إذا قورن بهم رجلا دنيوى الطابع لكنه كان تقيا تقوى أصيلة حتى أن النبي بشره بالجنة . وكان من التواضع والبرادة على درجة عظيمة حتى أن النبي قال عنه ان الملائكة لتنجل في حضرته . ولو لم يقدر له أن ينتخب ليحكم هذه الامبراطورية العظيمة التي تجيش بالاضطراب لانهى حياته رجلا جليلا وقورا متدينا وادعا . ولا ريب

(١) يقول المؤرخون العرب ان مدة الحصار كان ٢٢ يوما لا أربعين كما ذكر

فى انه كشارل الاول ملك انجلترا يصلح لان يكون مواطنا كريما فاضلا
لا ملكا أو حاكما (١) .

كانت الاوقات عصيبة على اى حال ، وكان ايقاع الانتصارات
العربية قد بدأ فى الهبوط ، كما ان الحماسة الدينية الساعرة كانت قد
شرعت فى الخفوت ، ولكن لو كان عثمان على شاكلة عمر لتمكن من
مواجهة العاصفة والتغلب عليها .

(١) نحن نختلف مع المؤلف فى تحليله لشخصية عثمان . والاسباب التى ادت الى
مصرعه فهو من اكرم خلق الله خلقا ولعل اصدق دلالة على ذلك مارواه ابو هريرة عن النبى
(مسلم) اذ قال « عثمان من اشبه اصحابى بى خلقا » ومن كان يشبه رسول الله فى
خلقه ، لا يمكن ان يتهم بالضعف والقشل وضيق الواهب والخضوع للاقارب . وقد
زوج النبى ابنته زوجتك واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهن واحدة « . لو ان لى
اربعين ابنة زوجتك واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهن واحدة « . ومن يرضى به
النبى وهو اعظم الناس صبرا لا يمكن ان يوصف بما وصفه به المؤلف .

اما ما وقع فى عهده من فتن لمرده الى اسباب عدة نجعلها فيما يلى :

١ - تحاسد كبار قادة المسلمين مما افسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطرابات
من الشعوبيين اذ نقلت من كبراء المدينة اقوال كثيرة فى عثمان . لم يدعوهوا بالأدلة
والبراهين . مما اثر على عقول العامة ونفوسها .

٢ - اما ما عرف به عثمان من خلق الحياء واللين مما يدفعه الى الانقضاء عن كثير
مما يكره ويدعوه الى خوف الفتنة على المسلمين والى التسامح مع من يتاله منهم من
اذى فى حق نفسه وهما صفتان حملتا الناس على اتهامه بالضعف .

٣ - سمح عثمان لاعلام قريش خلافا لما كان يفعله عمر : بالخروج من المدينة
والطواف بالامصار . وهذا هو ما دعا اهل البصرة الى المطالبة بخلافة طلحة . واهل
الكوفة الى المطالبة بخلافة الزبير ، واهل مصر الى المطالبة بخلافة على . ولا يمكن
والحالة هذه أن ننفى من اعلام قريش تطلهم الى ولاية الامر . وان نفينا منهم اشتراكهم
مع المتأمرين والذى يؤخذ عليهم هو تقاعسهم عن نصره عثمان وقت الشدة .

٤ - سهولة التأثير فى الجماعات اذا استهواهم ما يقال . وهم فى مثل هذه الحال
لا يشتبهون مما يقال لهم . فلقد كان العرب يحبون النبى أكثر مما يحبون أنفسهم ويحبون
العدل والمساواة فجاءهم ابن سبأ الشعوبى من الجهة التى يحبونها يضع لهم الكلام فى
تعظيم الرسول وأهل بيته ويقتنهم بأن على بن أبى طالب هو وصى النبى وأنه صاحب
الحق فى الخلافة .

٥ - خداع الجاهل بالظن فى ولاية عثمان كابن أبى سرح لان النبى حكم بقتله يوم
الفتح ثم استوهبه منه عثمان فعفا عنه وعفو الرسول ستر للذنب . وكالوليد بن عتبة
مع أنه كان واليا لعمر من قبل . وسعيد بن العاص وهو باعتراف أهل البصرة من احسن
العمال واحكمهم بالقسط . ولكن الجاهل ضللت بالاكاذيب التى نشرها الشعوبيون من
اصحاب المقاصد السيئة .

(الحرب)

وادی مصرع عثمان الى تغير كل شيء في حياة العرب بله في حياة المسلمين ، وكان المسلمون قد عاشوا ربع قرن بدأ بفتح النبي مكة ، وإقامة الحكم الديني في البلاد في حلم مثالي رفيع . فقد اختارهم الله لفتح العالم ، واحتفظ لهم بكل مافي جنات النعيم من مسرات لا يمكن للعقل ان يتصورها . وكانت عناية الله قد اختارت رسول الله أولا وخليفته أبا بكر وعمر ثانيا ، ليكونوا أدوات تنفيذ ما أراد الله من نصر للعرب . وليس ثمة ما يمكن له ان يشوه ما يحس به العرب من سعادة ونصر . ولو قدر للعرب ان يحققوا انتصارات أخرى في الحياة الدنيا لبات في وسعهم ان ينعموا بالزيد من أطايب الحياة كالمال والنساء والجياد والمجد ، وكلها أطايب شامت إرادة الله أن يغدقها على عباده الصالحين ، أما اذا قدرت الشهادة لأى منهم فإن الشهداء يمضون فورا الى مافي فراديس الجنان من متع ومسرات ، حيث يعيشون في ظلال ونعيم مقيم . على الأرائك متكئون وامامهم انهار سلسبيل تقوم على خدمتهم الحور العين . لكن هذا الحلم بدأ الآن في الانهيار . فلقد صورت دعايات أهل الفتنة خليفة المسلمين للناس على أنه رجل عجوز شره شديد القسوة وقد تمكنت الأيدي المجرمة من الوصول اليه فقتله أخوانه المسلمون الذين تركوا جثته دون دفن على أرض غرفته المجاورة لمسجد الرسول ، وقبره . وقد تقسمت قريش الآن ، وهى الطبقة النبيلة المقدسة ، (١) الى فئات وشيع تتوزعها عوامل الطمع والحسد . وكان محمد بن أبى بكر أول من وضع يديه على الخليفة الثالث لرسول الله . وكان قومه بنو تميم من قريش ، هم الذين هاجموا بنى أمية يهتفون هتافات الجاهلية لاهتاف « الله أكبر » وهكذا انحسر حلم الربع قرن لتخلفه أيام تعود فيها الجاهلية بكل تعصبها وعنفا ونهبها وسلبها . وقد يشك المؤرخون الأوربيون المعاصرون في أن الحماسة الدينية قد وجدت عند العرب في أى يوم من الايام . وقد يردون الفتوحات الاسلامية الى العوامل الاقتصادية التى نادى بها العالم الاقتصادى مالثوس ، والتى بين فيها ان ضغط تزايد السكان يكون دائما عاملا من عوامل الهجرات العنيفة التى تتجسد فتوحات وغزوات . وانى لأرى أن هذه الشكوك صحيحة الى حد ما . فلو كان أهل الجزيرة العربية أثرياء يحبون حياة الرخاء والرفاهية لما اندفعوا من بلادهم الى الخارج أبدا . ومن الصحيح أيضا أن بعضهم غنم الكثير بسبب هذه الفتوحات وجمع الثروات الطائلة .

(١) لا أدرى من أين جاء المؤلف بصفة القداسة لقريش ، فالاسلام لا يعرف القداسة الا للنبي وللصالحين من المسلمين .
(العرب)

ولم يكن الناس على جهل بما اتبعه بعض أمراء الامصار والعمال من أساليب الابتزاز والاختلاس للثراء ، ولكن كبار القادة هم الذين يتعرضون في كل الحركات الدينية والسياسية العظيمة لمثل هذه الاغراءات . ولعل من الصحيح أيضا أن أكثر القادة العسكريين نجاحا - كخالد بن الوليد مثلا - كانوا أكثر الناس قسوة وخلوا من الرحمة (١) . ولكن الكثيرين من كبار القادة ظلوا طيلة الخمسة والعشرين ربعا الاولى صورة مجسدة للنزاهة . ولا يمكن لما تجسد في بعض القادة من مطامع دنيوية أن نغض عيوننا عن الحقيقة ، وعن رؤية ما كان يمتاز به معظم الناس من تقوى أصيلة ومثاليه صادقة .

ويمكن لنا أن نجمل الصورة الصحيحة لما امتاز به المسلمون الاولون في الربع قرن الاول من حماسة دينية من مقارنة أوضاعهم بما صحب التفجرات اللاحقة في شبه الجزيرة العربية من حماسة واندفاع في القرون اللاحقة . فقد تمكن القرامطة بين عامي ٩٢٩ و ٩٦٩ مثلا - وهم شيعة شديدة التعصب - من احتلال الجزيرة العربية كلها بما فيها اليمن . واستولوا على مكة والمدينة وهددوا مركز الخلافة نفسه . ولكن هذا الاندفاع الحماسي عاد فحقت بعد انقضاء نحو من أربعين عاما . وظهرت جماعة الوهابيين في نهاية القرن الثامن عشر . واحتل رجالها الجزيرة العربية كلها وهددوا سورية والعراق . ولكن الوهابيين مالبتوا أن هزموا بعد نحو من أربعين عاما . وخمد حماسهم الديني ليعود الى الانتعاش من جديد في عام ١٩١٢ وليسيطر على الجزيرة العربية حتى عام ١٩٣٠ ليعود طوفان الحماسة ، فيخفت من جديد . ويبدو من هذه الأمثلة أن أهل الجزيرة العربية كانوا معرضين من وقت الى آخر لان تجرفهم الانفجارات العنيفة من الحماس الديني ، وهي انفجارات لاتطول عن فترة أربعين عاما يعود بعدها الحماس الى الحفوت .

وكتب السير ماثيو ارنولد ، وهو من أعظم خبراء العصر في الشئون العربية يقول : لعل من أبرز الاكتشافات الرائعة التي حققها المؤرخون العصريون ، الاعتراف بالحقيقة الواقعة وهي أن انتشار الاسلام الهائل في النصف الثاني من القرن السابع لم يكن وليد حركة دينية عظيمة . انما كانت هذه التوسعات التي قام بها الجنس العربي ثمرة هجرات

(١) حملة اخرى من الحملات التي تعرض بها المؤلف لقادة المسلمين وفي مقدمتهم خالد بن الوليد رغبة منه في تشويه التاريخ الاسلامي .

قام بها شعب أمتاز بالحيوية والاندفاع . ساقته المجاعة ، ودفعه العوز . الى اجتياح الاراضى الاكثر ثراء في بلاد جيرانهم الأسعد حظا . . وقد أعلن هدد آخر من المؤرخين المعاصرين والاساتذة ايمانهم باكتشاف هذه الحقائق نفسها .

لكننى اعتقد أن هذه الاكتشافات ليست الا جزءا من الحقيقة وانها نسبية المعرفة لاموضوعية . ففي هذا العصر الذى نعيش فيه تتركز افكار الاوربيين كل التركيز في الشئون الاقتصادية بحيث أننا ننسب الدوافع نفسها الى الشعوب الاخرى غير الاوربية وفي مختلف العصور والحقب . وفي مثل هذه الايام السوقية (الاستراتيجية) أرى لزاما علينا أن نتبين الخطأ في نسبة ما يقوم به الناس جميعا والأمم كلها الى سبب واحد فقط . والدوافع الانسانية والمشاعر البشرية هى من النوع المعقد كل التعقيد بحيث لايمكن تفسيرها بالتحليل الرياضى . ومن هنا تكون الدوافع التى حملت العرب على الاشتراك في فتوحات السنوات الخمس والعشرين الاولى مختلطة . فقد لعب كل من الطموح وشغف العيش والفقر والطمع دوره لكن البدو كانوا دائما في حالة من الفقر والجوع ألوف السنين قبل محمد وبعده . ترى اذن ما الذى أدى الى أن يصبحوا قوما لا يغلبون مدة ربع قرن فحسب ؟

لقد عشت سنوات طويلة مع أبناء البدو الذين لم يتغيروا كثيرا عما كانوا عليه أيام الفتوحات الاسلامية ولقد اكتشفت أن هناك خليطا من الاثارية مختفيا وراء مايمتاز به البدو من مظاهر القسوة واعمال السلب . وائى لأعتقد أن الرسول عزف على ذلك الوتر الخفى الحساس من المثالية العربية ، وعندما مسه لم يبق هناك مايقعدهم عن تلبية كل مايطلبه منهم ولم يكن فى وسع ضغط السكان أو الحاجة الاقتصادية وحدهما أن يخلقا ذلك التفجير البركاني ، وكان لابد من وجود نيران عاطفية ومثالية لحلق هذا العنف الضخم . ولكن هذه القوة فى العاطفة التى خلقها الايمان ، كان لابد وان تكون قصيرة العمر . ولم يكن قد انقضى الآن أكثر من خمس وثلاثين سنة على هجرة الرسول الى المدينة ، وأربع وعشرين سنة على وفاته، عندما أخذ الحماس العاطفى الاول يسير فى طريق الخفوت والبرود . وأدت وفاة عثمان الى انتشار خيبة الأمل والى خمود نيران الحماس الدينى وضعف ماخلفته الفتوحات الكبرى من شعور بالعظمة والمجد .

تواريخ مشهورة

١٧ يونيو ٦٥٦

مقتل الخليفة عثمان

* * *

شخصيات بارزة

مثير الفتن والاضطراب في الكوفة
أحد المشتركين في قتل عثمان

كبار مستشاري الخليفة الذين لم
يتدخلوا لنصرته

مالك الأشتر
محمد بن أبي بكر

على بن أبي طالب
الزبير بن العوام
طلحة بن عبد الله
سعد بن أبي وقاص

—*—

الحكم لله

« لبس الطموح الدافع المتسلط ، لباس الرغبة
في الثار العادل • وكثيرا مايحل التشيع والتحزب محل
العقل والمنطق في دوامات العواطف والنسائس، وعلينا
الا نشك في أن القادة والأتباع قد اقنعوا أنفسهم بأن
الهدف الحقيقي الذي ينشئون هو عقاب المستولين عن
اخيانة العظمى التي اجترمت في المدينة» •
السير وليام موير •• قصص الخلافة الاولى •

كانت المدينة تعيش في حالة من الاضطراب والفوضى في الايام الاولى التي تلت مصرع عثمان ، وكانت الكلمة العليا ابانها للعصاة ، وكانت جماعة جيش مصر أكثرها عنفا فقد اغتصب زعيمها مركز الخليفة وأخذ يؤم الناس في الصلاة في المسجد الكبير ، أما الأمويون فقد تفرقوا هاربين فاتجه بعضهم الى دمشق في حين اتجه بعضهم الآخر الى مكة ، وتسلسل الى مكة أيضا سعد بن أبي وقاص ونفر من المواطنين المحترمين (١) أما عمرو بن العاص فقد انسحب حتى قبل مصرع الخليفة الى مزرعة له قريبة من بئر السبع ، وجمع أحد الأمويين قميص عثمان الملوث بالدماء وأصاب نائلة ، وزوجه ، المقطوعة ، وحملها الى دمشق حيث قدمها الى معاوية .

وسرعان ما وقعت ردة الفعل ، حتى ان بعض العصاة فرغوا من هول ما جرتمته أيديهم ، وأدرك البعض الآخر أن الامبراطورية بأسرها غدت الآن بلا رأس وبلا حكومة تحكمها ، وأنه مالم تقم سلطة مركزية على الفور . فان الامصار المحتلة ستتفسخ في حالة من الفوضى والاضطراب . وراح العصاة يدعون أهل المدينة الى اختيار الخليفة الجديد ، وكان العصاة من جماعة مصر يؤيدون عليا ابن عم النبي ، أما العصاة من أهل الكوفة فكانوا يؤيدون الزبير ، قائد الفئة التي ارتقت سلاله حصن بابلينون لاقتحامه ، وأيد العصاة من أهل البصرة طلحة ، الذي أصيب يده اليمنى بالشلل عندما دفع بها الى الامام في معركة أحد ليحمي بها رسول الله من ضربة سيف وجهت اليه .

وكان قبول الخلافة في مثل هذه الظروف العصيبة وبعد خمسة أيام من مصرع الخليفة السابق وفي خضم سيطرة الجنود العصاة على العاصمة عملا يتطلب الكثير من الجرأة والشجاعة ، ويبدو أن عليا تردد بادىء ذي بدء ، وعرض البيعة على الزبير وطلحة ولكن الضغط اشتد عليه لقبولها من فريقى صحابة الرسول الذين باتوا الآن شيوخ المدينة والجنود العصاة

(١) تختلف رواية المؤلف من الروايات الاسلامية بعض الاختلاف فقد ذكر ابن سعد أن عليا يبيع بالخلافة بالفد من مقتل عثمان . وأظن أن البيعة تمت في القد من موت الخليفة . كما ان الطبرى ذكر أن سعد بن أبي وقاص حضر البيعة ، ولم يهرب الى مكة كما قال المؤلف ، وأنه قال عندما طلبت اليه بيعة على . « والله لا أبيع حتى يبيع الناس ، والله ما عليك منى بأس » فقال على « خلوا سبيله » .

الذين يسيطرون عليها ، وقد بايعته غالبية المواطنين وبينهم طلحة والزبير . وفارق العصاة المدينة أخيرا عائدين الى أوطانهم وأمصارهم وبينهم طلحة والزبير (١) ليفخروا بما عملوه في قواعدهم العسكرية في القسطنطينية والكوفة والبصرة .

ويذكر القارىء ولاشك . . أن المنافسة القديمة بين بطني هاشم وأمية من بطون قريش كانت قد تولدت كما رأينا قبل ولادة النبي . وقد قدر لهذه المنافسة أن تقسم الامبراطورية العربية العظمى في السنوات التالية الى فرق واقسام ، وان تجزئ العالم الاسلامي الى شيع وأحزاب ما زالت قائمة حتى يومنا هذا ، وليس ثمة من شك في أن كافة المؤرخين المسلمين قد تورطوا في هذه الانقسامات المفجعة والمستمرة ، ولذا فان ما خلفوه من تسجيل للاحداث وتفسير تاريخي لها ، قد اصطبغ بصفة تشيعهم لهذه الفئة او تلك . وتؤلف رواياتهم المتناقضة في معظم الأحيان مشكلة معقدة لا تحل بالنسبة الى الطالب المحايد ، وقد بذلت كل ما وسعني من جهد وطاقة لاتخاذ سبيل وسط في خضم هذه الصراعات العاصفة .

وعلى بن أبي طالب هو ابن عم النبي والذي نشأ في حجره اذ تبناه وكفله بعد زواجه بخديجة ، ليخفف عن عمه عبء وفرة الولد ، وعندما شب

(١) لم يوضح المؤلف ما وقع عندبيعة على ايضاحا كاليا ، ويقول الكوفيون ان زعيمهم الاشر كان اول من بايع عليا بالخلافة وكان من المهم عنده ان يبايع طلحة والزبير لانهما زميلاه في الشورى . واذا كان هناك من متطلع غيره الى الخلافة فهو أحدهما ولا شك ، وروى الزهري انه دعاهما الى البيعة فتلكا طلحة فقام مالك الاشر واستل سيفه وقال : والله لتبايعني أو لأضربن به ما بين عينيك فبايعه ، وبايعه الزبير . وروى ان عليا قال لهما ان أحببتهما ان تبايعاني . . فافعلوا وان أحببتهما بايعتكما ، فقالا : بل نبايعك . ثم قال فبما بعد انهما انما بايعاه خشية على نفسيهما وانهما كانا يعرفان انه لن يبايعهما ، وجاء بسعد بن ابى وقاص ليبايع . فقال : لا أبايع حتى يبايع الناس . والله ما عليك منى بأس . فقال : خلوا سبيله . وجاء بمبدي الله بن عمر ليبايع . فقال لا أبايع حتى يبايع الناس . قال الثني بحميل (اى بكفيل) قال لا ارى حميلا . قال الاشر : خل منى اغرب منقه قال على . . دعوه انا حميله . انك ما علمت لسيء الخلق صفرا أو كبرا وتخلف من الاتصاف جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد ، وأبو سعيد الخدري ، ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ودافع بن خديع وفضالة بن عبيدة وكعب بن جعرة ، وهم من المهاجرين الى ميثان . وهرب قوم من اهل المدينة الى الشام ولم يبايعوا عليا . ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام . والمغيرة بن شعبة وبايعه من عدا هؤلاء اهل المدينة الا من فر ولحق بالشام .

(العرب)

واشتد عوده ، بنى بقاطمة ابنة النبی ، ووالدة الحسن والحسين سبطی
الرسول ، والحبيبين الى فؤاده ، وقد اعتنق على الاسلام وهو فى العاشرة
من عمره ، وهناك من يقول انه أول من أسلم ، فى حين أن البعض الآخر
يقول : ان خديجة كانت أول من أسلم ، ويقول البعض الثالث ان أبا بكر
أول المسلمين (١) .

على أى حال كان على من أول ثلاثة آمنوا بالله ورسوله ، ويروى عن
على نفسه قوله ان الرسالة نزلت على النبی يوم الاثنين وانه أسلم يوم
الثلاثاء ، وعلى ضوء هذه الاعتبارات كلها كان على بن أبى طالب بدافع
قربته الى رسول الله ، وبدافع أقدميته فى الاسلام ، أبرز المسلمين
الاحياء فى عام ٦٥٦ .

وكان على بطلا من أبطال القتال فى أيام فتوحه وشبابه ، وكان أول
من نزل الى المبارزة فى معركة بدر وأحد بين الصفوف وتغلب على خصمه
فى كلتا المعركتين ، وكثيرا ما عهد اليه النبی بالرأية ليحملها فى معارك
المسلمين ، ولكنه فى سنوات الفتح الاسلامى ظل فى المدينة يعمل مشاورا
ومستشارا لكل من أبى بكر وعمر ، اذ عرف عنه حدة الذكاء وسرعة
البدية . وروى عن عمر بن الخطاب قوله : « على أقضانا » .

وقد أصبح على فى النهاية من أثرياء أهل المدينة . اذ لم يكن
شديد التقشف كأبى بكر وعمر . وقد اختار الله رفيقته فاطمة الزهراء
الى جواره منذ عهد بعيد ، فبنى على بعدها بعدد من النساء ، واقتنى
الكثيرات من الاماء ، وكان خطيبا لا يشق له غبار فى بلاغة قوله ومن أعلم
الناس بأعراف الاسلام وسننه . وعندما بويح بالخلافة فى عام ٦٥٦ ، كان
قد بلغ أوسط العمر ، ويمتاز بالقصر والبدانة ، وله حية كبيرة متدلية .

وواجه على بعد توليه الخلافة موقفا فى منتهى الخطورة ، وكان قد أم
لمدينة ابان سنى الفتح عدد كبير يبلغ الألوف من العبيد والموالى الذين
يمتون الى مختلف الجنسيات والشعوب . وقد جاءوا جزءا من الفء أو
موالى للكثيرين من المحاربين وكان الكثيرون منهم أو معظمهم قد اعتنق
الاسلام مما مكّنهم من تحسين أوضاعهم فى المدينة المقدسة . وقد سمح
لعدد من العبيد والموالى المحررين من ذوى المواهب الخاصة أن يمارسوا

(١) كان على بن أبى طالب أول من أسلم من الفتيان .

مهنهم في المدينة بحرية ، شريطة أن يدفع العبد لسيد شطرا من مكاسبه . ولقد رأينا من قبل أن أبا لؤلؤة الذي قتل عمر بن الخطاب كان عبدا للمغيرة بن شعبة وكان من الحاذقين في أعمال النجارة ، وكان عدد من كبار المسلمين قد ضم بعض العبيد الى بطانته ، وجهزه بالسلاح ليتولى حراسته ؛ وظل هؤلاء الموالي والاتباع هادئين مستكينين طيلة المدة التي كانت فيها الامبراطورية العربية قوية تفرض النظام على رعاياها. ولكن عندما وقعت الفوضى أثناء حصار عثمان خرج عدد من هؤلاء الموالي الى شوارع المدينة مجهزين بالسلاح يعيشون فيها فسادا ويقتربون الجرائم ، بعد أن عصوا طاعة سادتهم وتجبروا عليهم .

ولم يكن هناك من يتخيل امكان وقوع العصيان في قلب الامبراطورية وعاصمتها ، طيلة المدة التي انقضت بين فتح الرسول لمكة ، ومصرع عثمان ، ولم يكن ثمة جنود يقيمون بصفة مستديمة في مكة والمدينة . فالمحاربون العرب منتشرون في قواعدهم العسكرية على الحدود والثغور أو في الامصار المحتلة ، وهكذا تمكنت حفنة من العصاة لا يزيد تعدادها على الألفين من فرض الحصار على الخليفة في منزله وقتله . أما وقد عاد العصاة الآن الى قواعدهم ومراكزهم ، فقد أصبحت الامبراطورية تحت رحمة العبيد والموالي .

ومثلت القبائل البدوية المحيطة بالعاصمة خطرا ثالثا يهددها . وعلى الرغم من أن هؤلاء البدو كانوا دعامة الجيوش العربية التي احتلت فارس واجتاحت امبراطورية الروم سعيا وراء نشر العقيدة الا أن غريزة النهب كانت متأصلة في نفوسهم وطبائعهم . وأوحت الفتن التي وقعت في المدينة لقبائل الحجاز ، بأن سلطة الحكومة قد وصلت الى حد الانهيار والانحلال . وأن العودة الى أيام النهب والسلب في الجاهلية قد أصبحت مرتقبة وشيكة ، وأخذت جماعات من راكبي الابل المسلحين تظهر هنا وهناك ، تنتظر فرصتها لنهب المدينة ، أو سلب قطعان الماشية التي تملكها قبيلة منافسة . ولم تتوافر في المدينة قوات لمواجهة هذه الفوضى . وكان ثمة كبير شك في ولاء جيوش مصر والعراق . وعلى الرغم من أن جيش سوريا لم يشترك في العصيان الا أنه يدين بالولاء لقائده معاوية وهو من الامويين . وعلى الرغم من أن أهل المدينة قد تقاعسوا بدافع الخوف أو الغيرة الضيقة الحدود عن نصره عثمان . إلا أنهم فزعوا الآن من رؤية هذا الخطر الداهم الذي يهدد كل سلطة بالانهلال . ولاريب في أن الوضع في المدينة لم يكن ليقل في خطورته الآن عن الوضع العام

إبان الردة ، بعد وفاة النبي ، وراح طلحة والزبير والكثيرون من الصحابة والانصار يحثون عليا على ضرورة فرض الانضباط بمعاقبة قتلة عثمان .

ورأى الخليفة الجديد نفسه يواجه قرارا ذا خطورة هائلة ، ولو تجمعت قريش كلها يؤيدها الانصار وصحابة رسول الله لتأييد الخليفة الجديد في مساهم للثأر من القتل ، قتلة خليفة رسول الله ، لا عثمان ، لتحديهم لسلطان الخليفة المقدس ، لكان في الامكان القضاء على هذه الروح المتفشية من التمرد والعصيان . وكان لابد لمعاوية في مثل هذه الحالة وهو القائد لجيش موال مخلص ، من أن يجر جرا لتأييد الخليفة الجديد ، وكان لابد لقيام الخليفة الهاشمي بالثأر لقتل الخليفة الاموي ، من أن يرأب الصدع الناشئ بين البطنين المتنافسين من بطون قريش . ولكن عليا على الرغم من بكائه عثمان وندبه مصرعه لم يقم بأية خطوة للثأر من قاتليه ، متظاهرا كما يبدو بعجزه عن ذلك لافتقاره الى القوات الكافية لذلك ولانتشار الفوضى في كل مكان .

وواصل الزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص ، وهم قادة المسلمين والباقيون من أعضاء الهيئة الاستشارية غير الرسمية حثهم للخليفة الجديد على الثأر من قاتلي عثمان ، وإن كانوا هم أنفسهم قد تقاعسوا عن نصره عثمان أو معارضة قتله ، وكان موسم الحج قد حان إبان حصار عثمان في داره ، فأوفد الخليفة ، الشيخ المحصور ، عبد الله بن عباس ، ابن عم النبي ليتولى قيادة الحجيج . وعندما عاد ابن عباس من مكة بعد انتهاء موسم الحج ، وكان عثمان قد قتل ضم صوته الى أصوات المستشارين الآخرين بالمطالبة بدم عثمان . ولكن عليا ظل على عجزه أو عزوفه عن القيام بأي إجراء ضد القتل .

وظهرت في غضون ذلك مشكلة أخرى ، فلقد كان أمراء الأمصار حتى تلك اللحظة من الذين اختارهم عثمان . وكانوا في معظم الحالات من الأمويين ، ويبدو أن الكثيرين من المستشارين أوصوا عليا بالابقاء عليهم ولو لفترة مؤقتة . ومن الصحيح أن يقال أن معظم مظاهر النعمة في عهد عثمان ، كان قد اتخذ شكل شكاوى موجهة ضد هؤلاء الحكام . ولكن بنى أمية أصبحوا بمقتل عثمان الطرف المساء اليه ، بعد أن كانوا هم المسيئين . وما كان على ليتهم بالمحسوبية لو أبقى على العمال الأمويين في مراكزهم لفترة موقوتة على الأقل أو لو أنه عالج موضوعهم بصورة فردية وعلى ضوء أوضاع كل منهم . والمعروف أن المغيرة بن شعبه وعبد الله بن عباس وغيرهما من الصحابة والمستشارين كانوا قد أوصوا

عليا وألحوا عليه بالسير بتؤدة في هذا الموضوع • محذرينه على الأقل من الاساءة لمعاوية ، الذي كانت امارته هي الوحيدة التي احتفظت بالهدوء والسلوك الطيب ، والذي كان على الأقل من العمال الذين عينهم عمر لا عثمان •

ولكن عليا رفض الاصغاء لكل نصيح في الموضوع • وأصر على أن يعزل فوراً جميع عمال عثمان • وبينهم معاوية ، بالرغم من الحقيعه الواقعة ، وهي أن عليا لم يكن يملك أى جيش في المدينة ، وكانت سورية كلها تقف موقفا صامدا وراء معاوية • وسرعان ما أوفد الذين اختارهم هو لامارة الامصار الى مراكزهم الجديدة • وكان معظم الذين اختارهم على ، والحق يقال ، من أكثر الرجال كفاية وأشرفهم سمعة ومكانة • ولكن شعورا معكوسا من السخط كان قد انتشر الآن في أنحاء الامبراطورية كلها • وقد تزايد أمر الدعوة الى عقاب قتلة عثمان في كل مكان • كما انتشرت الشائعات تتهم عليا بالضلوع مع القتلة • وتمكن عامل على في البصرة من تسلم منصبه ، لأن عبد الله بن عامر أميرها في عهد عثمان انسحب بهدوء مدعنا لأمر الخليفة • وتمكن عامله في مصر من تسلم منصبه بعد لاي ، لأن هذا المنصب كان خاليا منذ فرار عبد الله بن أبي سرح • لكن العاملين اللذين اختارهما للشام والكوفة لم يستطيعا دخول المدينتين ، وكانا جد مسرورين بالعودة ناجيين بحياتهما الى المدينة • وعاد الخليفة يلجأ الى الدبلوماسية بعد فشل محاولته ، ولكن بعد فوات الأوان • فقد وجه رسالتين احدهما الى معاوية والاخرى الى أبي موسى الاشعري أمير الكوفة يطلب اليهما اعلان البيعة • وقد رد أبو موسى وهو جندي ممتحن على رسالة الخليفة بعبارات تحمل الولاء ، على الرغم من لا قرشيته ، ولكنه حذر عليا من أن الفتنة مستشرية في الكوفة ، اما معاوية فلم يرد في تلك الآونة على رسالة الخليفة •

ولعل القارىء يذكر ولا شك •• أن قميص عثمان الذي لوثته الدماء وأصابع زوجه نائلة التي قطعها المتآمرون وهي تذب عنه قد هربت من المدينة • ونقلت الى معاوية في دمشق ، وسرعان ما دقت بالمسامير الى منبر الجامع الكبير فيها ، ليكون نداء عاطفيا مؤثرا يدعو الناس للثأر للدم البريء • ولم يقم معاوية حتى تلك اللحظة بأية خطوة باستثناء هذه الطريقة البارة من طرق الدعاية واتخاذ موقف التعبير عن حزنه الطاغى على أحداث تلك الايام وشرها • لكن سوريا كانت تختلف على أى حال اختلافا كليا عن العراق ومصر • وعلى الرغم من أن عمر في البداية قد سار على سياسة من التفريق العنصري في سوريا كما في

غيرها من الامصار ، وأقام جيشه فيها في قاعدة عسكرية ضخمة أقامها في الجابية ، الا أن هذه السياسة ، سرعان ما عدل عنها بصورة متدرجة بفضل الخطة التي انتهجها معاوية فقد أقام عاصمته في دمشق لا في الجابية ، وعاش معه فيها كبار العرب وصحابة النبي حيث اختلطوا اختلاطا واضحا بجماهير الناس من أبناء الشعوب المحتلة . أما في العراق ومصر فقد غدت الجيوش العربية من جراء حياة البطالة التي تعيشها في قواعد العسكرية مجموعة من الجنود المتعاليين ، المتأهبين دائما للثورة ، في حين أن جماهير المدنيين تعيش حياتهم معزولة كل الانعزال عن شئون الدولة . أما في سوريا فقد امتزجت الدولة والجيش مع الجماهير وبدلا من أن نرى فيها حشدا من الجنود المتفطرسين الكسالى نرى شعبا يقف مع الجيش وراء حاكمه معاوية .

وانصرفت الأسابيع ، وعلى لا يتخذ أية خطوة للثأر من قتلة عثمان في حين أن قميصه الملوث بالدماء مازال معلقا على منبر المسجد في دمشق ، وأحس معاوية أخيرا في شهر سبتمبر (ايلول) عام ٦٥٦ أى بعد ثلاثة أشهر من مصرع عثمان أنه بات قادرا على الرد على رسالة علي . وحملت الرسالة التي يعث بها الى الخليفة في المدينة عبارة الاستهلال التالية « من معاوية الى علي » دون أية مجاملات ترمز الى الاحترام والتوقير . ولم يكن في داخل الخلاف الا ورقة بيضاء لا كتابة فيها على الاطلاق ، واستبدت الدهشة بالخليفة ، وحار في أمر الرسالة وسأل من حوله عن مغزاها ورد الرسول بصورة لا تخلو من الصرامة ، ان ثمة ستين ألفا من المحاربين في دمشق ييكون على قميص الشهيد المخضل بالدماء ، وانهم مصممون على الثأر برأس علي لدم عثمان البريء ، بالرغم من قسمه بأنه بريء من هذا الدم (١) وهكذا ظهرت كلمة « الحرب الأهلية »

(١) توحى الطريقة التي سرد بها المؤلف قصة الرسالة بشيء من الشك في اشعز الله على في قتل عثمان ، مع أن هذا الشك لا محل له على الاطلاق . وان عليا بريء كل البراءة من تهمة التواطؤ . أما ما يدعيه المؤلف من تقاصص على عن نصرة عثمان لمردود أصلا لان عليا أوقد ولديه الحسن والحسين للدفاع عن عثمان ، وهذا أهمل عليه من نفسه . أما عدم اشتراكه هو شخصيا في الدفاع الفعلي ، لمرده الى أن عليا كان قد استلم من رفض عثمان تسليم مروان الى جيش مصر ، رغم نصيحته هو ، ونصيحة كبار المسلمين الذين أفرحتهم رسالة مروان الى أمير مصر بقتل محمد بن أبى بكر وصحبه . وأدى أن أسرد هنا قصة رسالة معاوية كما أوردها المؤرخون العرب إذ قالوا .. أراد معاوية في الشهر الثالث من مقتل عثمان أن يعلن خلافته فدعا برجل من بني عيس ودفع اليه طومارا مختوما عنوانه «من معاوية الى علي» وقال له اذا دخلت المدينة ..

لأول مرة في تاريخ الاسلام وقصصه . وأدرك على أنه لم يعد ثمة مجال لاتخاذ اجراء حازم ، وأصدر أمره بنشر رايات الحرب والاعداد لحملة على سوريا . وأوفد الى مصر والكوفة والبصرة رسله يدعونها الى اعداد الجند .

وكان الزبير وطلحة يلحفان على على بأن يعلن عزمه على الثار لعثمان ولكنهما رأيا الخليفة يتجاهل نصيحتهما المرة تلو المرة ، وأخذت عاصفة الاتهام الموجه الى على تشتد يوما بعد يوم . وأدى تقاعسه عن العمل الى تقوية الشكوك بأنه كان متواطئا مع القتلة . أما الحقيقة فهي أن عليا كان لا يزال في موقف المتردد العاجز عن اتخاذ أى قرار فهو بالرغم من عدم تواطئه مع القتلة ، لم يقم بأية محاولة للدفاع عن ضحيتهم . وها هو ذا الآن ، وبالاسلوب نفسه يقف موقف المحجم ، المترقب من الأحداث نجدته .

وغادر الزبير وطلحة - وهما اللذان يتلوان عليا مباشرة في المنزلة وفي المكانة - المدينة الى مكة متذرعين بالرغبة في أداء العمرة ، وكانت عائشة أم المؤمنين فيها . وكانت منذ حادث الافك ، تضمر في نفسها الضغينة لعل ، لحكمه بطلاق الرسول منها . ولم تنس قط اسنائه هذه . وحرى بنا أن نذكر هنا أن عائشة بنت أبي بكر ، أى شقيقة محمد الذي كان أول من اقتحم على عثمان غرفته . وأن نقول انها حاولت منع أخيها من الاشتراك في عمليات العنف . وكان عدد من الأمويين قد فروا من المدينة الى مكة فلما وصل اليها طلحة والزبير وجدوا أن الفتنة قد رسخت أقدامها فيها ، وسرعان ما ارتفعت راية العصيان في المدينة المقدسة ، وظهر طلحة والزبير على استعداد لمحاربة على رفيقهما السابق . ويذكر القاري ولا زيب . . أن جماعة الكوفة من العصاة كانت تؤيد اختيار الزبير للخلافة في حين كانت جماعة البصرة تؤيد طلحة ولم يكن مع على الا جماعة مصر . ولهذا قرر طلحة والزبير أن يرفعا لواء الثورة في البصرة أولا فخرجسا من مكة على رأس ثلاثة آلاف رجل وغايتهما

فأقبض على أسفل الطومار وأرسله حتى يراه الناس فلما قدم العباسي المدينة رفع الطومار وخرج الناس ينظرون وقد علموا أن معاوية معترض ثم دخل الى على فأسلمه الطومار، فنفذه فلم يجد فيه شيئا ثم سأل الرسول ما وراك قال اني تركت قوما لا يرضون الا بالقود . قال ممن ؟ قال : من خيبت نفسك . وترك ستين ألف شيخ يكون تحت قبض عثمان ، وهو منصوب لهم قد البسوه منبر دمشق ، فقال على : منى يطلبون دم عثمان ! لست موتورا ترة عثمان ! اللهم انى أبرأ اليك من دم عثمان ، نجا والله قتلة عثمان الا ان يشاء الله . . . (العرب)

أن يقطعا الجزيرة العربية للوصول إلى العراق وكان معهما مروان ابن عم عثمان وكاتم سره الذي رفض عثمان أن يسلمه إلى العصاة .

ومضت عائشة في هودجها مع الركب ، وخرج أهل مكة مع الجيش يودعونه في اليوم الأول من سفره وعندما انتهى الوداع وأدار المكيون ظهورهم عائدين إلى مكة انفجرت الدموع من مآقي الجمع الحاشد الذي ضم عددا من النسوة ، وأطلق أهل مكة على ذلك اليوم المفجع اسم « يوم الدموع » .



كانت الامبراطورية العربية العظيمة قد ظهرت إلى حيز الوجود كالبرق الخاطف في فترة خيالية لا تزيد على العشرين ربيعا ، وبدأت الآن وكأنها على وشك الانهيار والزوال في خضم لجة بدوية من الحرب القبلية والمنازعات الدامية المشتركة . وقد ظلت نقاط الضعف في الامبراطورية الجديدة خفية عن العيان طيلة المدة التي كان فيها الناس يعملون بوحى حبهم العاطفي الصادق للنبي وخليفته المخلصين من بعده أبي بكر وعمر بن الخطاب . وقد خفتت الآن موجة الحماس الأولى للعقيدة الجديدة فقد انقضى زهاء خمسة وعشرين عاما على وفاة النبي . وقد نشأ الآن جيل جديد لم يعرف النبي شخصا ولم يحس بما كان لشخصيته من جاذبية تكاد تشبه السحر .

وكانت الامبراطورية العربية القوية مهيبة كل المهابة بالنسبة إلى المتطلع إليها. ولكن تم بناؤها في سرعة عجيبة . وقد بدأت التصدعات المنيرة بالشر تظهر في أسسها فليس هناك أولا أي دستور لهذه الامبراطورية ، كما ليس ثمة أي نظام ثابت لاختيار الخلفاء وقد ارتكزت قوانين الدولة على القرآن وعلى سنة الرسول من قول أو فعل ، ولم يسبق للرسول أن بحث في أي موضوع يتعلق بالخلافة .

لكن الضعف الحقيقي كان أعمق جذورا من كل هذا ، إذ كان روحيا في طبيعته . فعندما هاجر النبي وصحبه من مكة إلى المدينة . كان هذا النفر القليل العدد مدقعا لا يملك شيئا . وكان عبثا في معيشتهم على حسن وفادة الأنصار . ولكن هذا النفر مالم يثبت أن حصل على ما يقيم الأول من غنائم الغزوات والحروب . وهكذا كانت الحرب في سبيل نشر الدعوة تعني لهم الثراء والغنائم . ولكن هذه الغنائم لم تكن شيئا يعتد به إبان حياة الرسول إذ أنها نابعة إما عن قريش أو عن القبائل البدوية

المجاورة وكلها قبائل فقيرة نسبيا . يضاف الى هذا أن محمدا وخليفته الأولين كانوا لا يكتثرون بالمال أو الترف ، وحافظوا على حياة البساطة الطبيعية التي عاشوها من قبل حتى وفاتهم .

لكن انهيار امبراطوريتي الروم والفرس أدى الى اثره كثيرين من المسلمين ثراء خيالها . وكانت الفكرة الغالبة ان في وسع المسلمين أن يتمتعوا باطياب الدارين . دار الدنيا من مال ومنتعة وزوجات ، ودان الآخرة من نعيم مقيم في فراديس الجنان . وليست هناك من حقيقة أصدق من تلك التي تقول ان الانسان لا يستطيع أن يعبد الهين في وقت واحد . الهه الحقيقي واله المال ، وقد لا تعنى الثروة انها شر ، ولكنها أقرب الى قلب الانسان وأكثر تأثيرا عليه من عبادة ربه . والبحث عن العبادتين في آن واحد لا يعنى الا شيئا حتميا ، وهو أن يكرس المرء عبادته بشكل رئيسي لطاغوت المال . (١)

ولقد حقق العرب انتصاراتهم العظيمة بسرعة هائلة وأدى الألف لحياة الرخاء واليسال والنساء التي أصبحوا يعتبرونها الجزاء الحق للمؤمنين الى انشغال عقولهم بالنجاح الدنيوى بدلا من انشغالها بعبادة الله وتقواه . وكثيرا ما وجه النقد الى المسيحيين لأنهم يعتبرون كل ما فى الدنيا شرا من الشرور . أما بالنسبة الى المسلمين الأول ، فان الدنيا كانت طيبة الى أقصى حدود المبالغة فى الطيب .

وما كادت المطامع الدنيوية تثبت أقدامها من جديد ، حتى عادت عادات العرب فى الجاهلية الى الظهور لأنها خير أدوات لتحقيق هذه المطامع ، وقد عملت العصبية القبلية والشهوة الى النار الناجم عن المنازعات الدموية عملها فى التأثير على العقول التي أضعف حب المال والنساء مشاعرهما الدنيوية تماما كما يعمل المرض الوبائى عمله بنجاح فى الأجسام التي سبق للاهمال أن أضعفها .



(١) يبدو ان المؤلف لا يستطيع أن يفهم السبيل الى الجمع بين الروح والمادة فهو يفترض أن الانسان اما ان يكون مادي التفكير في حياته أو روحى الايمان . ولقد جمع الاسلام بين هذين العاملين الاساسيين في تكوين الانسان ، فامر الناس بان يعملوا لدنياهم وكأنهم خالدون فيها ، وان يعملوا لآخريتهم وكأنهم ميتون غدا ، وعلى الرغم من صعوبة هذا الجمع عند الكثيرين لتغلب العنصر المادى عليهم ، أو لتعلقهم بالروحانيات تملقا اعمى ، الا ان الحياة العملية تثبت ان الاسلام كان على حق في جمعه بين الجوهرين .

(العرب)

م ٣١ و ٣٢ - الفتوحات العربية

ويبدو من الصعب تبرير خيانة طلحة والزبير الظاهرة لعل بن أبي طالب بعد أن ظلا يتعاونان معه كرفاق وزملاء في تقديم النصيح والمشورة لعمر وعثمان طيلة أربعة وعشرين عاما ، وبعد أن كانا قبل أقل من ثلاثة أشهر قد بايعاه بالخلافة . أما بالنسبة الى ما اتهم به علي من تواطؤ مع قتلة عثمان ، فانهما لا يفضلان عليا في موقفه هذا ، اذ كانا في المدينة أيضا عندما فرض الحصار على منزل الخليفة ، « ولم يقوما بأي عمل لمساعدته وانقاذه » . ولقد علق أحد المشتركين في هذه الفتنة بقوله « ان لك الملامة في مصرع عثمان يقع على عاتق علي ، في حين يقع الثلثان الباقيان على الزبير وطلحة وعائشة » .

- ولما نعى الى مسامع «علي» سير من سار الى البصرة من أمثال الزبير وطلحة وأم المؤمنين عائشة ، قرر أن يدركهم قبل أن يصلوا اليها ولكنه وجد صعوبة كبرى في حشد قوة لهذه الغاية . فقبل ثلاثة أشهر ليس الا كان الصحابة وأهل المدينة قد الحفوا عليه في قبول الخلافة . أما الآن فليس ثمة من يؤيده الا القليلون . وان كان الزبير وطلحة المتقلبان قد تمكنا من جمع ثلاثة آلاف رجل من أهل مكة والقبائل المجاورة لها (١) ولا ريب في أن السبب في هذا التبدل يعود الى انتشار تيار الدعوة القائلة بأن عليا قد حرض سرا على مقتل عثمان . وأخيرا ، وبعد أربعة أشهر من مصرع عثمان خرج «علي» في أكتوبر (تشرين الاول) عام ١٦٥٦

(١) أخطأ المؤلف بعض الخطأ في تحليله أسباب التفاف الناس حول الزبير وطلحة وانقضاضهم عن علي ، وعلى الرغم من أن تقامس علي من الأخذ بنار عثمان من قاتليه كان سببا أساسيا الا ان السبب الجوهرى هو وجود عائشة أم المؤمنين في الصف المادى لعل ، فلقد كان لها منزلة عظيمة رهيبة لانها ابنة رسول الله وزوجه التى انتقل الى الرليق الاملى في حجرتها . وكانت عائشة رضي الله عنها من الخطيبات البليغات المؤثرات فقد خطبت الناس في المسجد الحرام تحرضهم على الخروج مع الزبير وطلحة وقالت . . ان الفوفاء من أهل الامصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا . ان عاب الفوفاء على هذا المقتول بالامس الارب . واستعمال من حدثت سنة وقد استعمل اسنانهم قبضه . ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم . وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم منها استصلاحا لهم . فلما لم يجدوا حجة ولا عدرا خلجوا وباندروا بالمعدوان وبأ توهم من فعملهم ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام . والله لاصبح عثمان خير من طباقي الارض امثالهم . فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم والله لو ان الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه ، كما يخلص الذهب من خبثه او الثوب من دثره الا ما حووه كايماص الثوب بالماء . «

(العرب)

يطلب الحاقق بالزبير وطلحة ولم يكن معه اكثر من سبعمائة رجل ، وأحس بضعف قوته وعجزه عن السير ، فربط على بئر في صحراء نجد . (١) وبلغته الانباء وهو هناك بأن خصومه قد وصلوا الى البصرة وبعد أن استراح بضعة أيام أوفد محمد بن أبي بكر الى الكوفة لاقناع الجنود في قاعدتها بالانضمام اليه في زحفه على البصرة .

وكان الزبير وطلحة قد وصلا في غضون ذلك الى خارج البصرة ويذكر القاري أن عليا كان قد أوفد أميرا اليها تسلم زمام الامور باسمه فيها من عامل عثمان . وراح هذا الامير يقابل الآن جماعة المنشقين وقوتهم عند مدخل المدينة . ودار نقاش حاد ، واتهم البعض الزبير وطلحة بالردة عن البيعة والثورة على من بايعاه . فردا بحجتين أولاهما انهما أجبرا على بيعة على ، وثانيتهما أنه لم يتبين لهما اصرار «على» على رفض الثار لسم عثمان من قتلته الا بعد بيعته . وأضافا أن الدولة الاسلامية لا يمكن أن تبقى وتعيش اذا كان يسمح ببقاء الجنود العصاة الذين يقتلون خليفة رسول الله دون عقاب . وتطور النقاش الى قتال لم يتوقف الا عند حلول الظلام . ويبدو أن جماعة الناقمين تمكنت أثناء الليل من التغل داخل المدينة ، واستؤنف القتال عند الفجر فلما حلت الليلة الثانية كانت شوارع المدينة قد امتلأت بالقتلى والجرحى من الفريقين المتحاربين رغم اشتراكهما في الاسلام . وتم أخيرا الوصول الى هدنة واتفق الفريقان على أن يبعثا برسول محايد الى المدينة يسأل اهلهما عن بيعة طلحة والزبير ويتثبت من الحقائق . فان عاد بأن الرجلين قد بايعا كرها غدت المدينة من حقهما . وان عاد ليقول العكس وانهما قد بايعا عليا ، طائعين مختارين ثم نكثا بيعتهما ، تحتم عليهما أن يفادرا المدينة وبخليها لعامل «على» ووصل الرجل في الموعد المناسب الى المدينة وكان الناس يؤدون صلاة الجمعة في مسجد الرسول . ونادى « يا أهل المدينة اني رسول أهل البصرة اليكم أكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة على أم أيما طائعين ؟ وكانت النتيجة وقوع شغب في المسجد وارتفع صراخ البعض بنعم والبعض الآخر بلا (٢) .

(١) يسمى هذا الموقع موقع الربرة في نجد

(٢) تختلف رواية المؤلف من روايات المؤرخين المسلمين ، فقد ذكروا أن أحدا من أهل المدينة لم يرد على سؤال رسول البصرة الا ما كان من أسامة بن زيد قائم فقال . . «اللهم انما لم يبايعا الا وهما كارهان» . فلوب عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يقتلونه لولا أن قام فخلصه من أيديهم عدد من الصحابة ، ومنهم محمد بن مسلمة

وكانت الهدنة القلقة مستمرة في غضون ذلك في البصرة فلما عاد الرسول دون أن يحمل ردا واضحا استؤنف القتال، ومنيت جماعة «على» بالهزيمة. وأخرج عامل «على» من المدينة بعد أن أسيت معاملته، واستتب الامر للثائرين . وأراد هؤلاء أن يثبتوا الدليل على اخلاصهم لعثمان فقتلوا جميع من اشترك من أهل البصرة في عملية حصار عثمان وقتله .



وبينما كانت هذه الاحداث دائرة في البصرة، كان «على» قد اجتاز الصحراء حتى وصل الى ذى قار ، الواقعة عند الفرات والتي شهدت انتصار بني بكر على الفرس أيام الجاهلية . وكان رسل على المتوالون على الكوفة قد فشلوا في حشد أى نفر من رجالها لنصرة «على» بسبب معارضة أميرها أبى موسى الأشعري ، الذى أصر على أنه سمع رسول الله نفسه يقول . . بأن على المسلمين اذا ما رأوا فتنة الا ينضموا اليها (١) .

وقد ضم رسل على محمد بن أبى بكر الذى اشترك فعلا فى قتل عثمان وعبدالله بن عباس بن عم النبى ، ومالكا الاشتر المحرض الاول على

— وقال له احد متقليه : أما وسعك ما وسعك من السكوت . وعند ذلك رجع الرسول الى البصرة لينقل الى أهلها ما سمعه وما رآه . (العرب)

(١) يبدو أن المؤلف أراد أن يقول على لسان أبى موسى الأشعري ما لم يقله ، وأن ينسب الى النبى قولا لم يقله . إذ نقل المؤرخون المسلمون عن أبى موسى قوله «واذا كان ما كان فانها فتنة صماء ، التالم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد غير من القالم، والقالم خير من الراكب ، فكلوا جرثومة من جرثيم السرب فافقدوا السيوف وانصلوا الاسنة ، واقطعوا الاوتار ، وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الامر وتنجلي هذه الفتنة » . فتكلمت رسل على ، وأغلظت لأبى موسى القول الى أن هب الحسن بن على ، وكان ممن أرسل في هذه الوفادة فقال . يا أيها الناس أجيئوا دعوة أميركم وسيروا الى اخواتكم . فانه سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه ، والله لان يأتيه اولو النهى مثل في العاجلة وخير في العاقبة فاجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتكم به فسامح الناس واجابوا رضوانه . وقال لهم الحسن انى نأى فمن شاء منكم ان يخرج معى على الظهر ، ومن شاء فليخرج في الماء ، فقفر من أهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر ، وأخذ بعضهم الماء وقابلته الجنود البرية بدى قار فقال لهم : قد دعوتكم لتشهدوا معنا اخواننا من أهل البصرة . فان يرجعوا فذلك ما نريد وان يلحوا داويناهم بالفرق وبايناهم حتى يبدؤوا بظلم ، ولن ندع امرا قبيلا صلاح الا آثرنا على ما فيه الفساد ان شاء الله .

(العرب)

الفتنة في الكوفة ، وقائد العصاة الذين ذهبوا منها الى المدينة . ولا ريب في ان اختيار على لقتلة عثمان قادة لقواته ، قد عزز الاتهام الموجه اليه بالتواطؤ وهو الاتهام الرئيسى الذى تعرض له . وسرعان ما أصدر «على» أمره بعزل أبى موسى من منصبه ، وعين أميراً جديداً للكوفة يتولى القيادة فيها . وانسحب هذا الجندى العجوز دون اعتراض ، وربما دون أسف اذ علق بقوله : إنه صرف ثلاثين حولا يقاتل أعداء الله والكفار . ولكنه لم يقتل مسلماً واحداً في حياته . ومهما كانت المطامع المتنافسة عند القادة في صراعهم على السلطان فليس نمة من شك في أن الحيرة قد استبدت بالكثيرين من أبطال الحروب ذوى العواطف الدينية العميقة الجدور . فقد حرّ الألم العميق في نفوس هؤلاء من رؤيتهم هذا الانهيار البين لوشائج الاخوة الدينية التى كانت لهم وحيهم الدائم في حياتهم والتى وثقوا من انها ستمكنهم من السيطرة على العالم بأسره واخضاع الجنس البشرى كله لطاعة الله . أما الآن فقد ظهرت ثلاث شيع في الميدان تنافس على الخلافة ، أولاها شيعة على ومعه حفنة من الاتباع في ذى قار ، وثانيها شيعة طلحة والزبير ومقامها في البصرة . وثالثها شيعة معاوية الذى كان يحاول كسب الوقت في دمشق . أما أعداء الله من فرس وروم فقد نسيهم الناس .

وعندما سمع «على» ان رسله الاول الى الكوفة منوا بالفشل، أوفد ولده الأكبر الحسن الى المدينة بينما ظل هو مرابطاً عند ذى قار ، ولقد كان الحسن والحسين سبطى رسول الله ، والقريبين الى فؤاده ، ولم يكن يمل قط من اللعب معهما ، وقد رآهما عدد كبير من الصحابة يجلسان فى حجره أو يتسلقان على كتفيه ، وهو يبتسم ، وأدى وصول الحسن الى الكوفة الى تحول التيار . فقد تأثر كثيرون من صحابة الرسول تأثراً عميقاً من رؤيتهم سبطه وهو يناشد هم العون ، وسرعان ما تجمع نحو عشرة آلاف رجل خرجوا من الكوفة للانضمام الى على .

وعندما اقترب جيش الخليفة من البصرة خرج الزبير وطلحة على رأس قواتهما للقائه ولم يكن كل من فى البصرة معهما . وانضم بنو بكر، وهى قبيلة المثنى الباسل الى جيش على . أما بنو تميم فقد قرروا البقاء على الحياد . وبات جيش «على» الآن ، وهو الأقوى وكانت سنة أهل الجاهلية أن تركب النساء هودجهم ويصحبن رجالهن الى المعارك لتشجيع المحاربين وحضهم على القتال ، وها هى ذى أم المؤمنين عائشة تستقل الآن هودجها لمرافقة جيش طلحة والزبير .

- لكن عليا كان راغبا عن القتال فتوقف على مسيرة من خصومه وأوفد اليهم القعقاع ذا العزيمة المتقدمة الذي أبلى أحسن البلاء في الفتوحات الاولى يحضهم على التفاوض ، وقال لهم ان الخليفة الجديد لا ينكر ضرورة معاينة قتلة عثمان . ولكنه ينشد الوقت لأداء هذه المهمة . وكان عدد كبير من هؤلاء الرجال من الجنود الذين عملوا تحت قيادته أيام الفتوحات ، وأضاف ان قتلهم بالجملة لن يؤدي الا الى المزيد من المنازعات ، فمن الواجب أولا إعادة الامن والنظام الى نصايبهما ، ومن ثم تصبح الفرصة متاحة لمحاكمة القتلة بطريقة شرعية ونظامية ، وكان عرض القعقاع معقولا ، كما كانت حجته مقنعة ، وأخذ الناس يرجعون عقولهم فلعل عليا يرى حقا من تهمة التواطؤ . واذا كان الخلاف لا يعدو مسألة التفضيل في الاسبقية الزمنية ، وهل يكون عقاب القتلة أولا أو إعادة الامن والنظام الى الامبراطورية ، فان في الامكان التفاوض وبحث هذا الموضوع وقد وافق طلحة والزبير على مبدأ التفاوض .

وسر «علي» غاية السرور من احتمال التفاوض بدلا من الحرب الاهلية، وسارع يقترب بمعسكره من معسكر خصومه ، ليسهل أمر الاتصال بين المعسكرين ، ولكن كان معه في جيشه القادم من الكوفة جميع العصاة السابقين من جنود تلك المدينة الذين اشتركوا في قتل عثمان ، وهم الذين يطالب طلحة والزبير بعقابهم ، ولهذا فقد أمر هؤلاء بالبقاء بعيدين في الصحراء حتى ينتهي من أمر المفاوضات ، وظل معهم هناك مالك الاشتر أشد الثائرين خصومة لبني أمية .

وبدأت المفاوضات حثيثة آنذاك بين علي من جهة وطلحة والزبير من الجهة الاخرى وخرج علي من صفوف جيشه ممتطيا جواده ليلقاه بين الجيشين طلحة والزبير . وأعرب الرجلان عن تصميمهما على معاينة قتلة عثمان . ورد علي بأنه متفق تماما معهما في الرأي وأنزل لعنة الله على قتلة عثمان . وأضاف ان الطريقة المثلى للثأر من القتلة لا يمكن أن تتبع في هذه اللحظة وكل ما ينشده هو كسب الوقت .

وكان الزبير قريبا لرسول الله ، فهو ابن عمته ، وابن عمه علي في الوقت نفسه وكان الرجلان قد عرفا بعضهما تمام المعرفة منذ عهد بعيد واشتركت حياتهما في الكثير من الامور وعندما التقيا الآن بين جيشيهما ، اخذ علي يذكر الزبير بذكرياتهما المشتركة في فتوتهما وشبابهما ، عندما كان الايمان يعمر قلوبهما ، ويتقدان حماسة وغيرة على الدين ، وحبا لرسول الله ، كزاح يتلو علي مسامعه ما قال لهما رسول الله ، مرة ، ومارد

• به «على» أو الزبير تلك المرة . يا لها من ايام رائعة ! وتفجر الدمع في
عيني الزبير وراح يقسم بالله على الا يحارب عليا ابدا . ومما يجدر ذكره
ان عليا كان معروفا ببلاغته في القول وقوة حجته .

ولاحث تباشير الخير في نتائج المفاوضات ، وخفت حدة التوتر ،
وانصرف الجيشان الى الراحة والنوم في تلك الليلة ، وقد تخليا عن شيء
من الحذر والحيطه اللذين كانا موضوع مراسهما حتى تلك الليلة ، لكن
آخر ما يرغب فيه قتلة عثمان هو أن يعقد الصلح ويتم التفاهم بين
الفریقین ، اذ ان هذا التفاهم لا يعنى الا ان عليا وعد خصميه بعقابهم .
وعلى الرغم من تخلفهم بعيدا في الصحراء الا ان لهم عيوننا ورفاقا في
الجيش كانوا ينقلون اليهم سير المفاوضات وتطورها . واجتمع هؤلاء
القتلة في الليل ليتدبروا أمرهم ويقرروا الاجراء الذي يجب عليهم اتباعه ،
واتفقت كلمتهم على ان التفاهم بين علي وبين طلحة والزبير سيؤدي الى
القضاء عليهم . وحزموا أمرهم على ان سبيلهم الوحيد للبقاء والحياة ،
هو في أن ينشب القتال بأى شكل من الاشكال بين الفریقین . وانصرم
الليل بطوله في مثل هذا النقاش وراحوا قبيل الفجر يمتطون جيادهم
ويتفرقون بهدوء تحت جناح الظلام . وكان قتلة عثمان من مختلف القبائل
كما كانت هذه القبائل نفسها ممثلة في جيش البصرة والكوفة ، وهكذا
قرر هؤلاء المتعصبون أن ينسلوا بهدوء كل الى صفوف وحدته القبلية التي
تجارب الى هذا الجانب أو ذاك (١) .

ولم تكد تطل خيوط الفجر الاولى ، حتى عم الضجيج الجيشين ،
وارتفعت الصيحات من كل جانب مطالبة بالاستعداد للقتال ، « لان العدو
قد داهمنا في غلس الليل ناكثا بعهد » . وعندما هرع الزبير وطلحة الى
رجالهما يسألان عما حدث ارتفعت الاصوات قائلة : « لقد أطرقنا أهل
الكوفة ليلا . ولقد عزم «على» على ابادتنا في بحر من الدماء ، ولم تكن
مفاوضات الامس الا خدعة » . وعندما هب «على» من نومه يسأل عن
السبب في الضجة ، كان هناك رجل يقف الى جانبه ليقول له . . لقد دهمنا

(١) يصر جلوب هنا على اخفاء الدور الذي لعبه الشمريون وفي مقدمتهم
اليهودي عبد الله بن سبأ وابيائه في هذه المعركة ، فهو ينسب الخدعة التي اوت
الى القتال الى قتلة عثمان من رجال جيش علي ، بينما يجمع مؤرخو المسلمين
على ان السبائين هم الذين لعبوا هذا الدور القدر ، تحقيقا لخطتهم في تمزيق وحدة
العرب والمسلمين »

أهل البصرة ، وقد عزم طلحة والزبير على ذبحنا . لقد تعرضنا للخديعة ، وظلت هذه الصيحات تملو في الجيشين وتتناقلها الاصوات ، بينما سارع الجنود في حمى الذعر الى ارتداء دروعهم وانتضاء سيوفهم . وضاعت صيحات «على» الى رجاله بأن يصمدوا وان في الأمر خديعة فلا شيء قد حدث ، في غمرة حمى الذعر التي انتابت المعسكر كله . لقد فات الأوان ، ولم يعد هناك سبيل لتدبير ، وتطاولت السهام من كل جانب ، وسرعان ما احتدم القتال بين الطرفين ودارت رحاه بعنف أحال المعركة الى اضطراب وفوضى . فلقد خيل لطلحة والزبير ان عليا قد خدعهما ، وتصور رجال علي ان طلحة والزبير قد خدعاهم ولم يطلع النهار في ذلك اليوم الا وكانت المعركة قد دارت على أشدها . وضاعت جهود «على» لوقف القتال عبثا . وادى احساس كل من الجيشين بخديعة الجانب الآخر الى احتدام أوار المعركة . وكان الصراع الآن ، كما هو شأنه في كل حرب أهلية ، أشد هولا ومرارة منه أيام الحروب مع الكفرة والمشركين . ولم تكن المعركة الآن صراعا بين عربي وعربي أو مسلم ومسلم ، وانما وجد أبناء القبيلة الواحدة انهم يتذابحون الآن ، اذ ان القبائل نفسها كانت قد تقسمت ابان الحروب مع الفرس ، فاقام بعض أفرادها في البصرة بينما اقام البعض الآخر في الكوفة .

وعندما بدأت المعركة انسحب منها الزبير تنفيذا للقسم الذي أقسمه في اليوم الفائت ألا يحارب عليا ، وراح يتجول في واد قريب من ميدان القتال فلقبه على ما يبدو عابر سبيل مسلح ، فقاتله وقتله . وهكذا مات هذا البطل العظيم من أبطال المسلمين الأوائل مثل هذه الميته المغمورة التي لا جدوى منها (١) . وأصيب طلحة في غضون ذلك بسهم فنقل جريحا الى البصرة حيث توفاه الله فيها بعد قليل ، وعندما افتقد جيش الثائرين قائديه بدأ يضعف ويتخلل عن مواقعه .

وكان القوم قد دفعوا بالهجين الذي يحمل أم المؤمنين عائشة في هودجها الى قلب المعركة . حيث أخذت تحض الرجال على القتال للثأر من قتلة عثمان . وعندما بدأ جيش الثوار في التراجع أصبحت عائشة في

(١) يقول المؤرخون العرب ان الزبير ترك ارض المعركة واراد اللحاق بالمدينة ، فلم يسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى اذا كان في وادي السباع قتله وقتله .

هودجها وراء صفوفهم تواجه جيش على المتقدم . فارتفعت الصيحة بأن
 أم المؤمنين في خطر ، والتف حول الهودج جماعة من شجعان أهل البصرة
 ندبوا أنفسهم للدفاع عنها ، ولو كلفهم هذا الدفاع أرواحهم . وسرعان
 ما استعر أوار القتال من جديد ، بعد أن كان قد بدأ في الخفوت ،
 وارتفعت راية إلى جانب الجمل ، وهب البواسل إلى الامام يذبون عنه
 ويمسكون بخطامه . وهكذا عاد الحب الشديد الذي طالما استعر في
 قلوب هؤلاء الناس لرسول الله ، والذي كان قد بدأ في الخفوت ، إلى
 الانتقاد بقوة ضارمة ثانية عندما سماع هؤلاء الناس ان زوجه الاثير في
 خطر . وانتظمت الصفوف من جديد حول جمل أم المؤمنين . وسقط أكثر
 من سبعين من شجعان العرب قتلى أمام الجمل وهم يذبون عنه ويمسكون
 بخطامه ، وأدرك على ان الجمل هو حافز جيش البصرة على الصمود ، فأوقد
 رجلا ليعقره من خلفه . وسقط الجمل سقطه مريضة وهو يصرخ صرخة
 هائلة ، وانقلب الهودج ، وتحطمت صفوف المدافعين عنه ، وانهزم الجيش
 المغلوب إلى البصرة . وتقول روايات العرب التي لا أشك في مبالغتها ان
 مئات السهام أصابت الهودج دون أن تصاب صاحبه بأذى (١) .

ويذكر المؤرخون العرب أرقاما مريضة عن قتلى هذه المعركة التي
 عرفت عندهم بمعركة « الجمل » . ولم يكن هؤلاء العرب قد عرفوا معنى
 الهزيمة مرة واحدة طويلة الخمسة والعشرين عاما الماضية . وكانوا قد
 تعودوا على النصر تماما كما تعودت جيوش الاسكندرية من قبلهم أو جيوش
 نابليون من بعدهم . وهاهم الآن لأول مرة منذ جاء محمد مبشرا برسائله .

(١) يقول مؤرخو العرب ان أهل البصرة ظلوا يقتتلون حول الجمل
 وداجزهم يقول : «

نحن بنى ضبة اصحاب الجمل

ننمى ابن عفان باطراف الاسل

الموت احلى عندنا من العسل

ردوا علينا شيخنا ثم بجمل

ولما رأى على كثرة القتلى حول الجمل ، وان الناس لا تسلمه أبدا وفيهم من
 طرف نادى :

اعتقوا الجمل ، فجاءه الناس من خلفه ومقره ، فسقط وسقط الهودج وكأنه قنبل
 مما رمى قنبل من النبل ، فجاء محمد بن أبى بكر وعمار بن ياسر ، فقطعا مرفعة الرجل
 واحتلوا الهودج فنجباها من القتل ، وخرج بها محمد حتى ادخلها البصرة .
 (العرب)

يقاتل المسلم منهم أخاه ويقتله ، وهم لا يخشون الموت . فقد ألفوه وتعودوا عليه ولقد سمعنا عن قصص كثيرة ، رويت عن أناس نذروا أنفسهم للاستشهاد قبيل المعركة وراحوا عامدين متعمدين يبيحون عن الموت ويطلبونه ، وجرت عادة الذين يصابون بجراح خطيرة منهم ، على أن يزحفوا الى اتون المعركة يطلبون سرعة الاستشهاد فيها لكن هذه الروح انما نشأت ونمت في الحروب مع المشركين والكفرة ، ذلك لان الوعد الفوري بدخول الجنة انما يطبق على من يستشهد في قتال غير المسلمين . وقد نص القرآن من الناحية الاخرى على ان الجحيم مصير كل من يقتل مسلما عامدا متعمدا ، لكن العادة التي ألفها هؤلاء مدة ربع قرن ، لم يكن من السهل تبديلها ، ولهذا فان كثيرين ممن قتلوا في هذه الحرب الاهلية ماتوا وعبارة « الفردوس » على شفاههم .

وقد دارت معركة « الجمل » في ديسمبر (كانون الاول) من عام ٦٥٦ وعندما تراجع العدو الى البصرة ، أمر «علي» رجاله بوقف المطاردة، وبوقف أية عملية من عمليات القتل فورا . ومن المحتمل أن يكون عدد من اشترك في المعركة خمسة عشر ألفا في كل جانب وأن يكون عدد قتلاها ستة آلاف دفنوا في ارض المعركة (١) . وعندما جاء الى «علي» بسيف الزبير ، بكاء وصب اللعنت على رأس من قتله ، وأخذ يذكر الناس بالاعمال البطولية الخارقة التي قام بها الزبير في حياته اعلاء لكلمة الله . وتقوم الآن بلدة الزبير في المكان الذي قتل فيه وقد أطلق عليها هذا الاسم تخليدا للذكراء. وبذل «علي» جهد طاقته عند دخوله البصرة لاحلال الوفاق بين جميع الفرقاء ، وتمكن مروان وغيره من الامويين من الفرار فمضى بعضهم الى المدينة التي وقفت حتى ذلك الحين موقف الحياد وبعضهم الى معاوية في سوريا ، واذا ما استثنينا هؤلاء الامويين فان من تبقى من الجيش المهزوم في البصرة عومل معاملة متسامحة ، وحض «علي» الناس على نسيان مافات بما عرف عنه من لين وتسامح، وماتميزت به طبيعته من يسر ورفق ، فقد حزم أمره على توحيد الامبراطورية لا على الانتقام من أعدائه .

وبعد أن قضى على قرابة اسبوعين في البصرة ، انتدب لامارتها

(١) يقول السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء ان عدد القتلى بلغ في هذه المعركة ثلاثة

عشر ألفا .

ابن عمه عبد الله بن عباس ، ثم زحف بجيشه على الكوفة ، وأكرم قبل رحيله وفادة أم المؤمنين عائشة وعاملها بكل اجلال واحترام ، ثم أعادها الى المدينة يصحبها أخوها محمد بن أبي بكر ، وتقوم على حراستها ثلة من الرجال والخسم . وقدر لها أن تعيش بعد هذه المعركة زهاء عشرين عاما أخرى ، اعتزلت ابانها السياسة وانصرفت الى التأملات الطويلة والتهجد الى جانب ضريح الرسول، ويبدو أنها كانت تكثر الحديث فتروى لزاثيرها أو للحجاج الذين يقدون لزيارة قبر رسول الله ، القصص الكثيرة عن حياته .

ودخل على الكوفة في شهر يناير (كانون الثاني) عام ٦٥٧ ، أي بعد ثمانية أشهر من مقتل عثمان ، واتخذ منها عاصمة لخلافته .



كان السبب الظاهري للثورة على عثمان ، النقمة على مانسب اليه من محسوبية والى عماله من رشوة وقساد ، ولكن هذه الثورة لم تكن مجرد انتفاض على الأمويين . إذ أن ابن القبيلة العربي كان ولا يزال ديموقراطي النزعة والطبيعة . وينظر البدوي نظرة التجلة لاسرة الشيخ ولكنه يميل على الرغم من اعترافه بسلطان الشيخ الى تحديه وغصيان أمره دائما فهو لا يولع باحترام الالقاب والامتيازات . وينظر نظرة الامتهان لكل من يعيش في المدر والمدينة وقد ثار هؤلاء البدو على ارستقراطية الامويين لان الامويين كانوا في الحكم ، ولكنهم لم يكونوا راغبين في استبدال الهاشميين بالامويين وها هم يرون عليا الآن يعين ابن عمه عبد الله بن عباس لامارة البصرة ، ويشهدون بني هاشم يحيطون به من كل جانب .

وبالاضافة الى هذا العنصر من ازدياد البدو لكل من يتكبر ويتفطرس ، وجدت هنالك أيضا قوة أكثر خطورة واثرا ، وهي قوة الاشتراكية الدينية العميقة التي ينادى بها بعض المتعصبين من أمثال مالك الاشتر ، ولايتشيع هؤلاء المتعصبون لأحد ، لا لبنى أمية ولا لبنى هاشم ، وإنما هم يحلمون بقيام دولة يحكمها الله ، ويكون فيها أولياؤه ، هم الحاكمون المطلقون . ولا ريب في ان القاريء الانجليزى يذكر قيام فئة في الجيش أطلقت على نفسها اسم دعاة المساواة (Levellers) أو اشبياع الملكية الخامسة ، وذلك بعد اعدام شارل الاول ، وكان توماس هاريسون قائد هذه الشيعة متحاربا باسلا ، يريد من انجلترا أن يحكمها الله ، عن طريق وسطائه ،

الذين لا يتجاوز عددهم سبعين من الصالحين اسوة بمجلس «السانهديم» عند قدامى العبرانيين ، وكان يرى ان هؤلاء الصالحين هم الذين يقيمون حكم الله والقديسين . وسرعان ما نظر هؤلاء الناس الى اوليفر كرومويل (١) نظرتهم الى الطاغوت أو اله الخبيثة . ولا ريب في ان هؤلاء المتعصبين المسلمين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الخوارج . أخذوا ينظرون الى على، نظرة الانجليز من دعاة المساواة الى اوليفر كرومويل .

وكانت الفتنة قد أخذت تختمر في غضون ذلك في مصر . وعندما خرج العصاة من القسطنطينية الى المدينة في العام الفاتح أى في مستهل عام ٦٥٦ لحصار عثمان ، خرج رجل يدعى محمد بن أبى حذيفة فافتصب السلطة في مصر مستغلا فرصة هروب أميرها ابن أبى سرح ، الى فلسطين وعندما نودي بعلى خليفة على المسلمين فر ابن أبى حذيفة الى الشام ، واختار على محمد بن أبى بكر ، بعد واقعة الجمل أميرا على مصر . وكان محمد من الذين اشتروا في قتل عثمان ، فأدى تعيينه لهذا المنصب الى تصديق الناس لدعوى معاوية من ان عليا نفسه قد رتب خطة القتل ، ليتسلم زمام الحكم .

وكان عمرو بن العاص فاتح مصر ، يعيش في المدينة منذ اقاله عثمان من منصبه ، وكان من أشد ناقدى الخليفة الشيخ وشانئيه . ولكن عندما وصل العصاة الى المدينة وحاصروا دار عثمان ، انسёл عمرو من المدينة ، الى مزرعة يملكها في منطقة بئر السبع وحزم أمره بما عرف عنه من دهاء وسعة حيلة ، على أن يظل بعيدا عن الخلاف والأذى الى أن يتضح الجانب الفاتح في المعركة ، وعندما وصل اليه نبا مبشيرة على خليفة للمسلمين استشار ولديه فيما يجب عليه أن يفعله ، فأوصى أحدهما بأن يظل في عزلته في مزرعته ، بينما نصحه الثانى بأن يمضى الى معاوية في دمشق . ويقال ان عمرا رد على ولديه بأن السبيل الاول هو مايفرضه الدين ، وان السبيل الثانى هو ما يتطلع اليه الطموح الدنيوى ، ويكفى أن نقول ، بأن عمرا مضى الى معاوية في الشام ليربط مصيره بمصيره

(١) دب الصراع بين الملك شارل الاول وبين البرلمان في عام ١٦٤٢ واختار البرلمان اوليفر كرومويل لقيادة جيشه الذى أطلقوا عليه اسم « ذوى الرموش المستديرة » وقد تمكن كرومويل من هزيمة جيش الملك بعد معارك دامية وأسره ، ثم حاكمه وأعدمه وأصبح كرومويل حاكما مطلقا في انجلترا حتى عام ١٦٥٩ ، عندما مات ، لتعود الملكية بعد فترة وجيزة .

عندما بلغته انباء معركة الجمل وزحف «على» على الكوفة . ومن المحتمل ان يكون عمرو كارها لعل ، لسبب تجهله ولا نعرفه .

ولكن النقطة المهمة في الموضوع ان عمرا كان رجلا ذا دهاء وحدة ملاحظة ، وانه كان يسعى الى اعلاء مركزه الشخصي . واني لاكاد أجزم بأنه ما كان لينضم الى صفوف اعداء على ، بعد أن فاز هذا بمعركة ضخمة كمعركة الجمل ، لولا انه أدرك بثاقب بصره ان معاوية هو الفائز في النهاية . ويبدو لي ، انه كانت هناك نواح في شخصية على ، حملت الدهاة من الناس على توقع فشله ، ولا أستطيع أن أفترض شيئا سوى ان نواحي الضعف في هذه الشخصية تمثلت في التردد ، والميل الى المهادنة ، والميل الى الاستكانة وان عليا كان يفتقر الى الحيوية القاسية التي يحتاج اليها كل الاحتياج لتذليل هذه العواصف الهائجة في المجتمع المضطرب الذي كان يتطلع الى قيادته .

وجريا مع رغبته في تجنب الحرب مع معاوية بعث اليه على برسالة أخرى ، من الكوفة هذه المرة يطلب اليه فيها عدم الخروج على اجماع الامصار ، والاعتراف بخلافته ، ورد معاوية بأنه لن يبيع عليا الا بعد معاقبته لقتله عثمان . وأدرك على الآن ان المفاوضات لم تعد مجدية ، فخرج من الكوفة على رأس جيش قوامه خمسون ألفا من الرجال ومضى يسير صعدا مع نهر دجلة ، فاجتاز المدائن الى الموصل ثم اتجه غربا الى سنجار ومنها الى الرقة على نهر الفرات . وصعد مع النهر بعد أن عبره، ماشيا على ضفته الغربية الى أن التقى بجيش معاوية في صفين الى الشمال الغربي من الرقة .

يجري الفرات في هذه المنطقة في واد تحيط به تلال رملية منخفضة والوادي ضيق في معظم الاماكن . وقد لا يتسع عرضه أحيانا عن بضع مئات من الياردات ولكنه يتسع أحيانا أخرى ، تاركا مساحة من الاراضي المنبسطة على هذا الجانب أو ذاك .

وهكذا التقى الجيشان في شهر ابريل (نيسان) أو شهر مايو (ايار) من عام ٦٥٧ في مثل هذه الارض المنبسطة على شاطئ النهر ، تحيط بها الصحارى الرملية من الجانبين وتقول الروايات التي لا تخلو من المبالغة المألوفة ان كلا من الجيشين كان يعد خمسين ألفا .

وبدأ على ، كما فعل قبيل موقعه الجمل يعرض التفاوض على خصومه ، وكان معاوية في مزاجه أكثر ميلا للحذر والحيلة من على بن أبي

طالب ، ولذا فقد كان عزوفا عن أن يجازف بكل شيء في معركة واحدة ثابتة . واكتفى بأن يطلب معاقبة قتلة عثمان وكان على قد قطع شوطا بعيدا في طريق استحالة تحقيق هذا الهدف . فقد أوفد محمد بن أبي بكر ليكون أميرا على مصر . وكان الخارجي المتعصب مالك الاشتر أحد كبار القادة المسئولين في جيشه . ولا تعنى أية محاولة لالقاء القبض على الاشتر الا قيام فتنة في جيش الكوفة الذي يؤلف الشطر الاكبر من قوات على . وبدا ان ليس ثمة خلاص له من هذه الورطة . وحرى بنا أن نتذكر دائما بأن الثار العائلي كان ولا يزال يعتبر بالنسبة الى العرب واجبا مقدسا . وحتى النبي نفسه بما عرف عنه من تسامح ولين وميل الى الصفع قد أقر شرعية الثار(١) . وأنا لا أود أن أوحى هنا بأن معاوية لم يكن مدفوعا بطموحه الشخصي ، ولكنني أود أن أقول ان أنصاره كانوا يصدقونه ويعتقدون انه على حق في اصراره على الثار . وانهم كانوا لا بد أن يتخلوا عنه متهمينه بالجبن لو انه أظهر ميلا الى التفاهم .

وعندما وصلت المفاوضات الى هذه المرحلة من الجمود تحدى «على» معاوية على أن يسويا القضية بمبارزة شخصية بينهما تكون نتيجتها الحكم الفاصل بينهما . ولقد كان على من أعظم فرسان المسلمين في حروب النبي ، وكان لا يزال يفكر في هذه الناحية على الرغم من ان منظر الرجلين كان لا بد وان يبدو غريبا عند المبارزة ، لانهما كانا قد ترهلا ووصلا الى أوسط العمر ، يضاف الى هذا ان التحدى كان يفتقر على الرغم من انسجامه مع فروسية عهد الجاهلية القديم ، الى الحكمة وسداد الرأي من الناحية السياسية . فقضية على تقوم على الحقيقة الواقعة وهي انه الخليفة الشرعي ، ومن هنا كان مما يجفو المنطق أن يحمل صراعه طابع الصراع الشخصي ، وأن يظل على انه صراع بين الدنيا والآخرة . على أى حال رفض معاوية وهو السياسي الهادئ البارد الدم قبول تحدى خصمه معتبرا عن المبارزة .

وكانت المناوشات البسيطة والمبارزات الفردية مستمرة في غضون ذلك ، ولعل من الغريب كل الغرابة ان عدد الصحابة الى جانب معاوية

(١) اعتقد ان المؤلف اساء فهم كلمة «القصاص» في الدين الاسلامي والواردة في قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة يا اولى الالباب » فالقصاص لا يعنى الثار الشخصي وانما يعنى العقوبة العامة ، وشتان بينهما ، وليس ثمة من شك في أن الاسلام اعتبر الثار نزما من نزومات الجاهلية .

كان أكبر منه الى جانب على الذى تألفت قواته على الغالب من البدو ، وهكذا تحدى عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، الذى كان يحارب الى جانب معاوية محمدا بن على الذى يحارب الى جانب أبيه • على أى حال كانت الخسائر طفيفة طيلة شهرى مايو (ايار) ويونيو (حزيران) عندما كان الجيشان متقابلين فى ساحة المعركة •

ولا ريب فى ان هذا نجم عن الحقيقة الواقعة وهى ان أبناء القبيلة الواحدة بل أبناء الاسرة الواحدة كانوا موزعين على الجيشين المتحاربين • فالجنود المتقاتلون لا ينتمون الى أقوام مختلفة معادية • ولا حتى الى السوريين والعراقيين ، بل الى فيالق مختلفة فى جيش واحد ، فمعظمهم ان لم يكونوا كلهم ، ينتمون الى الجزيرة العربية اذ على الرغم من ان كثيرين منهم قد تزوجوا بنساء من فارس أو سوريا أو الروم ، الا ان الوقت الذى انقضى منذ وقعت الفتوحات لم يكن كافيا لنشوء طبقة جديدة من المولدين •

وبدأت السنة الهجرية الجديدة فى أواسط يونيو وكان شهر محرم ، من الاشهر التى يحرم القتال فيها منذ أيام الجاهلية • واهتبل الجيشان العازقان عن القتال هذه الفرصة ليتخذا منها مبررا لتأجيل الالتحام • ولكن القتال عاد الى الاستمرار بعد انتهاء محرم أى فى أواسط يوليو (تموز) عام ٦٥٧ ، ووقف الجيشان أخيرا متقابلين ليخوضا معركة حاسمة • وانقضى اليوم الاول فى قتال غير حاسم ، وأن فار فيه دم الجنود بحيث شرعوا يقاتلون فى اليوم الثانى بعزيمة هائلة • ووقف «على» فى وسط جيشه يحيط به لقيف من الرجال الذين جاءوا معه فى المدينة • ووقف جيش الكوفة الى الميمنة وجيش البصرة الى ميسرته • وتقدم عمرو ابن العاص فاتح مصر ، صفوف جيش معاوية وأجبر رجال الكوفة على التراجع فى حالة من الاضطراب والفوضى ووقف «على» مشرعا سيفه فى يده منظما صفوف جيشه ، وهو يبدى من الشجاعة ضروبا تشبه تلك التى أبرزته قبل ثلاثين عاما فى معركة بدر واحد •

ولكن مالك الاشتهر زعيم الخوارج كان بطل الميدان ، وظل يخوض المعركة بقوة فى الطليعة ، لاندرى سببها ، وهل كان الدافع اليها حماسه الدينية أو خوفه من انتصار معاوية الذى يعنى قتله بوصفه أحد قتلة عثمان. وهجم بأربعمائة من رجاله المتعصبين الذين يحفظون القرآن غيبا يشق صفوف الاعداء حتى كاد يمسك بمعاوية نفسه وعاد جيش سوريا فنظم صفوفه ، وأعاد الوضع الى نصابه ، واستمرت المذبحة المتبادلة

وسط الغبار ووهج ذلك اليوم الطويل المحرق من أيام يوليو (تموز) .
ويذكر القارئ ولا شك عمار بن ياسر الذي كان عمر بن الخطاب قد أوفده أميرا على الكوفة . وكان هذا الرجل المعتبر من المسلمين الاول قد طعن في السن الآن ، وقبل ثلاثين عاما جاءت قریش مع أحلافها تريد غزو المدينة . وقام المسلمون الاول ، وبينهم عمار تلبية لأمر النبي بحفر الخندق حولها . ورأى النبي عمارا وهو يحمل كيسا ثقيلا مليئا بالتراب على ظهره فحف لمساعدته ، وأخذ عنه حملة ، وقض عن رأسه وملابسه التراب وراح يقول له بذلك الحنّان الابوى الدمث الذي كان من أهم أسباب حب اتباعه له « ويح ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك ، انما تقتلك الفئة الباغية » ومن المحتمل أن يكون النبي قال قوله هذه مازحا ، موجها اللوم الى صحابته لاثقالهم العمل على عمار المتفاني في خدمة الرسول . ولكن هذا القول ظل بمثابة نبوءة (١) وقد قتل عمار في هذه المعركة الآن وفي يومها الثاني ، وهو يحارب من أجل «علي» ويهتف بصوت عال « يا للفردوس ما أدناها منى » ولا ريب في أن الفريقين كانا يجعلان ذكرى الرسول كل الاجلال ، اذ ان مقتل عمار اثار حمية رجال «علي»، وأنزل اليأس في قلوب رجال معاوية ، وذلك لان قول النبي عنى أن قتلة عمار كانوا يحاربون دفاعا عن قضية غير عادلة . وسارع عمرو بن العاص يعلن في الناس ان عليا هو الذي قتل عمارا لانه سمح له ، وهو الرجل العجوز بأن يقاتل دفاعا عنه .

وانتهى اليوم الثاني من القتال بصورة غير حاسمة أيضا ، واستمرت الحرب الى ما بعد حلول الظلام . وقد أطلق العرب على هذه الليلة أيضا اسم ليلة الهرير تشبيها لها بالقادسية . وكان مالك الاشتر يقاتل بكل ما عرف عن المتعصبين المتزمطين من حماسة واندفاع . ويرغم جيش معاوية على التراجع عن أرضه شبرا شبرا . ولاحق فكرة عبقرية أخرى في ذهن عمرو بن العاص من أفكاره العبقرية الكثر في صباح اليوم الثالث ،

(١) خلط المؤلف بين حادثي حفر الخندق وبناء مسجد الرسول . فلقد تحدث النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا الحديث كما تروى سيرة ابن هشام عند بناء المسجد في المدينة لا عند حفر الخندق فيها « ثم قال .. لدخل عمار بن ياسر وقد اقلوه باللبن فقال : يا رسول الله قتلوني، يحملون على ما لا يحملون . قالت أم سلمة لودج النبي (صلى الله عليه وسلم) فرأيت رسول الله ينفخ وثرته بيده ، وكان رجلا جسدا وهو يقول ' ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك انما تقتلك الفئة الباغية » . (العرب)

فاقترح على معاوية أن يحمل الفرسسان القرآن الكريم على رماحهم .
وأضاف ان تنفيذ هذا الاقتراح سيخلق البلبلة على الاقل في صفوف
جيش على ، اذ ان بعضهم سيؤيد فكرة وقف القتال ، بينما سيطالب
البعض الآخر باستمراره . أما اذا نجحت الفكرة فستؤدي على الغالب الى
انهاء المعركة التي أخذ النصر يتجه فيها بوضوح الى جانب على ، وأدرك
معاوية على الفور قيمة هذه الخدعة ، فأصدر أمره الى قوة من رجاله بأن
تتقدم الى الامام وقد حملت القرآن على رهوس الاسنة . وسرعان ما ارتفعت
المصاحف ، وسمع قائل يقول : « هذا كتاب الله عز وجل ، يحكم بيننا
وبينكم ، من لغفور الشام بعد أهل الشام ، ومن لغفور العراق بعد أهل
العراق » .

ولما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة ، واستمعوا الى نداء المنادين
قالوا «نجيب الى كتاب الله» . ودوى الصوت من الجيشين يقول : الحكم
لله وحده . وكان أشد المنادين عزمًا وأعلامهم صوتًا ، حفظة القرآن من
الالتقياء . وهتف «على» برجاله ، أن في الأمن خدعة ودهاء ومكيدة واحتج
مالك بن الاشتر على نداء القراء ، وكان النصر قد أصبح في متناول يده .
وعلا الضجيج من كل مكان جريًا على ما ألفه العرب . وصرخ الاشتر
بالقراء متهمًا اياهم بالجبن ، فردوا عليه قائلين ان لا بد من الاستماع الى
كلمة الله . وأخذ المنادون بوقف القتال من جيش على ، يدفعونه ويهددونه،
واتضح أخيرا ان جيش على بات عاجزًا عن القتال . وبعث على الى معاوية
يسأله عما يريد ويقترح ، فرد هذا بقوله : «نرجع نحن وانتم الى ما أمر
الله به في كتابه ، تبعثون منكم رجلا ترضونه ، وتبعث منا رجلا ، ثم نأخذ
عليهما عهدًا بأن يعملوا بكتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما يتفقان عليه» .

ووجد «على» نفسه مرغمًا على قبول الاقتراح، وذلك لان رجاله باتوا
غير راغبين في القتال . وراح الناس يصرخون بأنهم يريدون أبا موسى
الاشعري ممثلاً لهم أي لجيش على ، ويذكر القراء ولاشك ان أبا موسى
كان يحارب في فارس منذ أمد طويل ، وأنه كان أميرًا للكوفة قبيل
معركة الجمل ، فلما أراد منه على أن يحشد الجند في الكوفة ، رفض
الاذعان والاشترائك في هذه الحروب الاهلية التي يقاتل فيها المسلم أخاه
مما حمل عليًا على عزله ، ويبدو ان هذا الرجل كان محبوبًا من رجال
الكوفة . واحتج «على» على اختياره بحجة انه خذله في الماضي ولم يؤيده .
فلا يصلح ممثلاً له ، واقترح أن يختار عبد الله بن عباس ، ابن عم النبي،
أو مالك الاشتر ، ولكن الجنود وقد ألفوا الآن عصيانه ، عصوه ثانية

وأصروا على اختيار أبي موسى الأشعري • أما معاوية فقد اختار عمرو بن العاص ، الواسع الحيلة والدهاء ، وصاحب فكرة رفع القرآن الكريم على الرماح •

وهكذا انتهت معركة صفين ، دون أن يتحقق فيها النصر لأي من الجيشين المتحاربين •

سبق لي ان ذكرت اننا مفتقرون الى المعلومات التاريخية الصحيحة عن الاساليب التعبوية التي اتبعها الفاتحون العرب الاول . ولكن المؤرخين العرب يلمحون بعض التلميحات الخفية أثناء حديثهم عن الحروب بين علي ومعاوية هنا وهناك ، مما يلقي ضوءا ضعيفا غائبا يستطيع المؤلف استغلاله مع شيء من التقدير والعرفان للجميل • فقد روى هؤلاء المؤرخون على سبيل المثال ان عليا أوصى رجاله ولا سيما من المشاة قبيل معركة صفين ، بأن يقفوا صامدين كالطود الشامخ ، وذكر المؤرخون في جوانب أخرى في كتبهم ان المشاة كانوا ينظمون عادة في ثمانية صفوف أو أحد عشر صفًا • وكانت الرماح هي سلاح بعض هذه الصفوف ، بينما كانت الاقواس والسهام سلاح البعض الآخر • وعلى الرغم من أن وصف هؤلاء المؤرخين للمبارزات الفردية • والاشتباكات الصغيرة يوحى بأن هذه المبارزات والاشتباكات كانت لا تزال تحتل المكانة الاولى في المعارك ، الا انني لا أشك مطلقا في ان نظاما تعبويا مقيدا يفرض الانضباط والتدريب ، كان قد طبق الآن • ولم نعد نرى الآن قطعانا فظة من أبناء القبائل تندفع الى الامام سعيًا وراء النصر أو الشهادة • بل عدنا نرى وجود جيوش منضبطة ثابتة ، ذاتية الاعتماد على نفسها أو سريعة الاتكال على ذاتها ، بعد أن ألفت النصر وتعودته •

تواريخ بارزة

مقتل الخليفة عثمان	١٧ يونيو (حزيران) ٦٥٦
انتخاب علي للخلافة	٢٣ يونيو (حزيران) ٦٥٦
موقعة الجمل	ديسمبر (كانون الاول) ٦٥٦
معركة صفين	من مايو الى يوليو (ايار حتى تموز) ٦٥٦

شخصيات مشهورة

المطالبون بالخلافة :

تولى الخلافة فى المدينة	على ابن أبى طالب
قتل فى موقعة الجمل	الزبير بن العوام
قتل فى موقعة الجمل	طلحة بن عبيد الله
أمير سوريا	معاوية بن أبى سفيان
زوجة النبى	عائشة أم المؤمنين
محارب مخضرم ، أمير الكوفة ، رفض الانضمام إلى الحرب الاهلية	أبو موسى الأشعري
متزمت متعصب، وأحد العصاة الذين قتلوا عثمان وبات الآن من مؤيدى على	مالك بن الاشتر
فاتح مصر ، أخرجه عثمان وبات الآن من أقوى أنصار معاوية	عمرو بن العاص
ابن الخليفة الأول ، وأحد القادة الذين تولوا قتل عثمان ، اختاره على أميرا على مصر	محمد بن أبى بكر



الهرطقة والخلافات

« تكون الشرور النابعة من اضطراع المطامع محصورة عادة في الازمنة والبلاد التي يقوم فيها هذا الاضطراع لكن الخلاف الديني الذي نشأ بين محبي علي وخصومه، ظل يتجدد في كل عصر .. لكن هذه المعنة كانت من الضخامة بحيث هددت بالافساد اكثر الفضائل صلابة . ولم يعد المرشح الطموح ، قانعا بالسلطان في الجزيرة العربية القاحلة ، اذ ان ممالك فارس وسوريا ومصر الوافرة الثراء نغمت الارث الشرع للخلفاء وامراء المؤمنين » .

جيبون - انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها .

« لم يكن ثمة مؤمن صادق يشك في ان خليفة رسول الله هو الحاكم الشرعي للعالم بأسره ، لكن الخلاف في الراي يتسع حول من هو الخليفة الشرعي » .

فريمان - تاريخ العرب

وصل عمرو بن العاص ، ممثلا معاوية الى معسكر الخليفة بعد وقف القتال يحمل فكرة الوصول الى اتفاق خطي ، وعندما شرع ممثل على في اعداد مسودة الاتفاق ، بدأه بقوله : « هذا ما اتفق عليه أمير المؤمنين و ٠٠٠ » ولكن عمرا احتج جهارا بأن عليا أمير على جيشه لا على جيش سوريا . وكانت أهم نقطة ضعف في قضية على ، هي عدم وجود اجراء رسمي لاختيار الخليفة . فلقد اختير أبو بكر وعمر وعثمان بموافقة غالبية أهل المدينة ، وتم اختيار على بنفس الاسلوب أيضا . ولكن ليس ثمة في القرآن الكريم أية آية أو في سنة الرسول أي حديث أو إشارة يوضحان شرعية هذا الاجراء ، ولهذا فعندما رفض عمرو بن العاص توقيع أية وثيقة تنص على أن عليا هو ٠٠ أمير المؤمنين ، اضطر ممثل على الى الازعان والقبول . وهكذا نص على أن الاتفاق تم بين على ومعاوية على أن ينزل الطرفان عند حكم الله عز وجل في كتابه ان وجد . فان لم يوجد فسنة رسوله الله العادلة الجامعة غير المفرقة . وأضاف ان على جميع المعنيين أن يرضوا بما يصدره المتقاضيان من حكم ، مع تعهد الحكيم بمراعاة العدل ، وقرر الاتفاق وقف القتال الى أن يصدر القاضيان حكمهما ، وقد رفض مالك الاشر رفضا باتا التوقيع على هذه الوثيقة .

ولعل من المضحك أن يجد على نفسه، وقد كان قبل يوم أو بضعة يوم قاب قوسين أو أدنى من النصر النهائي الكامل قد حرم من ثمرة نصره ، كما أجبر وهو الخليفة الشرعي المنتخب ، بإرادة الله ، على أن يقبل وضع المساواة مع معاوية بن أبي سفيان . وكان من سوء طالعها أيضا ، أن تكون هذه المناورة كلها ثمرة دهاء عمرو بن العاص ممثل معاوية في التحكيم ، وان يكون ممثلها هو فيه ، أبا موسى الأشعري الرجل الذي أعلن موقفه الحيادي جهارا . وكان أبو موسى على أي حال رجلا ذا روح تقيية ورياسة وطبيعة عسكرية بسيطة ، لا معرفة له بشئون الجدل والنقاش، ولا براعة في حلبة السياسة وكان هذا التصديق ثمرة الانضباط في جيش على ، اذ توقف هذا الجيش عن القتال عندما ارتفعت المصاحف على ردوس الرماح ، واذا أصر على اختيار قائده العجوز السابق الورع ممثلا له في هيئة التحكيم . ولكن هذا الافتقار الى الانضباط انما نشأ في الاصل عن موقف على نفسه ، اذ انه كان الى حد كبير مستولا عما وقع من فوضى

يسماحه للعصاة بقتل عثمان ، وكان هذا القتل سبباً في اختفاء حالة القداسة التي كانت تحيط بمركز الخليفة حتى ذلك الحين . ومن المحتمل أن علياً لم يكن قادراً على انقاذ عثمان ، والعصاة المسيطرون على المدينة ، ولكنه لم يكن في حاجة إلى تعريض نفسه إلى مزيد من النقد باستخدامه قتل عثمان كتعيينه محمد بن أبي بكر أميراً لمصر ، ومالك الأشتر وصحبه قادة في جيشه . وإذا ما ضربنا صفحا عن شخصيتي المتنافسين نرى من الصعب علينا أن نتجنب الاقتناع بأن ثمرة ما وقع كانت مفاجئة للإسلام والمسلمين ، ولو قلنا لجيش على أن يواصل حربه حتى النصر النهائي في صفين . لاختفى بنو أمية في زوايا النسيان ، ولظل المسلمون كتلة واحدة غير مجزأة فقد أثبتت الأيام أن الخلاف بينهم وبين بني هاشم قد فرق الوحدة الإسلامية من قمعتها إلى قاعدتها ، وما زالت ثمرة هذا التصعد ماثلة أمامنا حتى يومنا هذا .



وعاد على بعد توقيع الاتفاق إلى الكوفة ، كما عاد معاوية بدوره إلى دمشق . وكانت الخسائر التي منى بها الفريقان في اليومين الأولين من القتال العنيف في صفين ثقيلة للغاية ، وارتفعت إشارات الحداد على كل بيت في كل من الكوفة ودمشق ، واشتد استياء أهل الكوفة من الحقيقة الواقعة ، وهي أن علياً قد هزم من الناحية السياسية إن لم يكن من الناحية العسكرية . وكان في مكنتهم أن يحتملوا خسارة مثل هذا العدد الضخم من الرجال لو أن النصر قد تحقق لهم ، حاملاً معه السلام . أما الآن فما زال كل شيء في أتون الانصهار وقد سمح الجنود لأنفسهم في خضم الحماس الذي أوجدته الظروف ، بأن يخلعوا بما حمله شعار « الحكم لله » من آثاره . أما الآن فقد تبين لهم أن التحكيم لا يعني سوى تقرير موضوع الخلافة وهل تكون لعلي أو لمعاوية ؟ وإذا تمت الخلافة لعلي فسيحكمهم بنو هاشم . أما إذا تمت لمعاوية فسيحكمهم بنو أمية . ولا يرى البدوي العادي أو الجندي كبير فرق بين هؤلاء أو أولئك . ولقد سمعوا من النبي وقرأوا في كتابهم أن المسلمين أخوة . ومع ذلك فقد غدت الامبراطورية العربية التي فتحوها بسيفهم مزرعة خاصة بقريش التي يحتكر قادتها مناصب الإمارة في الأمصار فيظلمون ويستغلون ويبتلعون أمة محمد . وهم لم يقتلوا عثمان إلا ليحطموا هذه الامبراطورية الدنيوية التي أقامتها قريش . وما يبحثون

عنه هو اقامة جمهورية دينية يتساوى فيها جميع المسلمين تنفيذا لكلمة الله (١) .

كان رجال الكوفة يتناقشون في مثل هذه المواضيع ، وهم في طريق عودتهم . كاسفى الببال الى قاعدتهم من صفين . وادى هذا الوضع الى انفصال نحو من اثني عشر ألفا من جيش على ، وهم ثلث هذا الجيش تقريبا ، وخروجهم عنه اذ ظلوا يسرون في خط مواز لسيير بقية الجيش . فلما وصل الجيش الى الكوفة ، رابطوا هم على بعد بضعة أميال منها في مكان يدعى حروراء . وراحوا يعربون عن ندمهم لانهم قبلوا التحكيم الذي لا يمكن أن يؤدي مهما كانت نتيجته ، الا الى ظهور طاغية جديد من طغاة قريش يحيط به جماعة من أقربائه الطامعين في الملك والجاه . وحزموا أمرهم على أن يعملوا لاقامة دولة دينية : الحكم فيها لله وحده . وأوفد على اليهم أحد كبار أنصاره وهو عبد الله بن عباس ، ابن عم النبي . لاقتناعهم

(١) لو صح تحليل المؤلف للموقف على انه نقمة من العرب على سلطان قريش لتحتم أن يقف العرب في جيش معاوية حين هذا الموقف الذي وقفه العرب في جيش على كما يدعى المؤلف ويبدو لي أن المؤلف يريد أن يتجاهل تأثير العوامل الشعبية التي كانت تلح على تنظيم الدولة الاسلامية ثارا منها قومياتها التي اذعنت للعرب . فهو يصور هذه الدوافع الشعبية على انها دوافع مربية ، وأن القتالين بها هم البدو نقمة منهم على أهل الحضر عامة وقريش خاصة . لكن الحقيقة كل الحقيقة انها كانت دوافع شعبية ينادى بها الشعوبيون وأغلبهم من الفرس الذين وجدوا لهم في أرض الكوفة مرعا خصبا .

وأود أن أضيف الى هذه الدوافع الشعبية اثر العامل الشخصي في النزاع . فلقد كان على ومعاوية على تباين تام . فعلى يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره في اشيائهم فكيف يراه لمعاوية الذي ينظر اليه على انه من الطلقاء اولاد الطلقاء الذين حاربوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعادوه . ولم يدخلوا الاسلام الا كرها وهو يرى أن الناس قد بايروه خليفة على المسلمين وأن هذا حق عادي اليه بعد أن سلبه اياه عثمان وأن معه نصف الامة بينما كلن معاوية يرى نفسه عظيما من عظماء قريش لانه ابن شيخها ابي سفيان ولأن النبي وخلفاءه الثلاثة قد وثقوا به قولوه امانة الشام . وقد تقم على على تماليه عليه ، ومزله اياه . ورأى أن حق على في الخلافة قابل للمناقشة لأن الكثيرين من الصحابة رفضوا بيعته . ولأن قتلة عثمان هم الذين نذبوه للخلافة ثم آواهم في جيشه ولم يقتص منهم .

ومن هنا يتبين وجود الدوافع الشخصية في النزاع بالإضافة الى اثر العوامل الشعبية ، وليس للاسلام شأن به كما يحاول المؤلف أن يوحى الى قرائه بصورة خفية .

(العرب)

• بالعودة الى الجيش • وقد رضى بعضهم بالعودة ولكن غالبيتهم رفضتها واختارت لها زعيما منها • وذهب على آخرها بنفسه الى حروراء حيث ناقش الناقمين ، وأقنع جلهم ولو مؤقتا بالعودة الى أهلهم في الكوفة •

واجتمع الحكماء في أزرع الواقعة في شرق الاردن والتي تبعد ثلاثين ميلا الى الشمال الغربى من معان في يناير (كانون الثانى) عام ٦٥٨ أى بعد ستة أشهر من توقيع اتفاق صفين • وكان مع كل منهما أربعمئة رجل من جماعته • كما شهد التحكيم عدد من الصحابة وفضلاء القوم كمراقبين وكشهود بينهم عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة وهما ولدا قتيل معركة الجمل الزبير وطلحة •

استهلت أعمال التحكيم باجتماع خاص عقده الحكماء عمرو بن العاص ممثلا معاوية وأبو موسى الأشعري ممثلا عليا • ويمكن لنا أن نستخلص من الروايات المقتضبة التى أوردها المؤرخون العرب الحقائق التالية ••• راح أبو موسى الجندى التقى الساذج المؤمن بالحياد يلحف على ضرورة الوحدة بين المسلمين ويؤكد مسئولية الحكمين فى وضع نهاية للحرب الأهلية ، وهى عواطف أيدته عمرو فيها كل التأكيد ، وراحا بعد ذلك يبحثان فيما إذا لم يكن من الخير بالنظر الى العداء المستحكم بين علي ومعاوية أن يتفق الحكماء على خلعهما معا، واختيار خليفة جديد للمسلمين • واقترحت أسماء عدة، ولكن بعض الاعتراضات ألحقت على كل اسم، وكانت كافية لاستبعاده • ويقال ان أبا موسى اقترح بعد ذلك خلع كل من علي ومعاوية • وترك أمر اختيار الخليفة شورى بين المسلمين دون أن يبين كما يقول المؤرخون العرب الطريقة التى يتم فيها هذا الاختيار • وسرعان ما أيد عمرو هذا الاقتراح الحكيم الذى تقدم به زميله • ويبدو من الواضح أن غمرا الداهية كان يحاول خداع رفيقه السليم النية ، مؤجلا دائما إبداء رأيه ، ومقدما زميله وهو متأهب لاغتنام فرصة أى خطأ قد يقع فيه •

وبعد أن اتفق الحكماء على خلع كل من علي ومعاوية ، والسماح للشعب باختيار خليفته الجديد ، خرجا من الخيمة التى كانا يعقدان الاجتماعات فيها الى المكان الذى كان الناس مجتمعين فيه یرتقبون النتيجة بانفاس تكاد تنقطع لهفة على معرفتها وأعلن أبو موسى بصوت جهورى ان الحكمين قد اتفقا على قرار واحد ، وأيده عمرو فى قوله ثم تنحى جانبا • راجيا من أبى موسى بوصفه أكبرهما سنا وأرفعهما مقاماً أن يتكلم أولا ، وخدع الرجل الطيب بما أبداه له عمرو من الاحترام والاجلال • اذ كان

ينظر الى الحياة نظرة بريئة من المكر • فانطلق بصوته الجمهورى يعلن ان الطريقة المثلى لاعادة السلام الى صفوف الساعين تتمثل في خلع على معاوية • وسيكون من حق المسلمين أن يختاروا بعد ذلك من يجدونه صالحا للخلافة ، وأكد انه وافق على عزل من يمثله ، وهو على بن أبى طالب •

وتراجع أبو موسى ليحل محله عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه وقال : ان هذا قال ماقد سمعتم ، وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه • وأثبت صاحبى معاوية فهو ولى عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه •

وهكذا كسب عمرو بحيلة ماكره معيبة نقطة أخرى فى الصراع لمعاوية وأحاط أنصار على بأبى موسى يصيحون فى وجهه معربين عن سخطهم ونقمتهم ، فيرد عليهم الجندى الشيخ قائلا : «ماعساى أفعل • لقد وعد بأن يعلن ماأعلنه ثم نكث بوعده» وانهال اللوم على الشيخ من كل جانب ففر الى مكة حيث قضى أيامه الاخيرة بعد عمر طويل صرفه فى الجهاد فى سبيل الله ورسوله فى التهجد والعبادة وحياة النسيان •

ولم يؤد هذا التحكيم الشاذ الى أية نتيجة سوى توسيع شقة الخلاف والمزيد من توتر العلاقات ، فقد رفض على وأصحابه بالطبع نتيجة التحكيم ، التى لم تعد فى جوهرها أن تكون خدعة شفوية ضعيفة ، وان دفعت معاوية فى دمشق الى اشهار رغبته فى الخلافة ، وحمله الناس على بيعته خليفة للمسلمين ، وأخذ المصلون فى مسجد الكوفة يلعنون بعد ذلك اليوم معاوية وعمرو بن العاص ورفاقهما ، بينما أخذ الناس فى مسجد دمشق بعد ذلك اليوم يحملون على على وعلى سليلي رسول الله الحسن والحسين اللذين كانا قررة عين النبي محمد •



ولم تكد تعلن نتيجة التحكيم حتى عاد الخوارج فى الكوفة الى عصيانهم وأعلن هؤلاء تقززهم من هذا الاضطراب فى سبيل السلطة الدنيوية بين أمراء أعمتهم شهوات الدنيا وراحوا يشهرون أنهم لا يقبلون إلا حكم الله ، فغدا شعارهم منذ ذلك اليوم «لا حكم الا لله» • وحاول على بما عرف عنه من صبر أن يتفاهم معهم عن طريق الاقناع ولكن محاولاته باءت بالفشل وأخذوا بعد نحو من شهر من اعلان نتيجة التحكيم يتسللون من بيوتهم واحدا اثر آخر ، من قاعدتى الكوفة والبصرة ، ليلتقوا على

• موعده ضربوه وليختاروا أميرا لهم • وكانت غايتهم أن يقيموا مجتمعا ينفذ فيه حكم الله ، وان اتفقوا لإدارة الأعمال اليومية على اختيار مجلس من الرجال الصالحين • وفشلت محاولة لهم للسيطرة على المدائن • فراحوا يمشون صعدا مع نهر دجلة إلى أن وصلوا إلى موقع يدعى النهروان على مقربة من مكان بغداد الحديثة حيث التقى أربعة آلاف منهم •

وقرر على الآن في شهر مارس (اذار) من عام ٦٥٨ حشد جيش جديد ينقل عن طريقه الحرب إلى سوريا من جديد • ولكن الخوارج كانوا في هذه الآونة قد بدأوا يعتمدون على المناطق المجاورة • وأصبح من المتعذر أن يعضى على في تنفيذ خطته بالزحف على سوريا تاركا مؤخرته في العراق عرضة لاجتياح الهراطقة وأعمال سلبهم ولهذا توجه بجيشه أولا لحربهم ، فهزمهم بسهولة عند النهروان. لأن جيشه كان يفوقهم عددا بنسبة عشرة إلى واحد • وقتل من الخوارج في المعركة نحو من ألفين • دون أن يخسر جيش على أية خسائر ، وكان الخوارج يهتفون «الجنة ، الجنة» وهم يندفعون بصدورهم لمقابلة رماح المسلمين •

• وعاد الجيش إلى الكوفة بعد أن زال خطر حشد الخوارج في الكوفة • وكانت الغاية من العودة في الظاهر أعداد الترتيبات الأخيرة لغزو سوريا • ولكن لحق الفتور حماسة الناس لقضية على إبان فترة الانتظار الطويلة • وراح عدد كبير من الجنود يفرون من الجيش عائدين إلى بيوتهم • ولم تعد خطب على ونداءاته تؤثر عليهم وتحملهم على الاستجابة وعندما رأى في النهاية أن الناس لا يلبون نداءه قنع بقضاء الله وقدره • وتخلّى عن فكرة الحملة كلها • وظل معاوية الحاكم المطلق الذي لا ينازعه أحد سلطانه في سوريا ، بينما ظل على يحكم العراق حيث يقض عليه الخوارج مضجعه ، وحيث فتر حب الجنود المزيفين له من أهل الكوفة والبصرة •

وكان على قد أوفد في غضون ذلك محمد بن أبي بكر ليتولى إمارة مصر • وكانت صورة الخليفتين المتحاربين في سبيل الحكم قد حطمت أمام الناس مثالية الاسلام المقدسة واضعفت من احترامهم لسلطة الخليفة • وكان العرب في مصر منقسمين في ولائهم فبعضهم يؤيد عليا • والبعض الآخر يميل إلى معاوية ويطالب بالثأر من قتلة عثمان ولا ريب في أن عليا تنكب سبيل الحكمة ، عندما عين لامارة مصر في هذه الظروف أحد المتهمين بقتل عثمان • ومع ذلك لو أظهر محمد هذا شيئا من التعقل والفطنة لسارت الأمور على خير ما يرام • ولكنه سارع إلى البطش ، فأوفد

جثوده لعقاب كل من يشتبه في عطفهم على معاوية ، وهزم هؤلاء الجنود في معركة مع أشياخ معاوية . وهكذا أثار الأمير الجديد كراهية الشعب دون أن يوحى له باحترام السلطة .

وعندما أدرك على عجز محمد بن أبي بكر عن إعادة النظام الى البلاد دفعه يأسه الى إيفاد مالك بن الأشتر الشديد التعصب والقوى الشخصية والبأسل الروح لتولى زمام الامارة في مصر . ولكنه ما كاد يعبر الحدود الى مصر حتى مات ميتة غامضة عند القلزم (السويس) ، وقيل ان رسولا من معاوية قد دس له السم في طعامه . وكان معاوية قد وصل في تلك الآونة الى فلسطين حيث حمل الناس على اعلانه خليفة للمسلمين في القدس .

وكان معاوية أكثر اهتماما بمصر منه بسيطرة على العراق وفارس . وكان يرى انه اذا وقفت مصر قوية وراء على بن أبي طالب ، فانها تصبح قاعدة له يستخدمها في غزو فلسطين وسوريا . يضاف الى هذا ان موارد مصر هي من الضخامة بحيث ان ايا من الخليفين المتنافسين يضع يده عليها يكسب ميزة هائلة على خصمه واتاح سوء ادارة محمد بن أبي بكر للبلاد الفرصة المواتية لمعاوية . فعهد الى عمر بن العاص باحتلال مصر للمرة الثالثة على رأس قوة قوامها ستة آلاف جندي . وكان عمرو قد احتل مصر مرتين من الروم وما هو ذا يعد لاستخلاصها مرة ثالثة ولكن من اخوانه المسلمين .

ووصلت أنباء الغزو المتوقع الى محمد بن أبي بكر . فبعث وهو فزع الى على بن جراح السرعة يناشده ارسال المعونة السريعة . ودعا الخليفة الناس الى اجتماع عام في مسجد الكوفة . وقرأ عليهم رسالة أمير مصر ، ناشدهم جمع جيش في الأرض الفسيحة خارج الكوفة في الصباح التالي ليسير الى مصر . ولكن عندما مضى على في اليوم التالي الى مكان الاجتماع لتسجيل المتطوعين . لم يجد متطوعا واحدا يتقدم اليه وانتظر وحيدا بضع ساعات ثم عاد الخليفة البائس الى منزله . ودعا كبار الكوفة لزيارته وتحدث اليهم بمراة عميقة والأسى يحز في نفسه ، برما بهذا التقاعس الواضح عن نصرة المسلمين له . وراح يعرب عن دهشته من أن تستمع الدهماء لمعاوية وتلبى نداءه عندما يدعوها الى القيام بحملتين أو ثلاث حملات في السنة . مع انه لا يعنى بها ولا يدفع لها دفعا طيبا وان يتقاعسوا عن تلبية نداءه مع انه يحسن معاملتهم . ولا ريب في أن عليا كان محقا في دهشته . فتقاعس الناس عن تأييده

أمر يثير الحيرة حقاً ، فهو أحق بالخلافة من معاوية . وكان يبرزه في الاسلام ويفوقه علماً وتقياً ووعياً وميتلاً الى التفاهم والعقل واجتناباً لسفك دماء المسلمين . ولكن كل هذه الفضائل كانت تفتقر كما يبدو الى ما يكملها من لمح العبقريّة ، ومن مغناطيسية القيادة وهي أمور يحتاجها القائد في تلك الايام الحاشدة بالجيشان رغم ما فيها من بطولات .

وكان عمرو بن العاص قد غزا مصر في غضون ذلك بسنة آلاف رجل . ولم يكن في وسع محمد بن أبي بكر أن يحشد أكثر من ألفي رجل من مؤيدي علي ، قادهم بنفسه لمواجهة الغزاة ولكنهم هزموا وتفرقوا بدون قتال تقريباً مخلفينه وحده في الميدان ، وفر محمد ماشياً وحاول أن يجد له مأوى أميناً في قرية خربة ، ولكنهم سرعان ما عثروا عليه وجروه منها جراً . وكان أنصار معاوية ساخطين أشد السخط على محمد ابن أبي بكر اذ كان الرجل الاول فعلاً في مهاجمة عثمان الشهيد . وبعد ان أفرغوا جام نقيمتهم على ضحيتهم المسكينه بتعذيبه قطعوا رأسه وربطوا جثته بجلد حمار ثم ألقوا بها في نار مشتعلة . ووطد عمرو بن العاص أقدامه ثانية في مصر أميراً لها معترفاً بسيادة معاوية على انه أمير المؤمنين .

وهكذا أخذت قضية علي تسير نحو التدهور في كل مكان . فلقد نشبت ثورة حتى في البصرة تأييداً لمعاوية . ولم تخمد الا بعد قتال محلي عنيف ، ورفعت جماعة من الخوارج راية الثورة في فارس ، لا تأييداً لمعاوية وإنما مطالبة بحكم الله . وكان الفرس آخر من اذعن قبل بضع سنوات لحكم العرب . وعلى الرغم من أن الفرس لم يكونوا من المسلمين الا أنهم أيدوا الخوارج في ثورتهم ضد الفاتحين ، ولم تخمد هذه الثورة الا بعد مشقة هائلة ، ولكن هذا الاخمد كان جزئياً ، وسرعان ما انفجرت الثورة من جديد في كرمان . ولقد سبق لي أن أوردت اسـم زياد ووصفته بأنه من أكثر الإداريين كفاية . وكان زياد هو الشاهد الرابع في قضية الزنا التي اتهم فيها المغيرة بن شعبه . ولكنه عاد عن أداء الشهادة . وقد ولد زياد عن سمية وهي امرأة من الطائف كانت زوجاً شرعية لمولى من الروم . ولكن الشبهات كانت تلوك سمعتها في مكة في الجاهلية . ولذا فقد ولد زياد وهو لا يعرف له أباً ، فأطلق الناس عليه اسم زياد بن أبيه . وقد عينه على الآن أميراً لفارس وكرمان . وسرعان ما أعاد النظام اليهما ، وأقام مركزه في

اصطخر ، مدينة برسيبوليس القديمة . حيث حكم منها الاقسام .
الجنوبية ، بشكل لا يقل كفاية عن حكم معاوية لسورية .

وثقلت موازين معاوية الآن بالنسبة الى موازين على . وتحول
معاوية الى الهجوم ووقعت عدة غارات من سوريا في النصف الثاني من
عام ٦٥٨ وفي عام ٦٥٩ هددت سيطرة على العراق نفسه . ووصلت
بعض هذه الغارات الى عين التمر والانبار ، التي لا تبعد أكثر من (١٧٠)
ميلا عن شمال الكوفة وغنم رجال معاوية الكثير من الغنائم وأخلوا عددا
من الاسرى . ولم يستطع على اتخاذ أى اجراء مضاد لان رجال الكوفة
كانوا راغبين عن القتال وقاد معاوية بنفسه غارة عبر بها الجزيرة من
الرقعة حتى الموصل دون أن يلقي أية مقاومة ، ووقع ما هو أسوأ من هذا .
في عام ٦٦٠ فقد زحف جيش من سوريا على الحجاز ، واحتل مكة
والمدينة واتجه الى اليمن أيضا . وادغم الناس ارغاما في كل مكان
تحت وطأة التهديد بالسيف على البيعة لمعاوية . وتخلي عامل على في
اليمن عن منصبه وفر الى الكوفة . ولكن لم يكن جيش الشام يعود الى
دمشق ، حتى وصلت قوة من الكوفة تعد أربعة آلاف رجل وارغمت
الاهلين على نقض بيعة معاوية والعودة لبيعة على ، ومع ذلك فقد أخذ
ضعف على يتضح يوما بعد آخر .

لكن أسوأ النكبات كان لا يزال طى الغيب . فلقد سبق لي أن ذكرت
ان عبد الله بن عباس ، ابن عم النبي وعلى ، هو أكثر الناس صلة بعلي ،
وأقربهم الى ثقته وقد اختاره أميرا على البصرة . وحدث أن وجه اليه
على سؤالا عن بعض تصرفات شكوا الناس منها أثناء ادارته للبصرة .
فاستاء عبد الله وفارق مركزه وترك البصرة متجها الى مكة . وانتقلت
العدوى الى أهل على نفسه ، أذ تخلى عنه أخوه عقييل بن أبي طالب
والتحق بمعاوية .

وقد قدر لبنى أمية بعد سنوات طويلة أن يختفوا من الوجود
تقريبا ، كما قدر لأتباع على وأحفاد العباس أن يحكموا لقرون عدة .
ويوصف التاريخ عادة بأنه دعاية الفريق المنتصر أو الفريق الذى يبقى
على الاقل . وكان بنو أمية قد اختفوا من عالم الوجود عندما اتيح
للإمبراطورية العربية أن تصل الى تلك المرحلة من النضج التي تصبح
فيها الامة مهتمة بشئون الماضي بحيث تخلف المؤرخين وتلداهم . وأدت
هذه الحقيقة الى أن يصور التاريخ العربى عامة عليا على انه قديس من

القديسين أو انه على الاقل رجل يفوق معاوية ديناً وعلماً وخلقاً . وإذا ما قبلنا هذه التواريخ على علاقتها ، صعب علينا أن نفسر الاسباب التي دعت معظم الناس الى التخلي عن على وتأييد معاوية . ونجد أنفسنا مرغمين على قبول أحد تفسيرين أولهما ان شخصيتي الرجلين قد صورتا على غير حقيقتهما . وثانيهما أن طبيعة البدوى العربى المتميزة بالعنف والجيشان لا تتأثر الا بالقوة . ونحن لا ننكر أن عليا كان تقياً ومخلصاً ، وكان ميالاً الى قبول الحلول الوسط وتجنب سفك الدماء . ولكن هذه الصفات نفسها جعلته ميالاً الى التردد والضعف وكانت شخصية معاوية الحازم وذا الكفاية وشخصية عمرو بن العاص القوية والمفتقرة الى الاستقامة أكثر تقبلاً للناس فى ذلك العصر . ولا ريب فى أن الرجلين كانا يملكان القدرة الخفية على القيادة بينما لم يكن فى وسع على أن يعمل شيئاً سوى المناقشة والرجاء .

وأدى تبادل الرسائل بين الخليفين المتنافسين الى عقد نوع من أنواع الهدنة وذلك فى نهاية عام ٦٦٠ ، وتوقفت المناوشات الفعلية بينهما . وظل على مسيطراً على العراق وفارس بينما امتدت سيطرة معاوية الى سوريا ومصر . ولعل من الغريب ان الحد الذى فصلهما عن بعضهما كان عين الحد الذى فصل فى الماضى بين بيزنطة وفارس . وبات معاوية خليفة قيصر بينما لبس على لباس الأكاسرة .



وعلى الرغم من أن هذا الحل الدنيوى قد يكون مرضياً للحاكمين المتنافسين الا أنه لا يستطيع بأى حاله من الاحوال أن يرضى المسلمين الشديدي التعصب لاسلامهم فلقد فرق هذا الحل الامبراطورية . وأوقف مدى الفتوحات العربية لا سيما وقد تحولت سيوف المسلمين لضرب المسلمين . ولعل ما هو أسوأ من هذا أن معاوية رغبة منه فى أن يكون مطلق الحرية فى مواجهة خصمه على ومضمون المؤخرة عقد اتفاقاً مع امبراطور الروم اقر فيه بدفع جزية سنوية الى الامبراطور . وإذا كان بعض المسلمين الصادقين قد قنعوا بالانسحاب من مثل هذه الصورة المحزنة وآثروا عليها العيش بهدوء فى التهجد والعبادة والدرس ، كما فعل أبو موسى الأشعرى مثلاً ، فإن الخوارج كانوا من معدن أكثر صلابة وقوة ، وقد حزموا أمرهم الآن على انهاء هذه الحصومات بالقوة .

وقد اجتمع ثلاثة من هؤلاء الخوارج فى مكة اواخر عام ٦٦٠

وكانوا يتبادلون الشكوى من هذا الوضع الذى وصل اليه الاسلام عندما اقترح احدهم مخرجا ، وهو أن توضع نهاية للأئمة الثلاثة المسئولين عما نزل بالمسلمين من نكبات • وتعهد كل واحد من هؤلاء الثلاثة بقتل الرجل الذى أوكل اليه قتله • وهكذا وعد عبد الرحمن بن ملجم بقتل على وعبد البرك بن عبد الله التميمي بقتل معاوية وعمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص ، وتقرر أن تتم عملية القتل الثلاثية الاطراف بعد صلاة الجمعة في الرابع عشر من رمضان للسنة الأربعين من الهجرة الموافق للعشرين من يناير (كانون الثانى) عام ٦٦١ • وبعد أن تعاهد الرجال الثلاثة على تنفيذ القرار ، وغمس كل منهم سيفه في السهم خرج المتعصبون من مكة كل منهم في طريق لتنفيذ القرار • وفى اليوم المقرر شهد ابن بكر صلاة الظهر في جامع الفسطاط ، وهي صلاة يؤمها الامير في كل بلد اسلامي • وشهد الخارجى على الرجل الذى يؤم المسلمين في الصلاة فقتله لتوه • ولكن حدث في ذلك اليوم لحسن طالع عمرو بن العاص انه تخلف عن الصلاة لمرضه ، وعهد الى شخص آخر بأن يؤم الناس في الصلاة . وعندما ساقه الناس الى عمرو ، قال الخارجى له بكل جراءة . لقد كنت أنت المقصود بضربة سيفي • فرد عمرو • «أردت قتلى ، وأراد الله قتلك(١)» وأمر بإعدامه على الفور • وفى دمشق أصاب سيف البرك معاوية بجراح ، ولكن الضربة لم تقتله (٢)

وعندما أذن المؤذن للصلاة في اليوم الموعد في الكوفة ، خرج على من منزله يقصد المسجد • وعندما مر ببابه فاجأه ابن ملجم بسيفه على رأسه فشق جمجمته واعتقل القاتل وأعدم ثم أحرقت جثته . وعاش على حتى عشية اليوم التالى ثم توفاه الله (٣) •

(١) يبدو أن المؤلف قد أخطأ في فهم الرواية العربية إذ ذكرت كتب التاريخ العربى أن خارجة بن حذافة صاحب شرطة عمرو بن العاص هو الذى قتل في ذلك اليوم إذ كان يؤم المسلمين نيابة عن عمرو ، ولذا فقد قيل ... أراد عمرا وإراد الله خارجة .

(٢) تقول الروايات الاسلامية ان البرك قدم لمعاوية في ذلك اليوم فلما خرج شد عليه السيف فوقع السيف في البتة وهولج من الضربة • وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه إذا سجد •

(٣) تقول الروايات الاسلامية ان قتل على وقع ليلة الجمعة الخامس عشر من رمضان عند صلاة الصبح لا صلاة الظهر كما يقول المؤلف • وقد عاش رحمه الله بعد الضربة يومى السبت والاحد وتوفي ليلة الاحد السابع عشر من رمضان ، لا عشية اليوم التالى كما يقول المؤلف • « العرب »

وقد أضافت الروايات لمسة عاطفية الى قصة هذه الجريمة الفظيعة .
 خُقد قيل ان ابن ملجم عشق امرأة من الخوارج تدعى قطام ، قتل على
 أباه وأخاه يوم النهروان فلما خطبها ابن ملجم ، طلبت مهرها ثلاثة
 آلاف درهم وقتل على بن أبي طالب . وقد قال فيها الفرزدق شاعر بني
 تميم ، التي ينتمى اليها كثيرون من الخوارج في الكوفة مخلدا ذكر
 الجريمة .

فلم أر مهرا ساقه ذو سمحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
 ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المصمم
 فلا مهر أغلى من على وإن غلا ولافتك إلا دون فتك ابن ملجم (١)
 كان على في الستين من عمره عندما قتل (٢) ، ولا يعرف على وجه
 التحقيق المكان الذي دفن فيه (٣) ، ويقول البعض ان أتباعه دفنوه سرا
 مخافة أن ينبش الخوارج عليه . وكان قد بنى في فتوة بفاطمة الزهراء
 ابنة النبي . ولم يتزوج عليها حتى توفاه الله . وقد ولدت له الحسن
 والحسين الطفلين اللذين كان رسول الله يحب أن يلعب معهما ويضحك ،
 وقد توفيت فاطمة بعد وفاة النبي بمدة قصيرة فتزوج على بعدها عدة
 نساء ، ولبن له أحد عشر ولداً وخمس عشرة ابنة . ويقول السيوطي
 انه خلف عند وفاته تسع عشرة سرية بالاضافة الى زوجاته ولا ريب في

(١) يبدو ان المؤلف قد اخطأ فهم ما قصده الفرزدق . فالشاعر العربي الفرزدق
 كان حريصاً على مقتل على لا فرحاً كما يحاول المؤلف أن يوحي لقراءه ، والمعروف أن
 الفرزدق كان من المتهمين عند الخلفاء الامويين بالتشيع لعلى وآله . وقد قال في مدحهم
 مدة قصائد مشهورة .

(العرب)

(٢) يقول السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء انه كان لعلى حين قتل ثلاث
 وستون سنة ، وبقيل أربع وستون وقيل خمس وستون ، وقيل سبع وخمسون ، وقيل
 ثمان وخمسون .

(٣) قال أبو بكر بن مياش ، عمي قبر على ثلثا ينشئه الخوارج ، وقال شريك :
 نقله ابنه الحسن الى المدينة ، وقال المبرد . . اول من حول من قبر الى قبر على رضي
 الله عنه . وقال ابن مسافر . . لما قتل على رضي الله عنه ، حملوه ليدفنوه مع النبي
 عليه الصلاة والسلام . فبينما هم في مسيرهم ليلاً اذ نذ الجمل الذي هو عليه فلم يعرف
 أحد أين ذهب ؟ ولذلك يقول أهل العراق : هو في السحاب وقال غيره : ان البعير وقع
 في بلاد طيء ، فأخذه فدفعه .

(العرب)

م ٣٣ و ٣٤ - الفتوحات العربية

أن عليا لطبيعته الدمثة اللطيفة لم يكن صالحا للعيش في الأوقات العصيبة.
التي مر بها .



وهكذا حقق سيف ابن ملجم المسموم ما عجزت الجيوش العربية كلها عن تحقيقه اذ وحده الامبراطورية العربية تحت حكم خليفة واحد .
على أي حال ، ماكاد على يقتل حتى سارع أهل الكوفة الى مبايعة ابنه البكر ، الحسن ، سبط رسول الله من ابنته قاطمة الزهراء وكان في السابعة والثلاثين من عمره عندما اغتيل أبوه . وتقول الروايات العربية انه كان يشبه الرسول في هيئته وتقاطيعه ، ولقد سبق لي أن تحدثت عن حب النبي الشديد لحفيديه . وكان هذا الحب موضوع الحديث في روايات كثيرة . وروى بعض شهود العيان ان النبي كان يحمل الحسن على عاتقه وهو يقول « اللهم اني أحبه فأحبه » وروى ان النبي أقبل ذات مرة وقد حمل الحسن على رقبته ، فلقبه رجل فقال : نعم الراكب ركبت يا غلام . فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ونعم الراكب هو . وتقول رواية أخرى ان النبي كان يضع الحسن في حبوته ويقول : من أحبني فليحبه ، وليبلغ الشاهد الغائب .

وقد ورث الحسن عن النبي كل فضائله ، دون أن يرث عنه عزمه واحتماله المكاره وشجاعته الأدبية ، فلقد كان حليما ذا سكينة ووقار وحشمة وأنفة ، جوادا ممدوحا يكره الفتن والسيوف . تزوج كثيرا ، والاسلام لا يبيح الزواج بأكثر من أربعة في آن واحد ، ولكنه لا يضع حدا للمرات التي يستطيع فيها المرء أن يطلق فيها نساءه ، ويقال ان الحسن تزوج في حياته أكثر من تسعين مرة ، ليشبع رغبته في التعرف الى أكبر عدد من النساء (١) . ولعل من الغريب اذا صدقت الروايات ان جميع أزواجه أحببته أشد الحب وظللن على الوفاء له والحديث عنه بالخير حتى بعد طلاقهن منه . وأقول على سبيل المقارنة ان النبي لم يطلق امرأة من نسائه في حياته مطلقا على الرغم من أن بعضهن كن مصدر تعب وازعاج له .

وكان الحسن متدينا ويقال بأنه حج الى مكة خمسا وعشرين مرة .

(١) أجمع المؤرخون على أن الحسين كان مزواجا مطلقا الا أنهم لم يدركوا هذا العدد الضخم الذي اشار اليه المؤلف ، ولا ندري من أين جاء به .

• وانه كان يقطع المسافة بين مكة والمدينة والتي تبلغ نحواً من مائتين وخمسين ميلاً على قسميه لينال المزيد من الثواب جازاً وراه خيوله • وكان محدثاً ساحراً ، وما سمعت عنه كلمة فحش قط ، وعندما أفحش له رجل في القول ذات يوم اكتفى بقوله أنه لن يرد عليه بنفس لهجته بل سيلقاه يوماً بين يدي الله والله شديد العقاب (١) •

ولم يكن معاوية ، ذلك الرجل الذي يضيع مثل هذه الفرصة ، فراح يعد جيشاً جديداً بكل ما لديه من طاقة على السرعة ، ليفزو به العراق • وعندما وصلت الأنباء إلى الكوفة تقدم رجالها إلى الحسن يعربون طائعين مختارين عن عزمهم على نصرته • بخلاف ما كانوا يعملون مع أبيه ، ولعل تأثيرهم باغتيال أبيه ، أو عطفهم الطبيعي على أمير شاب وبرئ كالحسن كان الحافز لهم على استئزاز عواطفهم بعض الوقت • وليس ثمة من ريب في أن الشعور بالمنافسة مع سوريا قد دفعهم أيضاً إلى هذا الموقف الجديد • ولعل القارئ يذكر أنه عندما اجتمع جيشا العراق وسوريا مرة إبان العمليات الحربية في أرمينيا • تبين أن التعاون متعذر بينهما مما دفع الرتلين إلى الافتراق ، لينصرف كل منهما إلى عملياته الخاصة •

ولعل من التضليل أن نعبر عنهما بالنسبة إلى هذه المرحلة في عام ٦٦٠ بأهل سوريا وأهل العراق • فلم يكن الاختلاط حتى ذلك التاريخ قد جرى مع أهل البلاد وكان الجيشان حتى ذلك الحين ينتميان إلى قبائل الجزيرة العربية ، على أي حال ، وقف جيش قوامه أربعون ألفاً على قدم الاستعداد في الكوفة • وبعث المسئولون عنه بقوة تفضيه إلى الشمال للحصول على المعلومات المتعلقة بتحركات جيش معاوية ، وللمحيلة دون تقدم هذا الجيش •

ولكن على الرغم من أن أنصار الحسن كانوا يستعدون لحوض

(١) اعتقد أن المؤلف قصد هنا ما روى من أن مروان بن الحكم وكان أميراً على الحجاز أيام معاوية • كان يسب علياً كل جمعة على المنبر • والحسن يسمع فلا يرد شيئاً ، ثم أرسل إليه يقول له : بعلى وبعللى وبعللى وبك وبك ، وما وجدت مثلك إلا مثل البغلة يقال لها من أبوك فتقول : أمي الفرس ، فقال له الحسن ، أرجع إليه فقل له : إني والله لا أمحو عنك شيئاً مما قلت بأن أسبك ولكن مرمدى ومومعدك الله ، فإن كنت صادقاً جزاك الله بصدقك ، وإن كنت كاذباً فالله أشد نقمة •

(العرب)

القتال - الا ان الحسن نفسه كان عازفا عن الدخول في معركة . وعندما عيره بعضهم بقولهم : يا عار المؤمنين قال . . العار ولا النار . وقال في مرة أخرى انه تخلى عن مطامع الدنيا « ابتغاء وجه الله » وحقن دماء أمة محمد عليه الصلاة والسلام . وسواء أكان عزوف الحسن عن القتال راجعا الى جبن وضعف ، أو الى رغبة في حقن الدماء الا أن روحه هذه فشلت في التأثير على جنوده الذين تاهبوا لنصرته والدفاع عنه والذين أظهروا الآن بعض الأدلة على عصيانهم إرادته . ولا ريب في أن العرب الميالين الى العنف والقتال ، ما كانوا ليرتاحوا لمثل هذه الروح البعيدة عن مطامع الدنيا والمتصفة بالوداعة واللين .

وكان الحسن نفسه هو الذي وضع حدا لهذه الازمة بالكتابة الى معاوية عارضا عليه التنازل شريطة أن يسمح له بنقل ما في بيت مال الكوفة من أموال ، وإن يدفع له مال الخراج من فارس بقية حياته كتقاعد له . وتقول روايات أخرى انه اشترط أيضا العفو عن كل من نصر أباه عليا ضد معاوية (١) . وقد قبل هذا جميع الشروط التي طلبها الحسن فارتحل هذا مع أخيه الأصغر الحسين ، من الكوفة الى المدينة . وعلى الاثر دخل معاوية الكوفة وتلقى مبايعة أهلها ، واختفى الحسن منذ ذلك اليوم في صفحات التاريخ العربي الجياش بالاضطراب . أذ عاش في المدينة متقاعدا مع زوجاته وسراياه . ولكنه لم ينعم بالراحة الداخلية كما نعم بالراحة السياسية ، اذ توفي بعد ثمانى سنوات نتيجة سقم دس اليه من إحدى زوجاته ، بسبب غيرة تسوية على الغالب ، ويقول أعداء الامويين أن معاوية أو ولده يزيد ، أقنعا المرأة بقتل الحسن . لكنني أرى أن هذه التهمة بعيدة عن العقل لان الحسن نفسه رفض منافسة

(١) لا أدري من أين جاء المؤلف ببعض هذه الشروط . ولماذا أهمل شروطا أخرى. اذ يقول السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء» ان الحسن بعث الى معاوية يبذل له تسليم الامر اليه . على أن تكون الخلافة له من بعده . وعلى أن لا يطالب معاوية أحدا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه . وعلى أن يقضي عنه ديونه ، فأجابه معاوية الى ما طلب فاصطلحا على ذلك فظهرت المعجزة النبوية في قوله صلى الله عليه وسلم « يصلح الله به بين فئتين من المسلمين » ونزل له من الخلافة . وقد استدل البلقيني بنزوله من الخلافة التي هي أعظم المناصب على جوار النزول عن الوظائف . وكان نزوله منها في سنة إحدى وأربعين في شهر ربيع الاول وقيل الآخر . وقيل في جمادى الاولى .

معاوية على السلطان ولم يظهر أية اشارة الى ندمه على قراره لكن هذا الاتهام كان كافيا على أى حال ، لحمل أشياعه على الباسه ثوب الشهادة (١) .

يذكر القارىء ولا شك أن معاوية الخليفة الجديد الذى بايعه المسلمون جميعا هو نجل أبى سفيان ، وزوجته المنتقمة هند . وكان معاوية وأبوه قد حاربوا الرسول أشد الحرب ولم ينضما اليه الا عند فتح مكة . ولكن معاوية مالبث بعد أيام من اسلامه ان حارب الى جانب المسلمين فى حنين . وكان النبی جد تواق بعد فتح مكة لمصالحة زعمائها وقادتها . وجريا على هذه الخطة التى اختطها ، فقد اختار معاوية كاتما لسره ، وأخذته معه الى المدينة ، مما يشير الى أن الرجل كان فوق المستوى من ناحية تعليمه . ويقول أحد الرواة انه سمع محمدا يقول . « اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب » . ولا ريب فى أن الشطر الاول من الدعاء قد تحقق اذ أنه كان من أكثر الإداريين كفاية .

كان معاوية كما يصفه المؤرخون رجلا طويلا ، أبيض ، جميلا ، مهيبا ، ويروى أن عمر بن الخطاب كان ينظر اليه فيقول : « هذا كسرى العرب » . ولا ريب فى أن عمر كان يقصد أن معاوية مهيب فى طلعته كالأكاسرة ولكن نبوءته تحققت فعلا ، اذ أصبح أول حاكم.

(١) وقع المؤلف فى خطأ كبير فى استنتاجه بسبب خطأ كبير اقترفه فى سرد الحقائق . فهو يقول ان تميم الحسن من احدى زوجاته كان ناجما من ليلة نسوية ، ثم راح ينفى ان المرأة قد فعلت ذلك بتحريض من معاوية أو ولده يزيد ، وذلك لان الحسن تنازل عن الخلافة راضيا ولم يكن له مطعم فيها .

ولو عاد المؤلف الى أحد الشروط التى اشترطها الحسن على معاوية لتنازله عن الخلافة . وهو أن تكون الخلافة له بعد معاوية ، لتبين له خطأ استنتاجه باستبعاد التحريض ، وهو تحريض أبده أكثر من رواية ، اذ يقول السيوطى ان زوجة الحسن جعدة بنت الأشعث هى التى سمت زوجها بعد أن دس اليها يزيد بن معاوية أن تسمه ليتزوجها ، ففعلت ، فلما مات الحسن بعثت الى يزيد تسأله الوفاء بما وعدها . فقال له : لا لم نرضك للحسن ، أفترضاك لأنفسنا ؟

ومن هذا يتبين أن يزيد كان يخشى منافسة الحسن بعد وفاة أبيه معاوية وأن معاوية كان مرتبطا بوعده بالخلافة للحسن بعده ، ومن هنا يتبين وجود الدافع الذى لم يستطع المؤلف قبله .

(العرب)

• دنيوى للعرب ، لا تقوم دعواه على احساس التفوق الدينى • وتقول رواية أخرى ان أحدهم قال : تعجبون من دهاء هرقل وكسرى وتدعون معاوية ؟ ومع ذلك لم يكن معاوية ذلك الحاكم الطاغية المستبد المتعجرف ، بل كان أقل استبدادا برأيه من عمر بن الخطاب ، التقى الورع الذى كانت كلمته دائما هى العليا • وكان معاوية حاكما دنيويا أكثر منه خليفة على المسلمين • ومع ذلك فلم يتوان عن اللجوء الى الدين دائما وباستمرار للحفاظ على حكمه • وكان دائما كما سيبدو فيما بعد نائب النشاط فى محاربة غير المسلمين • وليس ثمة من ينكر ان كبرياء العنصر العربى كانت قد أصبحت عاملا قويا فى الامبراطورية حتى منذ أيام عمر بن الخطاب • فلقد كان عمر هو الواضع لسياسة عزل الفاتحين العرب كطبقة عسكرية خاصة تعيش على ما ينتجه كدح الشعوب المحتلة • وكان عمر أيضا هو الذى قرر الا يباع عربى قط عبدا • ولا ريب فى أن هذه الكبرياء العربية ما كانت لتتفق كل الاتفاق مع الاسلام الذى اشترط المساواة بين المسلمين • ومع ذلك فلقد كان الشعور الدينى طاغيا فى أيام أبى بكر وعمر وعثمان طغيانا ظاهرا بحيث مضت المشاعر العنصرية دون أن يلحظها أحد • وكل ما يمكن قوله عن عهد معاوية ان المشاعر العربية القومية أصبحت أكثر نفوذا وأثرا من المشاعر الدينية المجردة ، ولكن هذا التبدل لم يكن كبيرا بعد ، بل كان محدودا • إذ كان التأثيران القومى والدينى يعملان عملهما منذ أيام أبى بكر ، وظلا يعملان كذلك أيام معاوية •

ولكن عروبة معاوية لم تكن ذات اتصال بالعلاقات مع الشعوب غير العربية أو الديانات غير الاسلامية فحسب ، بل اتصلت بما طرأ على الأوضاع الداخلية من تبدل أيضا • ولقد كان الخلفاء الاول يطاعون طاعة عمياء لمجرد انهم خلفاء الرسول • ولكن قلادة المنصب أثارت أثرا كبيرا بمقتل عثمان والحرب الاهلية بين على ومعاوية • وكان من الواضح ان معاوية اضحى خليفة لأنه كان أقوى رجال عهده شخصية وأكثرهم كفاية فى ميدان القيادة • فعلى الرغم من ميل العرب الفطرى الى الفوضى ، إلا انهم كانوا دائما على استعداد للعمل تحت قيادة أى انسان يرونه أهلا للقيادة • ولم يكونوا قط على استعداد لتوفير الابهة أو الرتبة أو الامتيازات الوراثية أو الالقباب • ولكنهم اذا ما رأوا امامهم رجلا حق الرجولة استكانوا له لا بدافع الخوف بل بدافع الاعجاب المقرون بالحماسة ولا ريب فى أن ولامهم لمعاوية كان من هذا الطراز •

واتبع معاوية بدوره سبيل الحاكم العربى الديموقراطى الذى يشبه شيخ القبيلة التقليدى فى كل شىء بوصفه الاول بين عدد من الكبراء ليس الا . وكثيرا ما دهش أبناء الاجيال المتلاحقة الذين نشأوا على توقع الميل الى الأبهة والفطرسية المعروفة عن الطغاة الشرقيين من الطريقة التى كان الناس من أبناء الرعية يحدثون بها خليفتهم معاوية . ويقول الرواة أنه ما لبث ان تبوأ منصب الخلافة حتى جاءه أحدهم يقول . . « والله لتستقيم بنا يا معاوية أو لنقومنك » فتسأل معاوية . « وبماذا ؟ » فقال الرجل « بالخشب » فرد معاوية وقد ابتسم « اذن نستقيم » ولا ريب فى أن هذه الصراحة التى لا تخلو من المزاح رغم قسوتها هى الطابع الذى يطبع أواسط الجزيرة العربية حتى يومنا هذا . ولا ريب أيضا فى ان كل من تعامل مع عرب الجزيرة تعاملًا وثيقًا يدرك أن الصورة التى رسمها المؤرخون العرب لبدو تلك الايام تنطبق تمام الانطباق على بدو اليوم على الرغم من انقضاء ألف ومائتى عام . ولعل مما يثير الاهتمام أيضا أن هذه الصراحة الجهرية تقف تماما على النقيض من تصرفات أهل المدر فى سوريا ولبنان اليوم كما كانت فى عهد الروم ، فالسورى المثقف يفوق أى انسان آخر دماثة ومجاملة ولا ريب فى ان مجاملاته هذه تخجل الاوروبى لا سيما اذا كان يقدم اليه منحنيا معقدا ليجلس عليه مرددا أسئلته الكثر عن صحته وسعادته . ولعل من المدهل حقا أنه على الرغم من انقضاء أثنى عشر قرنا ما زال السورىون يعرضون ما عرف عن الروم من مجاملة بينما يعرض البنو ما عرف عن الفاتحين العرب من ديموقراطية جافة .

وكان استقبال صحابة رسول الله من مهاجرين وأنصار من المعمرين لمعاوية عندما زار المدينة للمرة الاولى يعد بيعته فى منتهى الفتور والبرودة . ويروى انه قال لجماعة منهم جلسوا اليه فى المدينة . « تلقانى الناس كلهم غيركم يا معشر الانصار » فقال له احدهم « لم يكن لنا دواب » فرد معاوية وكان يعرف المدينة خير معرفة عندما كان كاتبا لرسول الله . . واين التواضع ؟ (يعنى الابل السريعة المشى) فقال الرجل «عقرناها فى طلبك وطلب ابيك يوم بدر » وليس فى وسع الانسان أن يتصور ردا أقسى ولا أكثر استغزا من هذا الرد . ومضى الانصارى يواصل حديثه وعلى محياه سيماء الآلم « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لنا « انكم سترون بعدى اثره (يعنى مصيبة) » فقال معاوية « فما أمركم »

قال الانصارى : « أمرنا أن نصبر » فرد معاوية وعلى وجهه - كما
أتصور - ابتسامة ... « إذن فاصبروا » .

وهكذا أقنع كبراء المدينة أنفسهم، وقد وجسوها عاجزة عن الوقوف
في وجه قوة معاوية العسكرية وأمام ذكائه اللامع ، بأن حكم معاوية باق
الى أن يموت . وقد أعرب عن هذه الفكرة شاعر المدينة (يعنى حسان بن
ثابت) بقوله :

ألا ابلغ معاوية بن حرب أمير المؤمنين نبا كلامي
فانا صابرون ومنظروكم الى يوم التغابن والخصام
وروى أخيرا عن رجل عاصر معاوية من شيوخ العرب قوله : صحبت
معاوية ، كما رأيت رجلا أثقل حلما ، ولا أبطأ جهلا ، ولا أبعد أناة منه .

ولعل أصدق شهادة على ديموقراطية معاوية جاءت من مؤرخ يوناني
معاصر لعهد هو تيوفينس Theophanes اذ وصفه بأنه الوزير الاول
للعرب ، لا الملك أو الامبراطور . ولقد رأينا في عصرنا هذا عددا من
الديكتاتوريين . ومع ذلك فاننا لم نر الا القليلين منهم ان وجدوا قادرين
على الاجتماع الى شعوبهم ، والجلوس اليهم ، والدخول معهم في مناقشات
صريحة على قدم المساواة، لا مع الناس فحسب بل مع الخصوم السياسيين
أيضا ، والرد على عباراتهم الساخرة التي تبلغ أحيانا حد الاساءة ، بروح
مرحة هادئة . ولعل هذا هو السبب الذي جعل من معاوية الخليفة الوحيد
الذي لم تقم في عهده أية ثورة أو أى عصيان منذ تبوأ الخلافة .

ولقد سبق لى أن ذكرت أن معاوية عين عمرو بن العاص ، أميرا لمصر
قبل وفاة على وكان عمرو كما قلت أيضا صاحب الفضل في فتح مصر .
باقتراحه فتحها وتولييه عملية الفتح أيضا . ولكن عمرا لم يقدر له أن
يعيش طويلا لينعم بشمار جهوده وكده .. فلقد توفى عام ٦٦٣ . أى بعد
سنتين من خلافة معاوية . ومن الصعب على المؤلف تقويم شخصية عمرو
هنا ، وإن كان غزوه الناجح لمصر على رأس ثلاثة آلاف وخمسمائة من
البدو ليس الا خير دليل على شجاعته وجراته . ويبدو لى أن ادارته
اللاحقة لهذه البلاد المحتلة ، كانت أكثر تفتحا من خطة رئيسه عمر بن
الخطاب . فلقد خصص نسبة معينة منتظمة من خراجها السنوى لاصلاح
أجهزة الرى فى البلاد وتطويرها . كما عمل جهده لحماية الاقباط من
ابتزاز الضرائب، وأعاد أيضا حفر قناة تراجان التي كان روم القسطنطينية

قد أهملوها حتى سدتها الرمال . ويمكن بعمله هذا البواخر القادمة من البحر الاحمر من الابحار حتى الفسطاط والنيل لتسير فيه حتى البحر المتوسط . وكانت له شهرة وافية في عالم السياسة والدبلوماسية منذ أيام سفارته مندوبا عن قريش الى نجاشي الحبشة ، حتى مناوراته الاخيرة . تأييدا لمعاوية على علي بن أبي طالب ، ومع ذلك فقد كان سلوكه في عملية التحكيم في أفرح خادعا . كما يشك في انه كان فاسدا من الناحية المالية . ونحن نعرف أيضا انه كان شاعرا ، وذلك من الاسطر النثرية القليلة المتميزة بالروح الشاعرية والتي كتبها الى عمر بن الخطاب يصف له فيها ارض مصر والحياة فيها . وثبتت الروايات الكثيرة عن ذكائه سرعة بديته . ولطف نكتته . ولعل أصدق وصف لشخصيته ، ورد على لسان شخص . كان على اتصال وثيق بجميع شخصيات تلك الايام الميزة فقد أجمل تصويره لشخصية عمرو في العبارة المقتضبة التالية : لم أجد في حياتي رفيقا ارق من عمرو .

ويذكر القاري ولاشك أن العصاة كانوا يطالبون عثمان قبل قتله . وأثناء الحصار الذي فرضوه عليه بتسليمهم مروان المكروه الذي وجد الملجأ له في دار الخليفة . وقد فر مروان هذا بعد قتل عثمان بعد أن أصيب بجراح برفقة الزبير وطلحة الى البصرة حيث حارب عليا في معركة الجمل . ولجأ مروان الى حمى معاوية بعد انتصاره على في تلك المعركة . وعندما انتهى مقتل علي كل معارضة لمعاوية عين الخليفة المنتصر مروان المكروه هذا اميرا على المدينة كاجراء عقابي لمقتل عثمان . ولكن السلطان كان قد انتقل من المدينة الى الابد . وان ظلت بقية الصحابة وذرايعهم تعيش فيها بعيدا عن التدخل في هذا الصراع المجنون . وكان بعضهم يقضى أيامه في التهجذ والعبادة . وبعضهم في ترف الثراء الذي حققته لهم الفتوحات العظيمة وما ينطوي عليه هذا الترف من رخاء وملذات ، ونسى الناس تدريجا أيام بدر . وأحد والردة البطولية .

واختار معاوية أول ما اختار لامارة الكوفة وقيادة جندها الجائشين . بالفتنة المغيرة بن شعبة أمير البصرة المغزول . ولقد كان هذا الفارس المغوار بطلا من أبطال الحروب في فارس ، وفقد احلى غينية في معركة اليرموك ، كما امتاز بالقامة الفارعة ، والرغبة في المغامرة والشعر الفاحم والعود الرياضي . وكان قد حكم الكوفة من قبل في أواخر عهد عمر ثم عزله عثمان ليفسح المجال لتعيين أحد الامويين خلفا له . وقد عرف عنه انه قليل الحياء ، لا يخجل من شيء متجلد العاطفة ، وافر الشجاعة كثير

الدهاء واسع الحيلة • وقد بات الآن مسئولاً عن الكوفة وأواسط العراق وشمال فارس ولم تكن مهمته بالهينة أو المريحة ، ففي العراق يواصل الخوارج تأمرهم لتحقيق هدفهم في الجمهورية الدينية ، واستأنف من الفتوحات في شمال فارس اندفاعه متخذاً من الكوفة قاعدة له •

ولكن زياد بن أبيه كان أبرز عمال معاوية ، وقد سبق لنا أن أشرنا إليه أكثر من مرة ، وكان زياد هذا أميراً لعل على جنوب فارس عندما رسم سيف بن ملجم النهاية لحياة سيدة ، ومع ذلك فقد كانت سيطرته كاملة في مركزه « اصطخر » إلى الحد الذي مكّنه من الاحتفاظ باستقلاله في حكم الإمارة أكثر من عام بعد تولي معاوية الخلافة • ويذكر القاري أيضاً أن المغيرة بن شعبه نجا من الموت رجماً بتهمة الزنا في البصرة بفضل زياد بن أبيه الذي تراجع في اللحظة الأخيرة عن الشهادة ضده •

ولم ينس المغيرة جميل زياد فراح يعمل وسيطاً ليحصل له على عفو معاوية ، ومضى المغيرة بموافقة معاوية إلى مدينة اصطخر التي كانت في يوم ما عاصمة كورش ودارا والتي يحكمها زياد الآن ، حيث استصحب زيادا معه إلى دمشق بعد أن أعطاه الأمان على حياته . ولم يكن الخليفة الجديد بالرجل الذي يكسب عداء مثل هذا الأمير الذي أثبت كفاية منقطعة النظر في إدارته • ولذا فقد استقبله استقبالا ينطوي على الإكرام وأعاده أميراً على ولايته •

وسرعان ما وقع حادث ضخم كل الضخامة • ويذكر القاري أن زيادا كان ابن سمية الجارية ذات السمعة المشبوهة في الطائف ومكة ، ولم يكن يعرف له أب • وفجأة أعلن معاوية إعلاناً أثار فزع المتدينين وتقرّزهم • وهو أن زيادا هو ابن أبي سفيان والد معاوية من الجارية سمية • وأنه أي زياد أخ له • وليس ثمة من شك في أن العلاقة اللاشرعية قامت بين أبي سفيان وسمية قبل تحول الرجل العجوز إلى الإسلام • ولقد كان من المؤلف في صدر الإسلام ألا يحاسب المسلم على ما اقترفه من خطايا في عهد الجاهلية • ولكن بالإضافة إلى الناحية الدينية لم يرض عدد من الأمويين المتكبرين أن يضموا إلى أسرهم شخصاً مشبوه الأصل والولادة • ولا ريب في أن اعتراف معاوية بعلاقة أبيه بامرأة مشبوهة الخلق ، كان عملاً بارعاً من أعمال السياسة وكسب الاعداء السياسيين • ولم يكن تقدير معاوية السياسي خاطئاً أو في غير

موضعه • فلقد أصبح زياد بن أبيه ، زياد بن أبي سفيان وأصبحت مصلحته مرتبطة ارتباطا وثيقا بحكم الأمويين • ولقد عينه معاوية الآن أميرا على البصرة وتمتد سلطاته لتشمل كل الأقسام الجنوبية من فارس حتى نهر السند في الباكستان الحديثة • وظل المغيرة أميرا على الكوفة ، حتى مات ، فخلفه فيها زياد الذي أصبح يحكم الكوفة والبصرة • وأضحى صورة لمعاوية في حكمه للنصف الشرقي من الإمبراطورية كله • ولقد أضفى على نفسه هالة الملك فأصبح يسير والحرس من أمامه وخلفه ، وأبواق الجند تعلن وصوله .

وكانت أمارتا البصرة والكوفة لا تزالان تعجان بالخلافات الداخلية. وواصل الخوارج تأمرهم • على الرغم من أن المغيرة أعدم ثلاثمائة منهم في يوم واحد ، ولكن المصدر الرئيسي للفتنة وما يحز من مرارات في نفوس اتباع معاوية وشيعة وعلى الشهيد ظل باقيا • وعلى الرغم من أن زيادا كان حتى عهد قريب عاملا لعل ، إلا أنه كرس الآن جميع جهوده لنصرة الأمويين ويقال بأنه حدد فن الحكم باستعمال اللين بدون ضعف والشدة من غير عنف • ولكن لما كانت الروايات قد نقلت عنه أنه أحرق أحد اتباع على وهو على قيد الحياة ، فقد بات من الصعب علينا حقا أن نحدد ما عناء « بالشدة في غير عنف » •

وكان الاعتقال يتناول الأشخاص المتهمين بعدم الولاء فيسألهم عن رأيهم في علي وعثمان • وكان الموت جزاء الذين يجيبون بأن عليا رجل صالح ، وإن عهد عثمان اتسم بالظلم ، لأنهم جهرؤا برأيهم • وكانت الخطوة لدى معاوية ، تتطلب أن يشتم الإنسان عليا وأن يمدح عثمان الشهيد • وكانت الرحمة لا تعرف لها طريقا إلى قلب زياد عند حبسه للخوارج أو اعدائهم • وكان يساوى في معاملته هذه بين الخوارج وبين شيعة على ، على الرغم من حصول الكثيرين من الذين يتمكنون من الوصول إلى معاوية لرفع ظلامتهم إليه ، على العفو من الخليفة •

وعلى الرغم من شدة الأساليب التي اتبعها زياد بن أبيه مع أهل الكوفة ، فإن السلوك القائم على الفتن والزيف الذي اتبعه الكوفيون مع على الوديع المتسامح عندما كان حاكما لهم ، يوحى بأنهم كانوا يستحقون هذه الشدة التي طالما شكوا منها في المغيرة وزياد • فلقد ساد الاضطراب جميع أرجاء العراق الجنوبية والقسم الأكبر من فارس في عهد على ، وكانت الطرق غير مأمونة ، والحدود معرضة لغزو الكفرة

- والمشاركين • وما كاد زياد يتسلم الحكم ، ويوطد أقدامه فيه حتى .
- هملت الفتن ، واستقر الأمن واستتب النظام وعاد المسلمون يشقون
- طريقهم تحت راياتهم الظافرة لفتح الهند وبلاد ما وراء النهر •
- وتوحى سياسة العنف وعدم الملاينة التى اتبعها كل من معاوية
- وزياد بمنتهى البراعة والكفاية بأنهما حقا اخوان وان أبا سفيان لم يلد
- سياسيا عبقريا واحدا بل سياسيين عبقرين •

تواريخ بارزة

- انتصار على على الحوارج عند النهروان مارس (آذار) ٦٥٨
- عمرو بن العاص يستولى على مصر يوليو (تموز) ٦٥٨
- مقتل على بن أبى طالب ٢٠ يناير (كانون الثانى) ٦٦١
- تنازل الحسن عن الخلافة يوليو (تموز) ٦٦١

شخصيات مشهورة

معاوية	خليفة المسلمين فى الشام
على بن أبى طالب	خليفة المسلمين فى الكوفة
عمرو بن العاص	أمير مصر
أبو موسى الاشعري	فاتح فارس
عبدالرحمن بن ملجم	قاتل على
الحسن بن على	سبط الرسول
المغيرة بن شعبة	أمير الكوفة ثانية فى عهد معاوية
زياد بن أبيه	أمين البصرة والكوفة فيما بعد
	وزياد بن أبى سفيان

العودة إلى الفتح

« قد يكون من المعقول أن يعهد بالخلافة إلى أكثر المسلمين صلاحاً . وقد يكون من المعقول أن تكون وراثية في آل البيت ، أما أن تصبح وراثية في أسرة أشد أعداء النبي فهذا أمر لم يكن محمد قد تصوره . »

فريمان - تاريخ العرب -

« كان الموقف يعرض صعوبات عدة ، عند ارتقاء معاوية سدة الخلافة . فلقد أدى مصرع عثمان إلى تحطيم تلك الأسرة الدينية التي ربطت الخلفاء الأول إلى الناس . وبات لزاماً على معاوية أن يجد قاعدة جديدة تقوم عليها الامبراطورية . . وكان الحل الذي وجده هو التحول من الدولة الدينية الإسلامية إلى الدولة العلمانية العربية . . ولم يكن معاوية دائم القيادة لقومه ولكنه كان بارعاً في إدارتهم عن طريق الاقتناع والكفاية الشخصية والمكانة »

الاستاذ بيرنارد لويس - العرب في التاريخ

العودة الى الفتح

ما كادت الفتن تهدأ ، ويستتب الأمر لمعاوية في الخلافة ، حتى استأنف العرب حروبهم لتوسيع حدود امبراطوريتهم . وكان معاوية ابان انصرافه الى الحرب الاهلية مع علي ، قد عقد هدنة مع القسطنطينية ، وافق فيها على أن يدفع جزية سنوية لامبراطورها مقابل الحصول منه على عدد من الرهائن لضمان احترام الروم للهدنة . فلما استتب له الامر الآن اعاد الرهائن الى الروم واستأنف الحرب معهم .

يقوم سهل أضنه عند السفح الشرقى لجبال طوروس وقد قدر لهذا السهل أن يكون مسرح أحداث وحروب لا تنتهى عدة قرون ، تماما كوضع حدود الهند الشمالية الغربية ، ابان حكم الانجليز للهند . وتمتد الحدود من هذه المنطقة باتجاه الشمال الشرقى الى مرعش ومنها الى ملاطية فارمينا وجورجيا والقفقاس . وكان المضيق الجبلى المعروف منذ أقدم العصور ببوابة كيليكية ينتهى الى سهل طرسوس ولكن سهولة الدفاع عنه جعلت العرب يعزفون عن استخدامه لغزو بيزنطة . وقد نقل الينا الرواة ان معاوية ادراكا منه لهذا الواقع قد استخدم ملاطية كغفر أمامى متقدم للاغارة على اراضى الروم كما نقل الينا الرواة أيضا انه أعاد بناء مرعش وحصنها كل التحصين .

ويبدو أن معاوية أراد تفنيد ما يحيط بسمعته الدينية من شبّهات يثيرها أشياخ «على» وصحابة المدينة . ولذا فقد قضى العشرين سنة من حكمه أى بين عامى ٦٦١ و ٦٨٠ فى القيام بعمليات حربية لا يكل منها ولا يمل ضد الروم . ويبدو أيضا أنه أراد التكفير عن الجزية التى دفعها اليهم فى سنوات انشغاله بالقتال مع اخوانه المسلمين . ولم يسترح العرب الى قر الاناضول القارص فى أيام الشتاء . ولذا كانوا يوقتون غزواتهم عادة فى الصيف ليعودوا فينسحبوا فى الخريف ، قبل حلول برد الشتاء القارص . وكان معاوية أيضا أول من فكر ببدل جهود حفظها لنا التاريخ لتنظيم وحدات عسكرية نظامية . ولا ريب فى أن القارىء يذكر أن العرب ظلوا منذ عهد النبی يحاربون على أساس قبلى ، اذ تؤلف كل قبيلة وحدة خاصة بها ، ويكون شيخ هذه القبيلة هو قائد هذه الوحدة . وكانت رواتب الجند تصرف من الغنائم التى تقع فى أيدي الجيوش عند الحملات العسكرية بعد ان يقتطع منها الخمس لارساله الى بيت المال فى المدينة،

• وكان عمر بن الخطاب أول من فكر في تنظيم دفع الرواتب للجند على أساس ثابت ، ولكن قوائم مستحقيها ظلت تعتمد على الاسس القبلية .

وأدى وجود حدود ثابتة الى حد ما بين الامبراطورية العربية وامبراطورية الروم الى ضرورة وضع أساليب جديدة ومنظمة • وكان تأمين الحاميات للثغور والحصون عملية خطيرة ومتعبة . كما ان القائمين عليها كانوا يتطلبون رواتب أعلى من المعتاد . يضاف الى هذا ان الجنود لم يعودوا من العنصر العربي وحده • وبتنا نسمع الآن عن وحدات من خراسان أو عن نقل الخراسانيين مع أسرهم الى المناطق الجبلية في الشمال الغربي • ولعل هؤلاء الخراسانيين كانوا أكثر قدرة على احتمال الاشتهاء الباردة وأجواء المناطق الجبلية من العرب •

لكن العمليات لم تقتصر على أى حال على الغارات الصيفية الرتيبة • فلقد عقد الخليفة عزمه على مهاجمة القسطنطينية نفسها ، عاصمة امبراطورية الروم • ويذكر القاريء ، ولا شك أن معاوية منذ أصبح أميرا على سوريا في عام ٦٣٩ أدرك القيمة الهائلة للقوة البحرية • وكان عمر ابن الخطاب بما عرف عنه من حرص وحذر قد رفض الموافقة على انشاء قوة بحرية ، ولكن عثمان أراد أن يقتنع بالاقتراح ، وكانت نتيجة تنفيذه استيلاء معاوية على قبرص والانتصار على أسطول الروم في معركتين بحريتين هزم فيهما الاسطول هزيمة ماحقة تبدد شمله على أثرهما . وانتقلت السيادة البحرية في المتوسط الشرقي الى أيدي العرب • وأبحر أسطول عربي ضخم في عام ٦٦٨ أو ٦٧٠ ، اذ أن التواريخ غامضة بالرغم من خطورة الاحداث ؛ يمتدح عباب هذا البحر ويدخل مضائق الدردنيل دون معارضة • وهبط العرب الى البر على بعد سبعة أميال من مدينة القسطنطينية ، وزحفوا فورا يهاجمون عاصمة الامبراطورية •

• وكان العرب قد برعوا في هذه الايام في حروب الحصار وكانوا مجهزين بالمجانيق والمعدات الأخرى اللازمة لتحطيم الاسوار والابواب وقذف المدن المحاصرة • وقد تعلموا طريقة تشكيل المظلات الواقية بجمع الدروع بعضها الى بعض فوق الرؤوس لحماية الرجال من القذائف التي يطلقها المدافعون عن الاسوار ، كما تعلموا الابتكارات الأخرى الحديثة لمهاجمة الحصون • وعلى الرغم من اتقانهم لكل هذه الاساليب الا ان هذا الطراز من الحرب لم يكن من النوع الذي يبرزون فيه خصومهم ، ولقد سبق لنا أن رأينا أسوار بيزنطة تصمد أمام شجاعة الهون والمغول • وتمتنع على جيوش كسرى المنظمة وعملياتها الحربية الفنية • فلقد كانت

أبراجها وقلاعها شاهقة الارتفاع ، متينة البنيان • كما أن البيزنطيين لم يعودوا يشغلون أنفسهم في عمليات عسكرية في مناطق نائية ونصف معادية وإنما يدافعون عن آخر ما تبقى لهم، عن بلادهم ودينهم ونسائهم وأطفالهم • وظلت صفوف المهاجمين العرب تضرب رءوسها يوما بعد آخر في أسوار المدينة العالية تماما كما يضرب الموج الهائج الصخور الشاهقة على ساحل جبلي فيتحطم عليها • ولكن يبدو أن النار الاغريقية المشهورة كانت السلاح الرئيسي الذي أعان المدافعين وأنزل الفرع بالمهاجمين • ولا ريب في أن شبكات المخابرات وأنظمتها لم تكن قد تطورت تطورا كبيرا في تلك الايام بالنسبة الى تطورها الحالي والا لما استطاع الروم أن يحتفظوا بسر هذا السلاح الرهيب هذه القرون الطويلة وهو سلاح يتمثل في قاذفة النار ، ظهرت لنا صور جديدة منها في عصرنا هذا في ميادين القتال •

وعجز العرب عن اقتحام أسوار المدينة العظيمة ، ولكنهم استطاعوا نهب المناطق المحيطة بها على الساحلين الآسيوي والأوربي وأحالتها الى قاع صافى • فلما حل الخريف تخلوا عن خيلهم لاقتحام الاسوار وأنسحبوا عنها الى جزيرة سيزيكوس الصغيرة في بحر مرمرة والتي تقع على بعد ثمانين ميلا من القسطنطينية • وظل العرب يحاصرون عاصمة الروم سبع سنوات متوالية ، ولكن جهودهم كلها ذهبت أدراج الرياح الى أن اضطرتهم خسائرهم الفادحة في الرجال والسفن والمعدات الى التخلي عن المحاولة • وقد يكون من الاعجاز حقا أن بيزنطة التي بدت تلفظ أنفاسها الاخيرة في القرن السابع قد استطاعت أن تعمر سبعة قرون أخرى ، وأن تبقى رغم قدمها وشيخوختها الى ما بعد زوال هذه الامبراطورية العربية الجديدة التي كانت تقرر بجيوشها أبواب عاصمتها •

ولقد أغدقت أوروبا منذ عصر النهضة الحديثة اعجابها على الجمهورية الرومانية القديمة • وان كانت لم تنس أن تذكر بشيء من الاعجاب الامبراطورية الرومانية الشرقية في القسطنطينية فلقد غيرت المقاومة العنيدة التي أبدتها هذه الامبراطورية في آخر خط دفاعي لها في القرن السابع ، سير التاريخ الأوربي وقررت مصيره حتى أيامنا هذه • فلو سقطت القسطنطينية في أيدي العرب في عام ٦٧٠ لاجتاح هؤلاء اليونان وايطاليا وفرنسا ، ولما تمكنت قوة مساوية لقوتهم من الوقوف أمامهم ، ولم يقدر للقسطنطينية أن تسقط في أيدي المسلمين حتى عام ١٤٥٣. عندما استولى عليها الاتراك العثمانيون وكانت أوروبا قد أفأقت في غضون ذلك من سبأتها في العصور الوسطى المظلمة • وبأنت قادرة على الصمود

- صمودا ناجحا أمامهم ، وإن وصلت جحافلهم الى أبواب فيينا فى أكثر من مرة ، ويبدو أن المسيحية لم تقر بعد اقرارا كافيا بما للبيزنطيين عليها من دين •

وأدى فشل معاوية فى هجومه العظيم على القسطنطينية الى انعاش المكانة الذاتية لامبراطورية الروم ، وإلى التخفيف من حدة الرعب الذى كان ينشره اسم العرب فى كل مكان • وقد قدر للحرب الأهلية أن يستمر أولها مرة ثانية بعد وفاة معاوية التى حدثت بعد فترة قصيرة من هذه الوقائع ، وذلك بين البطون المتنافسة من قريش كما قدر لوطاة القوة العربية المقاتلة ، أن تتحول من جديد عن الفتوحات الخارجية الى الصراع بين الاخوة والاشقاء •



لقد جانبنا السياق التاريخى المتزمت فى حديثنا عن العمليات العربية الحربية ضد القسطنطينية فى عهد معاوية • فلقد بدأت خلافة معاوية فى عام ٦٦١ واستمر حصار القسطنطينية من عام ٦٦٨ أو ٦٧٠ حتى عام ٦٧٧ تقريبا ، ثم توفى معاوية فى عام ٦٨٠ ، وأرى أن نعود الآن الى بداية عهده ، لندرس الحملات الفعالة الاخرى التى شنت ابان خلافته التى استطالت عشرين عاما •

واجه معاوية فى بداية حكمه المشكلة التى واجهت أكثر من مرة فى غضون الخمسين عاما المنصرمة واضعى الخطط السوقية البريطانية • وتمثل هذه المشكلة فى الصراع بين أنصار الجبهة الرئيسية وبين أنصار المارك الجانبية • أو الصراع بين خط العمل المباشر واللامباشر • ففي أصول السوقية والتبعية يميل الجندى دائما الى المفامرة بكل شئ فى الهجوم على الموقع الرئيسى للعدو ، لأن احتلال هذا الموقع يؤدى الى انتهاء الحرب بضربة واحدة قاضية • ولكن لما كانت الحقيقة تنص على أن خسارة هذا الموقع ستعنى الكارثة بالنسبة الى العدو فإن من المفروض أن تكون مقاومته عنيفة الى حد اليأس ، يضاف الى هذا أن المهاجم اذا قام بكل شئ فى هجومه على هذا الموقع ، ثم لم يقدر له النجاح فإنه قد لا يجد بعد ذلك القوة اللازمة للهجوم ثانية ، إذ أنه يفقد الحافز على هجومه ويضيع الامل بالنصر الى الأبد ، مع دفعه ثمنا باهظا من الخسائر • أما اذا اتبع السبيل الثانى ووضع قوة تغطية امام الموقع الرئيسى للعدو ، ثم حول جهوده الى الأجنحة وإلى عدة مشاريح فرعية • فإنه يستطيع على المدى الطويل أن ينهك طاقة العدو على المقاومة • على أى حال ، لن يؤدى صد

لمى من هذه العمليات الفرعية الى وقف الهجوم . وقد تزدى هذه الهجمات التى يقصد منها سبر أغوار قوة العدو اذا نجحت الى استفلال ناجح لها . ويمكن الافادة من المزية التى تتحقق عن طريق اظهار نقاط الضعف عند العدو لتحطيمه .

وهكذا لو أن اليهود والدروع التى صرفت فى هذه الهجمات الجزاف التى شنّها العرب على أسوار القسطنطينية قد صرفت فى مكان آخر ، لكانت كافية لاحتلال إيطاليا وأسبانيا وفرنسا أيضا . وصحيح أن العرب قد تمكنوا من احتلال أسبانيا بعد نحو من أربعين عاما الا أن الحماسة الفطرية العربية كانت قد ضعفت فى ذلك الحين ، ولم يعد اسم العرب يرعب العالم ، أما فى عام ٦٦١ فان شهرتهم كانت لاتزال مرعبة ، ولم يكونوا قد هزموا بعد فى أية معركة ، ولو احتل العرب فى ذلك الحين إيطاليا وأسبانيا وفرنسا فان القسطنطينية ماكانت لتستطيع الصمود والبقاء .

ويذكر القارىء أيضا أن عمرو بن العاص كان قد أوفد عندما احتل مصر أول مرة ابن اخته عقبة بن نافع الى الجنوب للاغارة على بلاد النوبة والسودان حيث لم يحقق الا نجاحا ضئيلا. وعندما ذهب عمرو الى مصر أميرا لها فى عهد معاوية فى يوليو (تموز) عام ٦٥٨ أخذ معه اليها عقبة ثانية . وكان هذا فارسا مغوارا وبطلا مقداما . لا يترك وسيلة الا واتبعها بحثا عن مغامرة جديدة تكون أكثر خطورة من سابقتها . وتوفى عمرو فى مصر عام ٦٦٣ ، ولكن عقبة ظل يلحف على الساطات ان تبعث به فى حملة تمكنه كما يقول الاصطلاح العسكرى الحديث من القيام بخدمة عسكرية فعلية ، ويبدو أن معاوية قد وافق أخيرا على تعيين عقبة قائدا للجيش فى شمال افريقيا ، وكان الروم لا يزالون يحتلون قرطاجنة بينما كانت حدود السيطرة العربية الفعلية تنتهى فى برقة ، وتقدم عقبة حتى وصل الى تونس التى تبعد نحو من ألف وخمسمائة ميل عن قاعدة العرب الاساسية فى الفسطاط . وكانت جيوش العرب قد وصلت الى هذه المنطقة فى المرة الماضية ، ولكن افتقارهم الى قاعدة أقرب من الفسطاط فى مصر كان يضطرهم فى كل مرة الى التخلي عن فتوحاتهم (١) . وقد

(١) يذكرنا هذا المد والجزر قبل توطيد اقدام الحكم العربى فى شمال افريقيا بصعوبة المواصلات التى عايناهما فيها ابان الحرب العالمية الثانية . فلقد اعتمد الجيش البريطانى كجيش عقبة على قاعدة مصر ، ثم تقدم الى برقة ليضلمه طول المواصلات مما شجع الالان على شن هجومهم المضاد واخراج الالان منها ، وتقدم رومل الى العلمين متخذًا من طرابلس قاعدة له لطالت مواصلاته وهزم لعين السبب أيضا . المؤلف

أدرك عقبة وكان محقا في ادراكه ، أن توطيد أقدام العرب في افريقيا ، لن يتم الا اذا أقيمت قاعدة عسكرية صالحة في المنطقة وفي وسع الارتال والسرايا أن تخرج من قاعدة كهذه لغرض الاستقرار في المناطق المجاورة كما تكون هذه القاعدة مركزا لحكم اقليمي ثابت الدعائم .

واختار عقبة تحقيقا لهذه الغاية في عام ٦٧٠ منطقة صحراوية تقع الى الجنوب من قرطاجنة ، ورسم فيها مسجدا ومنزلا للأمير الحاكم ، وأقام حولها قاعدة للجيش وهكذا بنيت القيروان القاعدة الجديدة التي قدر لها أن تغدو فيما بعد مدينة عظيمة ومشهورة ، وتقع القاعدة الجديدة على بعد بضعة أميال من الساحل . ولهذا كانت بالنسبة الى العقل العربي أكثر صلاحا من قرطاجنة الواقعة على شواطئ البحر المتوسط والمعرضة دائما للغارات البحرية . وهكذا أصبحت القيروان قاعدة جديدة كالفسطاط والكوفة والبصرة تعتمد عليها الجيوش العربية في السيطرة على المناطق المجاورة .

وكان عقبة رجلا مستقيما فصيح القول محبوبا من رجاله نزيها شريفا، ولكنه كان يقتدر الى الكياسة والدبلوماسية، وكان البربر لا أفراد الحاميات البيزنطية المعزولة هنا وهناك هم المدافعون حقا عن افريقيا ، وكان هؤلاء الناس يظهرون استعدادهم لاعتناق الاسلام في كل مرة يظهر فيها العرب اقوياء . ولكن في كل مرة كان العرب ينسحبون أو يمضون في طريقهم ، يعدل البربر عن اسلامهم ويرتدون . ونحن نذكر أن النبي كان يلين مع المشركين ولكنه يقسو على المرتدين ويعتبرهم جديرين بالموت . وكان عقبة بعقله البسيط الساذج يرى هذا الرأي نفسه بالنسبة الى البربر ويبدي عزمه على عقاب المرتدين بالموت .

ولا تحدثنا السير والتواريخ عن الاسباب التي دعت معاوية الى عزل عقبة بعد انشائه القيروان ، والى اعادة الحاق برقة التي كانت قد غدت امارة قائمة بذاتها في هذه بمصر ، ولا يسعنا الا أن نفترض بأن بعض التقارير غير المرضية ، وصلت الى معاوية عن طريق عقبة في ادارة البلاد، وكان معاوية قد عين مسلمة بن مخلد أميرا لمصر . وقد أرسل هذا مولى له يدعى أبو المهاجر ليتسلم الزمام من عقبة . ومن المحتمل أن يكون عقبة الذي استشير قد رفض تسليم منصبه الى أبي المهاجر ، ومن المحتمل أيضا أن يكون معاوية نفسه هو الذي أصدر أوامره بعزل عقبة . وكل ما نعرفه أن أبا المهاجر ، أودع عقبة السجن عند وصوله ، ولا ريب في أن هذا التحول الفجائي من قائد غام الى سجين في القيود يشبه الى حد ما عمليات

التطهير الشيوعية في عصرنا الحاضر • (١)

وقد دار الصراع كما قلت سابقا بين ثلاثة عناصر في شمال افريقيا • أولها الروم وثانيها البربر وثالثها العرب ، وكان كل منها يؤلف مجموعة قائمة بذاتها • ويقال ان أساليب عقبة الاستبدادية في الحكم أثارت البربر ودفعتهم الى التحالف مع الروم • فلما جاء أبو المهاجر ، اتبع سياسة التقرب اليهم والتحالف معهم ضد الروم ، وقد حقق في سياسته هذه نجاحا كبيرا ولاسيما في قضية كسيلة زعيم البربر الكبير • وتمكن أبو المهاجر بمساعدة البربر من احتلال القسم الأكبر من المنطقة المحيطة بقرطاجنة • دون أن يتمكن من احتلال المدينة نفسها التي استبسل الروم في الدفاع عنها • وعندما تأكد القائد العربي من سلامة مواصلاته بفضل تحالفه مع البربر راح يتقدم بقواته حتى وصل الى تلمسان القريبة من الحدود الحالية بين الجزائر والمغرب •

وهكذا نتضح لنا تمام الوضوح الصورة العامة للعمليات الحربية في شمال افريقيا في هذه الآونة • فلقد كان الروم يحتلون عدة نقاط على الساحل ويتلقون العون لها من القسطنطينية عن طريق البحر • ولم يكن في وسع هؤلاء أن يقاتلوا العرب في معركة مكشوفة الا اذا ضمنوا معونة البربر لهم • وكان في وسع العرب عادة اذا بعثوا بجيش الى المنطقة أن ينتصروا على الروم والبربر معا في أية معركة • ولكن مشكلة العرب لم تكن في كسب المعارك ، بل في استتباب الأمن في البلاد • ويبدو أن عقبة قد فشل في حل هذه المشكلة • والمسافات طويلة للغاية في افريقيا بحيث عندما تمضي الجيوش العربية قدما في زحفها الى

(١) تشبيه في منتهى السخف ، وليس له أي داع ، الا الرغبة المكارئية السائدة منذ كثيرين باتهام الناس بالشيوعية • ولو كانت هناك شيوعية قبل معاوية بن أبي سفيان لما تورع المؤلف من اتهامه بالشيوعية • ولا أدري من أين جاء المؤلف بقصة « سوء ادارة » عقبة فليس في تواريخ العرب ما يدل على ذلك ، بل هناك ما يدل على العكس ، فقد روى الواقدي ما نصه : « وكان ابن نافع رجلا صالحا مستجاب الدعوة ، فدعا ربه فأذهب ذلك كله • حتى ان السباع لتحمل أولادها هاربة بها » ولا يمكن للرجل الصالح أن يهتم بسوء الادارة ولعل التفسير الصحيح لمرور عقبة هو أن مسلمة بن مخلد ، أمير مصر الجديد أراد أن يمين مولاة أبا المهاجر في منصب كبير ، فلم يجد الا امارة افريقيا التابعة له لمرور عقبة عنها وولى أبا المهاجر ، ولعل خير ما يؤيد هذا الاستنتاج عودة عقبة الى الشام وحنابه لمعاوية من معاملة أبي المهاجر ، واعتذر معاوية ووعده بإعادته الى منصبه ، وهو وعد لم يتحقق لان معاوية توفي بعده بقليل •

(العرب)

الامام ، تتاح الفرصة للبربر للثورة في مؤخرتها وقطع مواصلاتها ،
ويبدو أن عقبة اتبع طريق العنف والغارات الثأرية لمعالجة هذا الوضع
بينما جاء خلفه أبو المهاجر فاتبع طريق التفاهم . والبربر شعب عنيد
ومازالوا حتى يومنا هذا وعلى الرغم من انقضاء ألف وثلاثمائة عام على
أيام عقبة ، وأبي المهاجر ، يحتفظون بطابعهم الخاص ولغتهم . (١)

وكان عقبة قد عاد في غضون ذلك الى دمشق ، وتوفى معاوية عام
٦٨٠ ليخلفه ولده الطائش يزيد ، وقد أقتنع هذا بإعادة عقبة الى اماره
افريقيا وأعادته اليها في عام ٦٨١ . والثأر عند العرب للإساءة امر
مستلح . وقد ذاق عقبة حلاوته بوضع الاصفاذ في يدي أبي المهاجر ،
وجره منها وراءه حيثما ذهب . وسرعان ما اختفى كسيلة زعيم البربر
الذي تعاون مع أبي المهاجر ، في بطن الصحراء بينما اتجه عقبة على رأس
جيئته انسياقا منه وراء طبيعة المحاربة الى الغرب . فاجتاز منطقة
الجزائر كلها ، ودخل منطقة المغرب (مراكش) التي كانت تعرف آنذاك
باسمها الروماني «موريتانيا» واحتل طنجة ، ولم تكفه فتوحاته هذه بل
نزل مع الساحل المغربي على الاطلس حتى وصل الى السوس التي تلتقي
مع المحيط عند ميناء أغادير الحديث .

ومهما اتصف عقبة بالغطرسة والبعد عن الكياسة في الشؤون
السياسة الا ان مزاياء كجندي محارب تفرض الاحترام ، ويبدو أنه
زحف مسافة الالف والخمسمائة ميل من القيروان الى أغادير ، دون أن
يجزو أحد على مقاومته ، ولا ريب في أن هذه العملية التي كانت تفتقر الى
الموصلات المنظمة والى التموين والى القاعدة العسكرية هي اقرب الى الفارة
البدوية الضخمة منها الى الفتح الاقليمي ، لكن التوغل مسافة الالف

(١) يحاول المؤلف هنا جريا على المألوف الاستعماري اظهار الفرقة بين المغرب
والبربر في المغرب العربي ، وهي فرقة غذاها الاستعمار الفرنسي طيلة وجوده في افكار
المغرب الثلاثة ، إذ حاول أن يجعل من البربر اقلية مميزة . وعلى الرغم من انصياع
بعض الزعماء الاقطاعيين المرتبطين بالاستعمار الفرنسي الى رغبته ومعاونهم معه . كما
تعاون الزعماء الاقطاعيون وممثلوا الرجعية في المشرق العربي مع زميله الاستعمار
البريطاني الا أن جماهير البربر في افريقيا كانت شديدة الفروا في مقاومة الاستعمار
كأخوانهم الآخرين يضاف الى هذا أن التاريخ اثبت أن البربر هم من العرب . وقد
جاءوا من قبائل عربية هاجرت الى الشمال الافريقي قبل الاسلام بقرون طوال ، ولعل
حزولتهم من العرب هذه القرون قبل الفتح الاسلامي هي التي اوجدت الفروق اللغوية
التي يشير اليها المؤلف -

(المغرب)

وخمسمائة ميل في أرض مجهولة معادية لم يكن بالعمل المفتقر الى الشجاعة ، والاحتمال . وتقول الروايات ان عقبة ركب حصانه عندما وصل الى ساحل الاطلسي ومضى يخوض الماء ويقول وسيقه مشرع في يده «يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك » .

ويبدو ان النصر العظيم الذي حققه هذا القائد بمغامراته الجريئة ، قد جعلت منه انسانا مغرقا في الثقة بنفسه ، فقد شرع الآن في العودة الى الشرق ، وقد تولد لديه الانطباع بأنه قضى على كل مقاومة ، ولذا فقد جزأ جيشه الى عدة ارتال أخذت تدرع الارض نهبا وسلبا ، وغايتها فرض النظام على البلاد ، وهي مهمة كان من الواجب عليه أن يقوم بها قبل التوغل مثل هذه المسافة البعيدة . ويحتمل أن يكون افتقاره الى العطف على البربر قد جعل من المتعذر عليه الحصول على أية معلومات عن حركات البربر أو أن يكون اعتداده المبالغى بنفسه قد حمله على اهمال هذه الناحية .

ويكفي أن نقول ان البربر نصبوا للقوة الصغيرة التي كان يقودها بنفسه كميناً عند تهودا القريبة من مدينة بسكرة الحالية ، وذلك بقيادة كسيلة زعيم البربر ، وظل عقبة ورجاله يحاربون حتى قتلوا عن بكرة أبيهم ، وبينهم أيضا أبو المهاجر المسكين ، الذي قتل وهو في أصغاده ؛ وقد حدثت هذه النكسة المفجعة في عام ٦٨٣ (١) .

وما كادت أنباء الكارثة تذاغ ، حتى نشبت ثورة عامة اشترك فيها البربر في كل مكان واضطر العرب الى الجلاء عن جميع المناطق التي

(١) يتجاهل المؤلف هنا قصة تشير الى اخلاص العرب لقضيتهم وايمانهم بها برغم كل شيء فلقد ذكر المؤرخون العرب ان عقبة وصل الى تهودا على رأس نفر يسير فلما رآه الروم في قلة طعموا فيه . فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقتلوه وهو يدموهم الى الاسلام فلم يقبلوا منه . وكان في الجيش كبير في البربر اسمه كسيلة ، كان قد أسلم في أيام أبا المهاجر . فلما جاء عقبة ، وأساء الى أبي المهاجر ، استخف بكسيلة هذا وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر (برغم ما لحقه من سوء) أوثق الرجل فاني أخاف عليك منه ، فتهاون به عقبة . فلما رأى الروم قلة من مع عقبة ، راسلوا كسيلة في أن ينضم اليهم ، فقبل وجمع أهله وبنى عمه . وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر ، هاجله قبل أن يقوى جمعه فرفح عقبة على كسيلة ، فتحنى هذا عن طريقه ليكثر جمعه ، ولا كثر اتفاق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوه جميعا ، وكان في القيروان قيس بن زهير البلوي خليفة لعقبة . فأراد القتال فلم يطعه الجيش . فاضطر الى مبارحة القيروان والمسير الى برقة والمقام بها . أما كسيلة فانه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الانفال والدراري من المسلمين واستولى على افريقية .

(العرب)

فتحتها عقبة وبينها القيروان أيضا • وعادت برقة الحد الفاصل للسيطرة العربية في افريقيا ، ولكن عقبة جعل من فتح العرب لافريقيا شيئا محتوما ، اذ أن التاريخ أقام الدليل المرة تلو المرة ، على أن مثل هذه النكسات لا تؤثر على قوة عسكرية مازالت في دور النمو والحيوية • هالتصميم على استعادة الهيبة التي تفقد في النكسات ، يجعل من إعادة الاحتلال أمرا حتميا •

سبق لي ان ذكرت ان الاسطول العربي في عهد معاوية ، أغار أكثر من مرة على جزيرة صقلية ، وتقول رواية غريبة أن المغيرين حملوا معهم ذات مرة • «أصناما» من الذهب والفضة مرصعة بالآلآء • ولعل من المهم أن نشير الى ماطراً على العقلية العربية من تغيير بأن نقول ان الخليفة بدلا من أن يحطم هذه الأوثان بعث بها الى الهند حيث ظن أن يبيعها هناك قد يأتي له بثمن أفضل من أى مكان آخر •

واستولى أسطول عربى فى عام ٦٧٢ على جزيرة رودوس وأمر الخليفة بإقامة جالية عربية فى الجزيرة ، التى استعملها العرب قاعدة أمامية للهجوم على القسطنطينية ، وكذلك قاعدة تهاجم منها المراكب العربية تجارة الروم فى البحار ، وظلت الجزيرة فى أيدى العرب ثمانى سنوات ثم عادوا فتخلوها عنها بعد وفاة معاوية ، وشن العرب كذلك غارة على جزيرة كريت ، ولاريب فى انها كانت جزءا من العمليات الحربية ضد الروم •

وعلى الرغم من اتساع العمليات التى جرت فى عهد معاوية فى الغرب ، ومن عمق أهدافها الا ان معظم مآحقته من تقدم كان موقوتا اذ ضاعفت معظم المكاسب عند وفاته • ولاريب فى ان هذه النكسات انما نجمت عن اتساع الميادين وعن فشل الحملة على القسطنطينية • ولو استخدمت القوة التى استنزفت فى القسطنطينية فى مكان آخر بعناية وحرص ، لكان فى امكان العرب أن يثبتوا أقدامهم فى شمال افريقيا ، وكذلك كما سبق لي ان ذكرت فى ايطاليا واسبانيا • ومع ذلك كان العرب البدائيون قد تمكنوا قبل عشرين عاما وفى خلافة عمر بن الخطاب من تحطيم امبراطوريتى الروم والفرس فى ان واحد • وهكذا فان التقدم على جميع الجبهات أصبح شيئا مألوفا لديهم ، ولم يعد العرب فى أيام معاوية قطعانا من البدو الألفاظ بل أصبحوا يحكمون امبراطورية ذات

حضارة ، لكن الحماس الطاغى الذى شهدته سنوات الفتح الاولى لم يعد يقدوهم اما الى النصر أو الى الجنة .
 وهناك سبب آخر أدى الى عدم الافادة من عمليات معاوية الحربية فى الغرب . فلقد أسفرت الغارات الكثر التى شنت فى عهده فى البر والبحر الى اضعاف كل مقاومة . فمهما حدث من نكسات فى افريقيا ، فقد كان فى مكنة العرب أن يبعثوا بقوات جديدة وأن يستعيدوا كل مايفقدونه من أراض . ولو عاش معاوية أطول مما عاش لاحتفظ العرب برودس ولاحتلوا صقلية احتلالا نهائيا . ولكن قدر للعرب أن يعودوا الى التفريق بعد وفاته وإلى محاربة بعضهم بعضا فى حرب أهلية دامت اثنى عشر عاما ، توقفت إبانها كل توسع نحو الغرب ، وهكذا ضاعت ثمرة عمليات معاوية الحربية قبل أن يستأنف الهجوم فى عام ٦٩٠ .

وإذا كانت عمليات معاوية الواسعة فى الغرب قد انتهت الى نتائج غير ملموسة فان هذا لا يصدق بالنسبة الى عملياته فى الشرق . فلقد كان له فى العراق قائدان عظيمان أولهما المغيرة بن شعبة ، القائد الخشن المتميز بالحيوية والشخصية القوية ، ولم يكتف كأمير للكوفة فى عهد معاوية بفرض الامن والاستقرار فى ذلك المجتمع الكثير الفوارق بل دفع جيوشه الى فتوحات جديدة فى شمال فارس . أما القائد الثانى فزياد بن أبيه الذى أصبح يدعى الآن زياد بن أبى سفيان ، وهو الأمير الذى اختاره معاوية للبصرة والذى امتاز بالذكاء الذى يفوق ذكاء المغيرة ، وقد تولى زياد قيادة الجيوش العربية فى جنوب فارس ، وتعاون القائدان تعاونا وثيقا ورائعا ، ومات المغيرة عام ٦٧٠ ، وكان معاوية قد قضى نصف الوقت المقدر له خليفة على المسلمين ، وعندما اختار الخليفة زيادا لامارة الكوفة بالاضافة الى البصرة ، نقل هذا مقر قيادته اليها وأصبح مسئولا عن جميع العمليات فى فارس كلها .

وكان العرب قد وصلوا الى كش (هندكوش) أيام خلافة عثمان . ولكن حكمهم فى تلك المنطقة التى أسماها العرب سجستان لم يستقر مطلقا ولكنهم عادوا الى التقدم شرقا فى عهد معاوية فوصلوا الى كابل التى حاصروها ، وتمكن العرب عن طريق مجسانيةهم من فتح ثغرة فى الاسوار ، اندفعوا منها يشتون هجوما على المدينة لاقتحامها ولكنهم فشلوا فى تحقيق غايتهم . وعندما طلع صباح اليوم التالى تشجع حماة المدينة بدحرجهم للهجوم العربى فى اليوم السابق ، ففتحوها أخذ الابواب

وخرجوا منه يشنون هجوما مضادا على العرب يتقدمهم أحد الفيلة الذي أصابه فارس عربي بجراح . وقد فشل الهجوم المضاد واضطر حماة المدينة الى الانسحاب ، ولكن الفيل الجريح سقط في بوابة المدينة مما أدى الى تعذر اغلاقها والى اقتحام العرب للمدينة فوق جثة الفيل ، وقد ثارت كابل مرتين في عهد معاوية ، ولكن الثورة كانت تخمد في كل مرة ، ويعود العرب الى تثبيت أقدامهم فيها ، وقد أقامت جاليات عربية في أنحاء متفرقة من خراسان وسجستان ، كما جند الخراسانيون كمتطوعين للدفاع عن المضائق الجبلية في جبال طوروس ضد الروم .

ومات زياد بن أبيه عام ٦٧٣ واختار معاوية ولده البالغ الخامسة والعشرين من سنه ، عبيد الله بن زياد أميرا على خراسان . وعبر عبد الله نهر سيحون في عام ٦٧٤ على رأس قوة قوامها أربعة وعشرون ألفا ، حاصر بها مدينة بخارى التي كانت تحكمها خاتون زوجة خاقان الترك الكبير ، واضطرت خاتون الى مصالحة عبيد الله مقابل دفع الجزية ، ونقل عبيد الله في عام ٦٧٦ أميرا على البصرة ، وخلفه في إمارة خراسان سعيد ابن عثمان بن عفان . ونقضت بخارى العهد وثار على العرب . ولكن سعيدا عاد فقطع نهر سيحون من جديد على رأس جيش أعاد احتلال المدينة لينتقل منها الى سمرقند ، ودارت معركة عنيفة خسر فيها سعيد إحدى عينيه ، ولكنه تمكن من اخضاع المدينة وفرض الجزية عليها .

وتقلص حكم العرب وراء النهر ابان فترة الحروب الاهلية التي تلت وفاة معاوية تماما كما حدث في الغرب . ولكن العرب عادوا الى التوسع من جديد بعد انتهاء هذه الحروب ، وهكذا انتشر الاسلام الى تركستان واوزبكستان اللتين تؤلفان الآن جمهوريتين من جمهوريات الاتحاد السوفياتي ، وقد أثمرت هذه الفتوحات وجود نحو من عشرين مليونا من المسلمين في روسيا السوفياتية .

ووصل العرب في الجنوب الى منطقة تقع حول البنة ولاهور (بانو ولاهور) وهي في منتصف الطريق بين كابل وملتان (مولتان) واحتلوا في الوقت نفسه قندهار ، وكانت سرية استطلاع عربية قد وصلت في أيام خلافة عثمان بعد عبورها مكران الى حدود الهند ، ويبدو أن قائد السرية قد حمل صورة سيثة عن تلك البلاد اذ وصفها للخليفة عثمان الذي سأله عن أحوالها بقوله : «ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل . ان قل الجيش فيها ضاعوا ، وان كثر جاعوا » وأدى هذا الوصف الى تحريم عثمان على الجيوش العربية أى تقدم عبر صحراء مكران

التي يسميها العرب بلاد القيقان ، وعندما جاء معاوية الغي ذلك الامر فوصلت جيوش العرب في اماره زياد بن أبيه الى السند والى دلتا النهر فيها . لكن فتح السند لم يكن قد كمل عندما توفي معاوية ، وقد قدر للحروب الاهلية العربية أن تضع نهاية لاي توسع لعدة سنوات قادمة .

ويتبين من هذا ان السنوات العشرين التي قضاها معاوية خليفة المسلمين امتازت بالنشاط الحربي الواسع ، وكانت هذه الفترة أيضا مرحلة انتقالية ، ففي خلافتي أبي بكر وعمر لم يكن هناك تخطيط عسكري من مقر القيادة العليا في المدينة . وصحيح ان الخليفة كان يوافق على كل زحف أو حركة الى الامام ، ولكنه لم يكن يرسم خطة هذه الحركة ، وكانت الجيوش وحدها أو القبائل في كل منطقة من المناطق هي التي تضع مطالبه بالاندفاع والزحف . ولكن كثيرا ما كان الخليفة يرفض الموافقة على تقدم جديد يلحف بطلبه القادة المحليون ، يضاف الى هذا أن الخليفين الأولين لم يكونا مرغمين مطلقا على تأمين المال أو السلاح اللازمين للحرب ، بل كانا يطلبان من الجيوش المحاربة أن تبعث لهما بالمال ، وكانت كل حملة من الحملات تؤمن من الغنائم ما يكفي لاعداد الحملة المقبلة بالاضافة الى مبلغ محترم يرسل الى المدينة .

ولكن عندما جاء معاوية الى الحكم كان قد انقضى على وفاة النبي نحو ثلاثين عاما ، ولم يكن قد ظل على قيد الحياة من الصحابة الا نفر قليل طعن في السن . وكان حماس الايام الاولى العنيف والعاطفي قد أخذ يسير في طريق الدبول ، وأدى مصرع عثمان وماتبعه من حرب اهلية بين علي ومعاوية الى الكثير من خيبة الامل . يضاف الى هذا ان جمع المال والرقيق والجواري أدى الى انحلال في الاخلاق وضعف في النشاط والحيوية . وقد ترهل فرسان العرب الفارعو الاعواد والصلبو الشكيمة ، وأصبحت لمعظمهم كروش كبيرة ، وأضحى معاوية في أخريات أيامه مترهلا بحيث وجد نفسه مضطرا الى الجلوس على المنبر عندما كان يخطب الناس .

ولقد كان وقع الفتوحات العظيمة هائلا الى الحد الذي دفع الفاتحين الى اجتياح كل ما أمامهم دون مقاومة ، ودون تنظيم أو رواتب أو خطط أو حتى أوامر . . ولاريب في ان هذه الفتوحات تعتبر نذيرا للشعوب المتقدمة تقنيا في عصرنا هذا والتي تعتمد في الدفاع عن أنفسها على التقدم العلمي بدلا من المعنوية الانسانية ، أما وقد أقيمت الامبراطورية العظيمة ، فقد أصبحت في حاجة ماسة الى التنظيم . ولم يكن عدد العرب

الأتقاج القاءمين من الجزيرة العربية كافيا لاجتياح العالم ، وأصبح من الضروري تجنب غير العرب ، كآبناء خراسان مثلا للقتال فى الغرب ، وتحتم استخدام نصارى الشام وأقباط مصر فى الأعمال الحكومية ، ونقل الهنود مع جواميسهم من السند الى دلتا الفرات ودجله • ونقل الفرس من مقاطعة فارس الى انطاكية ، ولم يكن فى وسع امبراطورية متعددة الأجناس يدين رعاياها بديانات مختلفة أن تؤلف شعبا واحدا منسجما ومخلصا له معنوياته القوية كالشعب الذى أندفع من الجزيرة العربية قبل نحو من ربع قرن •

وهنا أخذ معاوية على عاتقه مهمة تنظيم هذه الامبراطورية • ونحن نسمع فى عهده لأول مرة عن وجود قوات للشرطة فى الكوفة والبصرة ، مما يشير عادة الى وجود ادارة متحضرة ، وأصبح القضاء ومديرو الخزانة وقادة الشرطة يعينون الآن فى الامصار تماما كما يعين الامراء ، ودشن معاوية فى عهده أول خدمة للبريد • كما حاول تنظيم الشؤون المالية • وان لقى فى هذا الامر صعوبة فائقة من جراء الحقيقة الواقعة وهى ان موظفى الخزانة فى مصر كانوا يكتبون حساباتهم بالقبطية ، وفى سوريا بالآغريقية وفى المناطق الفارسية القديمة بالفارسية ، وغدت مشكلة اللغة فعلا مشكلة ملحة • ولعل من أهم الأسباب التى أدت الى نجاح زياد ابن أبية فى عمله كأمر للعراق تحمله عناء تعلم الفارسية • فلقد أصبح لزاما على العرب اذا أرادوا الاحتفاظ بالسيطرة المطلقة على شئون امبراطوريتهم العظيمة أن يتعلموا • لكن البدو ظلوا ينظرون الى التعليم على أنه شيء مخنت للنساء لا للرجال ، فمثلهم العليا فى الرجولة تتجسد فى الضرب بالسيف والرمح ، وفى الجود ، وكرام الضيوف وإغاثة المحتاجين ، وكانوا يرددون دائما وهم على حق ، ان مزاياهم هذه هى التى فتحت هذه البلاد الشاسعة التى تؤلف الامبراطورية •

ولكن بينما كان الخليفة يواجه جميع هذه المشاكل كان عامة العرب يرفضون الاعتراف بان الاحتفاظ بالحماسة العنيفة التى حققت الفتوحات العظيمة بات متعذرا • وهكذا نرى عقبة بن نافع يندفع مسافة ألف وخمسمائة ميل مجتازا الشمال الأفريقى كله ليصل الى ساحل المحيط ، فيندفع فيه بفرسه • وكان هذا القائد يرى متجاهلا أصول الدبلوماسية أو قواعد التنظيم أو الادارة والشؤون المالية ، ان مهمة العربى اعلاء كلمة الله ونشرها فى عالم مشترك ، بقوة السيف ، أو سلطة الرمح ، مستخدما فى مهمته هذه الجمال أو الخيل ، وظلت موجة المد الخارجى مندفعة عبر

نهر سيحون الى سهوب آسيا الوسطى وعبر الممرات الجبلية في سلاسل هندوكوش الى الهند حاملة معها هتاف «الله أكبر» دون أن تدرك ان الزمن قد تغير ، وان الحفاظ على الفتوحات التي تحققت يتطلب التنظيم والادارة والجهازين القضائي والمالي ، وقد أدى الافتقار الى مثل هذا الاساس التنظيمي الى ضياع هذه الفتوحات المرة تلو المرة ، دون أن تتوطد اقدام العرب فيها الا بعد أن تم لهم بناء الجهاز الحكومي الفعال .

وكان عهد معاوية فترة انتقال من ناحية أخرى أيضا ، ولعل القارىء يذكر ان الهدف الذى وضعه عمر بن الخطاب نصب عينه ، اقامة عنصر عربى متفوق متخصص فى الحكم والحرب يعيش منعزلا فى القواعد العسكرية الكبيرة التى أقيمت له فى مختلف الامصار بعيدا عن الاختلاط بالشعوب المحلية . وكان دور الشعوب المحتلة فى هذه الامبراطورية العربية العمل وتأمين الدخل اللازم لنفقة الحكومة ونفقات الجيوش العربية . وقد حظر عمر على العرب امتلاك الارض رغبة منه فى الحفاظ على هذا النظام (١) .

وعندما جاء معاوية الى الحكم فى عام ٦٦٠ ، اخذ النظام الذى وضعه عمر يسير فى طريق الزوال شيئا فشيئا ، فلقد شرع العرب فى تملك الاراضى الواسعة فى منطقة البصرة أو فى مناطق فارس . ولقد سبق لى أن أشرت الى أن عمرو بن العاص كان يملك مزرعة فى منطقة بئر السبع . ومن المحتمل أن يكون عدد العرب الذين استوطنوا مصر أقل منهم فى

(١) رسم المؤلف هنا صورة مضللة كل التقليل للحكم العربى فى عهد الخلفاء الراشدين اذ صور هذا الحكم تصويرا تاليا يمثل « النظام الجديد » الذى اخذاه هتلر لاوروبا فالعرب شعب سيد ومتفوق وواجب الشعوب المحتلة لتأمين الفداء والمال للشعب السيد وحكومته . حقا انها صورة مضللة كل التقليل لعمر بن الخطاب سار فى حكمه كما يعترف المؤلف نفسه على هدى القرآن الكريم ، وسنة رسول الله (سلم) وكان متمسكا أشد التمسك بأحكامهما . والدين الإسلامى يقول صراحة ، ودون أية مواربة : « أن لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » ومن هنا يعدم ادعاء التفوق العنصرى ، وانما هناك تفوق فى التقوى والصلاح والتدين : وكان فى مكتة غير المسلمين من أبناء سورية أو العراق أو مصر أو فارس من غير العرب طبعا أن يخلصوا من الجزية اذا اعتنقوا الاسلام وبذلك لا يبقى هناك تمييز للعرب عليهم . يضاف الى ذلك أن الجزية لم تكن تفرض على غير العرب بل على غير المسلمين . ومن هنا يتبين انها فرضت على القبائل العربية التى تدين بالنصرانية فى سورية والعراق كبنى تميم واللخمين والفساسنة ، وعلى هذا تكون الصورة التى رسمها المؤلف مضللة كل التقليل .

(العرب)

فى مكان آخر ، نظرا لأن ما امتازت به منطقة الدلتا من رطوبة لا يتفق مع أحوالهم الصحية لكن عدد الاقباط الذين تحولوا الى الاسلام أخذ فى التزايد ، مع مضي السنين ، وكان هؤلاء يصبحون بعد اسلامهم مساوين للعرب فاخذوا يحاوان ، تحقيقا لمطامحهم الاجتماعية ، أن يقدوا عربا فى كل شىء ، الى أن أصبح اسم الاقباط لا يطلق الا على المسيحيين . ومن هنا يصح القول بأن فكرة العرب كعنصر حاكم فاتح أخذت تضعف فى جميع ارجاء الامبراطورية شيئا فشيئا ، ولا سيما فى الامبراطورية المختلفة الاجناس التى حكمها الخلفاء والسلطين (١)

وعلى الرغم من الخدمات العظيمة التى حققها معاوية للعرب فانه فشل فشلا ذريعا فى اختيار خليفة صالح لهم يقبلونه جميعا . وكانت مسألة الخلافة من المشاكل المعقدة للغاية التى واجهت الاسلام منذ البداية ، وكان المبدأ الوحيد الذى أقرببه العرب الى حد ما فى البداية هو أن يختار الخليفة بإجماع أهل المدينة . لكن عاصمة الامبراطورية انتقلت الآن من المدينة الى دمشق ، وتحولت الاولى الى مجرد بلدة اقليمية ، وهكذا لم تعد السابقة الوحيدة المعروفة والمقبولة سهلة التطبيق .

وإذا كان ثمة من نظام معروف عند العرب ، فهو أن يختار الحاكم من أكثر أعضاء الاسرة الحاكمة كفاية ، فقد كانت هذه هى الطريقة المتبعة فى اختيار رأس القبيلة ، ولكنها كانت تؤدي أيضا وفى أحيان كثيرة الى خصومات وصدامات مسلحة ، يضاف الى هذا أن الصراع الدامى بين بنى هاشم وبنى أمية كان لا يزال فى أوجه ، بحيث أن أية محاولة لاختيار خليفة من قريش كلها كانت ستؤدي حتما الى حرب أهلية . وكان من الواضح أن اتباع الاسلوب العصرى فى انتخاب على مستوى الامة كلها مستحيل فى مجتمع تسوده الامية ويتفرق ابنؤه على مثل هذه المنطقة الواسعة . على أية حال ، اعتقد أن الانتخابات العامة لا تصلح للعرب حتى اليوم لأنهم أفراديو الشخصية لا يخضعون طواعية حتى لقرارات الاكثية فالديمقراطية الغربية لا تصلح مطلقا كشكل من أشكال الحكم

(١) رسم المؤلف صورة مضللة هنا ، إذ أراد أن يظهر أن كل من اعتنق الاسلام كان بدافع الانتهاز والتقرب من الحاكمين والتساوى بهم وهو قول خطأ كل الخطأ إذ لو صح دافع الانتهاز ، لانتقل المسلمون على دينهم في البلاد التى خضعت لغير الاسلام ، أو لتحول جميع الاقباط الى مسلمين طيلة ثلاثة عشر قرنا من الحكم الاسلامي .
(العرب)

لشعب يصبر على التمتع بحريته الشخصية بل تصالح للشعب المستعد للتضحية بجزء من حريته لمصلحة المجموع والنظام .

يضاف الى كل هذه التعقيدات ، أن معاوية كان يخشى ولا شك من أن يؤدي اختيار هاشمي للخلافة بعده ، الى أن يستهل هذا الهاشمي حكمه بإزالة كل مرشح محتمل من الأمويين من الوجود . ولهذا رأى معاوية أن الاختيار يجب أن يظل محصورا في بنى أمية ، بشرط أن يظهر اختياره بأنه اختار أفضل مرشح من قريش ولكنه اختار بدلا من ذلك ولده يزيد المعروف بالطيش والتفكر للدين .

وكان لهذا الاختيار سيئات عدة من وجهة النظر العربية . وأول هذه السيئات أن هذا الاختيار ، وعدهم بحاكم عاجز ، إذ أن شخصية يزيد كانت معروفة لهم جميعا ، وثانية هذه السيئات أن اختيار يزيدد العرب باقامة نظام الملكية الوراثية وهو نظام يتناقض مع الروح العربية القديمة ومع الاحاسيس الدينية الاسلامية . وكان لعوامل الفيرة الجغرافية أثرها أيضا . فلقد نمت المدينة على الحكم بسبب نقل العاصمة الى دمشق . وكان فيها المرشحون الصالحون الذين يستطيعون إقامة مركز الخلافة في مدينة الرسول ثانية . وكان على في عهده القصر قد جعل من الكوفة عاصمة له وكانت هذه المدينة المتقلبة الجياشة بالفتن لا تزال تحلم بأن تصبح عاصمة الامبراطورية . وأخيرا كان المسلمون الصادقون الواعون لا يزالون يعتبرون الخليفة أمير المؤمنين والخليفة المقدس لرسول الله ، ولذا كانوا يطلبون منه أن يكون متفوقا على جميع المسلمين في دينه وتقواه ، وبدا لهم اختيار شاب متلاف فاسق كيزيد ، نشأ في أحضان الترف وفي ربوع دمشق اللاهية شيئا يقرب من الكفر .

وكان معاوية مدركا كل الادراك للعقبات التي تقف في طريق ولده لتولى الخلافة ، فعزم على التغلب عليها بأقصى ما يستطيع من جهد ، وراح يتشاور سرا مع عماله في الأمصار والأقاليم . ويحاول بما تسميه اليوم بوسائل الدعاية والاعلام تحسين سمعة يزيد عند عامة الناس ، وتحقيقا لهذه الغاية أوفده الى الجيش الذي يحاصر القسطنطينية رغبة منه في أن ينال فضل الاشتراك في الجهاد . وقدم معاوية في بعض الحالات رشواوى تقديده لتخفيف حدة المعارضة لولاية يزيد ، وأخيرا صدرت التعليمات الى أمراء الأمصار في عام ٦٧٦ بأن يؤلفوا وفودا كل في منطقته تصل الى دمشق لتطلب في الظاهر من الخليفة اختيار ولده وليا لعهد ، وعندما وصلت الوفود الى العاصمة ، وافق معاوية على طلبية طلبهم وأعلن ولده يزيد وليا لعهد .

وسرعان ما تبين أن المدينة ستكون أكثر مدن الامبراطورية معارضة -
لخلافة يزيد . فقرر معاوية تبعا لذلك أن يمضى بنفسه اليها ليضمن عن
طريق شخصيته ومكانته تحقيق النجاح في اختيار ولده لولاية العهد .
ووصل أخيرا الى المدينة تحيط به ثلة من الحرس تضم ألف فارس ،
وسرعان ما وجد أن قادة المعارضة أنفسهم يطمعون جميعا في الخلافة .
وكان الحسين بن علي أول هؤلاء ، إذ أن أخاء الحسن كان قد انتقل
الى رحمة الله . وكان هناك أيضا عبد الله بن الزبير الذي استشهد ابوه
في معركة الجمل بعد أن كان ينافس عليا على الخلافة وكان هناك أيضا
عبد الرحمن النجل الأكبر الباقي على قيد الحياة لأبي بكر ، وكذلك
عبد الله بن عمر بن الخطاب . وماكاد معاوية يصل الى المدينة حتى كان
هؤلاء المعارضون جميعا يغادرونها الى مكة ، أما من تبقى من أهل المدينة
ليها فقد بايعوا يزيد .

وتلدرع معاوية برغبته في أداء العمرة فسافر الى مكة حيث حاول
أن يقتنع الناس هناك بالموافقة على بيعه يزيد . وعند ما اتصل بعبد الله
ابن عمر بن الخطاب ، رد هذا بأنه كان ثمة خلفاء قبل معاوية ، وكان
لكل منهم أبناء . لا يقلون فضلا عن أبناء معاوية ولكن آبائهم لم يختاروهم
لخلافتهم . وكان رد عبد الرحمن بن أبي بكر أكثر عنفا وشدة ، إذ
أعلن بصراحة معارضته لبيعة يزيد وذلك لأن اختيار الخليفة قضية تتطلب
أقرار عامة المسلمين . وكان عبد الله بن الزبير أشد عنفا في رفضه البيعة
ليزيد . واضطر الخليفة أخيرا الى العودة الى دمشق دون أن يأخذ
البيعة ليزيد من منافسيه . (١)

(١) اختصر المؤلف أشد الاختصار قصةبيعة يزيد وقد دفعه اختصاره هذا على
القالب الى مغالطة الروايات الصحيحة . وأرى أن أسرد هنا الرواية مختصرة كما وردت
في التواريخ الاسلامية :

كان المغيرة بن شعبه أول من اقترحبيعة يزيد ، إذ دخل على يزيد فقال : « لقد ذهب
أميان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش وذوو أسنانهم وإنما بقي
أبنائهم وأفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة . ولا أدري ما يمنع أمير
المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟ قال يزيد : أو ترى ذلك يتم ؟ قال نعم . فأخبر يزيد أباه
بما قال المغيرة فأحضره معاوية وسأله عما قال ليزيد فقال : قد رأيت ما كان من سفك
الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف ، فاعتقد له فإن حدث بك حادث كان
كهفا للناس وخطا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة . قال ومن لي بذلك ؟ قال أكفك
أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصريين أحد يخالفك . قال :
فارجع الى عمك وتحدث مع من تثق به في ذلك وترى ونرى .
وجاء وفد الكوفة الى دمشق أول من جاء وذين الوفد لمعاويةبيعة يزيد فقال :

توفي معاوية عام ٦٨٠ ، وكان قد احتفظ لمدة تزيد على الخمسين

لا تجعلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم فرجوا وتوى عزم معاوية على البيعة ليزيد وارسل الى زياد امير البصرة ليستشيره ، فاشاور عليه هذا بالتؤدة وعدم العجلة ، فقبل منه معاوية فلما مات زياد ، مزع معاوية على البيعة ليزيد ، فكتب الى مروان بن الحكم امير المدينة يقول له : اني كبرت سني ودق هظمي وخشيت الاختلاف على الامة من بعدى وقد رايت ان اتخير لهم من يقوم بعدى وكرهت ان اقطع أمرا دون مشورة من عندك فامرض ذلك عليهم واعلمني بالذي يردون عليك ، فقسام مروان في الناس فاختبرهم . فقالوا : اصاب ووفق ، وقد احببنا ان يتخير لنا فلا يالو ، فكتب مروان الى معاوية بذلك فاعاد اليه الجواب فذكر يزيد فقام مروان ليهم فقال : ان امير المؤمنين قد اخذ لكم فلم يال ، وقد استخلف ابنه يزيد فقام عبد الرحمن بن ابي بكر ، وقال : ما الخيار اردتم لامة محمد ولكنكم تريدون ان تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل ، قام هرقل وانكر ذلك الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير فكتب مروان الى معاوية بذلك .

وتمكن معاوية من ضمان البيعة لولده من اهل العراق والشام ثم سار الى الحجاز في الف فارس ، فلما دخل المدينة خطب الناس . فذكر يزيد فمدحه وقال : من احق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه وما اظن قوما بمتمهين حتى تعييبهم بوائق تجتث اصولهم وقد اثلثت ان اثلثت الناس .

وكان المعارضون قد تركوا المدينة الى مكة فخرج معاوية وقضي بها نسكه ثم جمعهم وكانوا قد انفقوا على ان يكون الذي يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية : قد علمتم سريتي فيكم وصلتي لارحامكم وحملتي ما كان منكم ويريد اخوكم وابن عمكم وارتدت ان تقدموه باسم الخلافة وتكونوا انتم تملكون وتأمرون وتحبون المال وتقسونه لايعارضكم في شئ من ذلك فقال ابن الزبير : لخيرك بين ثلاث خصال . قال امرضاها قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضي ولم يستخلف احدا فارتضي الناس ابا بكر ، قال معاوية ليس ليكم مثل ابي بكر قال عبد الله وانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بني ابيه فاستخلفه وان شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الامر شورى في ستة نفر ليس فيهم احد من ولده ولا بني ابيه قال معاوية : هل عندكم غير هذا فقالوا لا قال : فاني احببت ان اتقدم اليكم انه قد امدد من انذر ، اني كنت اخطب فيكم فيقوم الى القائم منكم فيكذبني على رموس الناس فاحمل ذلك فاصفح فاني قائم بمقالة فاقسم بالله لئن رد على احد منكم كلمة في مقامى هذا لا ترجع اليه كلمة حتى يسبقها السيف الى راسه فلا ييقن رجل الا على نفسه ، ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال اقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليطرباه بسيفيهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال : ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا بيت يأمر دونهم ولا يقضي الا عن مشورتهم وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله قبائع الناس وكانوا يتربصون ببيعة هؤلاء النفر لم ركب راحلته وانصرف الى المدينة ثم الى الشام وبرى أن ابن عمر قال لمعاوية ابايكم على أن ادخل فيما تجتمع عليه فوالله لو اجتمعت على جيش لدخلت معها .

(العرب)

عاما ببعض شعرات النبي وقلامه اظافره ، وعندما شعر بدنو اجله اوصى بأن تجعل في فمه وعينه وأن يلبس عباءة كان رسول الله قد أعطاه اياها ثم قال : افعلوا ذلك وخلوا بيني وبين أرحم الراحمين .



وهكذا انتهى عصر الفتوحات العربية العظيمة ، ففي أقل من خمسين عاما تمكن بدو الجزيرة العربية من أن يقيموا أعظم امبراطورية عرفها العالم آن ذاك ومن أعظم الامبراطوريات التي عرفها التاريخ . ولم تسبق لاية امبراطورية بمثل هذه الضخامة ، وذاك الاتساع ان أقيمت في مثل الوقت القصير باستثناء امبراطورية الاسكندر الكبير التي ما لبثت أن تمرقت عند موته ، أما الامبراطورية العربية فقد قدر لها أن تعمّر وهي كاملة زهاء قرنين ونصف القرن وأن تطول مدة تقلصها زهاء سبعة قرون .

ولعل من الطريف أن نعقد مقارنة بينها وبين امبراطورية الاسكندر التي كانت تشغل تقريبا البلاد التي شغلتها امبراطورية العرب ، فهناك من ناحية واحدة على الأقل مفارقة غريبة كل الغرابة ، إذ أن امبراطورية الاسكندر مدينة بوجودها الى شخصية رجل واحد ، تعتبر فوق المستوى العادي للانسان . ولقد قيل من الناحية الاخرى : ان العرب أقاموا امبراطوريتهم لا بفضل قادتهم بل على الرغم منهم . (١)

وكانت الفتوح العربية فريدة في نوعها من ناحية أخرى فقبل أن تبدأ هذه الامبراطورية كانت الدولتان العظيمتان في العالم آن ذاك تنظران الى العرب نظرة الأذراء . ولقد عاشت اليمن فترة مستعمرة حبشية ثم عادت فأصبحت مستعمرة فارسية .

(١) أو لا أهم معنى هذا التعبير مطلقا ، ولا أستطيع أن أقبل هذه المقارنة على النحو الذي صيغت فيه فكما أن امبراطورية الاسكندر ، مدينة بوجودها الى شخصية رجل فرد هو الاسكندر فان الامبراطورية العربية مدينة بوجودها الى شخصية النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم إذ تمكن من توحيد العرب وجمع شملهم تحت راية الاسلام وأبدلهم بنور الايمان أشخاصا آخرين حملوا كلمة الله لينشروها في العالم . فكانت تلك الفتوح العظيمة التي لم يشهد العالم مثيلا لها من قبل . ولعل الفرق الجوهري الذي فات المؤلف أن يذكره ، هو ان امبراطورية الاسكندر انهارت فور موته لانه لم يحمل للعالم رسالة كرسالة محمد صلى الله عليه وسلم أما امبراطورية العرب فقد ظلت قرونا طويلة لانها اتصلت برسالة (محمد) وكانت تجسيدا لها ولم تضعف هذه الامبراطورية وتصب بالانهيار الا بعد أن ضعف الاسلام في قلوب المسلمين . (العرب)

وكان الاميران العربيان الوحيدان اللذان يستحقان حمل هذا الاسم في الجاهلية خاضعين بدورهما لامبراطوريتي الروم والفرس ، ولم يكن العرب شأن يذكر في ميدان الحرب في أيام الجاهلية ، وكان الروم من الناحية الاخرى أشهر مقاتلين في تلك الايام . وترجع شهرتهم حتى الى الايام التي سبقت مجيء الاسكندر وفتوحه العظيمة . ولقد تطلب بناء الامبراطورية الرومانية قرونا طويلة من عمر الزمن ، وكانت فرنسا اقوى الدول الاوربية قبل مجيء نابليون بأمم طويل . اما العرب فكانوا فريدين في هذه السرعة التي تشبه سرعة العواصف والتي سار فيها مد فتوحهم بادئا من لاشيء .

ولقد غيرت السنوات الخمسون التي انصرفت بين عامي ٦٣٠ و ٦٨٠ خريطة العالم حقا . ولم يبق على هذه الخريطة من المعالم القديمة شيء . ولقد وصف البحر المتوسط في العهد القديمة بأنه حوض روماني ، اذ كان قلب امبراطورية الرومان ومركزها الحساس وكان الوسط الذي يرتحل فيه الرومان من مصر الى مصر ، ومن اقليم الى اقليم . وكان الساحل الشمالي لافريقية جزءا من العالم الذي يضم فرنسا واسبانيا وايطاليا . وكان الشرق يبدأ عند الحدود الفاصلة بين رومة وفارس وهي الحدود التي تقوم الآن بين سورية والعراق . وجاءت الفتوح العربية فجزأت البحر المتوسط الى جزاين شمالي وجنوبي ، وعلى الرغم من أن بلدان الامبراطورية العربية لم تكن مأهولة بشعب واحد وعلى الرغم من أن الشمال الافريقي يختلف اليوم اختلافا كبيرا عن الجزيرة العربية ، فإن الفتوح العربية فرضت كمشكل ظاهري على الاقل طريقة الحياة نفسها على جميع البلاد الممتدة من فارس وحتى من الهند الى مراكش ، وهي الطريقة التي ندعوها اليوم بالطريقة الشرقية . وقد يكون من الصعب علينا أن ندرك أن شعبا واحدا كان يسكن الجزائر ومراكش في قارة افريقية ، واسبانيا وايطاليا ، في اوربا (١) .

(١) نحن نختلف مع المؤلف تمام الاختلاف في موضوع ما يقوم بين الجزيرة العربية والشمال الافريقي من فروق أو تباينات . فهو يصفها بأنها كبيرة للغاية ، ولكننا لا نرى انها تزيد بآية حال على الفروق التي تقوم بين اهل اسكتلندة مثلا واهل ويلز أو بين اهل ولاية نيويورك وولاية شيكاغو أو بين بافاريا وبروسيا في ألمانيا قالفة واحدة والمادات واحدة تقريبا ، والتاريخ واحد الى حد كبير بالإضافة الى وشائج الدين والدم والاماني والاهداف . وما قول المؤلف الا صورة من صور محاولات الاستعمار لايجاد الفرق بين أبناء الشعب العربي الواحد .

(العرب)

وهناك ظلال عدة من المعاني لكلمة « عظيم » الا أننا على العموم نربط بين هذه الصفة وبين شيء أكثر من مجرد الحجم ، ونحن نتحرى دائماً عن المزايا الروحية ، أو المعنوية التي في انسان أو في عمل نود ان نطلق عليه صفة العظمة ، وقد قدر للمسلمين بعد انتهاء الحروب الاهلية، أن يستأنفوا فتوحهم وأن يوطدوا أقدامهم في الشمال الافريقي ثم يحتلوا اسبانيا ويفزوا فرنسا وإيطاليا ويسيطروا على مالطة وصقلية لكن هذه العمليات العسكرية لم تعد كما كانت عمليات عربية صرفة . فلقد أصبحت الامبراطورية متعددة الاجناس والعناصر . ولم تعد صفة العظمة تطلق على هذه العمليات ، لانها لم تعد مستوحاة من ذلك الاخلاص العاطفي العميق العنيف الذي رافق فتوح العرب في الخمسين سنة الاولى

تواريخ بارزة

٦٦١	استتباب الامر لمعاوية
٦٦٣	وفاة عمرو بن العاص
٦٧٠	وفاة المغيرة بن شعبة
٦٧٠	انشاء مدينة القيروان على يدى عقبة بن نافع
٦٧٠	هجوم العرب على القسطنطينية
٦٧٢	احتلال رودس
٦٧٣	وفاة زياد بن أبيه
٦٧٤	حملة عبيد الله بن زياد على بخارى
٦٧٦	تعيين عبيد الله أميرا على البصرة
٦٧٦	اعلان ولاية العهد ليزيد
٦٧٧	العدول عن حصار القسطنطينية
٦٨٠	وفاة معاوية

شخصيات مشهورة

خليفة المسلمين	معاوية بن أبي سفيان
فاتح شمالى افريقية حتى الاطلس	عقبة بن نافع
أمير الكوفة وشمالى فارس	المغيرة بن شعبة
أمير البصرة وجنوبى فارس ، ثم أمير العراق وفارس كلها .	زياد بن أبيه

أمير خراسان ثم أمير البصرة
أمير خراسان
ابن معاوية وولى عهده

منافسو يزيد على الخلافة

* عبدالله بن زياد
* سعيد بن عثمان بن عفان
يزيد
الحسين بن علي بن أبي طالب
عبد الله بن الزبير
عبد الرحمن بن أبي بكر }
عبد الله بن عمر بن الخطاب

ذیل

لن يستطيع انسان أن ينكر أن الاحداث التى شرحتها فى هذا الكتاب قد بدلت تاريخ العالم ، ولقد أثرت أيضا تأثيرا عميقا على حياتنا وما زالت تؤثر مثل هذا التأثير حتى يومنا هذا . ولقد أدى اهمالنا لتاريخ هذه الاحداث الى الحيلولة دون تفهمنا ومن ثم دون معالجتنا معالجة حكيمة لعلاقتنا مع العرب خاصة ومع المسلمين عامة ، ولهذا فان من المجدى ان نأخص بعض العبر التى نستقيها من هذه الاحداث ومن رواية تاريخها .

تستمد الطريقة الاسلامية فى الحياة جذورها من مصدرين رئيسيين أولهما رسالة محمد نفسه ، والآخر عادات العرب فى القرن السابع ولعل اسهل طريقة نتبعها فى تحقيقنا هذا ان نبحث فى الموضوعات المختلفة وأن نتفحص كيف تأثر كل موضوع منها بهذين المصدرين اللذين ذكرتهما .

العلاقات الاجتماعية :

يبدو لنا بصورة عامة أن النبى كان انسانا كريما ، ولقد أثر بعطفه على الفقراء والمحتاجين والضعفاء وبانصرافه عن المال وحبه للأطفال وحرصه على النظافة وحنه الناس عليها على الطريقة الاسلامية فى الحياة تأثيرا كبيرا ، فهناك فى المجتمع العربى شعور بالبرقة والحنان والعطف لا يفهمه المجتمع الأوروبى .

وكانت طريقة العرب فى الحياة فى القرن السابع من الناحية الأخرى قاسية قد تصل فى قسوتها حدود الفظاعة . وقد أدى الافتقار الى أى شكل من أشكال الحكم المركزى الى أن يتولى اقرباء المجنى عليه أو المجنى عليه نفسه عقاب الجناة ولعل الثارات الدموية أكثر أمثلة هذا الشكل من أشكال القضايا يروضا وظهورا . فلم تكن هناك شرطة أو قوانين أو قضاة يتولون معاقبة القتلة . ولهذا كان اقرباء القتيل يحاولون أن يثأروا بقتل القاتل فان تعدد عليهم الوصول اليه فيقتل أحد اقربائه . وينطبق القانون نفسه على الجنايات الصغرى والجنىح كالاصابات بالجراح أو بالضرب أو السرقات . وقد أدى هذا النظام من الثأر الى الكثير من الاعمال الوحشية الفظيعة كما سبق لنا أن رأينا فى أحداث هذا الكتاب .

- وقد اقامت معظم الدول الاسلامية منذ القرن السابع ، وفي مختلف العهود أنظمة قضائية فعالة ونظمت فرق الشرطة . مما أقعد عمليات الثأر الشخصي ضرورتها ، ولكن فكرة الثأر لا تموت بسهولة ، وإذا شئنا التوسع في القول أمكننا القول بأن حق الثأر أو واجبه على الأصح قد بقى برغم جميع الاصلاحات الحديثة اذ أنه بات ، نتيجة جميع هذه الجذور القديمة ، مبدأ اخلاقيا يعترف به . ولعل هذه الناحية ، كما يبدو لى ، هى احدى نواحي التوجيه التى تختلف فيها المسيحية اختلافا بينا عن الاسلام ، فليس ثمة من توجيه للمسيحيين بأن يقابلوا الاساءة بالاساءة . أما في الاسلام ، فان حق الثأر مشروع بل أنه يعتبر في بعض الحالات واجبا اخلاقيا (١) .
- وقد سبق لى أن قلت ان النبى كان في حياته أكثر تأثرا باليهودية منه بالنصرانية (٢) يضاف الى هذا ، أن عرب القرن السابع كانوا لا شك يعيشون في الاوضاع الاجتماعية التى عاش فيها العبرانيون أيام العهد القديم « من التوراة » .
- ولقد كان ابراهيم وموسى النبيين المحترمين عندهم . وكان احترامهما يعادل ان لم يفتق احترامهم لعيسى . والعهد القديم يضم الافكار التى آمن بها العرب كالعين بالعين والسن بالسن أو واجب قتل الكفرة والمشركين . وكانت محبة الجار وكراهية العدو قاعدتين اخلاقيتين مقبولتين عند العبرانيين القدامى وعند عرب القرن السابع للميلاد .

(١) لا ادرى من أين استقى المؤلف هذا الانطباع الخاطئ اذ من القواعد الاسلامية التى يتعلمها المسلم منذ نعومة اظفاره الحظ على مقابلة الاساءة بالاحسان لا بالاساءة كما يزعم المؤلف . والقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف مملوءان بالآيات والاحاديث التى تحض المسلمين على العفو والصفح ومقابلة الاساءة بالاحسان ولا حاجة بى الى تعدادها أو البحث فيها ، لان هذا المجال ليس مجالها . ومن الغصال الكريمة التى يحض عليها الاسلام العفو عند المقدرة . وهو أعظم غروب العفو ، ومقابلة الاساءة بالاحسان .

(٢) أخطأ المؤلف أشد الخطأ في قوله هذا . فالاسلام جاء مكملًا للرسالات السماوية ومبشرا وتديرا . والمسيحية هى آخر هذه الرسالات قبل الاسلام ولذا لا يجوز القول بأن النبى كان أكثر تأثرا باليهودية منه بالنصرانية ، ولا سيما أن المسيحية نفسها تعتبر العهد القديم (التوراة) جزءا من أساسها الدينى . ولعل خطأ المؤلف يظهر أوضح ظهور في قوله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورجالا » كما أن ما ورد في القرآن الكريم عن عيسى بن مريم عليه السلام لا يقل أن لم يرد مما ورد عن موسى أو ابراهيم عليهما السلام . فكلم من الانبياء والمرسلين الذين يجلبهم الاسلام ويحترمهم كل احترام . (العرب)

وقد اوحى المجتمع العربى فى القرن السابع للمسلمين ايضا بمشاعر قوية من الالتزام العائلى ، وهو رأى له حسناته وسيئاته وأن كان غريبا كل الغرابة على الغرب المعاصر . فعلى الاسر فى المجتمع الاسلامى أن تعنى دائما بالعجزة من رجالها وباليتمى والمعتوهين وحتى بالفاشلين والخائبين .

ويختلف المجتمع الاسلامى فى هذه الناحية اختلافا بينا عن المجتمع الغربى الحديث الذى ينظر الى الاقارب عادة نظرتة الى معارف غير محبوبين والذى يترك العجزة أو المصابين عادة الى اقدارهم أو الى رعاية المؤسسات العامة . وإذا لم يكن المجتمع الاسلامى قائما على أساس الدولة التى تعنى بالخير العام للناس فإنه قائم على الاقل على نظام «الأسرة التى تعنى بخير أفرادها» التى ترعاهم حتى لو لم يكونوا يستحقون هذه الرعاية . لكن الوفاء للأسرة ينطوى على بعض السيئات اذ يفرض موظف الدولة على سركتها أو على قبول الرشا ليؤمن مثلا لأطفاله تعليما صالحا أو ليضمن لأمه العجوز العناية الطبية اللازمة (١) .

وكان النبى ميالا الى النساء (٢) ولذا فقد سمح الاسلام لاتباعه بالزواج على الا تعدى الريحات اربعا كما سمح باقتناء الجوارى ولما كان عدد الذكور يعادل عدد الاناث فى كل مجتمع فإن من المستحيل بحكم الواقع ان يتمكن غالبية الرجال من الزواج بأكثر من واحدة ، وازاء هذا التسامح كان النبى صارما كل الصرامة فى عقاب العلاقات الجنسية غير المشروعة . فعقوبة الزنا عادة هى الموت . وهناك عقوبات أخرى وضعت للفرز غير المشروع والتهتك . ولا ريب فى أن هذا الاسترخاء الراهن فى العلاقات الجنسية فى العالم المسيحى يثير تفرق المسلمين الصالحين

(١) حقا انها فكرة فى منتهى السخف فالرشوة أو السرقة تملكان بأخلاق الموظف الشخصية لا بأى شيء آخر وان كانت الدوافع المادية تترك اثرا . ولكن المؤلف كما يبدو نسي أن هناك أموال الزكاة التى نص عليها الاسلام ، وأن هذه الأموال تنفق على المحتاجين والمساكين سواء أكانت العلاقات العائلية تفرض التزاماتها أم لا تفرضها ولعل سخف رأى المؤلف يبدو من الحقيقة الواضحة وهى أن السرقات والرشا توجد حتى فى أكثر البلاد تنظيما لشئون اشتراكية الطب والتعليم ، ولا يخلو منهما أى مجتمع من المجتمعات مهما كان عظيما فى تقدمه .

(العرب)

(٢) سبق لى ان دحضت هذا الزعم الغربى المألوف فى تعليق سابق بينت فيه اسباب تعدد زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ،

(العرب)

ورعيتهم . ومن هنا يتبين ان اتباع كلتا الديانتين ينظرون الى الآخرين نظرة الاتهام باللاخلقية فى الناحية الجنسية (١) .

الحكم :

سبق لى أن بينت أن حقيقة جمع النبى بين السلطتين المدنية والدينية ، قد أدت الى خلاف جوهري بين الدولتين الاسلامية والمسيحية ولقد ظل الحكام المسلمون طيلة التاريخ الاسلامى ، والى ما قبل اربعين عاما فقط يجمعون عادة بين هاتين السلطتين وقد أدى هذا النظام الى تجنب الصراع بين السلطتين ولكنه فى الوقت نفسه مكن الحاكم من أن يستخدم ضد خصومه السياسيين تلك العقوبات التى وضعها النبى للمرتدين ، ولعل من أعقد المشاكل التى تواجه غير المسلمين عند تفكيرهم بأوضاع البلاد الاسلامية ان النبى لجأ الى استخدام الاغتيال ضد أعدائه . ولما كان كل ما فعله النبى يعتبر سنة صحيحة فان بعض الساسة يجدون المبرر للخلاص من خصومهم بهذا الاسلوب نفسه (٢) .

ولم يكن محمد كما رأينا نبى قومه فحسب بل كان حاكمهم أيضا وقد قضى القسم الاكبر من حياته فى صراع مرير سعيا وراء البقاء ، فى مختلف الميادين الاخلاقية والسياسية والعسكرية . وكان اتباعه يطيعونه فى مثل هذه الظروف الخطرة الرجاجة طاعة عمياء ، لانهم

-
- (١) يبدو ان المؤلف لم يفهم حقيقة النص على تعدد الزوجات فى الاسلام ، فالدين لا يبيح هذا التعدد بصورة اطلاقية ، حرة من كل قيد أو التزام ، فهو يبيح للمسلمين الزواج بأربع بشرط العدل بين الزوجات فى كل شيء وهو يعدد الزواج بواحدة ان تعدل العدل وهو متعدد بالنسبة الى اغلبيه الناس بحكم الفريضة والمأطفة . وقد أباح الاسلام هذا التعدد لمعالجة كثير من المشاكل الاجتماعية والحالات الجنسية الشاذة التى لا أريد الخوض فيها الآن . ولا اظن ان المؤلف يختلف معنا فى أن الزواج بأكثر من واحدة فى حالات مقيدة ومشروطة خير لمنفعة المجتمع وكيان الأسرة من العلاقات الجنسية غير المشروعة . اما بالنسبة الى الجوارى وهن الاسيرات فى أيام الحروب فان السماح بالعلاقات المشروعة منهن بالنسبة الى تلك الايام أحفظ لسلامة المجتمع من تقييدها شرعا . لتنتقل الفرائز التى لا سبيل الى التحكم فيها حرة بصورة غير مشروعة . (العرب)
- (٢) مغالطة واضحة من المؤلف اذ يتهم النبى (صلم) بإسماحه بالاغتيال السياسي ناسيا أو متناسبا ، ان النبى كان «القاسم» الاكبر» للمسلمين فاذا كان قد أمر أتباعه بقتل هذا أو ذاك من المرتدين أو المشركين أو أعداء المسلمين فان أمره هذا حكم قضائى وتنفيذه لا يعتبر اغتيالا وانما هو ايقاع لعقوبة أو قصاص . ومن هنا لا يكون من حق الحاكم ان يفعل ما فعله رسول الله ولا سيما اذا لم يكن الحكم اسلاميا فى كل شيء .
- (العرب)

يعتقدون ان كل ما يقوله أو يفعله انما هو من عند الله . وقد حاول خلفاؤه الأوائل ، كما سبق لنا أن رأينا ، كل ما في وسعهم لاتباع سنته سواء في أسلوب حكمه أو في طريقة حياته الخاصة ونتيجة لهذه السابقة الاولى . ظل الحكم الاسلامي مفردا كما كان الوضع في أيام النبی وخلفائه الأوائل (١) ولكن على الرغم من أن أبا بكر وعمر كانا حاكمين مفردين ، فانهما لم يكونا من الطغاة المتكبرين الذين يعيشون في عزلة عن رعاياهم فلقد كان من السهل كل السهولة الوصول اليهما وكانا ديمقراطيين ينظران الى الرعية نظرة الأب الى أولاده . وعلى هذا فالحكم الاسلامي مفرد ولكنه ممنوع من الاستبداد ، بتقليد قوى من مشاعر العطف والابوة .

وقد سبق لي أن اشرت الى الصعوبات التي واجهها المسلمون في اختيار خلفاء رسول الله . ولم يكن العرب يعترفون قط بالوراثة اساسا كافيا للخلافة فهم عند اختيارهم لشيوخهم القبليين العاديين يراعون ان يكون الشيخ عادة أكثر أبناء الأسرة الحاكمة كفاية وقدرة . أما في اختيار الخليفة فقد اتبعوا الطريقة الطبيعية جدا في الاختيار ، وهي ان يكون أكثر المسلمين صلاحا للمنصب ، وقد روعيت هذه الطريقة ولو من ناحية نظرية في اختيار الخلفاء الاربعة الأوائل . وأدت صعوبة اختيار الاصلح في الواقع وما نجم عن هذه الطريقة من تهديد بالحرب الاهلية الى اتباع طريقة اختيار البكر في الاسر الاسلامية الحاكمة الاخيرة لكن العرب على أية حال لم يقبلوا قط مبدأ خلافة الابن البكر لابييه خلافة رتيبة (أوتوماتيكية) .

ولعل من الغريب ان لا سابقة لفكرة تولي مجموعات من الرجال الحكم سواء كانت هذه المجموعات وزارات أو برلمانات أو لجانا في التاريخ العربي ، ففكرة الحكم عندهم تتجسد دائما في رجل واحد . ومن الواجب أن يكون هذا الحاكم دائما متواضعا خيرا تقيا كريما ويسهل الوصول اليه . ولا يسمح العرب بظهور طغاة مستبدين متعجرفين ولكن السلطة التنفيذية يجب ان تكون على أية حال في يد رجل واحد . ويمكن تتبع جذور هذه التقاليد كلها والعودة بها الى القرن السابع .

(١) لم يكن الحكم الاسلامي مفردا قط وانما كان شوري دائما سواء في عهد النبی أو في عهد خلفائه الأوائل . ولم يكن النبی أو أبو بكر أو عمر يستأثرون بالقرارات التي تتناول الشؤون العسكرية أو السياسية أو القضائية وانما يشاورون فيها أهل الشورى . ولذا لا يمكن أن تطلق على الحكم الاسلامي صفة « الاوتوقراطية » التي يطلقها المؤلف عليه .

(العرب)

وقد عملت الحكومات الغربية منذ عام ١٩١٨ وفي اوقات مختلفة
 جهد طاقاتها لاقامة انظمة انتخابية ديمقراطية في بلاد الشرق الاوسط
 ولكن الدساتير التي تنص على هذه الانظمة ما لبثت في جميع الحالات أن
 انهارت لتقوم مقامها حكومات عسكرية ، وعلى المرء ألا يستغرب هذا
 لان الحكم العسكري اقرب الى تقاليد العرب العريقة من نظم الديمقراطية
 الغربية . (١)

الحرب :

كان العرب في القرن السابع للميلاد يؤلفون شعبا محاربا للغاية
 ولكن اساليبهم في القتال كانت بدائية ليس الا . وكانوا يعتمدون على
 روحهم الحربية وعلى شجاعاتهم الشخصية الفردية اكثر من اعتمادهم
 على علم الحرب وفنها . وقد عاشت هذه التقاليد حتى يومنا هذا
 وكثيرا ماكلفت المسلمين ثمنا غاليا في الصراعات مع القتل المحترفين الذين
 يحاربون بقصد الفوز . فكل طفل مسلم ينشأ وقد امتلأ عقله بقصص
 حياة الرسول وقصص الفتوح العربية التي تقوم على اساس الشجاعة
 الشخصية مع اهمال المهارة أو الفن ، وقد عاشت هذه القصص حتى
 يومنا هذا في البلاد الاسلامية النائية وان كانت مطبقة اصلا في الجزيرة
 العربية وحدها .

ومن واجبا أن ندرك أن الجيوش البيزنطية والفارسية كانت أعظم
 القوات العسكرية في ذلك العهد ، وكان ضباط تلك الجيوش يدرسون
 المؤلفات عن التاريخ العسكري وفنون الحرب ، وكانت لكل من الجيوش
 تقاليدھا العسكرية الخاصة بها والتي تبلغ في عمرها عدة قرون وكان
 سلاحها من أحدث الأسلحة تقنية . ولم تكن تنظر الى الشعوب المتخلفة
 كالشعب العربي الا بعين الزراية والامتهان ، ولهذا فان الفتوح العربية

(١) ان هذه النظم الديمقراطية التي يتحدث عنها المؤلف والتي اقامها الغرب
 كما اعترف هو في معظم بلاد الشرق الاوسط كانت صورة مزيفة للديمقراطية اذ انها
 كانت في الواقع تجسيدا لديكتاتورية رأس المال والاقطاع وسيطرتهما على الحكم فالبرلمانات
 الرافقة التي خبرتها معظم البلاد العربية في ظل النظام الديمقراطي المريف لم تكن في
 الواقع الا التجسيد العملي لحكم رأس المال والاقطاع المتعاونين مع الاستعمار والمربطين
 في وجودهما ومصالحهما معه اذ ان معظم اعضاء هذه المجالس كانوا في كل انتخاب يمثلون
 مصالح رأس المال المستغل والاقطاع المتحكم . ولهذا فلا يمكن الحكم القائم على مثل هذه
 البرلمانات الرافقة ان يسمى بالحكم الديمقراطي .

(العرب)

العظيمة تنطوى على كثير من الدروس التي يجب علينا أن نتعلمها ، واحدها أن من الخطأ الاعتماد كلياً على التفوق التقني لكسب الحروب ، وكان الاجتهاد من الحروب قد نال من الفرس والروم ماناله ، بالإضافة الى ما امتاز به هؤلاء من ادعاء وغرور واستخفاف بالآخرين . وكان الكثيرون من رعاياهم غير مخلصين لهم ، وكانوا يكرهون الحروب كما كان تشككهم في الفائدة منها قد حطم معنوياتهم ، أما العرب فكانوا على التقيض من ذلك ؛ بسطاء متحمسين وراغبين في الموت ، ونحن نميل الى تناسي أن هذه المزايا ، لا العلم ، هو الاساس في بناء الجندي .

وهناك التباس ضخم اليوم حول ما للعرب من قيمة عسكرية ، فالمعروف أن الفاتحين العرب الأوائل لم يقوموا بأية محاولة وإن قاموا فبمحاولات لا شأن لها لتحويل الشعوب المحتلة الى الاسلام . وكان اصراهم الوحيد هو أن تدفع هذه الشعوب الخاضعة ضرائب اضافية وقد هبطت الشعوب المهزومة من الناحية الاجتماعية الى مرتبة المواطنين من الدرجة الثانية على حد تعبير المصطلحات الحديثة . ولكن المسلمين لم يطلبوا اليهم اعتناق الاسلام . أما اذا تحولوا الى الاسلام على أية حال . فإن هؤلاء سرعان ما يصبحون أندادا للفاتحين ، ويفقدون قادرين على الاختلاط بهم والتزاوج معهم . ولا يمضى طويل وقت حتى يصبح هؤلاء « عرباً » ، حتى لو لم تكن هناك كما هي الحالة بالنسبة الى كثيرين منهم نقطة واحدة من الدم الغربي تسرى في عروقهم ، وهكذا أصبحت كلمتا العربي والمسلم مترادفتين وترمزان الى شيء واحد .

ومع ذلك هناك ولا ريب تشابه ظاهري بين جميع الشعوب الناطقة بالعربية من حدود فارس حتى مراكش (١) . ومن واجبتنا ألا نرد هذا التشابه الى الجذور العنصرية بل الى تأثير الثقافة والدين ، ولم ينطو قبول غير العرب مع العرب على أساس المساواة الاجتماعية على التحول الى الاسلام فحسب بل انطوى أيضاً على تبني اللغة العربية كلغة قومية للجميع مما أدى الى قيام أدب مشترك وتعليم مشترك أيضاً .

(١) أن تعبير « الشعوب الناطقة بالعربية » تعبير استعماري مكرر يقصد منه تجزئة الأمة العربية الواحدة الى مجموعة من الشعوب مشترك في لغة واحدة هي العربية مع أن الشعوب العربية المقيمة بين فارس ومراكش شعب عربي واحد تؤلف اللغة المشتركة إحدى خصائصه بالإضافة الى الاشتراك في التقاليد والتاريخ والمادات والوانع المادي وأما المستقبل الواحد .

(العرب)

م ٣٦ - الفتوحات العربية

ولا تختلف العلاقة القائمة بين الشعوب الناطقة بالعربية اليوم عن تلك القائمة بين الشعوب الأوروبية . فقد يبدو لنا نحن البريطانيين أن اليونانيين أو النرويجيين غرباء عنا . كما أنهم غرباء بعضهم عن بعض ، ولكن بالنسبة إلى الآسيويين تبدو شعوب أوروبا وأمريكا الشمالية كلها متشابهة لأنها تشترك في تراث المسيحية المشترك . ومع ذلك فإن السلوك الذي يسلكه النرويجيون في أزمات الحياة يختلف عن سلوك اليونانيين ولا يكون التراث الديني والثقافي المشترك بينهم حافزا قويا وكافيا لازالة الخصائص العنصرية لكل منهما . وهكذا فإن إطلاق تعبير العرب على جميع الشعوب التي تعيش بين فارس ومراكش يشبه إلى حد ما إطلاق تعبير الأوروبيين على مجموعة الشعوب التي تشترك في تراث ديني ثقافي واحد ، وإن اختلفت في خصائصها العنصرية اختلافا كبيرا (١) .

وربما لا يكون البحث في معنى كلمة عربي « أكاديميا » فحسب بل ينطوي أيضا على نواح سياسية مهمة . فلو هاجم بلد عربي بلدا عربيا آخر وغزاه فقد يدعى هذا البلد أن جميع العرب يمتنون إلى أمة واحدة وإن عمله يجب أن يعتبر على هذا الأساس داخليا ومن شئون العرب المحلية لا حق للأمم المتحدة ولا لاية منظمة غير عربية أخرى بالتدخل فيه ، أما إذا اعتبرنا من الناحية الأخرى أن العلاقات بين البلاد العربية تشبه تلك التي تقوم بين شعوب أوروبا الغربية فإن غزو أي بلد عربي لبلد آخر يصبح عدوانا دوليا يفترض من الأمم المتحدة أن تحول دونه ، وهذا مثل آخر ولا ريب على علاقة التاريخ بالشئون الراهنة .

وتكشف قصة الخمسين سنة الأولى من الفتوح العربية بعض المزايا الخاصة التي لا تزال تنطبق على حياة أبناء الجزيرة العربية اليوم، إذ أن هؤلاء ظلوا على حالهم لم يطرأ عليهم أي تبدل منذ أيام النبي ، فهم بما عرف عنهم من صلابة واستقلال ووفرة في الفضائل العسكرية مازالوا يعتمدون على الشجاعة أكثر من اعتمادهم على العلم . ولو أتاحت لهم المستويات نفسها في التدريب والمعدات فقد يضاهون أعظم جنود في

(١) تشبيه سخيف من المؤلف فالشعوب العربية من المحيط إلى الخليج لا تشبه في العلاقات القائمة بينها الشعوب الأوروبية كما يقول المؤلف ، وإنما تشبه ما يقوم بين الشعب الأوروبي الواحد كالألماني مثلا أو الإنجليزي من صلاتات وأرباطات . وعرب الجزائر مثلا لا يختلفون عن عرب مصر أو عرب العراق إلا كما يختلف البافاريون عن السكسونيين أو البروسيين أو كما يختلف أهل باريس من أهل نورماندى أو ديون أو بريثاني . (المرب)

العالم ، والاسلام أساساً دين الجندية اذ أنه انبثق عن هذا الشعب المحارب الصلب ومع ذلك فان الشعوب الباقية الناطقة بالعربية حتى يومنا هذا تختلف اختلافا جوهريا في خصائصها العسكرية بحيث يستحيل التصميم بالنسبة اليهم كما يحاول البعض أن يفعلوا .

ومن خصائص ابن الجزيرة العربية البارزة أيضا صراحته ونظرته المستقيمة الى الحياة ، وحديثه بسيط ومباشر لا يتضمن التفخيم أو تعابير الكياسة المنمقة . فالعدو عدو بالنسبة اليه ، وهو يميل الى معاملته على مقاييس العنف البدني ولا ريب في أن السوريين واللبنانيين واليونانيين يختلفون عنه أوسع اختلاف اذ انهم يعتمدون على الادراك والمجاملة والدهاء وهم يميلون بدافع الغريزة الى الخلاص من أعدائهم بأساليب أكثر التواء من مجرد الضرب على الرأس بفأس أو بآلة حادة . ولما كانوا يعيشون في عالم يتنازع بالفكر والادراك فانهم لا يميلون الى قبول أية حلول معدة وغير مصقولة بدلا من الحلول الصحيحة نظريا للمشاكل التي يواجهونها ، ولعل هذه الأمثلة القليلة كافية لايضاح هذه الخصائص العنصرية المختلفة أحيانا والمتعارضة تعارضا عموديا أحيانا أخرى والتي تميز الشعوب المختلفة التي تشترك في لغة عربية واحدة ودين اسلامي واحد (١) .

وتستحق العلاقات بين الاسلام والمسيحية في هذه الايام شيئا من التعليق . ولقد سبق للنبي أن أعلن أن اليهودية والمسيحية والاسلام ديانات ثلاث مرتبطة بعضها ببعض ولو درسنا كل واحدة منها على حدة لتبين لنا أن ما بينها من خلافات عميق كل العمق . ولكننا اذا قارناها مع الهندوكية البوذية أو الالحادية الشيعية فانها تبدو على سبيل المقارنة مترابطة بعضها مع بعض ، ولكن هناك كثيرين يعتبرون الاسلام والمسيحية دينين متنافسين أشد التنافس واني لا اعتقد أن هذا الرأي الخاطئ يستمد جدوره من الاسباب السياسية لا الدوافع الدينية .

ولقد سبق لي أن أوضحت أن الفساحتين العرب الأوائل اعتبرا بيلنطة عدوهم الرئيسي الاول . ولقد اتجهت حروب المسلمين في الفتوح اللاحقة في شمالي أفريقية والأندلس وفي الحروب الصليبية وغزو

(١) أنا لا اعتقد أن الأمثلة التي ضربها المؤلف كالمية لا فتاح أي انسان بوجود خلافات كالتى يشير اليها المؤلف بين العرب الذين يصر على تسميتهم بالشعوب الناطقة بالعربية ، لهم أمثلة واحدة لا تنطوي على أية قوى اقتصادية نامية بما فيها من تضليل ،
(العرب)

الأتراك العثمانيين للبلقان ومعاركهم الطويلة المستمرة مع روسيا القيصرية لمحاربة للمسيحيين ، أما الصراعات بين المسلمين والهندوس في الهند فكانت على نطاق أضيق . كما أن المسلمين لم يشتركوا في حروب ضد اليهود الا فيما ندر في الماضي ، وفي الأربعين سنة الأخيرة في فلسطين (١) .

ولا ريب في أن هذه المنافسة الطويلة بين النصارى والمسلمين ترجع الى الاحداث السياسية العارضة والمصادفات الجغرافية أكثر من رجوعها الى خلافات دينية أساسية . أما وقد شرعت الاحادية المادية اليوم في تحدى القيم الروحية فان في وسع الديانتين الكبيرتين أن تشتركا معا في محاربة أولئك الذين ينكرون وجود الله كلية ، وانى لاعتقد بوجود مجال فسيح للتعاون بين الديانتين .



وقد عاد العالم الناطق بالعربية بعد أربعة قرون من حياة الظلام والنسيان الى مسرح التاريخ يؤدي دوره ، وأرى أن من واجبنا ومن مصلحتنا أيضا أن ندرس دراسة متعمقة تاريخ هذه المجموعة من الأقوام وعقليتها ولا سيما أن لهذه المجموعة سجلا تاريخيا مملوءا بالامجاد والقضائل .

ثم الكتاب

(١) يحاول المؤلف هنا جريا على ما ألفناه من الاستعمار البريطاني طيلة وجوده في فلسطين أن يصور النزاع في فلسطين على أنه نزاع ديني بين العرب واليهود وهي الصورة التي ضللت العرب مدة طويلة وخدمت مصالح الاستعمار ومكنته من أن يقيم قاعدته اسرائيل في قلب الوطن العربي مع أن مشكلة فلسطين مشكلة استعمارية لا طائفية ولا شأن للدين فيها ، فهي صراع من أجل التحرر بين العرب والاستعمار الذي خلق اسرائيل ومازال يدمم وجودها حتى اليوم .

(العرب)

الأحداث التاريخية

سنة

٥٧٠	ولادة النبي محمد
٥٧٠	عام القيل وهجوم الاحباش على مكة
٥٧٤	احتلال الفرس لليمن
٥٨١	الروم يلقون دولة الفساسنة في الشام
٥٩٥	زواج النبي بخديجة
٦٠٢	كسرى الفرس يغزو امبراطورية الروم
٦٠٢	الفرس يلقون دولة المناذرة في الحيرة
٦١٠	هرقل يعلن امبراطورا
٦١٠	نزول الوحي على محمد
٦٢٢	هجرة النبي الى المدينة
٦٢٢	ابحار هرقل من القسطنطينية لتطويق مؤخرة الفرس
٦٢٤	معركة بدر
٦٢٥	معركة أحد
٦٢٧	حصار المدينة ومعركة الخندق
٦٢٨	اغتيال كسرى - الصلح بين الروم والفرس
٦٢٨	صلح الحديبية
٦٢٩	معركة مؤتة
٦٣٠	فتح مكة
٦٣٢	وفاة النبي
٦٣٢ - ٦٣٣	حروب الردة
٦٣٢	يزدجر يعتلي عرش الاكاسرة
٦٣٣	احتلال الحيرة
٦٣٤ - ٦٣٣	غزو فلسطين والأردن
٦٣٤	مسيرة خالد عبر الصحراء
٦٣٤	معركة بابل في العراق

٦٣٤	معركة اجنادين في فلسطين
٦٣٤	وفاة ابي بكر
٦٣٤	معركة اليرموك الاولى
٦٣٤	معركة الجسر في العراق
٦٣٥	فتح دمشق
٦٣٥	معركة البويب في العراق
٦٣٦	معركة اليرموك الثانية
٦٣٧	معركة القادسية
٦٣٨	احتلال المدائن
٦٣٩	تمصير الكوفة
٦٤٠	غزو مصر
٦٤١	موت هرقل
٦٤١	استسلام حصن بابلليون
٦٤٢	فتح الاسكندرية
٦٤٢	معركة نهاوند
٦٤٤	اغتيال عمر بن الخطاب
٦٤٩	فتح قبرص
٦٥٢	موت يزدجرد
٦٥٦	مقتل عثمان
٦٥٦	معركة الجمل
٦٥٧	معركة صفين
٦٦١	اغتيال علي
٦٧٠	تمصير القيروان
٦٧٧- ٦٧٠	حصار القسطنطينية
٦٨٠	وفاة معاوية

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم العرب	٥
مقدمة	١١
ايضاح للمؤلف	١٩
الجاهلية	٢٣
قريش	٤٩
دلو البئر	٧٧
الردة	١٥٧
سوقية القرصان	١٨٧
بداية الانتصارات	٢١٥
المعركة تتأرجح	٢٣٧
اليرموك	٢٦١
القادسية والمدائن	٢٨٣
تثبيت الاقدام	٣١٣
بابل العظيمة	٣٣٩
استسلام مصر	٣٥٩
فتح الفتوح	٣٨١
أبو لؤلؤة	٤٠٤
عثمان	٤٢١
النار تحت الرماد	٤٤٧
الحكم لله	٤٦٩
الهرطقة والخلافات	٥٠١
العودة الى الفتح	٥٢٥
ذيل	٥٥٣
الاحداث التاريخية	٥٦٧

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

بين مقاولى القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة عملية انشاء
المركز الثقافى والاجتماعى والمتحف والمكتبة بالاسماعيلية
ويمكن الحصول على مستندات العملية بالحضور شخصيا الى
مقر الهيئة بالاسماعيلية - الادارة الهندسية (المشروعات)
وذلك نظير دفع مبلغ ثلاثين جنيها .

وتقدم العطاءات باسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس
(الادارة الهندسية) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من
ظهر يوم الاثنين ٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٦٣ مصحوبة بتأمين
ابتدائى قدره خمسة آلاف جنيه ولن يلتفت الى أى عطاء يقدم
بعد هذا الموعد أو غير مصحوب بالتأمين الابتدائى المذكور .



الدار القومية للطباعة والنشر
« فرع الساحل »

THE GREAT ARAB CONQUESTS

JOHN BAGOT GLUBB

المجلد ٨٤

العدد ٦٥ قرش

